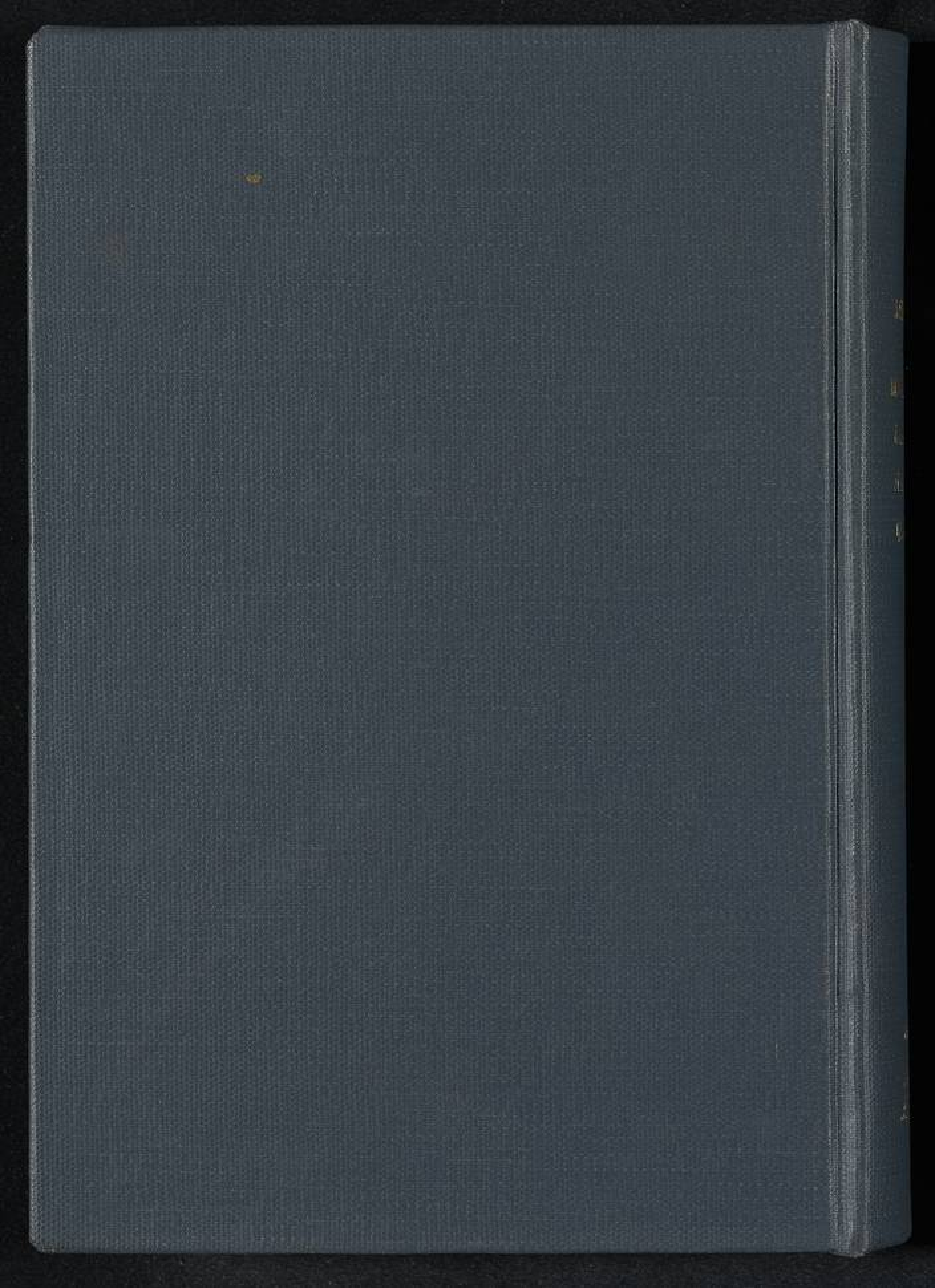
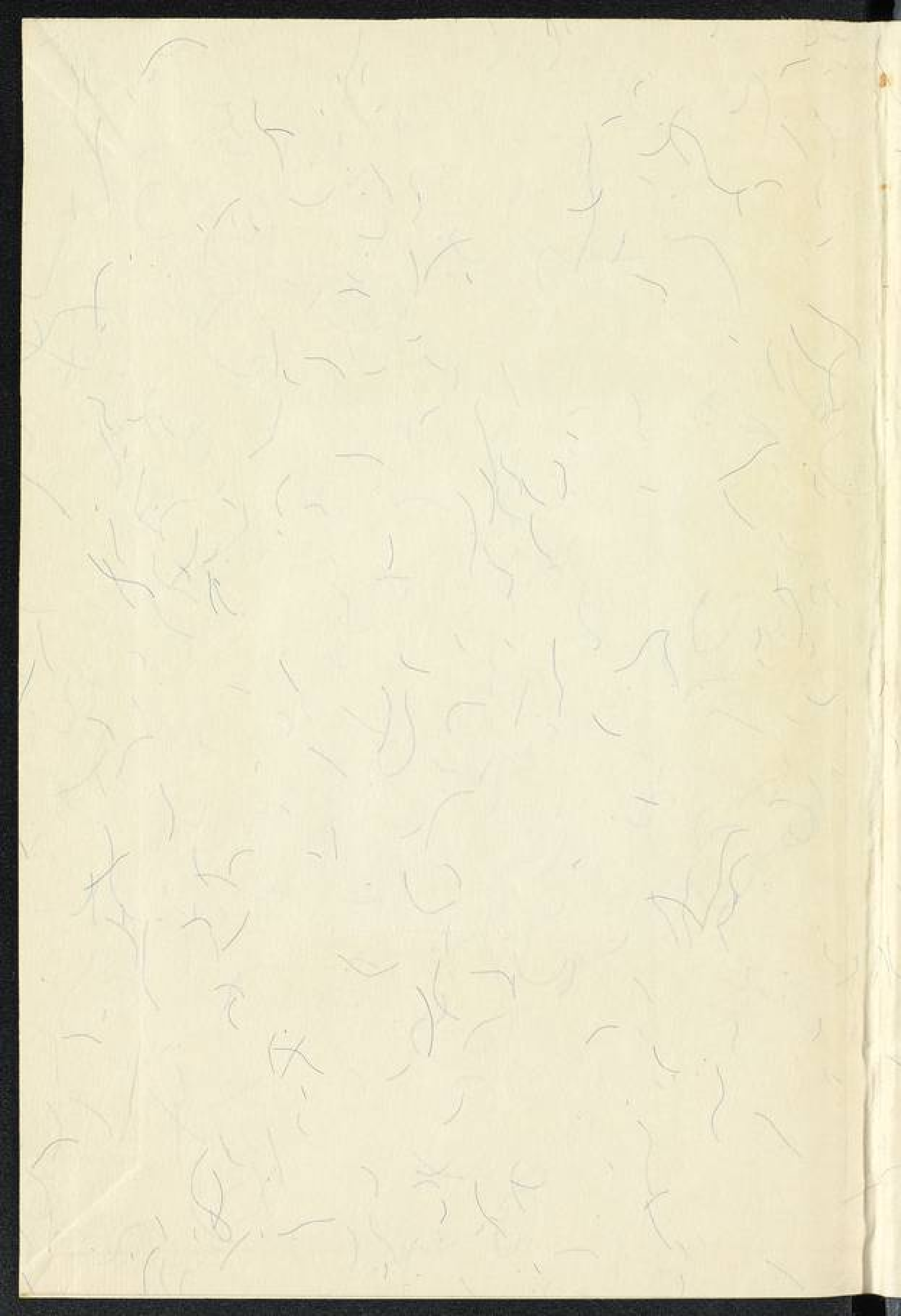
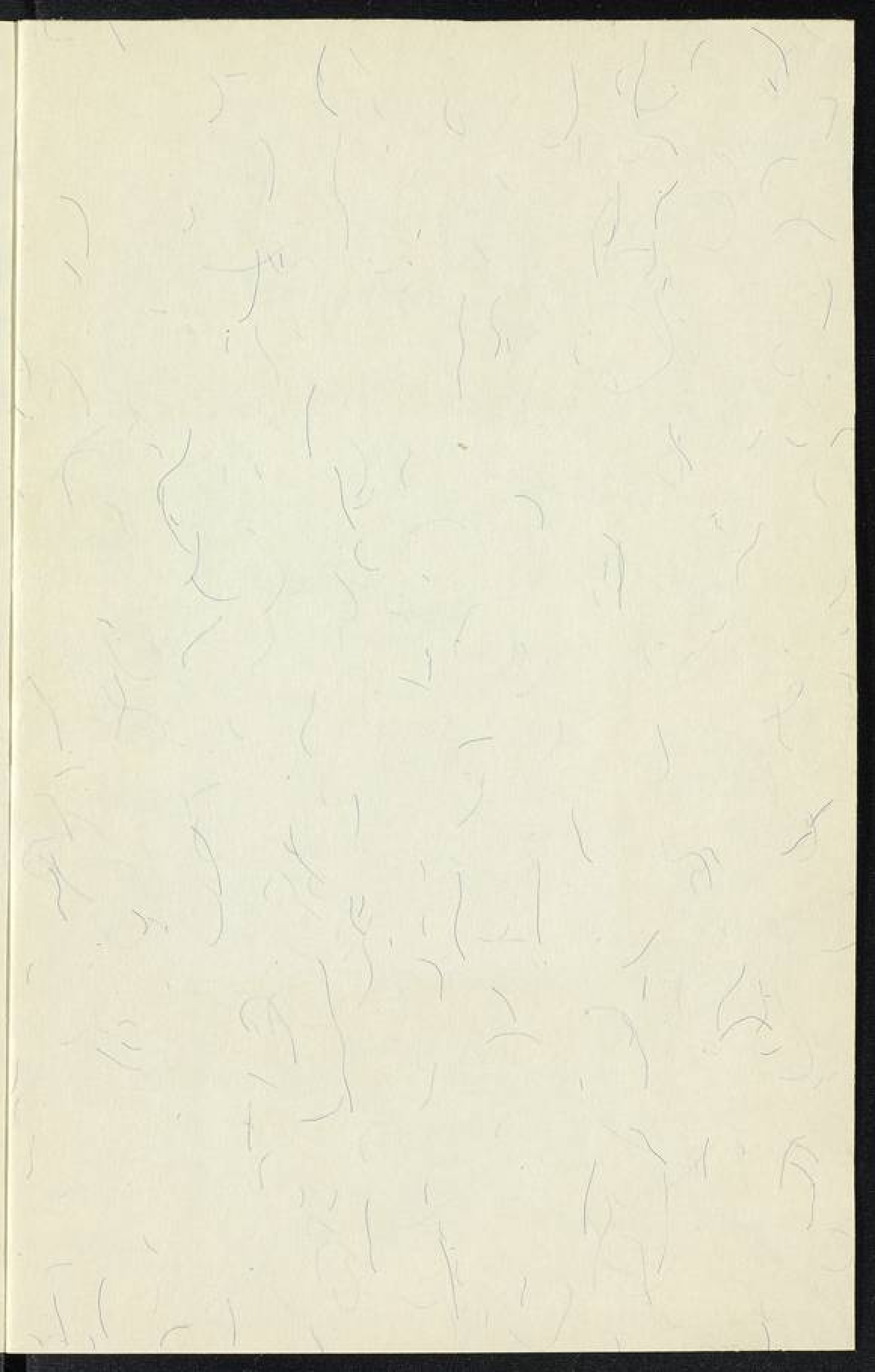
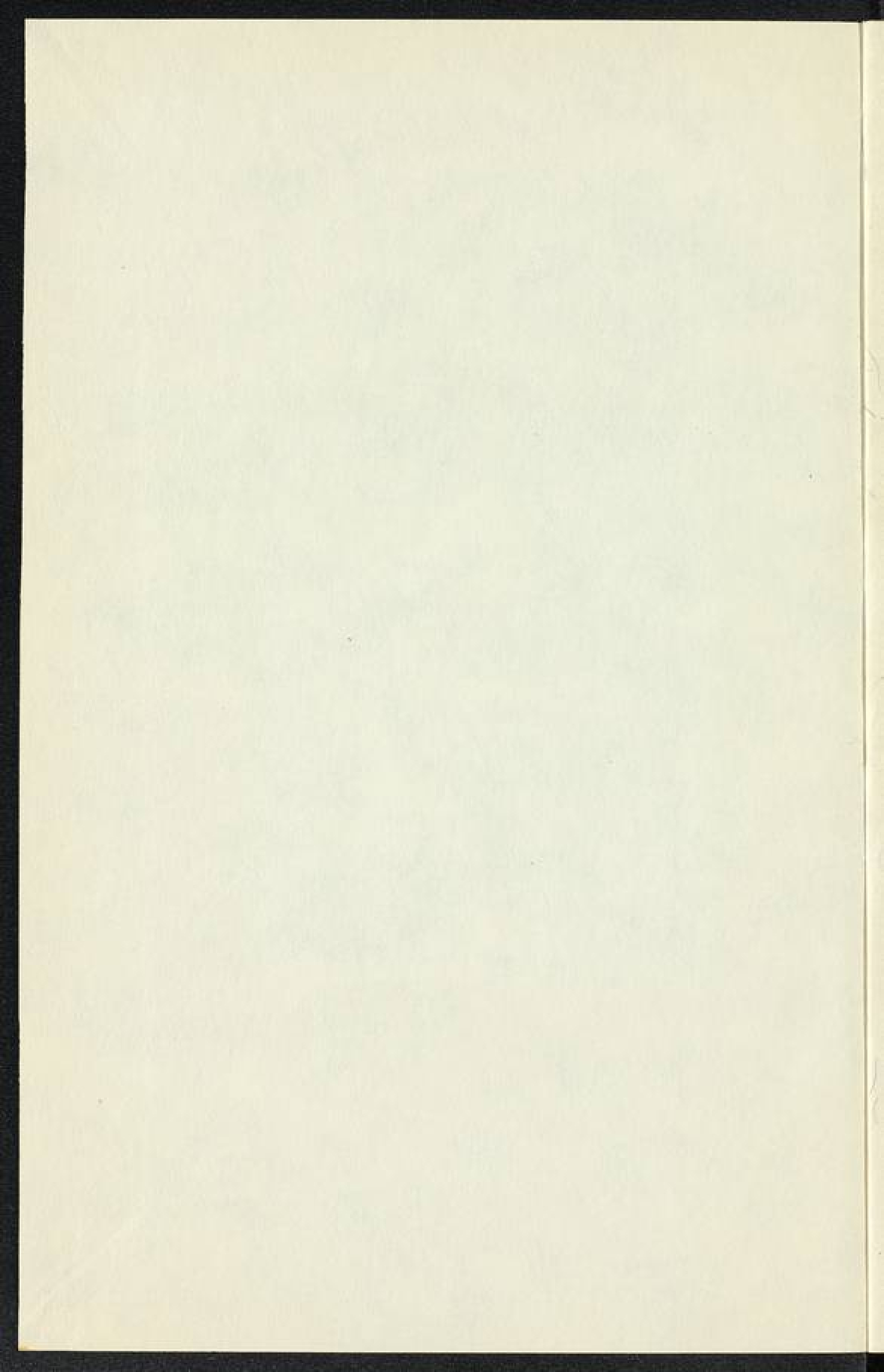
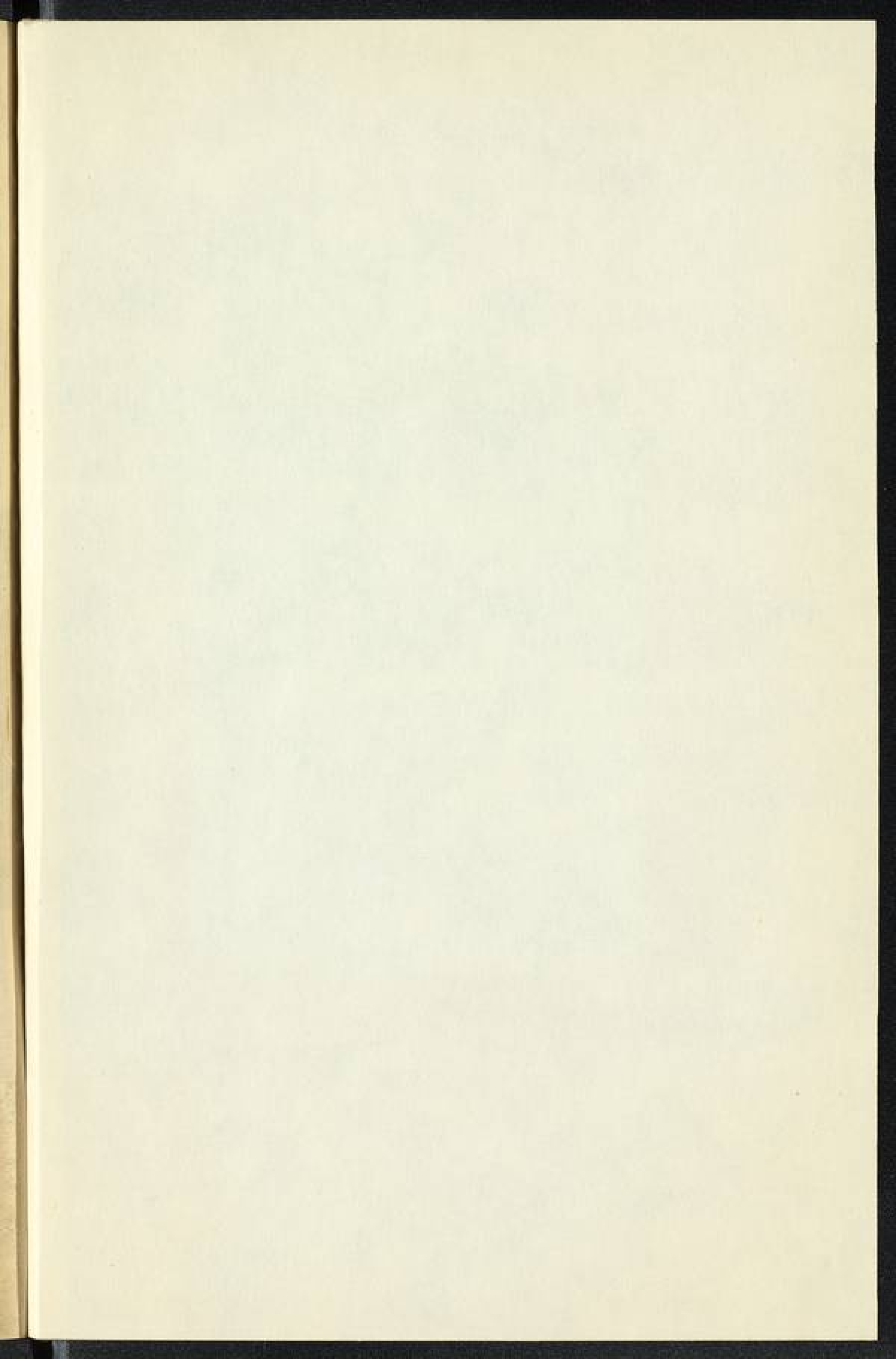










# مذكراتي في نصف قرن

بقلم




## الحاج احمد شفيق باشا

رئيس الديوان الخديوى ووكيل الجامعة المصرية الأهلية سابقا
وخريج مدرسة العلوم السياسية وكلية الحقوق بباريس


## الجزء الأول

من سنة ١٨٧٣ الى ٨ يناير سنة ١٨٩٢




الطبعة الأولى

مطبعة مصر . شركة مساهمة مصرية

سنة ١٣٥٢ هـ . — سنة ١٩٣٤ م .

# مؤلفات صاحب هذه المذكرات

الرق فى الاسلام — باللغة الفرنسية

ترجمة الرق فى الاسلام — « العربية لحضرة صاحب السعادة احمد زكى باشا

« « « « — « التركية بمعرفة جريدة اقدام بالاستانة

(وقد نفدت هذه الكتب)

قناة السويس — باللغة العربية و به خريطة وصور وثمنه ٥ قروش

مصر الحديثة ونفوذ الأجنبي فيها — « الفرنسية وبه كثير من الصور والخرائط وثمنه ٢٥ قرشاً

## حوليات مصر السياسية فى عشرة أجزاء

جزء (١) فذلكة من محمد على إلى نشوب الحرب . الحماية وتولية السلطان حسين . تأليف الوفد ونفى سعد وصحبه إلى مالطة . ثورة ١٩١٩ . اطلاق سراح سعد وصحبه وسفرهم لباريس . لجنة ملنر ومقاطعتها . مفاوضات سعد وملنر . الاعتداءات . (٨٧٢ ص وثمنه ٥٠ قرشا)

جزء (٢) الاتحاد المقدس . انقسام الوفد . سعد وعدلى يختلفان . المظاهرات وقمعها بالقوة . الوفد الرسمى بلندرة واخفاقه . سعد وصحبه فى سيشل . اعتقال أعضاء اللجنة المركزية للوفد . ثروت واللنبى . (٩٢٧ص وثمنه ٣٠ قرشا)

جزء (٣) تصريح ٢٨ فبراير ورجوع المنفيين . لجنة تحضير الدستور . تعويض الموظفين الأجانب . تأليف حزب الأحرار الدستوريين . (٧٣٤ ص وثمنه ٣٠ قرشا)

جزء (٤) الانتخابات . وزارة سعد . الخلافة . البرلمان . السودان . الاعتداء على سعد . مفاوضات سعد مع مكدونالد . مقتل السردار . الانذار البريطانى حل البرلمان . (٦١١ ص وثمنه ٣٠ قرشا)

جزء (٥) الوفد والعرش . تأليف حزب الاتحاد . اخلاء السودان . الانتخابات الثانية . افتتاح البرلمان وحله . استقالة اللنبى . النضال بين الأحزاب .

( تابع مؤلفات صاحب هذه المذكرات )

الحكم فى قضية مقتل السردار . محاكمة الشيخ على عبد الرازق . الدعوة إلى عقد مؤتمر وطنى عام . تسليم جغبوب لايطاليا (١١٠٤ص وثمنه ٤٠ قرشا)

جزء ( ٦ ) الأحزاب المؤتلفة . الانتخابات الثالثة . عدلى يخلف زيور . عيد الجهاد الوطنى ( ٧٠٦ ص وثمنه ٣٠ قرشا )

جزء ( ٧ ) القضية المصرية والأحزاب . ثروت يخلف عدلى . زيارة جلاله الملك رسمياً لايطاليا وفرنسا وانجلترا و بلچيكا . مفاوضة ثروت وتشمبرلن . وفاة سعد . افتتاح البرلمان . الامتيازات الأجنبية . (٧٨٢ص وثمنه ٣٠ قرشا)

جزء ( ٨ ) ملك الأفغان فى مصر . أعمال البرلمان . ولى عهد إيطاليا فى مصر . النحاس يخلف ثروت . حالة الائتلاف بين الأحزاب . مشروع اتفاق ثروت مع انجلترا . وفاة حسين رشدى . النزاع الحزبى . محمد محمود يخلف النحاس . تعطيل البرلمان . النحاس فى الأقاليم . مشروعات الرى الكبرى فى مصر والسودان . وفاة ثروت . النضال بين الوفد والوزارة محاكمة النحاس . ( ١٥٢٦ ص وثمنه ٥٠ قرشا )

جزء ( ٩ ) الاتفاق على مياه النيل . زيارة جلالة الملك لألمانيا وفرنسا وسويسرا وانجلترا . مفاوضات محمد محمود وهندرسون . تفتيش بيت الأمة . عدلى يخلف محمد محمود . عود الحياة النيابية . الانتخابات الرابعة . ( ١٦٠٠ ص وثمنه ٥٠ قرشا )

جزء (١٠) النحاس يخلف عدلى . افتتاح البرلمان وأعماله . مفاوضات النحاس وهندرسون . اسماعيل صدقى يخلف النحاس . تأجيل البرلمان . موقف الانجليز . تغيير الدستور وقانون الانتخابات . تأليف حزب الشعب . ( ١٦٠٠ ص وثمنه ٥٠ قرشا )

و بهذه الأجزاء زهاء ١٥٠٠ صورة وتتضمن الخطب والمحادثات السياسية وتعليقات الصحف على اختلاف نزعاتها فهى دائرة معارف سياسية جامعة

# فهـــــرس

## الجزء الأول من مذكراتى فى نصف قرن



---

٥ هذه العلامة تدل على الفكاهة

الفصل الثالث — الحياة الداخلية فى قصور اسماعيل ص ٨١



---

الفصل الرابع — الخديو توفيق من ١٨٧٩ الى مبدأ ١٨٩٢ ص ٨٧



---

الفصل الخامس — الثورة العرابية (١) ص ١٠٧

---

## البـــاب الثانى

---



---

---

سويسرا ٤١٤ نيوهاوزن والشلال وقصر لوفن — لوسرن — معبد جيلومتل — اكسن اشتراسي جبل ريجي كلم — حظيرة الدببة — برج الساعة والاثنى عشر حواريا — توزيع اللبن بعربات تجرها الكلاب — كاف دوجرينة — تون وقصر تيفرنج العتيق — انترلاكن — وادي جرندلفالد ومضيق لوتشين وصوت المدفع الخشبي المربع — المغارة المثلجة — تسلق جبل الثلج — وادي لوتربرونن وشلال تروملباخ المهيب — شلال اشتوباخ — بريانز — شلال جيسباخ — برونك — الرجوع إلى لوسرن — أسد لوسرن الأثري — كوبري دولان بيل الخشبي مع البرج )

ايطاليا ص ٤٢٧ — نفق سان جوتارد العجيب — ميلانو — كنيستها الكبرى — مقبرتها ومحل احراق الجثث — جالري فكتور عمانويل — الكتب الخطية العربية في مكتبة ميلانو — ميدان لاسكالا والتياترو — جنوه — خريطة واقعة ليبانتو — مقبرة جنوه وتماثيلها — بيزا — البرج المائل — روما — كنيسة القديس بطرس الفخمة — الفاتيكان والصور الجميلة — كنيسة صليب بيت المقدس — الكولوزيوم والحكم على المجرمين بمصارعة الأسود — الفوروم الروماني — منتزه بنشو والساعة التي تدار بالماء — نابلي وبومبي — السوق العام والتياترو الصغير الشعبيين — آثار الحجاب بيت نيرون وصور الفحش وحارة للدعارة — زيارة لدومرتينو باشا في كاستللا مار — مدام دومارتينو تتنبأ بصيرورة المؤلف ناظر ديوان — تسلق جبل بركان فيزوف — جزيرة كابري وكهف الزرقة — نبيذ فيزوف الصغير وما عمله في رؤوسنا — فلورنسا — مركز مهم للفنون الجميلة وبها متاحف كثيرة — فينيسيا — شوارع مائية تتخلل المدينة وزوارقها « جوندول » تستعمل بدل العربات — قصر الدوقات وجسر التنهدات — سلسلة غليظة أخذها الفينيقيون من الأتراك الحمام المستأنس — جزيرة ليدو وحماماتها البحرية — الترسانة ومتحفها وأعلام تركية غنمت في واقعة ليبانتو )

فينا ص ٤٤٨ ( جبال السمرنج الجميلة — زفة الشنابجية )

بودابست ص ٤٥٠ ( سفر المؤلف مع جمال باشا اليها — شارع اندراسي الجميل — جولة فندق هنجاريا وعزفها أدوار تركية — زاوية الولي جلبابا التركية في بودا — سباق الزوارق في الدانوب — رجوع البرنسين من الرومانيا الى فينا )

فينا ص ٤٥١ ( رجوعنا اليها — حادثة محتال — سراي المتاحف — شارع رنج — اشتاد بارك )

براج ص ٤٥٢ ( مصانعها وتجارتها — كوبري كارل وكوبري فرنسوا جوزيف — شوارعها ودار بلديتها — متاحفها )

درسد ص ٤٥٤ ( كباريها وحدائقها وميادينها وشوارعها ومبانيها الفخمة — متاحفها الكثيرة — خيمة الوزير الأكبر قرا مصطفى والقناع الحربي لنابليون — مجموعة ثمينة من الأواني الخزفية صناعة دول مختلفة وخصوصا ساكسونيا — قاعة بها تحف مرصعة بالأحجار الكريمة — سويس ساكسون — التياترو الملوكي الجميل )

برلين ص ٤٥٦ ( شارع أونتردين ليدن الجميل « الزيزفون » وهو أهم شوارعها — حديقة الأسماك سراي الكونت ريدرن وبها رسومات وتماثيل جميلة — السوق الامبراطوري — متحف بانوبتيكوم وبه صور من الشمع من بينها صورة السلطان عبدالحميد خان بملابسه الرسمية — متحف الأسلحة — باب براندبورج الشامخ — حديقة النباتات — ميدان لوشجارتن وتمثال فريدريك

---

---

# البـــــاب الثالث

---

# فهرست الأعلام

## التى ورد ذكرها بالجزء الاول

# فهرست الصور

الموجودة بالجزء الأول



النجمة تدل على الصور الرمزية

## لفت نظر

١ – وقعت أخطاء مطبعيـة أثبتنا صحتها فى جدول خاص نرجو مراعاته قبل الشروع فى القراءة

٢ – الألقاب الموضوعة بين قوسين نالها أصحابها بعـد الحوادث التى عرضناها فى المذكرات

٣ – حافظنا على ذكر بعض الـكلمات التى كانت متداولة فى عصر تدوين المذكرات

٤ – كلمة « خديو » دائماً من غير ياء إلا اذا كانت صفة أو نسبة أو نحوهما

***

يتقبل المؤلف الملاحظات بإخلاص وشكر ويسره أن يعرف الآراء مهما كانت فى هذه المذكرات

بمناسبة الاحتفال بالعيد السبعينى لحياة المؤلف تفضل المغفور له أمير الشعراء احمد شوقى بك فأتاب صديقه الأديب الكبير اسعاف بك النشاشيبى من أعلام الأدب العربى بالقدس فى القاء هذه القصيدة :

طلع الشرق علينـــا    من سماء المهرجان
هو فى روض شفيق    معنا يهدى التهـــانى
وكما راق بنيـــه    راقه طيب المكان
أنت يا أحمـــد فى    مصر جبرتى الأوان
أنت قربت لنـــا    أمس وما كان بدان
قد نسينـــاه وما    مر به من حدثان
إن سبعين تقضت    لم تكن غير ثوان
هى كاللحظة إن قيـ    ـست إلى عمر الزمان
أنت فيهـــا غارس    مثلك فى العشرين بانى
لم تزدنا كل يوم    غير آثار حسان

احمد شوقى

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

---

# اهداء

**الى مصر ...**

الوطن الذى فيه نشأت وإياه أحببت وله أخلصت ووفيت أقدم هذه المذكرات لأشهد أبناء الجيل الحاضر صفحة من أعمال الجيل الغابر فى غير تزييف ولا التواء وما أخشى غير الله وهو حسبى

احمد شفيق

# مقدمة

اليوم أقدم لهذا الجيل ، ثم الأجيال المقبلة من بعده ، صفحة من تاريخ مصر ، فى حقبة من الزمن ، لم أشأ أن أطوى الحياة فيها سدى ، وأن أشهد حوادثها تجرى سراعا ، دون اثباتها وتسجيل أدوارها ، وما أدركت من وقائعها . فقيدت شواردها فى بطون هذه المذكرات ، التى شغل تدوينها فراغا عزيزاً من حياتى ، وأودعتها سجلا حافلا لمجرى الحوادث والشئون فى هذا العهد ، وكثيراً من خواصه وذكرياته .

ولقد قدر الغربيون المذكرات قدرها ، فاعتبروها فرضاً على الجيل القائم نحو الأجيال المقبلة ، وناحية هامة فى تدوين التاريخ ، وجزءاً متمما له ، ربما كان أصدق أجزائه . ذلك أنها سجل للحوادث يتتبع سيرها الطبيعى ، فيقيدها كما وقعت وشوهدت دون رأى أو تعليق خاص ، ودون شهوة أو غاية شخصية . فاذا ذهب ذلك العهد وتعاقبت عليه السنون ، ألفى التاريخ الحق فى هذه المذكرات مادة نفيسة تؤمن شواهدها ودلائلها ، وأمكن استخراج الحوادث من بطونها غضة نقية من شوائب الغرض والهوى .

ولقد دفعتنى الى تدوين هذه المذكرات عوامل كثيرة ، كان بعضها كامنا فى نفسى ، والبعض الآخر هيأته الظروف التى أحاطت بى . وكل عامل منها يكفى بذاته لأن يدفعنى الى تسطيرها . فلما اجتمعت زاد الاهتمام بها فى نفسى ، ولا سيما أننى كنت أشعر منذ الحداثة بشغف قوى الى تدوين مذكرات يومية عن دراستى وأحوالى ، وما أستطيع إدراكه ومشاهدته . وكان طبيعياً لانسان فطر على هذا الميل أن يهوى التاريخ وأن يشغف به . ولذا كانت دراسته ومطالعته أحب الأشياء الى نفسى ، إذ كانت تلقى فيها أهبة لاستيعابها ، خصوصاً بعد ان درست العلوم السياسية فى باريس . وقد دفعنى الى دراستها شعور وطنى يتصل بلا ريب بمجرى الحوادث الخطيرة التى كانت تتعاقب يومئذ على مصر .

ولعلها حكمة لم أدركها ، وان كنت أعتقد أنها كانت أكبر عامل فى تغذية ميولى وتفتح غرائزى ، أن هيأ لى القدر السعيد أن أكون منذ نشأتى الأولى قريباً من ولى الأمر فى البلاد ، وأن أتاح لى أن أكون موضع عطف خديوى ، ثم موضع ثقة خديوى ،

وأن أقف بطبيعة الحال على مجرى الحوادث ومصادرها ، ومبعث أطوارها وتقلباتها ، متدرجا فى ذلك من عهد الفتوة الى عهد الكهولة وكلما انقضى عام بل شهر تفتحت لى من الحوادث أبواب ، واستطعت أن أستخلص منها صحفاً جلية فى شئون مصر وأحوالها .

ولم يكن ليثنيني عن تدوين هذه المذكرات عمل ولا لهو ، وما كانت مشاغلى الخاصة لتحول بينى وبينها ، بعد أن غدت جزءاً لا يتجزأ من برنامج حياتى . فكنت أدونها أثناء الدراسة بين كد الدرس والمذاكرة ، ولا أفتر عن تقييدها أثناء أسفارى خارج مصر سواء للمهام أو الرياضة . ذلك أن تدوينها كان فى ذاته سلوى لى ، لأنه يتصل بعامل خفى فى نفسى ، هو الشغف بتسطيرها ثم استجناء مسرة استعراضها ، وما آنسه فى ذلك من لذة معنوية .

وقد جرت العادة ألا ينشر مثل هذه المذكرات إلا بعد وفاة صاحبها . وربما يلوح غريباً أن أتولى بنفسى نشر مذكراتى . بيد انى خشيت تناثرها بعد وفاتى ، أو نشرها مشوهة مبتورة . ثم إن فيها ما يتعلق بشخصيات ما زالت على قيد الحياة ، فاذا نشرت اليوم كان ثمة مجال لفحصها ونقدها إن كان محل للنقد . كما أنه كان من الشجاعة الأدبية أن تنشر مذكرات فى حياة مدونها فيحتمل — وهو على قيد الحياة — كل تبعة فيما تسجل من الحوادث والشئون

هذا ولست أدعى أنى أقدم بهذه المذكرات مادة كافية لصوغ تاريخ مصر الحديث فى العهد الأخير ، فان هذه المادة تتكون أيضاً من نواح كثيرة أخرى ، ومن وثائق رسمية شتى غير ما دونت ، ومذكرات لرجال قاموا فى حوادث هذا العهد بأدوار خطيرة ، وكان لهم أثر يذكر فى سيرها وتطوراتها . ولكن الذى أستطيع أن أدعيه هو انى أقدم بمذكراتى شطراً من هذه المادة ، مؤكداً للقارىء انى تحريت فى تدوينها أقصى ما وسعت من الدقة والتحقيق والصدق . فان جاءت روايتى ، فى واقعة ما ، غير مطابقة لما قد يتبين من تمحيص الروايات والوثائق المختلفة عن تلك الواقعة بذاتها ، فلست أدعى العصمة . ولكننى أترك للقارىء أن يقدر مبلغ إخلاصى فى تدوينها ، وتحرىَّ من كل غاية فى تسجيلها

وتقع هذه المذكرات فى ثلاثة أجزاء ، الجزء الأول : من أواخر عصر « **اسماعيل** » إلى وفاة « **توفيق** » . والثانى : عهد « **عباس الثانى** » خاتم الخديويين . والثالث : « **عباس الثانى** » والحرب العظمى

وتتضمن جميع هـذه الأجزاء صوراً كثيرة ، فيها النادر والذى لم يسبق نشره ، للأشخاص والمناظر ، حقيقية ورمزية ، للمناسبات التى تتحدث عنها المذكرات . سواء كانت مناسبات تاريخية ، أو شخصية ذكرت لطرافتها ودفع السأم والملل عن القارىء المتقصى . ولعلى أكون قد أرضيت قرائى . أما الحق والواجب فانى أشعر باطمئنان ضميرى من ناحيتهما . والله ولى التوفيق

احمد شفيق

# تمهيد

## نشأتى وحياتى الأولى

من سنة ١٨٦٠ الى سنة ١٨٨٥

مولدى ونشأتى . عهد التلمذة . التعليم الاولى . رعاية ولى العهد للتلاميذ
مدرسة المبتديان . حفلات المسرح المدرج . أول اضراب فى مدرسة أميرية
مدرسة القبة . بدء الحياة العملية . وظائفى الاولى . توظفى بالمعية حادث فى الديوان

— ١ —

### عهد الطفولة والحداثة

أستميح القارىء عذراً اذ أبدأ هذه المذكرات بكلمة موجزة عن نشأتى وحياتى . لست أعنى بالكلام عن حياتى أنى أبالغ فى تقديرها أو تقدير أثرها فى تاريخ العهد الذى أكتب عنه . ولست أقصد أن أنتهز فرصة نشر مذكراتى عن الحوادث العامة ، لأثبت خلالها أدوار حياتى الخاصة . فانى أبعد ما أكون عن هذا المعنى وتلك النية . وصادق رأيى واعتقادى هو أن خير مذكرات يقدمها الانسان عن حياته ، هى أعماله وليس ما يقوله عن نفسه .

ولكننى أفتتح بهذه النبذة عن نفسى ، لأكشف بها عن عوامل تكوينى ، وعن خواص البيئة التى نشأت فيها . ولكى أقدم للقارىء بعض صور صادقة من الحياة الاجتماعية التى تقلبت فى أدوارها منذ الحداثة . فقد آثرت — بدلا من أن أحاول وصف هذه الحياة وصفاً مجملا عاما — أن أستعرضها كما وقعت أمام نظرى ، وكما تأثرت بها نفسى ومشاعرى . فأصدق الصور ما شهد الانسان وتأمله بنفسه ، وعنى برسمه وقت مثوله ورويته ، وتحرى فى عرضه ما وسع من الدقة والتحقيق . وهذا الاعتبار وحده هو الذى شجعنى على أن أتقدم الى القارىء بما دونت عن نفسى فى مذكراتى .



والدتي

**مولدى ونشأتى** ولدت فى ١٨ مايو سنة ١٨٦٠ م بمنزل والدى حسن موسى بشارع اللبودية(١) قرب السيدة زينب. وقد شغل والدى عدة وظائف هامة فى أيام سعيد،

(١) يبتدئ شارع اللبودية من ميدان السيدة زينب حتى أول شارع درب الجماميز محاذياً لجزء من شارع الخليج المصرى

واسماعيل، وتوفيق .منها : باشكاتب مديرية الشرقية، ورئيس قلم الدعاوى بمعية (ديوان) سعيد باشا، ونائب قلم التحرير العربى بالداخليـة، ورئيس قلم مراجعة الحسابات بالمالية، ثم رئيس قلم الادارة بها . واستقال من هـذه الوظيفة بسبب عدم موافقته على سياسة اسماعيل باشا صديق (المفتش) ناظر المالية اذ ذاك . ثم تقلد وظيفة باشكاتب بيت المال، ثم وظيفة مفتش بالحقانية . ثم مأمور مالية الدقهلية . وهى آخر وظيفة تقلدها فى عهد الخديو توفيق . وتوفى وهو يشغل هذه الوظيفة فى مايو سنة ١٨٨٣ م ولم يترك ثروة كبـيرة، خلافا لما كان يعتقد نظراً لأهمية الوظائف التى كان يشغلها .

**التعليم الاولى** أما والدتى فهى شركسية الأصل من معاتيق السيد على البكرى، وقد عنيت بتربيتى ،فأرسلتنى فى سن لا أدركها الى كتاب أمام منزلنا . ثم انتقلت منه الى مكتب على افندى التركى ـ وكان أمام منزل مرعشلى باشا بحارة التمساح فى حى عابدين ـ فمكثت به مدة انتقلت بعدها الى مكتب مصطفى فاضل باشا أمام جامع بشتك بشارع درب الجماميز ــ وكان يحفظ فيه القرآن الكريم، وتعلم اللغتان العربية والتركية . وكان ناظره تركيا مثقفا يسمى ثابت افندى . وكان من زملائى السابقين بهذا المكتب بطرس غالى (باشا) . ولأسرته علاقة قديمة بأسرة مصطفى فاضل باشا .

وأذكر بهـذه المناسبة أنه كان يصرف للتلاميذ فى آخر شهر رمضان من كل سنة ملابس كاملة على نفقة الأمير مصطفى فاضل باشا .

وكان من المتبع أيضاً أن بعض إدارات الأوقاف الخيرية تصرف لتلاميذ المكاتب الأهلية هدايا فى أواخر هذا الشهر، كالكساوى من الشاهى والبفتة والجوارب والأحذية الحمراء [١] ويطوف التـلاميذ بقيـادة مدرسيهم بالشوارع وبأيديهم أو على أكتافهم الهدايا التى وزعت عليهم، ويرتلون بعض أناشـيد تشتمل على دعوات طيبـة لأصحاب هذه المبرات .

**رعاية ولى العهد للتلاميذ — مدرسة المبتديان** ومن هذا المكتب انتقلت الى مدرسة المبتديان ( ومكانها الآن المدرسة السنية ) فى بعثة أرسلها ولى العهد توفيق باشـا، تتألف من عشرين تلميذاً من أبناء الموظفين فى دائرته، وكان من بينهم عمى محمد افندى موسى، يتعلمون على نفقة سموه . وكان شديد العناية بهؤلاء التلاميذ . من ذلك أنه كان يدعونا للنزهة يوم الجمعة بسراى القبـة، وهناك نتنـاول طعام الغداء ونمثل بين

(١) «المراكيب» .

يديه فيسألنا عن دروسنا ومبلغ تقدمنا فيها ، وينفحنا بقراطيس من الفضة الجديدة .

**المجذاف ! المجذاف !** وقد وقعت لنا فى إحدى هذه الزيارات حادثة ظريفة لابأس من ذكرها : تلك انه كانت فى الحديقة بحيرة بها عوامة جعلت محلا للبط ، فخطر لنا أن نطوف بهذه العوامة فى البحيرة ، واستعنا على ذلك بساق شجرة اتخذناه مجذافا ، وبدأنا بأن وثب أحدنا إلى طرف من العوامة ، ووثب آخر إلى الطرف الثانى ، فتوازنا . ثم تكررت هذه العملية حتى بقى واحد منا وحده فوثب إلى أحد الطرفين ، وعندئذ بدأت العوامة تميل فى الماء وراح التلاميذ يقفزون عنها فيبتلون . وكنت أنا الأخير فى ذلك ، وقد أخذت العوامة تغوص ، فصحت : المجذاف ! المجذاف ! . . فلم يجبنى أحد إلا بالضحك . وأخيراً وثبت بدورى فابتلت ملابسى كالآخرين .




المجذاف المجذاف

عندئذ أخذنا نفكر فى كيفية مقابلة ولى العهد ونحن على هذه الحال، حين يطلبنا، ولم نجد وسيلة إلا أن نلجأ إلى المطبخ نجفف فيه ملابسنا . . . ثم علمنا أن الخبر قد بلغه فضحك، ولم يطلبنا لمقابلته مكتفياً بما نالنا من البلل والحيرة.

**حفلات الامتحانات العمومية:** ومكثت بمدرسة المبتديان سنتين ، وفى نهايتهما انتدبت لتمثيل المدرسة بحفلة الامتحان العمومى التى كانت تعقد بالمسرح المدرج «الانفياترو» فى نظارة المعارف بسراى مصطفى فاضل باشا [1] بشارع درب الجماميز . وكانت تعقد تحت رياسة ولى العهد ، ويتقدم اليها فئة من تلاميذ كل مدرسة ، [2] يجلسون على المدرج، ويجلس المدعون أمامه فى فناء بينه وبين المنصة . وكان الطالب الممتحن يعتلى المنصة ويلقى خطبة ثم يجيب عن عدة أسئلة توجه اليه ، وبعد الاجابة يصفق الحاضرون له وتعزف الموسيقى . وكنت ـ حينما مثلت مدرسة المبتديان ـ بالسنة الثانية ـ وهى التى قبل النهائية ـ ومع ذلك وقع الاختيار على لصغر سنى وتقدمى فى الدراسة .

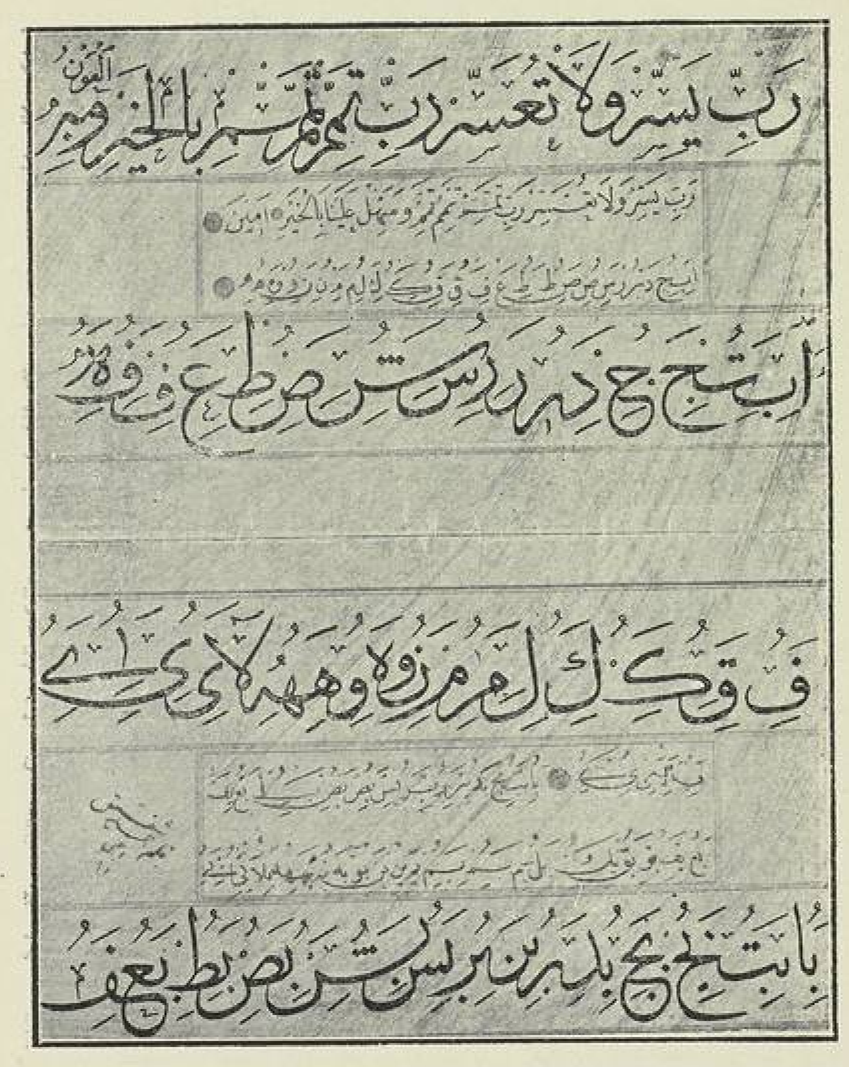
**علامات الاعراب** ! واتفق لى بتلك المناسبة حادث فكه : ذلك أن تعليم اللغة العربية فى هذا العهد كان عقيما ، وكان الطلبة ضعافاً فيها ، وكان أستاذنا فى العربية هو الشيخ السمنى ، فخاف أن أخطىء فى الاعراب ، واتفق معى على اصطلاحات تتلخص فى أنه حينما يضم لحيته بيده يكون ذلك علامة على ضم الكلمة ، وحين يضع يده تحت ذقنه يكون الكسر واجباً ، وأما الفتح فعلامته وضع يده فوق جبهته . ولكنى لم أحتج لهذه الاصطلاحات والحمدلله .

ولما نزلت من المدرج وزعت نماذج من الخطوط والرسوم التى أعددتها . وكان من نصيب توفيق باشا صورة مأخوذة عن كف كبير من الجبس . فضحك وقال : « أنت تستاهل كف من هذه اليد !! »

---

(١) وكانت هذه السراى تضم إلى نظارة المعارف المدارس الآتية : التجهيزية . المهندسخانة . المساحة والمحاسبة . الألسن والادارة . ومكانها الآن مدرسة المعلمين العليا ( القسم الأدبى ) والمدرسة الخديوية

(٢) كان يمثل فى هذا الامتحان المدارس التى بسراى فاضل باشا ومدرسة المبتديان




وهذا نموذج من خطى كثال لما كانت عليه الخطوط فى دور التعليم يومئذ

**أول اضراب فى مدرسة أميرية** وأورد أيضاً من ذكريات مدرسة المبتديان حادثا طريفاً آخر : ذلك أن الخديوى اسماعيل ـ حينما عاد من الأستانة سنة ١٨٧٣ ومعه فرمان الامتيازات احتفل باستقباله فى الاسكندرية احتفالا فخما ، وكان من نظام هذا الاستقبال نصب تمثال محمد على فى وسط الميدان الذى سمى باسمه فى حى المنشية . وكذلك أقيمت الزينات مدة ثلاث ليال بمدينة القاهرة . وفى أول يوم من أيام الزينة رغب التلاميذ فى

الخروج من المدرسة لمشاهدتها . وكان الناظر هو أحمد بك عبيد الطهطاوى، أحد زملاء رفاعه بك فى بعثة محمد على . وكان ضليعاً فى الفرنسية محباً للاطلاع ، وكثيراً ما شاهدناه أثناء ( الفسح ) وبيده كتاب يقرؤه فى فناء المدرسة . وكانت له جاموسة يحتلبها ليتغذى بلبنها .

أبى هذا الناظر علينا أن نخرج لمشاهدة الزينات كما رغبنا . وتقدمنا بالرجاء للضباط فلم يفلح الرجاء . فلجأنا الى الاضراب وامتنعنا عن الذهاب الى الفصول رغم ارادة الضباط . ولما يئسنا من إجابة الطلب قرأينا على الهتاف بهذه العبارة تحديا للناظر : « جاموسة طهطاوى ، تتكلم بالفرنساوى » وما هى الا لحظة حتى دوى هذا الهتاف فى المدرسة . فبهت الناظر وأسرع بتبليغ الحادث لنظارة المعارف . فسمحت لنا بالخروج وكنا نحو ثمانمائة تلميذ .

**مدرسة القبة** ثم غادرت المبتديان الى المدرسة التجهيزية . فبقيت بها عاما آخر . ثم أنشأ ولى العهد توفيق باشا مدرسة القبة ، على مقربة من السراى ، وأمر بأن ينقل اليها تلاميذ البعثة الذين كانوا فى مدرسة المبتديان . وكنت حينئذ فى التجهيزية . وعند طلب المصروفات الخاصة بى من الدائرة أرسل لى سموه يخيرنى بين البقاء بمدرستى والانتقال لمدرسة القبة . ففضلت الانتقال . وبقيت بمدرسة القبة حتى إتمام دراستى .

**جوعوا تصحوا** ومن الفكاهات التى تحضرنى عن هذا العهد أنه كان لى زميل يدعى محمد مختار [1] ، وكان مكثراً من أكل اللحم ، حتى أنه كان يحظى بنصيبين ، كما كنت أنا مكثراً من أكل الخبز ، مما دعا ولى العهد أن يسميه «الانجليزى» ويسمينى «الفرنساوى» .

وقد نصح أستاذ اللغة العربية لمختار ألا يسرف فى الأكل مذكراً أياه بالحديث : « جوعوا تصحوا » فعمل بالنصيحة . ولما جاء ولى العهد يزورنا كعادته لاحظ أن مختار يقل من الأكل خلافا لعادته . فسأله عما اذا كان مريضاً فأجابه بالنفى وأردف : « جوعوا تصحوا » ثم أخبر سموه بالأمر فضحك لجوابه .

**رعاية ولى العهد للتلاميذ** وكان توفيق باشا ، كعهده . شديد العناية بتلاميذ مدرسة القبة ، حتى أنه كان يذوق الطعام قبل أن يقدم اليهم ليتأكد من جودته . ولا تزال فى ذهنى صورته وهو يجلس القرفصاء أمام « القروانة » ليذوق الطعام

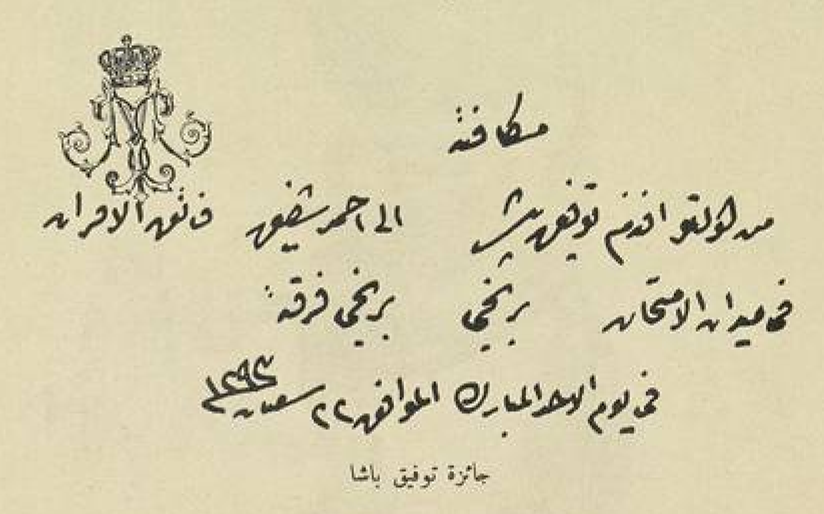
---

(١) هو المرحوم محمد بك مختار الطوبجى



توفيق باشا يذوق الطعام

وكانت تقام بالمدرسة حفلة سنوية لتوزيع الجوائز على المتفوقين . وقد نلت جائزة هى كتاب « تاريخ الهند » فى ثلاثة مجلدات ضخمة باللغة الانجليزية (١) ومعها رقعة عليها شعار ولى العهد تحت كلمة الاهداء بخط يده وهذه صورتها .


مكافئة

الى احمد شفيق

في نهاية الامتحان

جائزة توفيق باشا

---

(١) كنت أتعلم اللغة الفرنسية بالمدارس الأميرية فلما انتقلت الي مدرسة القبة لم أرتح لمدرس الفرنسية بها نظراً لضعفه فاخترت تعلم اللغة الانجليزية في هذه السنة

وأذكر أنى كنت متفوقا فى الرسم بهذه المدرسة وهذا نموذج من رسمى :



## — ٢ —

# حياتى العملية

**وظائفى الاولى : معيد بمدرسة القبة** بعد تخرجى من مدرسة القبة عينت معيداً [١] بها بمرتب قدره مائة قرش وبعد شهر زيد الى مائتين .

فى أثناء وجودى فيها زارها ولى العهد مع حرمه ، فقمت — نظراً لصغر سنى — بسؤال التلاميذ أمامهما مكان الأساتذة . وكانت توزع على التلاميذ قراطيس من النقود الذهبية الصغيرة عند خروجهما من كل فصل وبعد أن لعب التلاميذ أمامهما « الجباز » وسرا كثيراً مما رأيا وسمعا . كانت مكافأتى منهما خمسة قراطيس .

**مبيض بالقلم الافرنجى بالداخلية** وفى أثناء قيامى بهذه الوظيفة صدر الأمر بتعيينى فى وظيفة «مبيض» بقلم افرنجى نظارة الداخلية بمرتب قدره ستمائة قرش ، كانت تصرف لى من جيب ناظر الداخلية ، وهو فى هذا الوقت ولى العهد توفيق باشا . ولكنى لم أمكث بهذه الوظيفة سوى ثلاثة أشهر أرسلنى بعدها ناظر الداخلية الى نظارة الزراعة [٢] التى شكلت فى ذلك الوقت لكى أعين فى احدى وظائفها . وكان أغلب موظفيها من الانجليز ، وكنت ضعيفاً فى اللغة الانجليزية فلم أوفق لهذه الغاية .

**كاتب ثانى تركى بالدفترخانة** وخلت اذ ذاك وظيفة ( كاتب ثانى تركى ) فى الدفترخانة المصرية بالقلعة ، ولمعرفتى باللغة التركية أمر ناظر الداخلية بالحاقى بها فى ٤ يوليو سنة ١٨٧٧ فمكثت بها الى ديسمبر من السنة نفسها .

وكان يلذ لى ان أتصفح بعض سجلات الأوامر التى كانت تصدر فى عهد محمد على باللغة التركية ، فأجد فيها كثيراً من عبارات الزجر والوعيد صيغت فى بساطة متناهية ، مما لا يلائم وقار الأوامر الرسمية وخطورتها ، فصارت أقرب ما يكون الى الأوامر الشفهية المؤقتة .

**مرتبات عينية** وفى المدة ، التى شغلت فيها تلك الوظيفة ، لم أتسلم شيئاً من مرتبى

---

(١) مدرس مبتدئ

(٢) ألغيت هذه النظارة عند اشتداد الأزمة المالية اتباعا لخطة الاقتصاد

بسبب العسر المالى الذى كان سائداً على البلاد يومئذ مما كان يضطر الحكومة أن تصرف بدل المرتبات أشياء عينية، كالمواشى والمحاصيل والكتب، فأخذت بدل راتبى كتباً من المطبعة الأميرية.

**المجلس الخصوصى بالداخلية** وفى أول يناير سنة ١٨٧٨ جاء الأمر بنقلى الى المجلس الخصوصى بنظارة الداخلية بنفس مرتبى، فسررت كثيراً لهذا النقل، إذ كنت أشبه بسجين فى الدفترخانة رغم هوائها الطلق. وكان هذا المجلس بمثابة محكمة عليا أعضاؤها من كبار رؤساء المصالح. وكان الباشكاتب، محمد بك الأزهرى، يحرر المضابط بقرارات المجلس فى المسائل الهامة التى تعرض عليه وأنسخ بعضها، نظراً لجودة خطى.

**فكاهة: «فوائد طبية!!»** وقد وقع لى أثناء وجودى بهذا المجلس حادث أرويه على علته:

كان لى زميل مهذار وكان يعلم عنى شدة ميلى الى القراءة واقتناء الكتب الجدية ونفورى من كتب المجانة. فأرشدنى ذات يوم الى كتاب لم أكن قد سمعت باسمه: «رجوع الشيخ الى صباه!!».

وفى اليوم التالى ذهبت الى صديق الشيخ محمد النجار الكتبى. وكان أديبا لبقا أصدر حينا جريدة «الأرغول»

سألته عن «رجوع الشيخ» وهل يوجد بمكتبته. وما كدت أسمى الكتاب حتى ضحك، فاستغرق فى الضحك وأخذ يهز رأسه ويضرب ركبتيه بكفيه قائلا: «يا ليت يا ليت!!» فاندهشت لما أبداه من حركات ولم يزل عجبى حتى قام الشيخ فجاء بالكتاب وسرحت فيه طرفى فاذا به يحوى حيلا شيطانية لا فوائد طبية!!

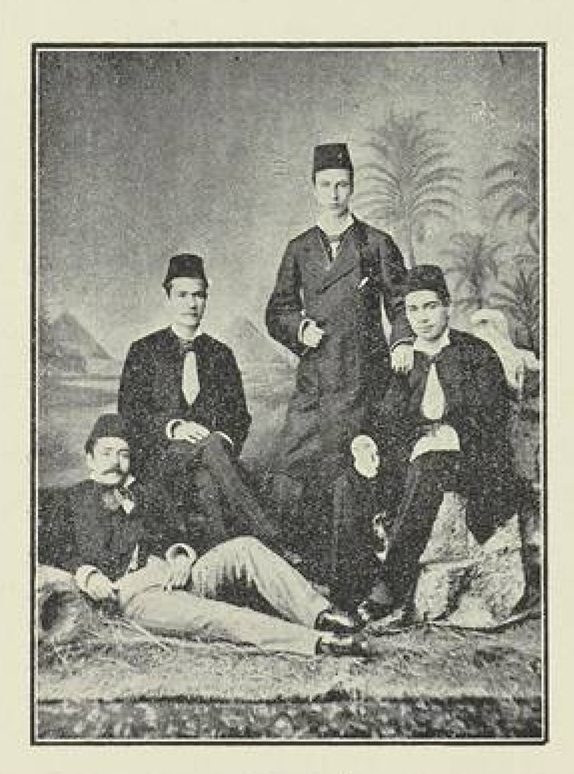
قابلت زميلى فى اليوم التالى فأشبعته على نصحه لعنات تلقاها باسما ضاحكا هو ومن كان معنا من الاخوان

**كاتب بالدائرة التوفيقية** ولكن هذا المجلس ألغى فى آخر يوليو فى نفس العام اتباعا لخطة الاقتصاد ففصلت بالاستغناء وبقيت خاليا مدة شهر أغسطس. ثم عينت بالدائرة التوفيقية من أول سبتمبر بوظيفة كاتب حسابات بنفس مرتبى.

ولما لم أكن أعرف الحساب القبطى المعروف باسم « سورة الفدان » فقد اضطررت لحفظ الجدول الخاص به والتمرن على مسائله .

**نزول الاسرة الخديوية عن أملاكها** ولما اشتد العسر المالى وتقرر تنازل الأسرة الخديوية عن أملاكها ، كان أول من نفذ هذا القرار هو ولى العهد توفيق باشا فتنازل عن تفاتيشه وتقرر الاستغناء عن كثير من الموظفين بها ، وكنت ضمن الذين استغنى عنهم فى ٢١ ابريل سنة ١٨٧٩

**معاون بالخاصة** وبقيت خالياً من ٢٢ ابريل لغاية آخر يونيو سنة ١٨٧٩ حيث عينت — بعد ارتقاء ولى العهد للأريكة الخديوية — فى وظيفة معاون بالخاصة بمرتب قدره ستمائة قرش من أول يوليو سنة ١٨٧٩



أصدقائى بالخاصة

من اليمين الى اليسار شفيق وتوفيق افندى ومحمد راشد افندى والمضطجع محمود فهمى افندى

**مبيض بقلم افرنجى المعية** وفى أول يناير سنة ١٨٨٠ صدر الأمر بتعيينى بقلم افرنجى المعية فى وظيفة « مبيض » بمرتب قدره سبعمائة قرش صاغ . وبعد سنة زيد مرتبى ثلثمائة قرش لابلاغه الى عشرة جنيهات . وكان القلم الافرنجى مؤلفا من رئيس فرنسى هو مسيو جودار ( باشا ) وكاتب المحفوظات مسيو اودان ، وهو فرنسى أيضا ، واحمد ذى الفقار ( باشا ) وسعيد ذى الفقار ( باشا ) ، نجـــلى على ذى الفقار باشا « السر تشريفاتى » ، وموسى افندى عصمت ، شقيق فخرى باشا

**أول مدرسة ليلية أهلية** وقد أوصى توفيق باشا مسيو أودان أن يدربنا على الأعمـال . ولـكنه تعلل بضيق الوقت .

ولمناسبة وجودنا بهذا القلم — وكل أعماله باللغة الفرنسية — رغبت فى اجادة هذه اللغة . فأخذت أنا وبعض اخوانى ، ومنهم الشيخ محمد النجار ، وعبد الله وهبى المهندس ( باشا ) فى اعداد مدرسة ليليـة . واخترنا لها مكانا فى ربع أمام مسجد السلطان شاه بشارع غيط العـدة . وعهد بتعليم اللغة العربيـة فيها الى الاسـتاذين الشيخ محمد عبده والشيخ النجار ، واللغة الفرنسية لحبالين افندى الموظف بنظارة الخارجية ، واللغة الانجليزية لجرجس افندى ملطى المدرس بالمدارس الأميرية

وقد لقى مشروعنا اقبـالا ، ووفد على المدرسة كثير من الطلاب حتى بلغ عددهم مائة وعشرين . واستمر التعليم بها حتى كانت الثورة العرابية — التى سيأتى ذكرها — فتناقص عـــدد الطلاب واضطربت شئون المدرسة ، وضعفت مواردها ، وانتهى الأمر باغلاقهـا .

**انتقام فـلام ! !** وأذكر حادثا وقع اثناء وجودنا بالقلم الأفرنكى ، اتخذ فى المبدأ صبغة خطيرة ولـكنه انتهى الى مداعبة فكهة : ذلك ان زميلنا موسى عصمت كان شغوفا بالراح ، وكان عصبى المزاج ، وكثيراً ما كان يتأخر عن العمل فيناقشه مسيو أودان فى ذلك ويعتذر هـــو بمختلف المعاذير ، ويضيق صدره لهذه المحاسبة ، ويعتبرها مضايقة لا مسوغ لها .



موسى عصمت أودان بك

وحدث مرة ان تغيب من يوم خميس الى يوم احد ، فلما رآه مسيو اودان يوم الاثنين سأله دهشا لطول غيابه ، فاعتذر عن يوم الخميس بأنه كان مريضا، وعن الجمعة بأنه يوم عطلة عامة للمسلمين، وعن السبت بأن اسمه موسى فجدير به ان يغيب فى هذا اليوم، وعن الأحد بأنه يعمل فى قلم افرنجى

وطال امر هذه المحاسبة حتى ضاق موسى ذرعا ، واعتزم الانتقام من مسيواودان لاعتقاده انه يحاول الاعتداء على حريته المشروعة !

فى ذات يوم اسرف عمداً فى الشراب حتى تحضره الجرأة لأتيان ما اضمر فى نفسه، وحضر صباحا الى الديوان محمر العينين لكثرة ما شرب ، وقد ارتدى بذلة ورباط رقبة سوداوين . فلما شاهدناه على هذه الحال سألناه عن سر هذا الانقلاب فأجابنا : « انه قد اعتزم ان يكون اليوم هو آخر الأيام بينه وبين مسيو اودان، وانه اخذ للأمر عدته فكتب وصيته فى المنزل » . وقد رأيناه يحمل مسدسا

فحاولنا تهدئة أعصابه ، ولكنه اندفع مسرعا إلى مكتب مسيو أودان — وكان

ضيقاً لا يكاد يسع ما فيه من ادراج المحفوظات — فلما رآه على هذه الحال المنكرة ذعر وسأله عن السبب، فصاح به أنه قرر أن يسوى اليوم حسابه معه بعد أن ضيق عليه أنفاسه ونغص حياته. ثم أخرج مسدسه فجأة وصوبه نحوه فما كان من مسيو أودان — وكان طويل القامة — إلا أن انبطح تحت مكتبه مستغيثاً طالباً العفو من مهاجمه. ولكن عصمت لم يتركه إلا بعد أن أخذ عليه عهداً وثيقاً بألا يتعرض له مرة أخرى !!

٭٭٭

هذا وقد بقيت فى وظيفتى هذه أيام الثورة العرابية . فلما عدنا من الاسكندرية إلى القاهرة بمعية الجناب الخديوى ، كنت بين الذين كوفئوا على ولائهم لسموه أيام الثورة ، فزيد مرتبى إلى عشرين جنيهاً ، ومنحت النيشان المجيدى من الدرجة الرابعة ، والنجمة المصرية التى صيغت بأمر خديوى لتوزيعها على انصاره والذين اخلصوا له إبان الثورة العرابية ، وعلى ضباط وافراد الجيش الانجليزى . وقد عهد إلى بتوزيعها على مقتضى ( الكشوفات ) التى تقدمت بذلك



شفيق وما حازه من النياشين فى صباه

☆☆☆

وفى ١٤ يوليو سنة ١٨٨٥ سافرت إلى اوروبا لاتمام دراستى فى فرنسا، ولم اعد لمصر إلا فى اكتوبر سنة ١٨٨٩

بيد انى قبل الكلام عن هذه الرحلة ومشاهداتها ، ارى ان اتناول حوادث الفترة الخطيرة التى شهدتها مصر منذ اواخر عهد اسماعيل إلى نهاية الثورة العرابية ، وبدء الاحتلال البريطانى . وهى حوادث شاء القدر ان اشهدها عن كثب ، وأن اتمكن من الاطلاع على كثير من وقائعها واسرارها .



# الباب الاول

## الفصل الاول

### الخديوى اسماعيل

**مطامع اسماعيل . اسرافه وبذخه . اصلاحاته الادارية . الأزمة المالية . لجنة التحقيق . مصرع اسماعيل المفتش . النظارة المختلطة . مظاهرة الضباط . سقوط النظارة المختلطة . قانون التصفية . اللائحة الوطنية . عزل اسماعيل**

لم أدرك من عهد الخديوى اسماعيل سوى المرحلة الأخيرة ، فقيدت عن أطوارها وحوادثها مذكرات مستفيضة . ولكن من بواعث الأسف أن فقدت طائفة من هذه المذكرات أثناء الحرب الكبرى ، حين فتش منزلى وأنا مبعد فى أوربا ، كما فقد بعضها فى ظروف أخرى . ولذا فانى أكتفى فى سرد حوادث هذه الفترة بما وعته الذاكرة منها ، مسترشداً فى ضبطها وربطها بما بقى مما قيدت عنها .



الخديوى اسماعيـــل

**مطامع اسماعيل** . كان اسماعيل — مذ تولى ولاية مصر — يطمح الى أن يجعلها قطعة من أوربا ، تقدماً ومدنية وعلماً . كما كان يطمح الى الاستقلال بمصر عن تركيا . وقد أخذ يعمل لتحقيق ذلك بما وسع . غير أنه فيما بذله لترقية البلاد كان أكثر عناية بالمظاهر الخلابة منه بعوامل التقدم الحقيقية . فدارت جهوده بالاخص حول انشاء القصور والحدائق والمتنزهات وتجميل مدينة القاهرة ، باقتباس بعض الأنظمة والمنشئات الباريسية




واجهة قصر الجزيرة

فشيد قصر الجزيرة على مثال قصر الحمراء فى الأندلس وأنشأ بحديقته ( سلاملك ) بديعاً ، وهو المعروف الآن بكازينو الجزيرة

وكان يوجد فى حديقة هذا القصر أيضاً كثير من الحيوانات الكاسرة وغيرها .

ثم قصر الجيزة — ومكانه الآن حديقة الحيوانات .

وقصر الاسماعيلية القريب من قنطرة قصر النيل — ولم يبق منه الآن الا السور الخارجى لأن القصر نفسه قد هدم

وهذا فضلا عن قصر عابدين الرسمى الذى وسع فيه اسماعيل ، وأضاف اليه الجزء القبلى من السراى الذى كان يسكنه اسماعيل باشا صديق ( المفتش )

وشيد كذلك قصوراً أخرى فى الجيزة لأولاده ، وسراى القبة لولى عهده، وقصراً فى مدينة الاسماعيلية أقام فيه الحفلات الفاخرة بمناسبة فتح قناة السويس




المدخل العربى للقصر

وكان يشاع أن أحد الفلكيين نصحه باستمرار البناء مدة توليته حتى لا ينتزع العرش منه .

وكذلك عنى بشق الشوارع ومد أنابيب الغاز والمياه ، حتى يستغنى الأهالى عن الاستسقاء من الخليج أو النيل مباشرة . بواسطة قربة السقاء كما يرى فى صورة السقايين بالصحيفة التالية

وكان للاسكندرية حظ من اصلاحاته فأدخل عليها تجميلات جمة ووسع ميناءها

أما الأقاليم فقد أنشأ فيها كثيراً من الترع والمصارف والسكك الحديدية والتلغرافات وغير ذلك

كذا عنى اسماعيل فى نفس الوقت بانشاء المدارس ونشر التعليم والثقافة، وارسال البعثات العلمية الى أوربا ، وبذل الرعاية لطلاب العلم وتشجيعهم على التحصيل والدرس

٭ ٭ ٭




سقـــايين

وفى أثناء ذلك كان اسماعيل يستميل الباب العالى بمختلف الوسائل، ليحصل منه على امتيازات تخرج بها مصر من شكل ولاية عثمانية الى شكل دولة مستقلة استقلالا داخليا . وقـــد روى لى فى هذا الصدد زميلى فى المعية محمود شكرى ( باشا ) ان الخديوى فى احدى زياراته للاستانة سنة ١٨٧٣ ، دعا السلطان عبد العزيز الى مأدبة أعدها له فى كشك أنشأه بحديقة قصر ميركون ، على ضفة البوسفور ، لاستقبال جلالته . وجمله بجميع أنواع الرياش الفاخرة . واستعملت فى هـــذه المأدبة أوان من الذهب . وعقب المأدبة بعث اسماعيل بهذه الأوانى الذهبيـة هدية الى جلالته ، وقد كان اشتراها خصيصا لهذا الغرض .

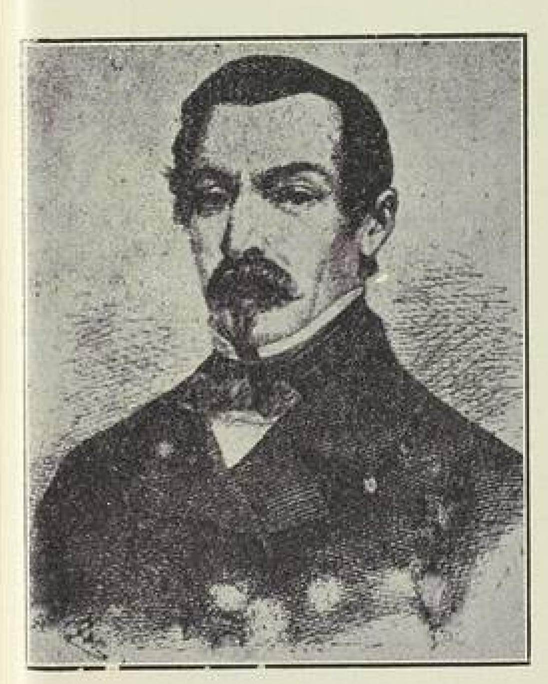
وكذلك استمال الخديوى كثيرا من أكابر رجال الدولة العليـة ليستعين بهم على تحقيق غايته . وقد كان يطمح فى الواقع الى الاستقلال بمصر استقلالا تاما . ويتحين الفرص الملائمة لتحقيق هذا المشروع .

واتجهت همة اسماعيل الى الفتح أيضا ففتح كثيراً من البلاد السودانية ، وبلغت فتوحاته البحيرات الكبرى وبحر الغزال ووصلت الى وادى الكونغو . ثم فكر فى فتح الحبشة ، التى كانت يومئذ كالجزيرة فى وسط أملاكه ، فغزاها وكان يؤمل متى افتتحها أن يعلن نفسه أمبراطورا لأفريقيا . ولكن ذهبت آماله باندحار الجنود المصرية فى هذه المحاولة الجريئة .

**اسراف اسماعيل وبذخه** ولكن من سوء الطالع أن اسماعيل كان آية فى الاسراف ، يبذر المال بغير حساب ويعشق البذخ الطائل . فلقد تأنق ما شاء فى زينة الملك وزخرفه ، وأكثر من تشييد القصور وملأها باسراب الجوارى الحسان وأجزل العطايا والهبات . فكان ثالث ثلاثة من ذوى الفخامة والعظمة والأبهة والاسراف : هم السلطان عبد العزيز ، والامبراطور نابليون الثالث ، واسماعيل خديوى مصر




السلطان عبد العزيز



نابليون الثالث

ومن غريب الاتفاق أن هؤلاء العظماء الثلاثة عاشوا فى عصر واحد تقريباً ، فكان بين سيرهم كثير من وجوه الشبه ، وكانت بينهم رابطة صداقة ومودة . ثم حكم ثلاثتهم مدداً متقاربة وختم كل عهده فى ظروف متشابهة

ومما يروى — صورة واضحة لاسراف اسماعيل وبذخه — أمثلة سمعتها فيما بعد من بارو باشا الفرنسى ، وكان رئيس الديوان الافرنجى فى عهد اسماعيل . من ذلك

ان اسماعيل فى أحدى زياراته لباريس سمع بجمال قصر لأحد اغنياء الباريسيين ، فأظهر لمحدثه رغبة فى مشاهدة هذا القصر هياماً بالفن الجميل . فلما علم صاحبه بذلك بادر بدعوة الخديوى إلى مأدبة أقامها له ، وكانت له فتاة جميلة أعجب بها سموه . وبعد الفراغ من تناول الطعام سأل اسماعيل صاحب القصر عما إذا كان يرغب فى بيعه وعن الثمن الذى يريده فيه . ولم يكن الرجل يود التفريط فى قصره . ففكر فى الخلاص من هذا المأزق بان طلب لقصره ثمناً باهظاً قدره خمسة ملايين فرنك — راجياً ان يحول ذلك دون رغبة الخديوى فى الشراء — ولكن خاب ظنه ، فقد قبل الثمن وأمر باستدعاء كاتب العدل ( المخصص لكتابة العقود ) ليكتب العقد . فسأل عن اسم البائع وقيده . ثم سأل عن اسم المشترى وعندئذ أشار اسماعيل بأصبعه إلى ابنة رب الدار قائلا : « مدموازيل . . . » وبذا عاد لابنة صاحبه وغرم اسماعيل ثمنه الباهظ ! !

وحادث آخر ، هو ان بارو باشا أبلغ اسماعيل ان زوجة أحد الموظفين الفرنسيين بالمالية المصرية قد توفى زوجها وليس له معاش ولا مكافأة كبيرة . وأن حالتها ستسوء من بعده . فأظهر عطفه عليها ، وامر بأن يكتب للمالية بصرف مبلغ الف جنيه لها . ولكنه عاد بعد بقليل فاستدعى بارو باشا وقاده إلى خزانته الخاصة قائلا : « ان الصراف قد احضر لى الآن نقوداً ذهبية ولا ضرورة للكتابة إلى المالية اختصاراً للوقت » ثم أخذ يقبض بيده بضع قبضات متعاقبة من الذهب ويضعها فى منديل بارو باشا . وهو يحسب أنها اكثر مما امر به ظاناً ان ملء قبضته يساوى مبلغاً كبيراً

وذكر لى بارو باشا أيضاً ان الخديوى اسماعيل كان لايقدر للمال قيمة ، ولا يدرك له وزنا . وانه كان حين يقترض بفائدة ما ، لايناقش فى مقدار هذه الفائدة ، ولا يقدر نسبتها بالقياس إلى المبلغ المقترض . وانه بالجملة كان لا يعرف حساب الاموال

وأكبر مثل ضرب به اسماعيل فى هذا الباب يوم تحققت له أمنيته بفتح قناة السويس ، فقد كانت وبقيت هذه الاحتفالات مضرب المثل فى الأبهة المقطوعة النظير مما ، بعث الامبراطورة أوجينى أن تبرق إلى زوجها الامبراطور يوم حفلة الافتتاح تقول له : « وصلت بور سعيد بصحة جيدة . الاستقبال فخم . لم أر فى حيـــاتى ما يماثل ذلك »

وقد أنفق اسماعيل على هذه الاحتفالات مليوناً واربعمائة الف جنيه مصرى



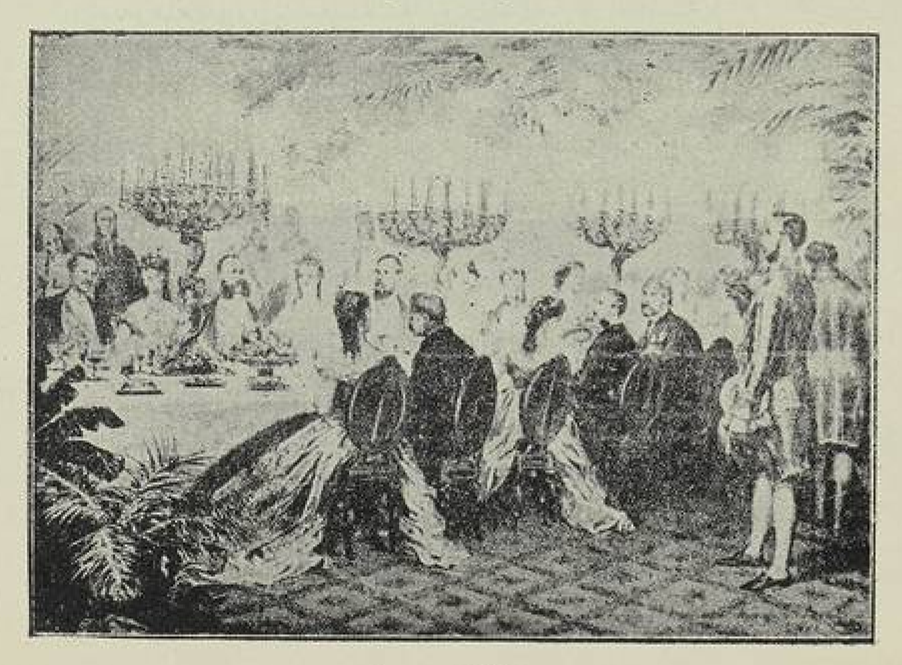

الملــوك الأربعــة

( ١ ) أوجينى امبراطورة فرنسا ( ٢ ) ولى عهد بروسيا

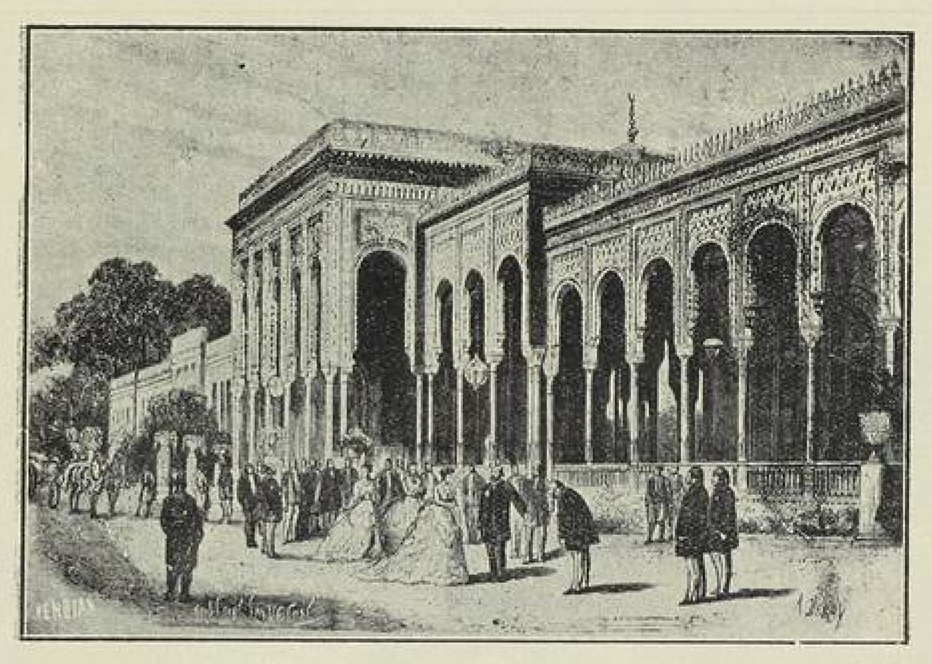
( ٣ ) فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا وملك المجر

( ٤ ) ولى عهد هولاندا ( ٥ ) الأميرة عقيلته

نزهة الملوك



المأدبة الرسمية



الامبراطورة أوجيني تتنزه مع اسماعيل في حديقة قصر الجزيرة أمام السلاملك
أثناء ضيافة اسماعيل لها

**اصلاحاته الادارية** مع ذلك لم يتوان اسماعيل فى الاقــدام على كثير من الاصلاحات الداخلية ، فى الادارة ونظام الحكم

وكان من اهم اصلاحاته انشاء مجالس شورية فى المديريات، وانشاء مجلس النواب .

وقد صدر الامر بانشاء هذا المجلس فى أوائل سنة ١٨٦٦ وجعل من اختصاصاته ان تكون قراراته نافذة فى الشئون المالية والادارية ، واستشارية فى الأمور التشريعية .

وفى ٢٥ نوفمبر من السنة نفسها، افتتح هـذا المجلس وألقى فيه خطاباً موجزاً بين فيه الغرض من انشائه ودعوته

وكان قصد اسماعيل الحقيق من تأليف هذا المجلس التظاهر بأنه حاكم دستورى يشرك الامة معه فى المسئولية، حتى لايبدو بمظهر المتصرف المطلق . وأذكر بهذه المناسبة حكاية رواها لى والدى عن هـذا المجلس : ذلك انه لما اجتمع ودعا السكرتير الاعضاء ان يقسموا انفسهم ثلاثة أقسام :—

الاول — حزب اليمين ويؤيد الحكومة .

والثانى — حزب اليسار وهو المعارض لها .

والثالث — حزب الوسط وهو المعتدل .

لما اقترح السكرتير ذلك لم يكن من اعضاء المجلس الا ان انحازوا جميعا إلى جهة اليمين قائلين : وكيف نكون ضد الحكومة ؟!

**الأزمة المالية** : كانت هذه الأغراض المتعددة . والمشروعات الضخمة . تستدعى طائل النفقات . هذا إلى ما قدمنا من اسراف سموه وبذخه مما أدى إلى كثرة الاقتراض بالربا الفاحش . ووقوع البلاد فى لجة عميقة من الديون والتعهدات . ومما أدى أيضاً إلى إثقال كاهل الأهالى بمختلف الضرائب والجبايات ، لتسديد فوائد الديون المتراكمة ، وللانفاق على المشروعات الكثيرة وسد النفقات الخاصة .

وكان من جراء ذلك أن أصيبت البلاد بالضيق المالى ، وعصفت بها الفاقة ، وبلغ البؤس بالفلاحين أن كانوا ينزلون عن أطيانهم فراراً من الضرائب المتوالية ، رسمية وغير رسمية ، وأن يتظاهر بعضهم بالفقر المدقع فيرتدى الثياب الخلقة ويسير على قدميه بدل الركوب ، خيفة ان يلمح فيه الغنى زبانية الضرائب فيثقلون كاهله بما لا يستطيع

وأقفرت خزائن الحكومة ، فحرم الموظفون من قبض مرتباتهم ثمانية عشر شهراً ، واضطر بعضهم إلى اخذ مقابل مرتباتهم أشياء عينية ـ كما قدمنا ـ واحتاطهم العسر والفاقة

ولما تفاقمت الأزمة وسدت جميع السبل فى وجه اسماعيل ، اضطر إلى بيع أسهم قناة السويس للحكومة الانجليزية لسد بعض هذه المطالب والديون

ومع ذلك فان الأزمة ظلت مستحكمة ، وأخذت تزداد شدة ، لان المحاكم المختلطة التى انشئت بالاتفاق مع الدول سنة ١٨٧٥ ، للفصل فى المنازعات بين المصريين والأجانب ، وبين الأجانب وبعضهم ، جعلت تصدر احكامها تباعا بالحجز على أملاك اسماعيل الخاصة

**لجنة التحقيق** لما بلغ الضيق باسماعيل ذروته لجأ إلى فرنسا وانجلترا ، مبيناً لهما أن سوء الحالة المالية يرجع إلى فداحة الفوائد ، وانه لا بد من تخفيضها وتنظيم دفع الاقساط حتى تنتظم المالية المصرية وتصبح قادرة على السداد .

وقد استقر رأى الدولتين والدول الأخرى ذوات المصالح الخاصة فى ذلك على تكوين لجنة عرفت بلجنة التحقيق، لفحص المالية المصرية . فقبل اسماعيل الرأى على كره منه، وصدر مرسوم بتأليفها فى ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ ونشر فى ٤ ابريل منها. وألفت اللجنة برياسة المسيو دى لسبس [١] . ووكالة كل من :السر ريفرس ولسن ورياض باشا وعضوية مندوبى صندوق الدين الاربعة [٢] . وقد أظهر رياض باشا شجاعة عظيمة فى اجراء التحقيق بطلب سجلات المالية والمناقشة فيها . وكان للجنة حق استجواب أى موظف ، فاستدعى شريف باشا رئيس النظار للحضور ولكنه رفض بأبائه المعروف واستقال . وبعد انتهاء اللجنة من عملها قدمت تقريرها الذى اشارت فيه بوجوب اجراء عدة إصلاحات خاصة بنظام المالية وبالموظفين . وكذلك اشارت بان يتنازل الخديوى واعضاء أسرته عن املاكهم الخصوصية ، فتم ذلك .

**مصرع اسماعيل باشا المفتش** : لما رفض شريف باشا الحضور امام لجنة التحقيق ، طلبت اللجنة حضور اسماعيل باشا صديق المعروف ( بالمفتش ) ناظر المالية لاستجوابه .

وكان أخاً للخديوى من الرضاعة ، وكان صديقه وصفيه وموضع سره . وكان يعلم ان كل ما يهم أميره هو الحصول على المال من اى الطرق . فكان لا يبخل عليه بما يطلب ولا يصده عن تحقيق هذه الغاية امر ، ولا يقف عند اى الوسائل ، مشروعة وغير مشروعة .

فلما وقعت الكارثة واستدعى اسماعيل المفتش امام لجنة التحقيق لاستجوابه ، خاف الخديوى ، ان يذيع نجيه القديم ما بينهما من الاسرار . فكان مصرعه على النحو الآتى :

فى ذات يوم اصطحب الخديوى اسماعيل باشا المفتش معه إلى قصر الجزيرة بحجة التريض . وعند الدخول ذهب سموه إلى جناح الحريم ودخل المفتش إلى حجرة وجد

---

(١) وقد تنحى عن الرياسة بعد ذلك فخلفه السير ريفرس ولسن

(٢) أنشأ اسماعيل صندوق الدين عند استحكام الأزمة المالية تطمينا للدائنين من الأجانب على أموالهم بأن خصص لهم قسم من الايرادات لا تمسه يد الحكومة

بها الامير حسين كامل . وكان هناك مركب بخارى ينتظر تحت السراى بأمر من الخديوى. فسرعان ما انزل المفتش اليه وقد ادرك فى هذه اللحظة ماسيحل به.



اسماعيل باشا صديق ( المفتش )

وفى نفس الوقت كان المجلس المخصوص يجتمع ويقرر نفى اسماعيل صديق باشا إلى دنقله ، بتهمة تدبيره مؤامرة على الخديوى . فأقلع به المركب البخارى فى الحال إلى مقره .

وكثرت الأشاعات بعد ذلك : فمن قائل إن اسماعيل المفتش قتل فى الطريق فلم يصل إلى دنقله ، ومن قائل انه اغتيل فى القاهرة قبل مبارحتها . ولكن الذى علمته انه وصل إلى دنقله وقتل خنقاً بيد اسحق بك الذى كان يرافقه. وقد تمكن اسماعيل المفتش من جز اصبع قاتله .

وعلى كل حال فان الجميع فى مصر كانوا يشعرون شعور الارتياح لذهاب هذا الكابوس الثقيل (١)

**النظارة المختلطة** ولما انتهت لجنة التحقيق من عملها شكلت نظارة مختلطة برياسة نوبار باشا لتنفيذ الاصلاحات التى اوصت بها تلك اللجنة .

وكان من اعضائها السير ريفرس ولسن، ناظراً للمالية ، والموسيو دوبلنير ، ناظراً للاشغال. فبدأت عملها بعقد قرض قدره ثمانية ملايين ونصف مليون من الجنيهات مع

---

(١) لما رأى رياض باشا ما حل باسماعيل صديق خاف ان يغدر به جزاء له على جرائه فى التحقيق فسافر الى اوربا عقب انتهاء اللجنة من عملها



نوبار باشا

بيت روتشيلد بضمانة الاملاك التى تنازل الامراء عنها. (١) وقد تقرر ان يستخدم هذا القرض لتسديد كثير من الديون التى صدرت بها احكام المحاكم المختلطة وغيرها من الديون السائرة، وفى صرف المتأخر من المرتبات المتراكمة للموظفين. أما دين الدائرة السنية وقدره ٨٫٨١٥٫٠٠٠ جنيه فقد جعل ديناً قائماً بذاته يوفىَّ من دخل تلك الدائرة (٢)

وقد سارت تلك النظارة فى مباشرة عملها ولكن بطريقة لم تسفر عما كان ينتظر من صفاء الجو وتحسن الأحوال. بل جاء الامر على النقيض، وقوبلت أعمالها بالسخط والنفور من جميع طبقات الأمة، وعلى الأخص من اسماعيل، اذ استأثرت بالسلطة. فكانت تعقد جلساتها مرتين فى الاسبوع، وتقرر ما تراه من الأوامر، ثم تعرضها على الخديوى لمجرد التوقيع عليها. فعز ذلك على أمير مكث طوال السنين مطلق الحكم نافذ الكلمة، وكبر على نفسه أن ينزل فجأة عن تلك المنزلة العالية الى منزلة المنفذ لقرارات نظارته، دون أن يكون له رأى فيها أو يد فى ادارة الاعمال. فلم يكن غريباً أن يشتد سخطه عليها.

---

(١) يعرف هذا بقرض الدومين

(٢) أملاك الدائرة السنية كانت لاسماعيل باشا وتنازل عنها

كذا أساءت النظارة تنفيذ ما أشارت به لجنة التحقيق من انتقاء الموظفين القادرين، فانتخبتهم جميعاً من الأجانب دون أهل البلاد، وقررت لهم مرتبات فادحة ترتب عليها ان فصل كثير من الموظفين المصريين، وخصوصاً الأصاغر منهم، لكى يستطيع الموظفون الأجانب ان يحصلوا على مرتباتهم الضخمة. ومن ذلك انه لما احتاج الامر إلى انشاء قلم المساحة لتحديد الممتلكات الخديوية، عولت النظارة على استدعاء ثلاثين ضابطاً انجليزياً من الهند لمباشرة هذا العمل، فى حين أنها تجد كفايتها فى الضباط الوطنيين

**مظاهرة الضباط**: وقد تناولت أساليب الأقتصاد والتوفير نفقات الجيش والمدارس الحربية، فاحيل كثيرون من الضباط الى الاستيداع. فساءت حالتهم فوق ما كانت عليه من قبل، بسبب التأخر فى صرف مرتباتهم ثمانية عشر شهرا. واشتد سخطهم حينما علموا باستدعاء الضباط الانجليز من الهند، وجاهروا باستيائهم حتى اضطر راتب باشا ناظر الجهادية الى مكاشفة زملائه النظار بما يخشى من العواقب فلم يستمعوا له.

فما لبث أولئك الضباط الناقمون أن اجتمعوا، وبعد أن تداولوا فيما يجب عمله، وأقسموا الأيمان الوثيقة، ساروا إلى نظارة المالية يتقدمهم البكباشى لطيف بك سليم وسعيد بك نصر المدرس بالمدارس الحربية، وهما زعيما الحركة.

ولما علم نوبار باشا والمستر ويلسن بالأمر لم يعيراه اهتماماً. فتربص الضباط لهما عند خروجهما من النظارة وقابلوهما بالأهانة والاعتداء.

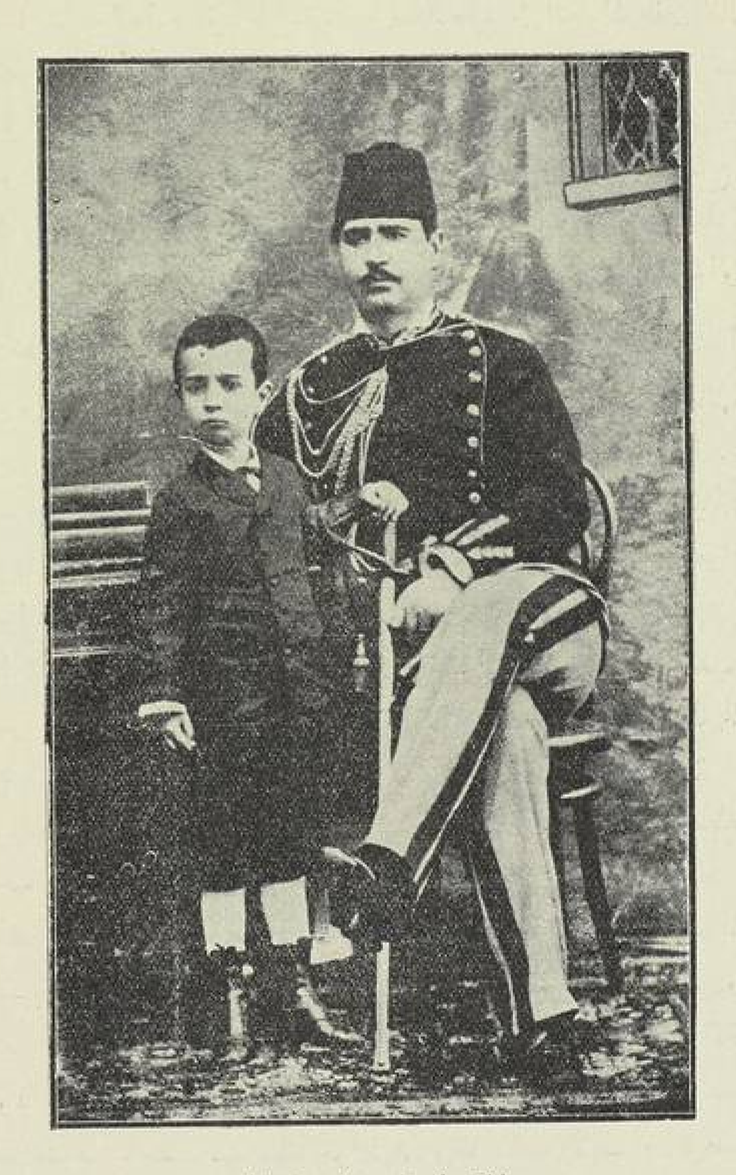
وقد كنت يومئذ موظفاً بالمجلس الخصوصى بالداخلية (١) فشاهدت هذه المظاهرة منذ البداية ورأيت ضابطاً يدعى حسين رشدى يهجم على عربة السير ويلسن ويعتدى عليه بعد أن أنزل السائق عن كرسيه، ثم أخذ العربة ورجع بها إلى نظارة المالية.

ولما علم اسماعيل بالخبر تحرك بركابه فى الحال إلى تلك النظارة، ودخل بنفسه بين أولئك الضباط، وخطب فيهم مهدئاً خواطرهم، وطلب اليهم الأنصراف فرفضوا حتى تجاب مطالبهم، وأولها صرف مرتباتهم المتأخرة. وخلع أحدهم جوربه البالى ولوح به للخديوى قائلا: «أهذا جورب يلبسه ضابط؟!».

وكان الخديوى قد أمر بحضور قوة من عساكر الحرس فحضرت، وأطلقت النار

---

(١) وكان يقيم اذ ذاك فى المحل الذى تشغله رياسة الوزارة الآن



لطيف بك سليم وبجانبه ولده فؤاد

فى الهواء ارهاباً للمتظاهرين ، فأجاب بعض الضباط باطلاق مسدساتهم ، وانتهت الحادثة بأصابة تسعة بجروح ، والقى القبض على زعماء الحركة .

وقد ذهب الناس مذاهب شتى فى تأويل هذه المظاهرة ، لأن لطيف بك سليم — أحد منظميها وقوادها — كان يمت بصلة القرابة الى شاهين باشا ، وهو من أحب المقربين لدي

اسماعيل . ولوحظ أيضاً أن مدة سجن الضباط المعتقلين لم تتجاوز بضعة أيام فضلا عن أن الزعيمين قد أفرج عنهما فى اليوم التالى .

وأما عن أهانة السير ويلسن فقد ذهب السردار حسن باشا نجل اسماعيل بالملابس الرسمية إلى القنصلية العامة الانجليزية ، وبحضور موظفى القنصلية وكثير من أعيان الانجليز ، اعتذر باسم الخديوى .

وكانت هذه أول مظاهرة نظمها رجال العسكرية منذ عهد محمد على باشا .

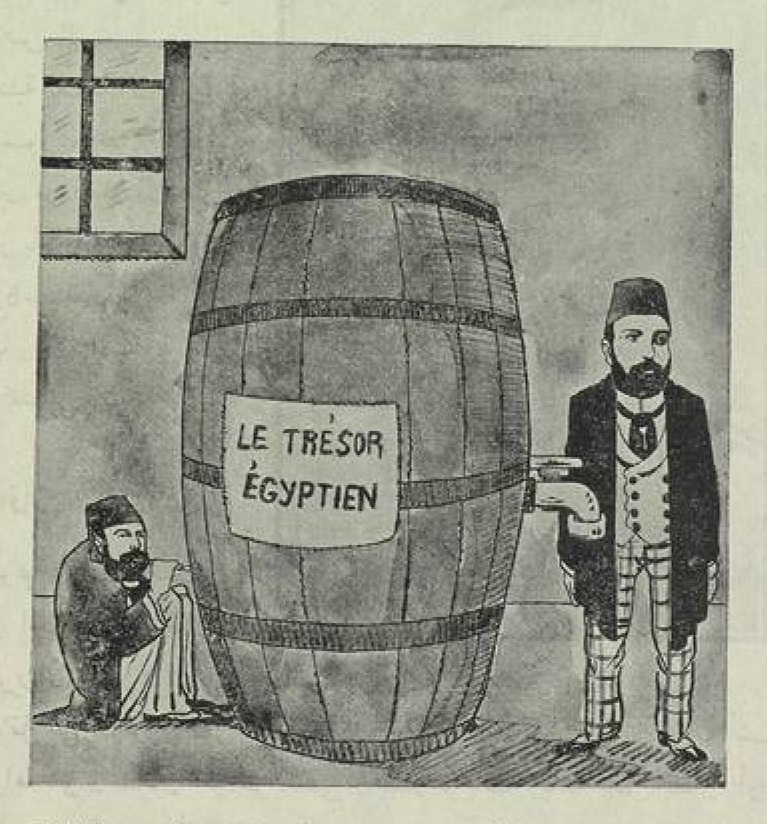
البرنس حسن باشا

## اقالة النظارة المختلطة

وعلى أثر هذه الحادثة أعلن الخديوى ان هيمنة الناظرين الأوربيين على الأمور مما يثقل على نفوس الأهالى ويثير ثائرتهم ، وان نوبار باشا مكروه لديهم أشد الكراهة ، وأن تسكين الخواطر يقتضى أن يتسلم هو بنفسه رياسة مجلس النظار ، أو يعهد بها إلى من يختاره من أهل ثقته .

عندئذ بادرت انجلترا وفرنسا بارسال مذكرة إلى الخديوى ملؤها التهديد والوعيد . وقد جاء فى ختامها : « ان الدولتين تلفتان نظر الخديوى إلى ما يتعرض له من العواقب الوخيمة اذا لم يعمل على تنفيذ الاتفاقات الأخيرة تنفيذاً دقيقاً ويمتنع عن عرقلة سير الحكومة الحاضرة » . فأجاب اسماعيل على ذلك بأنه يكتفى بتعيين ولى عهده توفيق باشا رئيساً للنظار ، وللناظرين الأوربيين أن يستعملا حقهما فى معارضة كل قرار لا ينال رضاهما .

ونذكر بهذه المناسبة أنه عند تأليف النظارة الجديدة تحت رياسة توفيق باشا ، نشرت احدى الصحف الفرنسية المحلية رسما هزلياً صورت فيه المالية المصرية فى شكل برميل ضخم ذى صنبور (حنفية) وقف أمامه توفيق باشا حارساً ، وصورت خلف البرميل الخديوى اسماعيل قاعداً القرفصاء يمتص الخزانة كما ترى فى الصورة .




ترمز الجريدة بذلك الى أن مظهر تغيير الوزارة لم يؤثر فى حقيقة الواقع شيئا ، وأن الأجانب لا يثقون بحراسة توفيق باشا للخزانة العامة .

**تقرير لجنة التحقيق** . وبعد ذلك بقليل قدم السير ويلسن مشروعه المالى المعروف بقانون التصفية ، وصف فيه حالة المالية المصرية بانها تشرف على الأفلاس . ومما جاء فيه قوله : « ان أسلوب الحكم المتبع فى مصر يستحيل معه التوفيق إلى حل المشاكل الحاضرة ، والمحافظة على الحقوق ؛ وليس أمام الحكومة المصرية ، للخروج من مأزقها ، الا اتخاذ طرق العدل والانصاف فى مختلف المطالب على قدر الاستطاعة » .

ومن ثم فقد طلب فى مشروعه تخفيض الفوائد، والغاء الأحكام التى أصدرتها المحاكم المختلطة منذ سنة ١٨٧٦ لمصلحة الدائنين . وهو يشير بذلك إلى وجوب التضحية من جانب الخديوى أولا ، ومن جانب أصحاب الديون ثانياً لملافاة الخطب الداهم . وقد أرفق بمشروعه صورة دكريتو لتوقيع اسماعيل عليها .

وكان المنتظر أن يثور الخديوى لما آلت اليه الأحوال ،إذ غدا يرى نفسه اداة مسخرة بين ناظرين من نظاره ، ولذا لم يدخر وسعا للخلاص من سيطرتهما وللرجوع إلى سابق عزه وسلطانه .

فلما أعيته الحيل عمد إلى الانقلاب الفجائى فاصدر أمره فى ٦ ابريل سنة ١٨٧٩ بعزل هذه النظارة المختلطة (١) . وجهر بالطعن فى أعمال الناظرين الاجنبيين — ويلسن ودو بلنيير — وسلط عليهما حرب الأقلام ، واتهمهما علناً فى تصريح له نشرته جريدة المونيتور اجبشيان « Moniteur Egyptien » وهى صحيفة رسمية للحكومة ، بأنهما وضعا للحكم نظاما يخالف ميول المسلمين . كما أنه أنكر عليهما فكرة تخفيض الفوائد وتأجيل دفع الكوبون ، استمالة منه لأصحاب الديون، وتنفيراً للناس من أعمال الناظرين الأجنبيين .

**اللائحة الوطنية** . ثم شرع أعوان الخديوى — وعلى رأسهم السيد على البكرى وشاهين باشا — فى وضع مشروع للميزانية المصرية يصادق عليه كبراء البلاد وأعيانها — وهو المعروف باسم « اللائحة الوطنية » — فوقع عليه ستة وستون من عظماء الباشوات، وتسعون من اكابر العلماء والأعيان . وقد تعهد الموقعون فى تلك اللائحة مع الخديوى بتسديد أقساط الديون بتمامها وقت استحقاقها بضمانة أموالهم وأملاكهم . وأصدر اسماعيل باشا أمره ، أجابة لرغبتهم ، بتأليف نظارة وطنية تحت رياسة شريف باشا ، وجعلها مسئولة امام مجلس النواب ، بعد توسيع اختصاصاته ليكون مماثلا فى سلطته للمجالس النيابية فى أوربا .

وقد كانت هذه ضربة لسياسة انجلترا وفرنسا فى مصر . هذا الى أن المانيا أخذت تظهر فى الميدان وتطالب الحكومة المصرية ،فى مذكرة شديدة اللهجة ، بان تدفع للدائنين الألمان جميع مطالبهم دون تخفيض أو إرجاء .

---

(١) شعر نوبار باشا عندئذ بسخط الخديوى عليه فبادر بالسفر الى أوربا




شاهين باشا

وكان نوبار باشا يتحدث منذ خروجه من مصر ، عن استبداد اسماعيل وعدم صلاحيته للحكم ، مع من يلقاه من السياسيين الفرنسيين والانجليز . وكان ممثل فرنسا فى هذا الوقت بمصر ، مسيو تريكو ، فاتفق مع ممثل انجلترا على العمل لخلع اسماعيل .

وكان كثيرون من طلاب الحرية ومعهم السيد جمال الدين الأفغانى يترددون على شريف باشا ويظهرون له الرغبة فى تولية توفيق ولى العهد ؛ والعمل لاقناع اسماعيل بالتنازل لمصلحة مصر . وذهب هذا الوفد إلى وكيل دولة فرنسا وأفهمه ان فى مصر حزبا وطنياً حراً يطلب الاصلاح ويرى انه لا يتم إلا على يد ولى العهد توفيق (١)

---

(١) والحقيقة أنه لم يكن ثمت حزب بالمعنى المتعارف وانما كانت هناك جماعة تنزع الى تحرير البلاد

وهنا رأت انجلترا وفرنسا أن الفرصة قد سنحت لتضربا الضربة الأخيرة لاستعادة نفوذهما ؛ فاستقر عزمهما على الخلاص من اسماعيل وذلك بعزله وإبعاده .

**عزل اسماعيل** . وكان امامهما لذلك طريقان : الأول أن تقوما بتنفيذ الامر مباشرة ، والثانى أن توسطا فيه الباب العالى . فآثرتا الرأى الأخير ، وتمكنتا بمساعدة المانيا من الحصول على رضاء السلطان عن عزل اسماعيل ، وتولية ابنه توفيق مكانه .

وأخيراً تقدم ممثل انجلترا يطلب الى اسماعيل ان ينزل عن الأريكة الخديوية . فاضطرب فى أمره ، ولم يجد طريقا يسلكه سوى أن يبذل المساعى لدى السلطان ليحول دون تنفيذ هذا العزم ؛ واستخدم فى أقناعه بابا من أبواب التعريض ؛ فبين له أنه اذا وافق الدول الأوربية على ما تطلبه من عزله، بسبب تقصيره فى تسديد الديون ، فلا يبعد أن تجعل ذلك سابقة ، فتعامل الدولة العثمانية بتلك المعاملة فى المستقبل ، للتشابه بين حالة المالية العثمانية وحالة المالية المصرية .

فلما لم تجد هذه الحيلة مع السلطان ، ولم تنجح لديه بقية المساعى ، عزم اسماعيل على اعلان استقلاله ، ومقاومة الدول الأوربية بالقوة ، اتباعا لمشورة صديقه شاهين باشا. ولكن شريف باشا حال دون تنفيذ هذه الخطة ، بما كان له من اصالة الرأى ، ونصح لأسماعيل ، فى الحاح ، بأن ينزل عن العرش لأبنه توفيق خشية التبديل فى فرمان التولية ، اذ يحرم ابنه من حقه وتعود الحال إلى النظام القديم ، الذى كان يقضى بان يرث الحكم الأرشد فالأرشد من ذرية محمد على ، وبذلك ينتهى الامر إلى تولية حليم باشا بن محمد على باشا الذى كان يزاحمه على الولاية منذ عهد بعيد .

وعلى هذا عاود اسماعيل الكرة ، وحاول أن يستميل انجلترا وفرنسا للاتفاق على تنفيذ ما جاء باللائحة الوطنية لضمان مصلحة الدائنين . ولكن الامر كان قد بت فيه ، وصدر امر السلطان بتعيين توفيق باشا خلفا له . فلم يبق امام اسماعيل الا الأذعان ومقابلة القضاء بالتسليم والرضاء .

* * *

أشهد اسماعيل — فى الحفلة التى تلى فيها فرمان توليته — ممثلى الدول أنه قنالى « Canaliste » ووعد بشق قناة السويس . وفعلا وفى بوعده

ثم وعد كذلك بسداد الدين الذى ورثه عن سلفه وقدّره هو باحد عشر مليونا من الجنيهات [١] ولكن اسماعيل ترك الحكم وقد بلغ الدين واحد وتسعين مليونا .

وكأنه غابت عنه قواعد الاقتصاد التى وردت فى الآية القرآنية : « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا** » فأحدث ثقل هذا الدين أول ثغرة تدخل منها الأجانب فى أخص شئوننا الداخلية وغلوا القسط الذى كنا نتمتع به من الحرية والاستقلال الذاتى، وكان من نتائج ذلك ما نعانيه حتى اليوم



(١) والحقيقة التى علمتها من أبي — وكان فى معية سعيد — انه بعد تصفية التركة لم يكن الدين ليزيد عن أربعة ملايين ونصف مليون من الجنيهات فقط

# الفصل الثانى

## الحياة الاجتماعية فى عهد اسماعيل

**الحركة الفكرية . التأليف والترجمة . الصحافة . التربية . التعليم . علائق الأسرة . الاخلاق العامة . أزياء السيدات . المشربات والمجالس . المتنزهات العامة . الفنون والملاهى . المسارح والتمثيل الموسيقى والغناء . الافراح . أفراح الانجال . المآتم . فوضى القضاء . الحفلات الدينية وغيرها**

**الحركة الفكرية .** شتان بين مظاهر الحياة الاجتماعية فى أيامنا وبينها فى عصر اسماعيل . فقد قطعت مصر فى العهد الأخير مراحل شاسعة فى سائر نواحى التقدم الاجتماعى . أما فى عصر اسماعيل فقد كانت مصر لا تزال تتخطى فى هذا السبيل دور الطفولة . وكان التقدم الاجتماعى والفكرى لا يزال فى بدايته الأولى، رغم كل مظاهر الرقى السطحية التى استطاع اسماعيل أن يسبغها على عاصمة البلاد . ولم تكن بمصر يومئذ نهضة فكرية أو أدبية إلا تلك البداية الخاصة التى انحصرت فى بضعة من أعلام التفكير والأدب . وكانت اللغة العربية — سواء فى الدواوين أو معاهد التعليم — فى منتهى الضعف والسقم . أما فى الدواوين فقد كان أسلوب الكتابة العربية فى الغالب ركيكا لا سبك فيه ولا طلاوة ؛ وكان يوجد مع ذلك بعض كبار الموظفين ممن يجيدونها .

وكذا كانت الطرق الحسابية المتبعة فى أقلام الحسابات بالدواوين عتيقة ؛ وكان القائمون بها على الأخص من طائفة الأقباط ، سواء فى المديريات أو المصالح العامة بالقاهرة . وكان يندر أن يوجد فى أقلام الحسابات أحد من المسلمين . ومن الذين اشتهروا باتقان الطرق الحسابية والدى المرحوم حسن موسى وهو الذى كان يتولى اختبار طلبة مدرسة المحاسبة والمساحة فى الامتحانات العمومية .

وكانت المؤلفات والرسائل تكتب بأساليب مفككة ركيكة تغلب عليها الصبغة العامية . ولم يكن للتأليف شأن يذكر . واذكر أن معظم المطبوعات التى كانت تصدر يومئذ كانت اما مترجمة عن اللغات الأجنبية ، ولا سيما الفرنسية ، وإما من تراث

الأدب القديم . أما التأليف الحديث فلم يكن له أثر تقريباً . كذا كان معظم هذه المطبوعات كتباً مدرسية تترجم لاستعمالها فى المدارس الجديدة التى أنشئت يومئذ . وكان يشتغل بترجمتها جماعة ممن درسوا فى بعثات الحكومة فى فرنسا وغيرها ، فى مقدمتهم رفاعه بك وبعض زملائه

**نواة النهضة الفكرية** ومع ذلك فقد ظهر فى هذا العصر علماء مفكرون وأدباء نابهون وصحفيون ممتازون كانوا نواة النهضة الفكرية المستقبلة

وفى طليعة العلماء (١) على مبارك باشا الذى نهض بالتعليم ونظم طرقه وأساليبه حتى اقترنت نهضة المعارف باسمه

و (٢) محمود باشا حمدى الفلكى الذى خطط خريطة مصر لأول مرة وقد شهد علماء الفلك الاوربيون بنبوغه فى علمه وذكروه فى كتبهم

و (٣) محمد باشا قدرى المتشرع المعروف صاحب كتاب «قانون العدل والانصاف فى حل مشكلات الاوقاف» و (٤) حسين باشا فخرى الذى نظم المحاكم الاهلية على نمط حديث

***

وفى مقدمة الادباء الشيخ على أبو النصر والشيخ على الليثى شاعرا المعية (ولم نعثر على صورتيهما)

وكان الشيخ على الليثى — فوق انه شاعر — سمير مليح النكتة حاضرها . من ذلك ان احمد خيرى باشا مهردار (حامل الخاتم) اسماعيل اراد ان يداعب شاعرى القصر فأمر أن تلصق ورقة على باب الغرفة الخاصة بهما فى عابدين وبها الآية القرآنية :

« **انما نطعمكم لوجه الله** . . . » فلما رآها الشيخ على فطن للدعابة وعرف مصدرها ونظم هذين البيتين من الزجل :

**كان لى طحونة جوا الدار تدور وتطحن ليل ونهار**

**دورت فيها الطور عصى علقت فيها المهر دار**

وكتبها فى ورقة ألصقها بباب خيرى باشا وكان ذلك رداً ظريفاً استملحه الخديوى وظل يردده مع ندمائه

و (٥) عبد الله فكرى باشا صاحب (الفوائد الفكرية) والذى اقترنت نهضة المعارف باسمه فى مصر

و (٦) احمد خيرى باشا وقد تلقى العلوم العربية فى الأزهر ونبغ فيها وفى اللغة التركية وهو من أصل شركسى و (٧) محمود باشا سامى البارودى صاحب الديوان والمختارات وأحد زعماء الثورة العرابية و (٨) محمد بك عثمان جلال الشاعر الزجال والمترجم القدير الذى نقل الى العربية بعض روايات فولتير التمثيلية كما ترجم أساطير لافونتين (Fables de La Fontaine) وهى مجموعة قصص خرافية صيغت على لسان الطير والحيوان تتضمن عبراً ومواعظ بالغة . وقد أحسن جلال بك اختيار الأمثال العربية التى تقابل هذه المعانى فى اللغة الفرنسية وسماها : « العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ »

ومما نذكر من زجله الظريف بيتين ارتجلهما أمام رياض باشا يشكو تأخره عن أقرانه الموظفين فى الترقية :

**الخير عم الناس وفاض    ما حد الا واستكفى**

**الا أنا ياسيدى رياض    وقعت من قعر القفه**

ومن فكاهاته أنه كان مدعواً فى دار محمد بك سكر الكتبى وأحد أدباء عصره للطعام مع بعض الأصدقاء فاستبطئوه وعندئذ دخل رب الدار إلى ( الحريم ) وبينا هو كذلك سمع الضيوف دقاً بالهاون فتساءل بعضهم ماذا ؟ ألا يزالون يهيئون الطعام . فأجاب محمد بك عثمان جلال : لا . . دول بيكسروا راس « سكر ! ! »

و (٩) اسماعيل صبرى باشا المجدد فى الشعر العربى والذى لا تزال مقطوعاته تغنى حتى اليوم وهى مقطوعات خالدات

☆☆☆

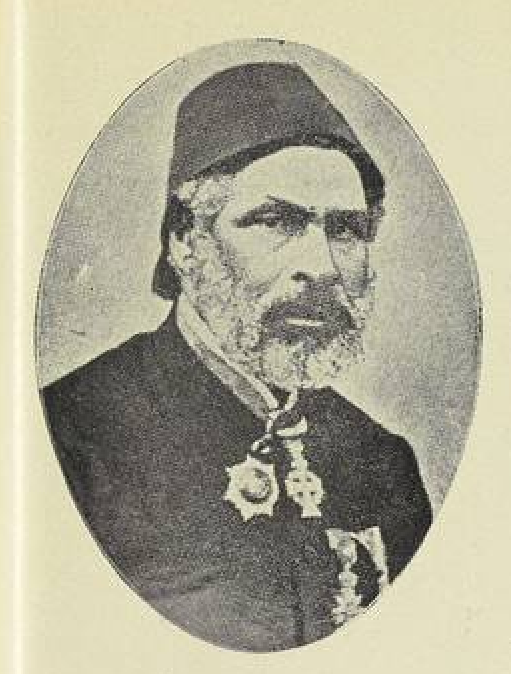
ومن الصحفيين (١٠) أديب اسحق بك صاحب جريدة ( مرآة الشرق ) التى امتازت بتحريرها ووطنيتها وكان أحد محررى الجريدة الرسمية

وعبد الله نديم خطيب الثورة العرابية المعروف صاحب (الطائف) و (لسان الأمة) وغيرهما ( ولم نعثر على صورته )

و (١١) أبو نضارة زرقاء صاحب الجريدة المعروفة باسمه والتى كان لها شأن عظيم فى إيقاظ الشعور القومى لأنها كانت تكتب باللغة المتداولة (العامية) بأسلوب فى متناول الجميع



(١) على باشا مبارك



(٢) محمود باشا حمدى الفلكى



(٣) محمد قدرى باشا



(٤) حسين فخرى باشا



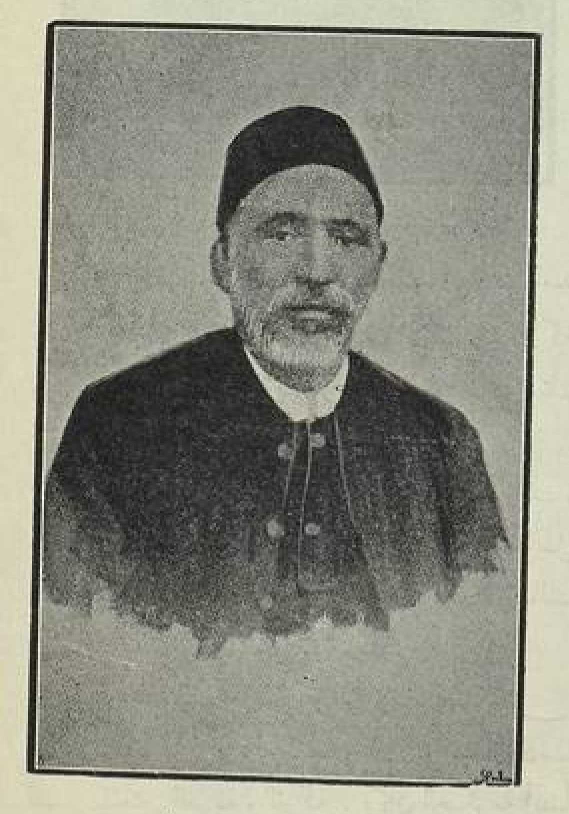
(٥) عبد الله فكرى باشا



(٦) احمد خيرى باشا



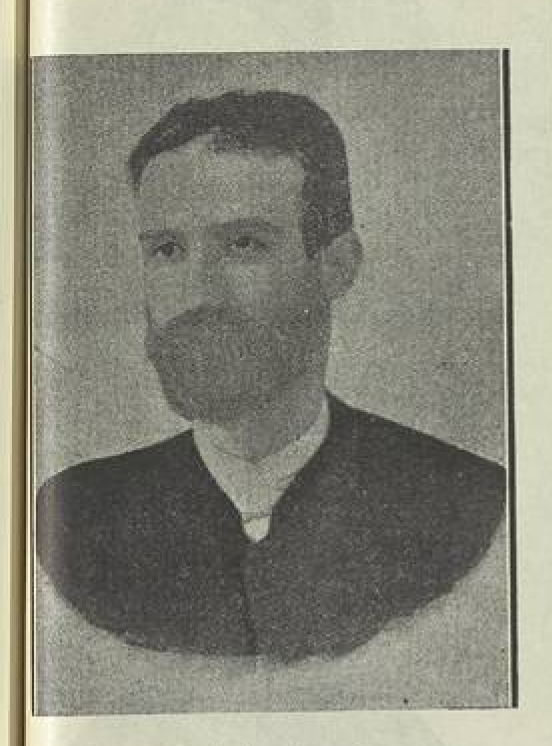
(٧) محمود سامى البارودى باشا



(٨) محمد عثمان بك جلال



(٩) اسماعيل صبري باشا



(١٠) اديب بك اسحاق

**الصحف .** وكان معظم الصحف فى ذلك العهد يصدر باللغات الأجنبية كالفرنسية والايطالية والتركية واليونانية وكان بعضها يصدر بالعربية واحدى تلك اللغات .

وكانت تصدر فى ذاك الوقت أيضاً صحيفة « وقت » و « روضة المدارس » التى كان يقوم بتحريرها أفاضل الأساتذة، ونوابغ الطلبة . أما ما عداها فكانت فى الغالب وريقات ضئيلة وغالباً عامية .

وهذا عدا النسخة العربية التى كانت تصدر من الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية الآن) بعد أن كانت تصدر باللغتين العربية والتركية . وكان للحكومة أيضاً



(١١) ابو نضارة زرقا.

جريدة رسمية باللغة الفرنسية وهى السابق ذكرها

**التربية والتعليم.** كان التعليم فى مدارس الحكومة فى المبدأ داخلياً كله على نفقتها. وكان يصرف للتلاميذ المأكل والملبس بالمجان. وكان الخبز من النوع المسمى «صامولى»، وهو لذيذ الطعم، أسمر اللون، ويصرف للتلميذ منه يومياً ثلاثة أرغفة مع الخضار واللحم والأرز وأحياناً الحلوى (سد الحنك). وكان العدس والفاصوليا هما أكثر مايقدم.

أما اللباس فكان فى الصيف سروالا (بنطلوناً واسعاً) أبيض من التيل وفوقه فرتيكة (جاكته)، بحزام من الجلد له قفل من النحاس مربع رسم فى وسطه هلال وداخله نجمة. وفى الشتاء يرتدى التلميذ نفس هذه الملابس وفوقها معطف طويل من الجوخ.

وكانت مواد الدراسة فى اللغات ـ غير العربية ـ التركية، والفرنسية، والانجليزية، والألمانية. ثم المواد الأخرى مثل الحساب، والجغرافيا، والتاريخ، والهندسة وغيرها من العلوم، ثم الرسم والخط الأفرنجى والعربى.

وكان أولو الأمر يهتمون بتعليم اللغة التركية اهتمامهم بتعليم اللغة العربية. ولذلك ترى كثيراً من أفراد الطبقات العالية يتكلمون التركية ويتراسلون بها.

وتذكر بهذه المناسبة حادثة ظريفة ذكرها لى والدى: تلك أن الشاعر الأديب صبحى بك عند ما اختير مديراً للغربية، لم يكن يملك ما يفسح له فى مظاهر الأبهة التى يتطلبها المنصب الجديد. فاستعار عربة من صديقه محمد سيد احمد باشا واعداً بردها فى القريب. ولكن مضى طويل على الوعد ولم يبر به. وكان بين الصديقين مراسلة. وحدث أن كتب الأديب صبحى بك إلى صديقه محمد باشا رسالة بالتركية فرد عليه هذا قائلا: «لماذا تكتب لى بالتركية؟ لعلك نسيت (العربية)؟!»

وفى الصفوف (الطوابير) كان بعض ضباط المدارس يأخذون التلاميذ بنوع من الأنظمة العسكرية فى سيرهم. وكان هناك بعض «البروجية» من السودانيين للمساعدة فى تنظيم الخطى على صوت البورى أثناء المسير.

وكان المتبع فى العقوبات اعطاءهم الخبز دون أدم، أو الجثو على الركبتين، أو استعمال السوط (الزخمة) من الجلد لضرب التلميذ على رجليه بواسطة «الفلقة» لشد أرجلهم، وكذلك الحبس فى «الزنزانة» بالمدرسة، وهى غرف صغيرة مظلمة بها منفذ بسيط




العقوبات التأديبية

ثم أنشئت بعد ذلك الأقسام الخارجية بالمدارس ، وفرضت المصروفات فى أول الأمر على بعض التلاميذ بدون نظام معين ، بل كل بحسب مقدرته المالية . وبدىء بتنفيذ ذلك النظام فى مدرسة المبتديان والمدرسة التجهيزية .

وكانت المدرسة الحربية من أهم المدارس ، وناظرها يومئذ لارمى باشا الفرنسى ، وكانت مقسمة الى أربعة أقسام : البيادة ، والسوارى ، والطبجية وأركان الحرب . وقد تخرج فيها كثير من رجال الجيش المصرى النوابغ الذين قادوه — وكان يبلغ يومئذ ثلاثين ألفاً — فى عدة حوادث هامة فى مصر وخارجها وخصوصاً فى حروب الدولة العثمانية

وكان هناك من المدارس الأخرى : مدرسة اللسان المصرى القديم واللغة الحبشية وناظرها بروكش بك . ومدرسة الصم والعميان بالصلبية ، وناظرها أنسى بك .



جشم آفت خانم افندى الزوجة الثالثة لاسماعيل

وقد أنشأت الزوجة الثالثة لاسماعيل أول مدرسة للبنات بالسيوفية ، وناظرتها السيدة روزة. وكان يعلم فيها القراءة والكتابة ، والشىء البسيط من الحساب وغيره والأشغال اليدوية ، وشئون المنزل . وكان عدد التلميذات قليلا ، حتى إذا زاد الأقبال عليها وضاقت بهن اعتزمت إنشاء مدرسة أخرى أعظم منها ، وأتمت بناءها فعلا . وقبل افتتاحها كان اسماعيل قد بارح القطر هو وزوجاته معه ؛ فأهمل شأن المدرسة وشغلتها الحكومة ببعض الدواوين ، ومكانها الآن تشغله وزارتا الأشغال والمواصلات ، ودار البرلمان وما حوالها .

وأما تعليم البنات فى المنازل فكان قاصراً على الأشغال اليدوية ، وشئون المنزل ، والقراءة دون الكتابة ، حتى لا تستطيع البنت استخدام الكتابة طوع نزعات الشباب .

وبدأت نواة التعليم الأهلى تنبت فى مصر فى نفس الوقت ، فأسست أربع مدارس أهلية

وكذلك بدأت الجاليات الأوربية تنشىء المدارس العديدة ، فى القاهرة والأقاليم . وقد فتح فى وجه خريجى هذه المدارس باب التوظف فى مكاتب البريد ، وفروع مصلحة السكك الحديدية ، والمحال التجارية ، والترجمة فى القنصليات ، والمحاكم المختلطة ، والمصارف . فأقبل الطلبة عليها إقبالا شديداً .

**علائق الاسرة** . كان احترام الأبناء للوالدين عظيما . ففى الصباح كنت أذهب إلى والدى فأقبل يده ، ولا أجلس حتى يأذن لى . وكان أخى الأكبر لا يجرؤ على التدخين

فى حضرة أبيه حتى وفاته ، مع أنه كان كبير السن. وكان الابن يقيم فى منزل الأسرة ولو كان متزوجاً ، أو موظفاً ، دون أن يدفع شيئاً من النفقات ؛ بل كان ذلك موكولا لرب الأسرة . أما مرتب الابن فكان يترك له ينفقه فى خصائصه ، ونفقات زوجته كذلك . وكان يخصص لكل ولد جناح من المنزل ليسكن فيه مع زوجته بين أحضان الأسرة

**الرقيق** . وكان الرقيق يكاد يعتبر يومئذ جزءاً من الأسرة . وكانت تجارة الرقيق منتشرة فى البلاد ، سواء منه الأسود والأبيض .

وكان يوجد فى القاهرة بيوت خاصة ببيع الرقيق تعرض بواسطة ( يسرجيات أو يسرجيين ) . فكان يرتاد هذه البيوت من يريد اقتناء الجوارى أو المماليك أو العبيد . وكان المعتاد أن يكشف على الجنسين وهم عرايا . وقد يبالغون فى ذلك ، خصوصاً بالنسبة للإماء ، فيوضعن فى طسوت ملأى بالماء ، ثم يخرجن، فان نقصت كمية الماء دل ذلك على الصحة

وكان يوجد بين الجراكسة عائلات بتمامها ، ذكوراً وأناثاً ، كباراً وصغاراً ؛ وقد اقتنى أبى عائلة مؤلفة من رجل وامرأة ، وولد وبنت صغيرين .

وكان مالكو الرقيق يستمتعون بالأناث منه ( الجوارى ) وخصوصا البيض منهن . وكن يملأن بيوت الكبراء . وبذا اختلط الدم المصرى بدم الجراكسة فى بعض الأسر . وكان المصريون يعاملون الرقيق معاملة حسنة ، فيرسلون الذكور للمدارس ويعتقونهم. ومن هؤلاء من وصل إلى وظائف هامة فى الجيش والادارة ، حتى ان شوارع حلوان قد سمى أكثرها بأسمائهم ؛ ومنهم من كان يزوج بناته منهم . أما الأناث فكان يعنى بتزويج الكثيرات منهن .

وقد ضعفت تجارة الرقيق على أثر المعاهدة التى عقدت فى شأنه فى عهد اسماعيل ، ثم انقطعت تجارته بعد ذلك بتاتاً .

**الأخلاق العامة** . يمكن القول بأن الحالة الخلقية العامة كانت حسنة ؛ وكانت أميل كثيراً إلى الحشمة والفضيلة مما هى اليوم ؛ ولم يكن التهتك معروفا فى الملبس أو الخروج أو السير أو غيرها، إلا بين العاهرات فى الأحياء الخاصة بهن . وكان الحجاب من لوازم المرأة ، فلم يكن يتاح لها الخروج إلا فى وقار وحشمة .

ومع هذا فقد كان هناك نوع ظريف من المغازلات الخاصة ، ذلك ان بعض الفتيان كانوا يتعرفون ببعض الأسر ، فيقضون ليالى فى بيوتها ، كلها أنس وسمر وطرب ؛

وقد يشركون معهم بعض زملائهم متفكهين ، فيقودونهم فى العربات إلى هذه المنازل معصوبى الأعين، فلا ترفع العصابات عن أعينهم إلا داخل المنزل ، وبعد قضاء السهرة يخرجون كما دخلوا معصوبى الأعين ، حتى لا يعرفوا فى أى مكان كانوا. ولا فى أى منزل أتيحت لهم تلك السهرات . وكان أخى محمود افندى وهى شاباً وسيما مولعاً بالطرب جميل الصوت ؛ وكثيراً ما كانت وسامته وجمال صوته يتيحان له فرصاً كهذه لا يدرى أين ولا كيف سنحت ، حتى يكون فيها ، وحتى يستمرىء لذاتها .


السروال واليلك

وقد كانت تذاع يومئذ روايات غريبة، منها اقتناص أفراد من رجال الجيش الأشداء بجهة العباسية ليلا ، ووضعهم فى عربات مقفلة ، والسير بهم إلى دار سيدة عظيمة الشأن يتوصل إلى مقرها بواسطة سرداب تحت الأرض ، ثم لا يعرف لهم من بعد ذلك مقر ! على ان هذه اشاعات ربما جاوزت الحقيقة . وانما المؤكد الذى أعرفه أنها كانت ذات أثر فى منع الكثيرين من المرور ليلا بتلك الجهة .

**أزياء السيدات** . ولعل مما يتصل بالحالة الخلقية العامة أزياء السيدات فى ذاك العهد . فنساء الطبقة العالية كن يرتدين لباسا يسمى « الشنتيان » — وهو عبارة عن سراويل واسعة جدا تضيق عند القدمين أحيانا بحيث تتمكن السيدة من الجلوس على الشلتة « الحشية » — وهى عبارة عن مرتبة أرضية ؛ وقد كانت مستعملة قبل انتشار الأثاث الأفرنكى — وفوق الشنتيان « السلْطة » أو صدار بدون أكمام . ثم « اليلك » ، وهو رداء طويل وكان هذا الزى غالبا من الحرير المزركش . ( كما فى الصورة . )

أما حين يخرجن للزيارات ، فكانت الفراجية ذات الأكمام الواسعة المفتوحة ،

وفوق الرأس ما يسمى « خوطوز » أوعزيزية . وهى غطاء للرأس مبطن من الداخل بقماش فوقه ورد صناعى يسدل عليه « التل » بحيث يرى الورد ، ثم تحته « اليشمق » وهو من القماش الشفاف. ومنه تظهر العينان فقط. وكان هذا الزى منتشراً فى السرايات وعند كبار الأهالى ولا سيما التركيات. وهو لباس جذاب جميــــل. وكانت العربات هى وسيلة الانتقال لنساء هذه الطبقة.



اليشمق والفراجيه

أما نساء الطبقة الوسطى فكن يرتدين الشنتيان والسلطة كذلك ولكن من قماش متوسط. وعند الخروج للزيارة يرتدين « السبلة » وهى عبارة عن قميص من الحرير بدون أكمام . وفوقها « حبرة » تغطى الجسم من الرأس إلى القدم ؛ وهى فى الغالب من الحرير الأسود . و « البرقع » الأبيض للوجه ؛ والمناديل مطرزة بأطار من « القوية » كغطاء

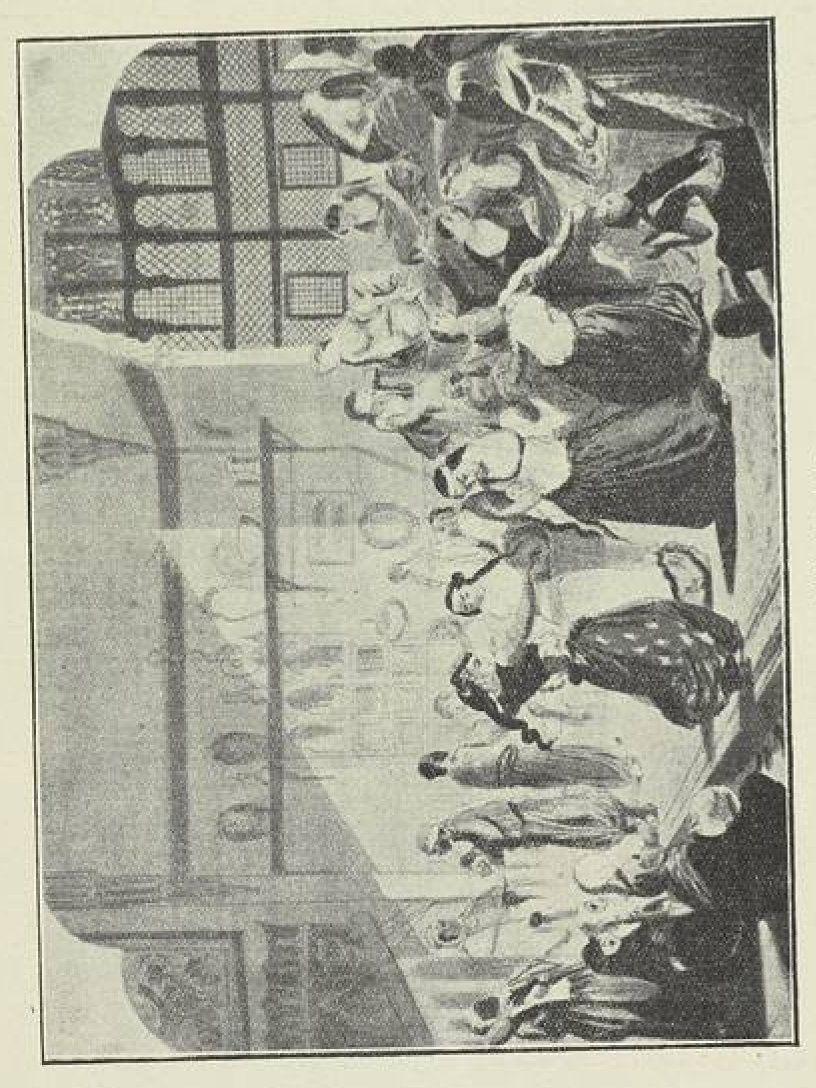
للرءوس تحت الحبرة ؛ ويحتذين خفاً أصفر من قطعتين : قطعة تغطى القدم والأخرى تلبس داخل الأولى وتغطى الساق . وعند الخروج يركبن الحمير بعد أن يوضع فوق البرذعة سجادة ويرفع الركاب بحيث تجلس السيدة . القرفصاء ويتولى « المقدم » الخادم قيادة الحمار .




خروج السيدات للزيارات

وكان يتبع فى استقبال الزائرات بالمنازل أن توضع «كنكة» القهوة فى عزقى ، وهو إناء من المعدن مجوف مشدود بثلاث سلاسل تجتمع من أعلاه على هيئة كفة الميزان تمسكه خادم . وفى الطبقات العالية كان طقم القهوة من الفضة أو الذهب وتصب منه فى الفنجان الذى يوضع فى ظرف ، ويقدم بلطف للزائرة

وهنا نورد صورة حفلة فى احد بيوت القاهرة لاستقبال بعض الاجانب ، ويرى فيها ازياء بعض السيدات وأزياء الرجال ، وهو السروال والسلطة والطربوش المغربى ؛ ويشاهد أيضاً بعض الراقصات المصريات احتفاء بزيارة هؤلاء الاجانب .



حفلة استقبال الزائرات

ولا تكلم عن أزياء الطبقة الدنيا وعاداتها فانها لم تتغير عما كانت عليه الا قليلا. أما ملابس أعضاء العائلة الخديوية فسيراها القارىء فى الفصل المعقود للحياة الداخلية فى سرايات اسماعيل

**المشربات والمجالس**. كانت هناك مقاه ، ولكن لم يكن يرتادها من الأوساط المحترمة إلا القليل؛ لأن الكبراء كانوا يجعلون سهراتهم فى منازلهم التى يفد عليها الجلساء

والأصحاب ، كما كان يؤمها الكثيرون لمجرد الافتخار بأنهم يجلسون فى مجلس فلان الناظر أو العظيم .

ولقد كنت أذهب مع والدى إلى منزل رياض باشا ، فلاحظت ان معظم الجالسين لا يشتركون فى المناقشات ، بل يلزمون الصمت كأن على رءوسهم الطير ، وقد جلسوا فى تحفظ وتزمت . فلما سألت والدى عن سر هذه الحالة ، أجابنى بأنهم يفعلون ذلك احتراما لرب الدار وتوقيراً له .

أما رجال الطبقة الوسطى فكانوا يمضون سهراتهم عند أصحابهم من هذه الطبقة

**المتنزهات العامة** . كانت جهـــة شبرا بمزارعها النضرة ، ومناظرها الجميلة ، هى المكان المطروق للتنزه والرياضة عادة . فكان يقصد اليها المرتاضون مشاة وركباناً ؛ وكان المار يرى الدواب المطهمة تغدو وتروح ، وأحياناً واقفة فى انتظار أصحابها ممن حضروا اليها للرياضة ، مكبلة فى اللجم ، صفوفا على جوانب المزارع . كذلك كانت ترى العربات الفخمة تجرها الجياد المجرية المطهمة تحمل أفراد العائلة الخديوية ومن يدانيها من كبار السراة والأعيان ؛ يتقدم هذه العربات قمشجية ( سياس ) لافساح الطريق واتماماً لمظاهر الأبهة .



السياس

وكان يرى بين المتنزهـــين نخرى باشا ممتطياً جواده الجميل وأمامه ( السايس ) كما كان يفعل ذلك بعض ذوات العاصمة .

وبظلل شارع شبرا وقتئذ صفوف من شجر الجميز العتيق المزروع من عهد محمد على باشا .

وكانت مقر كثير من العائلات الكبرى وبهاغير قصر . من ذلك : قصر زينب خانم افندى بنت محمد على باشا ؛ وقصر اينجو خانم افندى أرملة سعيد باشا والى مصر ( ويرى القارىء صورتيهما مع صورة البرنسيس فاطمة خانم إحدى كريمات اسماعيل بزيهن جالسات على مقعد عال ينصتن للغناء )



البرنسيسات

وقصر شيكولانى البديع الزخرفة ، الحافل بالتماثيل النادرة . وغير ذلك من قصور كانت تحيط بها حدائق غناء شاسعة .

وكانت شبرا مشهورة كذلك بقهوة سى خليل ، التى يقصدها ذوو « الكيف » ، ومنهم بعض السراة فيجدون فيها مايشاءون . وقهوة خليل هذه هى التى قال فيها أحد الظرفاء :

**كل شىء فى مصر يوجد — الا قهوة سى خليل**

**الكيوف فيها نضيفه — والحشيش مالوش مثيل**

وكان هناك طريق الجيزة ، ولكن كان يقصدها القليلون لبعدها عن المدينة . وكانت خالية من الأبنية تقريباً . وكان اسماعيل قد عنى بهذه الطريق قبل فتح قناة السويس ليسهل للمدعوين زيارة الأهرام

## الفنون والملاهي

**التمثيل** . قدمنا ان الخديوى اسماعيل ، هو أول من عنى بهذه النواحى ، حتى تصبح مصر قطعة من أوربا . وقد قال إنها أصبحت كذلك بعد الذى أقامه فى القاهرة من المنشآت الحديثة ؛ وبعد ان افتتح قناة السويس فى عظمة وبهاء وبذخ . وكانت الأوبرا أول منشآته الفنية ؛ وقد استدعيت بعض الفرق الاوربية للتمثيل فيها ؛ وأول رواية ظهرت على مسرحها هى « عائدة » التى ألفها ماريبت باشا ولحن أنغامها « فردى » الموسيقار الايطالى الاشهر . أما تمثيل الروايات غير الغنائية فقد أنشأ له « الكوميدى فرانسيز » ( المسرح الفرنسى الهزلى ) وكان موقعه مكان دار البريد الحالية فى شارع طاهر

ثم بدأت تفد على مصر بعض الفرق السورية ؛ فكان ذلك منشأ المسرح العربى الأهلى ؛ وأولى هذه الفرق هى فرقة ( سليم النقاش ) وتلتها فرقة ( يوسف خياط ) التى مثلت فى الاوبرا أمام اسماعيل . وكانت الروايات التى تمثل ذات مغزى اجتماعى إصلاحى ؛ ومنها رواية « أبو الحسن المغفل » ، ورواية « هرون الرشيد » . ورواية « أنيس الجليس » ، ثم بضع روايات لموليير وهى « البخيل [١] » . « والطبيب رغم أنفه [٢] » ، . « والشيخ متلوف [٣] » ، . و « النساء العالمات [٤] » ؛ وقد عربها عثمان بك جلال — الذى مر ذكره .

ولكن التمثيل فى هذا الوقت لم يكن قائما على أصول فنية ، لأن المشتغلين به احترفوه من تلقاء أنفسهم دون تعلم لقواعده .

ومما يذكر عن فرقة يوسف خياط انها لم تجد سيدات يقمن بالأدوار فى الرواية فعهدت بذلك الى غلمان لم يتقنوا أدوار النساء بطبيعة الحال . وكذلك فعل القبانى — وهو فى سن متقدمة — فانه كان يقوم بدور المرأة فى تمثيله ؛ وذلك لما كان مفهوما عن التمثيل من انه تهريج لا يليق بامرأة أن تشترك فيه .

وكان اسماعيل ، لعطفه على التلاميذ ، يرسل تذكرة سنوية لتلاميذ الفرقة الاولى من المدارس العالية للتناوب فى حضور الاوبرا

---

( ١ ) هى بالفرنسية : —

(1) L'Avare, (2) Le médcin malgré lui, (3) Tartuf,

(4) Les femmes savantes

وكان تلاميذ المهندسخانة — ومنهم أخى المرحوم محمدتوفيق — يرغبون أحيانا التوجه جماعات ، فماذا كانوا يفعلون ؟ قلدوا التذكرة فكانتا تذكرتين يدخل بهما اثنان ثم يخرج أحدهما فيدخل اثنان وهكذا .

**الموسيقى** . وكان فن الموسيقى ناشئا كذلك ، فلم يكن هناك إلا فرقتان معروفتان هما : الفرقة السودانية بالجيش . وهذه كانت ميزتها ان أفرادها يعرفون العزف على النوتة باتقان ؛ واشتهرت بنظامها فأحرزت بذلك مكانة عظيمة ؛ حتى إذا الغيت بعض فرق الجيش ، مراعاة للاقتصاد كما قدمنا ، استغنى عن هذه الفرقة ؛ فاجتمع بعض أفرادها وكونوا فرقة أهليـة ، كانت فى المقدمة نظراً لشهرتها السابقة . وأما الفرقة الثانية فكان صاحبها عبدالله افندى التركى . وهى فرقة منظمة ذات لباس خاص ؛ وكانت تقوم أيضا بتمثيل بعض القطع الهزلية فى الليالى . وكان عبد الله افندى هذا أمرد ( أجرودا ) فساعده ذلك على أن كان يتزيا بزى امرأة ويرقص رقصاً تركيا .

وأما ماعدا ذلك من الفرق فلم يكن منظما ولا مشهوراً .

وكان نصيب المزمار والطبل البلدى كبيراً ، ولا سيما فى أفراح الطبقة الفقيرة . وكانت أشهر فرقة يومئذ جوقة الفناجيلى من أهالى دمياط

**الغناء** . بيد أن الغناء كان أحسن حظاً من التمثيل والموسيقى ، لظهور مطربين ومطربات من الطراز الأول ، استطاعوا أن يحرزوا مكانة وشهرة . وفى مقدمة هؤلاء جميعاً عبده الحمولى ، فى الرجال ، ثم محمد عثمان . وفى النساء ألماس ، ثم الوردانية .

وهؤلاء كانت تغدق عليهم الأموال بكثرة ، ويدعون الى الحفلات الفخمة ، فى بيوت الامراء والنظار والعظماء .

وكانت القطع التى تغنى معظمها من قصائد الشعراء الأندلسيين والعباسيين . كذلك وضعت بعض الأدوار والمواليا المناسبة لروح العصر

**عبده الحمولى** . ولد عبده الحمولى فى سنة ١٢٦٢ هـ . فى طنطا على ما يقال . وكان والده تاجرا ؛ وبها تعلم العزف على القانون ، كما تعلم مبادىء الغناء

وحدث بين والده وشقيقه الأكبر نزاع ؛ فأخذه شقيقه هذا ، وغادرا مدينة طنطا إلى مصر ؛ وتصادف أن تعرف بهما « المعلم شعبان » أحد المغنين ، الذى اعجب بصوت عبده فآواه وأخاه ، وعاد بهما إلى طنطا وعملا معا زمنا ما



عبده افندى الحمولى

ثم رجع « المعلم شعبان » إلى مصر ومعه عبده ؛ فعملا فى قهوة كانت تعرف فى هذا العهد بقهوة خان أغا فى « غابة الأشجار » ومكانها الآن حديقة الأزبكية ، فتهافت الناس للسماع ، واتسع رزق المعلم ، فحرص على عبده خيفة أن يخرج من يده ، ويشتغل مع سواه ؛ ورأى أن خير وسيلة تربطه إلى جانبه هى أن يزوجه ابنته ، وكان ذلك

ولكن شعبان أخذ يسىء معاملة عبده ويستذله ؛ فشق عليه ذلك حتى هرب والتجأ إلى رجل طائر الصيت فى فن الغناء يسمى « المقدم » ، فأعجب به ، وعمل على خلاصه مما هو فيه ، فضمه إلى « تخته » ، وقطع علائقه بزوجته .

وبعد ذلك وفد إلى مصر رجل يسمى « شاكر » من أهالى حلب — وهو الذى ابتكر ( الموشحات ) فى مصر — فاتصل به عبده ، وتلق عنه موشحاته وغناها ؛ إلا أن طبيعته الفنية وذوقه الموسيقى ، هيأ له أن يسمو فى فنه فوق ما تلقاه ؛ ومازال يرتقى فى فن الغناء ويشتهر ويذيع صيته ، حتى ألحقه اسماعيل باشا الخديوى بمعيته ؛ وسافر معه إلى الاستانة ، فسمع هناك الموسيقى التركية التى نبهت استعداده الكامن للاقتباس

والابتكار . وزاد على ذلك أن اسماعيل جلب فى عودته لمصر جماعة من أكابر المغنين فى الاستانة ، وكان عبده يتصل بهم ، ويأخذ عنهم ما يوافق المزاج المصرى ، ويناسب الطريقة العربية . ورأى فى الموسيق التركية كثيراً من النغمات التى لم يكن للمصريين علم بها ، فأضافها إلى ما يحذقه . ومن الأدوار التى كان عبده يغنيها :

أشكى لمين غيرك حبك　　　أنا العليل وانت الطبيب

اسمح وداوينى بقربك　　　واصنع جميل اباك أطيب

ومنها ،

غرامك علمنى النوح　　　يا حبيب القلب شوف

مع ظلمك أرسلت الروح　　　أترجاك تعمل معروف

⁂

حبيبى هجرنى شوفوه لى يا ناس　　　شردهنى ونى ابده الكاس

كوى قلبى ده بصحح يا ناس　　　اترجاه بعمل معروف

روى لى صديق محمود بك خاطر ان السير بارنج (لورد كرومر) سمع يوماً تما هذا الدور ؛ فلما ترجم له « حبيبى هجرنى شوفوه لى ياناس » قال : « هكذا المصرى : حتى الحبيب يكلف الناس بالبحث عنه ، ولا يجتهد هو فى أن يبحث!! » .

أما ألماس فكانت فى بدء حياتها فتاة فقيرة تعمل بالأجر وتحمل مواد البناء فى أوانيها المعروفة مع سائر الأجيرات ، وتنشد لهن الأغانى الساذجة ، ويرددن غناءها ترويحاً للنفس وتهويناً لمشقات العمل ؛ فلفت ذلك نظر مغنية معروفة ( عالمـــة ) تسمى (الأوسطى ساكنة ) وكانت تسكن الحى الذى تسكنه ألماس، فأخذتها من أبيها وعلمتها أصول الغناء ؛ حتى نبغت فيه واشتهر أمرها ، وذاع صيتها وتزوج بها عبده الحمولى الذى غنى فيها بعد وفاتها :ـــ

شربت الصبر من بعد التصافى　　　ومر العمر ما عرفتش أصافى

عدانى النوم وأفكارى تنوانى　　　عدمت الوصل يا قلبى عليه

ومن أدوارها المعروفة :

الوَىَ الوَىَ * يا حلاوى من الله * عشقك يا خى



السيدة الماس

لازم أهشه ، ده العصفور      وانكش له عشه ، ده العصفور

دا ابن الأكابر ، ده العصفور      على العشق صابر ، ده العصفور

٭ ٭ ٭

طار وعلا ، وعلا وطار      ونزل على ، بيت العطار

وكبش ملبس ، وادانى      ولوز مقشر ، واعطانى

لازم أهشه ، ده العصفور

يا سيدى أنا أحبك لله ... وربنا عالم شاهد
لاصبر على احتكام الله ... لما يباند لى معاك شاهد

* * *

خبط الهوى على الباب ... قلت الحلبوه أهو جالى
أتارى الهوى كداب ... يضحك على القلب الخالى

* * *

ليه يا حمام بقنوح ليه ... فكرتنى بالحبايب
ياهلترى نرجع الاوطان ... ولا نعيش العمر غرايب

وغنت أيضاً بعض الأدوار التى كان عبده يغنيها .

**الفروسية والألعاب الرياضية** . كذلك أنشأ اسماعيل من الملاهى مسرحا لألعاب الفروسية والجباز ( ليبودروم ) . ويحد هذا الموضع من الشرق، شارع عماد الدين ؛ ومن الجهة القبلية شارع قصر النيل ، ومن بحرى شارع المناخ ، ومن الغرب شارع المدابغ ، وكانت جدرانه مزينة من الخارج برءوس الخيل .



التحطيب

وكانت تقام لعبة «التحطيب» فى حوش الشرقاوى ؛ وذلك بأن يبرز لاعبان يمسك كل منهما عصا طويلة ( نبوت ) ؛ ويتبارزان كما فى العاب الفروسية . وإذا كان اللاعب ماهراً فربما برز له اثنان ، والناس حولهم يشاهدون .

ومن الألعاب خيال الظل ، والأراجوز (١) ، وكان يهرع لمشاهدة هذه الألعاب الكثيرون من الصبية وحتى من الرجال خصوصا فى أيام الموالد .

**الأفراح** . كان أكابر القوم يبالغون فى نفقات الأفراح ويبذرون المال بغير حساب ، سواء فى المآدب أو الزينات ومعالم الافراح ، ولا يكتفون بليلة واحدة . بل يحيون فى العادة ثلاث ليال ، منها ليلة الخضاب «الحناء» وهى التى تقام قبل ليلة الزفاف بمنزل العروس .

أما العريس فكان يجتمع بمنزله قبل يوم الزفاف أصدقاؤه الاخصاء ، ممن يجيدون العزف على الآلات الموسيقية والغناء . وكانت هذه الاجتماعات تسمى «بالضمم» ؛ فيقضى الجميع لياليهم فى سهرات لطيفة ، بين ألحان الموسيقى ونغمات الغناء .

وفى ليلة الزفاف كان العريس يرسل العربات الفخمة مع والدته ، لأخذ العروس من بيت أهلها . وتكون العربة المخصصة لها مزينة بالشيلان الكشميرية ، يجرها اثنان أو أربعة من جياد الخيل ، ويخفرها اثنان من الأغوات على الجياد ، «والمقدم» التابع للعروس ، وهو يسير على قدميه بجانب العربة . وكان هؤلاء الثلاثة والسائس يرتدون «شيلانا» من الكشمير تهدى اليهم من العريس . وكان المتبع فى سير الموكب أن تتقدم والدة العريس على العروس لتقودها إلى المنزل ، ثم تتلوهما والدة العروس . ويسير هذا الموكب خلف الموسيقى فيطوف بعض الشوارع الهامة حتى يأتى إلى منزل العريس ، فيتقدم هنالك لاستقبال عروسه ، فتأبى وتتمنع ، ولا تنزل الا بعد الحاح كثير . وعندئذ تنحر الذبائح على عتبة باب المنزل ويسير العريس مع عروسه حتى باب الحريم بين صفين من الأغوات فى فناء المنزل يمسكون بالشيلان الكشميرية لمنع الرجال من رؤية العروسين . ثم يستقبلهما المغنيات «العوالم» ويسرن أمامهما فى وسط المدعوات إلى «الكوشة» — وهى عرش مزخرف أعد خصيصاً للعروس ، والى جانبه مقعد لعريسها . وفى اثناء ذلك تبذر «البدرة» — وهى عبارة عن نقود ذهبية صغيرة من ذات الخمسة القروش — أو فضية من ذات القرش الواحد — يبذرها أهل العروسين

---

(١) وهى كلمة تركية تعريبها «العين السوداء»

على رأسيهما ، فتلتقطها الخادمات وبعض المدعوات بقصد « البركة » . والغرض منها صرف الحاضرات عن النظر للعروسين منعاً « للعين » !

ثم ينزل العريس إلى المدعوين من الرجال . وبعد ذلك يحتفل العوالم بالعروس فيرقصن ويغنين أمامها وهي فى « الكوشة » ؛ ثم يطفن لجمع « النقطة » من المدعوات كل بحسب ما تجود به ؛ ثم تقدم للعروس هدايا من أهل العروسين ومعارفهما . وهى عادة من الشيلان الكشميرى ، فى لفائف من الحرير ، عليها أسماء مهديها . فتعلن فى وسط الجموع وبعد تسليمها تفرش تحت أقدام العروس .

أما العريس فكان يخرج بعد تناول العشاء ، يحوطه جماعة من أصدقائه ، ويحف به اثنان يحملان باقتين من الورد ، ويتقدمهم بعض الخدم وهم يحملون « الفنايير » ذات الشمعة الواحدة . ما عدا الاثنين اللذين يتقدمان العريس ففنياراهما بعدة شمعات . ويؤلفون موكباً « زفة » تسير أمامه الموسيقى يتقدمها حاملو المشاعل الى المسجد . حيث يصلى العريس ركعتين ، ثم يعود بموكبه الى المنزل . وعند دخوله الى الحريم تزفه العوالم الى « الكوشة » ، وتعاد عملية البدرة . ثم يتقدم العريس الى عروسه فيرفع ما على وجهها من « الدواك » (١) ويراها لأول مرة ويجلس برهة بجانبها ، يقدم لهما فيها الشراب ، ثم يختفيان عن العيون .

وعلى هذا المنوال كان الاحتفال بزواج أخى محمود وهى وشقيقتى ، فى ليلة واحدة . ولضيق منزلنا أقام والدى العرس فى منزل على آصف باشا بدرب الشمسى . وهو متسع الفناء وغنت فيه المطربة الشهيرة « الوردانية » فى الحريم ، كما غنى « عبده » فى الرجال بالتناوب . ولا زلت أذكر تجوال « المطيب » وهو يدعو الحاضرين للاستماع مصفقاً بيديه منادياً : « هس . سمع »

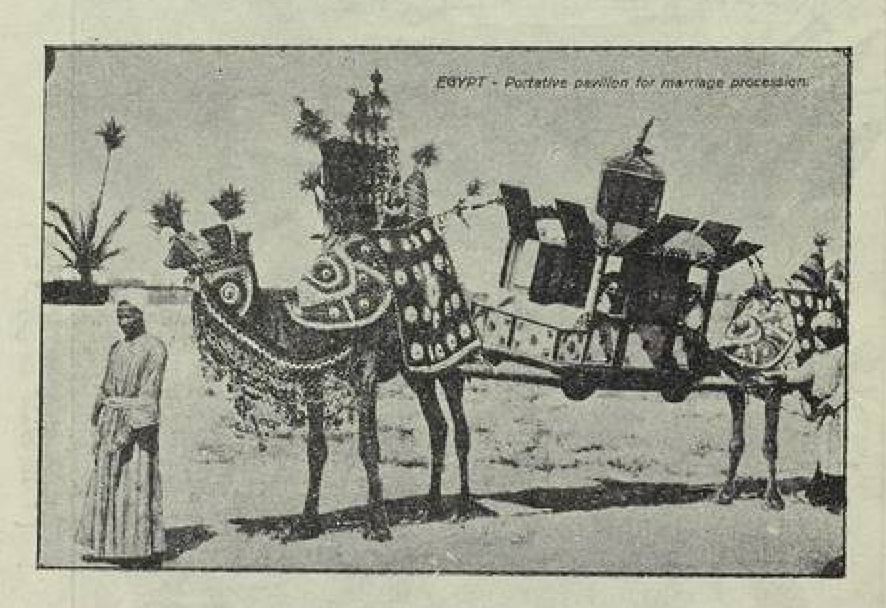
واذكر انه بين تناوب الاثنين كان يظهر قزم مضحك ، يسمى « الصدفجى » فيضحك المدعوين بنكاته . ولا تزال فى ذهنى صورته وقد شدوه فى بكرة الى أعلى السرادق ، وهو يصيح محركا يديه ورجليه بين الضحك والتصفيق .

أما أفراح الطبقة الفقيرة فان موكب العريس كان يختلف فى استعمال المشاعل بدل

---

(١) الدواك عبارة عن نقاب شفاف يوضع على الرأس ويتدلى على الوجه ثم يتسدل منه خيوط قصبية رقيقة .

« الفنايير » والطبل البلدى والمزمار غالباً بدل الموسيق . وكان العريس يقدم لأصحابه «شراب البوظه» عند مرور الموكب أمام أحد محلاتها ؛ فكان منهم من تبلغ به النشوة حداً كبيراً ، فيطلب أن يرقص امام المزمار ؛ وتقع اذ ذاك مصادمات كثيرة منشؤها التزاحم بين « الفتوات » على الرقص




« التختروان »

وأما العروس فكانت تلبس أفخر ملابسها ، وفوقها « التلى » ، وعلى رأسها «قرص» مزركش ؛ وتمشى تحت كلة « ناموسية » يمسك بها جماعات من الرجال ؛ ويكون معها غالباً اثنتان من صديقاتها ، وخلفها طبلتان ، وأمامها جماعة من الفتيات يسرن اثنتين اثنتين فى صف طويل ، وبجانبهن « المقدم » يلبس لباساً نظيفاً ، ومهمته تنظيم الصفوف من البنات فى كثير من التهويش ؛ وامام هؤلاء جميعاً يسير الطبل البلدى او الموسيق البسيطة يتقدمها احياناً « النقرزان (١) » والهودج ( التختروان ) وفيه بعض المغنيين حتى منزل العريس .

---

( ١ ) وهو طبل من النحاس له صوت عال يوضع فوق جمل مبهرج يركبه ضارب الطبل .



( زفة العروس عند الطبقات الفقيرة )

**حفلات الختان** . أما عملية « الختان » فكان يختار لها فرصة حفلة زواج غالباً لتقام لهما حفلة واحدة ؛ كذلك كانت تعمل وحدها فى بعض الأحيان . وكان الطفل الذى يراد ختانه . يلبس كساء عليه القصب ، ويضع منديلا حريرياً على فمه ، ويطاف به على حصان ، وتتقدم الموسيق « الزفة » ؛ وتارة كان يركب عربة ، ومعه الحلاق الذى يقوم عادة بعملية الختان .

وكان المتبع فى طبقات الأغنياء ، عند ختان ابنائهم ، أن يأخذوا أبناء أصدقائهم

لاجراء عملية الختان لهم فى منازلهم ، ويبقون بها حتى يتم شفاؤهم . وقد كان ختانى فى منزل بالمغربلين لحافظ باشا صديق والدى ، احد كبار الموظفين ، وكنا نبلغ نحو خمسة عشر صبيا

وبعضهم كان يدعو إلى منزله فى هذه المناسبة أبناء الفقراء ، فتعمل لهم العملية ، ويقدم لهم الطعام المناسب حتى يبرءوا .



( زفة المطاهر )

**سيطرة الطلبة على الأفراح** . ولقد كان للطلبة سهم وافر فى مشاهدة الأفراح ، اذ كانوا مغرمين بسماع المطربين المشهورين ، والمطربات الذائعات الصيت ؛ وكانوا يعرفون من بائعى « اللب » مواعيد الحفلات التى تقام ، فيذهبون اليها ؛ وهناك يطلبون غناء بعض الأدوار التى تروق لهم ؛ فاذا لم يجب طلبهم ، كان ذلك نذيراً بفساد الحفلة ، اذ يعمدون عندئذ الى الضجة والصخب ، والعبث بالكراسى والمصابيح ، يقلبونها رأساً على عقب ، وتنتهى الليلة على غير ما يرام .

**أفراح الأنجال** . ومن الأفراح التى شاهدتها فى عهد التلمذة ، أفراح الأنجال ، وهم توفيق ، وحسين ، وحسن ، أبناء الخديوى اسماعيل ، بزواج البرنسيسات : أمينة خانم أفندى كريمة الهامى باشا ، بن عباس باشا الأول .



أمينه خانم افندى عروس توفيق

وعين الحياة خانم أفندى ، بنت البرنس احمد باشا بن ابراهيم باشا الأول



عين الحياة هانم افندى عروس حسين

وخديجه خانم أفندى ، بنت البرنس محمد على الصغير بن محمد على باشا الكبير ،
وزواج اختهم البرنسيس فاطمه خانم أفندى ، بالبرنس طوسون بن محمد سعيد .



فاطمة هانم افندى عروس طوسون



خديجة هانم أفندى عروس حسن

وقد ابتدأت هذه الأفراح بحفلة العقد «كتب الكتاب» التي دعى اليها — غير أعضاء الأسرة الخديوية — العلماء، والنظار، وكبار الأعيان، فى سلاملك القصر العالى. وكان يرأس الحفلة خليل اغا، الذى كان محل اجلال الجميع، حتى كانوا يقبلون يده عند المقابلة لنفوذه الكبير عند اسماعيل ووالدته، وكلمته فى الدوائر الحكومية؛ وبذلك أصبح من ذوى الثروات الضخمة.

ابتدأت الحفلة بقراءة القرآن الكريم؛ ولما تم اجتماع المدعوين دخل الشهود الى داخل الحريم يتقدمهم الأغوات. حتى إذا وصلوا الى باب العروس، المسدول عليه الستار، سألوا العروس التى كانت بالداخل محاطة بقريباتها وصاحباتها: «هل تقبلين أن يكون فلان زوجك»؟

خليل أغا

على أن هذا يعقبه سكون تام. فيعاد عليها السؤال ثانيا وثالثا الى أن تجيب العروس بالقبول، فينصرف الشهود الى «السلاملك» ويمضى العقد، وتقدم الشربات فى أقداح من الذهب وتوزع الشيلان على المدعوين

وقد دامت حفلات الأفراح أربعين يوماً كاملة، زينت فيها الشوارع المؤدية إلى «القصر العالى» مقر والدة اسماعيل، المطل على النيل.

وكان امام القصر رحبة [1] فسيحة جدا، يفصلها عنه شارع قصر العيني الآن، وقد نصبت بها السرادقات الفخمة المتعددة، لاستقبال المدعوين. يتناولون صنوف الطعام فى بعضها؛ ويتمتعون بمشاهدة الألعاب، وسماع الغناء فى البعض الآخر. فقد غصت هذه الساحة بالفرق الموسيقية، والغنائية، وفى مقدمتها تخت عبده الحمولى، وبأنواع الملاهى الاخرى؛ كما كان فوق قوس النصر [2] فى شارع المبتديان، فرقة المزمار الشهيرة بجوقة «الفناجيلى» الدمياطى.

---

(١) هى الرحبة التى يشغلها الآن حى المنيرة

(٢) الذى نصب غرب شريط سكة حديد حلوان

كذا حضر كثير من الفرق التمثيلية . والجوقات الموسيقية . وفرق الحواة المصرية والاجنبية .

ومن أعجب ماشهدته فى تلك الحفلات امرأة « بهلوانة » يطلق عليها إسم « أم الشعور » وكانت تمشى فوق الحبل على ارتفاع كبير ، وتحمل معها وهى كذلك شاة صغيرة فتذبحها كأنها فوق الأرض ، متمكنة فى جلستها .

وكذا شاهدت أحد الأفرنج واقفا على منصة مرتفعة . وفوقه على بعد أمتار ، نور ساطع على هيئة القمر ؛ وكنا فى أشد الاستغراب لهذا الشكل القمرى المتقن الجميل(١)

ولمناسبة هذه الأفراح دعا اسماعيل تلاميذ جميع المدارس ، وطلبتها للاشتراك فيها بتناول الطعام ، ومشاهدة الألعاب ، وسماع الأغانى .

وكانت تقدم الذبائح والخبز الى بعض الفقراء والمحتاجين ؛ والى البعض الآخر فى أماكن مخصوصة منها : اللحوم . والديكة الرومية ، والدجاج ، والخبز والحلوى . وغيرها وكانت النيازك « السواريخ » تطلق من حديقة الأزبكية .

**جهاز العروس** . كان جهاز كل من عروس البرنسين حسين وحسن ، وكذلك جهاز البرنسيسين فاطمة خانم وأمينه خانم ، منسقا فى ثلاث غرف فسيحة بالقصر العالى للعرض على الانظار ؛ وهو يتكون من أنواع الحلى المختلفة الاشكال ، المرصعة بالجواهر والماس ، هذا عدا الأوانى الذهبية ، والفضية ، والمرايا ، وفناجين القهوة بأظرفها الذهبية المحلاة بالجواهر . وافمام الشبوكات التى من الكهرمان المطوق بالذهب المحلى بالجواهر .

وكان كل جهاز من الجهازات الأربعة ، يطاف به فى أنحاء المدينة محملا على عربات تحت حراسة الجند الراكب ، تتقدمها فرقة موسيقية لارسالها الى سراى العروس ؛ وكانت الشوارع التى يمر بها مزدحمة بالجماهير الغفيرة ، وكذلك كانت شرفات المنازل والفنادق غاصة بالمتفرجين .

وبعد ظهر يوم الأحد ١٩ يناير . توجهت عروس توفيق باشا — التى كانت تقيم فى سراى الحلمية مع والدتها منذ عقد العقد — الى القصر العالى . لتقضى فيه حتى الخميس ، ولتشاهد الحفلات التى تقام فيه بهذه المناسبة ، ولتزف بعدها الى سراى زوجها .

وكان من المقرر اقامة المآدب العديدة فى الخارج للاجانب والمصريين ، وفى داخل الحريم للاجنبيات ، وعدد عظيم من الوطنيات .

**داخل السراى** . كان الأغوات يرشدون ويصحبون المدعوات الى داخل الحريم ، على حين كانت القلفوات ، ومعهن بعض من تتكلم اللغات الافرنجية واللغة التركية ، فى استقبالهن من الوطنيات والأجنبيات ، فيحملن عنهن ملابسهن الخارجية

---

(١) لم تكن الكهرباء قد عرفت بعد

« اليشمق والفرجية » ومعاطف الافرنجيات ؛ ثم يرافقهن إلى الأمكنة التي أعدت لكل منهن ، بين عزف الموسيقى بجوقاتها المختلفة ، وأصوات المغنيات ، ومناظر الرقص بأنواعه ( كما يراه القارىء مفصلا فى الفصل المعقود للحياة الداخلية فى قصور اسماعيل ووالدته )
وبعد تقديم التهانى للوالدة وللاميرات ، تقدم للمدعوات القهوة والسجاير ؛ وعند تكامل حضور الأميرات ، وكبيرات المدعوات ، يقمن الى غرفة المائدة ؛ وهى غرفة فخمة وواسعة تتدلى من سقفها فى الوسط ثريا كبيرة ، على حين زينت الجوانب الأربعة ، بأشجار نخيل ، مصنوع من البللور ، ذى جذع سميك ، كأنه المنشور الزجاجى يعكس الأضواء التى تسقط عليه ، من ثريا مثبتة فى أعلى الشجرة ؛ وكانت المائدة على الطريقة الافرنكية

ويلبس الأميرات الملابس الفخمة الافرنجية التى جلبت خصيصا من أشهر محلات « المودة » بباريس ، وقام بضبطها وتكييفها على الجسوم أجنبيات مختصات بفن الخياطة بمصر ؛ وقد جلسن بثيابهن البديعة حول المائدة ، يشنف أسماعهن أثناء المأدبة فرقة موسيقية ماهرة

وبعد العشاء يرجعن الى الصالون الأول ، وهناك تقدم لهن القهوة والسجاير ؛ ثم ينزلن إلى صالون كبير فى الدور الأول ، تجلس الوالدة فى أحد أركانه ، فيقدمن لها التهانى كل بدورها ، ثم تبدأ الراقصات ، وتتعدد أنواع الرقص من تركى الى « مازوركه » الى « بولكه » — وهما رقصتان مزدوجتان على نحو الرقص الأفرنجى غير أن احدى الراقصتين تكون بملابس رجل — الى رقص السيف ، الذى يرقصنه بخفة ورشاقة .

وكانت الجوقات التى استدعاها الخديوى اسماعيل كما قدمنا ، تقوم بألعابها فى جزء من البهو المفصول بشيش لتتمكن الزائرات الجالسات فوق « شلت » من مشاهدة التمثيل بدون أن يتمكن أحد من رؤيتهن من خلفه

وكان الممثلون بين الفصول يخرجون لتناول المرطبات فى محل مخصوص ، معصوبى الأعين ؛ ويقودهم الأغوات إلى المقصف الموجود داخل الحريم ؛ ويفعلون مثل ذلك عند عودتهم لاستئناف التمثيل

وفى الساعة العاشرة تزف العروس ، ويصطف الأغوات صفين ، وبيد كل واحد « فنيار » ذو شمعات تعطى ضوءاً كبيراً ؛ وبين هذين الصفين تسير العروس فى أبهى حلل العرس ، مسدولا على وجهها الدواك الذهبى الرفيع ؛ وتكون العروس محلاة بأكثر ما يمكن أن تحمله من الحلى والجواهر الكريمة ؛ ويسندها فى مشيتها اثنان من الاغوات ؛ ثم تبدر عندئذ البدرة الفضية ، التى تحملها احدى « القلفوات » فى كيس كبير

وعند ما تصل العروس إلى غرفة العرش ، الكوشة ، تجلس على مقعد عال بين أمها وبين الوالدة .

ويكثر التزاحم على الدخول لمشاهدة العروس فى حليها الجميلة بسهولة ، وهناك تنثر البدرة الذهبية .

وبدلة العروس مرصعة من الرأس إلى القدم بالماس . ثم تخرج العروس من غرفة العرش وتتوجه إلى غرفتها الخصوصية ؛ ثم تخرج بعدها البرنسيسات وتنفض الحفلة

وبعد ظهر يوم الخميس ينتظم موكب زفافها للذهاب إلى سراى زوجها ؛ ويتقدم الموكب الموسيقى السوارى ، وفرقة من المشاة ، وأخرى من السوارى ؛ ثم يتبع ذلك العربات المقفلة فيها البرنسيسات قريبات العروس ؛ ثم تأتى عربة العروس ـ وهى عربة تشريفة كبرى مذهبة يجرها ستة من كرام الخيل ـ ويقف فى مؤخرة العربة اثنان من الفرنساويين بزيهم المخصوص الأبيض القصير الملاصق لأجسامهم ، وصداراتهم ذات الأزرار المذهبة وقبعاتهم ؛ ويلبس الحوذى والذى بجواره مثل تلك الملابس أيضاً ، على حين يركب آخر فى نفس الزى على الحصان الأول الأيمن ؛ ويحف بالعربة صفان من الأغوات على جيادهم ؛ وكلهم يرتدون الشيلان المهداة لهم ؛ ويلى ذلك العربات الخصوصية لكبار المدعوات لمرافقة العروس ؛ وعند وصول العروس إلى سراى زوجها يستقبلها الزوج ، وتنحر الذبائح ، وتزف داخل الحرم ، ويحسر زوجها النقاب المبرقعة به عن وجهها .

**الزواج** ولعل من المناسب هنا أن اذكر شيئا عاما عن الزواج فى ذلك العهد :
فقد كانت رسومه تتم خفية عن الزوجين ، فلا يعلمان عنها شيئا ؛ وكانت الاسرة هى التى تتولى أمر الخطبة ، أو ينيبون عنهم الخاطبة دون أن يكون للخطيبين نفسهما أية إرادة . بل لقد كان الغلو فى ذلك يصل إلى حد أن بعض أفراد أسرة الخطيب نفسا لا تعرف شيئا عن خطيبة ابنها إلا ما ترويه ( الخاطبة ) . وقد حدث لى ذلك مع أسرة شريفة ؛ فبعد أن انتخبتنى هذه الأسرة لأكون زوجاً لابنتها ، عدل عن ذلك لمجرد رغبة والدتى فى رؤية الفتاة المخطوبة .

وقد كان لهذه العادة عيبا ، إذ كان يحدث نفور بين الزوجين أحيانا حتى فى ليلة الزفاف — كنتيجة لعدم تعارفهما قبل أن يكونا أسرة — على أن الشرع يبيح رؤية الزوجة .

وفى ذلك الوقت — حيث كانت المحاماة فى دور البداية ، وكان المشتغلون بها من بيئات مختلفة ، ولم تكن مواهبهم قد ظهرت بعد حتى تجعل لهم مركزاً اجتماعياً جديراً بالاعتبار — فى ذلك الوقت كانت الأسر الطيبة تنفر من تزويج بناتها بطائفة المحامين خوفا من التعيير ، للاعتقاد السائد يومئذ بان المحامى رجل يقلب الحق باطلا والباطل حقاً !!

فاذا تمت الخطبة يتقدم العريس الى عروسه بهدية (نيشان[1]) وهى حلية من الجواهر أو الذهب المرصع بالجواهر ، أو الذهب الخالص ، حسب قدرة العريس دون مغالاة ؛ كما كان المهر كذلك لا مغالاة فيه فلا يعرف أهل ذلك العصر أزمة الزواج !

وفى حفلة كتب الكتاب توزع « شوْرات » ، وهى قماش مقصب فى أركانه الأربعة ، توضع كل قطعة منه داخل منديل من الحرير ، يوزع على المدعوين فى الحفلة .

**المآتم والجنائز** كان نظام الجنازة بالنسبة للأسر الغنية أن يتقدم الموكب « الضحايا » من الجاموس أو البقر ، ثم « الكفارة » ، وهى جمل يحمل صندوقين « صحارتين » مملوءتين بالخبز ، وقد اقتعد غارب الجمل رجل يوزع طول الطريق مما عبئت به الصناديق من الخبز : كما يتبعه جمل آخر على نفس الصورة لتوزيع التمر الجاف والفاكهة ثم طائفة من عسكر البوليس ركبانا أو مشاة ؛ ثم أرباب الطرق المختلفة والمولوية ، وقراء دلائل الخيرات ، وحاملو القماقم والمباخر ينثرون ماء الورد وأريج البخور فى الطريق وقد حزمت أوساطهم بقماش رقيق من الحرير « الزردخان » ؛ ثم غلمان المكاتب ينشدون قصيدة البردة المعروفة ، فالنعش يتبعه أهل المتوفى والمعزون ؛ ثم السيدات وتنحر الذبائح على باب القبر عند وصول النعش ، وتوزع لحومها على الفقراء .

أما المآتم فكانت مظاهر الحزن فى الأسر الكبيرة رزينة ؛ وفيها حشمة ووقار ؛ وكانت ليالى المآتم فى العادة ثلاثا ؛ ثم تقام بعد ذلك حفلات متعاقبة فى الأخمسة الأربعة التالية ؛ وكانت تنصب السرادقات ، وتمد فيها الموائد الكثيرة للمعزين فكانت حالة ينطبق عليها المثل العامى « موت وخراب ديار » يختم ذلك بليلة الأربعين .

أما المظاهر المفجعة الشديدة فكانت تبدو فى الطبقات المتوسطة والدنيا ، حيث كانوا يشيعون الميت بالندب ، والعويل ، ولطم الخدود حتى المدافن ؛ ثم يحضرن النادبات فى الايام الثلاثة والأخمسة . وكان المتبع عندهم أن تصبغ الملابس بالنيلة وأن يغطى الأثاث بالسواد . وظلت هذه العادة حتى الغيت بأمر الخديوى توفيق .

(١) وهى المعروفة الآن ( بالشبكة )

**فوضى القضاء .** القضاء الأهلى . لما تولى اسماعيل وجد أن أحوال البلاد لاتسمح ببقاء حالة التقاضى على ما كانت عليه فى زمن اسلافه من الفوضى المطلقة ، وعدم وجود قوانين يحكم بمقتضاها

فأصدر أمره فى ( ديسمبر سنة ١٨٦٤ ) بتعديل بعض المجالس واختصاصاتها، وأهمها جعل مجلس مصر ومجلس الاسكندرية مجلسى استئناف ( ابللو ) وجعل « مجلس الأحكام » مجلساً عالياً ، لمراجعة الأحكام وتطبيقها على القوانين بمثابة محكمة نقض وابرام « روكيت سفيل »

وفى ( يونيو سنة ١٨٧٠ ) صدر أمره الى مجلس الأحكام بتشكيل المجالس كلها على ترتيب جديد ، وجعلها خمسة عشر مجلساً بدلا من تسعة مجالس فى جميع المديريات والمحافظات . وجعل خمسة مجالس لاستئناف القضايا ( ابللو ) . وفى تلك السنة انشئت لائحة لم يبين بها طرق المرافعات، ولا القانون الواجب اتباعه ، بل كلها لغو وحشو ؛ وكل مايستفاد منها احالة الخصومات الجزئية على جهات الادارة . وكان المأمورون والمديرون ورؤساء المصالح هم الذين يحكمون فيها بناء على المنشورات التى تصدر من مجلس الأحكام والمجلس الخصوصى ، الذى كان قد تشكل بأمر من اسماعيل فى سنة ١٨٧٢ للنظر فى المسائل الهامة بأنواعها ، ومنها النظر فى القضايا التى ترفع من الأفراد على الحكومة .

ومع ذلك كله لم يسن قانون لهذه المجالس على كثرتها ، بل استمر العمل جارياً بمقتضى القوانين التى كانت متبعة فى عهد المرحوم سعيد باشا . فظل اختلال القوانين واجمالها وابهامها ونقصها يؤدى الى ضياع الحقوق ، ويوقع المتقاضين فى الارتباك . وبالجملة فقدكانت حياة المتقاضين موقوفة على الوشاية ، وكانت المحاكم لاتعرف لنفسها اختصاصاً، لأن الادارة كانت تسيطر على كل شىء ؛ وتنظر فى جميع مصالح الناس صغيرها وكبيرها سواء تعلقت بالمعاملات الخاصة ، أو ارتبطت بالمنفعة العامة .

ولم يتمكن دوان الحقانية ( قبل أن يصبح نظارة ) من الاستقلال عن الادارة التى كانت تعتدى عليه ، وتسلبه اختصاصه .

فمثلا كان يوجد فى كل مديرية ، وكل محافظة ، قلم يسمى قلم الدعاوى أو قلم القضايا. وكانت وظيفته تحقيق المسائل الجنائية بأنواعها ، وحفظ ما يرى وجوب حفظه ، واحالة ما يستحق النظر فيه الى المجالس ؛ وكان يباشر التحقيق تحت رياسة المدير ، أو المحافظ الذى كانت له الكلمة العليا . وقد استمر الحال كذلك ودوان الحقانية موجود يعانى هذه الحالة بقدر المستطاع، حتى تمكن من أن يجعل من نفسه سلطة تشريعية تسن القوانين

واللوائح . راجعاً فى أغلب أحكامه الى القوانين الفرنسية ، و« كتاب المجلة» التى كانت تحتوى على القوانين الشرعية ، والأحكام العدلية ، و«القانون الهمايونى» الذى كان متبعاً فى الاحكام الجنائية المستعملين فى تركيا .

ومن أشهر اللوائح التى سنها ديوان الحقانية . لائحة عمومية وزعت على المجالس كلها تتألف من أربعين مادة ، اشتملت على قواعد فى الاختصاص ، وأصول المحاكمات . وهى اللائحة التى اشتهرت بين المشتغلين بالقانون باسم ( لائحة الاربعين ) .

أما المجلس المخصوص ، فهو مجلس ادارى صرف ، وهو الذى أصدر الحكم بنفى اسماعيل باشا المفتش . وفى سنة ١٨٧٢ طلب مجلس شورى النواب من الحكومة تشكيل محاكم الاخطاط والقرى لنظر القضايا الصغيرة ، فأجيب الى طلبه .

**القضاء المختلط** . ولم يكن الحال فى القضاء مع الأجانب بأفضل من التقاضى بين الأهالى ، بل كان أشد فوضى . فقد كان الأجانب تابعين فى القضاء لقناصلهم ، يقضون بينهم بشرائع بلادهم ، فيما ينجم بينهم ، أو بين المصريين وبين الأجانب فى الدعاوى . وكانت القنصليات حكومات صغيرة داخل الحكومة ؛ وكان الوطنى يضطر إلى رفع الدعوى على الأجنبى أمام قنصليته ، فاذا أراد مقاضاة عدة أجانب من جنسيات مختلفة رفع عليهم قضايا بعددهم ، وتكبد فى ذلك مشاق هائلة ، ودفع رسوماً مضاعفة ، فاذا خسر دعواه كان عليه أن يستأنفها فى محكمة المدعى عليه فى بلده لا فى مصر ؛ وإذا فرض أنه انتهى إلى حكم فى صالحه فكثيراً ما كان المحكوم عليه يحول القضية على أجنبى آخر يتدخل فى الدعوى فتأخذ مجراها من جديد . ولهذا كان يفضل الوطنى ترك حقه بدل هذه التعاريج الطويلة التى يخرج منها صفر اليدين .

ولم يكن الأمر قاصراً على استعمال الامتيازات ، التى منحت للأجانب ، بل توسعوا فيها من أنفسهم ، حتى أصبحت لهم شبه سيادة على المصريين ، وامتدت سلطتهم إلى الرءوس الكبيرة فى البلاد .

ولما رأى اسماعيل هذه الحالة التى لا تطاق ، انتهز فرصة افتتاح قناة السويس للسعى فى تأسيس محاكم مختلطة للفصل فى الدعاوى المدنية والتجارية والجنائية ، فكلف نوبار باشا بأن يدعو لجنة دولية إلى عقد اجتماع فى مصر لبحث هذا المشروع .

إلا أن الأجانب عارضوا بطبيعة الحال ، ووضعوا العراقيل بقدر المستطاع ، فاضطر نوبار للسفر إلى باريس ، ولندن ، وبرلين ، وروما ، وبطرسبرج . ومما زاد المسألة تعقيداً

أن تركيا قامت تنكر على الحكومة المصرية حق الاتفاق مع الدول الأجنبية على هذا المشروع
وأخيراً سافر نوبار للأستانة واستطاع تسوية هذه المسألة .

وكانت فرنسا أكثر الدول عداء للمشروع ، حتى بعد أن قبلته الدول الأخرى ، فلم يعبأ نوبار برأى فرنسا وافتتح إسماعيل المحاكم المختلطة فى سراى رأس التين يوم ٢٨ يونيو سنة ١٨٧٥ .

**الحفلات الدينية** . وفى تسميتها حفلات دينية مجاز ارتكبناه تمشياً مع الاعتقاد العام ، وان كنا نرى أنها ليست من الدين فى شىء ، إلا فى المقصد الأصلى لاقامتها .

**المولد النبوى** . يبدأ المولد فى ٢٥ صفر بأن يجتمع رجال الطرق الصوفية بميدان باب الخلق ، وكل طريقة معها أعلامها ؛ وعند تكاملها تسير فى موكب ينشدرجالها ترانيم كل طريقة بنغمتها ، مع دق الدفوف ، وقرع « البازة » ، إلى أن يصلوا مركز مشيخة الطرق الصوفية ، حيث يستقبلهم السيد البكرى ، فتقرأ الفاتحة والصلوات والتسليمات ثم يجتمع مشايخ الطرق لديه فيعلن افتتاح المولد الشريف ، ثم ينصرفون . وفى عصر يوم ٢٨ صفر يجتمع القراء لقراءة آى الذكر الحكيم ، وفى مسائه يدعى الأمراء والعلماء وكبار الموظفين والأعيان لسماع قصة المولد الشريف ، ثم يأتى أرباب الطرق المختلفة جماعات جماعات كل أهل طريقة بدورهم ، وأمامهم حاملو الفوانيس الخاصة بهم - وهى فوانيس كبيرة مغطاة بقماش أبيض رقيق بدل الزجاج - فيستقبلها السيد البكرى؛ وبعد قراءة الفاتحة والصلوات والتسليمات ، يقام مجلس الذكر ، وينشدهم الشيخ الشنتورى . ويستمر احياء الليالى فى سراى السادة البكرية لغاية يوم ٤ ربيع الاول .

وقد شاهدت أحياناً حالة ( انجذاب ) تعترى بعض الذاكرين فيكونون فى شبه غيبوبة ، ويهدرون ، ويتصاعد من أفواههم رغاء كرغاء الابل ، فاذا اعترتهم هذه الحالة تقدم منهم شيخهم ، فهدأ من روعهم ، وأذهب بتلاوة القرآن ما بهم !

والذى كان يدهشنى أن بعض أرباب الطريقة الخندوشية ( المغاربه ) حين كانت تعتريهم هذه الحال ، يتناول شعلة من النار فيدخلها فى فمه ، أو تحت أبطه ، دون أن يبدو عليه أدنى تأثر .

ومنهم من كان يقذف جلة من الحديد ، ثم يتلقاها بيافوخه فيسيل دمه دون مبالاة .
وبعـــد ذلك كانت تحيا الليالى فى الساحة التى تخصصها الحكومة ، حيث كانت تنصب

السرادقات كما هو معمول به حتى اليوم . وفى وسطها سرادق الخاصة الخديوية وبجانبه سرادق السيد البكرى .

**حفلة الاشاير والدوسة** . كانت المعتقدات والتقاليد الخرافية ذائعة منتشرة ، ومن ذلك ما كان يبدو فى حفلة الأشاير ، وعملية « الدوسة » وموعدهما فى يوم ١١ ربيع الاول .

يجتمع فى ذلك اليوم أرباب الطرق الصوفية بميدان باب الخلق بالنظام السابق الكلام عنه ؛ ويسير الموكب بأهم شوارع المدينة . وكانت يومئذ تضم جماعة من المشعوذين ، منهم من يأكل الزجاج والثعابين ، ومنهم من يضرب شدقه بدبوس ذى رأس غليظ فى عنف وقسوة ؛ بل كان بعضهم يضع حد السيف على بطنه ثم ينام فوقه حتى يعلوعليه شيخهم، ثم يبل بربقه موضع السيف أو موضع الدبوس ليشفى ؛ وعندما يصل موكب الأشاير إلى ساحة المولد النبوى أمام صيوان البكرى يقرأ رجال كل طريقة الفاتحة وامامهم شيخهم بحضور ولى الامر والمدعوين، وبعدذلك ينبطح الكثيرون على وجوههم فى صف كبير ؛ ثم يمر فوقهم شيخ السادة السعدية بحصانه ، يقوده اثنان من اتباعه ، وهم يعتقدون أن سينالهم من جراء ذلك خير كثير . وكان الناس يروحون عليهم بمراوح يدوية ، أو بملابسهم اثناء انبطاحهم على الأرض فى الحر الشديد . . وقد أبطل الخديوى توفيق باشا هذه الحفلات العنيفة المزعجة . التى كانت خاصة بطريقة السادة السعدية المنتسبين الى سعد الدين الجبائى دفين ( جبا ) من ضواحى دمشق .

وفى المساء تمد الموائد فى سرادق البكرى المدعوين ؛ وبعد صلاة العشاء يشرف الصيوان الجناب الخديوى لسماع قصة المولد النبوى الشريف ؛ وفى ختام قراءة القصة يوزع الحلوى وشراب الليمون على الحاضرين ؛ وينصرف بعد ذلك سموه الى سرادقه حيث يبدأ بالالعاب النارية .

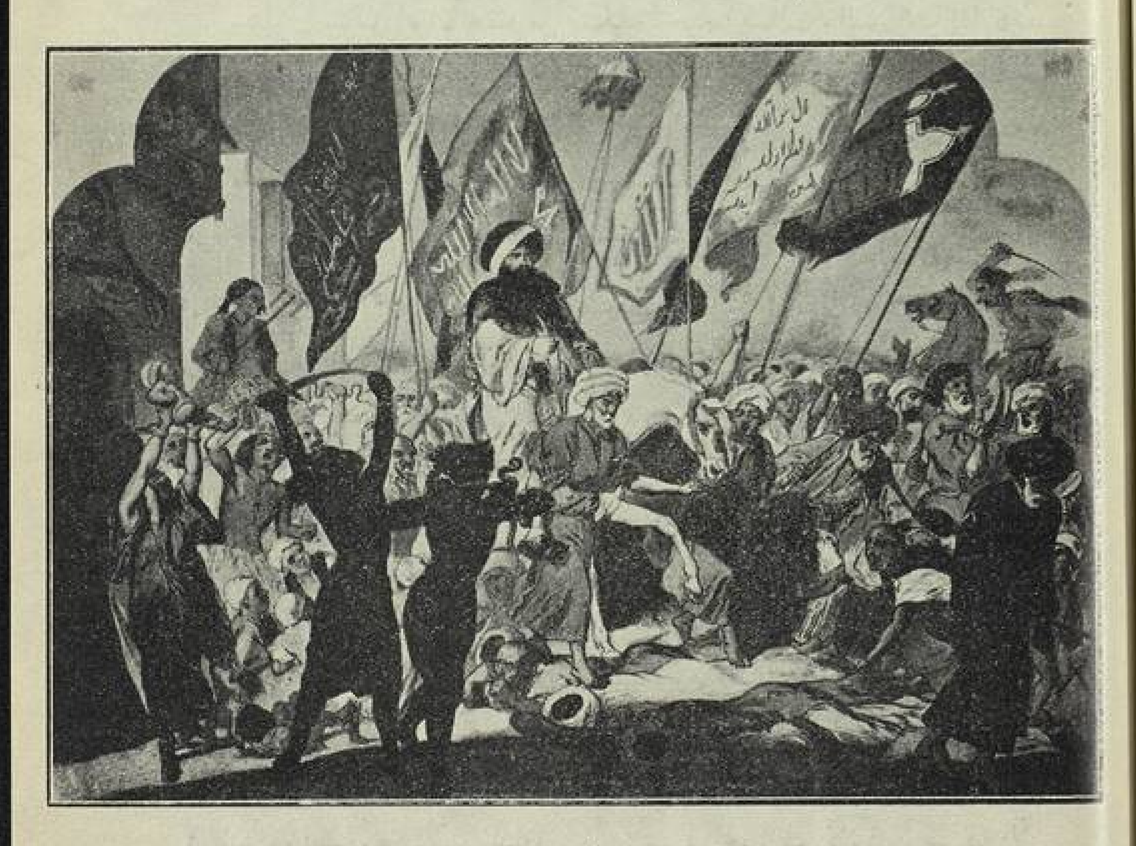
ويزدحم الناس فى هذه الليلة ازدحاماً لا مثيل له لمشاهدة هذه الأذكار ، وسماع أناشيدها ، ورؤية النيازك .

وينتهز الشباب فرصة الزحام ، فيكثر الغزل بين الفتيات والفتيان ، وتمشى رسائل ( اللب والفستق ) ونحوها بين العربات التى تحمل الجنسين ، مما يجعل من الليلة مهرجانا حظ الفتنة فيه أكبر من حظ الدين ، ان كان للدين حظ فى أمثال هذه الحفلات

ومن أقبح ما رأيت رجل يسمى نفسه « على كاكا » يرتدى جلباباً أبيض قصير وقد حزم وسطه بحبل تدلى منه مايشبه الآلة الجنسية مكبرة ؛ وبيده سوط طويل « فرقلة »

ومعه غلام ، فتجرى بينهما مغازلة مجونية ، بألفاظ مبتذلة غاية التبذل ، فيزدحم حوله خليط من النساء والرجال ، وقد ارتفع برقع الحياء ، وأسفر عن وجوههن الاحتشام وقد يقود البعض البعض الى حيث يقضون ساعات ترضى الشيطان

وحلقة « على كاكا » هذه تنصب فى المولد النبوى وفى الموالد الأخرى ، مما يجعل أمثال هذه الحفلات بريئة من الدين والأخلاق



حفلات الأشاير والدوسة

**التكنية** . رافقت والدى بعد الافطار فى ليلة ٢٧ رمضان إلى دار السادات الوفائية ببركة الفيل ؛ وكانت ليلة خاصة بمنح (الكنى) . فلما وصلنا الى الدار شاهدنا جمعاً كبيراً محتشداً فى الصالة العربية الكبرى المسماة « أم الأفراح » ؛ وقد جلس السيد عبد الخالق السادات فى وسط هذا الجمع ، وبالقرب منه كاتب أمامه سجل على منضدة صغيرة ، وبجانبه احد النقباء واقفاً . فاذا أراد أحد الحاضرين أن يسمع

( كنيته ) يقدم الى السيد عبد الخالق مصحوباً باثنين من النقباء . . وتقرأ الفاتحة وينادى النقيب باسمه بصوت جهورى . وبعد برهة تمر فى سكون وصمت ، ينطق السيد عبد الخالق السادات بالكنية التى يختارها له ، فيسجل الكاتب اسم الشخص وكنيته والتاريخ

هكذا كان عندما تقدمت بطلب الكنية ، وأعلن اسمى ولقبى ثم لفظ السيد بكنيتى فاذا هى : « أبو النور » .

وبعد أن سمعنا أنواعا مختلفة من الكنية ، خرجنا فسألت والدى عما إذا كانت الكنية التى من نصيبى هذه الليلة تعطى فى المستقبل لآخر ، أو اذا تقدمت مرة أخرى ينطق السيد بنفس الكنية ؟

فأجابنى بان المشاع ان كل شخص يأخذ كنية لا تعطى لغيره ؛ ولا تتغير اذا تقدم مرة ثانية . ثم قال : ولكنى شخصياً لا أعتقد ذلك .

**حفلة جبر الخليج** . كانت العادة عند مايبدأ النيل فى الزيادة ، أن يقام سد عند اتصال النيل بالخليج الذى كان يشطر القاهرة شطرين ، يستقى منه أهلها . وهذا السد يكون أعلى من نسبة أكبر فيضان ليحجز المياه ؛ وكان يقام فى النقطة المعــــروفة الآن ( بفم الخليج ) قبلى الرصيف الذى تقام عليه الآن حفلة وفاء النيل .

وعند تمام الفيضان توقد المشاعل على هذا الجسر ، وتنصب الأعلام والزينات والسرادقات ، ويدعى لهذه الحفلة النظار ، وكثير من العلماء ، والذوات ، وكبار الموظفين ، لتناول طعام العشاء ، وسماع المطربين ، ومشاهدة اطلاق « السواريخ » .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر شيئاً عن « العقبة » وهى الفلك « المركب » الذى لا يزال حتى اليوم ، كما كان فى ذلك العهد ، يزين بالأعلام وغيرها من أنواع الزينات ؛ ويركب فيها فرق الموسيق ، والطبل البلدى ، والمزمار ؛ ثم تخرج من الترسانة ، أمام حى بولاق ، تتهادى فى النيل ، وتطلق وهى سائرة المدافع ، حتى ترسو فى المحل الذى لاتزال ترسو فيه الآن

وكيفية قطع السد أن ينقصوه شيئاً فشيئاً حتى يبقى جزء رقيق ؛ وعند الصباح يتلى الفرمان الذى به يجب الخراج على أهل مصر بحضور العلماء وفى مقدمتهم المفتى ، والأعيان ، وكبار رجال الحكومة ؛ ثم يزال مابقى من السد ، فتتدفق المياه فى الخليج ، وتبدر النقود فرحا وسروراً بهذا الفيضان الميمون .

على أن هذا اليوم يكاد يشبه أيام الأعياد فى القاهرة ؛ وخصوصاً فى البيوت المطلة على الخليج ؛ فيدعو أصحابها أصدقاءهم لمشاهدة تدفق المياه ، وتبسط لهم الموائد .

# الفصل الثالث

## الحياة الداخلية فى قصور اسماعيل

**فى سراى عابدين . استقبال الزائرات . فى السرايات الاخرى . فى سراى الوالدة « القصر العالى » . الجوقات الموسيقية والغنائية والتمثيلية**

كنت أسمع فى أواخر عهد اسماعيل أخباراً عن الحياة الداخلية فى قصوره ، وكنت أعدها خيالا أو مبالغاً فيها على الأقل ، فتحدثت الى حماتى ، زوجة الفريق راشد راقب باشا ، الذى استشهد فى حرب الحبشة ، وشقيقتها حرم محمد بك عبيد ، أحد زعماء الثورة العرابية ، واحدى كبيرات « القلفاوات » الموجودة للان على قيد الحياة ، وكلهن من معتوقات اسماعيل . وكانت حماتى ذات مكانة خاصة لدى البرنسيسات فكانت تعرف ما لا يعرفه غيرها ، فحصلت على ما يجعلنى مطمئنا لما اذكره فى هذا الباب

**فى سراى عابدين** . الروايات التى تتناقلها الألسن عن أن سرايات اسماعيل كانت مملوءة بالآلاف من الجوارى والراقصات والمغنيات والعازفات على الآلات الموسيقية النحاسية أو الوترية ، مبالغ فيها . بل لم يكن موجودا فى سراى اسماعيل الا جوقة وترية خاصة بالزوجة الثالثة له ومعها مغنيات

كان اسماعيل يقيم أغلب أوقاته فى عابدين مع البرنسيسات زوجاته الأربع حتى زواج ولى عهده توفيق باشا ، فقد انفصلت والدته بعد زواجه وأقامت فى سراى القبة وذلك عقب صدور الفرمان السلطانى بجعل ولاية مصر وراثية فى أكبر أولاد اسماعيل . وقد أشار السلطان على الخديو بأن يعقد على والدة توفيق فصدع بالامر فصارت الزوجة الرابعة .

الزوجة الرابعة لاسماعيل والدة توفيق

أما البرنسيسات الثلاث فكانت تقيم كل واحدة منهن فى « بلك » ـ وهو مسكن خاص مستقل ـ ولكل منهن « قلفاوات » توزع عليهن الوظائف المختلفة من « خازندارة وچماشرجية ... الخ » وكان للقلفاوات خادمات خصوصيات من الجوارى السود . وفتيات شركسيات ، يدربنهن للقيام بما تقوم به القلفاوات اذا ما كبرن

أما اسماعيل فكان له « بلك » تقفل أبوابه عند دخوله فى المساء وكانت له أيضاً حاشية خصوصية من المحظيات والجوارى

وكان سموه يتناول الطعام مع البرنسيسات على الطراز الأوروبى . وكان « العشى باشا الأسطى ابراهيم » ـ الذى خلف طاهيا فرنسيا فى القصر ـ والد محمود باشا فهمى وكيل دائرة المغفور لها الوالدة ، يرسل الأطعمة المخصصة للخديو ، على سنة سلاطين آل عثمان ، فى أوان ملفوفة بالقماش ، ومختوم عليها بالشمع الاحمر ، الى غرفة متصلة بالحرم فيتسلمها محمد بك الناغى « السفرجى » الخصوصى لاسماعيل ، ثم يخرج من هذه الغرفة فتتسلمها أربع « سفرجيات » من الجوارى تفك أختام الاطعمة وتقدمها إلى المائدة . وهذا فى الاوقات التى تسمح لسموه بتناول الطعام مع البرنسيسات .

وكانت تقدم الاطعمة فى أوان من الفضة ، الا فى المناسبات الخاصة فكانت من الذهب [1] . ومن الأطعمة المشهورة فى السراى صنف « الرز الخديوى » المصنوع بخلاصة الرءوس الضأن أو البقرى ، والديكة الرومية بكيفية مخصوصة

**استقبال الزائرات** . كان استقبال الزائرات سواء كن من الأفرنج أو أهل البلاد ، بان يتقدم الأغا ، ويساعدهن فى النزول من العربة ، ويرافقهن إلى باب الحريم . وهنا تأتى جوار مدربات ليتسلمن منهن « اليشمق والفراجية » أو المعاطف ، ويرافقنهن إلى « الصالون » فى الدور الاسفل ، وهو مؤثث بالأثاثات الفرنسية الفاخرة . ثم ترشد الزائرات الى « الصالون » الخصوصى للاميرات بالدور الثانى . وفى الاستقبالات الهامة تتقدم الزائرات احدى القلفاوات ، فى زى رجل بملابس مزركشة ، وكانت تختار ذات وسامة وقد رشيق طويل ، تحمل فى يدها عصا مفضضة غليظة . فتسير بين أيديهن الى حيث البرنسيسات ، وكان يطلق عليها اسم ( الشاويش )

وكانت الاميرات يلبسن الملابس الحريرية الفاخرة ، ذات الألوان الزاهية والأذيال الطويلة فى زى افرنجى ، وكن يجلسن عند الاستقبال بجوار بعضهن ، وتقدم الزائرات الى

---

(١) وقد حمل اسماعيل معه حين سفره من مصر الاطقم الذهبية الثمينة وكانت فى مخزن فى الجزيرة

كل واحدة منهن الوصيفة الخاصة بالترجمة عند وجود الأجنبيات . وكان يقوم بهذه المهمة بالتناوب وصيفتان هما قوبسز خانم وچاره سزخانم





قوبسز خانم « الوصيفتان » چاره سز خانم

ثم تقدم القهوة فى فنجـــان ذى ظرف مصوغ من الأسلاك الذهبية الرفيعة على أشكال جميلة ومرصع بالماس ، وكان يسمى « شغل شفتشى أو سودانى »

ولقد كانت الداخلة لاول مرة فى سراى عابدين من الزائرات تدهش لمنظر الجوارى اللائى يستقبلن الزائرات فى ملابسهن الفخمة ، وتتساءل : أحقاً هؤلاء مملوكات ! !

أما فى الحفلات الكبرى ، فى الأعياد وأفراح الانجال ، فكانت البرنسيسات يتزين بأبهى زينة من الملابس المزركشة بالجواهر ، مما لايشاهد حتى عند الملكات الأوربيات ( كما يرى القارىء فى الصور الثلاث لزوجات اسماعيل )



شُهْرَتْ خانم افندى الزوجة الاولى



چنانير خانم افندى الزوجة الثانية

**فى السرايات الاخرى** . وكان اسماعيل ينتقل بعض الاحيان من عابدين إلى إحدى السرايات الاخرى فى الجزيرة أو الاسماعيلية أو الجيزة . وكانت الاميرات ترافقه فيها وكذلك كان للخديو فى كل من هذه السرايات « بلك » مخصوص تقيم فيه «القلفاوات» الخصوصيات والمحظيات

أمّا كيف كانت زوجات اسماعيل يعشن على وفاق مع انهن ضرائر ، فضلا عن وجود محظيات كثيرات له. فقد علمت أن الغيرة لم تكن لدرجة احداث شقاق بينهن فى الغالب . واذا حدث شيء من ذلك كان « خليل اغا » « باش اغا والدة اسماعيل » يقوم بتلافيه. والفضل فى ذلك يرجع لاسماعيل فانه عقد على من كان يعتقد فيها الرزانة والعقل الراجح ، والمحافظة على المقام العالى الذى يرفعها إليه ، فكن لآخر حياتهن محترمات موقرات من الجميع



چشم آفت خانم افندى الزوجة الثالثة

وقد كانت الزوجة الثالثة لاسماعيل ذات مكانة خاصة لديه ، وكانت تتمنى لو رزقت خلفاً ، فلما لم يقدر لها ما تمنته فكرت فى أن تتبنى لها بنتاً ، وقد وقع اختيارها على فائقة خانم لما رأته فيها من صفات طيبة ، واخلاق فاضلة ، وهى الآن زوجة حضرة صاحب السعادة محمد عزت باشا ،



فائقه هانم متبناة الزوجة الثالثة

**والدة الخديو اسماعيل** . كانت فى شبابها جميلة الصورة ، وقد بقى أثر هذا الجمال مدة حياتها ، وكانت تحب السرور والانشراح . وقد أقامت مع حاشيتها الكبيرة فى سراى الزعفران بالعباسية

وقد تركت الوالدة هذه السراى بعد أن شيدت سرايا فخمة متسعة مطلة على النيل ، فى نقطة حى «جاردن سيتى» الحالى. فنى هذه السراى كان يوجد «طقم» موسيقى ، كالموجود فى آلايات الجيش ، مؤلف من أربعين عازفة لهن مديرة برتبة الاميرالاى ، وعلى صدرها نيشانان . وهى التى كانت تدير بعصاها الفضية هذا الطقم . وكان أفراد هذه الجوقة ترتدى البنطلون والجاكته ذات الازرار المذهبة من الجوخ الاحمر المزخرف « بالقصب » وتلبس على رأسها طربوشاً

وفى أيام الاعياد والمواسم والاستقبالات الكبيرة وفى أفراح الأنجال السابق الكلام عليها ، كانت الموسيقى تعزف فى « كشك » من الخشب متصل بالحريم ، وعند دخول الزائرات تعزف بالسلام ، وبالأدوار العربية والتركية والأفرنكية . وكان يوجد فى البهو الداخلى فرقة أخرى موسيقية وترية مصحوبة بمغنيات مصريات وتركيات

بالسراويل المزركشة بالقصب ولهن أصوات جميلة فيطربن الزائرات ؛ وفى مكان آخر كانت توجد فرقة راقصات فى أحسن زى وكلهن من ربات الجمال ؛ وكان يوجد فوق ذلك فرقة لتمثيل روايات مضحكة ( أورطه أويون ) ويوجد بينهن من يمثلن الرجال

من ذلك يتبين أن الأميرة خوشيار خانم افندى والدة اسماعيل ، كان لها غرام بالفن الجميل ؛ وكانت تنتقى الجوارى الحسان ، وتأتى لهن بالمعلمين والمعلمات مصريين وأتراكا وأجانب . ولا مبالغة اذا قيل أن هذه السراى كانت تحوى من الجوارى الحسان واتباعهن السودانيات ما يبلغ الالف عداً

وهؤلاء الجوارى كن يشترين من بعض الأتراك الذين كانوا يأتون بهن من الاستانة ؛ وأغلبهن من أصل شركسى ، يأتون بهن صغار السن ، ويربونهن ويعلمونهن ثم يبيعونهن للسرايات وللكبراء . أما أميرات البيت الخديوى فيرسلن أحدى القلفاوات المعتادة انتقاء الجوارى ، فتطلع على أجسامهن ، وتختبرهن فى ما تعلمنه ، وتنتقى من تصلح وتشتريها . وفى بعض الأحيان كان يوصى « اليَسَرجى » عندوجود ( بضاعة طيبة ): أن يجلبها للسرايات ؛ وكانت كل برنسيس تحب أن توجد خير ما يكون من هذه الجوارى لتنال زيادة الحظوة لدى اسماعيل

**الطعام فى سراى الوالدة** . كل شىء فى هذه السراى كان أميل للطريقة الشرقية ، فكانت تجلس الوالدة مع من يوجدن من البرنسيسات والزائرات غير الأجنبيات على ( شلت ) حشايا مغطاة بقماش مزركش بالقصب توضع على الأرض بهيئة دائرة وفى وسطها كرسى مغطى بنفس الغطاء المزركش ؛ وتوضع فوقه صينية من الفضة وأدواتها كذلك إلا فى المناسبات الخاصة ، فتكون جميعها من الذهب ؛ ويقوم بالخدمة جوار يرتدين اللباس الفاخر ، وفى يد بعضهن مذبة (منشة)

**استقبال الزائرات** . كان استقبال الزائرات لغاية باب الحريم ثم استقبالهن بالحاشية على النظام المتبع فى عابدين . الا أنه يختلف فى جلوس الزائرات فى غرفة الاستقبال على مقاعد شرقية عالية ، على حين تجلس الوصيفات على حشايا « شلت » أرضية ، وتقدم للزائرات القهوة مثلها فى عابدين ؛ وكان يقدم لهن « شُبكات » التدخين لمن يدخن

والشُبُك عبارة عن فرع من الياسمين رفيع ومجوف مدبب من طرفه ليوضع فيه حجر من الفخار الاحمر به التبغ ، وتحت الحجر يوضع طبق من الفضة ( طبلية ) . ثم تقاد الزائرات إلى غرفة استقبال الوالدة التى ترتدى الملابس الشرقية الثمينة وكانت ترحب بهن باحترام وبشاشة

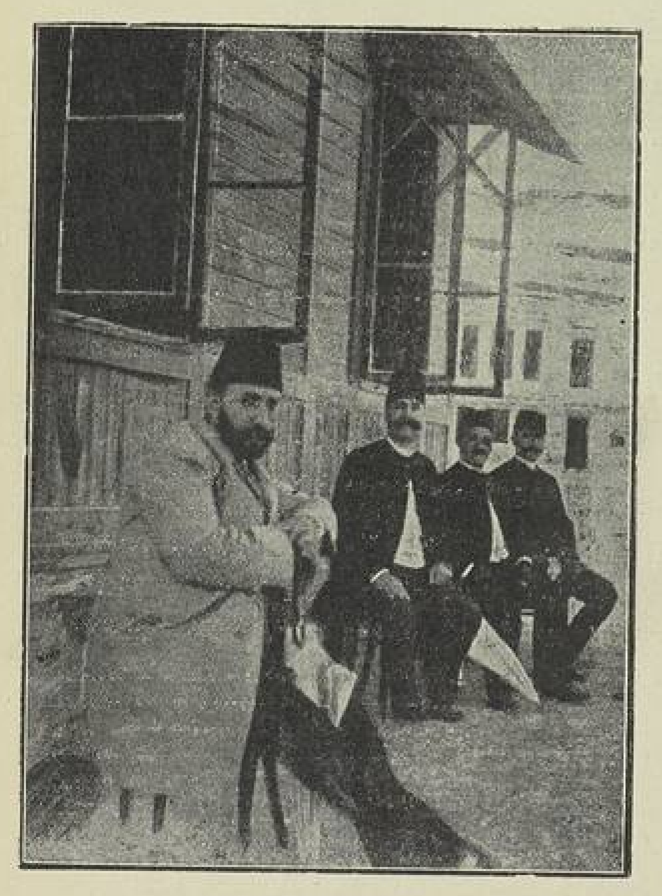
ثم ترجع الزائرات إلى الصالون ويشربن الشربات أو « السوبيا » وبعدها يرافقهن الأغوات إلى الباب الخارجى

# الفصل الرابع

## الخديو توفيق(١)

### من سنة ١٨٧٩ الى سنة ١٨٩٢

ولاية توفيق . سفر اسماعيل النظارة الجديدة . سراى عابدين . جوارى اسماعيل . حديث الخديو مع مراسل التيمس ورأيه فى رياض ونوبار . فرمان التولية . الانقلاب النظارى . تأخر الخديو عن السفر للاستانة . مهمة سرية . رحلات الخديو فى انحاء القطر . مسجد الغريب بالسويس . المدرسة العلية . المراقبة الثنائية . الاصلاح المالى والادارى .



توفيق باشا وبجانبه شوقى باشا ناظر الخاصة وحسين فهمى باشا قومندان المحروسة

**ولاية توفيق** . فى يوم ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ م وردت رسالة برقية من الباب العالى منبئة بتولية صاحب الدولة محمد توفيق باشا ، ولى عهد اسماعيل على الأريكة الخديوية

---

(١) جرينا فى الملازم الاربع الماضية على كتابة ( خديوى ) بالياء سهوا والأصح كتابتها من غير ياء

فصدرت الأوامر باتخاذ ما يجب للاحتفال بذلك . وفى ضحى اليوم التالى كان الطريق من سراى عابدين الى القلعة يموج بجموع حاشدة من الأهالى ، وقد اصطف الجند على جانبى الطريق . وبمجرد خروج سموه من السراى أطلقت المدافع مائة مرة ومرة ، وهتف الجميع بحياته . ثم سارت عربته وراء كوكبة من الفرسان ، وعلى يساره شقيقه البرنس حسين كامل باشا ، وأمامه أخوه الأصغر حسن باشا ، وبجانبه محمد شريف باشا رئيس النظار

ولما بلغ الموكب القلعة دخل سموه القاعة الكبرى فى السراى التى شيدها جده محمد على ؛ ثم جلس وعلى يساره الأميران حسين باشا وحسن باشا والنظار ، واستقبل فيها من توافد عليه من العلماء ، وفى مقدمتهم السيد على البكرى نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ، ثم القاضى ، ثم شيخ الجامع الأزهر ، ثم قناصل الدول ، وقدم أكبرهم سناً التهانى لسموه فرد عليهم شاكرا . ثم استقبل الذوات والتجار وغيرهم

وبعد انتهاء المراسيم المعتادة أطلقت المدافع مرة أخرى وعاد سموه الى عابدين ، والجماهير المحتشدة تصفق له وتحييه

وعقب ذلك أرسل سموه برقية شكر لجلالة السلطان على ثقته به ، وإسناد منصب الخديوية إليه

ثم توالت التهانى من مختلف الجهات ؛ وكان بين المهنئين جماعة المحفل الماسونى ، الذى أسسه السيد جمال الدين وانتمى إليه توفيق ، وبيت روتشيلد المالى الشهير

**سفر الخديو اسماعيل** . فى يوم ٣٠ يونيو غادر الخديو اسماعيل القاهرة الى الاسكندرية ليبحر منها الى إيطاليا . وفى ذلك اليوم المشهود هرع المودعون الى أبواب سراى عابدين حتى اذا كانت الساعة العاشرة والنصف ، خرج الخديو السابق ، وجلس الى يساره فى العربة الخديو توفيق ؛ وصدحت الموسيقى تودع الأمير الراحل عن الديار . وكان موكباً حافلا من السراى الى المحطة يحفه الفرسان والجماهير المتدفقة

وفى المحطة عانق اسماعيل ولده عناق الوداع . وقال له ـ والعبرات تخنقه : « كنت أود يا أعز البنين ، لو استطعت أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن تسبب لك ارتباكا . على أنى واثق بحزمك وعزمك ، فأوصيك باخوتك وسائر الآل براً ، واتبع رأى ذوى شوراك ، وكن يابنى أسعد حالا من أبيك » !

والقى اسماعيل عصا الترحال فى ثغر نابولى ، من أعمال ايطاليا ، حيث كان ملكها

فكتور عمانويل قد أعد لسكناه قصر « لافافوريتا » رداً لمعروف صنعه معه من قبل

وكان يشاع ان الأمير حسين كامل يطمح أن يخلف أباه على الأريكة الخديوية ، نظراً لما كان يعتقد من أنه أحب الى والده من توفيق ، فضلا عن أنه لا يفرق بين مولديهما غير بضع ساعات . ولكن اسماعيل نصح له بأن يخلص للخديو الجديد ، ويترك ذلك المطمح . فنزل عند نصحه ورافق الخديو فى حفلة توليته كما قدمنا



شريف باشا

**النظارة الجديدة** . ولما تم احتفال التولية ، استقالت نظارة شريف باشا مراعاة للتقاليد ؛ ثم شكلت النظارة الجديدة برياسته مع اسناد نظارتى الخارجية والداخلية اليه

وهذا هو نص الأمر الخديو بتشكيل النظارة ، أثبته هنا لما يحتويه من شرح لخطة توفيق فى معالجة المشاكل المصرية . وهو :

« عزيزى الرئيس »

« لقد استعفت النظارة ، فأكلفك بتشكيل نظارة جديدة . ولا أزيدك بحقيقة الحال علما .

« ولما قضت العناية الأزلية بتوليتى أمر بلادى ، جعلت علىَّ واجبات ليس من همى الا النهوض بها بأمانة وشهامة ، على علمى بمقدار صعوبتها ، وجسامة المطالب المتراكمة علىَّ ، من الارتباك والفترة المالية التى ازعجت منها الخواطر . اذ وقفت حركة التجارة ؛ وأوجدت فتورا فى البلاد ، لم يقع فى مصر من قبل . على أنى عظيم الميل الى بلادى ، شديد الرغبة فى تحقيق آمال الأمة التى أظهرت سرورها بولايتى . وفى اخراجها من هذه الحال السيئة

« ومع هذه العواطف فانى عازم عزماً أكيداً على بذل الجهد ، وصرف الهمة ، الى التماس أحسن الوسائل لازالة هذا الاختلال المفسد لكثير من المصالح ؛ وذلك بتقرير

الاقتصاد الحق القانونى فى نفقات الحكومة ، ورعاية الأمانة ، والاستقامة فى الخدم العمومية ؛ واصلاح شئون الهيئة القضائية ، والهيئة الادارية »

ويعرب الخديو بعد ذلك عن ثقته فى معاونة النظار له فى القيام بهذه الشئون ولعل ألفاظ هذا الخطاب يشف مغزاها عن سوء الادارة ، وفساد الحكم فى هذه الآونة

**سراى عابدين .** واتخذ توفيق باشا كوالده قصر عابدين مقرا رسميا . وكان الجناح الشرقى الجنوبى من القصر مخصصا ، أيام اسماعيل ، لسكنى صديقه اسماعيل باشا المفتش . وكان بين هذا القسم وبين السراى أبواب يدخل منها المفتش ويخرج . فأمر توفيق باشا ان يزال هذا القسم بالديناميت ، وأدخله ضمن الحديقة

**جوارى اسماعيل .** وقد ترك اسماعيل باشا فيما ترك عددا عظيما من الجوارى الشركسيات فاهتم الخديو توفيق بشأنهن ، ووكل الى طه باشا — ناظر الخاصة الخديوية — أمر تزويجهن مع صرف النفقات اللازمة لهن فى الزواج من الخاصة . وكنت من بين الذين يشتغلون باداء هـذه المهمة ؛ وزوجت الكثيرات منهن ، فجهزتهن وأقمت لهن الأفراح

وفى ذات يوم قال لى طه باشا : — « لقد جاء دورك أنت أيضاً يا شفيق افندى فان الخديو اختار لك فتاة شركسية جميلة لتتزوجها » . فدهشت لهذه المفاجأة ، لأنى كنت صغير السن ولم افكر فى الزواج بعد . واستشرت والدى فى الأمر . فنصحنى بتحقيق رغبة الخديو ، إذ هو ولى نعمتى ، والمتفضل بتربيتى وتعليمى . فتزوجت بالفتاة التى اختيرت لى (١)

**حديث الخديو مع مراسل التيمس ورأيه فى رياض ونوبار .** كان نوبار باشا ورياض باشا من المغضوب عليهم فى عهد اسماعيل ، لسخطه على الأول فى نظارته المختلطة ، وغضبه على الثانى لشدة تمسكه باظهار الحقائق فى لجنة التحقيق تحت رياسة ريفرس ويلسن ، التى كان وكيلها . فسافر الى اوربا يومئذ كما ذكرنا . ولما تولى الخديو توفيق ذاعت الاشاعات فى مختلف الأوساط بأن الحكومة الخديوية لا تمانع بعد فى عودتهما . وقد قابل مراسل التيمس سموه وتحادث معه فى هذا الشأن ، وفى الخطة التى ينوى اتباعها فى مصر ، فأجابه عن المسألة الأولى : بأنه لا يرى مانعاً من عودة

---

(١) وقد توفيت بعد ثلاث سنوات وتوفى عقبها كذلك .

رياض باشا فى أى وقت يشاء . وأما نوبار باشا فمراعاة للحالة السياسية يستحسن أن يبقى مؤقتاً فى الخارج على أسف منه

وأجابه عن المسألة الثانية بما ملخصه : ان سموه لا يرغب فى عودة النظار الأجانب . وأنه معتزم السير فى الاصلاح بأمانة واخلاص ؛ فى جو خال من الدسائس ؛ وأن أوربا يجب عليها أن تعطى مصر الوقت الكافى لبيان خبرتها ، وحسن ادارتها ؛ وأن لا مانع مع ذلك من استخدام الأوربيين ، كمرشدين لا مسيطرين ؛ وكان مما قاله للمراسل فى شأن رجوع الناظرين الأجنبيين : « ألا فلتقطع أسباب المخادعة والمناظرة والانتقام »

**فرمان التولية** . لبثنا ننتظر ورود الفرمان السلطانى بتولية الخديو فى هذه الأثناء فلم يرد ؛ وعلمت اذ ذاك أن الباب العالى يريد أن يسحب الامتيازات التى أعطيت لمصر فى فرمان سنة ١٨٧٣ فى مقابل موافقته للدول على عزل اسماعيل . ولكن الدول لم ترض عن هذه الخطة ، وعارضت الباب العالى . وأخيراً قر الرأى على تأييد الامتيازات السابقة ، ما عدا الاتفاقات التجارية ، فقد تحتم ان يخبر عنها الخديو الباب العالى . ومسألة حرية القروض التى أساء اسماعيل استعمالها

واستمر الجدل والمناقشة فى ذلك حتى يوم ٤ أغسطس ، حيث جاء فى تلغراف من لندن أن فؤاد بك ـ وهو من رجال المابين (المعية السلطانية) ـ سيسافر من الاستانة بعد يومين الى مصر حاملا لفرمان التولية

وفى يوم ١١ أغسطس سافر الخديو من الاسكندرية الى القاهرة مع النظار ، لاقامة حفلة الفرمان بالقلعة ، وبقى شريف باشا بالاسكندرية لاستقبال فؤاد بك .

وفى مساء اليوم نفسه وصل المندوب العثمانى الى الثغر ، ثم قام منها للقاهرة يصحبه شريف باشا . ولما وصل القطار الى محطة العاصمة اطلقت مدافع القدوم ، وسار المبعوث ورئيس النظار الى قصر النزهة بشبرا (وهو المدرسة التوفيقية الآن) وكان يطلق عليه اسم (المسافرخانة)

وفى صباح يوم ١٤ منه سار موكب الفرمان من قصر النزهة الى القلعة ، وكان قد سبقه الخديو اليها ، فتلا المندوب الفرمان وسط الموجودين ، ثم سلمه للخديو ، وعلى أثر ذلك انتقل سموه الى غرفة التشريفات يستقبل المهنئين من جميع الطبقات

وفى المساء حفلت المدينة بمظاهر الافراح والزينات

**الانقلاب النظارى** . فى مساء يوم ١٧ أغسطس استدعى الخديو النظار ورئيسهم ، وبعد الاجتماع بهم وانصرافهم قدمت النظارة استقالتها ، وقد كثرت الأقاويل

حول هذه الاستقالة الفجائية . ولكن بواعثها الحقيقية لبثت سرا خفيا حتى علمنا من السراى أن الاستقالة كانت بسبب آراء شريف باشا الدستورية ، وتوسعه فى الأخذ بمبدأ الشورى ، فقد قرر مجلس النظار فى احدى جلساته رفع مشروع لتأسيس حكومة دستورية شورية الى الخديو . على أن تستقيل النظارة اذا لم يقبل ما عرضته ، وتعاهد النظار فى هذه الحالة على ألا يدخل منهم أحد فى النظارة التى تخلفهم . ولكن توفيق لم يوافق على المشروع بناء على نصائح حاشيته . فضلا على أنه كان يرى أنه ليس من السهل انتقال الشعب من حكومة فردية محضة إلى حكومة نيابية بحتة من غير تدرج

وفى اليوم التالى شكلت النظارة الجديدة ؛ وأرسل كتاب مستقل الى كل من أعضائها ، اذ لم يكن لها رئيس ، بل جعلت رياستها للخديو نفسه . وكان هو الذى يرأس جلسات مجلس النظار . ولكنى اطلعت على تلغراف فى هذه الأثناء أرسل لرياض باشا بالحضور الى مصر لاسناد الرياسة اليه ؛ وفعلا وصل الى مصر فى يوم ٣ سبتمبر ؛ ثم قابل الخديو عقب وصوله مباشرة ، مقابلة خاصة ، أبدى له فيها سموه رغبته فى تنصيبه رئيسا للنظار . فأجاب رياض باشا على هذه الرغبة بالشكر ؛ واستمهل سموه ريثما يفكر فى الأساسات التى تصلح قاعدة للعهد الذى يستأنفه . وقد استمرت مبادلة الآراء فى الخطة الجديدة بينهما حتى استقر رأيهما عليها .

وفى يوم ٢١ سبتمبر كلف الخديو رياض باشا رسميا بتشكيل النظارة بعد ان قدم النظار القائمون استقالتهم . واستهل الأمر الصادر اليه بتشكيلها بما يأتى :

« عزيزى رياض باشا »

« لم أقصد بترأسى مجلس النظار أن أعيد السطوة الشخصية . وإنما راعيت فى ذلك ضرورة الحال ، وملت مع الرغبة فى تقريب علاقاتى بأعضاء النظارة . فلم يكن فى خاطرى عزم نهائى ، خصوصاً فيما يغاير المبدأ الذى اتخذته يوم ولايتى ، وهو أن أحكم مع مجلس النظار . وبمجلس النظار »

وحفظ الخديو لنفسه الحق فى تولى رياسة المجلس إذا أراد .



رياض باشا

وأوصى رياض باشا بانتقاء رفقائه النظار وبأن يعمل المجلس بنصوص الأمر المؤرخ فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ (١) وبأن يكون تعيين وفصل كبار المأمورين من وكلاء نظارات ومديريين ومحافظين وغيرهم بقرار من النظارة . وأشار بضرورة تقرير ميزانية الايرادات والمصروفات السنوية على الوجه النظامى وختم كلامه بقوله « وبالنظر إلى حسن اختبارك وحبك الوطنى لا تهمل شيئاً مما يعود على أحوال البلاد بالرفاهية وبالاصلاح الحقيقى الذى نتمناه جميعاً » .

وقد رد رياض باشا على سموه بالخطاب الآتى :

« لقد تفضلتم على بتكليفى بتشكيل نظارة جديدة ؛ وانى لأشكر الجناب العالى على وثوقه بى ثقة تامة ، أعلم قدرها ؛ وانى لأشكر أيضاً مولاى الكريم حيث تكرم على بالاعتماد بسبب اخلاصى للوطن العزيز ، وإدارته ؛ وغاية آمالى تحقيق المقاصد الكريمة ، التى أبداها سيدى بهذه المناسبة ؛ ويلزمنى أن أساعد على قدر امكانى بالاتحاد فى ذلك مع رفقائى الموافقين على مثل هذه المقاصد لانفاذ الآراء المستدعية للسعادة والتقدم ، التى جعلتها الحضرة الخديوية أساساً لحكومتها ، وعدتها أعظم وسيلة للتوصل إلى إصلاح حال القطر المصرى ؛ ولهذا الفكر الصائب بذلت همتى فى أداء ما دعيت إليه ؛ ولأجل تشكيل النظارة الجديدة أعرض على سدتكم السنية التوجهات الآتية . . . الخ » .

وكان تأليف النظارة على الوجه الآتى :

| | |
|---|---|
| رياض باشا | للرياسة والداخلية اصالة وللمالية مؤقتاً |
| مصطفى فهمى باشا | للخارجية |
| على مبارك باشا | للأشغال العمومية |
| عثمان رفقى باشا | للجهادية والبحرية |
| فخرى باشا | للحقانية |
| على ابراهيم باشا | للمعارف |
| محمود سامى باشا | للاوقاف |

وبعد أن تم تشكيلها حسب المعتاد ، أرسل ناظر الخارجية كتاباً الى قناصل الدول الجنرالية بتأليفها

(١) وهو الأمر الذى يحدد برنامج الوزارة ويشير الى اتخاذ سلطة يكون لها ادارة عامة على المصالح تعادلها قوة موازنة من مجلس النظار وأن يكون أعضاء مجلس النظار بعضهم لبعض كفلاء

**تأخر الخديو عن السفر للاستانة**. وكان الخديو قد تأخر عن السفر للاستانة عقب صدور فرمان التولية، اتباعاً للرسوم المألوفة حتى يوم ١٥ أكتوبر، وذلك بسبب سوء الحالة المالية، فبعث يطلب رأى الباب العالى فى هذا الشأن، فجاءت الاجابة باعفاء سموه من مبارحة القطر المصرى نظراً لهذه الظروف

**مهمة سرية**. وفى ١٧ نوفمبر عهد الىّ سموه فى مهمة الى الخارج، خلاصتها أن أسافر الى نابولى بايطاليا لأتأكد من نزول والده بها، وملاحظة علائقه بمن هنالك. وكان يجول بخاطره شىء من الشك فى أن اسماعيل قد تحفزه الرغبة فى استعادة ملكه الضائع، الى الاستعانة بأصحاب النفوذ العالى فى ايطاليا على ذلك. وقد اختارنى لهذه المهمة، نظراً لصغر سنى فلا ألفت أحداً بسفرى الى إيطاليا

وكان قد حذرنى بعض أصدقائى قبل السفر من النشالين فى نابولى لكثرتهم هنالك، وبراعتهم فى النشل. فلما نزلت من الباخرة وذهبت بحقيبتى الى الجمرك، للتفتيش كالعادة المتبعة، وانتهيت من ذلك، ألفيت بجانبى فتاة تبيع الزهر، وهى تبسم لى، فلم أفهم ابتسامتها حتى تنبهت بعد لحظة الى أنها وضعت وردة فى عروة معطفى بخفة. فساورنى الريب فى أمرها، وذكرت نصح الأصدقاء. ولكنى كنت قد احتطت فأوثقت أزرار معطفى؛ وقد أعطيتها ربع فرنك.

وبعد خروجى من الجمرك توجهت أولا الى فندق «رويال» للاستراحة؛ ثم قصدت قصر «لافافوريتا» الذى يقيم به اسماعيل، وتأكدت من وجوده فيه، ومن انضمام فائقه خانم افندى الى حاشيته — وكانت قد حضرت على الباخرة التى أقلتنى — وكانت أول سفرة لى الى الخارج. وقد أقمت فى نابلى بضعة أيام تحريت فيها ما جئت لأجله، فعلمت ان الخديو السابق من وقت وصوله للان، لم يسمع عنه أنه على اتصال بأشخاص مما يثير شكا، أو يبعث ريبة.

وبعد انتهاء مهمتى عدت عن طريق برنديزى. وقد استغرقت سياحتى هذه ثمانية عشر يوما فقط.

**رحلات الخديو فى أنحاء القطر**. كان توفيق كثير الحب لرعيته، والعطف على شعبه، والرغبة فى الاطلاع على شئون الأمة، والوقوف على حالتها؛ وكانت رحلاته وزياراته المتعددة للأقاليم؛ مما يعبر عن هذه العواطف ويؤيدها

**فى الفيوم** . فى يوم ٨ يناير سنة ١٨٨٠ اعتزم زيارة الفيوم ، فركب القطار من محطة بولاق الدكرور وبصحبته بعض رجال معيته — وكنت بينهم — إذ كان صدر الأمر بتعيينى فى المعية ابتداء من أول هذا الشهر

وسار القطار بين صفين من الجماهير التى احتشدت فى الطريق ، وهى تحمل الدفوف والأعلام ، وتلوح بها . وعند (العياط) وقف قليلا ثم وقف فى ( الواسطى ) حيث كان العربان على خيولهم يطلقون بنادقهم فى الهواء ابتهاجا وسروراً

ولما وصلنا الى الفيوم هرع الكبراء لاستقبال الخديو فى المحطة ؛ وأطلقت المدافع ايذانا بتشريفه ؛ وصدحت الموسيق ؛ وأدت الجند التحية العسكرية

وركب سموه عربته الخاصة الى السرادق المعد لاستقباله . ولما استقر به المقام وفد قاضى المديرية ، ومفتيها وأعيانها ، للتشرف بلقائه ، فاغدق عليهم عطفه ، وأبدى فى محادثتهم ديمقراطية حقة

ثم طاف بعض شوارع المدينة ، فحيته الأهالى أحسن تحية ، وقابلت عطفه بالابتهاج والسرور . وبعد رجوعه الى السرادق ، دعا نحو سبعين من علية القوم ليتناولوا ، الطعام على مائدته ؛ ثم زار بعض السرادقات التى أقيمت احتفالا بمقدمه ، وقضى ليلته بديوان المديرية

وفى الصباح احتشدت الجموع لرؤيته . وعند الظهر أدى صلاة الجمعه بمسجد الروبى، وخلع على أمامه خلعة ، ووزع الصدقات على الفقراء

وبعد تناول الغداء ركب القطار الى « أبى كساه » وتفقد فيها معمل السكر ، ثم استأنف سفره الى نهاية الخط الحديدى بجهة الشيخ عبد القادر ، حيث كانت أخبار زيارته قد وصلت الى العربان ، فوقفوا ينتظرون قدومه فوق خيولهم . حتى اذا وصل ركب جواداً وقصد الى بركة قارون . وهناك قام العربان بألعاب مدهشة من الفروسية . ثم عاد سموه الى الفيوم مباشرة بطريق السكة الحديدية، وقضى بها ليلة أخرى بين مظاهر الحفاوة والابتهاج . وفى الصباح استقل القطار الى القاهرة فوصلها فى الساعة الحادية عشرة والنصف . وبذا انتهت رحلة الفيوم

**فى الوجه القبلى** . ولما عرف أهل الصعيد أن مديرية الفيوم قد حظيت بزيارة الخديو رغبوا فى مشاطرتهم هذا العطف ؛ وبعثوا برغباتهم هذه الى السراى ، فتقرر أن تجاب هذه الرغبة ؛ وأعد اليخت « فيض ظفر » لسموه و « زينة البحرين » للحاشية .

وسار اليخت بين تحيات الجموع على ضفاف النيل حتى الواسطى . وهناك استقبل سموه حكام المديرية وكبراؤها ؛ ودعا عدداً منهم لمائدته . ثم عاود سيره الى بنى سويف فاستقبل بما يعبر عن شعور صادق واغتباط كبير ؛ وألقى القمص جرجس رئيس دير « سدمنت » أمامه خطبة بليغة ، وتلاه آخرون معبرين عن شعورهم وشعور أهل المدينة نحوه . ثم قصد مسجد العجمى فأدى فريضة الجمعة ، ووزع الصدقات . وفى المساء شق المدينة فى موكبه ؛ وشاهد الزينات الحافلة ؛ وزار بعض البيوتات الكبيرة ، ومن بينها دار داود بك نامق؛ولبثت المدينة ساهرة مبتهجة . وفى الصباح غادرها اليخت بين مظاهر الوداع الحارة ؛ واستأنف سيره الى المنيا ، غير أن السماء تلبدت بالغيوم بعد نصف ساعة وأظلم الجو ولم يعد للسير الهين سبيل . فألقى اليخت مراسيه بجوار قرية تسمى جزيرة « بياض » حتى ينجلى الضباب . وكانت هذه فرصة لأهلها وللعرب الضاربين بجوانبها فقدموا ليؤدوا صادق التحية

ولما صفا الجو استأنف اليخت سيره ؛ وقد سطعت الأنوار من مدينة المنيا على مسافات بعيدة ، حتى اذا وافاها الخديو قوبل كالعادة من الرجال الرسميين وغير الرسميين ؛ وزار منزل المدير ، ومنزل سلطان باشا . وسر من وجود مكان الضيافة الدائمة بهذا المنزل ؛ ثم زار معمل السكر ، ومقام السيد الفولى . وعند الظهر دعا طائفة من الكبراء للغداء ؛ ثم قصد الى مشاهدة ألعاب الفروسية من العربان وقدم تلاميذ المدارس يرتلون أناشيدهم فى انتظام

وفى المساء أعدت مائدة أخرى لجماعة كبيرة من رؤساء الطبقات ؛ وقد ظلت المدينة ساهرة مبتهجة

وفى الصباح أقلع اليخت ميمماً شطر منفلوط فوصل إليها فى الساعة الحادية عشرة ، فاذا الجموع كعهدها فى الاحتفاء به ؛ ثم جرى الاستقبال بالمراسيم المعتادة ، وبعد ذلك سار الموكب بسموه فى أنحاء المدينة

وفى اليوم التالى تحرك اليخت الى أسيوط وأشرف عليها ، فاذا الجموع الزاخرة قد احتشدت على ضفة النيل لاستقباله ؛ وقصده الرؤساء من كل هيئة ؛ وحضر تلاميذ المدارس الأميرية والأمريكان والأقباط . ثم عمد عرب الهوارة الى خيولهم فأتوا على ظهورها بكل معجب من الألعاب

ثم ركب سموه عربة ، وفى صحبته المدير ، لمشاهدة المدينة وشق السوق المعروفة « بالقيسيرية » حيث كانت المتاجر الكبيرة قد فرشت أرضها بالبسط ؛ ثم زار مقام

جلال الدين السيوطى ونفح خدمه بالصدقات . وبعد عودته الى اليخت دعا سراة المدينة لمائدته ؛ ثم زار منزل المدير فى المساء

وفى اليوم التالى زار ديوان المديرية ؛ ودعا الى العشاء على ظهر اليخت جماعة كبيرة . ثم زار السيد محمد خشبه سر تجار أسيوط ، وآخرين من كبراء المدينة

وفى الصباح أقلع اليخت الى سوهاج فوصلها قبيل الظهر ؛ وكانت حفاوة بالغة فى الاستقبال

ثم ركب الخديو جواداً وطاف بسوق المدينة ، بعد أن صلى الجمعة بمسجد الأستاذ العارف بالله . ولما عاد الى اليخت نظمت الموائد التى دعى إليها سراة القوم ، وكبار موظفيها

وفى صباح اليوم التالى سافر الى جرجا فقضى بها ليلة ، ثم غادرها الى قنا ؛ ولقى فى طريقه الأمير أحمد بك كمال ابن عمه يرقب قدومه أمام ضيعته فى فرشوط ، فتناول عنده طعام الغداء ؛ ثم ركب ووراءه عربان الهوارة وكثير من أهالى قنا فشاهد الزينات البديعة ، وزار مقام الشيخ عبد الرحيم القنائى ، ووزع الصدقات

وفى الصباح هرعت لرؤيته جموع كثيرة ؛ ثم ركب « زينة البحرين » مع رجال معيته قاصداً دندرة على الشاطىء الغربى من النيل ، ومنها ركب العربة لمشاهدة الآثار القريبة ، وعاد إلى قنا . وبعد تناول طعام العشاء مع مدعويه طاف ببعض شوارع المدينة فأعجب بزينتها ، وزار منزل المدير

وفى اليوم التالى قصد اسنا ، فلقى كثيراً من الحفاوة ، وزار مقام الشيخ حسن الضوى ثم شاهد الآثار فى جهة « البربة »

وفى المساء طاف بانحاء المدينة . وقد باتت ليلتها ساهرة ترتل آى القرآن . ثم استأنف السير إلى الأقصر ، وبعد مشاهدة آثارها من الجهتين ، قصد اسوان فى اليوم التالى ، ومعه المدير فوصلها فى الساعة العاشرة ؛ وبعد الاستقبال ركب جواده فطاف المدينة واستقبله الأهالى بحماسة ؛ وكانت الزوارق الصغيره مزينة بأنواع الزينة ، تطوف حول الوابورات الخديوية وبحارتها يترنمون بالاناشيد المشجية ؛ ثم ركب زورقا لمشاهدة المقياس على الشاطىء الغربى ؛ وقصد الى شلالات اسوان ، فشاهد انحدار المياه منها ؛ وعاد بعدها إلى اليخت فاقبل عرب البشارين والعبابدة ولعبوا على خيولهم ألعاباً ساحرة . وفى الساعة الرابعة زار قصر أنس الوجود الأثرى ، ثم عاد إلى مقره عند الغروب فدعا إلى مائدته نحو الاربعين عيناً ، وباتت المدينة كأنها فى ليلة عيد

وفى بكرة الغد هبت المدينة تودع الزائر العظيم ؛ وعاد سموه شطر القاهرة فوصلها في يوم ٢٩ يناير

**فى الوجه البحرى** . ولم يمض شهر على هذه الرحلة ، حتى قام أهل الوجه البحرى يطلبون أن يكون لهم ما كان لأهل الوجه القبلى ويلحون فى الرجاء ، فلم يسع سموه غير النزول على هذه الرغبة

فنى يوم السبت ١٠ ابريل سنة ١٨٨٠ ركب الخديو اليخت « فيروز » من قصر النيل وأعدت للحاشية باخرة أخرى ، وتبع اليخت زوارق المودعين . واصطفت الجماهير على الشاطئين ، يحملون الأعلام والموسيقى والطبول ، وعند القناطر وقفنا لتحية الجماهير، ومشاهدة الزينات قليلا ، ثم واصلنا سيرنا إلى بنها فاذا بها قد لبست حلة قشيبة من الزينات وغصت بالجماهير ، وجاء المستقبلون وعلى رأسهم المدير . ثم شاهد سموه بعض العاب الفروسية ؛ وأقيم الكثير من السرادقات الفخمة التى كانت الأنوار تنبعث منها مختلفة الألوان ؛ وبها كثير من أنواع اللهو ، وضروب التسلية ؛ وزار سموه سرادقات الكبراء ، فبالغوا فى الاحتفاء به

وقضينا هذه الليلة فى بنها ، وفى الصباح الباكر أقبل الناس للوداع وسار اليخت وحوله الجماهير الغفيرة على الشاطئين ، من بنها إلى ميت غمر ، فوقف فيها على حين رست الباخرة التى تحمل رجال المعية فى زفتى . وبعد الاستقبال ذهب باليخت إلى مدينة زفتى فطاف شوارعها ، وزار بعض أعيانها ، وفيهم اسرة المصرى

وغادر زفتى الى سمنود ، والخيول على شاطىء النيل تلاحق اليخت ؛ ثم قصد من سمنود إلى المنصورة ؛ وهناك كان الساحل بين المدينتين ، قد زين بكل أنواع الزينة ، ورصف ، وغرست به الأشجار والزهور . وأقام سموه ثلاثة أيام يختلط فيها بالشعب ويتقبل تحياته ويزور سرادقات الكبراء

وبعد ذلك قصد إلى دمياط ؛ والجماهير على الشاطىء كالعادة ؛ وكلما مر ببلدة حياه أهلها ، حتى إذا وصل إليها احتفل الدمياطيون به أطيب احتفال. وكانت الزينات فيها بالغة حد الكمال . ثم دعا أعيان البلد ، ووجهاءها، وتجارها ، وقناصل الدول الأجنبية بها، إلى مائدته

ثم سافرنا إلى الزقازيق فى صباح اليوم التالى بطريق السكة الحديدية وعند قيام القطار أطلقت المدافع ، وحيته الجنود بالسلام الخديوى

وسار القطار بين جموع زاخرة ؛ وكان يقف قليلا عند كل محطة ليطل سموه على المستقبلين ، ويرد عليهم تحيتهم . وحينما وصل إلى محطة الزقازيق قابلته الجموع الحاشدة

بالتحية اللائقة ؛ وركب سموه عربة ، وبجانبه المدير ، يحيط بها الفرسان ، والمشاة من العربان وأهل البندر ، والبلاد المجاورة ؛ وبلغت الزينات غايتها فى كل شارع مر به الموكب . أما السرادقات التى أقيمت فشغلت نحو خمسين فدانا ، وكانت تنبعث منها الأضواء المختلفة الألوان فطاف سموه المدينة ، وزار من كبرائها أمين ، باشا ، الشمسى وسليمان ، باشا ، أباظه

وفى الغد سافرنا إلى طنطا ؛ وكانت الزينات فيها كغيرها بهاء . وبعد رسوم الاستقبال حضرت الوفود لتحية سموه ، من العلماء ، والقضاة ، والتجار . ثم صلى الجمعة بالمسجد الأحمدى ومدت الموائد ، لقناصل الدول ، وللاعيان ، والأكابر . وقد زار بعض أكابرها وفيهم ، السيد امام القصبى ،

ثم ركب الى المحلة الكبرى ولقى فيها كل حفاوة . وبعد ان استراح بها رجع إلى طنطا ؛ ومنها زار السنطة ، ثم عاد إليها مرة أخرى ، وزار دار المنشاوى بك ، وكانت عربته تشق الجموع الزاخرة فى عناء شديد

وفى الصباح ركب إلى شبين الكوم ؛ وقد زينت أحسن زينة ، ونصبت بها السرادقات وخرج الاهلون لاستقبال الجناب العالى . وبعد أن استقر فى ديوان الحكومة وفدت الهيئات المختلفة لتحيته

ثم ركب فى اليوم التالى إلى بعض البلاد المجاورة . ثم إلى منوف ، وعاد إلى شبين الكوم . ثم ركب منها إلى دمنهور فقوبل فى كل محطة مر بها ، ولاسيما فى طنطا وكفر الزيات ، بضروب بالغة من الاكرام والحفاوة ، وكان الفرسان يسابقون القطار بخيولهم على طول الطريق حتى وصل إلى دمنهور . وقد أعد المدير ميدانا جميلا فى نحو أربعين فدانا . ولما ركب الجناب العالى من المحطة تبعه رتل كبير من العربات وكثير من المشاة حتى وصل الى ذلك الميدان . وهناك فى السرادق المعد لنزول سموه وفدت عليه الوفود المختلفة ، وجاء طلبة المدارس بنظام جميل . وألقيت أمامه الخطب والقصائد . وزار بعد ذلك مقام ( أبى الريش )

وفى المساء دعا الى المائدة الخديوية كثيراً من الأجانب والوطنيين . ثم زار بعض الكبراء ، وصلى الجمعة فى اليوم التالى فى مسجد أبى الريش . ثم قصد إلى دسوق فالرحمانية فزار عند وصوله مقام الدسوقى ، ومكث قليلا بالرحمانية . ثم عاد إلى دسوق فقضى بها ايلته ولما اسفر الصباح ، يمم شطر رشيد ، حيث هرع الى استقباله جميع أهلها من مختلف الطبقات

وفى يوم ٤ مايو سنة ١٨٨٠ عاد من رحلته إلى العاصمة مودعا فى كل محطة بمثل ما قوبل من الحفاوة

وقد استطاع أن يقف خلال رحلته على كثير من أحوال شعبه

لم يقع من الحوادث التى اتصلت بها شخصيا فى سنة ١٨٨٠ ما يستحق الذكر الا حادثتان .

الأولى : بناء جامع الغريب فى السويس ، على نفقة الخديو . والثانية تأسيسه مدرسة خاصة لتعليم نجليه الأميرين عباس حلمى ومحمد على .

**مسجد الغريب بالسويس** . فى ذات يوم من أيام سنة ١٨٨٠ سلمنى الخديو توفيق بيده مبلغ خمسمائة جنيه مصرى ذهبا ؛ وكلفنى بحملها الى السويس ، وتسليمها الى (باشمهندس) المبانى بها للقيام ببناء جامع الغريب بالسويس ، على نفقة سموه الخاصة . فسافرت اليها وقابلت (الباشمهندس) وسلمته المبلغ ، وقضيت ليلة فى ضيافته ، ثم عدت فى اليوم التالى الى القاهرة

وقد تم انشاء هذا المسجد واقيمت به صلاة الجمعة لأول مرة يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٠

ولبناء هذا المسجد على نفقة سموه مناسبة سمعتها من احد رجال الخاصة ، وهى ان سموه رأى فى منامه يوم كان وليا للعهد شيخا اسمه الغريب من السويس ، فنبأه بانه سيتولى حكم البلاد عما قريب ، وأوصاه أن يبنى فوق ضريحه جامعا .

فلما تحققت الرؤيا اعتزم سموه - وكان دينا كثير الاعتقاد - ان ينفذ ما اوصى به الشيخ فى منامه

**المدرسة العلية** . سبق ان ذكرنا حب الخديو للتعليم . وكيف كان سموه ، وهو ولى للعهد ، يشجع التلاميذ ، ويشهد الامتحانات ، ويمنح الجوائز . ورأينا كيف انشأ مدرسة القبة ، وكيف كان يدفع من جيبه الخاص ، نفقات تعليم بعض التلاميذ فى المدارس الاميرية .

استمر سموه بعد ذلك مهتما بشئون التعليم ، وكثيرا ما كان يزور المدارس ؛ ويشجع على التحصيل والدرس .

ثم رأى أن ينشىء مدرسة خاصة لتعليم ولى عهده وشقيقه — وهو ما فعله بتأسيس

المدرسة العلية على نفقاته ـ وقد أعدت فى نفس الوقت لتعليم عدد من ابناء الأمراء والعظماء فى مصر ، حتى يكون للاميرين وسط مدرسى يعيشان فيه عيشة مدرسية .

وفى أول يناير سنة ١٨٨١ افتتحت المدرسة العلية؛ وكان موقعها جميلا ، حيث كانت تحد من الجهة الشرقية بباب التشريفات لسراى عابدين ؛ ومن الجهة البحرية بالميدان أمام القشلاق ؛ ومن الجهة القبلية بشارع « قوله » ؛ ومن الجهة الغربية بشارع المبدولى . وزينت المدرسة يوم الافتتاح بالاعلام على الابواب والنوافذ ؛ واصطفت امامها الجنود المشاة ؛ وصدحت موسيقى المعية فى حديقة المدرسة بالحانها المطربة ؛ واقبل التلاميذ المنتخبون ، وعددهم خمسون تلميذا ، مع آبائهم واقاربهم ؛ ثم قدم رياض باشا وبقية النظار ، وا كتمل اجتماع الاساتذة والمعلمين والضباط الذين وقع عليهم الاختيار

وفى الساعة العاشرة حضر الاميران ، فقوبلا بالتحية الرسمية من الجنود ، وعزفت الموسيقى بالسلام ، ونحرت الذبائح عند قربهما من باب المدرسة . وفى الساعة الحادية عشرة شرف سمو الخديو فاستقبله النظار والعظماء ، وجلس فى المكان المعد له وجلس الاساتذة على اليمين ، والمدعوون على اليسار ، والتلاميذ امام سموه يتقدمهم الاميران . ثم صعد الشيخ محمد البسيونى معلم اللغة العربية على منصة الخطابة ، وألقى خطبة الافتتاح ، فهتف بعدها الجميع بحياة الخديو ؛ ثم قام رئيس النظار وألقى خطابا باللغة التركية ، ضمنه شكر سموه والدعاء له .

وعين عثمان بك صبرى ، الذى كان معاونا فى المعية ناظرا للمدرسة ؛ ومسيو مونتان السويسرى مديرا للتعليم ، ومدرسا للغة الفرنسية ، والمستر كوربيت مدرسا للغة الانجليزية وقد اصبح فيما بعد النائب العمومى للمحاكم الاهلية . وغيرهم من الاساتذة ؛ وانتدبت لتدريس الجغرافيا ، والخط الافرنجى ، علاوة على وظيفتى فى المعية

⁂

**المراقبة الثنائية** : فى أواخر سنة ١٨٧٥ وأوائل سنة ١٨٧٦ كانت مصر تقترض الأموال بفوائد فاحشة تبعث على الخراب ، وفى ٨ ابريل أعلن افلاس مصر بتوقف اسماعيل عن الدفع ، وحضر المستر كيف ليقدم تقرير عن حالة البلاد المالية وبعد أن أخذ كل الاستعلامات عاد لانجلترا

وفى ٢ مايو سنة ١٨٧٦ صدر ديكرتو بتشكيل صندوق الدين العمومى وبتعيين أعضاء أجانب فيه يمثلون حاملى الأسهم ، وفى ٧ منه صدر ديكريتو آخر بتوحيد ديون

مصر التى بلغت يومئذ واحداً وتسعين مليوناً من الجنيهات ، وعين الموسيو دوبلنير والهر فون كريمر المستشرق النمسوى والموسيو برافللى أعضاء فى صندوق الدين من قبل حكومات فرنسا والنمسا وإيطاليا . أما الحكومة الانجليزية فلم توافق على توحيد الديون ورفضت تعيين مندوب من قبلها . ونظراً للاستياء الشديد الذى أحدثه النظام الجديد عندحاملى السندات من الانجليز ، فقد حضر المستر غوشن مندوباً عنهم إلى مصر بقصد الحصول على بعض تعديلات فى هـــذا النظام وحضر معه الموسيو جوبير مندوباً من قبل الدائنين الفرنسيين ، وبعد مفاوضات بينهما وبين الحكومة المصرية اتفقت الكلمة على إدخال بعض التعديلات فى النظام المتعلق بالديون وفوائدها وعلى أن يعين مراقبان لدخل الحكومة المصرية وخرجها ، أحدهما انجليزى والآخر فرنسى هما المستر رومين والبارون دومالاريه ، وعينا بعد ذلك بدكريتو فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ وسمى هذا النظام بالمراقبة الثنائية .

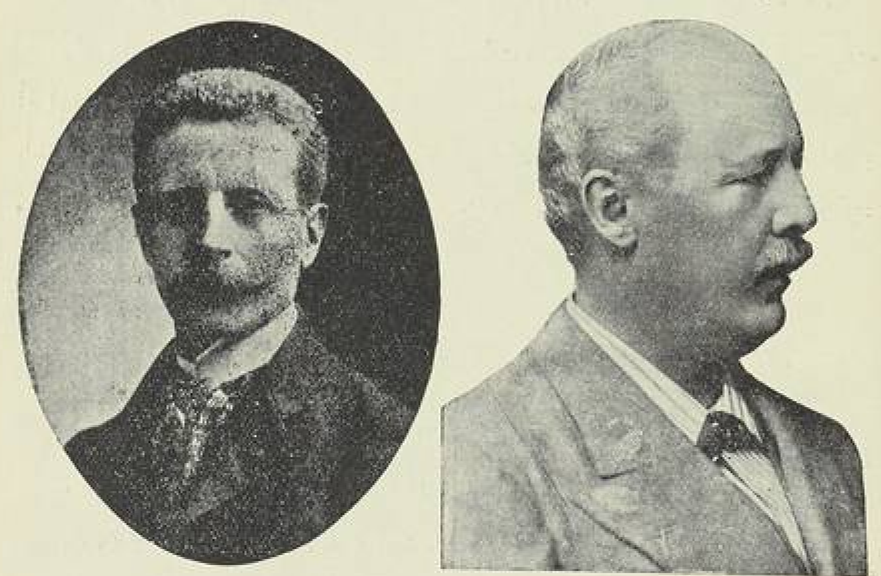
ثم صدر قرار بتشكيل قومسيون للسكك الحديدية وميناء الاسكندرية وبتخصيص إيراداتهما لدفع فوائد الدين الممتاز ، وكان ذلك القومسيون مؤلفاً من اثنين من الانجليز منهما الرئيس وواحد من الفرنسيين واثنين من المصريين ( وقد عدل هذا النظام فيما يختص بعدد الأعضاء بعد ذلك )

وأرسل وزير الخارجية الانجليزية إلى قنصل جنرال انجلترا بمصر أن يبلغ الخديو « ان الحكومة الانجليزية لا يمكنها أن تأخذ على عاتقها مسئولية هذه التعيينات ومع ذلك لا تعارض فيها » ، وعندئذ عين السير أفلن بارنج عضواً فى صندوق الدين

ولما اشتدت الأزمة المالية رغم التنظيمات السابقة الذكر قبل اسماعيل تشكيل « لجنة التحقيق » للقيام ببحث نهائى عن حالة مصر المالية فى ٤ ابريل سنة ١٨٧٨ ، ولما تشكلت نظارة نوبار باشا المختلطة فى السنة المذكورة وعين فيها السير ريفرس ولسن الانجليزى ناظرا للمالية والمسيودوبلنير الفرنسى ناظراً للأشغال فوقف عمل المراقبة الثنائية . وقد عرفنا من قبل ما وقع لهذه النظارة من الثورة عليها

وفى ١٩ فبراير سنة ١٨٧٩ استقال نوبار باشا ، وعين الأمير توفيق رئيساً لمجلس النظار ودخل فى نظارته فيها الناظران الأجنبيان . وفى ١٠ ابريل من السنة المذكورة تشكلت النظارة برياسة شريف باشا ولم يدخل فيها هذان الناظران ، وبعد تنازل الخديو اسماعيل وتولى ابنه توفيق كتب شريف باشا رئيس النظارة إلى معتمدى انجلترا وفرنسا بأنه يأمل ، فى حالة تعيين المراقبين العامين ، أن يكون تعيينهما طبقاً للدكريتو الصادر فى ١٨

نوفمبر سنة ١٨٧٦ ، وألا يعزلا إلا بعد موافقة حكومتيهما ، وأن تكون أعمالهما منحصرة فى البحث والتنقيب دون التدخل فى الأعمال الادارية أو التنفيذية . فاختارت الحكومة الانجليزية السير افلن بارنج ، والحكومة الفرنسية المسيو دوبلنيير وصدر الامر بتعيينهما فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩



افلن بارنج ( اللورد كرومر )    المسيو دوبلنيير

ولما اتضح للحكومة فيما بعد الأثر الطيب لمجهودات المراقبين صرح لهما بوجودهما فى مجلس النظار بصفة استشارية ، فأعدا مشروعات كثيرة ساعدت الحكومة على تنظيم ماليتها وتسوية الديون المصرية ، من ذلك تخفيض فائدة الديون ، وصرف النظر عن الفوائد المتأخرة ، والغاء قانون المقابلة نظير دفع ١٥٠٫٠٠٠ جنيه تعويضاً للذين دفعوا المقابلة مدة خمسين سنة ، فأنقص الفرق بين الاراضى العشورية والخراجية بزيادة ضريبة الاراضى العشورية والغاء العوائد الشخصية وغير ذلك .

ولكنهما استغلا منصبيهما فبالغا فى تعيين الموظفين الأجانب وكان كل منهما عند خلو وظيفة يجتهد فى أن يعين فيها من بنى جنسه . ونشأ من ذلك أن كانت الوظائف تخلق خلقاً فى بعض الأحيان للمعادلة بين الموظفين من الفريقين . مع عدم الحاجة إليها وعلى هذا لم يبق للموظفين المصريين إلا الوظائف الصغيرة

وفى ٣ يونيو سنة ١٨٨٠ عين المسيو اوكلاند كولفين مراقباً بدلا من السير افلن بارنج

وقد ظل نظام المراقبة حتى كانت الحركة العرابية فأوقف بطبيعة الحال ، إلى أن كان الاحتلال ، فأعيدت بشكل آخر — وسيأتى ذكر ذلك فى حينه

**الإصلاح المالى والإدارى :**

تمت فى أوائل عهد توفيق عدة إصلاحات مالية وإدارية :

وكان أول عمل افتتح به عهده تنظيم مخصصات الأسرة الخديوية . اذ كانت مرتبات أفرادها فى عهد اسماعيل غير محدودة ولا معلومة حيث كانت الخزانة تحت تصرفه ، يأخذ منها ما شاء ، ويهب منها لمن شاء . فرأى الخديو توفيق أن يحدد هذه المرتبات ؛ وأخذ مجلس النظار بناء على هذا الرأى يعين هذه الرواتب فأقرها على الوجه الآتى :

| جنيه | |
|---|---|
| ١٠٠٠٠٠ | للخديو |
| ٣٥٠٠٠ | لوالدة الخديو |
| ٢٠٠٠٠ | لحرمه |
| ٣٠٠٠٠ | للخديو السابق |
| ٢٥٠٠٠ | لوالدة الخديو السابق |
| ٣٦٠٠٠ | لحرم الخديو السابق الباقية فى عابدين |
| ١٨٠٠٠ | لتوحيده هانم بنت اسماعيل |
| ١٨٠٠٠ | للبرنس حسين باشا كامل |
| ١٨٠٠٠ | للبرنس حسن باشا |
| ٣٠٠٠٠٠ | المجموع |

ولما رفع هذا القرار الى الخديو تنازل عن ٢٠٠٠٠ جنيه من مرتبه لاضافتها الى مرتب والده . ثم أمر بالغاء المرتب الخاص بوالدته وحرمه ، فاقتصد بذلك خمسة وخمسين ألف جنيه . وعلى ذلك أصبحت مخصصات العائلة الخديوية ٢٤٥٠٠٠ جنيه

وكذلك تم إلغاء بعض الرسوم التى كانت تجبى عن أشياء تافهة ، وكانت منافية لقواعد العدالة ، مثل ضريبة التمغة ، إلا على الذهب والفضة فأبقيت . ومثل ضريبة الدخولية (١)

---

(١) كان للمدينة حدود وكل ما دخل من هذه الحدود تؤخذ عنه رسوم . وكان الفلاحون يحتالون لدخول بعض بضائعهم خفية . ومن ذلك كانت تقع حوادث طريفة . أذكر منها أن جماعة من الفلاحين دخلوا المدينة فى جنازة فاشتبه فيهم رجال العوايد لرؤيتهم عود برسيم خارجاً من النعش فلما فتشوه وجدوا الميت عبارة عن زبدة مهربة ملفوفة بالبرسيم !

ورسوم بيع المواشى فى مصر والاسكندرية والسويس . وكذلك ألغيت السخرة وغير ذلك ، ومن أهم الاصلاحات تحديد مواعيد دفع الضرائب على حسب مواسم المحصولات ، فاستراح الفلاح وعرف كيف ينظم حياته المالية ، وبدأ يشعر أن هذه الأرض أرضه فأقبل عليها يستغلها بعد أن كان يهرب منها أيام اسماعيل

وقد صدر أيضاً قانون التصفية فى ١٧ يولية سنه ١٨٨٠ فنظمت به الديون ، ووجدت الثقة عند الدائنين ، فأقبل الأجانب على استغلال أموالهم ، مما سبب بعض الرخاء

وأكبر دليل على ذلك ارتفاع سعر الموحد ارتفاعا كبيرا بعد أن تدهور فى أواخر حكم اسماعيل إلى ٤٦ جنيهاً . وكذلك ارتفعت قيمة الأراضى الى ثلاثة أضعاف

وقد كانت ديون مصر عند إصدار قانون التصفية سنة ١٨٨٠ كما يأتى :

| جنيه | | | |
|---|---|---|---|
| ٥٧ر٧٧٦ر٣٤٠ | الدين الموحد | بفائدة | ٤ ٪ |
| ٢٢ر٥٨٧ر٨٨٠ | « الممتاز | « | ٥ ٪ |
| ٩ر٥١٢ر٩٠٠ | الدائرة السنية | « | ٤ ٪ |
| ٨ر٤٩٩ر٦٢٠ | الدومين | « | ٥ ٪ |
| ٩٨ر٢٧٦ر٦٦٠ | | | |

وكانت نتيجة ذلك كله أن ميزانية الحكومة ، بعد أن كانت لا تفى بفوائد الديون قامت بها فى عام ١٨٨٠ وزاد على ذلك مبلغ ٤ر٥٧٥ر٨٦٠ جنيهاً لمصاريف الحكومة ودفع الجزية صرفت منها ٣ر٩٠٨ر٨٦٣ جنيهاً وبقى لها ٦٦٦ر٩٩٧ جنيهاً بصفة احتياطى يصرف لسد النقص فى السنوات الآتية ، أو لاستعمالها فى الطوارىء . وهذه أول مرة زادت إيرادات الحكومة عن جميع مصروفاتها فى حكم توفيق ، مما أعاد الاطمئنان الى النفوس فى معاملة الحكومة المصرية ، فأمكنها أن تقترض مبلغاً لموازنة الميزانية بفائدة ٥ر٦ ٪ بعد أن كانت تدفع ٢٨ ٪ فى سنة ١٨٧٦ .

ولم تقتصر العناية على الشئون المالية فحسب ، بل شملت شئون التعليم والرى والصحة ، فشكلت لجنة فنية تحت رياسة على باشا ابراهيم ناظر المعارف فى ٢٧ مايو سنه ١٨٨٠ لادخال عدة اصلاحات فى مناهج الدراسة ونظام المدارس ، وتقرر زيادة الميزانية المخصصة للتعليم الى الضعف

كذلك صدرت لائحة بتنظيم أعمال الرى وتوسيع نطاقها ، مما يؤدى الى زيادة دخل الأفراد والحكومة ، وروجعت القوانين المصرية . وغير ذلك من الاصلاحات

ويتضح من ذلك كله أن نظارة رياض باشا من عهد حكمها الى آخر سنة ١٨٨٠ قد قامت باعمال هامة تستحق عليها الثناء

غير أن رياض باشا كان له عيب وهو استبداده بالأمر . ولم يبق لتوفيق أى سلطة حتى فى منح الرتب والنياشين مما ضايق سموه وهمست به الحاشية

---

# الفصل الخامس

## الثـــورة العرابية

— ١ —

**نشأة الرأى العام فى مصر . بدء الثورة العرابية . المظاهرة العرابية الأولى . المظاهرة العرابية الثانية . استغلال الثورة . نظارة شريف باشا . الوفد الشاهانى غرور عرابى . موقف الدول والمذكرة الثنائية . مجلس النواب . نظارة محمود سامى باشا البارودى . المؤامرة الجركسية . المظاهرة البحرية ومطالب الدولتين والخطر على حياة توفيق**

---

حوادث الثورة العرابية معروفة مطروقة ، وان بين الذين كتبوا عنها معاصرين لها أو غير معاصرين ، من لم يجعلوا الحقيقة التاريخية وحدها نصب أعينهم . فتناولوها بتحيز ظاهر لهذا الجانب أو ذاك . بيد أننا فى تناول هذه الحوادث لا نقصد ان نرويها متصلة متتابعة ، فلسنا فى موقف المؤرخ ، الذى يستوعب الحوادث ويلم باطراف البحث كلها . ولكننا ونحن نسطر هذه المذكرات ، نرى أن نسجل من الحوادث ما شاهدناه أو عرفناه عن ثقة

**نشأة الرأى العام فى مصر .** كان المصريون — إلا أقلية ضئيلة — إلى أواخر عهد اسماعيل لايعنون بسياسة البلاد ، ولا يكترثون لتصرفات الحكومة . ولم يكن مجلس النواب الذى ألفه اسماعيل منتجاً ، بل كان مظهراً من مظاهر التقليد للانظمة الغربية ؛ يدل على ذلك حادثة توزيع مقاعده التى ذكرناها . فيما مضى

ولكن الحركة الأولى التى بثها أنصار اسماعيل باشا بين ضباط الجيش ، والمظاهرة التى قاموا بها للمطالبة بحقوقهم ؛ وكانت غايتها الحقيقية أن يتوسل أولو الأمر إلى التخلص من النظارة المختلطة . ثم الحركة التالية التى نظمت بايعاز من اسماعيل لضمان الديون واصدار اللائحة الوطنية ، بواسطة السيد على البكرى وشاهين باشا — وما كانت إلا للتخلص

من المراقبة الشديدة من الدول على مالية مصر كما عرفها القارئ. —

هاتان الحركتان وما اتصل بهما من العوامل والظروف، قد أثارت فى نفوس الذين كانوا يجهلون سرهما من ضباط وغيرهم رغبة الاهتمام بشئون البلاد السياسية، واستطلاع أحوال الحكومة خصوصاً والخديو الجديد مشهور بوطنيته، ووداعته، ومحبته لبلاده، وكان الرأى العام المصرى قد بدأ يتكون فى فئة قليلة من المفكرين فى ذاك العهد؛ ونذكر من العوامل التى كونته اثنين كان لهما أكبر الأثر فى نشأته ويقظته : —



جمال الدين الأفغاني

## جمال الدين الأفغانى

أما العامل الأول : فهو السيد جمال الدين الأفغانى الذى حضر لمصر فى أواخر عهد اسماعيل وأقام فى منزل بجهة كوم الشيخ سلامه بالقاهرة. وكان قد تقابل مع رياض باشا فى الاستانة وتعرف به فرغبه فى السفر الى مصر . ولما حضر قررت له

الحكومة مرتباً على أن يلق بضعة دروس فى الازهر ، ولكن حدث بينه وبين الشيوخ سوء تفاهم أدى إلى انقطاعه فى مسكنه مع بقاء راتبه لهوقد اتصل به كثير من الباشوات مثل رياض باشا واحمد خيرى باشا ومصطفى باشا وهبى ؛ ومن المفكرين يومئذ ، كالشيخ محمد عبده وسعد زغلول وابراهيم الهلباوى وابراهيم اللقانى وسليم النقاش وأديب اسحاق وغيرهم . فجعل يبث فيهم مبادىء الوطنية بجرأة وصراحة . وقد أنشأ محفلا ماسونياً ضم اليه تلاميذه وبلغ عدد المشتركين فيه نحو ثلثمائة وكان بين المنتمين إليه ولى العهد توفيق باشا الذى كان السيد يرى فيه صفات طيبة ، أهمها ميله للبساطة وحبه لرعيته . وقد زرته بمنزله عدة مرات وسمعته يدعو الى هذه المبادىء بقوة وحرارة .

وكان العامة فى ذاك العهد يعتقدون أن الحاكم هو السيد المطاع . فأراد جمال الدين بخطبه الملتهبة وبياناته المتطرفة تغيير هذه العقلية

وقبيل خلع اسماعيل خطب فى الاسكندرية خطبة جاء فيها :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك »

بهذه الجرأة المدهشة كان الرجل يخطب ويتحدث ، ولم يكن للناس عهد بمثل هذا فكانوا يسحرون بمنطقه ، ويدهشون له

وكان سامعوه يذهبون بعد سماعه إلى مجالسهم الخاصة ، فيتحدثون بما سمعوا لجلسائهم وأقربائهم ، مما جعل النفوس تتنبه قليلا قليلا ، وتلتفت الى علاقة الحاكم بالمحكوم وواجب كل واحد منهما نحو الآخر ؛ وتنفى عن الأذهان عقيدة الحق الالهى فى الحكم وتبحث عن تصرفات رجال الحكومة وتنقدها

وقد علم القارىء أن جمال الدين ومريديه سعوا عند شريف باشا ، وقنصل فرنسا لعزل اسماعيل وتولية توفيق ( كما مر ذكره )

ولما تولى توفيق قرب اليه السيد جمال الدين الأفغانى أول الأمر ؛ وأخذ يحادثه فى شتى الأمور ، حتى لقد كان يقول له : « إنك أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد »

وقد أشار على الخديو بآراء جريئة فى الاصلاح ؛ ومن بينها تغيير رجال السراى .

ولكن توفيق كان ، قد احتفظ بحاشية اسماعيل جميعها تقريباً ، وكان أغلبهم من سلالة

غير مصرية ؛ ولم يغير منها إلا بارو باشا رئيس القلم الأفرنجي بالمعية ، الذي استقال عند خلع اسماعيل ، فاختير جودار بك المحرر الأفرنكي في نظارة الخارجية خلفاً له . وعين دومرتينو بك سكرتيراً خصوصياً ، وكان من قبل في خدمة توفيق بهذه الصفة ؛

وسمعت هذه الحاشية بآراء السيد جمال الدين، فلم يرق في نظرها شيء منها ؛ ولا سيما أنها قد أحست فيها الخطر على نفسها وعلى الخديو ، فحذرته مغبة هذه الآراء الجريئة ونصحت له بالسير في هدوء وبخطوات وئيدة ، وكان مسيو دومارتينو ، قنصل جنرال ايطاليا ، ممن يثق بهم توفيق وهو قريب للسكرتير الخصوصي ، فوافق على آراء الحاشية ، وحبذها لدى الخديو

ومن ناحية أخرى فقد كان قنصلا فرنسا وانجلترا - ولا سيما الأخير منهما - يخشيان تدخل السيد جمال الدين وآراءه ، خيفة أن يكون في ذلك ما يمس نفوذهما ، ويعرض أموال الأجانب للضياع . فأخذت هذه الجهات الثلاث ، الحاشـــية وقنصل إيطاليا الجنرال وقنصلا فرنسا وانجلترا ، تعمل عملها في نفس الخديو توفيق ، وتوغر صدره على صديقه واستعانت على بغيتها بأن صورت له ما فعله السيد جمال الدين في العجم من الثورة وكانت نتيجته الفتك بالشاه ؛ وأنه لا يبعد أن يصنع معه ما صنع هناك اذا لم يسايره في آرائه ، خصوصاً وأنه يظن أنه صاحب الفضل في توليته ، بذهابه الى ممثلي الدول طالباً خلع والده اسماعيل وتعيينه خلفا لأبيه .

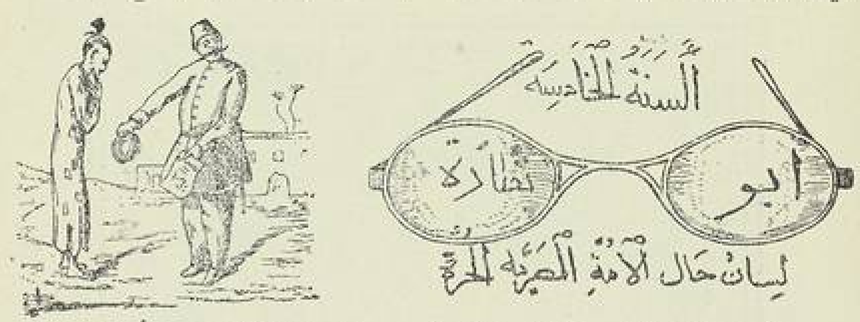
وهذه الناحية عملت في نفس توفيق أشد مما عملت الدسائس الأخرى ، لأنها لمست موضع الخوف على العرش ، فوافق على نفيه ، بعد ما كان بينهما من صداقة ووداد

وهذه المعلومات أخذتها عن صديق في قلم تركي المعية محمود شكري بك نقلا عن طلعت باشا ودومارتينو باشا الذي كان على اتصال بممثلي الدول الأجنبية وهـذا هو السر في نفي جمال الدين

## جريدة أبو نضارة زرقا

والعامل الثاني — جهود كاتب يهودي فرنسي التبعية ، يدعى يعقوب رافائيل ، ولـكنه كان يطلق على نفسه اسم «جون سانوا» وكان صحفياً قديراً ، واتصل بجمال الدين وقررا اخراج صحيفة هزلية باللغة العامية وبينما كان يفكر في انتخاب اسم لهذه الجريدة اتفق له أنه كان يبحث عن حمار يركبه إلى منزله ، فاجتمع حوله المكارية ، كل يريد تقديم حماره له ، مما ضايقه ، فأراد التخلص منهم ، وإذا بصوت يناديه « يا أبو نضارة

زرقا » فاستحسن أن يكون هذا اللقب اسما لصحيفته ! « أبو نضارة زرقا » وكان يضمنها محاورات عامية فى انتقاد الأحوال العامة والتنديد بالحكومة فى قالب فكه مؤثر . ويسمى الخديو اسماعيل « شيخ الحارة » وكانت مقالاته شيقـــة مثيرة تدفع الناس إلى قراءة جريدته واقتنائها بكل الوسائل ولما نفاه اسماعيل من مصر مكث فى باريس يطبع جريدته ويرسلها خفية فى مظاريف ، حتى عرف أمرها فضبطت وصودرت فاحتال لادخالها بغير اسمها فسماها « أبو صفارة » ولكنها ضبطت وصودرت أيضاً ومنع تداولها .




جريدة أبو نضارة وبجانبها صورة البوليس الذى يخرج من طيات عمامة الفلاح جريدة أبو نضاره زرقا .

وقد امتازت هذه الفترة بتعطيل كثير من الصحف وتضييق الخناق على الصحفيين ومن الصحف التى عطلت يومئذ . الريفورم والفاردوالكسندرى والمساجير وايجبسيانو ومن التى منع دخولها « الشرق » وكان ذلك فى نظارة شريف باشا فى عهد اسماعيل

**بدء الثورة العرابية** . لم تكن الحركة العرابية حركة وطنية عامة فى بدء نشأتها . ولم يكن لها برنامج معين ، ولكنها نشأت بادىء بدء ، عن سخط افراد قلائل من كبار ضباط الجيش المصرى ، المتخرجين من تحت السلاح الفوا انفسهم محرومين من حق الترقى الى رئاسة الآلايات خلافا للجراكسة والاتراك

فهذا الظرف هو الذى جعل عرابى ورفاقه يشعرون بالحيف الواقع عليهم ، وعلى امثالهم ، من جراء التميز بين المصريين والجراكسة والاتراك

ولم يكن عرابى ورفاقه ليستطيعوا التفكير فى حالهم مـدة حكم اسماعيل ، لصرامته وشدة بطشه تشهد به حادثة اسماعيل باشا المفتش . ولكنهم بدأوا يفكرون فى ذلك فى عهد توفيق ، لمـا كانوا يعلمون عنه من روح المسالمـة ، والبعد عن الشدة ، وحبه للمصريين ، بدليل ترقيته ثلاثة منهم إلى قيادة الآلايات فى الشهر الأول من توليته ( وهم احمد بك عرابى وعلى بك فهمى وعبد العال بك حلمى « المعروف بأبى حشيش » وقد رأى هؤلاء الثلاثة أن عثمان رفقى باشا الجركسى ناظر الجهادية ، يتحيز للضباط الجراكسة والاتراك

اذ كان يخصهم دونهم بالعناية والترقية ؛ وزاد على ذلك أن سن قوانين تجعل الترقى إلى رياسة الآلايات للمتخرجين فى المدارس الحربية فقط ، وكان القليل من المصريين من تعلم فيها ، ومعظمهم كان من تحت السلاح ؛ وقد أخذ فعلا فى تنفيذها

وفى ليلة ١٥ يناير سنة ١٨٨١ كان عرابى بمنزل نجم الدين باشا فى حفلة لمناسبة عودته من الحج ، فسمع من اسماعيل كامل باشا سرياور الخديوى بخبر هذه القوانين ، وبنقل



عبد العال حلمى امير الآلاى السودانى الى ديوان الجهادية بصفة معاون، وفصل احمد بك عبد الغفار قائمقام السوارى. وفى نفس الوقت، جاءه ضابط، وأخبره بأن الضباط الوطنيين مجتمعون فى منزله للتشاور فى أمر هام؛ فذهب إليهم، وهنـــاك تناقشوا فى القوانين الجديدة، والخطر المحدق بهم من جراء تنفيذها الذى بدىء فيه، ثم فكروا فى طريقة للخلاص من هذه الحالة ، وقر رأيهم على أن يطالب رؤساء الآلايات الثلاثة بعزل ناظر الجهادية وبالمدافعة عن حقوق الضباط الذين تخرجوا من تحت السلاح، وأقسموا جميعاً على انفاذ ما يأمرهم به عرابى

وفى الحال كتب عرابى عريضة بالشكوى من عثمان رفقى باشا بلهجة شديدة تدل على روح التمرد، وطلب عزله، وتحقيق ما يشكو منه الضباط على يد مجلس عسكرى؛ فوافق المجتمعون ووقع عليها الثلاثة الزعماء. ويعتبر هذا العمل بدء الحركة العرابية

ولما قدمت هـذه العريضة لرياض باشا فى اليوم التالى؛ نصح لهم بسحبها واعدا بالنظر فى الشكوى فلم يذعنوا لنصحه ، وقد توجه رياض باشا لعابدين وتحادث مع الخديو فى طلب الضباط وأخبره بزيارة معتمد انجلترا له واهتمامه بالمسألة فطمأنه قائلا بأن هذه الحركة ليس فيها من خطر، وقر رأيهما على تأجيل النظر فى هذه الشكوى

وكانت الاخبار فى هـــذه الاثناء ترد للضباط بأن الخديو يعطف على مطالبهم، ولـكن رياض باشا هو الذى يعارض فيها

وبعد أسبوع حصلت مقابلة ثانية بين رئيس النظار وبينهم قال لهم فى أثنائها: «ان ما أودعتموه فى عريضتكم من طلب عزل الناظر، يعد خروجا عن حدود القانون، وهذا عمل خطر، يتخذه الأجانب وسيلة لزيادة تدخلهم فى الحكومة» (١)

فكان هذا القول من جانبه مؤكدا لما بلغ الضباط عنه، خصوصاً وانه لم يتعود على مطالبات من المصريين بهذه الجرأة وهو المشهور عنه بالحاكم المستبد.

فأخذ يفكر مع الخديو والنظار فى عقاب هؤلاء الضباط الذين اجترءوا هذه الجرأة وتقرر عقد مجلس النظار للنظر فى هذه المسألة

**المظاهرة العرابية الأولى** . وقد انعقد مجلس النظار تحت رياسة الخديو فانقسم فى الرأى بين داع الى اللين ، وداع الى الشدة . وكان على رأس الداعين الى الشدة

(١) يشير بذلك الى تدخل معتمد انجلترا واهتمامه بالمسألة

عثمان باشا رفقى ناظر الجهادية وأخذ الأمر على مسئوليته ، ودبر حيلة للقبض على عرابى وزميليه . فاستدعاهم يوم أول فبراير سنة ١٨٨١ الى ثكنة قصر النيل بحجة البحث فى تنظيم حفلة زفاف إحدى الأميرات « جميله هانم » وهناك قبض عليهم وجردوا من سيوفهم . ولكن البكباشى محمد بك عبيد من ضباط آلاى الحرس ، وكان قد استبطأهم ، بادر بناء على ما كان قد أفهمه على بك فهمى رئيس الآلاى ، الى نجدتهم على رأس قوة من هذا الآلاى ، فأطلق سراحهم فى الحال ، فساروا على أثر ذلك مع الجند الى قشلاق عابدين ، واجتمعوا بالضباط وقال لهم عرابى : نحن لا نريد إلا الانصاف والعدل . وعلمنا أنه زار سراً فى هذه الليلة البارون دورنج قنصل عام فرنسا الذى كان متصلا به بواسطة محمود سامى باشا يخبره بما وقع ويرجوه وقناصل الدول المتحابة التوسط لاصلاح الأمر

وفى اليوم التالى اجتمع مجلس النظار فقال محمود سامى باشا : انى أعتقد طاعة الجيش الذى نادى بحياة أفندينا عند رجوع عرابى وزميليه إلى قشلاق عابدين ولو نفذنا طلبه لانحسم النزاع . فأرسل الخديو خيرى باشا ومحمود باشا سامى لمعرفة مطالب الضباط . فأجاب هؤلاء إنهم يطلبون النظر فى شكواهم وعزل ناظر الجهادية ، فأخذ سموه يتبادل الرأى مع قنصلى فرنسا وانجلترا والنظار ، فتقرر عزل عثمان رفقى باشا تداركا للخطر وعدم وجود قوة لصد الزعماء وتعيين محمود سامى باشا البارودى خلفاً له ، بناء على اقتراح رياض باشا

وانتهت هذه الحادثة . ولكنى كنت أسمع من اخوانى بالمعية همساً بالانتقاد على رياض باشا لأنه لم يتلاف الأمر بحكمة . بل ظل على غطرسته المعروفة حتى وقع ما وقع مع أن هذه الغطرسة طالما كانت سبباً فى استياء الكثيرين حتى الخديو نفسه .



عثمان رفقى باشا

فى ٢ ابريل عندما انتهت الأزمة لمحت الكدر على وجه رئيسى جودار باشا رئيس القلم الافرنجى فتجرأت ، لما كان له من الميل نحوى ، على سؤاله عن السبب فقال : « إن معتمد حكومتى قد أساء بكل أسف فى سياسته ليس فقط لفرنسا بل لمصر أيضا ، لاتصاله بعرابى وزميليه ومحمود سامى باشا البارودى ، ويظهر أنه كان يعمل معهم لغرض تقوية نفوذ فرنسا فى مصر بواسطتهم ضد نفوذ انجلترا الذى يعمل له الخديو ورياض »

وكان ذلك واضحا فى المناقشات التى حصلت فى اجتماع أمس ، فان دورنج كان يجتهد فى احراج مركز الخديو ورياض حتى يصل إلى إسقاط النظارة

ومن جهة أخرى فان علاقات المراقب الفرنسى دوبلنيير مع البارون لم تكن حسنة لأنه كان يرى فى نفسه قدرة لم تكن فى شخص القنصل

فلم يجد دورنج أمامه ، للوصول إلى غايته ، إلا الانحياز إلى الضباط المعضدين بقوة الجيش

وقد دهشنا جميعا عندما علمنا أن البارون دورنج صرح فى حضرة الخديو أمس بأنه كان على علم بقرار القبض على الضباط قبل حصوله . وفى اعتقادنا أن الجرأة التى استعملوها فى عريضة الشكوى ضد عثمان رفقى باشا لم تكن خافية عنه بل كان هو المشجع لهم

ومن الغريب أن الحكومة كانت تجهل اتصالهم بالمعتمد الفرنسى وبتدابيرهم ، وكانت النتيجة أن ضعفت ثقة توفيق بفرنسا وسببت خلق متاعب لمصر وزيادة نفوذ معتمد انجلترا

وقد أطلعنى جودار باشا فيما بعد على خطاب أرسله توفيق لرئيس الجمهورية الفرنسية فى ١٤ فبراير يشكو فيه من خطة البارون دورنج . ومما بقى فى ذاكرتى من هذا الخطاب أن البارون اعترف لسموه ، بعد مضى خمسة أيام من انتهاء حادثة قيام الضباط وحصول الهدوء ، أنه قابلهم وسمع شكايتهم وحبذ إسقاط نظارة رياض باشا . واعتبر الخديو هذه المقابلات تغذية للحركة بعد خمودها ، وقد قابل الخديو بعد ذلك وأخبره بما دار بينه وبينهم ولكنه أبى أن يذكر أسماءهم لأنه أعطاهم كلمة شرف بعدم اباحة هذا السر . ومن هذا الوقت راجت الاشاعة بأن دورنج مشجع لحركتهم

ومما جاء فى هذا الخطاب أيضا عرضه على البرنس عثمان فاضل رآسة النظارة إذا أقيل رياض باشا ، وكل ذلك يعد تدخلا فى شئون الحكومة

لم يكتف توفيق بهذا الخطاب بل أوفد جودار باشا لنظارة الخارجية بباريس كى يقدم لرجالها تفصيلات عن علاقة ممثلها المسيو دورنج فى مصر بالثائرين وليتبين

رأى النظارة فى سياستها مع زعماء الثورة العرابية . فسافر وتباحث مع كبار موظفيها المسئولين طويلا ثم أرسل للخديو تقريرا لم أتمكن من معرفة فحواه . غير أن رئيسى بعث إلى بخطاب خاص جاء فيه أنه دهش عندما سمع من هؤلاء الموظفين عن أسباب مساعدة مسيو دورنج للعرابيين لأنهم يعتقدون أن عرابى وزملاءه يسعون فى تحرير مصر وإيجاد حكومة أساسها الحرية والمساواة والاخاء ، الأمر الذى يرحبون به

ولم يخف مسيو جبرييل شارم ، المحرر بجريدة «الديبا» ذى العلاقة بنظارة الخارجية ، عن جودار باشا اتصال مسيو دورنج بزعماء الحركة قبل وبعد قيامهم ضد الحكومة فكان يستقبلهم أحسن استقبال ويستشيرونه فيما يجب أن يكون عليه نظام الحكومة المصرية فى المستقبل ، ولم يضن عليهم بآرائه لأنه كان يعتبرهم من الوطنيين الحقيقيين وكنا هنا فى فرنسا نعتقد ذلك

وقد كان أسف جودار قد وصل إلى درجة عظيمة من سوء سياسة حكومته حتى أنه استقال من وظيفته بالمعية

وبناء على هذا الخطاب استدعت الحكومة الفرنسية البارون دورنج فترك مصر فى أول مارس

وقد علمنا فى السراى أنه لما جاء الخبر بعزل دورنج من منصبه توجه معتمد انجلترا لزيارة رياض وتعانقا

ومن هذا الوقت زاد نفوذ معتمد انجلترا عند الحكومة ولدى الجناب الخديو

أما نحن رجال الحاشية فكنا نجد تقصيرا من رياض باشا مع اعترافنا بوطنيته فى مسألة قيام الضباط لعدم إعطاء هذه الحادثة المهمة العناية الكافية واعتبارها غير خطرة . وهذا يعد غرورا ، وكان الواجب عليه تقديم استقالته . ولكن كنا نعلم أنه معضد من مالِت الذى كان مع ذلك يعده رجعيا

وفى هذا الوقت كان يشاع بين المصريين أن رياض هو صنيعة الانجليز

ثم أخذ الخديو يفكر فى خير طريق لمعالجة الحالة حتى لا يتكرر ما حدث . فأشار عليه بعض كبار بطانته أن يجمع الضباط ، ويطمئنهم ، وينصح لهم بالهدوء والسكينة ، ويقنعهم بأنه يريد لهم الخير والتقدم . وفعلا استدعى الضباط الى عابدين فى يوم ٢٢ فبراير ، ورأيت جموعهم تفد الى السراى ، فاستقبلهم الخديو وألقى عليهم خطبة أكد فيها عطفه على مطالبهم ؛ واهتمامه بأمرهم ، ونصحهم بالتزام السكينة فانصرفوا متظاهرين بالاقتناع والخضوع .

ثم بعد ذلك قصدوا ناظر الجهادية محمود باشا البارودى ؛ وألحوا عليه فى وجوب

اصدار قوانين جديدة فى صالح رجال الجيش ، من جند ، وضباط ، ولضمان ترقيتهم بدون تفريق بين الذين تخرجوا من تحت السلاح ، أو من المدارس الحربية ، فنزل عند رغبتهم ، وبعد البحث فى مطالبهم أعد مشروع قانون بزيادة مرتبات جميع الضباط والعساكر ، ومشروعا آخر بتشكيل قومسيون للبحث فى النظامات والقوانين العسكرية

وفى يوم ٢٠ ابريل عرض رياض باشا المشروعين على الخديو فصدر بهما دكريتو فى اليوم نفسه ، وعند ذلك أقام محمود باشا سامى مأدبة فى قصر النيل احتفالا بقبول الجناب الخديو للاصلاحات التى عرضت عليه وعلمنا أنه خطب فيهم قائلا : « إنه من بدء تولية سمو الخديو حصل تغيير مهم ، إذ تبدل فيه العسر باليسر ، والظلم بالعدل ، والنقم بالنعم ، وتقدمت طريق البلاد فى نجاحها تقدما سريعاً »

وبعده قام رياض باشا وحثهم على طاعة ولى الأمر الذى هو سبب نعمة البلاد ، حيث أخذوا ما لهم ويجب أن يؤدوا ما عليهم

وبتنفيذ هذه الطلبات اشتـــد ساعد العرابيين ، وقويت شوكتهم ، بين رجال الجيش جميعاً .

وقد يتساءل القارىء — وله الحق — هل أزالت هذه الحفلة ما علق بنفوس الجانبين من أثر حادثة قصر النيل

والجواب : لا ، فقد بقى كل فريق محتاطا من جهته !

فقد أخذ يوسف باشا كمال ناظر الدائرة الخاصة يعمل سراً لاثارة الفتن بين الأفراد وصغار الضباط ضد الزعماء وخصوصاً فى الآلاى السودانى البعيد عن العاصمة ، فاستدعى باشجاويشا جركسياً من هذا الآلاى إلى منزله فى هذا الشهر نفسه ، واستخدمه لهذا الغرض فلم ينجح وصارت محاكمته

وحدث كذلك أن الباشا المذكور استخدم فرج بك الزينى ، أحد الضباط المستودعين القاطن بالقرب من الآلاى المذكور ، فى تحريض الصف ضباط الذين يترددون عليه على التمرد والعصيان ، ففشل البيك المذكور واكتشفت المؤامرة وحوكم القائمون بها

وعند مطالبة عرابى ( بعدئذ ) بتشكيل مجلس نواب وزيادة الجيش والتصديق على القانون الجديد ، طلب اليوزباشى سليم افندى صائب المتزوج بجارية من السراى ومعه ثمانية عشر ضابطا نقلهم من آلايهم لعدم موافقتهم على هذه الطلبات . ولما ثبت صدور هذه الدسائس من يوسف كمال باشا فى التحقيق أمر الخديو بعزله ؛ ولكن ذلك لم يذهب من نفوس العرابيين أن للخديو يداً فى المسألة ؛ وزاد فى خوفهم على أنفسهم .

فكانت هذه الحوادث دليلا على أن الخديو لم يكن منفذاً لوعده الذى وعد به الضباط عند اجتماعهم فى السراى ، من اهتمامه بأمرهم ، وعطفه عليهم

ومن جهة أخرى فان هؤلاء الضباط لم يطمئنوا الى هذا الوعد ؛ وخشوا الفتك بهم فكانوا فى حذر من التدبيرات التى تدبر ضدهم . فالطرفان لم يكونا مطمئنين على حياتهما.

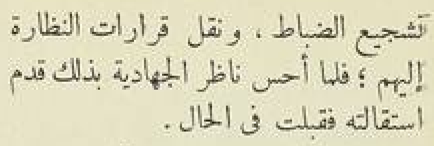
وقد أسفنا نحن رجال المعية من وقوع هذه الحوادث بسبب الأدعاء بالاخلاص للخديو ، والقصد من ذلك زيادة التقرب منه وإضعاف نفوذ العرابيين والباشاوات من الجراكسة

**المظاهرة العرابية الثانية** . أراد العرابيون حماية أنفسهم بضم سلطة أخرى إليهم ، هى سلطة الرأى العام ، حتى يكون الأهالى معهم

وكانت أخبار بوليس السراى من جهة ، والأخبار التى يحملها اخصاء الخديو إليه من جهة أخرى ، تفيد أن نجاح المظاهرة العرابية الأولى وتنفيذ الاقتراحات الأخيرة ، وتأييد ناظر الجهادية لها ، قد شجع عرابى ورفاقه الضباط على المضى فى طريقهم ؛ وعدم الاكتفاء بحصر حركتهم فى دائرة مطالبهم ؛ والعمل على تحويلها الى حركة وطنية عامة ، يؤازرها أقصى عدد مستطاع من المصريين عسكريين وغير عسكريين ؛ وان الاجتماعات التى تعقد فى منزل احمد عرابى ، لم تعد قاصرة على الضباط ، بل غدت تضم الزوار من كل فج وطبقة ، من العلماء والأعيان والتجار وغيرهم . وقد كان منزل عرابى فى طريقى الى الديوان ، وكنت كلما مررت به أرى الجموع داخلة اليه وخارجة منه . وكان ظاهراً أن الحركة تتسع يوما بعد يوم .

وقد حدث أن الضابط الى افندى يوسف الذى عاهد عرابى ، نكث بعهده وأظهر ولاءه سراً للخديو فكان يخبر خيرى باشا بما يدبره العرابيون .

وفى يوم ٢٥ يوليو سنة ١٨٨١ ، وكنا فى سراى رأس التين ، شاهدنا جماعة من الجند ومعهم زميل لهم قتيل ، قالوا إن عربة لأحد الأجانب داسته ؛ وطلبوا عرض الأمر على الخديو . فغضب سموه لهذه الجرأة ، وأمرهم بالانصراف فانصرفوا ، وتشكل مجلس حربى بناء على أمر سموه ، للنظر فى هذه الحادثة ، فقرر عقوبات صارمة على هؤلاء الجند . وكانوا من آلاى عبد العال ، الذى استكبر العقوبة ، وقدم تقريراً لنظارة الجهادية يلفت فيه النظر الى هذه الشدة ، فكبر الأمر على الخديو فاستدعى النظار بالتلغراف من القاهرة . وعقد مجلسهم تحت رياسته للنظر فى هذه الجرأة والفوضى فى الجيش وعدم ارتياحه للحالة الحاضرة . وأراد رياض أن يطمئنه ويطلب منه الصبر ، غير أن سموه أصر على عزل محمود باشا سامى لاعتقاده بأنه هو السبب الأكبر فى


تشجيع الضباط ، ونقل قرارات النظارة إليهم ؛ فلما أحس ناظر الجهادية بذلك قدم استقالته فقبلت فى الحال .

وعين مكانه داود باشا يكن فى ١٤ أغسطس فأصدر أمراً بسفر الآلاى الثالث البيادة الى الاسكندرية فاستاء الزعماء من ذلك ولم ينفذ الأمر . وكذلك عزل الدرمللى باشا من الضبطية وعين بدله عبد القادر باشا حلمى ، وكلاهما معروف بشدة بطشه وقوته ، فعمدا فى الحال الى منع اجتماعات العرابيين ، وبث الجواسيس عليهم . فاضطربوا ؛ وتوجسوا شرا ، وجعلوا يفكرون فى اتخاذ تدابير سريعة لوقاية أنفسهم


داود باشا يكن

وجاءت الأخبار للسراى بأنهم يوزعون المنشورات السرية فى طول البلاد وعرضها وانهم يرسلون، مع تلك النشرات ، توكيلات يوقع عليها الأهالى بأن عرابى نائب عنهم فى مطالبهم الوطنية ، وبلغ عدد الموقعين على هذه العرائض ١٦٠٠ تقريباً

وعلمنا فى ذاك الحين أيضاً أن زعماء تلك الحركة، قرروا القيام بمظاهرة بعابدين وأفهموا صغار الجند



عبد القادر حلمى باشا

والضباط أن المقصود بها استعراض عام للجيش أمام الخديو

وقبيل هذه المظاهرة أرسل عرابى إلى معتمدى الدول يخبرهم أن الجيش سيقوم بمظاهرة فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وليس فيها أدنى تعرض لمصالح الأجانب لأنها بسبب مطالب داخلية . وفى الرسالة التى أرسلها إلى نائب قنصل جنرال انجلترا أضاف : « إنه بالنظر لحدوث دسائس عدة موعز بها من الخديو وحاشيته ضد الزعماء ( السابق ذكرها ) . تخوفا على حياتهم يطلبون من الجناب الخديو طلبات تحميهم من هذه الدسائس »

وفى الوقت نفسه أرسل عرابى الى نظارة الجهادية يخبرها بما تقرر مع زملائه الضباط من اجتماع الفرق العسكرية فى ساحة عابدين يوم ٩ سبتمبر بسبب صدور الامر الى الآلاى السودانى ، قيادة عبد العال حلمى ، بالسفر الى الاسكندرية لاضعاف القوة العسكرية بالقاهرة وتشتيتها وتعريض حياة الضباط للخطر . ويعلمها أيضاً بأنه إذا أريد منع اجتماع العساكر فانها لا تطيع الاوامر

وفعلا أراد الخديو وكبار حاشيته منع الآلاى السودانى من النزول فى ميدان عابدين فلم ينجحوا بل هددوا . ولكن سموه استمال على بك فهمى حكمدار آلاى الحرس حتى وزع جنوده على أبواب السراى استعداداً للدفاع عمن فيها

فنزلنا فى الميعاد المحدد للمظاهرة الى جناح التشريفات المطل على الميدان ، ورأينا الجيش قادماً من جهة شارع عابدين ؛ وقد اصطفت الجنود البيادة والسوارى والطوبجية فى أماكن بالميدان كانت كأنها مخصصة لكل سلاح من هذه الأسلحة ، وعلمنا أن عرابى طلب على فهمى وسأله عن سبب حراسة آلايه للسراى فأجابه بأنه إنما فعل ذلك من قبيل السياسة وسحب عساكره وأخذ موقفه المتفق عليه ، واستبدلهم عرابى بغيرهم لمنع الدخول الى السراى أو الخروج منها . وقد أرسل الخديو فى طلب النظار وقناصل الدول والمراقبين ؛ فنصح المراقب الانجليزى لسموه بالثبات وأن لا ينسى أنه مليك البلاد . وتقدم عرابى راكباً جواده شاهراً سيفه وخلفه بعض الضباط فنزل الخديو إليهم من قصره غير مكترث لما قد يتعرض إليه من الأخطار ، وكان معه السير اوكلاند كلفن المراقب والمستر كوكسن قنصل انجلترا فى الاسكندرية النائب عن معتمد انجلترا . ولم يتبعه سوى اثنين من عساكر الحرس الخصوصى أحدهما حسن صادق ( الذى ترقى فيما بعد الى رتبة قائمقام ) وكان ضخم الجسم فلما رأى عرابى شاهراً سيفه ، صاح به : « اغمد سيفك وانزل عن جوادك » ، فامتثل . ثم خاطبه الخديو بقوله : ما هى أسباب حضورك بالجيش إلى هنا . فرد عرابى قائلا : جئنا يا مولاى لنعرض على سموك طلبات الجيش والأمة . فقال الخديو : وما هى ؟ فقال : هى اسقاط النظارة المستبدة وتشكيل مجلس نواب وتنفيذ القوانين العسكرية التى أمرتم بها

فقال الخديو : كان فى إمكانك تقديمها للحكومة . وعند ذلك أشار عليه المستر كلفن باللغة الانجليزية ، أن يعود للقصر . وبقى هو يناقش عرابى وينصح بالانسحاب حتى يتيسر النظر فى مطالبه بما يجب من تفكير وروية ، فلم يسمع عرابى له قولا ، ولم يقبل نصحاً ، فعاد هو وزميله المستر كوكسن إلى الخديو يشيران عليه بأن الضرورة تقضى باجابة هذه المطالب . لانه لا حول ولا قوة لديه

**نظارة شريف باشا** . عندئذ استقالت نظارة رياض باشا فى الحال وأخذ فى مخابرة شريف باشا لتشكيل نظارة جديدة تحت رياسته فتردد جملة أيام خشية أن يكون ألعوبة فى يد العرابيين ، غير أن الاعيان طمأنوه بان الضباط سينفذون كل ما يأمرهم به. عند ذلك اشترط على الزعماء شروطا قبلوها وأهمها أن ينتقل آلاى عرابى إلى رأس الوادى ، وآلاى عبد العال حلمى الى دمياط . أما زيادة الجيش إلى ثمانية عشر ألفا وتشكيل مجلس النواب فان أمرهما يقرر بعد مفاوضة الباب العالى فى شأنهما.

وفى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ قبل شريف باشا تشكيل النظارة وصدر الامر بذلك

وكان شريف باشا يرى أن نفوذ الأجانب قد استفحل من جراء تسليم رياض باشا لهم بمطالبهم ، ويصرح فى مجالسه الخاصة بأن الأمر لو وكل إليه ، لأوقف هذا النفوذ عند حده .



السير ادوارد مالت

فى يوم ١٨ سبتمبر زار مالت الجناب الخديو وبعد نزوله من السراى جمع سموه كبار الحاشية وأعلمهم بأن معتمد بريطانيا العظمى عندما كان فى الأستانة لتمضية إجازته ورد له تلغراف من نظارة الخارجية البريطانية تأمره

بالعودة حالا لمصر بمناسبة مظاهرة الجيش فى ٩ سبتمبر . وقد تشرف بمقابلة السلطان فى يوم ١٣ منه وتحدث معه بخصوص هذه المظاهرة وطلبات الجيش . فكان من رأى الخليفة أن سقوط نظارة وقيام أخرى لا مانع منه ، غير أنه لا يرى بعين الرضا منح الدستور فى ولاية عثمانية دون الولايات الأخرى ، وأنه ليس لديه معلومات بعدد جيش مصر الحالى حتى يعرف إذا كان هناك ضرورة لزيادته .

وقد أرسل سموه فى طلب شريف باشا وأعلمه بذلك . ولكن شريف لم يشاطر السلطان رأيه بخصوص الدستور .

**استغلال الحركة .** منذ انتهت مظاهرة عابدين الثانية باجابة مطالب أولئك الزعماء ، اشتد بأس الحركة العسكرية ، التى سميت عندئذ بالحركة الوطنية ؛ مبدؤها ( مصر للمصريين ) وتطلع إليها ذوو المطامع والأغراض ، ليستغلها كل منهم لمصلحته ؛ وبعث المبعدون فى الخارج برسلهم ليتصلوا بزعمائها ، ويجتذبوهم إليهم ، بأساليب وآمانى عاجلة وآجلة ، فكان عثمان باشا فوزى والسيد حسن موسى العقاد وعبد السلام المويلحى باشا ، يعملون دائبين لمصلحة الأمير حليم بن محمد على باشا الكبير وكان يقيم بالآستانة ، مطالباً بحقه فى عرش والده . وكان ابو نضارة زرقا ، وهو بباريس ، ضمن الذين يعملون له ، فأخرج فى جريدته ثلاث صور رمزية احداها تمثل الماضى ( اسماعيل ) والثانية تمثل الحاضر ( توفيق ) والثالثة تمثل المستقبل وهى صورة حليم باشا



حليم باشا



عبد السلام المويلحى



الماضى — الحاضر — المستقبل

وكان الموسيو ماكس لافيزون الفرنسى من المنتمين للخديو السابق، والشيخ البحراوى من العلماء، ومحمد راتب باشا السردار، والذين غمرهم اسماعيل بأياديه الجليلة، يسعون لاعادته إلى أريكة ملكه

وكانت فرنسا تغذى الحركة العرابية بواسطة ممثلها دورنج كما مر ذكره، حتى وصل الحال إلى أن المسيو دوفريسينيه كتب، بصفة سرية، إلى غرانفل يقترح عليه استبدال توفيق بالبرنس حليم ولكن هذا الاقتراح رفضه غرانفل. وكان دوفريسينيه يعلم أن العرابيين يرحبون به

وكان السلطان ينظر إلى الحركة نظرة العطف ليستخدمها فى استعادة نفوذ الدولة فى مصر، سيما لأن عرابى كان يتظاهر دائما بالولاء للخليفة، فرأى الفرصة سانحة لتحقيق هذه الغاية، فبادر بارسال وفد لمصر دون استشارة الدول

**الوفد الشاهانى**. لم يلتمس توفيق من الباب العالى إرسال وفد بعد أن هدأت الحال عقب تشكيل نظارة شريف باشا فحسب، بل إنه لم يكن يتوقع ذلك، وإنما وردت له برقية من السراى الهمايونية بتاريخ ٣ اكتوبر سنة ١٨٨١ تنبئه بسفر هذا الوفد فأمر توفيق باعداد قصر النزهة لاقامته وأوفد على ذو الفقار باشا السر تشريفاتى لاستقباله فى الاسكندرية، وقد وصلها فى ٦ منه على اليخت الشاهانى « عز الدين » وكان مكونا من على نظامى باشا وعلى فؤاد بك. وصفر افندى الياور الشاهانى. وبعد الاستراحة فى سراى رأس التين استقل الجميع قطارا خاصا الى العاصمة فوصلها فى المساء. وكان فى استقبالهم بالمحطة من قبل الخديو رئيس ديوانه طلعت باشا وغيره من المأمورين. ثم سار الوفد مع مندوب الخديو إلى قصر النزهة « المسافرخانة » وقد أعد لنزول الوفد. « وهو فى حى شبرا » المدرسة التوفيقية الآن »

وفى صباح اليوم التالى توجه الوفد لسراى الاسماعيلية فاستقبله كبار الذوات من ملكيين وعسكريين ، ورحب توفيق به أحسن ترحيب . ثم أبلغ نظامى باشا الخديو سلام السلطان ورضاءه العالى ، وأن حضور الوفد ما هو إلا لتأييد نفوذه وتثبيت مركزه ، فتقبل سموه عناية الخليفة بالشكر والدعاء بدوام بقاء الذات الشاهانية

وبعد ذلك انصرف الوفد عائدا الى قصر النزهة مشيعا من رجال السراى بالاكرام والاحترام ، وبعد قليل رد توفيق الزيارة للوفد

وبناء على طلب على نظامى باشا لزيارة نظارة الجهادية أمر محمود سامى باشا الآلاى الثانى بقيادة طلبة عصمت بك لاستقبال دولته وأداء التحية العسكرية اللائقة بمقامه السامى




طلبة عصمت بك

ولما وصل إلى ساحة قصر النيل أدى الآلاى التحية وصدحت الموسيقى بالسلام ثم سار وبمعيته محمود سامى باشا وطلبه بك وطائفة من الضباط إلى قاعة الاستقبال الكبرى ، وبعد الاستراحة قام دولة نظامى باشا وخطب فيهم قائلا ماملخصه : إن مصر قلب الدولة العلية ونخشى عليها ما نخشاه على أنفسنا وديارنا وأن الجناب الخديو هو نائب السلطان فمن أطاعه فقد أطاع السلطان ومن عصاه فقد عصا جلالته

فأجابه عصمت بك بأن الجيش المصرى الشاهانى يعترف بسيادة مولانا الخليفة على مصر ، وهو خاضع لجلالته وللجناب الخديو نائبه وليس بيننا وبين مقامه السامى أى خلاف

فرد نظامى باشا بأنه سر جداً من حسن نية الجيش وحبه للجناب الخديو ، وأن التظاهر الذى حصل لم يكن بسوء قصد

ثم انصرف دولته مودعا بالتعظيم من جميع الحاضرين

ولمـــا وصلت تفصيلات هـذه الزيارة الى الخديو سر كثيراً ، واطمأن من أن الوفد لم يكن له غاية من زيارته غير تأييد سموه

وقـد أمضى الوفد من يوم حضوره إلى يوم سفره فى زيارات وحفاوة واكرام من كبار القوم ومشاهدة ما فى العاصمة وضواحيها من الآثار العظيمة. وفى ١٨ اكتوبر غادر الوفد العاصمة فى قطار خاص ، بعد أن أدى زيارة الوداع لتوفيق ، وقد رافقه إلى الاسكندرية على ذو الفقار باشا

ومع أن فرنسا وانجلترا كانتا تعلمان مهمة الوفد إلا أنهما ، خشية تدخله فى شئون مصر واطالة إقامته فيها ، أرسلت كل واحـدة منهما مدرعة حربية للاسكندرية فى فجر يوم ١٩ منه ولكنهما انسحبتا فى اليوم المذكور عند مغادرة الوفد للأراضى المصرية

**غرور عرابى** . من المتناقضات ما سمعناه من أنه بينما كان على نظامى باشـا ينادى بتأييد سلطة الخديو كان احمد راتب باشا ، أحد القواد العثمانيين الذى حضر لمصر بحجة المرور لأداء فريضة الحج ، يتقابل مع عرابى فى معسكره برأس الوادى ويبلغه السلام الشاهانى والرضا العالى وعناية الخليفة الدائمة به وانه ملقه ومجد حركته. ففاضت نفس عرابى غروراً وكبراً وثقة ، واعتقد أنه زعيم مصر الأكبر والعـامل لاعلاء كلمة الخليفة العثمانى بين المسلمين . وخيل إليه — بما له من القوة يستمدها من التفاف الجيش حوله — قد غدا صاحب الكلمة النافذة وان إليه مرجع الأمر كله دون الخديو وحكومته

ولم يلبث طـويلا فى مقره الجـديد حتى أرسل فى ٢١ نوفمبر يطلب نقل آلايه إلى القناطر الخيرية بحجة وجود النمل فى الوادى بكثرة ، فقرر شريف باشا إيفاد بعثة طبية لمعرفة ما إذا كان حقيقة أن موقع رأس الوادى غير ملائم صحياً وفى هذه الحالة ينتقل آلاى عرابى إلى رشيد

ولما لم ينجح فى دعوته قام بالطواف فى أنحاء مديرية الشرقية ، يستميل الأهالى ويتألفهم ويبث فيهم دعوته ، توطئة لافتتاح مجلس النواب

ولما لم يرق فى نظر الحكومة عمل عرابى قررت استدعاءه للعاصمة وتقليده وكالة الحربية ، فقبل هذه الوظيفة بكل سرور لأنها تمكنه من اتصاله بالنواب . ولكنه اشترط الاحتفاظ بقيادته لآلايه ، وصدر الأمر بنقله فى أوائل يناير سنة ١٨٨٢

**موقف الدول والمذكرة الثنائية** . ولم يقف غرور عرابى عند حد حكومته بل رسخ فى ذهنه أنه لا خوف عليه من وقوف فرنسا وانجلترا فى طريقه لما بينهما من منافسة فى السياسة المصرية كما كان يؤكد له بعض الانجليز وبالاخص مستر بلانت الذى زار مصر يومئذ وتعرف بعرابى وصادقه مؤكداً له ذلك وشجعه على المضى فى خططه ومشاريعه ، ومعاونته على تنفيذها بنشر مقالات يرسلها إلى جريدة التيمس

وعند تولى جمبتا رياسة الوزارة الفرنسية فى ١٤ نوفمبر كانت سياسته ترمى إلى العمل فى المسألة المصرية بالاتفاق مع بريطانيا العظمى دون تدخل تركيا على حين أن غرانفل كان ميالا إلى طلب مساعدة تركيا ، وفى النهاية حصل الاتفاق بين الوزيرين



المسيو جمبتا

رئيس وزارة فرنسا



لورد غرانفل

على أن يرسلا منشوراً للدول ومصر بواسطة معتمديها بهذا الاتفاق وكان ذلك فى ١٥ ديسمبر . ولما رأى جمبتا أن أعمال مصر تسير من سىء إلى أسوأ اقترح على زميله البريطانى ارسال مذكرة تؤيد فيها الدولتان الجناب الخديو فوافقه وأرسلت المذكرة الآتية إلى معتمديها فى مصر لتبليغها إلى توفيق وتم ذلك فى ٨ يناير .

وهذا نصها : —

« حضرة القنصل الجنرال :

كلفنا كم غير مرة أن تخبروا الجنـاب الخديو وحكومته عن رغبة حكومتى فرنسا وانجلترا فى مساعدته ومساعدة حكومته للتغلب على المصاعب المتنوعة التى تزيد الارتباك

والقلق فى القطر المصرى . فان الدولتين على وفاق وطيد واتحاد تام فيما يتعلق بمصر ، لا سيما بعد حدوث الحوادث الاخيرة وأخصها صدور الامر الخديوى بجمع مجلس شورى النواب مما أوجب المخابرة بين الدولتين واعادة النظر فى شؤون اتفاقهما المذكور . وبناء على ذلك نرجوكم أن تصرحوا الآن للجناب الخديو أن حكومتى فرنسا وانجلترا تريان تأييد جنابه فى الخديوية ، وفقاً للاحكام المقررة بالفرمانات السلطانية التى قبلتها الدولتان قبولا رسمياً ، باعتبار أنها وحدها تكفل الآن استمرار السلم والسكون وتوجب توسيع نطاق الثروة والعمران فى البلاد المصرية ، مما فيه مصلحة الحكومتين المتفقتين على الاشتراك فى السعى لدفع كل ما من شأنه أن يحدث فى مصر ارتباكا أو يخل بنظاماتها وأحوالها سواء كان هذا الخلل وهذا الارتباك ناشئين عن أسباب خارجية أو داخلية .

ولا ريب عندنا فى أن هذا التصريح العلنى المبين لمقاصد الحكومتين يمنع حدوث ماعساه يطرأ على حكومة الجناب الخديو من الاخطار . وان حدث فالحكومتان لا ترددان فى دفعه ولا تحجمان عن صده

وفى أمل الدولتين أن الجناب الخديو يعرف حقيقة ما فى هذا التصريح لتتحقق له الثقة والقوة اللتان لا بد له منهما لادارة أمور القطر المصرى »

عند ئذ ادركنا أن الدولتين تعتزمان التدخل الفعلى فى شئون مصر متى رأتا أن الوقت قد حان لذلك التدخل

ولكن الخديو تلقى بالارتياح الشديد هذه المذكرة مما جعل نفوسنا تطمئن بعض الاطمئنان غير أننا من جهة أخرى سمعنا أن الزعماء يهددون الخديو بتقطيعه إربا إذا لم يرد على الدولتين برفض المذكرة

ولقد أثارت هذه المذكرة غضب العرابيين كما أسلفنا وخواطر مجلس النواب الذى افتتح فى ٢٦ ديسمبر وألح فى نظر الميزانية وسيعلم القارىء تفاصيل ذلك فيما بعد

وقد أثارت هذه المذكرة أيضاً سخط الباب العالى الذى يستنكر تدخل الدولتين فى شئون مصر وكان يرى أن يكون تقديم هذه المذكرة إن لم يكن منها يد بواسطته لأن مصر تحت سيادة الدولة

ولما أحس شريف باشا بسوء وقع المذكرة فى مصر علمنا بصفة خصوصية أنه زار معتمدى فرنسا وانجلترا فى ٩ يناير وأعرب لهما بأنها «أولا» تشجع الخديو على مقاومة الدستور «ثانياً» أنها تنم عن روح غير حسنة نحو مجلس النواب «ثالثاً» أنها ترمى الى عدم

الاعتراف بسيادة الدولة. رابعاً. أنها تهدد مصر بالتدخل الأمر الذى لا تستوجبه الحالة الحاضرة. ورجا من المعتمدين طلب إرسال مذكرة إيضاحية لازالة مخاوف المصريين

وقد روى لنا من يوثق به وله علاقة ودية مع السير ادوارد مالِت أنه أسف لموافقة غرانفل على اقتراح مسيو جمبتا بارسال هذه المذكرة دون أخذ رأيه، وأنه يقول من العبث تشجيع الخديو الذى ذهبت سلطته وأصبح لا حول له ولا قوة. وأن هذه المذكرة قد أضاعت نفوذ انجلترا التى تجاهر الآن بالمعارضة وأبعدت عنا ثقة المصريين وكانت تعتبر انجلترا الصديقة لها

وقد سمعنا أيضاً أن مالِت يقول إن نتيجة هذه المذكرة قد أوجدت جبهة متحدة من الحزب الوطنى والجيش والمجلس ضد تدخل فرنسا وانجلترا

ولكن جمبتا لم يوافق على إرسال مذكرة إيضاحية لأنه يرى فى ذلك تقهقر أمام المصريين ولم يجد غرانفل بداً من قبول هذه النظرية بعد تردد

وقد تحادثت مع زملائى فى المعية يوم ١٠ يناير في المذكرة الثانية فقال أحدنا إنه سمع لوما وجهه أحد المنتمين لتوفيق على عدم رفضه مذكرة الدولتين التى ترمى الى تدخلهما فى شئون مصر كما يقول العرابيون، فأجاب سموه إنه لم يفعل ما فعله عرابى نفسه عند التجائه الى دورنج معتمد فرنسا وعند مظاهرة ٩ سبتمبر حيث أرسل منشوره لمعتمدى الدول وطلب من نائب معتمد انجلترا المساعدة لتأييد الطلبات التى قدمها فى هذه المظاهرة

**مجلس شورى النواب**. قد يعن التساؤل: هل كان توفيق راغباً فى إيجاد هذا المجلس؟ فأجيب بالنفى. لأنه فى بدء حكمه رفض رغبة شريف باشا فى إيجاد مجلس نواب وأعلم أن الأسباب الدافعة الى هذا الرفض هى:

أولا: لعدم استعداد المصريين لهذا الأمر الهام لأن المجلس الذى تشكل لأول مرة فى سنة ١٨٦٦ وفى المرة الثانية فى سنة ١٨٧٨ لم يكونا إلا صورياً لتنفيذ أوامر اسماعيل فضلا عن أن الانتقال من استبداد الى نظام ديموقراطى يعتبر طفرة غير مأمونة العاقبة

ثانياً: أن الحكومة كانت إدارتها فوضى وماليتها فى شبه إفلاس وكان من هم سموه إصلاحهما. وقد عالجت الحكومة هذين الأمرين وكانت النتيجة حسنة حتى آخر سنة ١٨٨١

ثالثاً: أن الحاشية كانت على رأى سموه ومشجعة له فى هذه الخطة

رابعاً: أنه لم يقبل طلب عرابى تشكيل مجلس شورى النواب إلا مرغماً وخاضعاً للأمر الواقع

ولهذا فانه لما رفع شريف باشا فى ٤ أكتوبر سنة ١٨٨١ مذكرة لسموه بمشروع إنشاء مجلس شورى النواب لم يتأخر عن قبولها ونورد نصها لأهميتها :—

« لقد أظهرت التجارب فى عدة مرات خلل الحالة الموجودة عليها البلاد الآن ، ولهذا فالاًصلاحات التى سنشرع فيها فى ظل الساحة العلية تكون متعلقة بأهم صوالح البلاد المصرية ، لأنه يترتب على إجرائها تغيير الحالة المذكورة وإصلاحها شيئاً فشيئا ، وتوطيد الادارة العمومية على أساسات قوية وثابتة .

إنما الاشتغال بمسائل مهمة كهذه والنظر فيها لاخراجها من حيز التصور للعمل لا يأتى حصوله بانفراد هيئة النظار فقط . بل المترآى لهم أن تبادل الأفكار فيها باشتراك الرجال الذين يؤهلهم استعدادهم وخبرتهم بالاشتغال واستقامتهم ومرتبتهم لحيازة ثقة ورضى اخوانهم بهم . ولانتخابهم للنيابة عنهم هو الواسطة الوحيدة للحصول على الفائدة المقصودة من تلك الاصلاحات . وقد طابق رأى عمد الأهالى بالنيابة عن عمومهم هـــذا الرأى الذى رأته هيئة النظار ، ولذلك نرى أنه من الواجب علينا أن نطلب من المراحم الخديوية تلبية التماس أهالى البلاد وجميع أعيان ووجوه القطر لأخذ رأيهم بخصوص احتياجات الأقاليم وعرض الخلل الحاصل فى الأدارة عليهم . واجراء الاصلاحات اللازمة بمساعدتهم .

وللوصول لهذا الغرض لايوجد الآن شىء سوى اتباع لائحة مجلس شورى النواب الصادرة فى سنة ١٨٦٦. نعم إن تلك اللائحة ليست مستوفاة ولا ملائمة لأفكار الأهالى ومقاصدهم ، وكانت قد عملت جملة مشروعات وتقدمت عن هذا الخصوص . لكن هيئة النظار باتحادها مع مجلس شورى النواب ستشتغل فى البحث عما يلزم اجراؤه من التنقيحات والتعديلات فى قانون النواب مع مراعاة حقوق الحضرة الخديوية وحالة القطر هذا ومن الجلى الغنى عن البيان أن العهود والترتيبات التى نشأت عن الحالة المالية وارتبطت بها الحكومة . وكذلك القوانين والأوامر العليـة المشتملة على تلك العهود والترتيبات لا تدخل ضمن المسائل الجائز نظرها والبحث فيها بمجلس النواب . لأنها موضوع عقد صلح مع الدول ، ولا يجوز تعديلها أو تغيير شىء منها إلا برضاء الدول التى عقدت معها .

وعلى ذلك فمجلس النواب سيؤدى مأموريته بدون تعرض للمصالح الواجب احترامها . وسيكون عضد الحكومة لذاتكم العلية فى اجراء الاصلاحات المشروع فيها . وعوناً على تأمين المصريين تأميناً كافياً على النفس والعرض والمال . ولهذا ، واتباعاً للمادة ١٦

من لائحة مجلس الشورى المؤرخة فى ٢١ رجب سنة ١٢٨٣، أتشرف بأن أقدم للاعتاب السنية مشروع أمر عال بانتخاب النواب وافتتاح المجلس فى ١٥ كيهك سنة ١٥٩٨ الموافق غرة صفر سنة ١٢٩٩ و٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١

أما مدة الثلاثة الشهور الباقية لحين افتتاح المجلس فسأشتغل فيها مع رفقائى بتحضير المشروعات اللازم عرضها لحضرات النواب . وسنستلفت أنظارهم بالخصوص نحو المواد المختصة بالضرائب . وبالعونة والبدلية المتعلقتين بالعمليات والأشغال العمومية . لأنها مسائل ذات أهمية جسيمة بالنسبة للمزارعين . وسنأخذ رأيهم أيضاً فى ترتيب مجالس إدارة بالمديريات . لأن وقايتهم بالأقاليم واستمرار معاملتهم مع أهاليها يجعلان رأيهم ذا فائدة عظمى فى ترتيب تلك المجالس وتعيين حدودها واختصاصاتها

ومن ثم فاذا تكرمت الحضرة الخديوية بالتوقيع على مشروع الأمر العالى المقدم لسدتها السنية يبادر فى الحال ناظر الداخلية باجراء التنبيهات اللازمة على المديرين والمحافظين بانتخاب النواب بالشروط المقررة باللائحة المار ذكرها ،

وفى نفس هذا اليوم صدر ديكريتو بتنفيذ ما عرضه على سموه محمد شريف باشا بانتخاب أعضاء المجلس وبافتتاحه فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١

سمعت من دومرتينو (باشا) أن مالت يقول بعدم معارضته لايجاد مجلس شورى ، غير أنه يضيف الى ذلك أنه يخشى احتمال طلب النواب المناقشة فى أمور خارجة عن اختصاصاته ، اعتماداً على قوة الجيش دون الوطنية التى يدعيها العرابيون . وأنه يقول إن إيجاد هذا المجلس تجربة خطرة

مع أن الذى سمعناه أن حكومته تعطف على قيام النظام النيابى فى مصر . فنحن فى حيرة من هذا التناقض

أما مسألة زيادة الجيش الى ١٨٫٠٠٠ فقد اجتمع . عند شريف باشا فى ٢٢ نوفبر المراقبان وناظر الجهادية وتناقشوا فى المبلغ الذى طلبه لزيادة الجيش وهو ٦٠٠٫٠٠٠ جنيه ، فأعرب المراقبان عن عدم وجود المال الكافى ، وبعد الأخذ والرد والتساهل منهما ، تقرر زيادة ميزانية الجهادية الى ٥٢٢٫٠٠٠ جنيه ، ويكون عدد الجيش ١٥٫٠٠٠

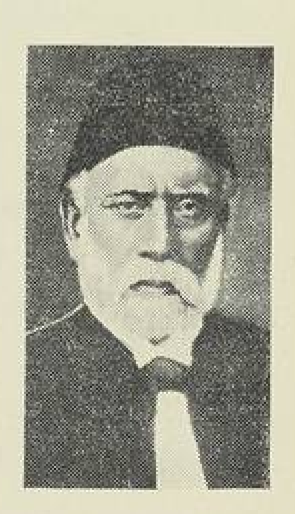
وقد تمت الانتخابات ، وصدر الأمر بتعيين محمد سلطان باشا نائب المنيا ، رئيساً للمجلس الذى افتتح فى الميعاد المحدد له بنظارة الأشغال

ونظراً لخطورة هذا الحادث ، بادرت بالذهاب إلى قاعة الاجتماع وكنت أرى

النواب فى حركة ناشطة ، وعلى وجوههم آيات السرور والاستبشار . وسمعت بعضهم يقول ان الأمة قد استطاعت أن تحقق أمانيها بفضل ما بذله عرابى وزملاؤه ، وكانوا يضطرمون حماسة فى أقوالهم وحركاتهم .

ولما حضر الخديو قاموا إجلالا له . ثم ألقى عليهم خطبة ملخصها : أنه مسرور اليوم لاجتماع ممثلى الامة ، وأنه كان يفكر فى دعوة مجلس النواب منذ تولى الحكم لولا الظروف التى أحاطت بالبلاد . ثم طلب منهم معاونة الحكومة فيما يعود على البلاد بالخير والتقدم ، متوسلين بعناية الله تعالى وامداد رسوله الكريم . ومتمسكين بقوة ارتباطنا بالحضرة الشاهانية والدولة العلية . . . . الخ .

وبعد أن عاد الخديو إلى السراى دخل النواب غرف الاستراحة ، ثم عادوا إلى المجلس فألقى عليهم الرئيس سلطان باشا خطاباً نوه فيه بحسن نية الخديو وحث النواب



محمد سلطان باشا



سليمان أباظه باشا

على بذل المعونة الصادقة للحكومة ، والمحافظة على المعاهدات والمواثيق التى عقدتها مصر مع الدول . وقد أجابه سليمان باشا أباظه نائب الشرقية بخطاب خلاصته :ـــ ان النواب يعلمون الصعوبات التى تحتمها عليهم مهمتهم وأنهم عازمون على اداء واجبهم كامل

الاداء ، مادام الخديو والحكومة سيمهدان لهم الطريق ، وما دام قصد الجميع خدمة الأمة والعمل لمصلحتها .

ولكن .. هل كان توفيق مرتاحا لوجود مجلس النواب ؟

لم أكن لأظن ذلك .. لانه لا زال متشائماً من الحالة وقليل الثقة بالمجلس ، لأن نفوذ العرابيين كان فيه كبيراً

وفى ٢ يناير سنة ١٨٨٢ حضر لمجلس النواب شريف باشا وألقى خطابا قال فيه ، بعد أن نوه بعدم ملاءمة اللائحة الأساسية التى تشكل المجلس على مقتضاها . : « وها أنا أقدم لكم لائحة جديدة موافقة لمقاصد العموم للنظر فيها »

« وقد أعطت لكم الحكومة الحرية التامة فى إبداء آرائكم وحق المراقبة على أفعال مأمورى الحكومة من أى درجة وأى صنف كانوا ، ونصرح لكم بنظر الموازين العمومية وابداء رأيكم فيها ، ونظر كافة القوانين واللوائح ، وكذلك تعهدت بأن تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يترتب عليه إخلال بحقوقهم »

ثم قال : « إنه لا يجوز لحضراتكم ولا للحكومة مس المعاهدات المالية أو قانون التصفية التى تربط مصر بالدول الأجنبية »

وأخيراً طلب من المجلس النظر حالا فى هذه اللائحة . ثم قدم للمجلس مشروعا بلزوم ترتيب مجلس للادارة وتحضير القوانين ومحاكمة المأمورين وغير ذلك

فشكل المجلس لجنة لفحص اللائحة الأساسية الجديدة وإبداء رأيها فيها فوافقت اللجنة على أغلب المواد ، إلا ما تعلق منها بميزانية الحكومة ، فانها رأت أن للمجلس الحق فى مراجعتها . فبعث قراراً لرآسة مجلس النظار مع تعديل اللائحة

غير أن شريف باشا لم يعط الحق له فى ذلك ، خشية تطرف النواب والعبث بالمعاهدات التى بين مصر والدول فى شأن الديون وقانون التصفية ، وكان يرى مع المراقبين أنه إذا تناقش الأعضاء فى الميزانية ، فقد تخرج المالية من اختصاص مجلس الوزراء والمراقبة

وفى السراى كنا نخشى نتيجة هذا الخلاف ، لأنه يخلق سبيلا لتدخل الدولتين فرنسا وانجلترا فى هذه المسألة الخطرة . وفعلا أبرق غرانفل إلى مالت فى ١٦ يناير يقول له إن إلحاح المجلس فى نظر الميزانية يؤدى إلى مسئولية النظارة

كل يوم يمر بنا بعد الخلاف الحاصل بين المجلس وشريف باشا من جهة ، ومعتمدى الدول من جهة أخرى ، نحس بتفاقم الخطب الذى أدخل الرعب فى نفوس الأجانب . حتى لقد سمعنا أن زعماء الحركة يهددون شريف باشا . وقد بسط للنواب الموقف الحرج الذى نشأ عن الحاحهم فى نظر الميزانية ، واستصدر أمراً بذلك ، وهو ما يتعارض والمعاهدات الدولية

وفى أول فبراير سنة ١٨٨٢ أعاد مجلس النظار اللائحة الأساسية باشارة مؤداها أن معتمدى دولتى فرنسا وانجلترا يريان أن لا حق لمجلس النواب فى تقرير الميزانية ، ولكنهما مع ذلك يقبلان المخابرة مع دولتيهما إذا تم الاتفاق بين النواب والحكومة على مواد اللائحة كلها ، وتترك المادة المتعلقة بالميزانية وأن يبدى النواب رأيهم النهائى بخصوصها لتجعله الحكومة أساساً للمخابرة مع الدولتين

فأجاب المجلس فى ٢ فبراير بأن لا حق لمعتمدى الدولتين فى معارضة ما هو من شئون مصر الداخلية ، وأنه يصر على نظر الميزانية كقراره السابق . وأعاد اللائحة بعد موافقته على تعديلات الحكومة الأخيرة

وقد ذهبت لجنة من النواب لشريف باشا طالبة الجواب النهائى على طلبهم . فأبى . فذهبت هذه اللجنة بعد ذلك الى توفيق والتمست منه إما قبول اللائحة الأساسية مع تعديل المجلس أو استقالة النظارة . فوعدهم بالنظر فى التماسهم وإعطاء الجواب عنه بعد التروى . وفى الحال اجتمع شريف باشا ومعتمدا الدولتين عند الخديو وأظهر لسموه رفضه قبول نظر المجلس للميزانية كطلب المعتمدين ، وقدم اليه استقالته . وبعد انصرافهم دعا الخديو أعضاء اللجنة وكلفهم بانتخاب رئيس نظارة جديد فامتنعوا تاركين للخديو تعيين من يرى فيه الأصلحية لادارة البلاد . ولكنه كرر عليهم ما أمرهم به ، وأخيراً التمسوا انتخاب من ينفذ طلب المجلس

**نظارة محمود سامى باشا البارودى** . وبعد المداولة مع الحاشية ومعرفة ما يطلبه الزعماء ، صدر أمر الخديو فى ٥ فبراير بتعيين محمود سامى باشا البارودى خلفا لشريف باشا لعلمه برغبة المجلس فيه . فشكل نظارته وأدخل فيها عرابى باشا ناظراً للحربية ، فسر النواب من هذا الانتخاب وشكروا سموه على ذلك (١)

---

(١) انعم على عرابى برتبة اللواء بمناسبة تقلده النظارة

وفى ٦ فبراير عقد مجلس النظار جلسة دارت المناقشة فيها على لائحة النواب فأقرها بما فى ذلك النظر فى الميزانية

وفى ٨ منه خطب رئيس النظار فى المجلس قائلا : إنه حمل اليه اللائحة الأساسية ، وحض الأعضاء للمحافظة على حدودها

فابتهج الأعضاء ابتهاجا عظيما وشكروا الحكومة على اجابة طلبهم

إلى هنا كان النصر المبين حليفا للعرابيين ، وكانت الهزيمة شديدة لسياسة الدولتين ، وكنا نقول . آه لو أن عرابى يقف على هذا الحد ونجتاز هذه العقبة بسلام لأقمنا له تمثالا اعترافا بجهوده التى أوصلت البلاد إلى إيجاد دستور دون إراقة دماء ! !

ولكن . . ما وراءك يا عصام !

**المؤامرة الجركسية .** بمجرد تبوء عرابى كرسى نظارة الجهادية والانعام عليه برتبة اللواء ، اهتم بترقية عدد عظيم من الضباط المصريين إلى رتب مختلفة ، فنال على فهمى وعبد العال حلمى ويعقوب سامى وكيل الجهادية وطلبه عصمت واثنان غيرهم رتبة اللواء ، وثمانية أمراء آلايات ، وستة عشر قائم مقام ، وترقيات أخرى متنوعة عددها عظيم جداً يعد بالمئات ، ولم يسع الخديو إلا التصديق على هذا الطلب

ولم يكن للضباط الجراكسة نصيب من هذه الترقيات الأمر الذى أغضبهم وظنوا السوء بالمستقبل

ولا عجب إذا فكروا فى الانتقام ، وفعلا حضر الضابط راشد افندى أنور فى ٣١ مارس إلى طلبه عصمت باشا وأخبره بوجود مؤامرة لاغتيال حياة عرابى وكبار الزعماء . ولما علم عرابى بالأمر شكل فى الحال مجلساً عسكرياً لمحاكمة المتآمرين تحت رياسة راشد باشا حسنى ، وقد ساد عليه الرعب لدرجة استوجبت سكناه فى القشلاق دون المنزل

وعلمنا أن مالت حضر للسراى فى ١٦ ابريل فأنبأه توفيق بشدة قلقه من جراء القبض على ثلاثين ضابطاً أغلبهم من الجراكسة منسوب إليهم المؤامرة لاغتيال حياة عرابى ، ولهذا إذا سار سموه إلى جانب الفريق القوى يتذمر طبعاً الجراكسة والأتراك، فيخشى منهم الأذى والضرر

دارت المحاكمة سراً إلى ما بعد شهر ابريل ولم تصل المحكمة إلى كل الحقائق حتى إذا

خليل افندى حسنى الملازم أحد المتهمين ، يتطوع لافشاء سر هذه المؤامرة ، فعرف بأن محمد راتب باشا السردار [1] هو رأس المتآمرين وأنه اعتمد على محمد افندى نيازى وأمين افندى شكرى فى تنفيذ رغبة المتآمرين . وكان اجتماعهم فى منزل أحدهم احمد افندى راشد الملازم وتحالفوا على حفظ سر عملهم. وأفشى خليل افندى اسماء المتآمرين وأن راتب باشا كان يجتمع ببعضهم أحياناً وتم الاتفاق على تقديم ثلاث عرائض إحداها للسلطان والثانية لسمو الخديو والثالثة لحضرات القناصل ، بالشكوى من ظلم العرابيين واضطهادهم لهم ، وكان عدد المتآمرين ١٥٠ شخصاً انتدب احمد افندى راشد لأخذ توقيعاتهم على هذه العرائض ، والسر كان محفوظاً عند كبار المتآمرين.

ومما قاله أيضاً إن الاجتماعات تكررت فى منزل عبد الله افندى الكردى ، وهو رئيس التسعة عشر ضابطاً من الآلاى السودانى الذين رفتوا « وسبق التنويه عنهم » ، وحصل الاتفاق على انتخاب رجب افندى راشد وحسن افندى حلمى وعبد الله افندى لطيف رؤساء ، كل واحد يرأس ٥٠ شخصاً يقسمون الايمان أمامهم بحفظ الأمانة والسر والاعتراف بالرياسة العليا لراتب باشا. ومتى زاد عدد الجمعية يتعين عليها امراء الآلايات مثل محمود بك طاهر ومحمد بك نجيب ومحمد بك شوقى . وتقرر أن يكون الحلف الرسمى على مقام السيدة زينب . على أن عبد الله افندى لطيف لم يقبل الرآسة إلا بعد انتشار الجمعية لكى يتمكن من الحصول على ٥٠٠ باشبزوق بواسطة حسين بك القره جوللى

غير أنهم كلفوه باستشارة بعض الذوات فى تشكيل جمعيتهم ، فكان رأيهم استقباح الأمر . عند ذلك انسحب من الجمعية . ثم توجهنا إلى منزل احمد افندى فهيم وتداولنا ولكننا لم نتفق على قرار نهائى ، بل قلنا بوجوب كتمان السر ، وقد قصصنا القصة على راشد افندى أنور ، ظناً منا بأنه سيكون معنا لقاء عدم نواله الترقى ، فأبى.

ولما أتم إقراره أمام المجلس العسكرى صادق على كل ما جاء فى أقواله جميع المتهمين

وفى ٢٢ ابريل جاءت الأخبار للسراى بأن عدد المقبوض عليهم إلى هذا التاريخ بسبب المؤامرة بلغ ٤٨ منهم عثمان رفقى باشا ، وهم يعاملون فى السجن معاملة سيئة ،

وأخيراً صدر المجلس العسكرى على ٤٠ ضابطا من المتآمرين أحكاما قاسية ، إذ

---

(١) الذى ترك مصر أخيراً إلى نابلى ليلحق باسماعيل

حكم بنفيهم إلى أقاصى السودان بعد تجريدهم من رتبهم ونياشينهم ، أما بالنسبة لراتب باشا فالمجلس يتهمه بالسعى لارجاع اسماعيل لأريكة مصر ، وإذا وطئت أقدام الباشا المذكور أرض مصر سيضبط وينفى أيضاً إلى السودان

طلب الخديو من عرابى أن يعرض الحكم على مجلس النظار فلم يوافق على هذا الطلب بل رفض . وأيده زملاؤه فى الرفض ، لعدم ضرورة ذلك . ثم استشار توفيق معتمدى الدول ، فكان من رأى مالت أنه إذا كان سموه يرفض هذا الحكم فيكون رفضه باسم العدل والانسانية ، فضلا عن أن المحاكمة كانت سرية . ومعتمد ايطاليا أشار برفض الحكم . ومعتمد النمسا تنحى عن إبداء رأيه . والفرنسى قال باعادة المحاكمة وفى أثنائها يصدر عفو الخديو

فلما أبلغ توفيق الباب العالى هذه الأحكام وردت منه برقية يقول فيها بعدم التسرع فى البت فى الأحكام الصادرة ضد المتآمرين ، حيث يوجد من هو حائز لرتب أعطيت من السلطان ولا يمكن تجريدهم من هذه الرتب الا بأمره

فرد توفيق بأنه سيعمل بموجب الفرمانات . وأرسل صورة تلغراف الباب العالى ورده عليه للنظار ، فاستشاطوا غيظا وطلبوا من سموه إرسال تلغراف آخر على نقيض تلغرافه الأول فأبى

وكان من رأى مالت إسراع توفيق بالبت فى هذه المسألة قبل أن تدخل تركيا فيها بارسال وفد

ثم قابل البارودى مالت فى ٨ مايو وأخبره بأنه إذا وردت أوامر من الباب العالى بعدم تجريد الضباط المسجونين فالنظارة لا تطيعها ، وإذا حضر وفد عثمانى فيمنع من النزول ، ولو اقتضى الحال استعمال القوة ، وتكون النتيجة قيام ثورة ضد السلطان ويأمل عدم تدخل الانجليز فى الأمر

وفى ٩ مايو طلب الخديو الاجتماع بمعتمدى الدول لاستشارتهم فيما طلبه الباب العالى من إرسال دوسيه التحقيق ليبدى رأيه فيه . ولكن سموه يرى أن ذلك سيؤدى الى إطالة الأزمة . فنصح مالت وزميله الفرنسى ( بناء على رأى حكومتيهما ) باصدار أمره بنفى المتهمين إلى خارج القطر مع حفظ رتبهم ونياشينهم . وقد أمضى الخديو الأمر بذلك أمامهما . وبعد نزولهما توجها إلى مجلس النظار وتقابلا مع الرئيس وأبلغاه بأنهما لما علما منه الاعتراض على تدخل تركيا نصحا لسموه بعدم الاجابة على ما طلبه الباب العالى من ارسال الدوسيه . والاكتفاء بنفى الضباط لخارج مصر وكان ذلك بصفتهما الشخصية .

وسألاه عما سيفعله إذا لم يغير الخديو الأمر الذى أصدره والذى أوجب غضب النظار . فقال هذا أمر يخص مجلس النظار . وأضاف أنه ما دام الخلاف موجودا بيننا وبين الخديو فما علينا إلا أن نحتفظ بمراكزنا وندعو مجلس النواب للنظر فى هذا الخلاف ، ونحن نحافظ على سلامة الخديو والأمن العام . وستكون الشكوى من الخديو أساسها أنه يقوم باعمال دون أخذ رأى المجلس

وقد انقطعت العلاقة بين الخديو ونظاره من هذا اليوم

**المظاهرة البحرية ومطالب الدولتين والخطر على حياة توفيق** . لما أعلن محمود سامى معتمد انجلترا بقطع علاقات النظارة مع الخديو طلب عرابى من سلطان باشا عقد مجلس النواب للنظر فى الخلاف الواقع فأبى ، لأن المجلس فى عطلته ولا يمكن عقده إلا بديكريتو . فقرر مجلس النظار فى جلسة دامت ثمانى ساعات يوم ١١ مايو استدعاء النواب لمصر تلغرافياً

وفى يوم ١٢ توافد النواب للعاصمة ، وذهبوا لمنزل عرابى وقد أشيع عند ذاك أنهم سيجتمعون ليقرروا عزل توفيق ، ونفى عائلة محمد على ، وانتخاب رئيس النظار حاكماً على مصر

ولكن الذى حصل هو أن النواب ذهبوا الى سراى الاسماعيلية وعرضوا على الخديو إيجاد الوفاق بينه وبين النظارة ، فأبى ، لأنها هددته وهددت عائلته بالنفى . فعم القلق عند المصريين والأجانب ، وأحس توفيق بدنو الخطر على حياته

وزاد القلق والذعر عند ما أشيع أن رؤساء قبائل العربان يرغبون فى احتلال القاهرة للذود عن توفيق وتشتيت شمل النواب والعرابيين . وقد بولغ فى عددهم ، فقيل إنهم يزيدون عن مائتى ألف بدوى

وقد سمعت محمود خليل باشا ، رئيس أقلام عربى المعية ، يقول إن أفندينا بعيد جداً عن قبول هذه الفكرة ، لأن البدو إذا دخلوا فى العاصمة يكون أول همهم النهب والسلب ، ولا يبعد حصول حرب أهلية بينهم وبين الجهادية ، وتكون النتيجة الخراب والدمار وضياع البلاد ! وأضاف محمود خليل باشا على ذلك قوله : وكنا نحن الحاشية على هذا الرأى

وقد اهتم معتمدو الدول للحالة الخطرة التى وصلت إليها مصر ، فوردت تعليمات

مالت وزميله الفرنسى فذهبا فى يوم ١٤ مايو الى عرابى وأبلغاه أنه اذا كان يعمل بالاتفاق مع الخديو وينفذ أوامره فان الحكومتين تنظران له بعين الرضا، وأن حفظ الأمن العام وسلامة الخديو مطلوبان منه شخصياً . فأجاب بأنه يتحمل مسئولية ذلك ما دام ناظراً للحربية

وفى نفس هذا اليوم تداول النواب فى إيجاد حل المشكلة ، ثم تكونت لجنة برياسة سلطان باشا وذهبت الى الخديو، بصفة غير رسمية، ترجوه حلها ، وتكررت مقابلاتهم لسموه ، وعرضت جملة حلول منها استعفاء سامى باشا مع بقاء النظار الآخرين واسناد الرياسة الى مصطفى باشا فهمى الذى رفض هذه الرياسة . وأخيراً استرضى النواب الخديو ورجوه بقاء النظارة على حالها ، وانتهى الأمر بقبول هذا الحل ، وكان ذلك فى يوم ١٥ مايو

وفى نفس هذا اليوم ذهب معتمد انجلترا وفرنسا الى السراى وأخبرا الخديو بأن دولتيهما عزمتا على إرسال أسطول لتأييد سلطته ولحفظ الأمن والنظام ، وستستعمل وسائل أخرى لتحقيق أغراضهما . وأنه نظراً لعدم إمكان تغيير النظارة يجب تناسى الشخصيات والتعاون بينها وبين سموه ، لتجنب الأخطار التى تتعرض لها مصر

وفى مساء هذا اليوم تقابل النظار مع الخديو وأظهروا له الخضوع ، ولم يعاتبهم على ما حصل منهم فى الأيام الأخيرة . واكتفى بأن أوصاهم بالسهر على حفظ الأمن فى البلاد فوعدوا بتنفيذ أوامره .

وفى يوم ١٦ علمنا أن الدولتين أبرقتا لممثليهما فى ألمانيا والنمسا وإيطاليا والروسيا بأنه نظراً لتفاقم الخطب فى مصر قررتا إرسال أسطول مشترك الى الاسكندرية لتثبيت سلطة الخديو وحفظ الأمن . وسترسل الحكومتين لممثليهما فى الأستانة للنصح للسلطان بعدم المعارضة

وفى اليوم نفسه زار محمود سامى معتمد انجلترا ، كما زاره ناظر الحربية كل على انفراد ، وأكد له حفظ النظام اذا وصل الأسطول الاسكندرية

هل هذه الاحتياطات التى قامت بها الدولتان أزالت مخاوف توفيق ؟ . كلا . لأننا كنا نعلم أن القلق لا يزال سائداً على أفكاره وأنه لا يأمن على حياته غدر العرابيين

وفى ١٨ مايو أعلم الباب العالى سفيرى انجلترا وفرنسا بعدم ارتياح السلطان لعزم

دولتيهما إرسال أسطوليهما مادامت النظارة المصرية قد خضعت للخديو. فلم يسر توفيق هذا النبأ، لأنه يشجع العرابيين ويقلل ما بقى من نفوذه

لما بلغ عرابى قرب وصول أساطيل حربية أعد العدة بعمل تجهيزات حربية، فأبلغ الخديو معتمدى فرنسا وانجلترا فى ١٨ مايو بأنه أفهم عرابى أن هذه الاستعدادات منافية لرغبة سموه، لأنها تشعر بالعداء ضد الدولتين. فأظهر عرابى الطاعة والاستعداد لتنفيذ الأمر ولكنه استمر فى هذه التجهيزات

وفى ١٩ منه زار المعتمدان المذكوران توفيق وأبديا مشورتهما باستقالة النظارة، وأن يبعد زعماء الضباط عن مصر، مع حفظ رتبهم وأملاكهم، وأن يرحوا مصر سنة على الأقل. وإذا تم ذلك ألفت نظارة تحت رياسة شريف باشا وبذلك تحل المسائل الأخرى بسهولة. وإذا فرض وأظهر السلطان عداءه لارسال الأسطول، مما يشجع العرابيين على المقاومة، فيطلب من تركيا إرسال جيش لاخضاعهم

وكنا نعلم فى السراى أن مالت لم يحبذ إرسال الأسطول ولا التدخل الحربى، وأنه يفضل تدخل تركيا الحربى. وأبدى رأيه هذا لوزير خارجية انجلترا. إلا أن فرنسا تمسكت بابعاد تركيا عن التدخل فى المسألة المصرية. والتزمت انجلترا أن توافقها على إرسال الأسطول

وكانت سياسة توفيق موافقة لرأى مالت فى تدخل تركيا لحسم الخلاف الواقع بينه وبين العرابيين. وقد أظهر ارتياحه التام للتدابير التى أبداها مالت فى حديثه السابق

وفى فجر يوم ٢٠ منه وصل الأسطول المشترك، الفرنسى والأنجليزى، إلى ميناء الأسكندرية.

وفى هذا اليوم أعلم دومرتينو باشا الخديو، نقلا عن مالت، بأن التعليمات الخصوصية التى وردت له تقضى بعدم اختلاطه ولا الأشارة بأى خطة تتبع، بل يكون عمله محدوداً فى إظهار تثبيت سلطة الخديو وأن ينصح لسموه بانتهاز فرصة وصول الأسطول فيطلب من النظارة استقالتها وتخلفها نظارة أخرى برياسة شريف أو غيره ممن يعتمد عليه، وأنه إذا تمت رغبة الدولتين يصدر الخديو عفواً عاماً، ولا تمس أملاك ورتب عرابى وزملائه

فتنفيذاً لهذه الخطة التى وافق عليها توفيق، كلف سلطان باشا بأن يتوجه إلى عرابى ومحمود سامى ويطلب منهما استقالة النظارة. فوعدا بالنظر فى هذا الطلب

وفى ٢١ مايو أرسل الباب العالى إلى الخديو يقول : « إن الدول جميعاً بما فيها فرنسا وانجلترا كررت احترامها للسيادة العثمانية على مصر ، ولا تعتبر وجود الأسطول إلا كزيارة إعتيادية ، وما كنا نعلم ، لا نحن ولا الدول الأخرى ، موعد مغادرة الأساطيل إلى الأسكندرية . وقد وعدت الدولتان مغادرتها للمياه المصرية قريباً ، وطلبنا أنه فى حالة إرسال بلاغات لمصر ، يلزم أن يكون ذلك بواسطة الباب العالى . ولا نشك فى ولائكم للدولة واحترامكم لنصوص الفرمانات »

وفى ٢٢ مايو علمنا أن سلطان باشا تقابل مع مالت وأخبره بأنه قام بابداء رغبة الخديو إلى محمود سامى باشا ولعرابى باستقالة النظارة وفى حالة الرفض يرى سلطان باشا طلب استدعاء مجلس النواب لسحب الثقة من النظارة فتسقط

وفى نفس هذا اليوم أبلغ مالت جرانفل ما احتواه التلغراف الرسمى الذى ورد من الباب العالى لتوفيق ، وما سمعه من رئيس مجلس النواب وتدخله لاسقاط النظارة ، وقد شجعه على تنفيذ ذلك حتى لا يكون بالدول حاجة للتدخل

وفى ٢٣ منه أخبر مالت أن رئيس النظار أجاب سلطان باشا بأن النظارة مستعدة للاستقالة إذا غادرت الأساطيل مياه الاسكندرية ، وقال إن زميله الفرنسى قابل عرابى وطلب منه مغادرة القطر فرفض لعدم امكانه ترك وظيفته ولا وطنه ، والنظارة لا تعترف إلا بتدخل السلطان — دون فرنسا وانجلترا — لأى مطلب كان

وقال سلطان باشا لمعتمد فرنسا أيضاً إنه لا يمكن الاعتماد على النواب لشعورهم السيء نحو وجود الأساطيل

وعلمنا أن مالت أبرق لحكومته بأن الاستعدادات الحربية قائمة بنشاط وأن الشعور سيء نحو الأجانب

وفى ٢٥ منه قدمت مذكرة فى شكل بلاغ نهائى من معتمدى فرنسا وانجلترا لمجلس النظار وصورة منها للخديو تتلخص فى « طلب استقالة النظارة وابعاد عرابى عن القطر المصرى مؤقتا ، ونفى عبد العال حلمى وعلى فهمى فى داخل القطر مع حفظ رتبهم ونياشينهم ومرتباتهم . وتضيف الدولتان إلى ذلك أنهما لا تقصدان من تدخلهما فى شئون الحكومة المصرية إلا الرجوع بها إلى الحالة الأصلية ورد السلطة إلى الخديو . وأن هذا هو الضمان الوحيد لاستقامة الأحوال فى مصر »

علم العرابيون أن الخديو قبل مذكرة الدولتين فتوجه فى ٢٦ مايو إلى السراى محمود سامى باشا رئيس النظار ومعه مصطفى فهمى باشا ناظر الخارجية . فلما قابلا سموه سألاه

عن رأيه فى هذه المذكرة فأجابهما ، بقبوله لها . فاعترضا على هذا القبول قائلين « إنه كان يجب الرجوع فى هذا الأمر الهام للسلطان» فرد عليهما بأنه كيف يلجأ لجلالته فى مسألة داخلية مع أن البلاد تطلب استقلالها . وعند ذاك طلب رئيس النظار صدور ديكريتو بجمع النواب لعرض الخلاف عليهم فأبى . فانسحبا بدون إجابة لامتعاضهم مما سمعاه

أرادت النظارة أن تثبت احتجاجا رسميا على قبول توفيق للمذكرة ، فجمع محمود سامى باشا زملاءه عقب انصرافه من السراى . وبعد المناقشة الطويلة ، قرروا أن هذا القبول يتنافى مع الرأى الذى أجمعوا عليه ، وهو أن تدخل الدول الأجنبية بهذ الشكل فيه مساس جوهرى بحقوق السلطان فى مصر ، ولهذا فانهم يقدمون استقالتهم وكان ذلك فى يوم ٢٦ مايو

وقد أرسلت انجلترا وفرنسا لمعتمديهما بالآستانة ولسفرائهما لدى الدول الأخرى ، بلاغا بأنهما تريان أن يعجل السلطان بارسال أمر يكون معضداً للخديو ، وينفى عنه التهمة التى نسبها اليه النظار المستقيلون ، وأن يستدعى الباب العالى الثوار العسكريين الثلاثة ورئيس النظار السابق الى الآستانة لسؤالهم عن وجهة نظرهم

حصلت رجة عنيفة فى السراى فى هذا اليوم وبدأت مخاوف توفيق على حياته تظهر من ملامحه

وفى الحال استدعى الخديو شريف باشا . وعرض عليه تشكيل نظارة جديدة . فاعتذر لوجود زعماء الضباط فى القاهرة لأنهم يعرقلون كل مساعيه ، فاجتمع بكبار حاشيته ، وبعد التفكير فيما يجب عمله ، أمر سموه محمود باشا خليل رئيس الأقلام العربية بتحضير أوامر لوكلاء النظارات ، ملخصها أنه بالنظر لاستقالة النظار فعليهم القيام بأعمالهم مؤقتا

وأيضاً بتحرير منشورات إلى جميع الجهات ، يدعو بها رجال الادارة للمحافظة على الأمن وطمأنة الخواطر من ناحية قدوم الأسطولين لأنهما حضرا لغرض سلمى . وأن ينبهوا العمد والمشايخ إلى اليقظة وحث الأهالى على السكينة والانصراف إلى أعمالهم

وأراد الخديو كذلك أن يبذل جهده لملافاة الخطب من ناحية رجال العسكرية ، فدعا اليه فى يوم ٢٧ مايو جميع الكبراء والعظماء من العسكريين والملكيين والعلماء والأعيان ، وقد شهدتهم يفدون إلى سراى الاسماعيلية ، وكنا نترقب نتيجة هذا الاجتماع الخطير بنافذ الصبر ، فما لبثنا أن علمنا أن الخديو طلب من رجال العسكرية قبول مطالب الدولتين لأن الحكمة تقضى بذلك . فأجابه طلبه عصمت : « اننا مطيعون جميعا للجناب

السلطانى الشاهانى ، وللجناب الخديو ، ولكن هذه المذكرة يستحيل تنفيذها فهى تتعلق بمسائل ، من اختصاصات الباب العالى أن ينظر فيها ، ثم دارت عدة مناقشات بعدذلك فأعلن الخديو أنه سيتولى قيادة الجيش بنفسه . وهنا قاطعه طلبه عصمت قائلا ، إن الجيش كله لا يقبل مذكرة الدولتين ولا استعفاء النظارة ، ثم خرج على أثر ذلك وتبعه بقية الضباط وانفض المجلس دون جدوى

وأراد سلطان باشا أن يتدارك الأمر ، فسعى لتخفيف لهجة المذكرة بطريقة ترضى الدولتين والنظارة . وانقضى يومان فى هذا المسعى ولم يسفر عن نتيجة

وفى مساء ٢٧ وردت برقية على الديوان الخديو من ضباط آلاى رأس التين وفيها : أنهم لايرضون البتة غير عرابى ناظراً للجهادية وأنه إن مضت اثنتا عشرة ساعة ولم يرجع إلى منصبه يصبحون غير مسئولين عن الامن

ثم علمنا أنه بعدانصراف المجتمعين بسراى الاسماعيلية ، تقدم إلى سلطان باشا بعض العلماء والأعيان ، والتمسوا منه إيجاد حل لهذه المشكلة الخطرة لمنع ما عساه يقع من النهب والسلب إذا سادت الفوضى فى البلاد . فطلب من يعقوب سامى وطلبه وغيرهم من الضباط العظام الذين كانوا حاضرين فى الاجتماع المذكور أن يقابلوه فى منزله . فلما حضروا انتقد مسلكهم نحو الخديو الأمر الذى سيجر الخراب والدمار على البلاد . ونصحهم أن يقدموا طاعتهم له . فأجابوه بأنهم لا يعملون شيئاً دون أمر عرابى . فرد عليهم بأن عرابى عزل من منصبه بسقوط النظارة . ولما امتنعوا أرسل فى طلب عرابى.

وفى المساء بينما كان النواب مجتمعين فى منزل سلطان باشا للتشاور فى المسألة ، حضر عرابى ومعه عدد عظيم من الضباط يقودون خمسمائة جندى تقريباً حاصروا المنزل . ثم قام عرابى وألقى خطبة كلها مطاعن ومثالب على سمو الخديو وعلى الخديويين السابقين ، وهدد النواب والأعيان المجتمعين ، ووصل فى وقاحته إلى أن أعلن بخلع الخديو ، وقال إن فى امكانه أن يأمر خليل بك كامل بأن يتوجه بقوة ويحاصر السراى ويرغم توفيق بالتنازل . عند ذاك صاح الضباط والجند بعزل الخديو . ثم صاح عرابى ليقم من كان معنا . وأخرج محمد عبيد سيفه من جرابه وأقسم بالطلاق أنه سيقطع رأس من يرفض القيام . ولكن تردد النواب ورفضوا مع رئيسهم القيام ، إلا القليل منهم ، كما رفضوا التوقيع على قرار بخلع الخديو ، وكنا علمنا بأن النظار فى جلسة استقالتهم وقعوا على هذا القرار ، وتعتبر هذه الليلة بحق ليلة انفجار الثورة العرابية والخطر الأعظم على حياة توفيق وعائلته .

وأخيراً طلب طلبه ويعقوب سامى من سلطان باشا الذهاب إلى الجناب الخديو مع وفد من المجتمعين لالتماس إعادة عرابى إلى وظيفته . فقبل وتشكل الوفد وقابل سموه . غير أنه رفض طلبهم لأن المسألة تحت تصرف الباب العالى وأنه هو الذى سيبت فيها .

وصل الخطر إلى أقصاه ، وكنا نحن رجال الحاشية وضباط الحرس وعساكره تواصل الليل بالنهار استعداداً لكل هجوم على السراى .

وقد اختلى بى مرجان أغا رئيس الأغوات وقال لى : إن سيداتنا داخل « الحرملك » فى حالة سيئة جداً لا ينقطعن عن البكاء لم يذقن النوم منذ يومين وقد صدرت لنا الأوامر بأن لا نغفل عن حراسة باب الحريم ، والأغوات يتبادلون النوباتشية فضلا عن وجود نقطة من الحرس أمام باب الحريم ، وأنا لا أعلم سبب كل ذلك ، فأرجوك أن تطمئننى على ما يدور من الحوادث . فأجبته ببعض ما عندى من المعلومات ، فتأثر وسالت دموعه ودعا الله الخلاص من هذا الخطر الداهم .

قلنا إن العربان أرادوا حماية الخديو من غدر العرابيين ، والآن نضيف على ذلك أن أحد ضباط الحرس ، وهو ابراهيم افندى أدهم الجركسى معتوق اسماعيل باشا صديق المفتش ، والذى ضمه توفيق عند توليته إلى الحرس ، مثل فى هذا الوقت الحرج لدى سموه وقال : إنه يضحى بنفسه فى خلاص سيده من غدر أعدائه بقتل عرابى رئيسهم .



ابراهيم افندى أدهم

كذلك تقدم إليه « زيجداه » اليونانى مورد البقالة للسراى ، قائلا : إن لديه رجالا يعرضون أنفسهم للقيام بمثل هذا العمل ! فرفض الخديو هذا العرض منهما بكبرياء وأنفة ، وأبى أن ينقذ نفسه باغتيال غيره . فكان إباؤه غاية فى كرم الخلق ونبل النفس

خشى العلماء وبطريرك الأقباط والأعيان والتجار استمرار الاضطرابات ، فتوجهوا لمنزل سلطان باشا وألحوا عليه فى تكرار السعى لدى توفيق للوصول الى صدور الأمر لعرابى باعادته لمركزه فلم يقبل وتعلل بالمرض . ثم جاء عرابى وطلب منهم أن يقوموا هم بهذه المهمة فامتثلوا

وقابلوا الخديو وناشدوه بكل عزيز أن يقبل رجاءهم لأن عرابى قد هددهم بالاعدام إذا لم يظفروا بالموافقة .

فلما رفض سموه صرحوا له بأنه اذا كان مستعداً لتضحية حياته فلا موجب لتضحية حياتهم خصوصاً وأن التعليمات صدرت لرجال الحرس بمنع الخديو من الخروج للنزهة اليومية المعتادة وباطلاق الرصاص عليه اذا هو حاول الخروج بالقوة . فأذعن الخديو ، لا خوفاً على حياته فحسب ، بل ضنا باراقة الدماء . وعليه أصدر سموه الامر الآتى : —

« ولو أنكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التى استعفت لكن مراعاة لحفظ الأمن والراحة استصوبنا بقاءكم فى نظارة الجهادية والبحرية وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لتعلموه وتبادروا باجراء ما فيه انتظام أحوال العسكرية بالطريقة الكافلة لحفظ الأمن العمومى على الوجه المرغوب كما هو مقتضى إرادتنا »

فأخذوه ورجعوا الى سلطان باشا لحمد الله لأنه كان يتوقع التعدى على حياة توفيق . فقام ومعه حسن باشا الشريعى وسليمان باشا أباظه وسلموه لعرابى .

وهكذا وصل عرابى الى أنه صار الحاكم الوحيد بأمره ولم يبق لتوفيق شأن يذكر . وقد فشل سموه ومالت فى تنفيذ الخطة التى رسمها له هذا الأخير .

وفى ٢٨ ذهب معتمدو الروسيا والنمسا وإيطاليا وألمانيا الى عرابى ليطلبوا اليه ضمان الأمن العام فطمأنهم وأكد لهم بأنه هو المسئول عن ذلك .

أما توفيق فانه كان يرى أن الحل الوحيد هو الالتماس من السلطان إرسال وفد من قبله ليذعن الزعماء لارادة جلالته . وقد وافق مالت على هذا الاقتراح بما أن حياة سموه فى خطر وأبرق به نظارة الخارجية الانجليزية .

وقد تلقى توفيق برقية من الصدر الأعظم بأن السلطان بناء على طلبه سيرسل لمصر مندوباً فوق العادة

ولما تأكد توفيق من نيات العرابيين السيئة نحوه أظهر رغبته فى السفر الى الاسكندرية ليبتعد عن الخطر المحدق به ، نظراً لوجود الأسطولين فى مياه الثغر ، ولكنه لم يتمكن من ذلك للمخابرات الجارية بينه وبين معتمدى الدول بخصوص الحالة الحاضرة .

فى ٣١ علمنا أن التوقيعات مستمرة بالضغط على عرائض عزل الخديو رغم صدور الأمر بتعيين عرابى وعلمنا أيضاً أن مالت أبرق لحكومته بأن النظارات التى يديرها

الوكلاء فى ركود، ما عدا نظارة الحربية فانها فى نشاط، ويخشى من تصادم المسلمين مع المسيحيين، لأن الفكرة السائدة أن العرابيين يريدون طرد المسيحيين واغتصاب أملاكهم وعدم دفع الدين العام .

وفى الواقع أن هذه الاشاعة كانت منتشرة، سمعتها بنفسى وأكدها لى والدى، حتى قال : إنه يوجد كشف بأسماء الذين لم يوافقوا على الحركة العرابية ولم يساعدوها، فقد تقرر عند تمام النصر لهم أن يوزعوا أملاكهم على الزعماء والانصار

فى أول يونيو دعا توفيق إليه معتمدى فرنسا وانجلترا وأبلغهما ما سمعه من أن العرابيين سيعزلونه ويولون حليم باشا . واذا لم يمتثل لارادتهم فان العاقبة هى موته ومن معه، حتى ولو كانوا القناصل . إلا أنه يحسن استمرار الحذر ويرى فى هذه الحالة ضرورة الالحاح على السلطان بسرعة إرسال المندوب الشاهانى ، فأبدى المعتمدان النصيحة لسموه بابلاغ ذلك لباقى زملائهم قناصل الدول بمصر .

ولما كان الأجانب من جهتهم فى قلق عظيم أرسل عرابى فى ٢ يونيو منشورا لمعتمدى الدول يطمئنهم على سلامة رعاياهم وعلى كافة السكان، على اختلاف دياناتهم وجنسياتهم

# الفصل السادس

## الثـــورة العرابية

## — ٢ —

**انفجار الثورة العسكرية . مذبحة الاسكندرية . المندوب الشاهانى . سفر الخديو الاسكندرية . نظارة راغب باشا . مؤتمر الاستانة وسياسة الدول . انسحاب فرنسا من الميدان . تهديدات الاميرال سيمور ومطالبه . اجتماع فوق العادة لمناقشة الموقف . ضرب طوابى الاسكندرية . أخطر ما رأينا ورجوع الخديو الى سراى رأس التين .**

---

**انفجار الثورة العسكرية** . امتدت الحركة العرابية وانضم إليها طائفة من الكتاب القديرين ، والخطباء المؤثرين ، منهم من أخذوا عن السيد جمال الدين الأفغانى تعاليمه فى وجوب نهضة الشرق ، وماكان ينشره لايقاظ أهله من غفلتهم ، والانتباه إلى مكائد الدول الأوربية للتسلط على الممالك الشرقية ، وفى مقدمتها الدولة البريطانية . فكنا نقرأ لهم فى الصحف مقالات ملتهبة ، ونذهب الى اجتماعاتهم فنسمع منهم خطباً حماسية مثيرة . وكانوا يبثون روح الوطنية ويستفزون الناس لمقاومة الأجانب تخلصاً من الديون التى تثقل كاهل البلاد والأهالى ، والتى كانت سبباً للتدخل الأجنبى

وكان من وراء هؤلاء جماعة انفسح لهم المجال فلم يجد تحمسهم حداً ينتهى إليه . وفى مقدمة هؤلاء عبدالله نديم ، فقد كان يستثير الشعور دون حيطة أوتبصر ، وكان قلمه ، فى جريدة الطائف ثم لسان الأمة ، شعلة من نار ، ولسانه فى خطبه حرباً عواناً . ويليه فى ذلك حسن افندى الشمسى ، الذى كان يحرر جريدة المفيد

وانقلبت مصر مسرحاً للخطباء فى كل مجتمع وناد ، حتى فى المساجد ، ولم يبق مجلس للسمر أو للاحتفال بعرس أو غيره إلا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنين بعـــد

اقصائهم عنها وغيرهم . حتى لقد سمعت ان محمد عثمان المغنى الشهير كان إذا سئل : « فى أى فرح تغنى الليلة ؟ » أجاب : « فى الفرح الفلانى مع عبد الله نديم »

وكثيراً ما كان الخطيب يستصحب معه بعض طلبة المدارس وبعد خطابته يقدم أحدهم إلى الجمع ليخطب فيهم إلى جانبه. فينبرى الطالب مثيراً فى الحاضرين الغيرة والحمية. وقد شاهدت عبد الله نديم مرة يقدم فتحى افندى زغلول ( باشا ) الطالب بمدرسة الحقوق ليخطب فى حفلة عظيمة ، وبعد أن جال بخطبته فى السياسة كل مجال أمسك عبد الله نديم بذراعه وقال للحاضرين : « ألا تعجبون لما أبداه هذا التلميذ فى خطبته من العلم والبيان والتفنن فى المواضيع مع أن جلادستون خطيب انجلترا لا يتناول إلا موضوعاً واحداً فى خطبته !! »

وفى هذه الحفلة ألقى الشيخ محمد النجار زجلا رقيقاً حاز الاعجاب . وكانت «اللازمة» فيه:

أفضل أقضى العمر فى كان ومان     ياودن طنى كل ساعة خبر

إشارة الى هياج الأفكار ، وتضارب الأخبار

وقدم مرة أخرى فى احدى الحفلات الطالب مصطفى افندى ماهر ( باشا ) فخطب القوم وراقهم خطبته ، فقال عبد الله نديم : « اشهدكم أيها الناس ان أمة يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يغلبها أحد على أمرها »

وكان عرابى والبارودى وعبد العال حلمى وعلى فهمى وغيرهم من زعماء الحركة يحضرون أكثر هذه الحفلات ويتصدرونها . فتلقى الخطب والقصائد فى مدحهم وتقديسهم وتعداد مناقبهم ، ولا ينصرفون عنها إلا بالتهليل والتكبير . فاذا انتهت خرج الناس منها وكأنهم أهل سياسة ورياسة . وأصبح الناس كلهم عرابى وأصبح عرابى الناس كلهم ، وانحلت الطبقات ، واختلط الحابل بالنابل ، والعالى بالسافل

وقد كان عرابى يمثل فى شكل البطل المنقذ . وقد وزعت صورته فى أنحاء البلاد وهو جالس ينظر نظرات بعيدة وعلى رأسه عبد العال قابضاً على سيفه والى جانبه على فهمى وهو يمسك بيده ورقة مطوية كتب عليها « الدستور »

وهكذا سارت الروح العرابية فى الأمة بأسرها وجعلت كل الطبقات فى صعيد واحد ممتزج بعضها ببعض

**مذبحة الاسكندرية** . وبينما نحن فى السراى نضرب أخماساً فى أسداس لتفاقم الحال الى هذا الحد . جاءت الانباء من الاسكندرية يوم ١١ يونيو بوقوع حادث فظيع وهو مذبحة شنيعة هلك فيها كثير من الاهالى والاجانب

وهذه الحادثة هى أن تشاجر رجل مالطى مع مكار مصرى فى الاسكندرية لامتناع المالطى عن إعطائه الأجر الكافى نظير ركوب حماره . وكان المالطى ثملا فطعن المكارى بمدية ، فانتصر لكل منهما قوم من أبناء ملته فتذمر جمهور من الوطنيين وأرادوا أن يثأروا من الأوربيين . ولا سيما أن الحركة العرابية كانت قد أوغرت صدور بعض الفريقين من بعض ، وابتدأ الأوربيون يطلقون النيران من النوافذ على كل مار من الوطنيين . فازداد غضب المتجمهرين ، وتضاعف الخطب ، ولم يوجد من يزجر الجماهير أو يشرح لهم ضرر فعلتهم ، مع تمادى الأوربيين المتحصنين فى بيوتهم فى إطلاق النار ، حتى عظم القتال بين الفريقين ، وانتهز الرعاع هذه الفرصة ونهبوا كثيراً من المحلات التجارية . ثم صدرت الأوامر للجند بتفريق المتجمهرين ، فلم يأت الغروب إلا وقد هدأت الاحوال وسكن الاضطراب . وقبضت الحكومة على كثير ممن وقعت عليهم شبهة القيام بهذه الثورة

وجرح المستر كوكسن فى رأسه ، كما جرح قنصل جنرال اليونان . فكان لذلك النبأ شأن عظيم ، ولا سيما عند الخديو وجميع رؤساء المعية . وكان أخطر ما توقعه بسبب هذه الحادثة هو تدخل الاجانب فى شئون البلاد تدخلا فعلياً ، لاسيما وأنه كان لها دوى عظيم فى أوروبا إذ نسبته الجرائد الأجنبية الى التعصب الدينى بالرغم من أن المسيو دو فريسنيه أعلن فى مجلس النواب أن ليس لهذه الحادثة من أهمية سياسية

قلنا فى الفصل السابق ان الخديو التمس من السلطان إرسال مندوب لتهدئة الخواطر ففى ٧ يونيو حضر المندوب وهو الغازى مصطفى درويش باشا المشير ، وبينما كان يستعمل نفوذه لارجاع الطمأنينة للبلاد وقعت مذبحة الاسكندرية ، بعد حضوره بأربعة أيام

فتوجه إليه قناصل الدول الجنرالية وطلبوا منه المحافظة على سلامة الاجانب بالبلاد ؛ فأجابهم بأنه ليست لديه ولا فى يد الخديو قوة لتنفيذ ذلك

غير أنه سبق أن أمر عرابى باعطاء أوامر صارمة لحماية الاوربيين فى الاسكندرية وقال إنه سيجتمع بسموه وينظران فى الامر

وفعلا علمنا فى يوم ١٢ بعقد اجتماع فى السراى تحت رياسة الخديو وبحضور درويش باشا وشريف باشا وعرابى ومعتمدى الدول ، وحصلت المباحثة فيما التمسه القناصل فطلب سموه من عرابى منع الاجتماعات الثورية والمحافظة على الامن بالجيش

فأطاع ووعد بتنفيذه . كما أن توفيق أصدر منشوراً يوصى فيه الاهالى بالمحافظة على الامن العام . وألقى درويش باشا المسئولية على الخديو وعلى عرابى لتنفيذ ما تقرر ، فاطمأن معتمدو الدول وانصرفوا شاكرين

**المندوب الشاهانى** . جاءت برقية للخديو من الاستانة فى ٣ يونيو ، تنبىء بأن المشير درويش باشا الغازى سيبرحها فى هذا اليوم الى مصر ، فأمر سموه بنزوله ضيفاً كريما عليه ، وعين على ذو الفقار باشا السر تشريفاتى لاستقباله فى الاسكندرية

ولما علم توفيق ، بأن عرابى سينتدب يعقوب سامى باشا وكيل الحربية من قبله لاستقبال المندوب الشاهانى ، نبه سموه على السرتشريفاتى بعدم تقديمه اليه ، ولا إنزاله بالقطار الخصوصى من الاسكندرية لمصر


درويش باشا

وفى ٧ منه وصل المندوب ، وكان بمعيته قدرى بك كاتم أسراره ، ولبيب افندى كاتب الشفرة ، ثم ياوره ، والسيد احمد أسعد وكيل السلطان فى الفراشة النبوية ، ومن المقربين اليه ، وبعض الخدم

وفى ٨ منه استقل الجميع القطار الخاص ، ورغماً عن تنبيهات توفيق ، فان الغازى استصحب يعقوب باشا معه . ولما نزلا فى محطة العاصمة ، رافقه الى المكان المعد لضيافته . فساء سموه هذا العمل

وفى اليوم المذكور حضر المندوب للسراى وقابل الخديو ، وأبلغه السلام الشاهانى وتحادثا قليلا . ولم تكن هذه المحادثة مرضية للخديو . فلما رد سموه الزيارة للمندوب فى الحال ، لم يخف عليه عدم سروره من استصحابه يعقوب سامى . لان ذلك مما يشجع

العرابيين ويقوى نفوذهم أكثر مما هو عليه الآن . وسأله إذا كانت مهمته تنفيذ أوامر السلطان وإلا فانه يرفض مقابلته مرة أخرى . فأكد له درويش أنه أتى لتنفيذ أوامر جلالته بالدقة ، وأنه سيعمل على استرداد سلطة سموه

وفى ٩ منه ، عند ما زار مالت السراى ، أخبره الخديو بعدم امتنانه مما سمعه من المندوب الشاهانى حين زيارته له ، وأن جنابه العالى أظهر له استياءه عند رده الزيارة

ولما عاد المندوب لمقابلته مرة ثانية ، وقد استمرت المقابلة طويلا ، ظهر للحاشية على توفيق الانشراح وذلك مما سمعه من درويش باشا ، إذ قال بأنه إذا اقتضى الحال سيتولى قيادة الجيش لاخضاع الثوار

وفى نفس اليوم زار المعتمد الانجليزى والفرنسى درويش باشا ، وطلبا منه بالحاح العمل لتأييد سلطة الخديو . فأجاب بأنه منذ وطئت قدماه أرض مصر ، فان الخطر على حياة توفيق قد زال . ورجاه مالت بأن لايثق بما يسمعه من العرابيين . فأجاب المندوب بأنه عند صدور إشارة منه تحضر فرقتان من الجيش العثمانى . وكان يظهر من كلامه الاعتقاد بنجاح مأموريته

ولكن ما هى الأوامر التى صدرت من الصدارة للمندوب الشاهانى لتنفيذها ؟ وهل هناك أوامر خفية من السلطان للسيد احمد أسعد ؟ الى القارىء الجواب عن هذين السؤالين :

كانت الأوامر الصادرة لدرويش باشا :

(١) العمل على مصلحة الخديو (٢) العمل على حدوث مناقشات مع قناصل الدول والتظاهر بالمودة لقناصل ألمانيا والنمسا وإيطاليا وباتباعه لنصائحهم وارشاداتهم (٣) القبض على عرابى وعلى أعوانه وإرسالهم إلى الاستانة إذا وجد لذلك ضرورة (٤) الوصول إلى الغاء مجلس النواب (٥) تقليل نفوذ الخديو (٦) زيادة نفوذ السلطان (٧) طلب قوة عسكرية عند الضرورة

وأما الأوامر الصادرة للسيد أحمد أسعد فكانت :

(١) مساعدة الثورويين وجذب مودتهم (٢) العمل على إحباط دسائس الأجانب المفسدة (٣) شكر الأعيان والعلماء والعظماء من المصريين لما أظهروه من الولاء للخليفة (٤) ليس فى نية السلطان إرسال قوة عسكرية (٥) أن لا يحرم الخديو من الامتيازات الممنوحة له بمقتضى الفرمانات

ونظراً لهذه التعليمات المتناقضة التى صدرت لدرويش باشا ولأسعد أفندى ، فان هذا الأخير حار فى أمره ، وطلب من السراى الشاهانية موافاته بأوامر صريحة جلية للسير على مقتضاها . ولكنه لم يظفر برد .

وقد كانت سياسة السلطان المعوجة فى المسألة المصرية محل دهشة وعجب ، ولكن الاعجب من ذلك ما سنقصه عليك :

وصل إلى علمنا أن عرابى يتخابر مع بعض رجال السلطان ، فأمر توفيق تكليف البوليس السرى للسراى للوصول إلى معرفة الوسائل التى يستعملها فى هذا الشأن . وبعد البحث الدقيق تبين أن أحمد راتب باشا ، الياور الشاهانى الذى سبق الكلام عن مقابلته لعرابى برأس الوادى ، هو أحد الذين توسطوا لدى السلطان لتأييد عرابى ، وقد وعده بتوصيل عرائضه للخليفة .

ومن جهة أخرى فان الحظ ساعد عرابى على التعرف بعلى راغب ، قبودان احدى بواخر البوسطة الخديوية ، فاستعمله لتوصيل معروضاته للسلطان بواسطة الشيخ محمد ظافر شيخ السادة الشاذلية وشيخ الحضرة السلطانية (١)

ولما حضر الوفد الشاهانى كان السيد أحمد أسعد يحمل لعرابى توجهات الحضرة السلطانية ، وخطاباً من الشيخ ظافر جاء فيه ما معناه : انه قدم للسلطان عريضته وأن جلالته أمره بأن يبلغ عرابى «بمحظوظيته» من مجهوداته والدفاع عن السيادة السلطانية فى مصر ، وأن التلغرافات الواردة من توفيق يناقض بعضها بعضاً ، والسلطان لا يعول على اسماعيل ولا حليم ولا توفيق ، بل على الرجل الذى يفكر فى مستقبل مصر

وسلمه فى الوقت نفسه خطاباً آخر من راتب باشا شرح له فيه محادثاته مع السلطان بخصوصه . وقد سر منها وأمر الباشا بأن يعلمه بأن قد سعت الوشاة فى تغيير خاطره منه ، ولكن راتب باشا أوضح الحقيقة فزال الشك فى إخلاصه لجلالته ، ورسم له الخطة التى يجب على كل من تولى حكم مصر اتباعها ولا يهم من يكون خديو لمصر (٢)

بهذه الوسائل توصل عرابى الى مخابراته مع الأستانة

من هذا كله يتضح أن مأمورية الغازى كانت فى الظاهر فى صالح توفيق ، ومأمورية

---

(١) لأن السلطان كان أخذ عهداً عليه

(٢) أخذ ملخص هذين الكتابين من كتاب كشف الستار لعرابى

السيد أسعد كانت العمل فى الخفاء لتشجيع العرابيين لجذبهم إلى جانب الخليفة

وفى ١٠ يونيو توجه وفد لمقابلة المشير ، وكان مكوناً من بعض العلماء والأعيان المنتسبين إلى الحركة العرابية ، وخطب أحد العلماء ( الشيخ عليش على ما أذكر ) قائلا ان الجيش خلص البلاد من الوقوع فى أيدى الكفار . وأثنى على رؤسائه وعلى وطنيتهم . فقام المندوب وقال بحدة : إنه جاء لتنفيذ أوامر السلطان وليس لسماع خطب مثل التى سمعتها . ثم أمر خدمه باخراج هذا الوفد

منذ حضور الغازى إلى الآن ، لم يعمل عملا منتجاً ولم ينفذ شيئاً مما وعد به توفيق . فالعرابيون لا يزالون أصحاب الكلمة النافذة فى البلاد ، وسلطة الخديو تكاد تتلاشى ، وقصارى جهده اغراء العرابيين .

وكان الظاهر أنه لن يتغلب على المقاومة العسكرية . ولكن رغم ذلك فان مالت نصح لتوفيق بالسير معه إلى النهاية

فى ١٦ يونيو ، لما أحس درويش بعدم نجاحه فى مأموريته ، وكانت محدودة ، أرسل الى الباب العالى برقية يطلب فيها تعليمات جديدة ، وفى الوقت نفسه أرسل يطلب مائتى وسام لتوزيعها على زعماء الضباط ، ومن ذلك المجيد الأول لعرابى ، وكذلك لبعض المنتمين للخديو

فلما وصلت الأوسمة فى أوائل يوليو وزعها درويش باشا ، وطلب السيد احمد أسعد من عرابى السفر إلى الأستانة لشكر السلطان على هذا الاحسان ، وكان المقصود من إغرائه على السفر إمساكه هناك فتنتهى المشكلة . ولكن عرابى فهم القصد من هذا السفر . فاعتذر ورجا السيد المذكور ودرويش باشا رفع شكره على هذا الانعام مع خضوعه وزملائه لجلالته لأنه لايستطيع ترك مصر وهى فى حالة الخطر ومن واجبه الدفاع عنها

عند ذلك تحقق الخديو وحاشيته ومالت أن درويش قد فشل تماماً فى مأموريته

ولكن السلطان لما بلغه من برقية أرسلها درويش باشا شكر عرابى وتقديم الطاعة لجلالته ، اعتبر ذلك كأنه توصل إلى حل المشكلة ، وأمر السفير العثمانى بلندرة أن يبلغ ذلك للورد جرانفل

**سفر الخديو للاسكندرية** . رأى الخديو بعد حصول مذبحة الاسكندرية ، أن يسافر إليها تطميناً لخواطر الأوربيين بها ، فقصدها يوم ١٣ يونيو ، وصحبه درويش

باشا ورجال المعية ، كما سافر اليها أيضاً أغلب قناصل الدول الجنرالية والمراقبان الماليان.

ولما وصلناها أطلقت المدافع تحية لاستقباله ، على غير علم من الأهالى . فكانت مبعث فزع شديد فى نفوسهم ، ظنا منهم أنها صادرة من الأساطيل ، كما عرفنا فيما بعد

وعلى أثر وصول سموه زاره قناصل الدول ، ولم يتخلف منهم إلا القنصلان الفرنسى والانجليزى ، فأبدى لهم شديد أسفه على ما حدث ، ووعدهم ببذل عنايته فى تلافى آثار هذه الكارثة . وكذلك طمأنهم درويش باشا مندوب السلطان

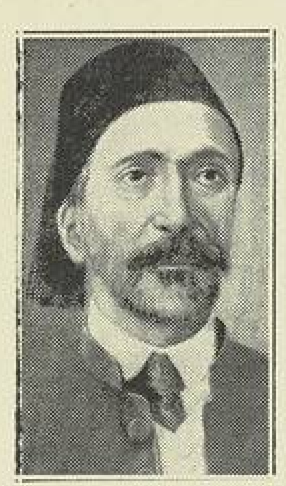
ولقد كان لهذه المذبحة الأثر السيء فى نفوذ الأجانب فى مصر ، وفى الرأى العام بأوربا . ولكننى شخصياً أنسب هذه الحادثة المحزنة إلى انفجار الثورة الفكرية وخطب الزعماء الحماسية

ومع ذلك فقد كان سموه فى تلك الآونة ، يشك كل الشك فى امكان عود الأحوال الى مجاريها ، ما لم تأت جنود عثمانية لتتولى هذه المهمة

وفى ١٣ يونيو سرت اشاعة بان الاجانب يستعدون للهجوم على الوطنيين ، فاجتمع فى الاسكندرية بعض رؤساء الجند وبعثوا لقناصل الدول بتصريح يتضمن انهم لا يتحملون أية مسئولية إذا بدأ الأجانب بالاعتداء . فلما تلق القناصل هذا الانذار ، اجتمعوا واصدروا الى رعاياهم منشورا بالتزام الهدوء والسكينة

ولكن الاضطراب ظل فى ازدياد ، فكثرت مهاجرة الاجانب من الريف الى الثغور ومن الثغور إلى خارج البلاد . وزاد فى جزع الأجانب كتاب أرسله قنصل فرنسا العام الى نائب الجالية الفرنسية فى ١٤ يونيو ينصح فيه بالهدوء ، ويشير الى أن خير طريق للنجاة هو المهاجرة . وفى نفس اليوم ، نشر مأمور ضبطية مصر بلاغا يدعو فيه الى السكينة، فلم يجد نفعاً . فكتب عرابى فى اليوم التالى نداء وقعه بامضائه ، فكان أيضاً صرخة فى واد

**تأليف نظارة راغب باشا** . وفى هذه الأثناء تدخل قنصلا ألمانيا ، والنمسا بمعاونة درويش باشا لدى الخديو . لتأليف نظارة يكون عرابى من بينها . وكان المأمول أن يقبل شريف باشا تأليفها ، ولكنه رفض ثانياً كما سبق ، فاتجهت النية الى راغب باشا . وقد انضم لرأى معتمدى النمسا والمانيا قنصل جنرال ايطاليا وحددوا مهلة ٢٤ ساعة لنهو المسألة خشية حصول مذبحة أخرى ضد الأجانب على حين تكون المسألة المصرية مطروحة أمام المؤتمر المزمع انعقاده بالاستانة


اسماعيل راغب باشا

وفى ١٦ يونيو كتب الخديو من الاسكندرية الى عرابى يخبره بانتخاب اسماعيل راغب باشا لرياسة النظارة واختياره هو ناظرا للجهادية، ويدعوه الى التضامن مع النظار لملافاة الحالة. فرد عرابى على سموه يظهر ارتياحه وارتياح الضباط لهذا الاختيار ويعد بالعمل على تحسين الأحوال

وبناء على ذلك شكلت نظارة راغب باشا فى ٢٠ يونيو

وفى اليوم التالى اجتمع النظار ووضعوا المبادىء التى ينوون السير على مقتضاها ورفعوها للخديو وهى تتلخص فيما يلى :—

أولا — إصدار عفو عام عن جميع الذين اشتركوا فى الحوادث الأخيرة، عدا المتهمين فى جرائم الاسكندرية، والمجرمين العاديين

ثانياً — لا يعاقب أحد إلا بعد محاكمته بمقتضى القانون

ثالثاً — تكون جميع المخابرات مع الدول عن طريق ناظر الخارجية

**مؤتمر الاستانة وسياسة الدول** . لما رأى دوفريسنيه أن الأحوال فى مصر تسير من سيء إلى أسوأ، وأن هذه المسألة تهم الدول جميعا، كما جاء فى معاهدة لندرة سنة ١٨٤٠ التى جعلت المسألة المصرية دولية، اقترح على اللورد جرانفل أول يونيه عقد مؤتمر فى الاستانة، يدعى إليه مندوبو الدول ويحضره وزير خارجية تركيا، للنظر فى حالة مصر على الأساسات الآتية :

أولا — تقوية نفوذ السلطان والخديو والمحافظة على تعهدات مصر الدولية وما تفرع منها

ثانياً — حفظ حقوق مصر التى نالتها بواسطة الفرمانات

ثالثاً — ترقية نظام الحكم فى مصر مع الحذر والتدبير

وقد قبل جرانفل هذا الاقتراح. وفى ٢ يونيو أرسل الى الدول يطلب سرعة عقد هذا المؤتمر، فأجابت ألمانيا والنمسا والروسيا وايطاليا بقبول اقتراح الدولتين. وطلبت من الباب العالى الموافقة عليه

وفى ١٣ يونيو أرسلت انجلترا وفرنسا للدول تقول بأنه نظراً لزيادة حالة الفوضى فى مصر يلزم اتخاذ تدابير حاسمة ، وأنه سيدعى السلطان الى مؤتمر دولى ليقرر اعطاء القوة الكافية للخديو لتثبيت سلطته وتكون تحت قيادته ، وشرط أن لا يغير شيئاً فى حالة مصر السياسية ، وأن تحترم الحقوق المعطاة لها فى الفرمانات، وتحترم الاتفاقات الدولية القائمة

وأن لا تمكث القوة فى مصر أكثر من شهر واحد ، الا اذا طلب الخديو والدول العظمى مد هذا الأجل ،على أن تقوم مصر بتحمل نفقاتها

وقد سر الخديو من هذا الاقتراح وأمل تنفيذه ، لأنه هو عين ما كان يطلبه من تدخل تركيا فى حل المسألة

وبعد يومين حضر الى السراى السير ادوار مالت وعرض على سموه فكرة استدعاء مجلس النواب لأخذ رأيه فى طلباته لارسالها الى المؤتمر للنظر فيها ، ومن المحتمل أنه بهذه الطريقة يوجد ائتلافاً بين النواب والزعماء ، الأمر الذى يمكن به اصلاح ذات البين مع الخديو ولو ظاهراً

وعلمنا أن الخديو لم يكن يعارض هذه الفكرة ، غير أنه قال بعدم امكان تنفيذها الا عند ما يتحقق عقد المؤتمر

وقد أرسل مالت إلى ناظر الخارجية بهذه الفكرة ، فرد عليه بأنه لا يستصوب هذا الرأى

ورغما عن بذل الدول المساعى لدى الباب العالى والسلطان فانهما لم يرفضا الاشتراك فى المؤتمر فحسب ، بل أرسل الصدر الأعظم احتجاجاً فى ٢٠ يونيو إلى الدول على عقد المؤتمر

ولما لم تنجح الدول فى مسعاها تقرر عقد المؤتمر بسفارة ايطاليا فى ترابيا بالأستانة فى ٢٣ يونيو

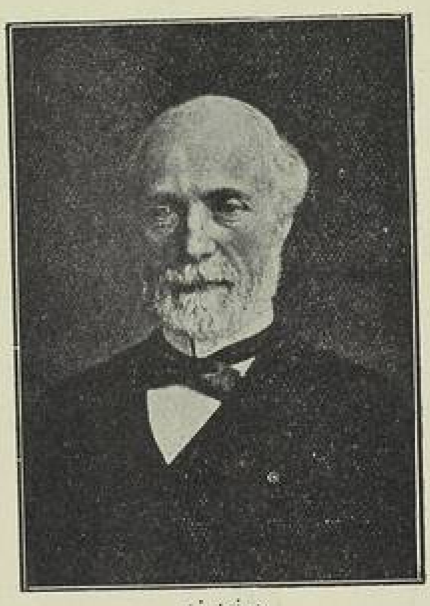
وبالفعل عقد المؤتمر فى اليوم المذكور وبدىء العمل فيه ووقع المؤتمرون فى يوم ٢٥ منه بروتوكول (١) تصرح فيه كل دولة بخلوها من أى غرض أو أطماع لها بمصر

وفى يوم ٢٧ اقترح سفير إيطاليا بالمؤتمر أن تقرر الدول الامتناع عن التدخل المنفرد فى مصر ما دام المؤتمر منعقداً . فاقترح اللورد دوفرين إضافة كلمة « الا عند الضرورة القاهرة »

---

(١) عرف هذا البروتوكول « بميثاق النزاهة » أو « ميثاق التجرد عن الغرض »

ولما علمنا فى السراى بهذا القرار أطمأننا نوعاً بأنه لن يقع اعتداء على مصر . ولكنا توجسنا خيفة من التحفظ الذى اشترطته انجلترا ، واعتقدنا أنها لن تعجز عن خلق هذه الضرورة متى شاءت


دوفريسنيه

وقد عرض المؤتمر على الباب العالى فى ٦ يوليو إرسال قوة عثمانية لمصر . واشترط أن تكون مهمتها تأييد مركز الخديو على مقتضى الفرمانات ، ولكنه لم يجاوب المؤتمر الا فى عشرة منه بأنه سيرسل مندوباً من قبله إلى المؤتمر فى اليوم الثانى . وكان قصد الباب العالى من هذا التأجيل ارجاء تنفيذ انذار سيمور النهائى بتدمير الطوابى فى صباح ١١ يوليو

تقلبت سياسة دوفريسنيه ، فبعد أن أظهر عزمه على عدم التدخل الفعلى ، عاد فوافق الوزير الانجليزى على اشتراك الأسطول الفرنسى مع الأسطول الانجليزى فى المظاهرة البحرية ، وبعدها قبل تدخل تركيا تحت مراقبة الدولتين . ثم اقترح عقد المؤتمر على ما تقدم وانتهى باعلانه حريته فى العمل

ولما سئل دوفريسنيه فى مجلس النواب الفرنسى فى شأن هذا المؤتمر أجاب بأن الغرض منه هو إعادة الحال الى ما كانت عليه ، وان فرنسا لم تتنازل باشتراكها فيه عن أى شىء من استقلال سياستها ، وأنها لا تقتصر فى الرجوع إلى حريتها فى العمل إذا كانت قرارات المؤتمر لا تتفق مع مصالحها وما لها من الشأن والمكانة . وفحوى هذه الاجابة أنه يجوز لفرنسا عند الحاجة أن تنفرد عن الاتفاق الدولى .

وكانت سياسة جرانفل ترمى إلى تفويض إعادة النظام بمصر إلى فرقة من الجيش العثمانى بالاشتراك مع الجنود الفرنسية والجنود الانجليزية ، وأن الذى يهم انجلترا فى المسألة كلها هو تأييد الخديو فى عرشه ، وإبعاد عرابى إلى الخارج ، واعادة المراقبة الثنائية . فاذا لم تقم تركيا بهذا العمل أصبح لانجلترا حرية العمل

وقد دعت انجلترا ايطاليا للاشتراك معها فى التدخل الفعلى لاخماد الثورة فاعتذرت

أما سياسة تركيا فكانت فى غاية الاضطراب ، لأن السلطان كان يخشى ، اذا هو تدخل بالفعل لحل المسألة المصرية ، أن يغضب الحزب الأهلى ( العرابيين ) الذين كانوا يتظاهرون بالولاء لمقام الخلافة ، والسعى فى اعلان نفوذها بين العالم الاسلامى ولأنه يخشى تصادمه مع المسلمين وهو حامى الاسلام . ولكنه كان يأبى فى الوقت نفسه قبول أى تدخل من الدول الأوروبية إذ كان يرى أن سياسته فى مصر يجب أن تقوم على استعمال سيادته لرد الأمن والنظام إليها ، دون أن يكون مسخراً من الدول لتنفيذ ما تقرره فى شأنها . ثم إنه كان يحذر كل الحذر من تدخل انجلترا وحدها ، إذا ترك لها الباب مفتوحاً فتقضى القضاء المبرم على السيادة التركية فى مصر

وفى ٢٠ يوليو انتهى الباب العالى ، بعد مماطلاته ، إلى ارسال مندوبين من قبله للمؤتمر أعلنا قبول الحكومة العثمانية إرسال جيش لاخماد الثورة المصرية ، فاشترطت عليه الدول ، خصوصاً انجلترا ، عدم تغيير علاقاتها بمصر

واشترطت انجلترا بأن لا ترسل الدولة قوة إلا بعد إصدار منشور بعصيان عرابى وبعد تحرير اتفاق حربى مع انجلترا . وماطلت أيضاً تركيا فى عمل هذا الاتفاق حتى كانت موقعة التل الكبير ، وعليه أرسلت انجلترا للباب العالى بعدم الحاجة لعمل هذا الاتفاق . أما سياسة باقى الدول فقد كانت معضدة لتركيا فى الخفاء

**انسحاب فرنسا من الميدان** . ولما كان مؤتمر الأستانة يوالى أعماله ويصدر قراراته ، كانت انجلترا تعد بالفعل حملة عسكرية لمصر ، على حين كان الموسيو دوفريسنيه يعلن فى مجلس الشيوخ الفرنسى أنه لا يقبل مطلقاً ، أن يتبع فى المسألة المصرية سياسة المجازفة ، وأن الحكومة الفرنسية عقدت عزمها على ألا تقبل أى تدخل عسكرى فى مصر . وكان فى الوقت نفسه قد أصدر أمره ، أمام استعدادات انجلترا ، بتسليح البواخر الحربية الفرنسية واستدعاء بعض الفرق العسكرية . ولما سئل عن ذلك فى مجلس النواب ، أجاب بأنه يرى من ألزم الواجبات عليه أن يجعل فرنسا على استعداد تام لمقابلة الطوارىء ، ولكن على أى حال لا يقوم بعمل حاسم إلا بعد استشارة البرلمان . وأيد الموسيو كليمنصو فى المجلس هذه السياسة أشد تأييد . ثم طلب من المجلس الاقتراع على اعتماد مقداره ثمانية ملايين فرنك ، لأنه لا يليق بأمة عظيمة مثل الأمة الفرنسوية أن تكون متأخرة القدم عن سواها فى ميدان التجهيزات الحربية ، لمقابلة

الحوادث والمحافظة على مصالحها ومكانتها فى العالم . ولكن لم تمض على هذه الأقوال الفخمة إلا ثلاثة أيام ، حتى صدر الأمر الى أميرال الأسطول الفرنسى فى الاسكندرية بان يبارحها فى الحال وينتقل الى بورسعيد ، ليترك الاسكندرية للاسطول الانجليزى وأن يبلغ الأميرال سيمور أنه اذا أرسل انذارا للحكومة المصرية فان فرنسا لاتشاركه فى التدخل الحربى

أما الخديو توفيق فقد كان يود تدخل الجيوش التركية لاخماد الفتنة ، لعلمه أن انجلترا وفرنسا لا تسمحان لها بالبقاء فى مصر متى عادت إليها السكينة ، وإلا فاتفاق فرنسا وانجلترا على التدخل معاً وذلك رجاء أن تغادرا مصر بعد ذلك معاً



الأميرال سيمور

**تهديدات سيمور ومطالبه.** فى ٣ يونيه علمنا أن الأميرال سيمور أبرق الى دولته بأن العرابيين وضعوا مدافع جديدة فى طوابى الاسكندرية ، والحالة أصبحت خطرة . وسألها عما يمكن اتخاذه اذا لم يكف العرابيون ، وهل يستعمل القوة ؟

فوصلت له الأوامر من نظارة البحرية بطلب منع تقوية الطوابى ، فاستفهم من مالت هل يكون المنع بمخابرات مع الحكومة المصرية أو بقوة الأسطول فكان الجواب بعدم التصادم ، خصوصاً وأن المندوب العثمانى سيصل قريباً الى مصر

وجاءت برقية فى ٥ يونيه من الباب العالى تخبر الخديو بايقاف الأعمال فى طوابى الاسكندرية ، وإلا اضطر الأميرال الى إطلاق مدافعه عليها ، وتكون النتيجة ضياع البلاد . فأرسل سموه لعرابى نص هذا التلغراف وأمره بالكف عن هذه الأعمال ، فأجابه عرابى بأن مصر لم تعتد على انجلترا ولم تهدد أساطيلها بل هى التى تهددنا بمراكبها الحربية ، ومع كل فاطاعة للامر بعث للاسكندرية بايقاف العمل

انتظر الأميرال وصول المندوب الشاهانى ونتيجة مساعيه ، والوصول الى تنفيذ طلبات الدولتين فى المذكرة السالف ذكرها . فى حين أنه كان يواصل استكشافاته عن الاعمال التى كانت تجرى فى الطوابى ، ولم يحرك ساكنا إلى أن وصل درويش باشا وبذل جهده فى اقناع زعماء الثورة لاخضاعهم لارادة توفيق بكل الطرق

ولكن لما علم الاميرال بفشل المندوب فى مهمته ، وأن فرنسا تنحت عن مشاركة أسطولها مع الاسطول الانجليزى ، ورأى تحصينات المصريين للطوابى ، أبلغ راغب باشا فى ٤ يوليه بواسطة معتمدى انجلترا وفرنسا أن المصريين يحصنون طوابيهم . وأنه يعتبر هذا التحصين مهدداً له وأنه بذلك يطلب الكف عن هذا التحصين بغير ابطاء فنفى طلبه باشا ادعاء الأميرال بخطاب أرسله له حتى كان يوم ٧ يوليه حيث انتهز الأميرال فرصة وضع مدفعين كبيرين فى طابية السلسلة ، فأرسل انذاراً لطلبه باشا عصمت يلزمه فيها بايقاف العمل فى تحصين الطوابى فى الحال . ولما أبلغ هذا الخبر لعرابى أجاب واعداً بايقاف العمل ولكن ظل التحصين آخذاً مجراه .

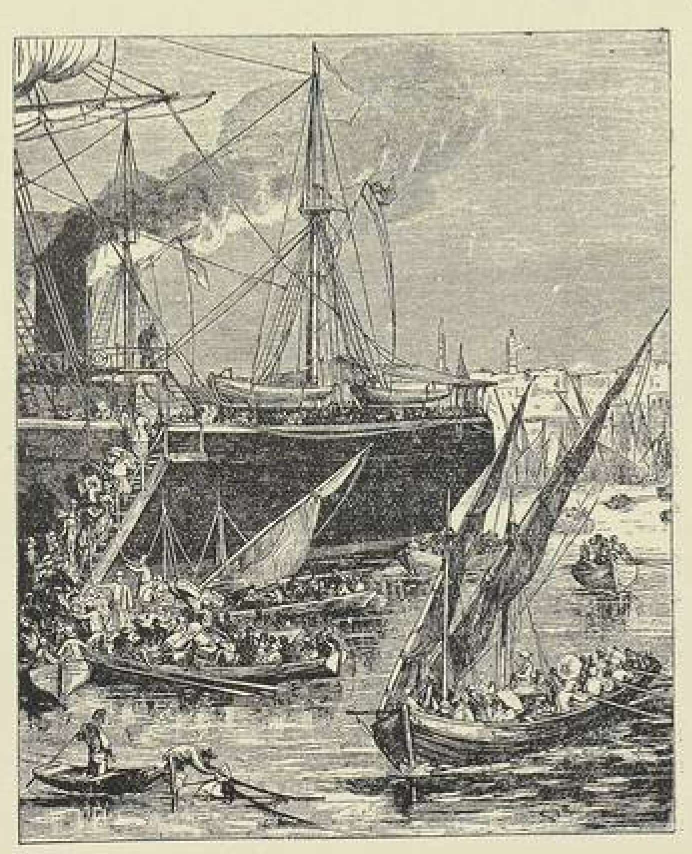
وهنا دب الهلع الى النفوس وعلم الجميع أن الواقعة ستقع قريباً ، فأوعز قنصلا فرنسا وانجلترا لرعايا دولتيهما بالرحيل

وقدم قناصل الدول الأوربية الأخرى الى الأميرال سيمور فى اليوم المذكور ، كتاباً يعرفونه فيه أن لرعاياهم فى الاسكندرية مصالح مهمة وأملاكا واسعة، والمتخلفون منهم عن المهاجرة كثيرون . ويعرضون عليه أن يتوسطوا بينه وبين العرابيين لحسم النزاع بلا قتال . ورجوه مخابرة حكومته فى طلبهم هذا ، فان لم يقبل رجوه فى إعطائهم مهلة للمهاجرة قبل الضرب اذا صمم عليه مع العلم بأن اطلاق المدافع سينشأ عنه تخريب

للمبانى التى يملكها الأجانب ويرجون رفع هذه الملاحظات إلى حكومته قبل تنفيذ أوامرها

فرد عليهم أنه سيرفع إلى حكومته ملاحظاتهم التى أبدوها عن وساطتهم، وأنه يقبلها إذا نفذت عملياً . لانه لا يثق بوعد العرابيين ، فاذا ما استمروا على التحصين اضطر لتوجيه النيران الى الاستحكامات التى لايحصل من ضربها أى ضرر للسكان . ولكن رغم كل ذلك فأنه سيحدد مهلة أربعا وعشرين ساعة قبل اطلاق النيران

فلما وصل الرد إلى قناصل الدول أخذوا يحاولون اقناع العرابيين بمنع التحصين فأبوا، لأن كل أمنيتهم كانت متجهة نحو التغلب على جميع الصعوبات التى أوجدتها انجلترا، الأمر الذى يقصدون منه فصل مصر عن الدولة العثمانية وتأسيس حكومة عربية مستقلة وذلك كما كان مشاعا فى حينها . اذ ذاك رأى القناصل أنه لا بد من القتال فأوعزوا الى جالياتهم بالمهاجرة .



مهاجرة الأجانب من الاسكندرية قبل إنذار سيمور

أما أهالى الاسكندرية فانهم انزعجوا وتيقنوا سوء العاقبة ، فسارعوا بالسفر إلى داخل البلاد أفواجاً ، فازدحمت بهم قاطرات السكك الحديدية ، حتى اضطر الكثيرون لاعتلاء ظهر العربات

واستمر العرابيون ، بعد ما دار بينهم وبين الاميرال ، فى أعمال التحصين ، فأتوا بمدفعين كبيرين فى طابية السلسلة ، ومدافع أخرى فى بقية الطوابى استعداداً للمقاومة .

ولما صوبت المدرعات الانكليزية أشعتها الكشافة على الطوابى ليلا شاهد الاميرال أفواه المدافع الكبيرة فيها تحرر وتسدد ، والمواعين تنقل فيها الأحجار ، لسد مدخل الميناء وحصار الأسطول . فأرسل انذاراً نهائياً إلى طلبه عصمت باشا فى يوم ١٠ يوليه يطلب فيه ازال هذه المدافع من مواضعها ، وترك التحصينات ، ومنع المواعين من حمل الحجارة ، وإلا اضطر لتدميرها بعد أربع وعشرين ساعة

**اجتماع فوق العادة لمناقشة الموقف** . ولقد اضطربنا لهـــذا الانذار ايما اضطراب ، وأخذنا نتساءل عن النتيجة وخشية عاقبة طيش العرابيين واغترارهم بأنفسهم

ولما عرض على الخديو هذا الانذار أمر فى الحال بعقد مجلس فوق العادة برياسته فى سراى رأس التين فى اليوم المذكور ، للنظر فى طلبات الاميرال . وقد حضر هذا المجلس درويش باشا المندوب العثمانى ، وقدرى بك كاتم أسراره ، والسيد احمد أسعد ، وراغب باشا رئيس النظارة ، واحمد رشيد باشا ناظر الداخلية ، ومحمود الفلكى باشا ناظر الأشغال ، وعلى ابراهيم باشا ناظر الحقانية ، واحمد عرابى باشا ناظر الجهادية ، وسليمان أباظه باشا ناظر المعارف ، وحسين الشريعى باشا ناظر الأوقاف ، وعبد الرحمن رشدى بك ناظر المالية ، ومحمود فهمى باشا المهندس ، ومحمد كامل باشا وكيل البحرية ، وقاسم باشا وكيلها السابق ، وسلطان باشا رئيس مجلس النواب ، ومحمد مرعشلى باشا من كبار المهندسين وباشمهندس الطوابى ، واسماعيل باشا أبو جبل ، ومحمد باشا سعيد من الاعيان ، وتيجران بك السكرتير برياسة النظار ، واحمد مظلوم باشا المستشار فى محكمة الاستئناف المختلطة ، واللواآت طلبه عصمت وعبد العال حلمى وعلى فهمى من الضباط وغيرهم .

ودارت المناقشة حول إجابة طلب الأميرال أو رفضه ، فلاحظ مرعشلى باشا أن طوابى الاسكندرية تعجز بمدافعها القديمة عن مقاومة المدرعات الانجليزية المجهزة بأحدث المدافع وأكبرها . فأجابه قاسم باشا على تلك الملاحظة متهكماً : « وهل اذا أمطرتنا المدرعات قذائف كبيرة أنقابلها بقذائف من البرتقال !! »

وقد قال مرعشلى : « إنه يعرف جيداً درجة مقاومة حصون الاسكندرية، ومقدار قوة السفن الانجليزية ، وأن الحصون لا تقوى على المقاومة أكثر من أربع ساعات ولذلك فهو لا يرى مقاومة الانجليز فيما يطلبون » . فرد عليه محمود فهمى باشا قائلا : « إن هذه الأفكار صادرة من رأس أصبحت مسوسة » فعند ما سمع مرعشلى باشا هذا الكلام خرج من المجلس قائلا: «حينئذ ما علينا ألا أن نترك للرءوس الشابة تدبير الأمور»

أما درويش باشا فكان قد توجه لفحص طابية الفنار . وقوة المدافع الموجودة بها ، ومعه محمد ياور افندى أحد ضباط الحرس الخديوى — وكان معيناً لمرافقته — فقال فى المجلس المذكور إنه بصفته ضابطاً طوبجياً يقرر أن الطوابى والمدافع الموجودة بها لا يمكنها أن تقاوم مدافع المدرعات الانكليزية . وقال أيضا إنه لو وثق بأن مصر تستطيع المقاومة لتولى بنفسه قيادة جيشها ، ولذا فانه نصح لعرابى بقبول طلبات الاميرال وقد علمت كل ذلك من مظلوم باشا عند خروجه من هذا الاجتماع .

وعلى العموم فقد كانت النتيجة أن تغلب العرابيون، وتقرر إرسال وفد مؤلف من عبد الرحمن رشدى بك ناظر المالية ، وقاسم باشا ، ومحمد كامل باشا ، ومعهم زهراب بك من ضباط نظارة الحربية . ليقابل الأميرال سيمور ويؤكد له أن المصريين ليسوا أعداء للانجليز ، ويبين له أن ما يجرى فى الميناء ليس إلا ترميمات عادية .

ولما ذهب هذا الوفد لم يقتنع الأميرال بما قاله . بل أطلعه على سجل قيدت به الأعمال التى أجريت يوماً فيوماً . وبيان عدد المدافع الجديدة التى وضعت . وأصر على ما طلب من وقف التحصينات . فعاد الوفد والاجتماع ما زال منعقداً ، فأبلغ ذلك للمجتمعين . فعادوا الى المناقشة ولم يصلوا الى نتيجة حاسمة . ثم عاد الوفد فعرض على الأميرال إنزال ثلاثة مدافع من طوابى المكس وصالح والسلسلة . عندئذ أجاب سيمور بأنه يصر على إخلاء طوابى المكس والعجمى وباب العرب وما وراء الطابية الأولى من الأراضى لأستراحة جنوده فيها . ولكن المجلس قرر رفض طلبه وأعلموه بأن الفرمانات لا تبيح لمصر ذلك . ثم انفض المجلس وكانت النتيجة تصميم العرابيين على المقاومة

وكان السائد على أفكار العرابيين ، كما سمعت من كثيرين من الضباط ممن كانوا يترددون مع عرابى على السراى ، ان الانجليز قوم يشبهون السمك الذى يهلك اذا خرج من البحر ، وأنهم اذا تغلبوا بمدرعاتهم على الطوابى فلن يستطيعوا أن ينازلوا الجنود المصرية فى البر . وكان عرابى يجاهر باعتقاده أن انذار الاميرال لا قيمة له ، وأن القصد منه مجرد الارهاب ولن يتبعه عمل .

وفى مساء ذلك اليوم اجتمع محمود سامى وعرابى وآخرون ، واستدعوا رفعت بك كاتم أسرار مجلس النظار ، فوضع ، امتثالا لأمرهم ، تقريراً فى المسألة مفاده أن الأميرال تجاوز الحد فيما طلب ، وأنه لابد من المقاومة ، وأن عرابى وجماعته مفوضون فى الدفاع عن البلاد . وأرسل به للنظار فى منازلهم فوقعه بعضهم طائعاً والآخر مكرها . وأرسل للاميرال قبل طلوع شمس يوم ١١ يوليو

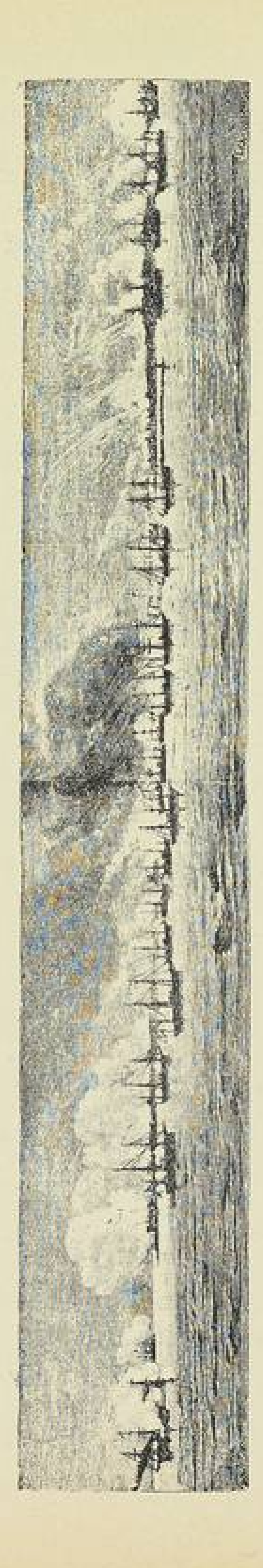
لما رفض المجلس طلبات سيمور الأخيرة وتأكدنا عزمه على إطلاق مدافع المدرعات عند بزوغ الشمس ، اضطر الخديو أن ينتقل هو ومن معه الى مكان آخر بعيداً عن الأخطار

وقد أشار المستر كارترايت ، نائب قنصل جنرال انجلترا ، على الخديو أن ينزل وأسرته الى احدى البوارج الانجليزية ، ليكون فى مأمن مما عساه أن يصيب سراى رأس التين ، لانها عرضة لقذائف المدرعات (١) فأجاب الخديو على ذلك جواباً يخلق بنفسه الكبيرة ، إذ قال : « لقد شاطرت أمتى هناءها وصفاءها ولا بد أن أشاطرها شدتها وبؤسها » واختار أن ينتقل هو ومن معه الى سراى مصطفى باشا ، بالقرب من سيدى جابر وصدر الأمر بذلك ، فهرعنا جميعاً إليها رجالا ونساءاً وأطفالا ومعنا درويش باشا ، وكانت هذه السراى خالية مهجورة من مدة طويلة ، فدخلناها على غير استعداد بها ، واستوى كل منا فى محله كيفما كان . وبتنا ليلتنا الأولى بغير طعام ، وقضيناها فى مساورة الهموم وفى الحدس والتخمين فيما ستئول إليه حال البلاد . وقبيل طلوع الشمس كنا أمام المنافذ المطلة على البحر وكان الأسطول يستعد للضرب ( أنظر ص ١٦٤ و ١٦٥ )

**ضرب طوابى الاسكندرية** . وفى صباح ١١ يوليو شاهدنا حركة فى الأسطول الانجليزى ، واحتلت كل مدرعة مكانها أمام الطابية التى عهد إليها بتدميرها . وفى الساعة السابعة أطلق الأسطول نيرانه على الطوابى فلم تجبه إلا بعد إطلاق عدة طلقات . ثم اشتبك الفريقان فى القتال ، وتناثرت القنابل فى الجو ، واشتد الترامى من الجانبين ( أنظر ص ١٦٦ ) . ثم رأينا اللهب يرتفع فوق المدينة من جهات مختلفة وانتشر بشكل مريع ، فوقع هذا المنظر فى نفوسنا أشد وقع ، وتفطرت قلوبنا ألماً وأسى . وبعد ثلاث ساعات أخذت النار التى شبت فى الاستحكامات تتضاءل ، حتى اذا جاء الظهر كان قد تم تدمير أغلبها .

---

(١) والواقع ان القنابل أصابتها واخترقت قنبلة منها قبة السراى .

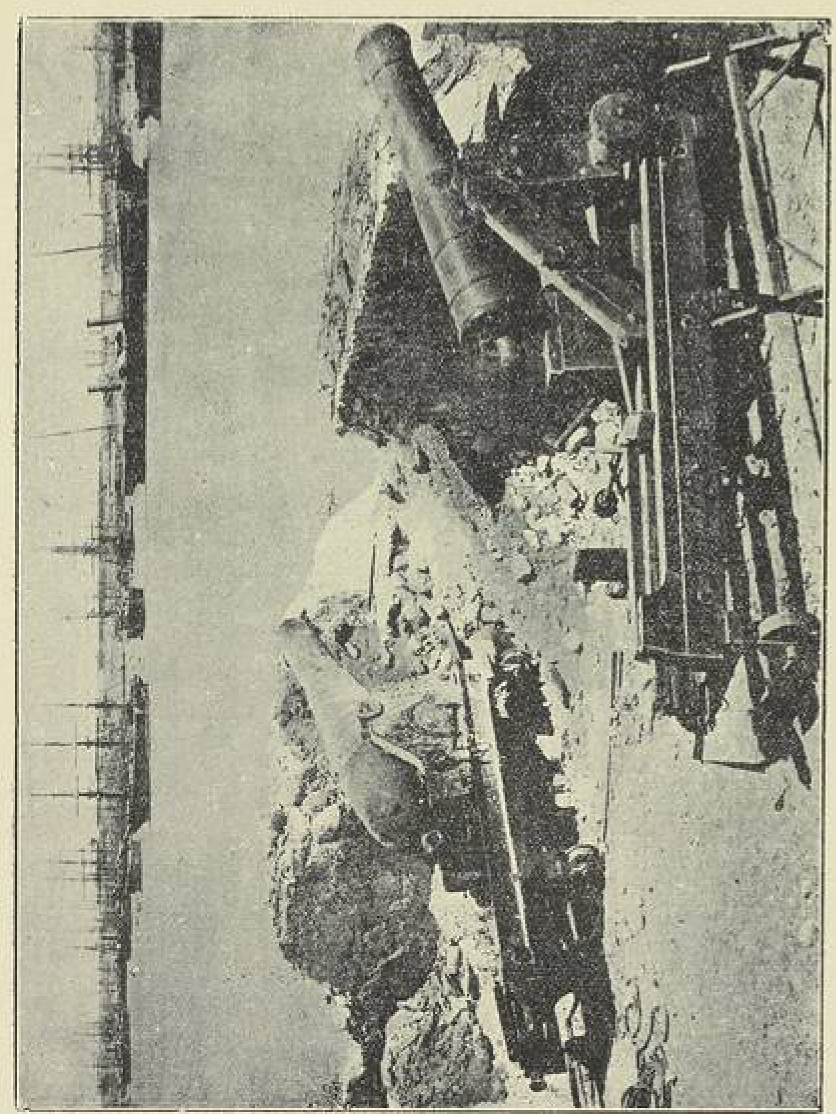

البوارج الانجليزية مصطفة تجاه الطوابى

وكان النظار مع عرابى فى طابية كوم الدماس للاشراف على مواقع القتال . فأرسل الخديو يستدعى عرابى قبل الغروب ، فتوجه ومعه راغب باشا الى سراى مصطفى باشا ، واجتمع المجلس تحت رياسة الخديو بحضور درويش باشا.

وبلغنى أن الخديو سأل عرابى عن نتيجة القتال فكان جوابه : واعجبا كيف أن أفندينا يجهل الى الآن ما كان! فاستاء سموه لهذا الرد الجاف . وقال لعرابى : — إن العجب هو عملك أنت ، لأنك لم تكتب تقريراً بهذا مع أنك ناظر الجهادية ! ثم طلب منه كتابة تقرير فأبى ، بحجة أنه لا يمكنه . وكان هذا الرد سبباً لتعنيف درويش باشا له

وبعد المناقشة استقر الرأى على أنه اذا عادت المدرعات الى إطلاق النيران فى صباح ١٢ يوليو فلا تجاوبها القلاع ، بل ترفع الراية البيضاء إشارة الى طلب المخابرة فى إعادة العلاقات الودية بين المصريين والانجليز ، بعد أن حقق الأميرال غرضه وهو نسف الحصون .

وأذكر أننا لم نتناول طعاماً منذ انتقلنا الى سراى مصطفى باشا إلا فى ظهر اليوم التالى ، بعد أن برح بنا الجوع أربعاً وعشرين ساعة ، وقد تناولناه فى مناظر محزنة مضحكة معاً . فقد أتى إلينا بخوان منخفض من الخشب «طبلية» وضعت عليه صنوف من اللحم والبقول والفطير ، دون الخبز، إذ لم يكن موجوداً إذ ذاك . فجلسنا القرفصاء حوله عدا زميل لنا هو محمد بك وصفى من رجال التشريفات ، فقد استمر واقفاً فى مكانه ينظر الى



الأسطول الانجليزى مستعد لتدمير الطوابى

القذائف التى تدمر الطوابى والنيران المشتعلة منها . وكان قد قضى الليل يعاقر الراح ، فلما دعوناه الى الطعام التفت إلينا محتداً وانهال علينا بالشتم قائلا : « كيف تتذوقون الطعام ونيران المدافع تحرق المدينة » فاعتذرنا بأنا لانستطيع الموت جوعاً . وعاد هو يحدق فى البحر ثانية . ولكن حانت منه التفاتة الى الخوان بعد برهة فرآه يكاد يقفر من الطعام ، فأفاق من سكره بغتة وهرع فاتخذ مكانه الى جانبى ، وجعل ينهش الطعام نهشاً . فلم يسعنا إلا الضحك رغم اكتئاب نفوسنا .

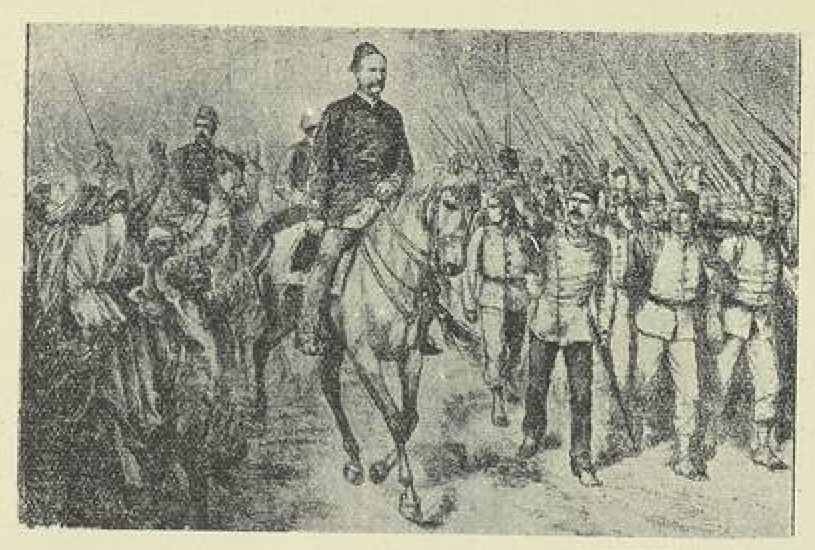


تدمير الطوابى

وفى نحو الساعة العاشرة من صباح ١٢ يوليو ، عادت المدرعات الانجليزية فأطلقت قنابلها على الطوابى ، فرفعت هذه الأعلام البيضاء ، عملا بالأوامر التى صدرت إليها ، فكفت المدرعات عن الاطلاق . وذهب طلبه باشا قومندان المدينة الى الترسانة فقابل مندوب الأميرال سيمور ، وأبلغه قرار المجلس بالكف عن إجابة المدرعات ورفع الأعلام البيضاء . ولكن الأميرال أجاب بأنه يرفض قبول هذا العرض ، وأنه مصر على طلبه الأول من احتلال القلاع السابق ذكرها ، وإلا فانه يستأنف القتال فى الساعة الثانية من بعد الظهر . فعاد طلبه باشا الى سراى مصطفى باشا وأخبر الخديو بذلك ، ثم عاد الى عرابى وأبلغه الأمر . فعقد رجال العسكرية فى الحال مجلساً تقرر فيه أنه لايمكن إجابة الأميرال الى ما طلب من احتلال الحصون . لأنه لا يحق للحكومة المصرية أن تتصرف فى شىء من أراضيها قبل موافقة الباب العالى . ولكن الأميرال لم ينتظر تبليغ هذا القرار اليه فمضى فى أهبته لاحتلال المدينة . ولم يسع العرابيين إلا التأهب للانسحاب السريع (١)

---

(١) وقد امتاز بالدفاع عن طوابيهم : سيد بك نصير واسماعيل بك صبرى ومحمد بك نسيم ( والد صاحب الدولة محمد توفيق نسيم باشا ) .



عرابى وفلول الجيش مسرعين بالخروج من الاسكندرية بعد ضربها

**أخطر ما رأينا ورجوع الخديو الى سراى رأس التين** . وفى نفس اليوم ، بينما كنا نرتقب جواب الأميرال ، وصلت عساكر من المشاة والسوارى المصرية فاحتلت القشلاق المجاور لسراى مصطفى باشا . فجزعنا لهذه الحركة ، ولم ندرك الغرض منها ، وكان المرحوم محمد بك منيب على رأس السوارى ، وكان له أصدقاء فى حاشية الخديو فهرعوا إليه وسألوه عن الخبر ،

فاسر إليهم ان الأوامر التى أصدرها العرابيون إليه تقضى فى الظاهر بالمحافظة على الخديو ، وفى الباطن بضرب الحصار على السراى والقبض على الخديو وإرساله إلى القاهرة ، خوفاً من التجائه إلى الأنجليز . وصرح بأن ذلك يتم عند وصول الطوبجية من مصر واحضار المدافع التى كانت قد وصلت إلى محطة سيدى جابر . وكان توفيق يتوقع ذلك من العرابيين ليسخروه فى تنفيذ أغراضهم ، وإن



محمد بك منيب

أبى يعزلونه أو يقضون عليه . لهذا أراد أن يغرر بهم ، فأمر باعداد قطاره الخاص ، بحجة رجوعه لعاصمة بلاده . فاستراح العرابيون لذلك . ولكن نظراً لازدحام الطريق بين مصر والاسكندرية بقطارات المهاجرين تأخر وصول القطار ولكى لا يفلت من أيديهم قرروا ارسال القوة التى جاء ذكرها

فلما تحقق الخديو من نيات العرابيين أرسل فى طلب منيب بك ، فأقنعه سموه ، وكان درويش باشا حاضراً ، بوجوب البقاء على طاعته والانضمام إليه فامتثل .

وأمر توفيق بارسال أحد الياوران ليستقدم عرابى ، فحضر ومعه راغب باشا ، فسأله سموه عن السبب فى إرسال هذه العساكر . فأجابه بأنه لا يعلم الأمر وأنه قد يكون الغرض تقوية الحرس الخديوى . فقال سموه : إنه لا لزوم لهذه التقوية ، وانه يحسن ان يقتصر على الحرس السوارى . فخرج عرابى من حضرته وذهب إلى القشلاق متظاهراً بأنه سيصدر أمره بانصراف الجند المشاة . ولما رأى الخديو أنهم لم ينصرفوا ، أمر محمد بك منيب بأن يبذل جهده فى اقناع زميله قومندان المشاة لينحاز الى جانبه ، فكان له ما أراد . وقد كافأ توفيق الضباط والجنود الذين أظهروا له ولاءاً ووفاءاً

وفى يوم ١٣ يوليو علمنا أن كثيراً من العساكر التى كانت فى الاسكندرية تركوا فرقهم وانصرفوا الى بلادهم . وخشى الخديو أن ينفذ العرابيون ما أضمروه له ، فقرر العودة الى سراى رأس التين . وكان درويش باشا قد أرسل اشارة الى اليخت العثمانى « عز الدين » الذى كان حضر عليه من الاستانة ، بالدنو من سراى مصطفى باشا ، حتى إذا هاجم الثائرون السراى أمكن نزوله فيه مع سمو الخديو . ولكن رؤى أن ذلك ربما يلفت أنظار الثائرين ، فيغرقون اليخت ويقطعون خط الرجعة ، فعدل عن هذه الفكرة

وأوفد الخديو زهراب بك الى الاميرال سيمور ليخبره بذلك . وفى الساعة الأولى من بعد ظهر يوم ١٣ عاد فاخبره بأن الاميرال أمر باقامة الحرس الكافى فى سراى رأس التين وجهة ديوان البحرية وجهة القبارى . ثم استعدت المركبات والدواب لنقل الخديو وأنجاله ورجال الحاشية من سراى مصطفى باشا الى سراى رأس التين ، فمنهم من استقل العربات ، ومنهم من امتطى الدواب ، ومنهم من سار على قدميه . وكان من نصيبى ان تعلقت مع المرحوم محمد زكى بك التشريفاتى الثانى فى مؤخر العربة ، التى كانت تقل حاشية درويش باشا ، وكانت تسير وراء العربة التى استقلها الخديو

والمندوب الشاهانى ، ومن حولها الحرس الراكب . وشاهدنا فى سيرنا المدافع التى استحضرت لحصارنا

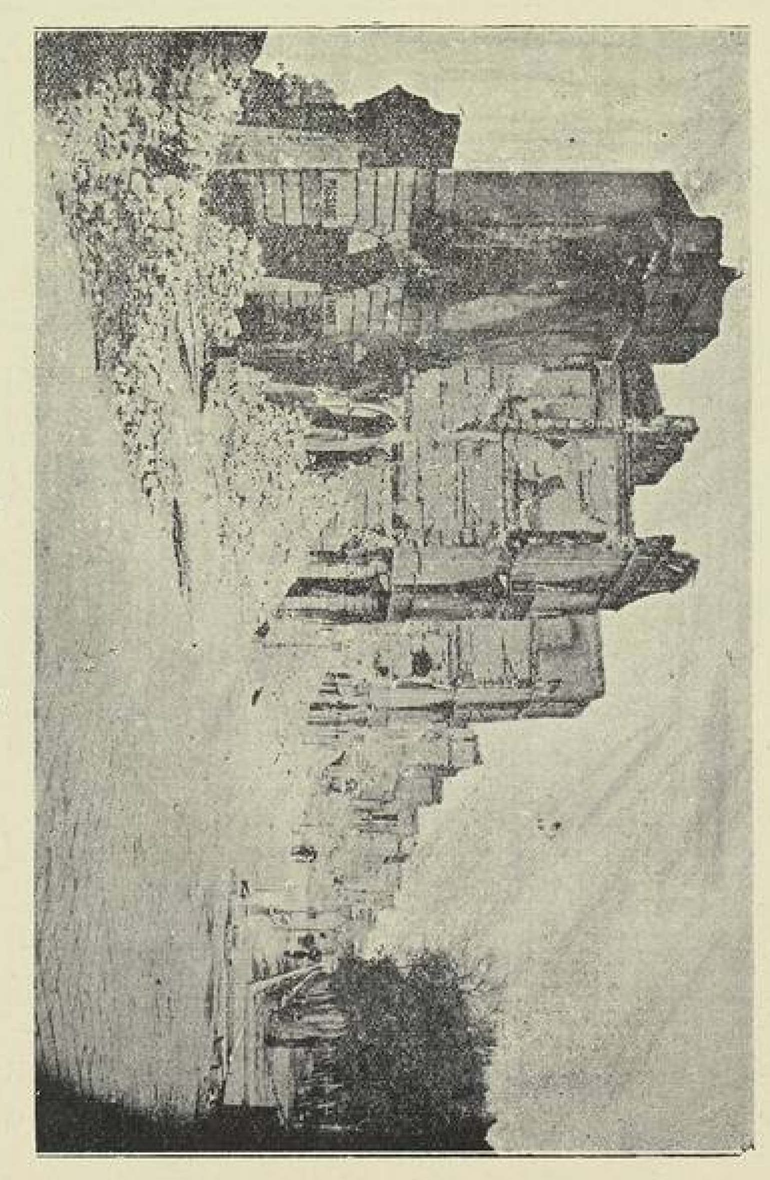
وكان الخديو قد أصدر أمره ، بمجرد وصوله الى سراى مصطفى باشا ، الى أخى المرحوم محمود افندى وهبى ، مأمور مركز أبى حمص ، ليرسل بعض البدو للحراسة . فلبى الطلب ، فوصلوا فى صباح ١١ يوليو ، فمدت لهم موائد الطعام حيث أكلوا وشربوا . وقد شاهدناهم عندعودتنا الى سراى رأس التين منتشرين فى شارع باب رشيد ، منصرفين الى سلب المهاجرين من الاسكندرية ، والنساء يصحن ويولولن ، وهم فى أثرهن ، وقد أحاطوا بهن وسدوا عليهن منافذ النجاة ، وأخذوا ينزعون الحلى من صدورهن وآذانهن قسراً ، حتى جرحوها وأسالوا منها الدماء .



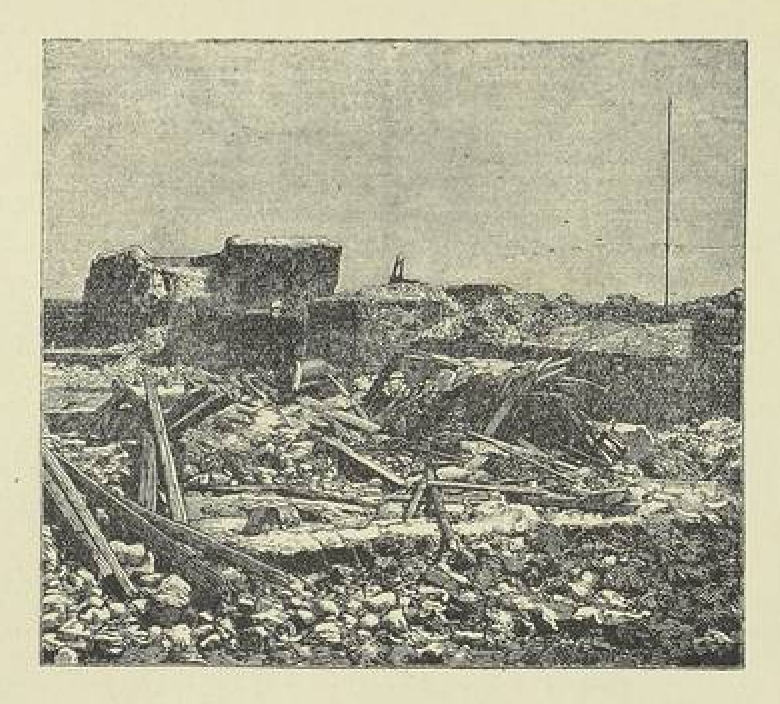
جانب من ميدان محمد على بعد الحريق

وما زلنا نسير بين هذه المناظر المؤلمة حتى دخلنا المدينة ، فى وسط لهب الحرائق التى كانت مشتعلة فى الأحياء المهمة،وكانت فظيعة لاسيما فى شارع شريف باشا ، وميدان محمد على (المنشية) الذى بدا لنا كانه أتون من نار.وما كنا نتصور أننا سنجتاز هذا الميدان دون أن نصبح طعاماً للنيران . وكان الجو مزيجا من دخان ولهيب ودرجة الحرارة تلفح وجوهنا وتكاد تشوى جلودنا كاننا فى جهنم . وقد أضرم هذه النيران رجال سليمان

داود عند انسحابهم من المدينة باشعال زيت البترول . هـذا الى أنهم تركوا الرعاع ينهبون المدينة والمهاجرين ، حتى أننا أثناء اختراقنا المنشية رأينا اثنين من العربان يركضان خلفنا ، فانزعج زميلي وسألهما بحدة : ماذا تريدان ؟ ولكنى أشرت عليه بأن يتركهما فسيرجعان بطبيعة الحال . وهذا ما حدث .



ركن من ميدان محمد على المحترق



تدمير قلعة المكس



طابية الفنار بعد تدميرها

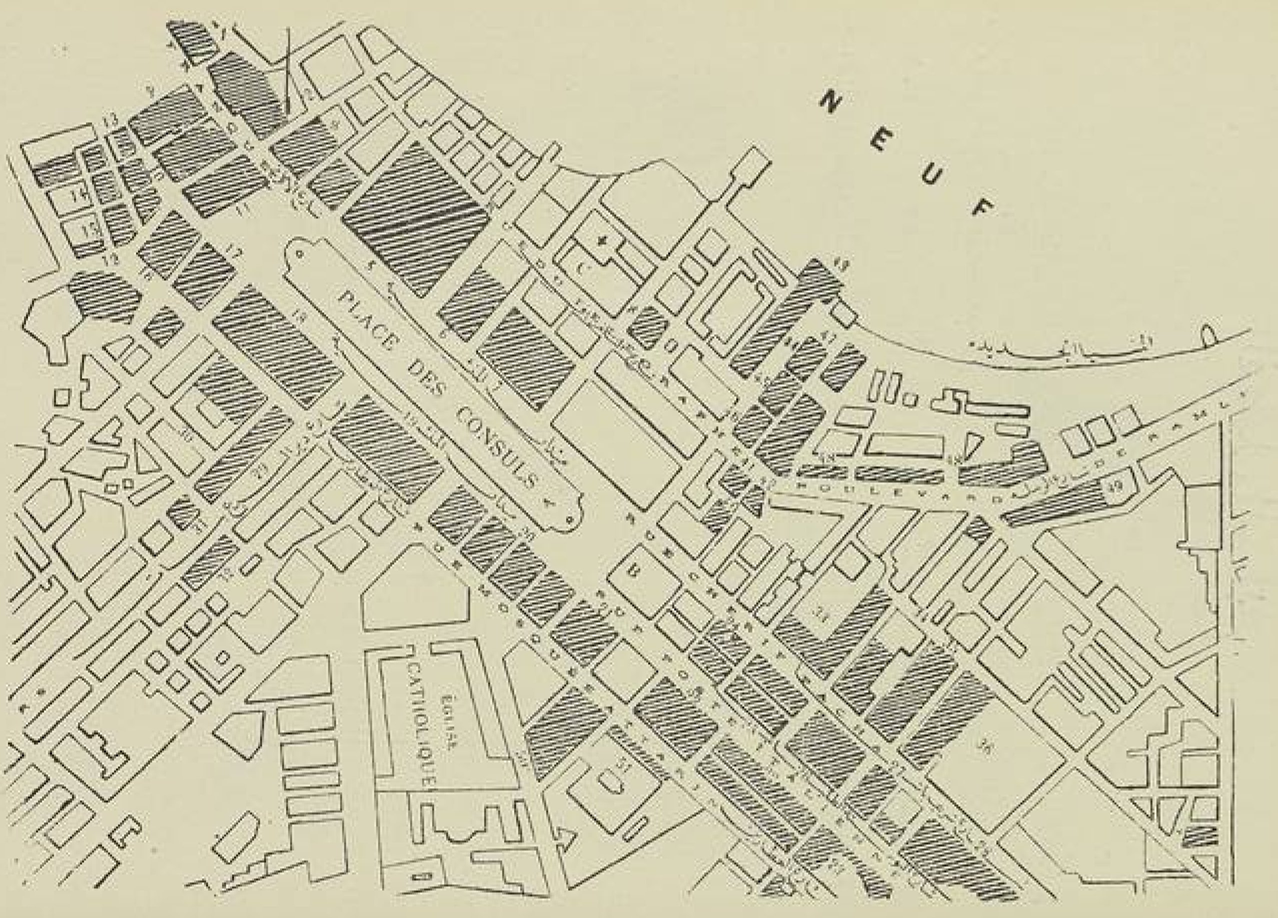
وعند وصولنا الى أول شارع رأس التين التقينا بسليمان داود بك راكباً جواده ، فخشينا عدوانه . ولكنه تولى مسرعا الى جهة المنشية . وربما كان ذلك خوفاً على حياته من الحرس السوارى الذى كان خلف مركبة الخديو

وعلى هذا النحو وصلنا الى سراى رأس التين فى الساعة الرابعة آمنين على حياتنا . فوجدنا عدداً من البحارة الانجليز واقفين للحراسة على مدخل السراى وفى داخلها ، وكان الأميرال سيمور واقفاً على سلم السلاملك يرتقب قدوم الخديو . وبعد أن أدى التحية لسموه رافقه الى الدور الأعلى ، وهناك أخبره بما لحق السراى من التخريب فى قسم الحريم .

وقد لحق بنا الى السراى كثيرون من الوطنيين والأجانب ، منهم أستون باشا رئيس أركان حرب ، والأميرال فردريكو باشا من البحرية المصرية ، والدكتور أباته باشا ، وزهراب بك ، وتيجران بك ، ومحمد نسيم بك الطوبجى وغيرهم . فوزعت غرف السراى على اللاجئين ، وكانت إقامتى مع محمد زكى بك ووصفى بك من رجال التشريفات

وعدنا نقاسى ألم الجوع ، إذ لم نجد فى السراى ما يؤكل وخصوصاً الخبز ، فأرسل الخديو فى الحال شرذمة من العساكر الى مخبز القبارى التابع للحربية ، بعد أن انسحب منه العرابيون ، فأحضرت ما وجدته من الخبز « الصامولى » وكان يابساً ، فوزع علينا وكنا فى شهر رمضان ، فكان فى أفواهنا لذيذ المذاق وكأنه الحلوى يفطر الصائم عليها .

وأذكر أن وصفى بك تمكن من الذهاب الى المدينة فعاد إلينا بعلبة كبيرة من « الغريبة » وكأنه جاءنا بالدرة اليتيمة وسلمها إلى قائلا : « أنت أدرى ياشفيق بما نحن فيه من العوز والجوع وأنا أعهد فيك الأمانة وحب الاقتصاد فوزعها علينا بالعدل » فكانت فى أفواهنا ألذ الأشياء مذاقاً .




مدينة الأسكندرية مبين فيها الاماكن المحترقة

# الفصل السابع

## الاحتـــلال البريطانى

**مقدمات القتال . الخديو وعرابى بعد الاحتلال . العرابيون يبثون دعوتهم داخل البلاد . الاضطراب فى أنحاء القطر . قدوم الجيوش الانجليزية البرية . السلطان يعلن عصيان عرابى . نظارة شريف باشا مسألة حياد قناة السويس . القتال فى منطقة القناة . تصريح جلادستون واقعة التل الكبير . احتلال القاهرة .**

---

**مقدمات القتال** . احتلت العساكر الانجليزية البحرية مدينة الاسكندرية فى يوم ١٣ يوليو ، بعد انسحاب العرابيين منها الى عزبة خورشيد ، وتركها للحريق والنهب .

وكنا ننتقد الأميرال سيمور ، فى أحاديثنا الخاصة ، لعدم مبادرته لاحتلالها بعد تخريب طوابيها واستحكاماتها . فقد كان فى وسعه ، لو أنه عجل باحتلال المدينة ، أن يحول بقواته دون أعمال الحرق والنهب .

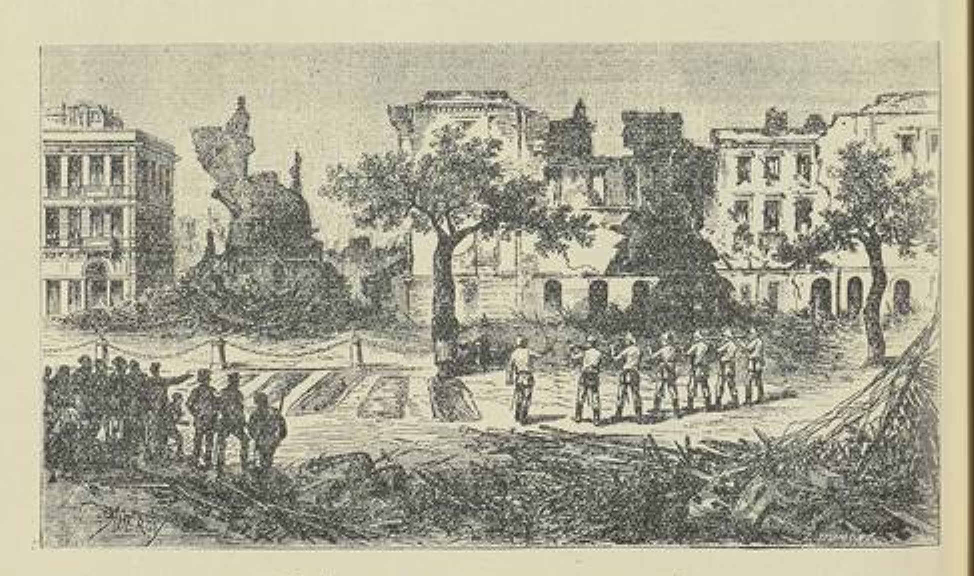
ثم أنزلت بعض البواخر الأجنبية ، وفى مقدمتها البواخر الأمريكية ، بحارتها لاخماد النار وحفظ الأمن . ولم يصرح للاهالى بالخروج ليلا ، إلا لمن كان لديه «كلمة السر » ، وهى كلمة مصطلح عليها ، فاذا مر أحد الأهالى بنقطة فيها جندى انجليزى ورآه يصوب بندقيته نحوه قال له : « آمين » فيسمح له بالمرور

وتحصن العرابيون فى كفر الدوار ، لأنهم اعتقدوا أن الانجليز سيهاجمونهم فيها . وهنالك أقام محمود باشا فهمى المهندس ناظر الأشغال استحكامات متينة ، تمتد من ترعة المحمودية الى أرض الملاّحة ، يحميها خندق عرضه أربعة أمتار . وكان الانجليز يناوشون مركزهم الأمامى فى عزبة خورشيد . وأذكر أن الخديو وبعض الحاشية توجهوا بدعوة من الانجليز الى حديقة أنطونيادس المطلة على المحمودية، فصعدنا الى مكان عال ، وشاهدنا قاطرة انجليزية مصفحة وفيها بعض الجنود برشاشاتها وبنادقها ، فتقدمت الى عزبة خورشيد وناوشت هناك جند العرابيين باطلاق الرصاص عليهم ، ثم رجعت دون أن يلحقها ضرر يذكر .



قاطرة مصفحة بها عساكر انجليزية لمناوأة العرابيين

وفى ١٧ يوليو أعلن سيمور ، على أثر مخابرة جرت بينه وبين الخديو ، أن سموه قد عهد إليه مؤقتاً بحفظ الأمن والنظام ، وأن الأوامر صدرت للجنود الانجليزية باطلاق الرصاص على كل من وجد متلبساً بجريمة النهب أو الحرق . وناشد السكان الوطنيين والأجانب أن يعاونوه على توطيد النظام . وقد قتل فعلا غير واحد من الذين حرقوا أو نهبوا .



إعدام أحد النهابين فى ميدان محمد على « المنشية » بالأسكندرية

**الخديو وعرابي بعد الاحتلال** . وكتب الخديو الى عرابي ، في كفر الدوار يوم ١٧ يوليو ، ينبئه بأن الأميرال أعلن أن الحكومة الانجليزية لا تضمر العداء لمصر ، وأن إطلاق النار على الطوابي والاستحكامات إنما وقع بسبب ما وجه الى الأسطول من التهديد والاهانة ، وأنه اذا كان لحكومة الخديو جيش منظم يؤمن جانبه فلا يتأخر عن تسليمه الاسكندرية ، وأنه ينسحب بلا تردد اذا وصلت العساكر الشاهانية . ومن ثم فانه يجب عليه أن يصرف النظر عن جميع الجنود والمعدات الحربية ، وأن يحضر حالا لتلقي التعليمات ، ولتنفيذ القرارات التي تصدر من مجلس النظار

فرد على ذلك عرابي بأنه متمسك بقرار المجلس الذي عقد فوق العادة برياسة سموه وبحضور درويش باشا ، وقضى برفض مطالب الأميرال ، لأنها مجحفة بحقوق الوطن ، وبوجوب زيادة الجيش الى خمسة وعشرين ألف جندي ، وأن الأوامر قد صدرت بذلك الى المديريات ، وأعلنها رئيس النظار كما أعلن أيضاً نشوب الحرب بيننا وبين الانجليز ، وأن البلاد وضعت تحت الأحكام العرفية . وأنه مع كل ذلك اذا كان الأميرال لا يزال راغباً في الصلح ويريد تسليم المدينة ، فان جيش الحكومة المنظم مستعد لاستلامها بعد أن يغادر الأسطول الانجليزي المياه المصرية ، لأنه لا ثقة له بوعود الانجليز . وأنه كان بوده أن يمثل بين يدي سموه ، لولا احتلال الانجليز للمدينة . والتمس مجيء النظار ، أو على الأقل رئيسهم ، الى مركز قيادة الجيش في كفر الدوار للمفاوضة في هذا الأمر .

وقد علمنا أن عرابي كتب في نفس الوقت الى يعقوب باشا سامي وكيل الجهادية ، وهو في القاهرة ، يشرح له ماحدث قبل ضرب الاسكندرية وبعد احتلالها ، طبقاً لوجهات نظره . جاء في رسالته : —



يعقوب باشا سامي

« إن الذي أوقعنا في هذا البلاء هو الخديو نفسه ، بدليل أنه انتهز فرصة انصرافنا الى إعداد معدات الدفاع فأمر راغب باشا أن يذيع منشوراً في البلاد يحث فيه سكان الأسكندرية على العودة إليها وعدم مساعدة الجهادية ، بحجة وقوع الصلح »

ثم طلب في رسالته هذه عقد مجلس في نظارة الداخلية ، من أعيان البلاد وعلمائها ،

لبحث هـذه الأمور ، والنظر فيما اذا كانت أعمال توفيق باشا مطابقـة للشرع ، وفيما اذا كان يصلح والحالة هذه لحكم البلاد .

وفى ١٧ يوليه عقد فعلا هذا المجلس تحت رآسة حسين باشا الدره مللى وكيل نظارة الداخلية ، وقرأ على المجتمعين خطاب عرابى السالف الذكر ، وبعـــد المناقشة أصدر القرارات الآتية : —

(١) استمرار التجهيزات الحربية

(٢) طلب حضور الخديو والنظار الى العاصمة

(٣) تشكيل وفد للذهاب الى الاسكندرية وتبليغ الخديو قرارات المجلس

ثم عهد الى ستة من الحاضرين بالذهاب الى الاسكندرية وتبليغ الخديو ذلك . وهم على باشا مبارك ، رئيسه ، ورؤوف باشا من الأعيان ، واحمد بك السيوفى ، والشيخ سعيد بك الشماخى ، من التجار ، والشيخ على نايل ، والشيخ احمد كبوه ، من العلماء . فلم يحضر للاسكندرية من هذا الوفد سوى رئيسه واحمد السيوفى بك ، لأنه لما وصل الوفد الى كفر الدوار رؤى الاكتفاء بهما دون بقية المندوبين

وبعد وقوف الخديو على تفاصيل ما حصل فى اجتماع ١٧ يوليو ورغبة منه فى إيجاد حل لتهدئة الحالة كلف على باشا مبارك أن يرسل رسالة الى عرابى يقول فيها : — « إن المندوبين الذين غادروا القاهرة معـه لم يجيئوا الى الاسكندرية إلا للبحث فى المسألة ومخابرته بشأنها بواسطة التلغراف . وأنه تقرر تأليف مجلس منه ( على باشا مبارك ) ومن بعض أعيان الاسكندرية ، ومن الذين يعينهم عرابى من الأمراء العسكريين ، ليجتمعوا فى مكان معين لأجل البحث فى الحالة الحاضرة ، والوصول الى نتيجة يرتاح إليها الجميع وتنقذ الوطن من الكارثة التى حلت به »

فأجاب عرابى على هـذا الخطاب : — « إنه سبـق أن تألف مجلس فى القاهرة من رجال الجندية والملكيين والعلماء والتجار والأعيان والرؤساء الروحانيين ، وكنتم سعادتكم فى جملة الذين اشتركوا فيه ، ولذلك لم يعد لى صفة أو حق فى تعيين أعضاء لتأليف مجلس آخر لا أدرى الغرض منه ، على أنه لا يسعنى الاستقلال بالأمر دون الأمة ، فأنا رهين أمرها وإشارتها . ولذلك فانى آسف لعدم تمكنى من إجابة سعادتكم الى طلبكم هذا . . . الخ »

فأصدر سمو الخديو فى ٢٠ يوليو أمراً عالياً بعزل عرابى جاء فيه : —

« ان خروجك من الاسكندرية بعد القتال البحرى الذى جرى فيها ، من غير أن يصدر لك أمر بذلك ، واستصحابك الجند إلى كفر الدوار ، بعد أن خربت الخطوط الحديدية ، وعطلت البريد وأسلاك التلغراف ، ومنعك لمهاجرى الاسكندرية من العودة إليها ، واستمرارك على إعداد المعدات الحربية ، وعدم قدومك الينا تلبية لأمرنا . كل ذلك دعانى إلى اقالتك من وظيفتك . فأنت معزول إذن منذ الآن بمقتضى هذا الأمر من نظارة الجهادية والبحرية »

وفى يوم ٢٢ يوليو اذيع فى الاسكندرية ، بأمر الخديو ، منشور ذكرت فيه الأسباب التى دعت إلى عزل عرابى باشا جاء فيه :ــ « ان نزول العساكر الأنجليزية الى البر لم يكن بقصد احتلال البلاد أو الاستيلاء عليها ، لأن مؤتمر الاستانة لم يوافق على ذلك ، وإن سمو الخديو بعث برسالة تلغرافية إلى الباب العالى ينبئه بما حصل ، وبمخالفة عرابى لأوامره »

وعلمنا فيما بعد أنه فى نفس هذا اليوم عقد المجلس العام فى نظارة الداخلية ، وأفتى الشيخ عليش ، والشيخ حسن العدوى ، والشيخ الخلفاوى ، وغيرهم من العلماء ، بمروق توفيق عن الدين كمروق السهم من الرَّمِية ، لخيانته دينه ووطنه . وتقرر استمرار عرابى فى المدافعة عن البلاد ضد العدو

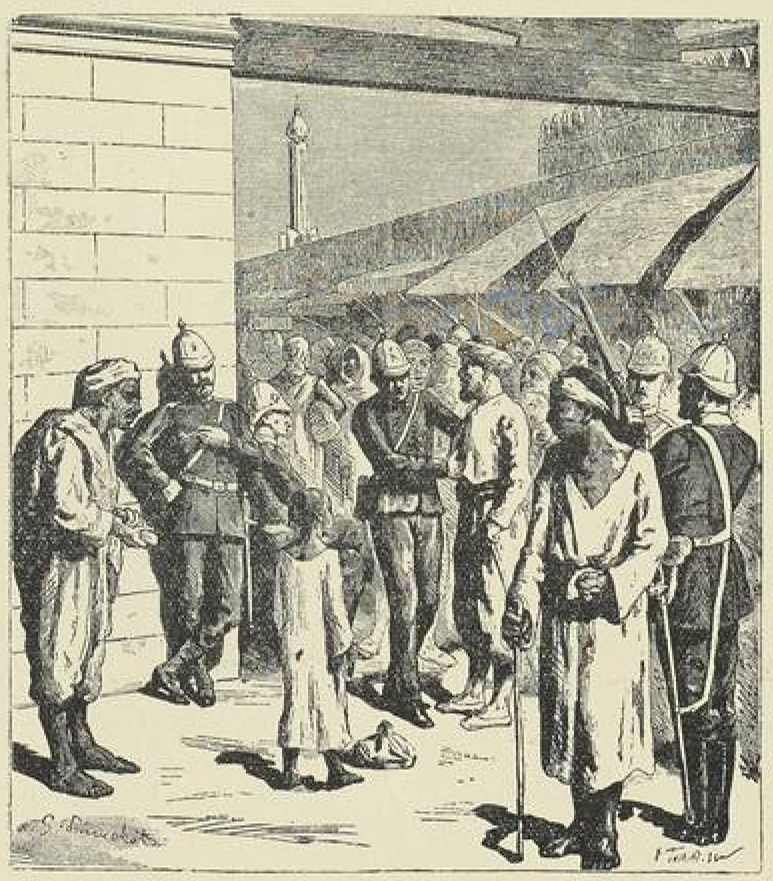
**العرابيون يبثون دعوتهم داخل البلاد** . أما العرابيون فى داخل القطر فقد كانوا يرمون الخديو بتهمة الخيانة والالتجاء الى الانجليز ، وأنه سجن النظار عقاباً لهم على انتصارهم لعرابى . يدل على ذلك تلغراف أرسله عرابى يوم ١٧ يوليو سنة ٨٢ الى محافظة بور سعيد وجاءت صورته لسراى رأس التين هذا نصه :ــ

« النظار محجوزون بطرف الخديو باسكندرية تحت ملاحظة عساكر الانجليز ليكونوا شهوداً وآلة فى أيديهم ، بها يبطلون همم المصريين ، حتى لا يقدرون على مقاومة أعدائهم الانجليز . فليكن معلوماً أن التلغراف الصادر من رئيس النظار بأبطال التجهيزات الحربية هو قهرى فلا يعتمد ولا يعول عليه . فحفظ العرض والدين والوطن لازم وواجب علينا شرعاً وذمة . وإن الحرب لم تضع أوزارها . وكل من تهاون فى تأدية واجباته الوطنية ، فضلا عن كونه يعاقب بمقتضى القانون العسكرى ، يصير ملعوناً فى الدنيا والآخرة »

ثم كتب الى محافظ بور سعيد خطاباً يشرح فيه هذا التلغراف ، ووردت صورته أيضاً للسراى ، وقد جاء فيه :ــ « إن الخديو . بعد أن بارحت العساكر المصرية مدينة

الاسكندرية ، انتقل الى سراى رأس التين وطلب عساكر من الانجليز للمحافظة عليه ، ونشرهم فى أطراف المدينة ، وأخذ النظار عنده ، ومنعهم من التوجه الى مراكز إداراتهم ، لأجل أن يستعملهم فى تنفيذ أغراضه الموافقة لأغراض الانجليز ، ثم إن بعض عساكر البوليس والمحافظة ، الذين بقوا فى الاسكندرية ، تسلط عليهم الانجليز بالذبح وضرب الرصاص انتقاماً منهم ، وكلما رأوا عسكرياً يمر أخذوا سلاحه وذبحوه ومثلوا به كل التمثيل . وكل ليلة يبيت الخديو فى البحر مع نسائه بين مراكب الانجليز، وفى النهار يخرج الى البر ليأمر بذبح من يخطر من المسلمين فى شوارع الاسكندرية . »

ولم يكن لكل ذلك فى الواقع أساس من الصحة والحقيقة ان الأميرال كان قد امر بحارته بالمحافظة على الأمن فى البلد فقاموا بواجبهم وزيادة فى الاحتياط كانوا يفتشون الداخل الى الثغر والخارج منه



عساكر انجليزية يفتشون الخارجين والداخلين في مدينة الأسكندرية

ولما علم الاميرال بأن العرابيين يشيعون ان الانجليز يريدون الاستيلاء على مصر أذاع فى ٢٦ يوليو منشوراً هذه ترجمته : — « ان الأسباب التى دعت الى ضرب الاسكندرية وضحت توضيحاً جلياً بالمنشور الخديوى الذى أذيع على الأهالى بتاريخ ٢٢ يوليو . ومع ذلك فدحضا للاشاعات الكاذبة التى ينشرها عرابى وأعوانه ، قد رأينا ، نحن بصفتنا اميرال الاسطول البريطانى ، ان من الواجب علينا ان نكرر هنا ما سبق ان اكدناه لسموكم من أن حكومة جلالة الملكة لم يخطر لها فتح مصر ، ولا تريد ان تمس الدين ولا حرية الأهالى بوجه من الوجوه ، وانما غرضها حماية سموكم والأمة المصرية من الثائرين . ومن ثم فان الحكومة البريطانية عازمة على قمع الثورة القائمة ضد سموكم ، ورد الامن الى نصابه ، وانقاذ البلاد من عسف الضباط العاصين . وأرجو من سموكم أن تتنازلوا فتأمروا الجنود بعدم اطاعة زعماء الثورة ، والرجوع الى مواطنهم ، أو الانضواء تحت راية سموكم ، بصفتكم ولى أمرهم الاعلى ، وأن تعلنوا الأهالى بأنه يجب عليهم اعتبار عرابى وصحبه الثائرين خائنين لأميرهم ، واعداء لوطنهم ومواطنيهم »

وفى آخر يوليو علم أهالى الاسكندرية بوقوع معركتين بين الانجليز والعرابيين فى جهة عزبة خورشيد ، كانت الغلبة فيها للانجليز ، فهدأت خواطرهم لانه كان قد اشيع بأن العرابيين زاحفون على المدينة

وأرسل عرابى تلغرافات للمديرين والمحافظين بأن عليهم أن يلبوا ما يطلب منهم من ارسال الجنود والنقود والمُؤن .

ولما تحقق الخديو من أن عرابى لا يزال يجمع الرجال والأموال أذاع ، بتاريخ ٧ أغسطس ، منشوراً جديداً يعلن فيه عصيانه وختمه بقوله : — انه رحمة بمصر وأهلها يعلن سمو الخديو المصريين عموماً ، والجند خصوصاً ، أن كل من أصر على عصيانه وانقياده الى عرابى يعد مذنباً أثيماً أمام الله وأمامنا . وحينئذ نحرمه هو وأولاده وذريته من جميع الرتب والمرتبات ومعاش التقاعد وسائر ما كان يتمتع به من الامتيازات . وليعلم المصريون أننا نحن أميرهم ومولاهم فعليهم الا يعصوا أوامرنا . وأنهم اذا أدوا شيئاً من أموال الضرائب الى عرابى أو اتباعه ضاعت عليهم جزافا »

وكان ذلك إجابة لطلب الأميرال

**الاضطراب فى أنحاء القطر** . ولم تأت منشورات الخديو وسيمور بالفائدة المطلوبة ، بل انقسمت الحكومة المصرية الى قسمين — قسم الحكومة الخديوية فى الاسكندرية — وقسم الحكومة العرابية فى القاهرة والأقاليم . وكذلك انقسمت الأمة

الى فريقين — فريق الخديو ، وقد لحق به فى الاسكندرية ، وفريق العرابيين . وكان ثمة فريق آخر مزيج من عرابيين وغيرهم . وفيه كثيرون ممن كانوا يناصرون الخديو باطناً ويكيدون للعرابيين سراً ولكن يتظاهرون بمناصرتهم اتقاء بطشهم

وبعد انسحاب الجيش من الاسكندرية ، وقعت مذابح فى طنطا والمحلة الكبرى وغيرهما ، من جراء اشاعة ذاعت مؤداها ان الانجليز يزحفون على تلك البلاد ، وأنهم أصبحوا على وشك الوصول اليها . فثار الأهالى على الأجانب وفتكوا بفريق منهم . ولقد أبدى كثير من المصريين فى هذه الحوادث شهامة وشجاعة وانسانية يحمدون عليها ، وواجهوا مختلف الاخطار ، لحماية الاجانب ، وكان فى مقدمة من قاموا بذلك الواجب الانسانى احمد منشاوى ( باشا ) (١)



المنشاوى باشا

---

(١) فى يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ اجتمع لفيف من أعيان وتجار الأجانب فى فندق ابات بالاسكندرية ووقعوا كتابا رفعوه الى حضرة صاحب العزة احمد المنشاوى بك باللغتين العربية والايطالية هذا نصه : —

سعادة احمد بك المنشاوى الأفخم .

اننا نحن الواضعين امضاءاتنا بذيله المستوطنين فى القطر المصرى ، والتابعين لدول مختلفة ، بناء على ما اشتهر لدينا مما أتيتم به من الاعانة والغيرة نحو ساكنى طنطا على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، قد رأينا من الواجب علينا أن نقدم لسعادتكم هذه العريضة برهانا على إقرارنا الأبدى بحميتكم ، وشكرنا الدائم لسعادتكم . وانه ليسرنا ويعزينا كثيراً ، أن نرى فى القطر المصرى ، مع ما أصيب به من النوائب ، رجالا دافعوا عن حقوق الانسانية وراعوا زمام التمدن بحمايتهم أولئك الأبرياء . فتكرموا اذاً بقبول عواطف تشكراتنا وامتناننا افندم .

وقد وصلت الى آذاننا فى تلك الاثناء ، اشاعات كاذبة أذيعت فى طول البلاد وعرضها، عن تفوق العرابيين على الانجليز وانتصارهم عليهم فى كل مكان ، وأنهم أغرقوا سفينتين حربيتين وعطلوا خمس سفن أخرى . وسمعنا أخباراً أيضاً بلغت حد الخرافات. من ذلك أنه أذيع أن دجاجة وضعت بيضة مكتوب عليها : « نصر من الله وفتح قريب » فاستدل العامة بذلك على قرب الانتصار الحاسم

وكان يقال أيضاً إن عرابى مؤيد بروح من عند الله والملائكة . وأخذ الكثيرون يفسرون الأحلام بما يوافق مصلحة العرابيين

وبلغنا أيضاً ان الخطباء كانوا فى أيام الجمع يلقون خطباً ثورية يحدثون الناس فيها بكرامات عرابى ، ويؤيدون رأى العامة الذين كانوا ينسبون لعرابى صفات سامية ومقدرة خيالية

ونمى الينا من العاصمة ، أن العرابيين كانوا يفتشون البيوت خوفاً من أن يكون فيها من يراسلون الاميرال الانجليزى

**قدوم الجيوش الانجليزية البرية** . فى أوائل أغسطس وصل السير جارنت ولسلى الى الاسكندرية وقوات من الانجليز والهنود ، وشرع فى وضع خطط القتال . وشاع أثناء ذلك أن السير ولسلى صرح بعزمه على دخول القاهرة فى أواسط سبتمبر

وأصدر الخديو فى ١٤ أغسطس منشوراً الى السلطات فى منطقة القناة جاء فيه ما يأتى : — « ليكن معلوماً عند السلطات الملكية والعسكرية فى منطقة قناة السويس ، أن أميرال الأسطول الانجليزى وقائد الجيوش البريطانية العام ، إنما أتيا الى مصر لاعادة الأمن والنظام إليها . ومن ثم قد سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التى يريان فى



السير جارنت ولسلى

احتلالها ما يساعد على قمع العصيان . ومن يخالف أمرنا هذا ينزل به أشد العقاب »

وفى اليوم نفسه أصدر الأمر الآتى : — « نرخص الى حضرة الأميرال قومندان عموم قوة دولة بريطانيا العظمى فى البحر الأبيض المتوسط ، والى كافة الضباط الذين هم تحت أوامره أيضاً ، أن يتخذوا كافة الوسائل التى يجدونها لازمة لمنع استحضار ذخومات ومهمات حربية ، على طول الخط الممتد من دمياط الى رشيد الكائن ما بين اسكندرية وبورسعيد . وكل من لا يمتثل لأمرنا هـذا يصير ضبط الأشياء الممنوعة المذكورة فيه »

وفى ١٩ أغسطس ، أذاع السير جارنت ولسلى بأمر من الخديو ، بياناً يقول فيه :— « بناء على أمر الحضرة الفخيمة الخديوية ، نعلن المصريين بصفتنا قائد الجيش البريطانى ، أن حكومة جلالة الملكة لم تقصد بارسال جنودها الى مصر إلا توطيد سلطة الخديو . وعليه فان الجيش البريطانى يحصر عمله فى قتال الذين لا يعترفون بهذه السلطة . فالسكان المخلدون الى السكينة ، سيعاملون إذن بكل رعاية ولا ينالهم أقل أذى لا فى عقائدهم الدينية ولا فى مساجدهم ولا فى عائلاتهم ولا فى أملاكهم . وجميع المؤونة التى يحتاج الجيش إليها ، يدفع ثمنها فوراً . وللأهالى أن يقدموا العطاءات اللازمة . والقائد العام يقابل بكل ارتياح ما يسديه المأمورون من المساعدة لقمع العصيان القائم ضد الجناب الخديوى . الذى يحكم مصر بمقتضى الفرمانات الشاهانية »

**السلطان يعلن عصيان عرابى** . وقد ساعد الانجليز على بلوغ غايتهم فى تقصير أجل تلك الفتنة ، والظفر باحتلال مصر ، صدور إرادة سلطانية تعلن عصيان عرابى ، وكان ذلك نتيجة إلحاح السفير البريطانى فى الاستانة على الباب العالى . وكان السلطان من جهة أخرى ، قد يئس من إمكان تدخله منفرداً فى مصر ، بعد أن احتلتها الجيوش الانجليزية ، فلم يجد بعد ذلك فائدة من العطف على عرابى . فأصدر فى ٦ سبتمبر الاعلان الرسمى الآتى ننشره برمته لأهميته :— « معلوم عند الجميع ، أن خديوية مصر بموجب الفرمانات العالية والامتيازات المقررة ، مودعة من جانب الخلافة العظمى إلى عهدة واستيهال حضرة فخامتلو محمد توفيق باشا . فهو فى إدارة الأمور المصرية ، وكيل مطلق من طرف السلطنة السنية ، فأوامره مطاعة ، ومخالفته توجب على عاملها طائلة المسئولية . ومع ذلك فعرابى باشا ارتكب ذنباً بتعرضه لوظائف الحكومة . بما هو مخالف صريحاً للأحكام القانونية ، فسلب الراحة ، وأخل بالأمن فى المملكة ، وأضاع عدداً من

الأنفس، وأضر بالأموال، ولم يقف عند هذا الحد . بل سبب تداخلا عسكرياً أجنبياً، لأنه أجبر دولة انجلترا المخلصة الوداد مع السلطنة السنية، على أن تطلق مدافع سفنها على استحكامات ثغر الاسكندرية، وكان ذلك ناجماً عن زيادة التجهيزات ووضع المدافع العديدة فى طوابى الاسكندرية، حتى أمست سفن الدولة المشار اليها هدفا لهذه التعرضات، فتسبب عنها عدم أمنية الدولة المذكورة

ومع قطع النظر عن البحث فى ما يترتب على مرتكب هذه الأمور من العقاب، فالشريعة الغراء لم تصرح بوجوب المدافعة إلا بشرط الاستطاعة . فلو تفكر لهذا الشرط الشرعى، لما قام لتنفيذ مآربه بأراقة الدماء واتلاف النفوس، وادخال القطر المصرى تحت مخاطرة مداخلات عسكرية أجنبية

والذى زاد فى المشكل ارتباكا، هو أنه بعد انهزامه من الاسكندرية، حاصر سراى الحضرة الخديوية مرة ثانية، فاضطر الأميرال الانكليزى الى اخراج عساكره للبر للمحافظة على الأمنية، فكانت هذه الحالة مبدأ المداخلات العسكرية البرية

وكان القصد من ارسال وفدنا السلطانى، المؤلف من دولتلو درويش باشا وكل من عطوفتلو قدرى افندى ولبيب افندى وحضرة الشيخ احمد اسعد افندى، إجراء التبليغات والتنبيهات الى عرابى باشا بأن يحضر الى دار السعادة، ويرجع عن مسلكه المعوج، الذى سلكه على غفلة من الأهلين، وذلك حتى لا تكون الدولة العلية، مضطرة لاجراء الحركات العسكرية العنيفة، فى حق الأفراد من الأهالى الذين يتبعون قوله لجهلهم، وعدم معرفتهم الخير من الشر

أما الوفد، فقد أبدى ما بوسعه من النصائح الدينية والشرعية والعقلية المناسبة لظروف الحال، ولم يكن جواب عرابى لذلك كله الا ثباته فى سلوكه المعوج، وتمادى فى تمرده الى أن قال : ان كل من أتى القطر المصرى من أجنبى وغيره، حتى ذات العساكر العثمانية، فهو يقابلها بالقوة، ولا يرضى بدخولهم البلاد . وقد عرض لدينا ذلك الوفد العثمانى بتقرير رسمى موقع من الجميع

ولا يخفى ما يحصل من وخامة العاقبة، عن تعدى المومأ اليه لتشكيل هيئة مخصوصة لادارة البلاد ضد الحكومة الشرعية . وما أجراه عرابى باشا قبل التهديدات التى حصلت له من الانكليز، كتنويهه بمقاومة العساكر الشاهانية بالسلاح، ومطلق حركاته الأخرى، كلها أمور تستدعى معاقبته بأشد العقاب . ومع ذلك، كما استعطف الحضرة

الخديوية الجليلة ، فطلب العفو والتجأ الى المراحم السنية ، وأعطى التأمينات الى دولتلو درويش باشا رئيس الوفد عنه وعن العساكر المصرية ، كما جرى الاعلان فى أوراق الحوادث ، نال التعطفات ، ولأجل تأمينه وتوثيق انقياده وصداقته ، أحسن اليه بالنيشان العالى طبقاً لانهاء درويش باشا المشار اليه . أما عرابى فلم يعرف قدر تلك الألطاف ، وجهل مزيتها ، فاصر على أفكاره السقيمة وحركاته المضادة للشرع المنيف ، ببث واعلان البغى والعصيان وعليه فهو باغ عاص

وليعلم الجميع ، ان الجناب الخديوى هو أمين السلطنة ومعتمدها ، وهو أعظم أركان الدولة العلية . فحفظ حيثيته الذاتية ، وما حازه من الامتياز والاقتدار ، انما هو من الأمور الملتزمة . وما أجراه عرابى باشا وتجاسر عليه من اجراء تلك الحركات ، مغاير للرضى العالى ، فبغيه وعصيانه ، هما نتيجة أفعاله وأعماله . أما الحضرة الخديوية فنفوذها مؤيد وامتيازها مقرر من الدولة العلية »

وقد ذاعت انباء الثورة العرابية فى كل قطر ، وشغلت أذهان الشرقيين قاطبة ولا سيما الشعب الهندى ، حتى علمنا ان السفارة الانجليزية فى الاستانة ، ابتاعت من صاحب جريدة « الجوائب » التى كانت تصدر يومئذ باللغة العربية ، مليون نسخة من العدد الذى نشرت فيه ترجمة الارادة السلطانية ، التى أعلن فيها عصيان عرابى ، لكى توزعها فى الهند وتستعين بالاثر الذى تحدثه على اخماد حركة التشيع للعرابيين ، وكانت قد اضطربت هناك بشكل ينذر انجلترا بشر العواقب .

وفى وقت اعلان عصيان عرابى أرسل السلطان ٦٠٠٠ جندى الى فرضة صوداء بكريد ، لارسالها لمصر عند اتفاقها (١) مع انجلترا ، على مشاركة هذه الجنود للقوة الانكليزية .

---

(١) وقد علمنا ان الاتفاق كان ينص على : —

أولا — يؤلف الجيش العثمانى من ٥ الى ٦ آلاف رجل ولا يجوز زيادة الا برضى الدولتين

ثانياً — ان حركات الجيش العثمانى واجراءاته ستنظم فيما بعد على وجه يرضى به رؤساء قواد عساكر الدولتين

ثالثاً — تنزل العساكر العثمانية الى البر من أبى قير أو رشيد أو دمياط

رابعاً — ينضم الى الجيش العثمانى مندوب انكليزى والى المعسكر الانكليزى مندوب عثمانى وذلك ضمانة للاتحاد بالعمل المقتضى اجراؤه

خامساً — ينجلى الجيشان ( العثمانى والانجليزى ) عن القطر المصرى فى آن واحد وانما يرخص للعساكر العثمانية إطالة مدة الاحتلال إن كان ثم لزوم لذلك برضى متبادل بين الدولتين

ولكن لم يتم هذا الاتفاق نظراً لاندحار العرابيين فى واقعة التل الكبير كما أعلن اللورد دوفرين بذلك الباب العالى فى ١٧ سبتمبر

ولما وردت البرقية فى ١٥ أغسطس بوصول هذه القوة التركية ، فرحنا لهذا الخبر

ومما ساعد أيضاً على نجاح الانجليز ، ان الجناب الخديوى عين محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب مندوباً خديوياً ، وبمعيته بعض ياوران سموه، لدى الجنرال ولسلى، وناط به نشر الدعـــوة ، وخصوصاً بين العرب ، لمساعدة الجيش الانجليزى الذى يحارب العرابيين باسم الخديو . أضف إلى ذلك الهبات المالية التى كان الانجليز يغدقونها على العربان ، وخصوصاً الذين قيدوا منهم بقلم الاستعلامات الانجليزى

ونذكر أن جريدة فرنسيه محلية ، نشرت فيما بعد صورة رمزية فيها يد ضابط انجليزى تلوح بين أصابعها بجنيه من الذهب ، وتحتها يد أحد العربان مبسوطة لالتقاطه



يد أحد العربان تلتقط جنيها من يد ضابط انجليزى

وفى ٢٢ أغسطس ، أصدر الخديو إلى الدوائر الملكية والعسكرية فى القطر المصرى ارادة أخرى قال فيها :— « لما كان الغرض الوحيد من الأعمال العسكرية التى يقوم بها السير جارنت ولسلى ، هو استتباب الامن فى مصر ، فنحن قد صرحنا له باتخاذ التدابير العسكرية التى يرى لزوماً لاتخاذها . فيجب عليكم حال وصول أمرنا هذا إليكم ، أن تبذلوا له المساعدات اللازمة ، وتطيعوا أوامره كما لو كانت صادرة منا ، فمن يخضع له ، كانه خضع لنا شخصياً ، ومن خالفه يعد عاصياً لنا ، ويعامل معاملة العاصى . وقد أصدرنا أمرنا هذا إليكم للعمل بمقتضاه »

ومما يجدر بالذكر فى هذا المقام ، أنه لما يئست انجلترا من الحصول على تفويض من الدول التى اشتركت فى مؤتمر الاستانة ، لقمع الثورة العرابية ، وعجزت عن الاتفاق مع فرنسا أيضاً على ذلك ، أعلنت انها تحارب العرابيين باسم الخديو ، لردهم إلى طاعته . وان الجيش الأنجليزى الزاحف على مصر ، انما هو جيش خديو مصر ، كما يفهم من التصريحات الواردة فى المنشورات التى أصدرها الخديو والاميرال سيمور والجنرال ولسلى

**نظارة شريف باشا .** وفى ٢٨ أغسطس ، وبعد ان اقال الخديو نظارة راغب باشا دعا سموه شريف باشا وباحثه فى تأليف نظارة جديدة تحت رآسته . فقبلها على المبادىء التى أوردها بعريضته التالية :—

« أتشرف بأن أعرض لسموكم ، أن إيعازكم الى بتأليف نظارة جديدة فى مثل هذه الظروف ، إنما هو دليل استدامة ثقتكم فىّ . وأننى بالامتثال لأمركم الكريم ، أبرهن على إخلاصى لوطنى ولشخصكم الكريم

إن المبادىء التى عرضتها على سموكم منذ سنة ، لا تزال هى عينها موضوع اهتمامى ، فان غايتنا القصوى هى سعادة الوطن مادياً وأدبياً . أما الوسائط التى يجب اتخاذها لذلك ، فهى تعميم المعارف ، ونشر لواء العدالة ، وتوسيع نطاق المبادىء الحرة الملائمة لهيئتنا الاجتماعية والسياسية . وكما أنه لا يلزم أن يتجاوز حدود لوائح ديسمبر الماضى ، كذلك لا ينبغى لنا أن نحذف منها شيئاً

ومن الواجب ، أن يتجه اهتمامنا كله الى موضوع واحد ، وهو صيانة البلاد . وعليه فاننى استدعى للاشتراك فى ذلك كل ذى غيرة وقلب مصرى ، مخلص لذاتكم الشريف ،

فرد عليه الخديو بالخطاب الآتى : — « إننا نوافق تماماً على المبادىء التى عرضتها علينا، من حيث وجوب اتجاه الأفكار والقلوب الى تقدم البلاد مادياً وأدبياً ، والتوسل الى ذلك بالوسائل الواردة فى كتابك ، وأنه لا بد فى زمن الاضطراب هذا ، من بسط سلطتنا على الشعب ، وإدارة الأعمال ، وجعلها اشد تأثيراً واكثر وضوحاً . لذلك فاننا نستدعى عند الاقتضاء ، التئام مجلس النظار برياستنا ، للبحث فى المسائل المهمة خارجية كانت أو داخلية . وبما أن لنا السيادة العليا على القوات البرية والبحرية ، فتنفيذ أوامرنا يجب أن يتم من غير أن تمس اختصاصات ناظر جهاديتنا

ولنا وطيد الأمل ، أن عهد نظارتك سيكون للبلاد فاتحة عصر جديد ، نشترك فى رفعها الى أعلى ذرى التقدم والفلاح . . . . الخ »

وكان رياض باشا فى مقدمة من يخشون بطش العرابيين وقد غادر مصر الى أوربا ، ومكث فيها منذ اضطرمت نار الثورة العرابية ، حتى استدعى بالتلغراف ليتولى نظارة الداخلية فى هذه النظارة

وبدأت النظارة الجديدة عملها ، بأن استصدرت إرادة خديوية ، وجهت الى جميع سكان القطر ، تنعت فيها حركة عرابى بأسوأ النعوت ، ونوه فيها بحسن نية انجلترا ، وأن تدخلها إنما هو فقط لقمع الثورة ، لأن لها مصالح كبرى فى هذه البلاد ، ولا سيما فيما يتعلق بترعة السويس ، التى هى طريقها الوحيد الى الهند ، وطلب الى المصريين أن يعاونوا الجيش الانجليزى على أداء مهمته

**مسألة حياد قناة السويس** . وقد خشى عرابى ، أن يقدم الانجليز على خرق حياد قناة السويس ، فعزم على ردمها ليطمئن من هذه الناحية ، وأوعز الى محمود باشا فهمى ، فوضع تصميماً لذلك ينفذ فى أربع وعشرين ساعة ، بنسف جوانبها بالديناميت

وكان دولسبس بعد تدمير طوابى الاسكندرية موجوداً فى بورسعيد، وعلم بنوايا عرابى حيال القناة ، فكتب إليه تلغرافاً فى ١٤ يوليو يستعلم فيه عن مركز القناة بالنسبة للحركة الحربية . فأجابه عرابى فى التاريخ المذكور قائلا : بأنه يعتبر القناة من المنافع العمومية الدولية ، ولذلك فانه لا يتعرض لها بضرر ، اذا أمكنه ( دولسبس ) منع المراكب الحربية الانجليزية من خرق حرمة الحياد ، وامتهانها لقانون الشركة بدخول القناة، وإلا فسيضطر لأن يقابلهم بالمثل

فرد عليه فى التاريخ المذكور تلغرافياً ، بأنه يضمن ويتكفل بمنع الانجليز من اقتحام القناة ، ما دام فيه عرق ينبض

ولم يكتف دولسبس بذلك ، بل غادر بورسعيد الى القاهرة لمقابلة عرابى ، وأقسم له بشرفه أنه سيقوم على حراسة القناة ، وسيكفل حيادها التام ، لأنه اتفق مع الحكومة الفرنسية على وقف قواها لحفظ ذلك الحياد ، وأنها مصممة على أن تحول دون اجتياز العساكر الانجليزية لها ، ونزولها الى البر ، مهما كلفها ذلك . فاغتر عرابى بهذه الوعود، ووثق بها ، وصرف اهتمامه الى حصر المقاومة العسكرية فى جهة كفر الدوار ، وعدل عن نسف القناة وتحصين منطقة السويس ، اعتماداً على حيادها

واستغل الجنرال ولسلى ذلك الظرف . فصمم على مهاجمة العرابيين من هذه المنطقة وأمر الأسطول باجراء مناورة بحرية لمخادعة العرابيين

وكنا نرقب حركة هذا الأسطول ، فوجدنا بعض السفن تغادر ميناء الاسكندرية متجهة الى أبى قير ، ولكنا شاهدناها تتحول فى المساء الى جهة بورسعيد

ولما كانت أخبار الحركات العسكرية هنالك ترد إلينا تباعا ، ونحن فى سراى رأس التين ، علمنا أن مركباً انجليزياً مسلحاً دخل القناة فى صباح ١٩ أغسطس ، واضطر السفن الراسية فيها الى الخروج منها

ولما اعترض دولسبس على خرق حياد قناة السويس ، لم يقف الأميرال هوسكس عند اعتراضه ، وأجابه بأن مياه بورسعيد وبحيرة التمساح من المياه المصرية ، وأن العلم المصرى يخفق على المدينة ، وأنه مصرح له من الخديو بأن يحتل جميع المواقع التى يرى احتلالها لازماً للتمكن من قمع الثورة العرابية

وفى مساء ذلك اليوم ، جاءتنا الاخبار باحتلال الانجليز لمدينة الاسماعيلية ، واطلاق المدرعات الانجليزية مدافعها على العرابيين فى نفيشة

وهكذا تم للجنود الانجليزية الاستيلاء على القناة بلا كبير مقاومة

وقد صرح دولسبس فيما بعد ، بأن وعوده لعرابى كانت من خوفه أن ينزل العرابيون ضرراً بالقناة ، فلما رأى ان القوات الانجليزية كافية لحمايتها من كل خطر ، اطمأن باله وكف عن المعارضة

**القتال فى منطقة القناة .** ظـــل الجيش الانجليزى جادا فى قتال العرابيين

ومطارداتهم جهة القناة ، لأنهم كانوا قد قطعوا المياه العذبة عن الاسماعيلية وبورسعيد والسويس ، بواسطة سد على الترعة الحلوة أقامه محمود باشا فهمى

وكانت طلائع جيش عرابى مؤلفة من متطوعى العربان ، الذى لايهمهم من الحرب الا ان تتاح لهم فرصة النهب والسلب ، وكان منهم جماعة من المنتمين لسلطان باشا ، فاستمال أفرادا منهم إلى جانبه ، وعهد اليهم بتوزيع اعلان الباب العالى الخاص بعصيان عرابى مع المنشورات الخديوية ، والتجسس على العرابيين والحصول على أخبارهم وتعريف سلطان باشا بها ، لارسالها بالبرق إلى سراى رأس التين. فاندسوا بين الضباط العرابيين خفية وقاموا بمهمتهم . وقد علمنا أنه وصل إلى عرابى وهو فى معسكره، نسخة من اعلان الباب العالى فاطلع عليه عبدالله نديم وأشار هذا بنشره فى جريدته مع الاحتجاج عليه ، ولكن عرابى آثر اخفاء خبره

ولما علم عرابى بذيوع الاعلان السلطانى والمنشورات الخديوية بين جيشه فى التل الكبير، جمع الضباط لاستطلاع آرائهم فيما يجب اتخاذه ، فقررت الأغلبية الاستمرار فى الدفاع عن البلاد . وكان هذا القرار ضرباً من المجاملة فقط . أما الحقيقة، فهى ان الضباط كان قد استولى الوهن على عزائمهم على أثر ما قرأوه وعلموه . ومنهم من انضم إلى الجيش الانجليزى عملا بارادة الخديو واذعانا لأمره (١)

وعلمنا ان العرب الذين كانوا فى مقدمة العرابيين فى نفيشه ما كادوا يواجهون الجنود الانجليزية الزاحفة عليهم ، حتى دب الفزع إلى قلوبهم وولوا الادبار ، فكانوا سبباً فى انهزام مقدمة الجيش العرابى

وقرأنا فى التلغرافات الواردة للمعية يوم ٢٣ أغسطس انه بينما كان العرابيون يقيمون الاستحكامات بجوار المسخوطة دهمهم الانجليز ، وكانوا يريدون قطع خط الرجعة عليهم ، فشب القتال بين الجيشين ورجحت كفة الانجليز ، واستولوا على بعض المواقع رغم كثرة العربان ، وكادوا يدركون غرضهم ، لولا أن وصل مصطفى باشا فهمى بالجند لانجاد راشد باشا حسنى(٢) قائد هذه المنطقة ، فحمل على الانجليز حملة صادقة

---

(١) ومن ذلك أن أربعة من الضباط المصريين الذين كانوا فى خط أبى قير ، استأمنوا وتوجهوا الى قائد الفرقة الانكليزية . فأتى بهم الى سمو الخديو وأعلنوا خضوعهم فى ١٠ سبتمبر

(٢) كان راشد باشا حسنى من اشهر قواد الجيش المصرى وقد أبلى بلاء حسناً فى الوقائع الحربية التى خاض غمارها فى حروب الدولة العلية مع أعدائها فى ذاك الوقت على رأس الفرقة التى كان يقودها فى زمن الخديو اسماعيل .

واجلاهم عن المواقع التى احتلوها ، ولكن عاد الانجليز فهجموا عليه واضطروه الى الجلاء عن تلك المواقع واحتلوا المخفر فى ٢٤ اغسطس

وكان محمود باشا فهمى ناظر الاشغال ، قد وصل إلى ساحة القتال فى أثناء انهزام العرابيين ، ليراقب السدود التى وضعها على الترعة الحلوة ، فوقع أسيراً فى أيدى الانجليز ، وأرسلوه الى الاسكندرية ، حيث رأيناه سجيناً فى سراى رأس التين، فأمر الخديو بارساله إلى المحافظة لاقامته بها ، وأوصى بحسن معاملته ، وكان ذلك فى يوم أول سبتمبر



راشد حسنى باشا

ولكن علمنا بعد ذلك من الاخبار التى وردت من العاصمة على لسان الذين تمكنوا من الرجوع إلى الاسكندرية ، ان العرابيين اذاعوا فى البلاد انباء كاذبة، زعموا فيها انهم انتصروا على الانجليز وهزموهم شر هزيمة فى جهة القناة

ثم تقدمت القوات الانجليزية واستولت على المسخوطة فى ٢٥ اغسطس استولت على المحسمة والقصاصين فى ٢٦ منه ، وازالت السدود التى وضعت لمنع وصول المياه الحلوه إلى منطقة القناة

وفى ٢٨ أغسطس ، هجمت قوة كبيرة من العرابيين على الجنرال جراهم لاسترداد موقع السدود و القصاصين وهددت جناحه الأيمن ، وأوشكت أن تبلغ غرضها ، ولكن الجنرال تلقى نجدة مكنته من الحملة على العرابيين ، وارغامهم على التقهقر بعد تكبدهم خسائر عظيمة تقدر بنحو أربعة آلاف قتيل فى الموقعتين ، وكانت الجند الهاربة تلقى بنادقها فى التّرعة الحلوة .



جلادستون

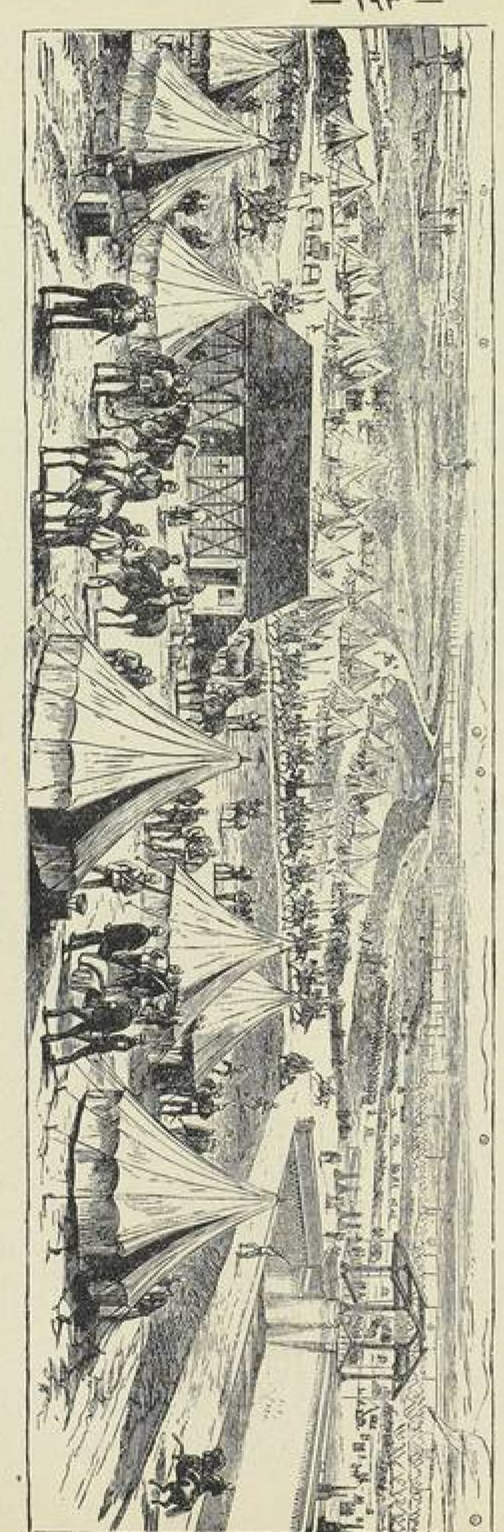
**تصريح جلادستون** . وقد اهتم مجلس العموم البريطانى بطبيعة الحال بحوادث مصر ، ففى يوم ٢٧ أغسطس طلب اللورد الكو والسير وولف توقيف الحركات العسكرية فى القطر المصرى ، والاقتصار على صون قناة السويس والمحافظة على حياة الخديو . وسألا عن غاية الحكومة البريطانية من أعمالها فى مصر ، فألقى المستر جلادستون رداً جاء فيه : — « مع انى اؤمل بأن المجلس لا يوافق على طلب زميلى المحترمين ، فانى لا أتأخر عن امتداح ميلهما لتأييد حرية الشعب المصرى . . و . . الخ الى ان قال :

« لا أرى بدا من اجابة زميلى على سؤالها ، عما إذا كانت حكومة جلالة الملكة ترمى إلى احتلال القطر المصرى إلى أجل غير محدود — فأقول ، ان هذه الفكرة لم تخطر لنا قط ببال « استحسان » وان أمراً كهذا مخالف لمبادىء ومقاصد الحكومة الانجليزية ومخالف لتعهداتنا أمام أوروبا ، ولمقاصد أوروبا نفسها « استحسان » » .

ولما قرأنا التلغرافات التى وردت بخلاصة هذه المناقشة اطمأننا نوعا إلى نيات الانجليز

**واقعة التل الكبير** . بعد ان تم للانجليز احتلال القناة ، والاستيلاء على القصاصين ، وإزالة السدود التى أقامها العرابيون على الترعة الحلوة ، وضعوا خطة الهجوم على التل الكبير . وكان عرابى قد نقل إليها معظم قواته التى كانت فى كفر الدوار . وقد تلقى الانجليز المعلومات اللازمة عن مواقع العرابيين ، وعلموا أن جيشهم مختل النظام تنقصه الدربة ويعوزه كثير من المعدات الحربية والفنية ، حتى انه بلغنا بعد انكسار العرابيين ، ان محمود باشا البارودى ، قائد فرقة الصالحية ، لم يجد منظاراً يستخدمه للاستكشاف

ومما علمه الانجليز أيضاً أن العرابيين أهملوا الطريق بين الصالحية والتل الكبير ، وتركوه خالياً من نقط الدفاع ، فكان ذلك كله من العوامل التى مهدت السبيل لانتصارهم


معسكر الانجليز فى القصاصين

وبينما كنا فى سراى رأس التين ننتظر أخبار الجيش الانجليزى — وكانت قد انقطعت عنا منذ بضعة أيام — اذا بتلغراف من سلطان باشا الى الخديو ينبئه فيه، بتأهب الانجليز للزحف على التل الكبير. وقد أثر هذا النبأ فى نفوسنا تأثيراً عميقاً، حتى أننا لبثنا من بعده ليلتين فى منتهى القلق والجزع تتجاذ بنا عوامل اليأس والرجاء، منتظرين نتيجة هذا الزحف على أحر من الجمر.

وفى صباح ١٣ سبتمبر، وصل الى السراى تلغراف آخر من سلطان باشا يقول فيه :— « انه حصل الهجوم على استحكامات التل الكبير فى فجر ذلك اليوم، وأن القتال كان قصيراً، ولم يطل أكثر من عشرين دقيقة، وأنه أسفر عن انهزام العرابيين شر هزيمة بعد أن قتل منهم ألفان، وأسر مثل هذا العدد، وأن الغنائم كثيرة »

وما كاد هذا الخبر يذاع فى الاسكندرية حتى هرع الى سراى رأس التين جمهور كبير من كبار المصريين والأجانب ، لتهنئة الخديو بانخذال العرابيين . وقد رأيتهم بنفسى محتشدين فى فناء الطبقة العليا من السراى ، وهم يهتفون لسموه وللانجليز . وقد بلغ التحمس والسرور ببعض الأجانب أنهم كانوا يخلعون قبعاتهم ويقذفون بها الى السقف ابتهاجاً بهذا الانتصار .

أما توفيق ، فعلى الرغم من أنه كان يعلم أن انكسار العرابيين يؤول الى توطيد عرشه ، فقد عز عليه أن يتم له ذلك على يد الأجانب ، وعلى حساب بلاده ومذلة شعبه . وقد كان سموه من الأمراء الذين تصبو نفوسهم الى عروش وطيدة الأركان ، ولكن مدعمة بحب الرعية وولائها ، وليس الى عروش واهية ، قائمة على رءوس الأسنة وشفا السيوف . ولذا كان الارتياح الذى بدأ على محياه بانهزام العرابيين مشوباً بالحزن . وكانت الدموع التى تساقطت من عينيه ساعة ورود البرقية معبرة عن شعوره أصدق تعبير .

وتفيد التفاصيل التى وردت على السراى فى صباح اليوم التالى ، أن الانجليز علموا فى مساء ١٢ سبتمبر ، بواسطة عيونهم ، أن العرابيين منصرفون الى إقامة الأذكار ، فرأوا ، بعد طول الانتظار ، أن الفرصة سانحة لمداهمتهم تحت جنح الظلام ، فتربصوا حتى منتصف الليل ، ثم زحفوا لقتالهم بأحد عشر ألفاً من البيادة وألفين من السوارى وستين مدفعاً ، وكان فى مقدمة جيشهم بعض ضباط أركان حرب من المصريين ، وكذا جماعة من عرب الهنادى . وكان جيش العرابيين مؤلفاً من عشرين ألفاً من البيادة ، وألفين وخمسمائة من السوارى ، وستة آلاف من العربان ، وكان مجهزاً بسبعين مدفعاً .

وبدأ الزحف من القصاصين فسار الانجليز دون أن يشعر بهم محمود باشا سامى البارودى قائد فرقة الصالحية ، فلم يلقوا أية مقاومة لا من جانبه ولا من جانب مقدمة العرابيين ، التى يقودها على بك يوسف (خنفس) ، وكان عرابى كلفه أن يوافيه بالأخبار يوماً فيوماً عن حركات الانجليز ، فبعث إليه فى ١٢ سبتمبر يقول : — « إن السكون سائد فى معسكرات العدو » ، فاغتر عرابى بذلك وأصدر أمره الى الجيش بالتزام الراحة ، فصرف الجنود ليلتهم فى الأذكار تحت إشراف الشيخ عبد الجواد ، الذى كان مشهوراً بالورع والتقوى

وما برح الانجليز يتقدمون والعرابيون فى غفلة عنهم مستغرقين فى نومهم ، حتى بلغوا استحكامات التل الكبير ، فأمطروهم وابلا من الرصاص ، فاستيقظوا

مذعورين وولوا الأدبار لا يلوون على شيء ، تاركين أسلحتهم وذخائرهم ، ولم يتخلف إلا السودانيون فانهم هبوا من مرقدهم للدفاع عن أنفسهم ، واستماتوا فى القتال حتى فنوا عن آخرهم

ومن التفصيلات التى وردت الى السراى أيضاً ، أن عرابى قد استيقظ على قصف المدافع ، فخرج من خيمته مستطلعاً ولما شهد الفشل الذى حل بجيشه ، حاول أن يستوقف الفارين ويستفزهم الى القتال والدفاع ، ولكن الذعر كان قد دب فى قلوبهم فعندئذ لجأ عرابى الى الفرار لينجو بنفسه ، فامتطى جواده مصحوباً بعبد الله نديم ، وتوجها الى الزقازيق ومنها الى أبى حماد ، حيث ركبا القطار الى القاهرة ، ولم يستطع الفرسان الانجليز إدراكهما .

ومن المضحكات المبكيات ، أن صديقى المرحوم البمباشى حسن رضوان ، قومندان الطوبجية فى استحكامات التل الكبير ، أخبرنى أنه فى مساء ١٢ سبتمبر دخل عليه فى الطابية أحد أرباب الطرق الصوفية وبيده ثلاثة أعلام ، وتقدم الى أحد المدافع فرفع عليه أحدها وقال : ـ هذا مدفع السيد البدوى . ثم انتقل الى مدفع آخر فوضع عليه علما ثانياً وقال : ـ إنه لسيدى ابراهيم الدسوقى . ثم الى مدفع ثالث وقال : ـ إنه مدفع سيدى عبد العال . قال صديقى : ـ ولكن لم يمر على ذلك بضع ساعات ، حتى صارت هذه المدافع لولسلى ! !

وقسم الجنرال ولسلى جيشه الى قسمين اقتفيا أثر الفارين ، أحدهما سلك طريق الزقازيق ، والثانى سلك طريق بلبيس

ثم أمر جنوده بالمحافظة على القوة التى كانت محتمية فى الطابية الرئيسية على شمال خط استحكامات التل الكبير ، إذ بلغه أن فيها ضابطاً فرنسياً ، فلما وصل إليها سأل عن هذا الضابط وعن قائد الطابية ، فأجاب حسن رضوان بأن ليس فيها ضابط فرنسى ، وأنه هو نفسه الذى يتولى قيادة حاميتها ، فدهش الجنرال لجوابه هذا وسأله : ـ أين تعلمت الفنون العسكرية . فأجاب : ـ فى مصر . فقال : ـ وهل عندكم من المعلمين من حذق الفنون العسكرية الى هذه الدرجة ؟ ـ فأجاب : ـ تعلمت على لارميه باشا الفرنسى

ثم سأله الجنرال عن المدافع التى استعملها الجيش الانجليزى فى هذه الواقعة ، فأجابه انها من نوع « ارمسترونج » ، وأنها تختلف عن المدافع التى استعملها هو . فأعجب

الجنرال به ، وترك له سلاحه . ولما كان حسن رضوان قد أصيب فى هذه المعركة بجروح بعد ان أبلى البلاء الحسن هو والمشاة السودانيون ، فقد أمر ولسلى بالاعتناء به وبمرؤوسيه من الضباط ، ونقل إلى خيمة خاصة ، عولج فيها مدة ثلاثة أسابيع إلى ان شفى وسافر إلى القاهرة (١)



حسن رضوان

**احتلال القاهرة** . فى ١٤ سبتمبر رفع شريف باشا الى الجناب العالى خطاباً موقعاً عليه من بطرس (باشا) غالى ورؤوف باشا ، يعلنون فيه خضوع الجيش وضباطه لسموه . ثم ورد خطاب آخر منهما ، وفيه انهما قدما إلى كفر الدوار فى طريقهما إلى الاسكندرية ، لتقديم الطاعة لسموه بالنيابة عن سكان العاصمة . فأمر الجناب العالى أحد رجال معيته بموافاتهما إلى كفر الدوار ، ومرافقتهما إلى سراى رأس التين ، حتى تسمح لهما القوات الانجليزية هناك بالمرور

وقد علمنا عند وصولهما إلى السراى ، أنه لما جاء عرابى إلى القاهرة بعد فراره من التل الكبير ، عقد المجلس العرفى فى قصر النيل ، وأخبره بانهزام الجيش ، وطلب إليه أن يبدى رأيه فى مواصلة القتال أو التسليم . فاستقر الرأى على المقاومة ، وألح الأمير احمد كمال عليه فى ذلك . ولكن هذا القرار كان مجاملة فقط لعرابى ، إذ كانوا يستشعرون منه الميل الى الاستمرار فى الدفاع

على ان عرابى ما كاد يصل إلى العباسية مع مرعشلى باشا وغيره من الضباط ، لاختيار

---

(١) ولم يكن ذلك أول عهد الطوبجية المصرية باحكام الرماية . فان ما ابدته من ضروب المهارة وتسديد المرمى فى حرب الترك مع الروس قد رفعها فى نظر رجال الفن العسكريين الى مصاف المدفعيات الأوروبية الحديثة . ولما سأل الطبيب الذكر بشاره تقلا الجنرال ولسلى بعد دخوله العاصمة عن رأيه فى الجيش المصرى أثنى على الطوبجية وقال : — انها تكاد تضارع الطوبجية الأوروبية .

المواقع الملائمة للدفاع ، حتى تجلت له الحقيقة ، وعلم أن باطن القوم غير ظاهرهم . ولقد خاطبه خليل بك يكن أحد كبار الضباط بجفاء ، فقال له :ـــ « إنك بجهلك وسوء تصرفك أحرقت الاسكندرية ، وأرقت الدماء ، فهل تريد الآن أن تحرق العاصمة ، وفيها أطفالنا ونساؤنا وأملاكنا وأرزاقنا !! إعلم أن لا أحد من إخوانى الضباط يوافقك على خطتك ، وثق بأنك لاتجد منا مساعدة ، فكفى ماحاق بنا وبالبلاد من المحن والبلايا »

والتفت عرابى إلى الضباط فاذا ملامحهم تنطق بما يدل على موافقتهم على كلام زميلهم ، فأيقن أنهم خذلوه وعاد كئيباً يائساً . ثم اجتمع ببعض أصدقائه وتباحث معهم فى الأمر . فاستقر الرأى على التسليم ، ورفع العريضة التى أشرنا إليها بواسطة بطرس ( باشا ) غالى ورؤوف باشا .

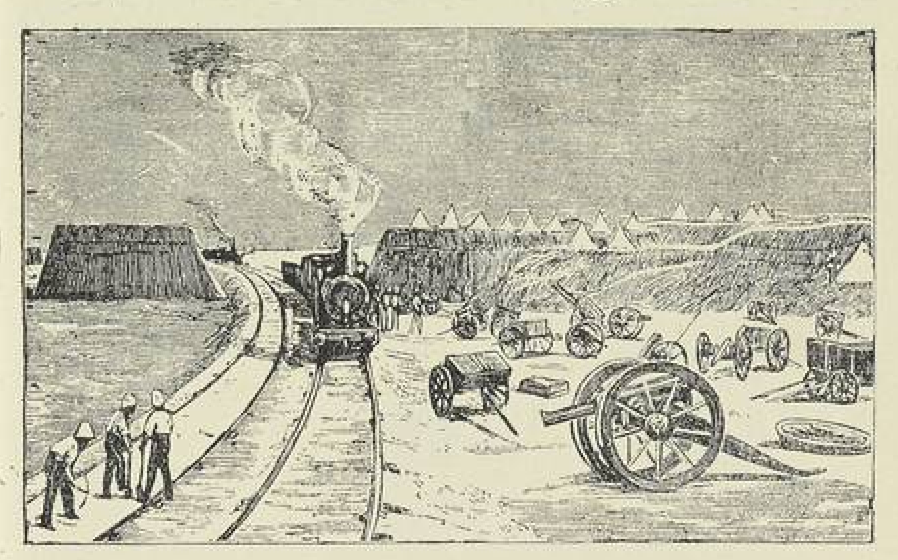
وفى يوم ١٤ سبتمبر ، علمنا أن الفرسان الانجليز وصلوا إلى العباسية بقيادة الجنرال درورى لو



سير درورى لو

وفى يوم ١٥ منه ، دخل الجنرال ولسلى العاصمة ، ونزل فى سراى عابدين مع أركان حربه ، بأذن الخديو ، ثم لحقت به فرق الجيش تباعاً ، وبذا تم الاحتلال البريطانى لمصر

أما فى كفر الدوار وغيرها من مراكز الدفاع ، فانه لما شاع خبر انهزام عرابى واندحار جيشه فى التل الكبير ، انفرط عقد الضباط وتخلوا عن مراكزهم ، وطرح الجنود أسلحتهم ، وولوا هاربين إلى بلادهم . وتوجه الجنرال « وود » مع أركان حربه إلى عزبة أصلان ، أول معسكر العرابيين ، وصحبهم إليها بعض الضباط المصريين موفدين من لدن الخديو ، ومن ضمنهم صديق ( المرحوم ) محمد نسيم بك . فخضع لهم من لم يكن قد ترك مركزه من ضباط الموقع ، وسلموا أسلحتهم ، وأمر الجنرال وود بنسف الاستحكامات ، وجمع الأسلحة المبعثرة التى تركها الجنود قبل فرارهم



السير إفلين وود بكفر الدوار

وعلى هذا المنوال ، تم إخضاع الجيش العرابى ماعدا حامية دمياط ، وكانت تحت قيادة عبد العال حلمى ( أبو حشيش ) ولم يكن يعلم ان التل الكبير قد سقط فى أيدى الانجليز ، فحاول المقاومة ، ولكنه عاد فأيقن ان العاقبة ستكون وبالا عليه ، إذ يعاقب رمياً بالرصاص ، فاستسلم يوم ٢١ سبتمبر إلى الانجليز وتخلى لهم عن القلعة

أما محمود باشا سامى البارودى ، فقد خطر له بعد هزيمة التل الكبير أن ينتقل بجيشه إلى الصعيد ، حتى إذا عجز عن الدفاع فيه لجأ إلى السودان . ولكن عرابى لم يوافقه على هذا الرأى

# الفصل الثامن

## تصفية الثورة العرابيـــة

**القبض على زعماء الحركة . قومسيونات التحقيق والمحاكم العسكرية . محاكمة زعماء الثورة وتدخل الانجليز . وصية عرابى السياسية . تعليقات على المحاكمة . أقوال المستر بلانت . الغاء قوانين عسكرية صدرت فى زمن العرابيين . أحكام صادرة ضد العسكريين والملكيين المنتمين للعرابيين وتشكيل قومسيونات أخرى . محاكمة سليمان داوود وزملائه . المؤامرة الوطنية .**

---

**القبض على زعماء الحركة .** لما استسلم الجيش وخضع ضباطه ، صدرت الأوامر بالقبض على العرابيين من ملكيين وعسكريين ، وسجنوا فى القلعة وأماكن أخرى

أما عرابى ، فقد أمر الخديو مأمور ضبطية القاهرة ابراهيم بك فوزى بالقبض عليه وتسليمه للانجليز . فنفذ ما أمر به ، وأحضر عرابى الذى قام بتسليم سيفه الى القائد « درورى لو » بالعباسية ثم شرع فى إلقاء خطاب ، فقاطعه القائد بقوله إنه غير مأذون بأن يفتح معه مخابرة سياسية ، وأن واجباته كانت بحسب أمر سمو الخديو أن يلقى القبض عليه كأسير . وكان ذلك فى يوم ١٥ سبتمبر

وفى الوقت نفسه قُبض على طلبه عصمت وجرد من سيفه بيد القائد المذكور وأودع مع عرابى ومحمود سامى قشلاق عابدين فى انتظار المحاكمة

وبعد القبض على زعماء الحركة اهتمت الحكومة بتصفية الثورة العرابية ، وكان أول عمل لها فى هـــذا الباب الغاء جيش عرابى فصدر الامر بذلك فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢

**قومسيونات التحقيق والمحاكم العسكرية** . وفى يوم ١٩ سبتمبر أيضا صدر دكريتو بتشكيل قومسيون بالاسكندرية ، تحت رياسة عبد الرحمن رشدى بك للتحقيق فى حوادث القتل والنهب والحريق التى وقعت يوم ١١ يونيو ، ومحاكمة الأشخاص الذين كانت لهم يد فى الحوادث التى وقعت بين ١١ و ١٦ يوليه

وفى نفس التاريخ المذكور صدر دكريتو آخر بتشكيل قومسيون مخصوص بطنطا تحت رياسة محمود حمدى الفلكى باشا للتحقيق فى حوادث القتل والنهب التى حصلت بطنطا والمدن المجاورة لها

وفى ٢٨ منه ، صدر أمر عال بتشكيل قومسيون مخصوص بالقاهرة تحت رياسة اسماعيل أيوب باشا ، لتحقيق وإقامة الدعوى على كل من ارتكب جريمة العصيان أو التعدى على السلطة الخديوية ، أو الاهانة للذات الخديوية

وفى التاريخ المذكور صدر الأمر بتشكيل محكمة عسكرية بمصر تحت رياسة محمد رؤف باشا ، للحكم فى الدعاوى التى تقدم إليها من القومسيون المخصوص السالف الذكر .



اسماعيل أيوب باشا

وفى اليوم نفسه صدر دكريتو بتشكيل محكمة عسكرية بالاسكندرية ، تحت رياسة عثمان نجيب باشا ، للنظر والحكم فى الدعاوى التى تقدم إليها من قومسيونى الاسكندرية وطنطا على أن تكون أحكام المحكمتين العسكريتين نهائية ولا ترد . وقد صدر أول حكم من محكمة الاسكندرية فى يوم ٥ أكتوبر باعدام محمود احمد بائع العرقسوس الذى ثبت عليه القتل فى مذبحة الاسكندرية

وقد تشكلت قومسيونات أخرى سنوردها فى تواريخ تشكيلها

**محاكمة زعماء الثورة وتدخل الانجليز** . فى يوم ٤ اكتوبر نقل عرابى وزملاؤه من قشلاق عابدين محاطين بالجنود الانجليزية إلى محل ديوان الدائرة السنية (١) فى شارع قصر النيل استعداداً للتحقيق معهم .

وفى يوم ١٠ اكتوبر ابتدأ القومسيون المخصوص بالقاهرة فى التحقيق مع عرابى وزملائه وهم محمود سامى البارودى وعبد العال ( ابو حشيش ) وعلى فهمى وطلبه عصمت ومحمود فهمى ويعقوب سامى . واستمر التحقيق معهم إلى يوم ١٦ اكتوبر ، وكان قد أوشك أن يتم لولا أن تغير موقف الانجليز تجاه الحكومة المصرية وبدأت تظهر نواياهم، وأخذت أيديهم تمتد إلى شئون مصر الداخلية، فاستهلوا أعمالهم بأن كلفوا قنصلهم العام السير مالت تبليغ الحكومة المصرية بأن حكومة الملكة تطلب أن يكون المحامون عن عرابى ورفاقه انجليزاً، وأن يراقب سير المحاكمة ضابط انكليزى كبير . فرفضت الحكومة المصرية هذا الطلب وأعلنت الحكومة الانجليزية، بواسطة مالت ، أن مسألة الدفاع عن عرابى وزملائه بواسطة محامين من الانجليز لايمكن الموافقة عليها ، وإلا فالأفضل للحكومة المصرية أن تسلم المتهمين لحكومة انجلترا الحربية . واستمرت المخابرات دائرة بين الحكومتين تلغرافيا بهذا الصدد حتى فوجئنا بتلغراف فى صورة إنذار بعث به اللورد جرنفل الى الحكومة المصرية وفيه ما يأتى :—

« ليس هذا أوان ظهور الحكومة المصرية بمظهر المعارضة والممانعة . وإن استمرارها على الأباء يعرضها للفشل والخطر ، ولا تكون هذه النتيجة مقتصرة على النظارة وحدها بل تتناول مركز الخديو نفسه ، واذا لم تقبل الحكومة المصرية طلب الحكومة الانجليزية، فلا يسعها أن تتحمل تبعة ما يترتب على رفضها من النتائج السيئة بعد انقضاء ثمانية أيام على هذا الانذار »

دهشت البلاد لهذا الانذار ، لأن الذى كان سائداً فى الأذهان إذ ذاك ، أن الانجليز إنما قدموا لتأييد الخديو لا لأضعافه ، فلم يسع الحكومة المصرية إزاء هذا التهديد إلا أن تجيب الطلب ، وتوافق على اختيار برودلى ونابيير محامين عن عرابى ، واضطر رياض باشا الى الاستقالة من نظارة الداخلية ولكنه استمهل

---

(١) أعد مكان الدائرة التى انتقلت الى مكان آخر ليكون مخفراً للانجليز . وتشغله مصلحة التجارة والصناعة الآن .



برودلى المحامى



نابير المحامى

وأخذ التحقيق مجراه فى يوم ٢٥ اكتوبر بحضور محامي عرابى . ثم أحيلت الأوراق الى المحكمة العسكرية وأرسل هو وزملاؤه الى سجن مصر وظلوا به حتى ميعاد محاكمتهم

وفى صباح ٣ ديسمبر الموعد المحدد للمحاكمة اجتمعت هيئة المحكمة العسكرية ، بالملابس الرسمية والنياشين ، تحت رياسة رؤوف باشا وبحضور السير شارلس ولسون وبعض الانجليز ومندوبى القنصلية الأنجليزية العامة والجنرال اليزون وبعض مكاتبى الجرائد الأجنبية

وأمر الرئيس باحضار عرابى فمثل أمام المحكمة ، فوجه إليه ما يأتى : —

« يتبين مما أوضحه مجلس التحقيق أنك عصيت وحملت السلاح ضد الحضرة الخديوية ، فكنت بذلك مضاداً البند ٩٦ من القانون الحربى العثمانى والبند ٥٩ من

قانون الجنايات العثمانى . فهل تعترف أنت بنفسك بهذا العصيان ؟ »

فوقف برودلى محاميه وقال باللغة الفرنسية :— « ان موكلى اعترف بارتكابه العصيان وأنا المحامى عنه أصدق على ذلك وإليكم اعترافاً كتابياً منه بهذا الشأن » وبعد ذلك رفعت الجلسة على أن تستأنف انعقادها بعد الظهر

وفى الساعة الرابعة مساء استؤنفت الجلسة ، ووجه الرئيس الى عرابى ما يأتى :—

« بناء على اعترافك بالعصيان واقرارك بحملك السلاح ضد الحضرة الخديوية ، لم يكن للمحكمة إلا أن تصدر باتفاق الآراء ، وعملا ببندى ٩٦ و ٥٩ من القانون العثمانى ، اللذين يقضيان على من أتى العصيان بالاعدام ، فالمحكمة قضت بقتلك »



عرابى أمام المحكمة العسكرية

ثم أردف الرئيس ذلك بتلاوة الأمر الخديوى باستبدال القصاص المذكور بالنفى المؤبد من جميع أراضى مصر وملحقاتها ، فاذا عاد إليها ينفذ فيه الحكم ( الاعدام )

وقد صدر الحكم من هذه المحكمة على زملائه بالاعدام واستبدل بعد ذلك بالنفى أيضاً ، واذا عاد أحدهم ينفذ فيه الحكم كذلك .

وصدرت الأوامر فى ١٤ ديسمبر بتجريدهم من رتبهم وأملاكهم وتصفيتها وجعل ثمنها تعويضاً للمصابين فى الحوادث التى وقعت بسببهم (١)

(١) فى ٣ يناير سنة ١٨٨٣ تشكلت لجنة التعويضات بأمر خديوى من سعادة عبد الرحمن بك رشدى ومندوبى فرنسا وانكلترا وايطاليا واليونان للنظر فى طلبات التعويض عن دماء القتلى والمصابين بسبب الثورة . وبدأت عملها فى ٦ فبراير

وفى يوم صدور الحكم على عرابى جدد رياض باشا استقالته الآتى نصها : —

« ان ما اعترانى من المرض اضطرنى الى ملازمة الفراش ، فبت غير متمكن من القيام بمهام وظيفتى ، وعليه فاننى أقدم استعفائى بين يدى سمو أميرى ومولاى ، وإنى له فى كل حال العبد الخاضع المتواضع » فقبلت الاستقالة .

وكان الخديو قد أريد على تعديل الحكم الصادر على عرابى وزملائه فوقع ذلك وقعاً سيئاً فى النفوس ولم تتمالك جريدة « اجبشيان غازيت » نفسها — وهى لسان حال الانكليز فى مصر — من المجاهرة بأن نتيجة محاكمة زعماء العرابيين جاءت مخالفة لمجرى العدالة . وقد اعتبرها الناس جميعاً ضربة قاسية للرأى العام (١)

**وصية عرابى السياسية** . ولما صدر الحكم على عرابى بعث إلى جريدة التيمس بوصيته السياسية ، وقد أملاها عليه المستر « برودلى » أحد محاميه ونصها : — « عملا بما أشار على به المحاميان اللذان توليا الدفاع عنى وهما المستر « برودلى » والمستر « نابيير » اللذان لا أستطيع أن أفيهما حقهما من الشكر لما بذلاه فى قضيتى من الجهود والاخلاص ، اعترفت امام القضاء بتهمة العصيان والخروج على الخديو ، كما أن وزراء انجلترا طالما صرحوا بعصيانى . وليس من المنتظر أن يعدلوا بغتة عن هذا الرأى ، وليس فى استطاعتهم أن يفعلوا ذلك الآن . وأنا أقبل بكل ارتياح أن اذهب إلى أية جهة تريد انجلترا أن ترسلنى إليها . وأن أبقى فى المكان الذى تعينه لى إلى أن يحل اليوم الذى تستطيع فيه أن تغير رأيها وتعيد النظر فى أمرى .

« ولست أشكو اليوم مما انتهى إليه أمرى ، ولا من الحكم الذى صدر على ، فانه يقرر على كل حال براءتى من تهم المذابح والحريق التى لم يكن لى يد فيها ، ولا تتفق مع مبادئى السياسية والدينية . وقد صار الأمر كله موكولا إلى الحكومة الانجليزية وإلى مكارم الشعب الانجليزى . وأنا أغادر مصر مع الثقة التامة فى حسن مصيرها ، لأننى أعتقد أن انجلترا صارت لا تستطيع أن تؤجل الاصلاحات التى قمنا للمطالبة بها ، وكافحنا من أجلها . ولا بد أن تبدأ بالغاء المراقبة الثنائية . ولا تترك حكومة مصر فى

---

(١) حتى ان بعض كبار الانجليز قال إن الخديو كان راغباً أشد الرغبة فى إعدام عرابى التى كانت محاكمته غاية فى السخف لأن جميع المسائل رتبت سراً معه على انه إذا اعترفت أمام المحكمة بأنه مذنب فان الحكومة البريطانية تتعهد بألا تسلمه للحكومة المصرية وبأن تنفيه مع أسرته إلى مستعمرة بريطانية .

أيدى الألوف من الموظفين الاجانب وتحرم أبناءها من ادارة شئونها . ثم تطهر المحاكم الأهلية من أوضارها وتضع القوانين والمشروعات اللازمة لنظام الادارة ، وأهم من وضعها مراقبة تنفيذها . ثم يشكل مجلس للنواب يكون له حق الاشتراك فى إدارة شئون الأمة المصرية ، ويمنع المرابون من الانتشار فى قرى الفلاحين . فاذا تمت كل هذه الأمور وعادت على مصر بالتقدم والعمران وجب على الشعب الانجليزى أن يعترف بأنى كنت محقاً فى الخروج والعصيان . »

« ولما كنت من أبناء الفلاحين الذين يحبون بلادهم ، فقد بذلت ما فى وسعى وامكانى لاجراء هذه الاصلاحات ولكن لسوء حظى لم يتح لى أن تتم على يدى ، وأملى عظيم فى ان الحكومة الانجليزية ستقوم باتمام ما بدأت به . فاذا أدت انجلترا هذه المهمة واستخلصت مصر للمصريين وضح للعالم جلياً ما هو الغرض الجليل الذى كان عرابى العاصى يسعى اليه . »

« إن جميع المصريين كانوا فى جانبى ، كما أننى وقفت نفسى على خدمة بلادى التى لن انحول عن حبها إلى نهاية حياتى . فلذلك أرجو ألا تفتأ مصر تذكرنى عند ما يتسنى لانجلترا أن تتم العمل الذى حاولت الشروع فيه . وانى لا أزال اكرر القول بانى غير حزين لما وصل اليه أمرى ، بل أرانى مغتبطا مسروراً لاعتقادى بان ما حل بى من سوء العاقبة كان من البواعث لحصول مصر على ما هى أهل له من الحرية ورغد العيش . فاذا اتمت انجلترا هذا العمل الجليل كنت على يقين بانها لابد ان تسمح لى بالعودة إلى وطنى المحبوب ، لما جبلت عليه من حسن الشعور الانسانى ، وحب الانتصار للعدالة ، حتى أرى بعينى رأسى ، قبل أن ينقضى أجلى ، نتيجة اعمالها فى خدمة الانسانية . »

« هذا وانى أشكر اليد البيضاء التى أسداها الى المستر جلادستون واللورد جرانفل بحسن وساطتهما فى امرى ، حيث انقذانى من حالة الخطر التى كنت فيها . كما انى اشكر اللورد دوفرين والسير ادوارد مالت لما ابدياه من العطف على . اما صديق المستر بلانت فانا عاجز عن ايفائه حقه من الشكر لما بذله لأجلى من جاهه وماله ، وما ساعدنى به فى ساعة الشدة والحاجة التى تحول فيها عنى اصدقائى المصريون واحد بعد الآخر . »

« وأنا عاجز أيضاً عن إيفاء حق الشكر للمستر « برودلى » فقد أولانى نعمة الخلاص والنجاة بفضل اجتهاده وصدق عزيمته ، وكذلك المستر نابير . وبالجملة اشكر للامة الانجليزية كلها عطفها على ، وأشكر لكم ياسيدى المحرر وكبار محررى الصحف الانجليزية ماتفضلتم به من الاجماع على المطالبة بالعدالة فى محاكمتى . »

« وأختم القول بانى على ثقة بان حقنا سيظهر جلياً فيما تعرضنا له مع مرور الزمن. وان انجلترا لا تندم أبداً على ما أبدته من الكرم والانسانية مع رجل كانت قد قصدت فى أول الأمر محاربته »

من سجن القاهرة ٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ؟ أحمد عرابى المصرى

هذه اللهجة التى اتخذها عرابى فى وصيته الى جريدة التيمس ، هى نفس اللهجة التى كانت تدور على ألسن الساسة الانجليز فى خطبهم وأقوالهم . وبعد ان كانت علة تدخل انجلترا فى مصر هى حماية الخديو من ثورة الاهالى ، انقلبت إلى النقيض ؛ أى إلى حماية الاهالى من سلطة حكامهم وأمرائهم ، ووجوب اجراء الاصلاحات التى تشير بها انجلترا وتراقب تنفيذها بنفسها ، حتى تصير مصر للمصريين ، ويحكم المصريون انفسهم بانفسهم !!؟ (١)

**تعليقات مكاتب التيمس** وقد قرأت فى ذلك الحين ما بعث به مراسل التيمس إلى جريدته عن عرابى فى اثناء محاكمته قال : —

« تقررت إدانة عرابى فى كل الحوادث التى وقعت قبل طلب العفو من سمو الخديو ، على انه متمسك كل التمسك ان كل اعماله بعد ذلك كان رائدها الاستقامة والاخلاص لسمو الخديو ، وهو يصور نفسه كأن الأمة كانت تدفعه فى تيارها إلى الأمام ، فاذا اعترض عليه بما وقع من الأعمال المنكرة أجاب أولا بالانكار ، ثم طلب العفو والسماح ، وأخيراً حاول تبريرها . واذا سئل عن رغبته فى خلع الخديو أنكر ، فلما ألحوا عليه وأدلوا اليه بالبرهان قال : — انى لا اتذكر ذلك . ولما سئل عن السجناء الثمانمائة الذين وجدوا فى سجن القاهرة عند ما دخلها الانجليز ، أجاب بان السجناء على ظنه كانوا مائة فقط ولم يحكم هو عليهم بل حكمت عليهم محاكم قانونية . . . فأروه صورة السؤال الذى عرض على العلماء بشأن الخلع . فقال إنه لا علم له به . فقيل له : — ان معتمدى الانجليز وجدوه هناك . فقال : — لا بد أن واحداً وضعه بدون علمى . ثم أنكر تدخل عبد الله نديم معه كل الأنكار وقال : — انه لم يطالع قط جريدة الطائف .

ولم يظهر منه خلال المحاكمة أثر لحب الاستقلال والوطن والثبات فى الراى . واذا راجعت صحائف تقاريره فلا ترى فيها ما يشتم منه رائحة الغيرة على الشعب الذى طلب الزعامة عليه ، بل يلوح من خلالها أنه رجل يهيم فى بحر الأفكار لانقاذ حياته . وقد أقر منذ بداية التحقيق ان أول خطوة خطاها نحو العصيان انما كانت لهذه الغاية »

---

(١) اما عرابى واعوانه فبعد استبدال حكم الأعدام بالنفى المؤبد وقع الاختيار على جزيرة سيلان محلا لاقامتهم فنفوا اليها

وانى اترك للقارىء ان يحكم معى ان الحركة العرابية لم تكن فى الحقيقة حركة وطنية

**أقوال مستر بلانت** . وكان المستر ولفرد بلانت (١) هو أشد الناس عطفاً على عرابى أثناء المحاكمة وبعدها ، وأشد الناس تأيداً لقضيته . ونرى أن نورد هنا بعض ما علق به على حوادث هذه المحاكمة .



المستر ولفرد بلانت

قال فى كتابه « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر » فى الفصل الخامس بمحاكمة عرابى ما يأتى :ـــ

« وقد رأيت من الضرورى ان اذكر تفاصيل المصاعب الأولى التى اعترضتنا فى سبيل محاكمة عرابى ، لانى لا يمكننى بدون ذلك أن أمحو أثر تلك الاسطورة التى فى مصر ، وخلاصتها ان كان هناك اتفاق سرى بين عرابى وجلادستون بأنه لن يعدم ، فنى استطاعتى أن أثبت بالوثائق التى تحت يدى ان جلادستون لم يكن ينظر إلى المتهمين بروح الرحمة ـــ دع عنك الاتفاق معهم ـــ بل بالعكس كان يجارى جرانفل فى السعى فى إعدام عرابى بواسطة الخديو . وذلك كان بايجاد محكمة تحاكمه محاكمة صورية لكى يبرروا غلطاتهم وتورطاتهم فى الستة الأشهر الماضية فى مصر . ولم يكن وخز الضمير هو الذى منع جلادستون من السير فى خطته إلى النهاية . بل ان صوت الجمهور الانجليزى هو الذى أخافه وأنذره بالخطر الذى يهدد شهرته إذا هو مضى فى طريقه إلى آخرها . . »

« ولما انتهى دور الخطر هذا لم يكن من الصعب ان يتنبأ الانسان بأن نتيجة المحاكمة ستكون سلبية . فان المحاكمة النزيهة فى محكمة علنية ووجود محام انجليزى ينبش بمجرفته اقذار الخديو ويكشف عن الجرائم المخبوءة ، كل هذا لم يكن مما يفكر فيه الخديو إلا وهو يرتجف خوفاً . ثم ان التحقيق العلنى هذا كان من شأنه أن يفسد على الحكومة

---

(١) المستر بلانت هو الذى ساعد فى استدعاء المحامى برودلى للمدافعة عن عرابى

الانجليزية تدابيرها ويفند نظريتها عن الحوادث الماضية التى بنت عليها معاذيرها لاتخاذ خطة العنف . ثم ان السلطان كان فى حاجة إلى عدم إفشاء سره »

ثم قال فى موضع آخر : —

« وفى أثناء ذلك كانت الأحوال تجرى على ما يرام . ففى ٢٢ أكتوبر أذن لبرودلى ونابيير ( محامي عرابى ) بأن يدخلا إلى غرفة عرابى وعرفا مما أخبرهما به كيفية تهيئة دفاع قوى عنه . »

« وكان موقف عرابى وهو فى الحبس مملوءاً بالوقار . لأنه مهما قيل عن شجاعته المادية كان على مبلغ كبير من الشجاعة الأدبية . وكانت هيئته وسلوكه لذلك عند مقابلتهما بسلوك المعتقلين الآخرين يلفتان النظر . فقد كتب دون أن يتردد تاريخ المسائل السياسية التى اشترك فيها بأجمعها ، وكانت روايته صريحة مقنعة ، ولم تكن صراحته دون ذلك أيضاً عند ما روى ضروب الاساءات التى عامله بها أولئك الاوغاد السفلة خدمة (١) الخديو توفيق الاتراك عند ما نقلوه من السجن الانجليزى الى السجن المصرى وطول مدة بقائه فى هذا السجن . »

**الغاء قوانين عسكرية صدرت فى زمن العرابيين** . فى اثناء محاكمة عرابى وزملائه أصدر الخديو أمرين فى ١١ اكتوبر يقضيان بالغاء الأوامر العالية الصادرة فى ٢٠ ابريل سنة ١٨٨١ و٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨١ الخاصة بمرتبات الضباط والصف ضباط والعساكر — وهى التى كانت قد صدرت أيام محمود باشا سامى البارودى — واعادة مرتباتهم إلى ما كانت عليه قبل هذين الأمرين ، وإلغاء قوانين الاعانة والضمائم والامتيازات العسكرية ، وتسوية حالة الضباط المستودعين ، مع تفويض ناظر الحربية والبحرية فى أن يطبق على رجال العسكرية أحكام الأمر الصادر فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٧٦ عن مصاريف انتقال الموظفين الملكيين لحين وضع قانون خصوصى عسكرى

**أحكام صادرة ضد العسكريين والملكيين المنتمين للعرابيين وتشكيل قومسيونات أخرى** . وفى ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٨٢ صدر الأمر بالعفو عن جريمة العصيان عن الملازمين الثوانى والأول واليوزباشية وتجريدهم من رتبهم وحرمانهم من كل حق فى مرتب الاستيداع ومعاش التقاعد

(١) خدمة الخديو هما حسين أغا الشماشرجى وابراهيم أغا التوتنجى

كما صدر أمر فى ٢١ ديسمبر بتجريد آخرين يقلون عنهم فى درجة الاتهام من رتبهم وألقابهم ومحو أسمائهم من دفاتر الضباط إلى الأبد . وكذلك صدرت أحكام تقضى بمراقبة بعض المتهمين داخل بلادهم مدداً تتراوح من سنة إلى خمس سنوات وغرامات مالية تتراوح مابين ثلاثمائة جنيه وخمسة آلاف جنيه . وصدر حكم على أمين الشمسى ( باشا ) بالمراقبة خمس سنين مع دفع غرامة قدرها خمسة آلاف جنيه مصرى



أمين الشمسى ( باشا )

وفى أول يناير سنة ١٨٨٣ أصدر الخديو أمره بتجريد الأشخاص الذين اشتركوا فى جريمة العصيان من جميع رتبهم وعلامات شرفهم وامتيازاتهم

وفى ٦ منه صدرت الأوامر بتشكيل ثلاثة قومسيونات مخصوصة فى طنطا والمحلة الكبرى ودمنهور لتحقيق ما وقع فى مدة الثورة العسكرية من حوادث السرقة والتعدى والنهب والهتك والقتل . وقد اختص قومسيون طنطا بنظر حوادث مديرية الجيزة ومديريات الوجه القبلى جميعها . وقومسيون المحلة الكبرى بالنظر فيما وقع بمديريات الدقهلية والشرقية والقليوبية والمحلة الكبرى . وأما قومسيون دمنهور فقد اختص بنظر ما وقع فى البحيرة والمنوفية

**محاكمة سليمان داود وزملائه** . وآخر من حوكم من العرابيين أربعة من الضباط[١] وسليمان داود[٢] المتهم باحراق الاسكندرية ، وكذلك السيد قنديل مأمور ضبطيتها بتهمة التقصير فى وظيفته ، وبث النفور بين الأهالى والأجانب

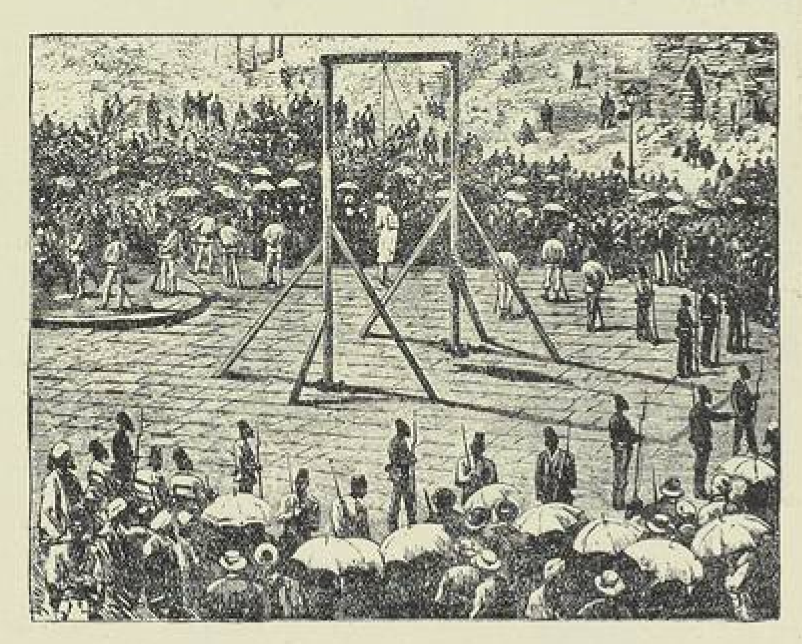
واستمرت محاكمتهم حتى يوم ١٠ يونيه حيث صدر الحكم على الأربعة الضباط بالسجن لمدد مختلفة ، كما حكم على السيد قنديل بالحبس لمدة سبع سنوات

---

( ١ ) الضباط هم البكباشيان فرج يوسف واحمد نجيب والصاغان على مظهر وعثمان خميس

( ٢ ) وكان قد هرب إلى جزيرة كريت وقبض عليه فى ٢ نوفبر وأعيد إلى مصر

وفى اليوم نفسه صدر الحكم باعدام سليمان داود وقد نفذ فيه الحكم علناً بميدان المنشية . وكان هو الوحيد الذى حكم عليه بالاعدام من بين رجال الثورة العسكريين ونفذ فيه . وقد كان هذا الحكم موضع ملاحظة الانجليز كما يفهم من الحديث الذى دار بين سمو الخديو ومكاتب جريدة التيمس فى ٢٣ يونيه حيث قال : —



اعدام سليمان داود

« تشرفت بمقابلة سمو الخديو وفى أثناء الكلام قال جنابه اتأسف من انه يوجد فى انجلترا من يفكر فى أن حكومتى تصرفت بقسوة غير عادلة نحو سليمان داود . أما بشأن التثريب الشخصى فذلك لا يتأتى عنه مضرة ، فان خرابات الاسكندرية تشهد بعدالة ما أجريت كما أنه يوجد فى انجلترا نفسها أشخاص يعتبرون صحة الحكم النهائى الذى صدر من قبلى وانى قد شكرت للمستر جلادستون ما أبداه ،

« ولا مراء أن الاستياء الذى ظهر فى انجلترا حين حرق الاسكندرية يحكم على نفس العمل . أما الادعاء بكون ذاك العمل الشنيع قد نشأ عن محبة وطنية فمما لم يسبق له خاطر قط بل دحض باعتراف زعماء العصاة أنفسهم الذين استاؤا من وقوعه وانكروا أنهم أمروا به . فضلا عن ذلك فان ذاك القسم الذى أحرق من المدينة هو أبعد قسم عن محل نزول العساكر وان الحريق كان الباعث الحقيق لنزول العساكر الانجليزية الى البر . فهذه الأمور كلها تعضد الحكم وتنتصر له ،

« أما من جهة سليمان فقد جرى استجوابه أمام لجنة لم يكن أعضاؤها فى الحقيقة أعداء للعصاة وهم جميعاً بصوت واحد حكموا بجريمته ثم أرسل امام المجلس العسكرى الذى عينت فيه عضواً انجليزياً ( ماجور موريس ) وعضواً نمساوياً ( فيدريكو باشا ) كما أعلن أن ليس من تحزب فى المسألة . وفضلا عن كل ذلك قد حضر المحاكمة ضابطان انجليزيان وترجمان من قبل الحكومة الانجليزية وكانت المحاكمة علنية أمام مشهد حافل

« وقد أجمع أعضاء المجلس جميعاً بقرار واحد دون استثناء على اعدامه حتى ان نفس المتهم اعترف بجريمته . فهل يمكننى بعد هذه البيانات التداخل فى المسألة ولو كان بين الأعضاء رأى واحد مخالف لامكن ذلك . ولكنى تركت الشريعة تجرى فى مجاريها وفى يقينى أن ما من خائن فى انجلترا حكم عليه بالاعدام وكانت دلائله أوضح وأتم من الدلائل التى تبينت فى قضية سليمان الموما اليه

« أما مسألة السيد قنديل فيلوح انه يوجد ارتياب فى ماهية جريمته ، وانى متأكد ان كلا من اللجنة والمجلس العسكرى سيراعيان ذلك وان غاب عنهما فسأنظر فيه . وبالحقيقة انى أود انجاز هذه التحقيقات والمحاكمات لانى استنكف منها لكونها تذكر التعاسات الماضية . على انى لا أقوى على تعجل قضايا يتأتى عنها اجحاف فى حقوق العدالة . وتذكّر انه قد مضى سنة على تلك الكوارث فلا يمكن لأحد أن يدعى بأننا أسرعنا بالأحكام ولكن قد حان الزمن الذى يجب علينا أن ننسى فيه الماضى ونشرع فى مباشرة الأعمال من جديد »

وقد أصدرت القومسيونات والمحاكم السالف ذكرها أحكاماً مختلفة بجزاءات متنوعة

كما صدر الأمر العالى فى ١٨ اكتوبر بالعفو عن كل ما وقع فى جميع انحاء القطر زمن الثورة من جرائم السرقة ونحوها وصرف النظر عن كل تحقيق جار وعدم سريان هذا العفو على جرائم القتل وهتك الأعراض ، ولا على الجنايات أو الجنح التى انتهت القومسيونات من تحقيقها واحالتها على المحكمة العسكرية بالاسكندرية للحكم فيها . كما صدر الأمر أيضاً بالغاء القومسيونات المخصوصة المشكلة بالأوامر الصادرة فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ و ٦ يناير سنة ١٨٨٣ . والغاء المحاكم العسكرية . وقد قامت الحكومة بتصفية الملكيين الموظفين فى مصالحها من مديرين ومحافظين وغيرهم ممن قد تحقق انحيازهم للحركة العرابية . وصدر الأمر بفصل محمود خليل باشا من رياسة أقلام عربى المعية

**المؤامرة الوطنية** . فى يوم ٢٠ يونيو سنة ١٨٨٣ ظهر ذيل للثورة العرابية وهو اكتشاف جمعية سرية غرضها إخراج الانجليز من مصر وقلب نظام الحكم فيها . ولقد أطلقت هذه الجمعية على نفسها اسم ( المؤامرة الوطنية المصرية ) وجاء فى قانونها الأساسى الذى ضبط أنها تقبل فى عضويتها كل شخص مصرى أو أجنبى مسلم أو مسيحى يدفع خمسة جنيهات انجليزية إعانة للجمعية ويقسم اليمين على الطاعة العمياء وأن تكليف أحد الأعضاء بشىء لا يكون إلا بالاقتراع وبعد ثبوت كفاءة العضو للتنفيذ . وجاء فى قانونها أيضاً أن العضو يحصل عند انخراطه فى سلكها على بندقية وطبنجة وخنجر . الخ

وفى يوم اكتشافها أتى عثمان باشا غالب مأمور الضبطية بأسماء الأعضاء الى خيرى باشا مهردار الخديو فأطلعه عليها ثم توجها الى شريف باشا لعرض المسألة عليه . وبعد البحث والتحرى قبض على المتهمين وهم محمد بك طاهر ونجله وموظفوه والشيخ احمد نور وعبد الرحمن بك فتوحه ومصطفى صدقى وأخوه واسكندر افندى سلام ومحمد حمد بك ومحمد افندى مدحت وحسين افندى صقر ومحمد الشبراوى ومحمود صادق واحمد رشدى وعلى بك فوزى وعبد الرازق بك الذى كانوا يجتمعون فى منزله . ومحمد سعيد الحكيم المغربى الأصل ورئيس الجمعية ، والشيخ سعد زغلول الطالب بالأزهر ( المغفور له سعد باشا زغلول ) واستمر التحقيق معهم جملة أشهر وأخيراً أصدرت المحكمة حكمها فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٣ بنفى مصطفى بك صدقى خارج القطر . وفى ٤ ديسمبر حكم على محمد سعيد الحكيم ( الرئيس ) بالنفى المؤبد خارج القطر المصرى . وأما باقى المتهمين فقد أفرج عنهم لعدم ثبوت التهمة عليهم

بذلك تمت تصفية الثورة العرابية واستؤصل ذنبها

**انقاص عدد الجنود الانجليزية** . بعدئذ بعث السير إفلن بارنج خطابا الى اللورد جرانفل فى ٩ اكتوبر يبدى فيه رأيه بأن وجود قوة انجليزية مؤلفة من ثلاثة آلاف جندى وستة مدافع بالاسكندرية ، بل وأقل من ذلك ، يكفى لحفظ النظام وبقاء الأمور مستقرة ، وللتأثير الأدبى فى نفوس الأهلين . وبناء على ذلك أصدرت الحكومة الانجليزية فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٣ أمراً بتخفيض قوة الاحتلال الى ٥٠٠٠ جندى بالقاهرة وثلاثة آلاف بالاسكندرية

# الفصل التاسع

## حركة التجديد والاصلاح

**عودة السلام والطمأنينة . الضباط الانجليز والاحتفاء بهم . الرياضة . تجوال الخديو بالوجه البحرى . اللورد دوفرين ومهمته وتقريره . اللورد نورثبروك ومهمته . الغاء المراقبة الثنائية . المشكلة المالية . تهديد فرنسا بقطع علاقتها بمصر . تشكيل المحاكم الأهلية . النظم النيابية . كليفورد لويد . الشركات المختلفة**

---

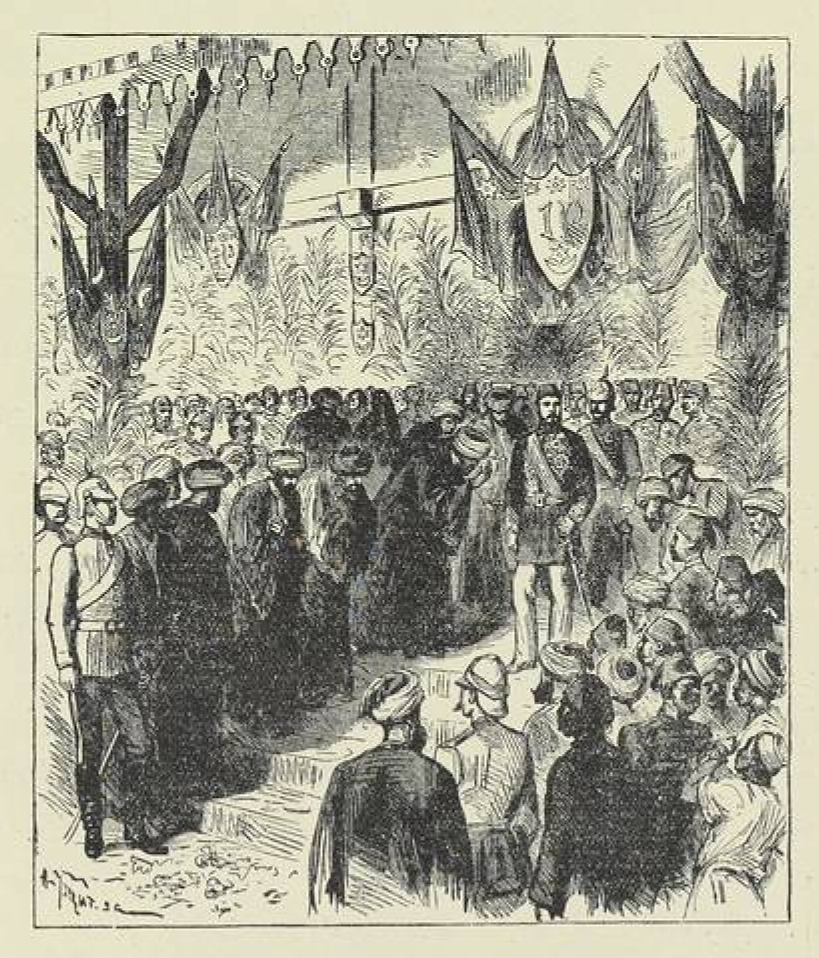
**عودة السلام والطمأنينة** . باخماد الثورة العرابية عاد الهدوء للبلاد ورجعت الأمور إلى مجاريها وأمن كل انسان على نفسه وماله . وحينئذ اعتزم الخديو العودة إلى القاهرة .

ففى صبيحة يوم ٢٥ سبتمبر استقل مركبته وبجانبه قنصل جنرال انجلترا ، من سراى رأس التين فى موكب حافل تحف بعربته قوة من خيالة الهنود برماحهم ، وسوارى من الانجليز والحرس الخديوى ، على حين كانت الشوارع مزدحمة بالجماهير من أجانب ومصريين ، والمحطة مكتظة بالمودعين من العلماء والذوات وكبار الموظفين . وبمجرد وصول سموه محطة الاسكندرية أطلقت المدافع إيذاناً بالسفر فتحرك القطار . ولقى فى كل محطة مر بها ترحيباً من الأهلين وشاهد كثيراً من معالم الزينة والفرح . فلما وصل العاصمة أطلقت المدافع من المحطة والقلعة تحية لسموه ، واستقبل فيها القاهرة استقبالا عظيما . وكان فى مقدمة المستقبلين الدوق أوف كونوت نجل ملكة الانجليز ، والجنرال ولسلى ، والأمراء ، والعلماء ، ووجهاء البلاد . وقبل أن يغادر المحطة دعا له الشيخ عبد الهادى الابيارى إمام المعية دعاء مستطاباً . وكذلك هتف رياض باشا ثلاثاً بدعاء آخر فكرره الحاضرون

ثم ركب فى موكب سار به إلى سراى الجزيرة حيث نزل بها ، وقد نزلت العائلة

الخديوية بسراى الاسماعيلية لأن ولسلى كان لا يزال يقيم فى سراى عابدين

وعند مرور موكب الخديو كانت الجنود الانجليزية مصطفة على جانبى الطريق ، والشوارع مكتظة بالأهلين



استقبال الخديو بالقاهرة

وهنا لا يفوتنا أن نذكر الألم الذى كان بادياً على وجه سموه — رغم كل هاته الحفاوة — من رجوعه إلى عاصمة ملكه فى ظل الرماح الانجليزية . وهذا يؤيد ما قلناه حين التكلم على واقعة التل الكبير وتأثره عند تلقيه نبأ اندحار الجيش العرابى

وقد احتفلت الحكومة والأهالى برجوع سموه احتفالا باهراً فأقيمت الزينات ثلاث ليال على دور الحكومة ومنازل الأهالى وأطلقت الألعاب النارية

لما استقر المقام بالخديو فى عاصمة ملكه أصدر أمره الكريم بمكافأة موظفى المعية الذين لازموه اثناء الحوادث العرابية ، وكنت فى جملة الذين شملتهم هذه المكافأة فزيد مرتبي الشهرى من اثنى عشر جنيهاً إلى عشرين

وفى يوم ٢٦ سبتمبر اقفلت الدواوين بسبب التشريفات ، ففى صبيحة هذا النهار اتّشح سمو الخديو بالملابس الرسمية وتحرك ركابه إلى سراى الجزيرة بموكبه الحافل

وهرع العالم لتقديم واجبات التهنئة فكنت ترى فى ساحات السراى الوفاً من العربات ومئات من الخيل وكان جسر قصر النيل زاهياً بالزينات

وقابل سموه حضرة البرنس محمود بك حمدى شقيقه ودولتلو منصور باشا يكن ثم حضرات النظار وبعد ذلك العلماء الأعلام وجميع مشايخ الطرق ، وتقدم الشيخ الأبيارى والقى خطبة بليغة ، فشكر الخديو ثم خاطبهم قائلا :

« أيها العلماء الزموا وظائفكم ولا تتعدوها وتجنبوا السياسة والمفاسد فتنالوا رضاى ومن خالف منكم فلا مفر له من عدلى بل يعاقب أشد العقاب فان لفظة علم لا تنقذكم من القصاص »

ثم استدعى سموه صاحب السعادة سلطان باشا ولما مثل بين يديه خاطبه قائلا :

( اننى أشكر اجراءاتك وصدق خدماتك وبرهاناً على رضاى عنك اقلدك الآن بالنيشان المجيدى الأول الرفيع الشان ) ووضعه سموه على صدره بيده فتشكر سعادته ودعا لجنابه العالى بالنصر والتأييد وخرج بعد أن لبث بحضرته برهة

ثم تشرف الباشوات حتى غصت القاعة بعددهم فقابلهم سموه بنطق شريف هذا ملخصه :

« من كان منكم غير موظف فيلزم اشغال نفسه ويحافظ على واجباته واياه والمخالفة . أما الموظف فعليه أن يقوم بحقوق وظيفته باخلاص واستقامة » ثم انعطف الى رستم باشا وخاطب الجميع مشيراً اليه قائلا :ـ « لو اقتديتم بسلوك هذا المخلص لأوقفتم شر العصاة فهو الشخص الوحيد فى ذوات مصر الذى رفض التوقيع ضد الحضرة الخديوية ولم يهله تهديد العصاة بل أجابهم بقوله إننى قريب من الطوبخانة وهذا هو فراشى ولست أقبل أبداً نكران نعمة مولاى » فشكر سعادة الباشا تعطف سموه ودعا بحفظه

ثم وفد الجنرال ولسلى وعلى صدره النيشان العثمانى من الدرجة الأولى ومعه البرنس ارثر وكبار الضباط ورؤساء الجيش فمكثوا بحضرته ملياً يتبادلون عبارات المودة ، ثم دخل القناصل وكان ذلك ختام التشريفات ، وقد رفض قبول راغب باشا وعلى باشا صادق واسماعيل باشا حقى ومرعشلى باشا ومصطفى باشا نائلى لما كان قد بلغه من ميلهم للعرابيين

وقد حضر للسراى بعد ظهر هذا اليوم بشارة تقلا فاستقى هذه المعلومات ونشرها فى جريدته ( الأهرام )

وفى يوم ٣٠ سبتمبر استعرض سمو الخديو الجيش الانجليزى فى ساحة عابدين . وقد أعد لسموه فيها مكان خاص فرش بالأبسطة الثمينة والأثاث الفاخر ورفعت فوقه الأعلام وأعد مكان بالساحة لاستقبال كبار المدعوين فيه

وفى الساعة الرابعة دخل سموه الى ساحة الاستعراض بملابسه الرسمية فى عربة مصحوبا بشريف باشا ورياض باشا وعمر لطفى باشا . فاستقبله باقى النظار والعلماء وكبار الموظفين والوجهاء والأعيان بملابسهم الرسمية . ووصل الجنرال ولسلى والدوق أوف كونوت كلاهما على ظهر جواده ، وحولهما ضباط وأركان حرب الجيش الانجليزى واشترك فى هذا العرض جميع وحدات الجيش من سوارى وطوبجية وبيادة . واستمر الاستعراض نحو الساعة والنصف . وبعد أن تم صدحت الموسيقى بسلام الملكة وسلام الخديو ايذانا بنهاية الحفلة

وفى ٤ اكتوبر صدر الأمر العالى بتعيين جاك دومارتينو بك السكرتير الخاص رئيساً لقلم افرنجى المعية خلفاً لجودار باشا الذى استقال من هذا المنصب كما أسلفنا



دومارتينو بك

كذا منح الخديو سلطان باشا هبة مالية قدرها عشرة آلاف جنيه مصرى . وجاء فى الأمر الذى صدر إلى نظارة المالية فى هذا الصدد ما يأتى : — « بالنسبة إلى ما أظهره سعادة سلطان باشا من الصداقة لحكومتنا الخديوية ومعارضته للعصاة فى جميع أمورهم وعزائمهم بالمخاطرة بحياته وإلى ما حصل له بسبب ذلك من الضرر والتعدى منهم على شخصه وأقربائه وموجوداته ومقدار جسيم من مشروعاته قد استحق المكافأة من الحكومة فبناء على ما عرضه علينا مجلس نظارنا أمرنا بأن يعطى بوجه الاستثناء لسعادته مبلغ عشرة آلاف جنيه من خزينة المالية محسوباً من المبلغ الاحتياطى سنة ١٨٨٢ تعويضاً للاضرار التى لحقت به ومكافأة لسعادته على صداقته »

**الضباط الانجليز والاحتفاء بهم** . أقام الخديو فى ٢ اكتوبر مأدبة كبيرة فى سراى الجزيرة للضباط الانجليز ، وكانت أنيقة بالغة منتهى الاتقان والفخامة لم أشاهد لها نظيراً فى مصر ، فقد ازدان شاطئا النيل أمام القصر بالأنوار التى تبهر الأبصار .

وقد أقيمت فى السلاملك الكبير الذى أنشأه اسماعيل باشا خصيصاً لاستقبال الامبراطورة « أوجينى » على طراز قصر الحمراء فى الأندلس ، وزينه بالنقوش العربية البديعة المموهة بالذهب على أشكال متنوعة . وأنشأ فى بهوه الكبير حوضا فخما فى وسطه تماثيل من الرخام تمثل أسودا قائمة على قاعدة عالية والماء يتدفق من أفواهها

فكانت الأنوار الملونة الساطعة المنبعثة من جوانبه وقاعاته تتألق كالشموس المنيرة ، وتنعكس أشعتها على تلك النقوش الذهبية البديعة ، وتسطع فى ضوئها الأوسمة والنياشين المتلألئة على صدور الضباط وأركان الحرب الانجليز فتزيد الحفلة بهجة والمنظر روعة وجلالا . وقد شاهدت ولسلى وسيمور وعليهما الوشاح العثمانى الأول ، والجنرال درورى لو يحمل العثمانى من الدرجة الثانية . وكان أنعم بها عليهم الخديو .

وقد تجلى الكرم العربى والأبهة الشرقية فى هذه الوليمة الفاخرة النادرة بأجمل مظاهرها حيث مدت موائد عديدة مزينة بالأزهار الجميلة فبلغ إعجاب الضباط الانجليز أعظم مبلغ ، وأخذتهم الدهشة لهذا البهاء المتقن . هذا ما كان بداخل القصر أما حديقته على اتساعها ، والتى كانت مضاءة بآلاف المصابيح ، فقد اكتظت بالمغنين والمغنيات والموسيقات الأميرية والطبل والمزمار البلدى وكثير من الملاهى . وكانت الألعاب النارية تطلق من الضفة الشرقية للنيل . وفى الجملة فقد كانت هذه الحفلة من الروعة والأبهة بمكان حتى يعجز الانسان عن إيفائها حقها من الوصف



جو سلاملك الجزيرة والقبة (١)

وقد شارك أهالى العاصمة الخديو فى الاحتفاء بالضباط الانجليز حيث انابوا

(١) القصر والسلاملك هما الآن ملك آل لطف الله وقد خصصوا الهو لاقامة الحفلات الخيرية الكبرى فيه مجانا .

عنهم محمد سلطان باشا واحمد السيوفى بك فى مقابلة رياض باشا ناظر الداخلية للسماح لهم فى تقديم هدية من الأسلحة الفاخرة الى الاميرال سيمور والجنرالين ولسلى ودروورى‌لو فسمح لهم بذلك وقدمت الهدية لهم حيث قوبلت بالشكر ؛ وهى عبارة عن ثلاث سيوف مرصعة مقابضها بالحجارة الكريمة لكل منهم سيفه

وفى ١٤ أكتوبر أقام الجنرال ولسلى بسراى عابدين مأدبة للضباط الانجليز والنظار المصريين وكبار الأعيان ، وأقام له وللدوق أوف كنوت ابن ملكة الانجليز رياض باشا مأدبة فى ١٩ أكتوبر

وفى يوم ٢٠ منه تشرف الجنرال ولسلى بمقابلة سمو الخديو مستأذناً فى السفر وشاكراً له ما لقيه من الحفاوة مدة إقامته بمصر ، ورد له سموه هذه الزيارة فى مساء نفس اليوم . وبارح العاصمة فى منتصف الليل إلى الاسكندرية حيث أبحر إلى انجلترا فى يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٨٨٢ . وقبل سفره زار بعض الآثار بالقاهرة وبالوجه القبلى خصوصاً الموجودة بالبدرشين وكذلك استعرض الجيوش الانجليزية الموجودة بالقاهرة وأثنى على شجاعتها فى قمع الثورة العرابية ورد السلطة للخديو

وفى يوم ٢٥ أكتوبر أقام الخديو مأدبة عشاء للدوق أوف كنوت تكريماً له لمناسبة اعتزامه مبارحة القطر المصرى فى اليوم التالى



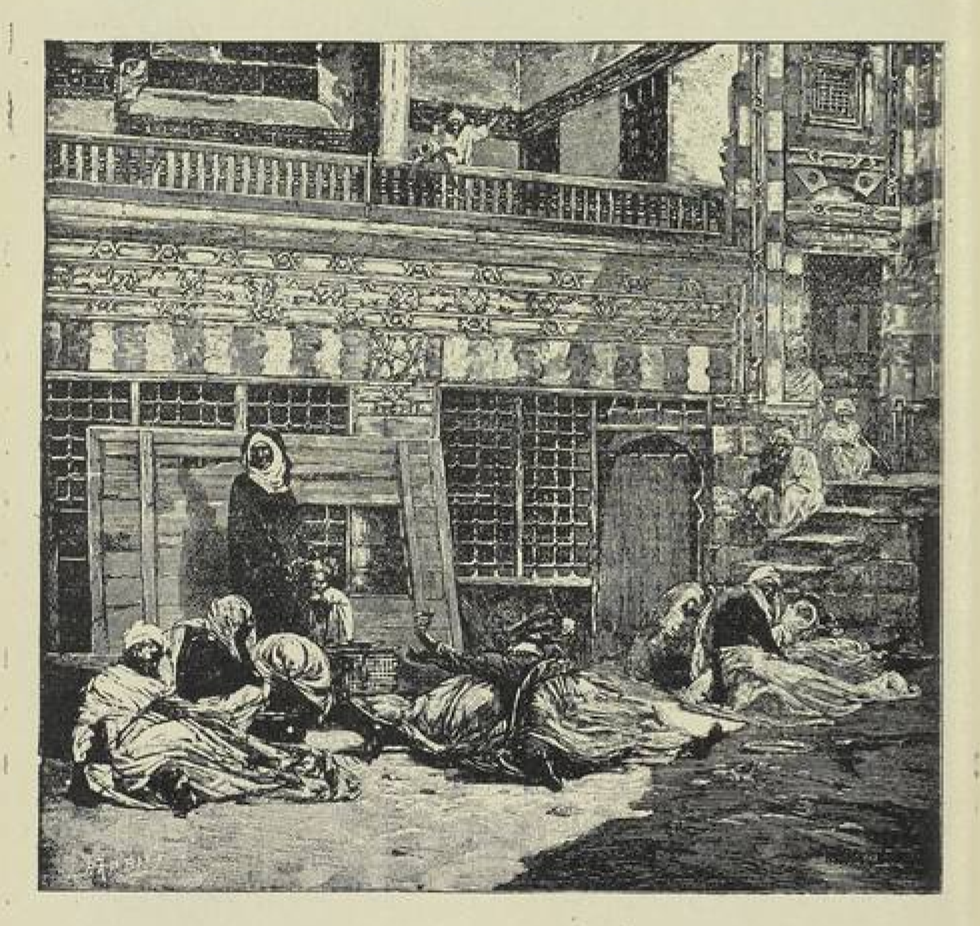
الدوق أوف كنوت

وفى ٥ نوفمبر بارح الاميرال سيمور بأسطوله المياه المصرية متوجهاً إلى مالطة وبذلك افتتح عهد سلام وتجديد واصلاح واستعادت حركة الأعمال بعض نشاطها وانفرجت الأزمة السياسية وساد الاطمئنان الناس مما أدى إلى سفر رؤساء الجيش الانجليزى يتبعهم بعض فرقهم التى وجد ان لا لزوم لبقائها، وبعضهم سافر مع الجنرال ولسلى حيث قد استعرضتهم الملكة فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٢ بلندن وكانوا مكونين من انجليز وهنود

**الهيضة «الكوليرا»** . لم تكد الثورة العرابية تضع أوزارها وينقضى عهد الفتن والاضطرابات التى أفضت الى الاحتلال الانجليزى . حتى منيت مصر بآفة جديدة لا تقل عن آفة الثورة ضرراً بالبلاد وفتكا بالعباد. ذلك أنه فى ٢٢ يونية سنة ١٨٨٣ ظهرت الهيضة فى دمياط ، وانتشرت فى سائر بلاد القطر . واختلفت الآراء فى حقيقة منشئها ، فمنهم من قال انها محلية وهو رأى الانجليز ومن نحا نحوهم ، ومنهم من قال انها وافدة من الهند وهو الأصح ، لأن التحقيق الرسمى أثبت أن أحد وقادى السفن التى وصلت الى بور سعيد آتية من الهند قبل ظهور الوباء ويدعى محمد خليفة العطشجى ، نزل الى البر وجاء الى دمياط وهو يحمل جراثيم الداء ولم يكد يصل اليها حتى ظهر الوباء فيها .

ولقد عنيت الحكومة المصرية بأمر هذا الوباء أكبر عناية ، فاتخذت أشد الاحتياطات الصحية للوقاية منه وحصره فى مناطق معينة . وانشئت اللجان فى مصر والاسكندرية وغيرهما من مدن القطر وخصوصاً فى دمياط والمنصورة لاسعاف المصابين وارشادهم الى طرق الوقاية . وتقرير الوسائل الفعالة لمكافحته واستئصال شأفته واتقاء مضاره . ووصلت الى القطر المصرى عدة بعثات طبية للبحث فى منشأ الوباء والاشتراك مع اللجان الطبية المصرية فى العمل لأبادته ودرء شره عن البلاد . ومن هذه البعثات بعثة المانية برياسة الدكتور كوخ المعروف . وبعثة فرنسية برياسة باستور العالم الكيماوى الشهير ، ولحقت بهما بعثة أخرى روسية مؤلفة من أشهر أطبائها . وقد أجمع رأى هذه البعثات على أن الوباء وافد من بلاد الهند . وعلى رغم مابذل من الجهود الكبيرة ، وما اتخذ من الوسائل الفعالة التى اشتركت فيها البعثات الدولية المشار اليها مع الحكومة واللجان الطبية المصرية ، انتشر الوباء فى أقاليم القطر ومدنه انتشاراً مريعاً وفتك بالأرواح فتكا ذريعاً . وأشد ما كان ذلك فى الاحياء الوطنية المكتظة بالسكان ، ولا سيما حى

بولاق حيث كانت ضحاياه تعد بالألوف ، وبلغ من ذعر الناس وخوفهم ان ألوفا من نزلاء القطر غادروه الى سوريا وأوربا ، وأقاموا بها الى أن تقلص ظله من البلاد .



حوش منزل بالقاهرة أثناء الكوليرا به جثث متوفين ومصابين على وشك الوفاة

ونحن نذكر ان الجناب الخديوى ، كان يطوف بنفسه فى احياء الاسكندرية وشوارعها التى كان قد انتقل الوباء اليها فى ٧ يوليه ، ويتفقد المستشفيات والمصحات ويواسى المصابين ويصدر الأوامر المشددة بالمواظبة على تنظيف المدينة وتطهيرها بالمواد الكيماوية (١)

---

(١) وقد قال الجنرال جرانفل السردار الاسبق فى جملة ما قاله عنه فى مذكراته : « انه فى ايام الكوليرا نال ( أى توفيق باشا ) اعجاب رجال الجيش لشجاعته وشدة عطفه على المصابين

ونسج الحكام فى الأقاليم على منوال الخديو فى تفقد الأماكن الموبوءة ومراقبة تنفيذ التحوطات الصحية وإرشاد الناس الى طرق الوقاية . وانبرى الأطباء لنشر الارشادات الصحية فى الصحف السيارة ، وانصرف الكتاب الى الكتابة فى هذا الموضوع الهام تنويراً للأذهان ، وأنشئت فى مصر لجنة كبرى لجمع الأموال وإنفاقها على الموبوئين وعلى العائلات التى أفقدها الوباء عائليها

ومما يجدر بالذكر فى هذا الصدد أنه فى جملة التحوطات الصحية التى اتخذوها وقتئذ أنهم حظروا على الناس أكل الفواكه مثل البطيخ والشمام والعنب ونحو ذلك ولكنهم ظلوا يأكلونها خفية وهبطت أثمانها هبوطاً كبيراً

وعلى ذكر التحوطات الواقية أذكر أن أحد الموظفين الفرنسيين فى المعية وهو المسيو أودان كان قد ألف أكل الثوم ، وفى أثناء الوباء كان يكثر من أكله اعتقادا منه أنه مطهر وقاتل للميكروبات . والظاهر أنه كان على صواب

ومما تذكره على سبيل الفكاهة ، أنه فى أيام اشتداد وطأة الوباء فى الاسكندرية ، كان أحد المكارية ينقل راكباً فى شارع السبع بنات ، وكان قد ركض كثيراً وراء حماره وهو صائم فى رمضان ، فأنهكه التعب الشديد وشعر بدوار فاتكأ على شجرة فى الطريق ليستريح قليلا ، واتفق مرور رجال الصحة من هناك ، فأشار عليهم راكب الحمار بنقله الى المحجر الصحى موهماً إياهم أن الرجل مصاب بالوباء ، فوضعوه على نقالة الاسعاف على كره منه ، فقاوم ولكنه لم يقو على الافلات من أيديهم وساروا به وهو يصيح مستغيثاً ومحتجاً ولا من مغيث ، إلى أن مروا به من تحت شجرة متدلية الأغصان فغافلهم وتعلق بغصن منها ، فأمسكوه من رجليه محاولين اجتذابه وإنزاله إلى الأرض وظل يقاومهم وهو معلق بين الأرض والسماء إلى أن مر به أحد الأطباء وكان يعرفه فناداه مستغيثاً ، وتقدم الطبيب إلى رجال الصحة ، ووبخهم مبيناً خطأهم فى ما فعلوه مع رجل هذا شأنه معهم ، لأنه لو كان مصاباً لما استطاع التعلق بغصن الشجرة والمقاومة على هذا النحو ، وهكذا تخلص المكارى من رجال الصحة وانطلق فى سبيله بين ضحك الناس وتصفيقهم

ويؤخذ من التقارير الصحية التى وضعت عن الوباء بعد استئصاله فى أواخر أغسطس سنة ١٨٨٣ ، أن عدد ضحاياه فى مختلف انحاء القطر المصرى بلغ حوالى الأربعين ألفاً . ولولا الاحتياطات الشديدة التى اتخذت للوقاية منه ، وحصر شره واجتماع القوى الفعالة على مكافحته ، لتفاقم الخطب وعظم البلاء ، ولبلغ عدد ضحاياه اضعافاً مضاعفة

وكان من أثر انتشار هذا الوباء وفتكه بالأرواح أن عنيت الحكومة باصلاح حال المستشفيات وتنظيم الوسائل الواقية وغير ذلك.

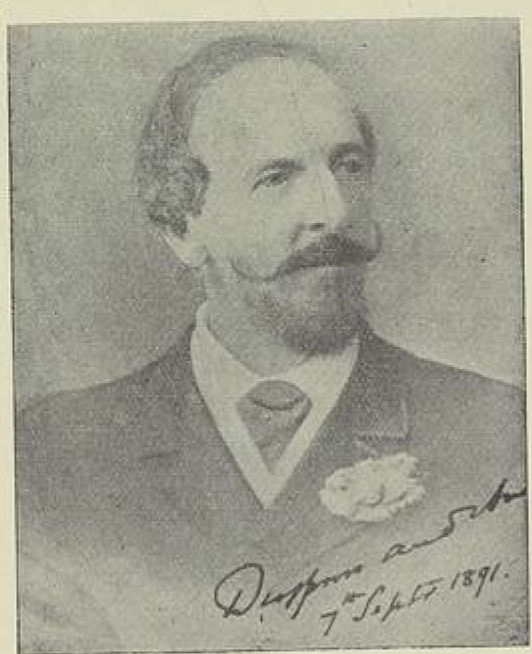
**تجوال الخديو بالوجه البحرى** . فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٨٣ سافر الخديو من الاسكندرية قاصداً رشيد، لتفقد أحوالها عقب حدوث الكوليرا، فاستقبل بها استقبالا فائقاً وأقيمت له الزينات فى جميع شوارعها وطرقاتها، وتفقد أحوال السكان وواساهم. وفى صباح اليوم التالى استأنف السير إلى دسوق بطريق النيل، على يخته الذى كان فى انتظاره، ماراً بالعطف وفوه، فلما وصل اليها استقبله أهلها أحسن استقبال. ثم استقل عربة وإلى جانبه مدير الغربية، فزار المقام الدسوقى، ثم حضر المأدبة التى أقامها له (آل شتا)

ومما يذكر عن عميد هذه الأسرة، الشيخ أبو النصر، أنه نحر عند تشريف الخديو لدارهم اثنتى عشرة جاموسة من باب التفاخر، جرياً على التقاليد القديمة، ووزع لحومها على الفقراء. ثم تفقد سموه حال المدينة، وفى صباح العاشر من سبتمبر استقل مع رجال حاشيته قطاراً خاصاً من محطة دسوق قاصداً دمياط فاستقبل فى كل محطة مر بها بالحفاوة إلى أن وصل إلى ثغر دمياط فى الساعة الرابعة مساء، فأطلقت المدافع إيذاناً بتشريفه وتوافد وجهاء المدينة وأعيانها مهنئين بالسلامة ومعربين عن شكرهم على ما شملوا به من عنايته. وامضى ليلته فى يخته الذى كان قد وصل اليها. وفى ١١ منه زار المستشفى الأميرى وواسى المرضى وحث على الرفق بهم وأخذ كشفاً بوفيات الكوليرا بالمدينة وصورة لخريطتها. وفى اليوم التالى ركب عربة وتجول بها فى الميادين والأسواق. ثم امتطى جواداً فارتاض، يرافقه المحافظ ومأمور مصلحة المطرية، وفى الساعة الثانية من بعد الظهر اطلقت المدافع ايذاناً بقيامه إلى المنصورة فلما وصلها دوت الأصوات بالهتاف بحياته والدعاء له؛ وكانت المدينة قد استعدت أعظم الأستعداد لاستقباله والاحتفاء به، والجماهير مصطفة فى كل شارع مر به لتحيته وزار المستشفى القديم فوجده غير لائق باقامة المرضى فامر بنقلهم إلى المستشفى الجديد. ثم عاد فامضى ليلته فى اليخت. وفى صباح يوم ١٣ منه زار المستشفى الجديد، بعد ان نقل اليه بعض المرضى، فسره حصولهم على الراحة.

ثم تحرك اليخت ظهراً بين دوى المدافع قاصداً بنها فودع الاهلون سموه بحفاوة فائقة. وكان الطريق الذى سافر فيه اليخت مزيناً بالاعلام وأهالى البلاد مصطفون على ضفتى النيل لتحيته حتى وصل ميت غمر وزفتى وهنا لك تشرف بمقابلة سموه بعض العمد والاعيان

فسألهم عن الحالة الصحية وهنأهم بزوال الوباء ثم واصل السير حتى بنها فأقام ليلته . وفى اليوم التالى تفقد احوالها ثم غادرها مع رجال حاشيته بطريق السكة الحديدية إلى القاهرة فاستقبل فيها استقبالا باهراً .

**اللورد دوفرين ومهمته وتقريره** . أوفدت انجلترا إلى مصر اللورد دوفرين سفيرها بالآستانة فوصل إلى الاسكندرية فى يوم ٧ نوفمبر وكان فى استقباله بها سامى باشا موفداً من قبل الخديو . ونزل بسراى رأس التين حيث تغدى بها هو ومن معه . ثم بارحها إلى العاصمة وكان فى استقباله ذو الفقار باشا من قبل الخديو ، وشريف باشا رئيس مجلس النظار ، ورافقه مندوب سموه إلى قصر النزهة بشبرا . حيث حل فيه ضيفاً على الحكومة المصرية




( اللورد دوفرين )

وفى صبيحة اليوم التالى زار اللورد الخديو بسراى الجزيرة ورد له سموه الزيارة . وفى ١٠ منه زار دولة شريف باشا ، ثم تبودلت الزيارات بينه وبين كبار رجال الحكومة المصرية . وأقام الخديو له مأدبة فاخرة فى ٢٨ نوفمبر بسراى عابدين .

وبعد أن استقر به الحال ابتدأ فى القيام بمهمته وكانت أن يتولى وضع نظام أساسى للحكومة المصرية ، فجاء انتدابه لهذه المهمة مخالفاً لرغبات الدولة العلية ومثيراً لخاطرها إذ كانت ترى أن من حقها على الأقل الاشتراك فى وضع خطة لهذه المهمة . ذات صبغة عثمانية بحيث يتولاها اللورد باسم السلطان . ولكن هذه الفكرة لم ترق للصحف الأنجليزية فانتقدتها وقالت : — « ان تنظيم القطر المصرى لا يمكن أن يقوم على قواعد الفرمانات » . غير أن الحكومة الأنجليزية استدركت الأمر فأجابت على معارضة الباب العالى بقولها : — « ان مهمة اللورد دوفرين لا تؤثر فى العلائق

السياسية بين الدولتين » . وصرح السير تشارلس ديلك بذلك فى مجلس العموم فقال : —
« ان الدول الاوربية لم تبد اعتراضاً أو ملاحظة على مهمة اللورد دوفرين » وعمد اللورد
جرانفل وزير خارجية انجلترا وزملاؤه الوزراء إلى تخدير أعصاب الأتراك بالوعود
الخلابة والأقوال المنمقة . واعلنوا على رؤوس الاشهاد انه ليس لانجلترا مقاصد سيئة
ولا هى تبغى التعرض للسيادة العثمانية فى مصر

وشرع اللورد دوفرين فى مفاوضة الخديو والنظار ، وبعد ان استطلع احوال البلاد
وجمع المعلومات اللازمة كتب تقريره(١) المشهور وارسله إلى اللورد جرانفل فى ٦
فبراير سنة ١٨٨٣

وقد استهله بمقدمة قال فيها : —

« إن مصر جديرة بأن تنظم على قواعد تتفق مع روح العصر » ولو أن حوادث
التاريخ تنطوى على أدلة لا تشجع على ذلك » وتأييداً لرأيه هذا أشار الى ما اشتهر به
المصريون من صدق العزيمة وشدة البأس والأقدام فى الفتوحات والحروب التى خاضوا
غمارها بقيادة رجال يعدون فى طليعة أقطاب الشعوب وأبطالها ، مستشهداً بما هو
معروف عنهم من الفطنة والذكاء والمقدرة على اقتباس العلوم والفنون . وضرب لذلك
مثلا ما عرفه عن سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، وما شهده من كفاءته واتساع
نفوذه وسمو مكانته . ثم تكلم عن الاتراك المستوطنين فى القطر المصرى ، وأثنى عليهم
مشيراً الى أحسن بلائهم فى خدمته ، قائلا إنه لا يستغنى عنهم ، وأنه فى هذه المناسبة
يرى ان كل من ولد فى مصر يكون له حق الدخول فى الوظائف الحكومية ولو لم يكن
مصرى الجنس .

ثم استطرد الى الكلام عن المحاكم المختلطة فاستصوبها

وقال إن مصر لا تستطيع الآن أن تسترجع استقلالها ، وليست من الأهلية
والكفاءة بحيث تتمكن من التمتع بما يطلق عليه اسم ( الحكومة الدستورية ) . ولكن
الأمل معقود بتمكنها بمساعدة أوربا من الحصول على الاستقلال الذاتى ، ومع توالى
الأيام على اتساع نطاق هذا الحكم . وعلى ذلك طلب من حكومته انشاء هيئات نيابية

---

(١) ولو ان هذا التقرير يعد من الحوادث التاريخية لا من المذكرات الشخصية الا انه نظرا لأهميته للمقارنة بين الماضى والحاضر دونت خلاصته في مذكراتى

فى حدود معقولة . ومجالس قروية ذات اختصاصات واسعة تكون نواة لهيئات سياسية لاتؤثر عليها العوامل الخارجية . بحيث تتمكن من الجرى على خطة معينة وفقاً للنصائح والارشادات التى تسدى اليها .

وبعد ذلك شرع اللورد فى بحث الموضوعات المختلفة لأدارة البلاد شرحا نلخصه فيما يلى :—

**الجيش** . إن مركز مصر لايستلزم أن يكون فيها جيش كبير فبعض فرق مدربة على الفنون العسكرية تكفى لأقرار الأمن فى ربوعها وقمع ما قد يقع فيهـا من القلاقل والاضطرابات التى تنشأ عن الدعايات الروحية التى يقوم بها الدجالون أو التى يثيرها العرب الرحل . وإن إعداد جيش مؤلف من ستة آلاف رجل من أهالى البلاد يفى بالغرض المطلوب ، ويحسن أن ينتظم فى سلكه سلالة الاتراك من المتمصرين ، وأن يتولى قيادته جنرال انجليزى يعاونه سبعة وعشرون ضابطاً انجليزيا ، ويكون تعيينهم بمقتضى عقود يشترط فيها تعلمهم اللغة العربية . ويترك نصف الرتب السامية للضباط الوطنيين ، أما القيادة العامة فتكون للخديو .

وقد انتدب فالانتين بكر باشا الذى كان موظفاً بالأستانة للحضور إلى مصر لوضع نظام للجيش الجديد بدل الجيش الذى كان قد الغى . فوضع اللائحة ونظمها وأقرها مجلس النظار فى أواخر اكتوبر سنة ١٨٨٢، وهى تقضى بأن تؤلف البيادة من ست أرط عليهم أمير لواء انجليزى ، وضباطهم من الانجليز من رتبة صاغ ، وصغار الضباط من المصريين . وست أرط أخرى عليهم أمير لواء مصرى ، وضباطهم جميعاً من المصريين الذين لم يشتركوا فى جيش عرابى . ويكون للطوبجية قائد انجليزى وقائد مصرى ، وكذلك للسوارى وقد انتخب الجنرال السير إفلن وود ليكون سرداراً للجيش الجديد الذى انشىء فى يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ورئيساً لأركان حربه .وصدر الأمر العالى فى ١٦ يناير سنة ١٨٨٢ بهذا التعيين (١)

**الجندرمة** . أما الجندرمة فاستحسن أن ينتخب رجالها من ذوى النشاط والادراك ، وأن يوضع لهـا نظام مشابه لنظام الجيش بحيث يستطاع استخدامها عند اللزوم لصد غارات العرب على المدن العامرة . ويجب أن تكون أعمالها منظمة فيكون رجالها كالبوليس الاعتيادى . ولا يكون طوع أوامر السلطة الاستبدادية . وللوصول إلى هذا الغرض يجب فتح مدرسة بالقاهرة للجندرمة

---

(١) وقد حضر لسراى عابدين فى ٥ ابريل سنة ١٨٨٣ الجنرال وود وجميع الضباط الانجليز المنتظمين فى الجيش المصرى وكلهم بطرابيشهم وملابسهم العسكرية المصرية الرسمية فتشكروا لسموه على ما أنعم به عليهم من الرتب العالية .

وقد خلف وود فى سردارية الجيش الجنرال جرانفل فى ١٩ ابريل سنة ١٨٨٥

وتتألف هذه القوة من ٥٦٥٠ من المصريين تحت رياسة مفتش عام ومساعد له من الأوربيين، يعاونهما أربعة من المفتشين وثمانية عشر ضابطاً أوربياً، مع تخصيص نصف الرتب السامية للضباط المصريين. وتلحق بنظارة الداخلية

وفي ٨ يناير سنة ١٨٨٣ صدر الأمر العالى بتعيين بيكر باشا مفتشاً عمومياً للجندرمة والبوليس (كما سيأتى الكلام عنه) وقومنداناً عمومياً عليهما وقد تشكلت قوتهما فى أول يناير سنة ١٨٨٤

**البوليس المدنى** . ورأى أن يعهد فى المحافظة على الامن العام فى مدن الوجه البحرى إلى بوليس مدنى يؤلف من ١٦٠٠ رجل بينهم نفر من الأفرنج المدربين. لأن اعتماد الحكومة على بعض رجال البوليس الأوربى يزيد سطوتها، ويبعث على اطمئنان الأجانب. وأن يعهد فى هذه المهمة إلى ضابطين من رجال بوليس الهند معروفين بكفاءتهما. وستجعل الجندرمة والبوليس تحت اشراف مفتش عام (هو بيكر باشا كما سبق) يعاونه بعض الموظفين. أما البوليس فى القاهرة والاسكندرية فيجعل تحت رياسة ضابطين أوربيين يعاونهما مساعدان. ويلحق بدائرة البوليس الأوروبى ثلاثة وثلاثون ضابطاً.

هذا وقدرت نفقات الجيش والجندرمة والبوليس معا بمبلغ ٥١٩٧٤١ جنيها أى بنقص نحو المائة الف جنيه عن المبلغ الذى تقرر لها فى سنة ١٨٨١.

وقد صدر الأمر العالى فى ٩ يناير سنة ١٨٨٣ بتعيين دللاسالا باشا رئيساً للبوليس

**الهيئات النيابية** (١). طلب اللورد دوفرين إلغاء مجلس النواب المصرى واستبداله بنظام تمثيلى آخر يتكون من هيئات نيابية ثلاث

(١) مجالس المديريات، وهى عبارة عن مجلس لكل مديرية يرأسه المدير، واعضاء كل منها ينتخبون من بين أرباب الأملاك بالمديرية يشترط أن يكون سن كل واحد منهم لا تقل عن ثلاثين سنة. وأن يعرف القراءة والكتابة، وأن يكون ممن يدفعون لخزينة الحكومة ضريبة سنوية لا تقل عن خمسين جنيهاً مصرياً مدة سنتين على الأقل قبل تاريخ انتخابه. ثم حدد مدة العضوية وشروطها. وتجتمع هذه المجالس مرة كل سنة بدعوة من المدير بناء على قرار النظارة

(٢) مجلس شورى القوانين ويتكون من ثلاثين عضواً، منهم ستة عشر عضواً

---

(١) فى أول مايو سنة ١٨٨٣ صدر الأمر العالى بالقانون النظامى المصرى كما صدر فى أول مايو أيضاً أمر عال بقانون الانتخابات لجميع المجالس النيابية بالقطر

بالانتخاب وأربعة عشر ينتخبون باعتبار عضو عن كل مديرية ثم عضو ينتخب عن مدينة القاهرة وآخر عن جميع المحافظات . والدائمون أربعة عشر منهم الرئيس وأحد الوكيلين ، أما الوكيل الثانى فيختار من المنتخبين . وهؤلاء يعينون بأمر عال بناء على ما يعرضه رئيس مجلس النظار . والرئيس والوكيل المعين يعينان بأمر الخديو ومدة دورة هذا المجلس ست سنوات ، ويجوز اعادة انتخاب أعضائه وتعيينهم . ويبدأ اجتماعه من أول أغسطس بأمر عال

(٣) الجمعية العمومية . وتتألف من النظار ومن رئيس مجلس شورى القوانين ووكيله وأعضائه . ثم أعضاء الجمعية العمومية المنتخبين وعددهم ستة وأربعون عضواً ، وينتخبون من أعيان المدن والمديريات باعتبار عدد معين عن كل مديرية أو مدينة ، ومدة الدورة ست سنوات أيضاً ويجوز اعادة انتخاب الاعضاء ولايجوز انتخاب عضو فى هذه الجمعية الا اذا كانت سنه ثلاثين عاما على الأقل ، ويعرف القراءة والكتابة ويكون ممن يدفعون ضريبة سنوية لا تقل عن عشرين جنيهاً منذ خمس سنوات ، وأن يكون اسمه مقيداً فى دفاتر الانتخابات منذ خمس سنوات كذلك . وتجتمع هذه الجمعية مرة كل سنتين على الأقل بمقتضى أمر عال . ويجوز جمعها فى حالة غير عادية متى دعت الضرورة إلى ذلك .

ورأى هذه المجالس الثلاثة على اختلاف أنواعها استشارى لا يقيد النظار بشىء ولا يحتم على الحكومة الأخذ به ، انما عليها أن تبين الأسباب التى دعتها إلى عدم الأخذ برأيها . وهذا البيان لا يقبل الاعتراض ،كما أنه محظور على هذه المجالس المناقشة فى المسائل السياسية والمسائل غير الداخلة فى اختصاصها .

أما تقرير الضرائب فيكون قرار الجمعية العمومية فيه قاطعاً . وأشار اللورد باطلاق حرية المطبوعات تأييداً لهذا النظام الجديد

الى جانب هذه النظم اقترح اللورد انشاء مجلس شورى حكومى لمراجعة مقترحات هذه المجالس على الحكومة (١)

---

(١) كان قد صدر أمر عال فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٣ بتشكيل مجلس شورى الحكومة ولكن فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤ ألغى هذا المجلس واستعيض عنه بلجنة قضائية مكونة من ثلاثة مستشارين قضائيين وهم كيلر ( باشا ) وروكاسيرا وكافللى للقيام باختصاصات المجلس المذكور وعليهم المدافعة عن الحكومة أمام المحاكم الأهلية

**المحاكم الاهلية**[1] . أوصى اللورد بأدخال العنصر الأوروبى فى المحاكم الأهلية ليستطاع استئصال شأفة الرشوة منها . وقد استقر الرأى على أن يكون القضاة الأوربيون من هولندة وبلجيكا وسويسرا ، وأن يكون النائب العمومى انجليزياً . وان يجعل فى كل مديرية مجلس ابتدائى . وأما الاستئناف فسيجعل له مجلسان احدهما للوجه البحرى والثانى للوجه القبلى .

**الترع والرى** . بعد أن أشار فى تقريره عن سوء نظام الرى فى مصر وشدة وطأة نظام العونة على الفلاح ، أوصى بتعديل نظام العونة وتحسين حالة الجسور اتقاء الغرق فى أثناء الفيضان ، وتطهير الترع بحيث يتساوى الجميع فى الانتفاع

أما الرى فقد أوصى بتعيين مهندس ماهر من الهند يعاونه مفتشون يستطيعون أن يشرفوا على تنفيذ تعليماته بكل دقة ، ويعطى سلطة واسعة ليتمكن من النهوض باعباء وظيفته ، سواء كان فى اختيار الموظفين أو عزلهم . وأن يكون مؤيداً من الحكومتين المصرية والانكليزية

وقد صدر الأمر العالى فى ١٠ مايو بتعيين الكولونيل سكوت مونكريف مفتشا لعموم الرى وتعين بعد ذلك معاونوه

**الدائرة السنية** . تبلغ الدائرة السنية والدومين مليون فدان ، أى نحو خمس أراضى مصر المنزرعة ، وهى مثقلة بالديون ، وقد قدر دين الأولى بمقتضى الاتفاق الذى عقد مع المستر جوشن وجوبرت فى ١٢ يوليو سنة ١٨٧٧ بمبلغ ٨٫٨١٥٫٤٣٠ جنيها انجليزيا

ثم تحولت املاك الدائرتين إلى الحكومة بمقتضى قانون التصفية الذى صدر فى ١٧ يوليه سنة ١٨٨٠ وصرف للدائرة السنية من مال التصفية مبلغ ٤٥٠ الف جنيه

وقال اللورد إن حصر املاك الدومين الواسعة فى يد واحدة جرد فريقاً كبيراً من الفلاحين من أملاكهم فاذا قسمت هذه الأراضى إلى أجزاء متناسبة ووزعت على الفلاحين باثمان معتدلة تحصل الحكومة منها ما يفى بديونها .

وقد نفذت فكرة اللورد فبيعت أراضى الدائرة السنية إلى شركة قسمتها إلى أجزاء اشتراها أفراد ودفعت بذلك الديون المستحقة عليها وفاض من الثمن ما قسم بين الشركة والحكومة

---

(١) صدر الأمر فى ١٤ يونيه ١٨٨٣ باعتماد لائحة ترتيب المحاكم الأهلية

**مصلحة المساحة** . وتكلم عن الأصلاحات اللازمة فأشار بأن يندب عدد من الضباط والعمال الفنيين الانجليز يتولون الأعمال الفنية ليمكن الفلاح أن يعرف الطريقة التى تقاس بها أرضه ، وعليه يتوقف توزيع الضرائب على قاعدة الانصاف

وقد استاء المصريون من انتداب أجانب للقيام بهذه العملية لأن من بينهم ضباطاً وملكيين لهم دراية تامة بعملية المساحة فضلا عن معرفتهم أراضى بلادهم

**ديون الفلاحين**. قال اللورد إن ديون الفلاحين كانت تبلغ قبل ست سنوات نصف مليون جنيه . ولكن انشاء المحاكم المختلطة قد سهل للفلاحين الاستدانة لضمانة أطيانهم فبلغت الآن ٧ مليون جنيه ، وبلغ متوسط الفائدة ٣٦ ٪ ومقدار الاطيان المرهونة ٤٠٠,٠٠٠ فدان وسيقضى هذا حتما إلى انتقال ملكية الأراضى المرهونة إلى الأجانب ، وهذا يؤدى إلى أزمة زراعية وخيمة العاقبة ، ولذلك يشير اللورد إلى إحدى طريقتين ؛ الأولى أن تنشأ بنوك زراعية يقدم أعيان البلاد رأس مالها وتمدها الحكومة بالمساعدة اللازمة لتسديد الديون الزراعية ، وذلك بشرط أن لاتزيد الفائدة على ١٢ ٪ وأن تحصل اقساط هذه البنوك بواسطة صيارف الحكومة ، والثانى ان يستخدم البنك العقارى(١) لهذا الغرض بعد أن يوضع تحت رقابة الحكومة ، وأن تدفع الديون بطريق الاستهلاك وان تكون ديوناً ممتازه بحيث يمنع الفلاح من عقد سلف جديدة على أطيانه قبل تسديد دين البنك

وقد تحققت هذه الفكرة الآن بانشاء بنكى التسليف الزراعى والعقارى

**تعديل الضرائب** . يبلغ مجموع الضرائب السنوية نحو خمسة ملايين من الجنيهات معظمها يدفع من السلف التى كان يعقدها الفلاحون ، وهى تختلف بين ستة عشر شلنا وبين جنيه واثنى عشر شلنا عن كل فدان ، وتوزيع الضرائب لا يجرى على قاعدة الانصاف ، لأنه مبنى على النظام الذى وضع فى عهد محمد على باشا فى سنة ١٨٢٠ حيث اتبع فى اعمال المساحة أساليب غير دقيقة .

**الضرائب غير المقررة** . بلغ مقدار هذه الضرائب ١٧٠ الف جنيه انجليزى تجبى من عشور النخيل ومن زراعة الدخان والتنباك وعوائد السواقى وأموال سيوة

---

(١) صدر المرسوم بانشاء البنك العقارى المصرى فى يوم ١٥ فبراير سنة ١٨٨٠

وعوائد الاغنام والماعز وغيرها ، وهى ضرائب غير مبنية على قواعد ثابتة يدخلها الغش الذى لا ينقطع الا بوضع نظام مكتمل الشروط

**الأطياد العشورية** . قدر اللورد مقدار الأطيان العشورية بـ ١٣٠٨٠٠٠ فدان وأموالها ٦٨٦٣٤٨ جنيها فى السنة ، وان الاطيان الخراجية تبلغ ٣٤٠٦٤٨٠ فدانا وأموالها ٤٣٨٧٧٦٢ جنيها فى السنة ، ومال الفدان سنوياً فى الأولى عشر المطلوب عن الفدان الخراجي ومقداره $\frac{\text{ص}}{١٢٨}$ قرشا ويطلب فى تقريره النظر فى ذلك وتقرير هذه الضرائب على أساس العدل

وقد نفذت هذه الفكرة فيما بعد .

**التعليم** . تكلم عن المدارس الابتدائية وبها ١٣٧٠٠٠ طالب ، والمدارس الثانوية وبها ٤٦٦٤ طالباً ، ومنها ٣٠٠ طالب بالمدرسة التجهيزية بالقاهرة ، هذا بخلاف الأزهر وبه ٨٠٠٠ طالب ، ومدارس الأجانب وبها ١٢٠٠٠ طالب

ثم عدد المدارس الأخرى وهى الفنون والصنائع والطب والصيدلة والقوابل والهندسة والمساحة والعمليات والأدارة والمعلمين والصناعة والعميان والخرس والبنات والحربية والبحرية

غير أن مناهج التعليم فى أكثر هذه المدارس لا تفى بالمرام ، وهم يعملون فيها على تمرين الذاكرة «نظريا» دون بقية القوى العملية «تطبيقات» ، فتقوى الحافظة ويضعف الفهم والفكر ، وهذا ما يصدق خصوصاً فى الأزهر

وقد فكرت الحكومة فى ترقية التعليم وأرسلت ٤٩ شاباً الى أوربا لتلقى العلوم المختلفة . وهناك مدرسة الادارة التى أعدت لتخريج القضاة وموظفى المحاكم الأهلية ، وهى لا تفى بحاجات البلاد ، ولابد من وضع برامج جديدة وافية ، وكذلك مدرسة اللغات فلا بد من تنظيمها على وجه يمكن الحكومة من الحصول على مترجمين أكفاء من المصريين

ونوه بأن البلاد فى حاجة الى مدرسة زراعية ؛ فهى بلاد زراعية بحتة ومحصولاتها السنوية لا تقل قيمتها عن خمسة عشر مليون جنيه

ثم ان مدارس الحكومة تفتقر الى وجود مفتشين بارعين يشرفون على سير التعليم ويتولون مراقبته

وقد نفذت الحكومة كثيرا من هذه المقترحات وأنشأت مدرسة الحقوق والمدارس الزراعية

**الموظفون الملكيون الأوروبيون** . إن عدد الموظفين فى مصالح الحكومة الملكية يزيد كثيراً على حاجة هذه المصالح ، وذلك يرجع فى الغالب إلى تفشى داء المحسوبية . فان عدد هؤلاء الموظفين يبلغ نحو ٢٠ ألف ومجموع مرتباتهم مليونا ومتى ألف جنيه(١) نصفهم موظفون فى المصالح الادارية والنصف الآخر مؤلف من صغار المستخدمين والعمال الذين يشتغلون فى مصالح مختلفة . ومن الفئة الأولى ٨ ٪ أوروبيون وقد بلغ مجموعهم ١٠٥٤ موظفاً ، منهم ٢٤٠ انجليزياً وملطياً و ٢٤٠ فرنسياً و ٣٠٠ إيطاليا و ١٠٤ يونانيا و ٨٠ نمساويا و ٣٥ ألمانيا ومتوسط مرتب الموظف الأوروبى ٢٨٣ جنيهاً سنوياً . وكيفما كان الأمر ، فلا بد من تقليل هؤلاء الموظفين تدريجياً لئلا يتطرق الخلل إلى المصالح التى يتولون ادارة أعمالها ، فانهم بلا ريب أسدوا إلى البلاد خدمات جليلة لا سبيل لانكارها ولا يستطاع الاستغناء عنهم فى الوقت الحاضر

ولا يمكن تصور دهشة اللورد لو بعث من مرقده وعلم بالعدد الضخم الموجود الآن من الأجانب فى الوظائف الحكومية ومرتباتهم العالية ، مع وجود أكفاء من أبناء البلاد قادرين على اشغال هذه المناصب

ولمعالجة هذه الحالة ، يلزم تعيين لجنة يعهد إليها درس حالة الموظفين وانتخاب الأصلح منهم لادارة الأعمال وتحديد شروط الترقى فى الوظائف ، وتعديل لائحة المعاشات على وجه يتفق وحالة الخزينة

**الدومين** . أما مصلحة الدومين فهى مصلحة دولية وتختلف عن مصالح الحكومة إختلافاً بيناً ، فمرتبات الأوروبيين فيها تبلغ ٨٥ ٪ من مجموع المرتبات مع انها لا تبلغ فى المصالح الأخرى إلا ٢٥ ٪ . رأى اللورد أن مصروفات هذه المصلحة يجب أن تسدد من إيراداتها

وقد تسددت ديون الدومين من ثمن أراضيها المباعة وما بقى أضيف إلى أملاك الحكومة

**السخرة** . وهى من آفات مصر الكبرى ويرجع منشؤها إلى ستة آلاف سنة . ولذلك يتعذر إزالتها تماماً ولا سيما أن المصريين يرونها ضرورية لاقامة السدود فى وجه الفيضان ، غير أنه يستطاع تخفيف عبئها على قدر الامكان بتنظيم طرق العمل . وقد ألغيت فيما بعد

---

(١) لو عملت النسبة لوجد أن الموظفين الأجانب ٦ ٪ من مجموع الموظفين ومرتباتهم تبلغ ٢٥ ٪ من مجموع المرتبات على حين أن نسبة المصريين ٩٤ ٪ ومرتباتهم ٧٥ ٪ من مجموع المرتبات !!!

**التجنيد** . التجنيد مما يكرهه الفلاحون في مصر . وسيشرع فى تجربة طريقة التطوع فى أرطتين من الجندرمة فاذا نجحت هذه الطريقة أمكن التوسع فيها . ولكن لا بد من ادخال الاصلاح فى الخدمة العسكرية، وتحسين المرتبات، بحيث تصير من الخدم المألوفة لدى الأهالى

**قبائل البدو** . فى مصر يبلغ عددهم ٤٠٫٠٠٠ بدوى قادرين، فيما يقال، على حمل السلاح . وهم ينقسمون إلى (١) بدو الشرق أو العرب وهم يقيمون فى الجهات المتاخمة للبحر الأحمر ، ويضاف اليهم عرب الصحراء وشبه جزيرة طورسينا (٢) بدو الغرب أو المغاربة ويقيمون فى الجهة الغربية من وادى النيل وصحراء ليبيا (٣) بدو الجنوب أو الأثيوبيين وينزلون فى طرف الجهة الشرقية من وادى النيل وفى بلاد النوبة .

وكان البدو إلى بدء القرن الحالى لا يزالون محتفظين بصفاتهم الحربية، فكانت الحكومة تحسب لهم حساباً كبيراً . وفى عهد محمد على باشا استخدمهم فى حملاته الحربية واتخذهم كشافة لجيشه ، ثم خطر له ان يشغلهم بالزراعة وحذا خلفاؤه حذوه . . . فاختلط العرب بتوالى الأيام بالفلاحين بطريق المصاهرة ، وأدى ذلك إلى خضوعهم لسلطة الحكومة . غير أنهم لا يزالون على شيء من خشونتهم البدوية ، واستقلالهم الذاتى . ولذلك لم يسع الحكومة سلبهما الامتيازين اللذين حصلوا عليهما فى عهد محمد على باشا الكبير ، وهى الاعفاء من العونة ومن الجندية . وفى الثورة العرابية انحاز الفا بدوى من عرب الفيوم إلى جانب عرابى وأغار مئات منهم على الاسكندرية بعد حرقها . . . غير انهم فى الوقت الحاضر لم يعد يخشى شرهم .

**السودان** . يشير بعضهم على مصر بالتخلى عن السودان ، ولكن لا ينتظر ان يكون لسياسة مثل هذه نصيباً من النجاح ، لانه ما دامت مصر مسئولة عن جهات النيل السفلى فمن البديهى ان تميل إلى الاستيلاء على جميع جهات مجراه . ولكن الأدارة المصرية فى السودان مختلة ضعيفة ، بدليل أن المهدى استطاع بسهولة استثارة القبائل وتوسيع نطاق سطوته رغم انه فقد نحو ٤٠٫٠٠٠ من رجاله فى الحروب التى تدور رحاها هناك منذ سنة ونصف سنة . غير ان خسارة مصر فى رجالها لا تقل عن ٩ آلاف مقاتل . وقد بعثت أخيراً إلى الخرطوم بنجدة مؤلفة من ١٠٫٠٠٠ رجل بقيادة الميرالاى هيكس يصحبه عدد من الضباط الاوربيين المتقاعدين لانقاذ الحامية المحصورة وتعزيز قوتها فى الأُبيِّض

وقد فشلت هذه التجربة كما سنذكر .

وهو يرى أن يعد مشروع دقيق لادارة بلاد السودان فى المستقبل ، وان تنشأ سكة حديدية من سواكن إلى بربر أو إلى شندى على النيل ـ وتقدر نفقات هذا الخط بنحو مليون ونصف مليون من الجنيهات . فاذا تم هذا المشروع وانتظمت إدارة البلاد تتحسن أحوالها ، وبدلا من أن تكون عبئاً ثقيلا على عاتق مصر ،كما هى الحال الآن تصير قادرة على كفاية نفسها والاعتماد على مواردها ، ولا سيما متى جلبت لها الآلات الزراعية ، وتيسر لهـا نقل حاصلاتها إلى البحر ، فيتسع حينئذ نطاق تجارتها ويتصل روح التمدن بالبلاد المجاورة لها

ويقترح اللورد أن تتخلى مصر عن دارفور ، وعن قسم من كردفان مكتفية بأقليمى الخرطوم وسنار .

وإنى اترك للقارىء الحكم فيما يختص بهذا الموضوع بحذافيره ! ! !

**تجارة الرقيق** . يلوح ان إبطال الرقيق دفعة واحـدة من أصعب الأمور ، ويقترح على الحكومة الانجليزية ان تعقد مع الحكومة المصرية ميثاقاً جديداً ، يقضى بابطال الرقيق فى مصر وملحقاتها بعد سبع سنوات من تاريخ الميثاق .

وللوصول إلى هذه النتيجة يجب تسوية المسائل المتعلقة بالحبشة ، وجعل مصوع فرضة حرة ، وإنشاء طرق جديدة فى السودان ، وجعل مصلحة إبطال الرقيق تحت اشراف ضباط أوربيين ، ومراقبة تجار جدة مراقبة جدّيّة ، وتخويل السفن الانجليزية حق مراقبة سواحل البلاد العربية وغير ذلك .

**المواد الجنائية فى المحاكم المختلطة** . يرى دوفرين أن يعهد الى المحـاكم المختلطة بالنظر فى المواد الجنائية . حيث أنها أظهرت كفاءة تامة فى نظرها القضايا المدنية والتجارية .

**مصر والمعاهدات التجارية** . ويرى تعديل المعـاهدات التجارية المعقودة مع مصر تعديلا يلائم مصلحتها ... وهى بحالتها الحاضرة فيها غبن فاحش لها .

**اعفاء الأجانب من الضرائب** . ويرى السعى لدى الدول للعدول عن اعفاء الأجانب من الضرائب .

ولا يزال الأجانب حتى اليوم معفون من أهم أنواع الضرائب

**تمثيل مصر فى الخارج** . ويقترح على الحكومة المصرية أن يكون لها وكلاء فى الخارج ، حتى يمكنها أن تقوم بالمساعى التى تريدها لدى الدول ... بصفة غير رسمية

**الاصلاحات** . ويعترف بأن الحكومة المصرية بذلت فى السنين الثلاث الأخيرة من الجهود فى تحسين ادارة البلاد ما لا يستطاع انكاره ... واستدل على ذلك بتقرير لجنة التحقيق سنة ١٨٧٨ ، وهو التقرير الحاوى لقواعد الاصلاح الأساسية فى كثير من المرافق الحيوية

**الميزانية المصرية** . ميزانية الحكومة قسمان أولهما ميزانية الايرادات المخصصة للدين . والثانى ميزانية الايرادات المخصصة لمصروفات الحكومة . وقد بلغ مجموع المتحصل فى ١٨٨١ من الايرادات من الأولى ٤٧٧٥٨٩٥ جنيه ومجموع المصروفات ٤١٠٩٨٦١ جنيه وبلغ مجموع الايرادات الثانية ٤٤٦٣٨٩٥ جنيه والمصروفات ٤٢٦٧٥٦٢ جنيه فكانت الزيادة ٨٦٢٣٧٧ جنيه . وهذه النتيجة مكنت لجنة التصفية من وضع قاعدة لاعداد مبلغ كاف لاستهلاك أقساط الدين وخصصت ميزانية الايرادات العائدة للحكومة لسداد جميع المصروفات غير الاعتيادية

أما ميزانية سنة ١٨٨٢ فكانت الايرادات ٨٫٨٤٦٫٠٠٠ جنيه والمصروفات ٨٫٤٦٣٫٠٠٠ جنيه والزيادة ٣٨٠٠٠ جنيه

وإنا والأسى ملء نفوسنا نذكر أنه من تاريخ هذا التقرير الى يومنا هذا نرى الدين الموحد لا يزال كما هو

**النتيجة** . واختتم اللورد تقريره بأن قال إن جانباً عظيماً مما ذكرناه يجب أن يشرع فى تنفيذه حالا ، خصوصاً ما تعلق منه بالمحاكم الأهلية والنظم النيابية الجديدة ... وقال بهذه المناسبة ، إن انشاء هذه النظم فى مصر سيكون أكبر الأدلة على بعده وبعد دولته عن الأغراض الذاتيه .. إلا أن الحكومة المصرية قد تعجز عن القيام بتلك المشروعات ما لم يرشدها ويساعدها الاجانب .

**كتاب اللورد دوفرين الى شريف باشا — ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٣**

« قبل أن أغادر مصر ، أرى أن أرسل اليكم صورة من التقرير الذى أصدرته فى تنظيم شئونها وضمنته الآراء التى تبادلناها فى المهمة المشتركة التى اشتغلنا معاً فيها .. ومع أنه لا يخطر لى أن ألقى عليكم وعلى زملائكم تبعة الأمور التى تناولتها فيه ، فانه لا يسعنى مع

ذلك أن أنكر فضلكم فيما أفضيتم به الى من المعلومات الثمينة ، وهو ما يجعل مصر مدينة لكم بالفوائد التى تجنيها من مشروع الاصلاح ، الذى استندت فى وضعه الى أصالة رأيكم وعظيم اختباركم فى الشئون السياسية والادارية ، التى مارستموها مدة طويلة تحت رعاية الجناب الخديوى . وانى آسف لاضطرارى الى مغادرة مصر من غير أن يتاح لى الاشتغال فى تنفيذ هذا المشروع ، الذى أرجو أن يوصل مصر الى غرضها المنشود

« نحن الآن فى مفتتح عهد الإصلاح ، ومع ذلك فان المرحلة التى اجتازتها البلاد فى طريق النجاح تبعث الى الارتياح ، فقد زال القلق المعنوى ، واستقر الأمن فى نصابه ، وأعيد تنظيم الجيش والبوليس والجندرمة ، على منوال يدعو الى الاطمئنان والثقة

« وقد تحسنت حالة المحصولات فى الوجهين القبلى والبحرى تحسناً كبيراً ، وأصبحت الأموال الأميرية تحصل فى مواعيدها ، ولجنة التعويضات تتابع أعمالها على أسلوب حسن ، والناس منصرفون إلى أعمالهم ، وصرف جانب من التعويضات إلى صغار التجار ومنع استعمال السوط فى تنفيذ الأحكام التأديبية وأصلح نظام العونة . أما الرشوة والمظالم والتعديات ، فالمأمول أن تتلاشى تدريجياً ، كما يرجى أن يتم قريباً بحث القوانين المدنية والجنائية ، وتعديل أصول المحاكمات وتنظيم المحاكم تنظيماً تضمن به حقوق المتقاضين ، وتوضع النظامات النيابية موضع الاجراء ، ليتمكن نواب البلاد من معالجة الحالة بأنفسهم واختيار الرجال الصالحين لادارة شئونها . ومن حسن حظ مصر أنه أتيحت لها هذه الفرصة للعمل على النهوض ، فينبغى لها أن تنتهزها وتعمل فى هذا السبيل بعزيمة صادقة . ولقد ذللتم دولتكم الصعاب التى واجهتموها فى مسألة بيع أملاك الدومين ، والمأمول أن تتمكنوا من حل مسألة ديون الفلاحين بما يوفق بين مصالحهم ومصالح الدائنين وأن توفقوا الى حل المشكلات الأخرى تدريجياً ، معتمدين فى ذلك على همة واخلاص الذى هم فى الخدمة الحكومية المصرية من الموظفين الأوروبيين المتصفين بالفطنة والذكاء والخبرة . ولما كنت أخاطبكم بصفة صديق لا بصفتى الرسمية فأرى أن اختم كتابى هذا بالتنويه بما اتفقنا عليه أثناء مخاطباتنا ، وهو ان نفهم الجميع ، أن نظام الحكم الذى ستضعونه بمساعدة حكومة جلالة الملكة ، سيكون ثابتاً وطيد الاركان ولا سيما أن اللورد جرانفل ، أعرب غير مرة عن ثقته بالجناب الخديوى وصدق رغبته فى أن تكون الحكومة الخديوية قائمة على قواعد ثابته ، وهذا ما يدعو الذين ألقيت اليهم مقاليد الأمر من رجال مصر ، الى الثقة بمساعدة الأمة الانجليزية برمتها لهم فى

مهمتهم الوطنية . زد على ذلك أن أوروبا بجملتها ، وقفت ترقب مجرى الأحوال فى مصر ، وهى راغبة أشد رغبة فى أن تقترن مساعيكم بالنجاح التام

« وهذا مايبعث على الرجاء بقرب موافقتها على إبطال إعفاء الأجانب من الرسوم والعوائد . وانى أغتنم هذه الفرصة لأعرب لدولتكم عن أجمل عواطف مودتى وصداقتى »

## جواب شريف باشا فى أول مايو سنة ١٨٨٣

فرد عليه شريف باشا بالخطاب التالى :—

« لقد أردتم قبل أن تغادروا القطر المصرى أن تعربوا لى ولزملائى عن حسن ظنكم بنا وثقتكم باخلاصنا فى العمل اثناء قيامنا بتنفيذ لائحتنا الوطنية التى شاركتمونا فيها وهو ما نشكركم عليه كل الشكر

« إن ما تضمنه تقريركم من الآراء السديدة والنصائح الحكيمة ، إنما يرجع الفضل فيه إليكم ، ولم يكن ليتاح لنا أن نأخذ على عاتقنا مهمة السير فى سبيل الاصلاح ، لولا مؤازرتكم لنا واهتمامكم بعملنا على وجه مقرون بالحكمة وكرم الأخلاق . ولما كان العدل أساس كل نظام ولا قيام للعمران من دونه ، صرفت الحكومة المصرية جل اهتمامها لتأييده وبث فوائده ، وقد أوشكت أن تشرع فى تطبيق القوانين التى اعدت لتسيير المحاكم على منوال يتفق مع احتياجات البلاد وتقاليدها . ورأت أن تشرع فى تطبيق الأحكام الدستورية الحرة عملا بمقاصد الجناب العالى الخديوى وأغراضه النبيلة . فأصدرت اليوم بمقتضى ارادته السامية قانوناً أساسياً نرجو أن يكون فاتحة عصر جديد فى تاريخ هذه البلاد ، فيتمتع أبناؤها بحق اختيار الرجال الصالحين لادارة شئونها والسهر على مصالحها وصون مرافقها ... والأمل وطيد بأن لا ينقضى عام على الشروع بالعمل فى سبيل الاصلاح ، حتى تتحقق جميع الأمانى القومية طبقاً لما تقتضيه أحكام الدستور ، الذى لنا من حسن رعاية الجناب الخديوى ومكارم أخلاقه ، ما يضمن تنفيذه على وجه ملائم لمصلحة البلاد وأنا وزملائى ، لا نتأخر عن بذل المساعدة اللازمة فى هذا السبيل ، معتمدين فى عملنا على معونة وتأييد الأمة الانجليزية وحكومة جلالة الملكة لنا ، تأييداً صادقاً مقروناً بالنزاهة والتجرد وكرم الأخلاق ، ومؤملين أن نجد من تعقل الأمة وترويها ما يمكننا من النجاح فى مهمتنا الشاقة الدقيقة

« وبالجملة فأنا وزملائى نذكر لكم بمزيد الشكر ما بذلتم من الهمة فى مساعدتنا على

إنشاء قواعد الاصلاح ، ووضع حد لعهد الاضطرابات وارشادنا إلى العلاج الشافى لأدواء البلاد

« كما انى سأحتفظ بالعلاقات الودية التى نشأت بيننا فى أثناء اشتغالنا بقضية وطنى الكبرى ، التى أعد اشتراكى فى العمل لها مع رجل جليل القدر نظيركم مشرفاً لى ورافعاً قدرى . »

***اللورد نورثبروك ومهمته*** . فى يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٤ وصلت الدارعة ( أيزيس ) الانجليزية الى ميناء الاسكندرية مقلة اللورد نورثبروك واللورد ولسلى ، فأطلق كل من مركب محمد على المصرى والدارعة ( انفنسيبل ) الانجليزية تسعة عشر مدفعاً ، ثم صعد إليها نوبار باشا والسير افلن بارنج ومحافظ الثغر ووكيل البحرية وزيبر باشا رحمت فقابلوهما محيين باسم الحكومة المصرية ، ثم عادوا الى البر وتركوهما يتناولان الغذاء . وفى الساعة الثالثة من بعد الظهر أطلقت المدافع معلنة نزول اللورد الذى ركب ونوبار باشا والمستر أجرتون عربة وركب الجنرال ولسلى والسير بارنج عربة أخرى ، وكانت العساكر الانجليزية مشاة وركباناً مصطفة من الترسانة الى المحطة وأحاطت شرذمة من البوليس المصرى عربة اللورد نورثبروك من الجانبين والأمام والخلف ، وتبعتهم عربة الجنرال ولسلى فأحاطت بها خيالة الانكليز شاهرة سيوفها ، ثم مرت بقية العربات وفيها كثير من الأعيان والضباط الانجليز الذين أتوا للتحية وكانت الأهالى مصطفة على جانبى الطريق ، وكان بالمحطة طائفة من الجنود الانجليزية لتحيته عند وصوله ثم بارح القطار الخاص الاسكندرية الى العاصمة فوصلها فى الساعة الثامنة مساء حيث كان فى استقبال اللورد ذو الفقار باشا نائباً عن الحضرة الخديوية وكبار موظفى الحكومة والضباط الانجليز ، وبعد التعارف استقل اللورد العربة الخديوية ومعه السير بارنج متوجهين الى قنصلية بريطانيا العامة حيث نزل ضيفاً

وكان يرافق اللورد غير من ذكر سكرتيره الخاص ومحمد سميع الله خان القاضى الهندى الذى استدعاه اللورد ليساعده فى مهمته

وفى يوم ١٠ سبتمبر ذهب اللورد نورثبروك ومعه السير افلن بارنج لزيارة الخديو بسراى عابدين وقد كان فى رحبتها فرقة من الحرس الخديوى وطائفة من أمراء العسكرية لتأدية التحية ، واستقبلهما الخديو مع كبار رجال حاشيته ونوبار باشا وصعدوا بهما الى قاعة الاستقبال الكبرى حيث رحب سموه بقدوم اللورد وقدمت للجميع

على حسب العادة المألوفة عند زيارة ممثلى الدول العظمى — « الشبكات » ثم القهوة .
وقدم اللورد للخديو خطاباً من اللورد جرانفل ومرسوم اعتماد تعيينه من الملكة معتمداً ساميا لها بمصر . ومما جاء بخطاب جرانفل أنه نظراً لصداقة جلالة الملكة لسموه ورغبتها فى خير مصر ، فقد اختارت اللورد نورثبروك ليكون معتمداً سامياً لها بمصر وليتخابر مع سموه فيما يلزم عمله تنفيذاً لرغبة جلالتها

وأما مرسوم الملكة له فنصه :

« نحن فيكتوريا — بنعمة الله ملكة المملكة المتحدة بريطانيا العظمى وايرلنده وأمبراطورة الهند الخ الى ابن خالنا المؤتمن المحبوب ومستشارنا الخاص توماس جورج أيرل أوف نورثبروك الأمير القائد الحامل لنجمة الهند . . . . . . أنه لما كانت مصر محاطة بالمشاكل المستصعب حلها جداً خصوصاً مايتعلق فيها بالمالية ، وقد عرفتك جديراً بالصداقة والأمانة واصالة الرأى، فقد سميناك وعيناك وثبتناك ونعينك ونثبتك معتمدنا السامى لتذهب الى مصر وتجمع المعلومات والملاحظات التى تقضى بلزومها ، وتقدم ذلك الى حكومة جلالتنا مع ما يجب إبداؤه من النصائح التى تعود على الحكومة المصرية بالفائدة وقد أعطيناك وخولناك بأمرنا هذا النفوذ المطلق لاجراء مأموريتك فى تلك الديار واقتضت إرادتنا أن تراجعنا بواسطة أحد كاتمى أسرارنا بكل ما يمكنك الاحاطة به من أحوال البلاد وما يجب التشبث به من المطالب والتوصيات ولذلك قد وقعنا على أمرنا هذا بيدنا الملوكية »

« صدر فى بلاطنا الملكى فى أوزبورن فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٨٤ ميلادية وفى السنة ٤٨ من ملكنا — بأمر جلالتها : جرانفل »

فقابل الخديو خطاب الملكة بالشكر على عنايتها بشئون مصر . وبعد انتهاء الزيارة انصرفا شاكرين . ثم رد سموه لنورثبروك الزيارة فى اليوم نفسه

وقد تبودلت الزيارات بين اللورد والنظار وكبار الموظفين من انجليز ووطنيين وفى يوم ١٩ سبتمبر مساء أقام الخديو له ولولسلى مأدبة فى سراى عابدين وبعد انتهائها أطلقت الالعاب النارية فى ميدان عابدين

وفى يوم ١٠ منه زار اللورد ومعه القاضى سميع الله خان محكمة استئناف مصر وحضرا جلستها، وبعد ذلك زار إدارة البوليس والسجون فسر من حسن النظام وأثنى على همة القائمين به، كما زار أيضاً ديوان المحافظة، وكان يرافقه غيرسكرتيره السير افلن بارنج وسافر اللورد إلى الاسكندرية وتفقد جميع المصالح الحكومية بها ، ثم بارحها فى

يوم ٢٦ سبتمبر قاصداً العاصمة معرجاً فى طريقه على كفر الزيات حيث زار محالج الأقطان لشركة سينادينور اللى ، كما نزل فى طنطا وزار مستشفياتها ومدارسها والمقام الأحمدى والسجن، فسر جداً من نظامه ونظافته خصوصاً وأن زيارته كانت مفاجئة . وبعد ذلك زار أيضاً كثيراً من عواصم مديريات الوجه البحرى

وكان اللورد قد طلب حضور المديرين وكبار عمد البلاد إلى مقره ، فكانوا يحضرون تباعاً فيناقشهم ويستفهم منهم عن الشئون التى تهمه ، وكان سكرتيره يدون كل المحادثات . كما قابل فى يوم أول أكتوبر معتمد ملك الحبشة وتحادث معه ملياً فى بعض العلاقات التى بينها وبين مصر

وقد قام اللورد بسياحة فى الوجه القبلى على اليخت الخديوى (زينة البحرين) الذى خصصه الخديو له فزار المصالح الحكومية كما تحادث مع كبار القوم . وكان معه سكرتيره وسميع الله خان ومستر جبسون مدير مصلحة التاريع ( المساحة ) . وعاد إلى القاهرة فى يوم ١٦ أكتوبر حيث كان فى استقباله ذو الفقار باشا نائباً عن الخديو

وفى صباح يوم ٢٤ أكتوبر زار الخديو زيارة الوداع ورد سموه له الزيارة . وعند الظهر أقيمت بسراى عابدين مأدبة غذاء له دعى إليها بومون قومندان الدارعة ( ايزيس ) ثم بارح العاصمة فى المساء قاصداً الاسكندرية ، فحيته الجنود الانكليزية والمصرية عند قيام القطار ووصل إلى الاسكندرية وتوجه توا إلى الدارعة (ايزيس) التى حضر عليها وبارح الديار المصرية فى صبيحة يوم ٢٥ أكتوبر

وقد أرسل اللورد نورثبروك تقريرين الى اللورد جرانفل ، أحدهما عن المشكلة المالية والثانى عن المسائل الادارية والاقتصادية ، فاقترح إزاء المشكلة المالية أن يعقد قرض بضمانة الحكومة البريطانية قدره ٥ مليون جنيه بفائدة ٣ ½ ٪ وأن تخفض فائدة الدين الموحد وسندات الدائرة السنية بمقدار ½ ٪ وأن تؤجل تأدية أقساط الاستهلاك وأن تباع أراضى الدائرة السنية والدومين وأن تفرض الضرائب على الأجانب وأن ينقص من ضرائب الأراضى[1] مبلغ ٤٥٠ ألف جنيه وتبلغ هذه الضرائب ٥٫١١٨٫٠٠٠ جنيهاً فأصبح ٤٫٦٦٨٫٠٠٠ جنيهاً وأن تخفض فائدة أسهم قناة السويس من ٥ الى ٣ ٪

(١) أن مسألة الضرائب لم تخفض وبقيت على ما هى عليه

وفى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٤ قدم تقريره الأدارى الاقتصادى وقد جاء فى مقدمته : —

« إنى لا أدعى أنى استطعت فى غضون إقامتى بمصر المدة القصيرة الأجل الوقوف على حالتها تماماً ، ولهذا أرجو ان لا تؤخذ آرائى بصددها قضية مسلمة . بيد أنى أقول إننى فى تلك الاثناء استطلعت آراء أكثر الرجال الانجليز ذوى المقدرة الذين تولوا وظائف عليا بمصر ، وجمعت معلومات جمة من المصريين ، على اختلاف أجناسهم وتباين درجاتهم وطبقاتهم ، وتلك ما أعول عليها فيما ترونه بتقريرى هذا »

ومما جاء فى هذا التقرير أنه علم أن حالة المزارعين المصريين ليست فى فقر مدقع بل يرى أن أسباب المعيشة متوفرة لديهم ، وأن حالتهم أحسن بكثير من حالة المزارعين فى بعض أنحاء الهند . وهذا يرجع إلى خصوبة الأراضى المصرية

أما بخصوص الديون فان أغلب أهالى الوجه البحرى واقعون فيها وأهالى الوجه القبلى بلا استثناء ، وأن ديونه تفوق تلك التى على الوجه البحرى . فى حين أن الأموال العشورية التى على هذا القسم أقل بكثير من التى على القسم الآخر . وليست هذه الديون ناشئة عن ثقل الضرائب ، ولكن ترجع إلى كثرة اختلاس محصلى الأموال فى الزمن السالف . ومن أهم الأسباب أيضاً إفراط الفلاحين فى الزواج والاسراف فى النفقات . كما كانت مسألة استدانة الفلاح على أرضه بسهولة من أهم الأسباب لكثرة الديون . غير أن تخفيض الضرائب وعمل مشروعات للرى حتى تقل نفقة الزراعة مما يساعد على تخفيض هذه الديون وتحسين حالة الفلاح

ويرى أنه لو وضعت الحكومة قانوناً للسلفيات وحصلت الضرائب وقت بيع المحصولات حين يوجد المال مع الفلاح لتحسنت الحالة

أما شعور الأهالى نحو الحكومة والقائمين بالحكم فحسن ، كما أنه يعتقد أنه لا يوجد بين المصريين من يشعر بأقل ميل للمهدى وأنهم يعدونه دجالا منافقاً ، وأن هذا الشعور يزداد لو اتخذت الطرق اللازمة لأبطال مسألة العونة التى يسعى الخديو الآن بكل جهده فى أبطالها

ويشهد أن المديرين والمحافظين على جانب من الذكاء ولهم معرفة تامة بأحوال مديرياتهم ومحافظاتهم وشئونها . ولقد بلغه عنهم جميعاً أنهم محترمون جداً وحاصلون على قسط من العلم والمدنية . ولاحظ أن أكثرهم وصلوا إلى مراتبهم العالية بترقيهم من

الوظائف الصغيرة . غير أن المرءوسين من الموظفين فى الادارة أثبتوا بتصرفاتهم فى ذهن الأهالى أنهم لا يسيرون فى عملهم بالعدل والاستقامة ، وهذا ما لا يرى فيه شيئاً من الغرابة اذ أن مرتباتهم قليلة جداً لا تكاد تكفيهم ، وعلى هذا فهم يضطرون الى الاختلاس وقبول الرشوة حتى يتمكنوا من العيش . ويقترح بهذه المناسبة أنه نظراً لأن عدد الكتبة والسعاة وأرباب الوظائف الصغيرة كثير جداً وفوق الحاجة ، فلو نقص هذا العدد إلى الحد المعقول الموافق لحالة العمل وتعدلت المرتبات بهذه النسبة لتحسنت حالتهم ولساروا فى أعمالهم بالاستقامة والأمانة .

هذا فى المدن أما فى الأرياف فادارة الأحكام بها فى يد العمد والمشايخ ، وقد رأى كبار المسئولين عن الحكم فى مصر ان هؤلاء يقومون بأعمالهم بلا مكافأة وأنهم يستحسنون مكافأتهم على ذلك بأن يعفى جزء من أراضيهم من الضرائب ، فهذا مما يشجعهم ويقوى هممهم وهو يوافقهم على ذلك ، كما يرى أن من الواجب النظر فى أمر الخفراء وشئونهم بأن يعطوا مكافأة ولو بسيطة على أعمالهم . فبهذه الطريقة تتحسن حالة الريف ويستتب الأمن والنظام

وقال عن المحاكم الجديدة انها فى مركز غير مفيد فى الوقت الحاضر لعدم وجود قانونين ويرى تحوير محاكمها الجنائية وانقاص أعضائها

وقال عن السجون إنها على جانب كبير من النظام والنظافة إلا أنه ينقصها قانون تشغيل المسجونين الذين لا يمكن تشغيلهم إلا اذا صدرت عليهم الأحكام بالأشغال الشاقة ، وهذا مما دعا الى كثرة الجرائم إذ أن معاقبة المجرمين محصورة فى وضعهم داخل السجون ممتعين بكل أسباب الراحة . لهذا لم يرتدع المجرمون عن إتيان الجرائم

أما الجيش فقد رأى سمو الخديو رأيا استصوبه اللورد ، وهو أن يختار عدد من المتفوقين من تلامذة المدرسة الحربية ، ويرسلون تدريجياً الى مدرسة ( سانت هورست ) الانجليزية ليتلقوا العلوم الحربية والعسكرية بها فيمكنهم بعد عودتهم عمل ما هو لازم لتحسين حالة العسكرية بالجيش

وقال إنه لا يستطيع أن يشير على حكومة جلالة الملكة بتعيين أجل لاجلاء عساكرها عن القطر المصرى ، لأن هذا متوقف على تقدم حالة الجيش المصرى وشئون البلاد الداخلية

وقد تحقق اللورد أن الحكومة الخديوية تعلم تمام العلم بكل النقائص الادارية وغيرها فى مصر ، وأنها باذلة اقصى جهدها فى تلافيه ولا يسعه إلا الاعجاب بما رأى من تقدم عظيم وإصلاحات مطردة ، فى بلاد كانت خالية نوعاً ما من القوانين وخاضعة للمظالم من قديم الأيام

**الغاء المراقبة الثنائية** . كانت هذه المراقبة قائمة حتى نشوب الحرب بين الانجليز والعرابيين ، فلما احتلت جنود ولسلى العاصمة وهدأت الأحوال أخذت الحكومة البريطانية فى إدارة شئون البلاد ، وأرادت أن تستأثر بها دون أية دولة أجنبية أخرى ، ولم يكن هناك من منافس لها سوى فرنسا ، فأرادت أن تمحو نفوذها فى مصر فدبرت فكرة الغاء المراقبة الثنائية . وقد كانت الأمة المصرية فى ذلك الوقت حاقدة على هذه المراقبة نظراً لما نتج عنهامن فصل كثيرين من الموظفين المصريين والاستعاضة عنهم بانجليز وفرنسيين كما سبق ذكره . لهذا اجتمع الخديو وشريف باشا رئيس النظار والسير ادوارد مالت قنصل جنرال انجلترا فى أوائل اكتوبر ، وتباحثوا فى هذا الموضوع مليا فرؤى الغاء المراقبة واستعاضتها بمستشار مالى ، وكلف الخديو مالت مخاطبة حكومته بهذا الصدد .

وفى ١٤ أكتوبر تخابرت الحكومة الانجليزية مع الحكومة الفرنسية فى شأن ذلك متعللة بأن التدابير التى اتخذتها ( الحكومة الانجليزية ) لوضع النظام بالقطر المصرى تلقى عليها مسئولية عظيمة ، ولهذا فانها أمرت كُلفن المراقب الانجليزى بأن لا يقوم بوظيفته ولا يحضر مجلس النظار

وفى ٢٣ اكتوبر أرسل جرانفل إلى الحكومة الفرنسية يقول إن الحكومة الانجليزية لا تنكر ما أتته المراقبة من الفوائد المادية للقطر المصرى ، بيد أن الحوادث الأخيرة ، أوضحت أن هذه المراقبة لا تخلو من الخلل والاضطراب ، وعليه فالحكومة الانجليزية ترى أن الأجدر العدول تماما عن المراقبة واستبدالها بمستشار مالى أوروبى يعينه الخديو ويحضر مجلس النظار متى دعاه سموه ، وعلى ان لايتدخل فى ادارة البلاد ، وفى الوقت نفسه يصدر الخديو أمراً بالغاء المراقبة الثنائية . ولما أن احتجت الحكومة الفرنسية على الحكومة الانجليزية ردت عليها بأنها لم تقصد إلغاء المراقبة لمجرد إرادتها بل ان سمو الخديو ، بما له من الحق ، طلب إلى وزارتها بالحاح الغاءها

ولما رأت الحكومة الفرنسية أنه لابد من حصول الالغاء طلبت ترضية من انجلترا على ذلك . فأجابها جرانفل أن رياسة صندوق الدين ستكون للعضو الفرنسى مع توسيع اختصاصاته . وكانت رغبة فرنسا من هذه الترضية أن يعين فرنسى فى إحدى نظارات الحكومة المصرية

وفى ٢ نوفمبر أعلن شريف باشا قنصل جنرال فرنسا أن المسيو بريديف ، المراقب الفرنسى الذى خلف دوبلينير ، لايدعى من الآن لحضور جلسات مجلس النظار المصرى ما دام أن زميله الانجليزى لا يحضر هذه الجلسات .

وفى ١١ يناير سنة ١٨٨٣ قدم كلفن استقالته من المراقبة فقبلت . وفى ١٨ منه صدر الأمر العالى بالغاء المراقبة الثنائية . وفى ٢٧ منه بارح القطر المصرى المسيو بريديف المراقب الفرنسى

وأخيرا رفع شريف باشا فى ٦ مارس سنة ١٨٨٣ الخطاب الآتى للجناب الخديوى ونصه : —

« مولاى — تكرمتم سموكم بالتصديق على صورة الأمر العالى الذى تشرفت برفعه الى مقامكم السامى بتاريخ ٩ ربيع أول سنة ١٣٠٠ الموافق ١٨ جنايو « يناير » سنة ١٨٨٣ متضمنا إلغاء الأمرين الصادرين فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ و ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ أحدهما يتعلق منه فى المراقبة والآخر بطيلته . ولقد ساعد حكومتكم السنية على عرض هذا الالغاء رغبتها فى مراعاة خواطر المصريين ، وتثبيت سلطتها ، فانه مهما تكن الخدمات التى أتت بها المراقبة ، فقد وضح ان تداخلها الذى تقتضيه فى الأعمال الادارية يعبث كثيراً بأعمال نظارتكم ، وكان من شأنه أن ينقل سلطة الحكومة إلى أيدى موظفين غير مسئولين لا يتعلق تعيينهم أو استبدالهم بسموكم أو بحكومتكم فقط . وفضلا عما هنالك مما يغاير النظام الداخلى ، فان استمرار حضور المراقبين العموميين فى جلسات مجلس النظار ، مهما اعتبرت المسائل التى يبحث فيها ، كانت تخول هذه المصلحة مزية سياسية تتجاوز مقاصد سموكم

ولما كانت حكومتكم السنية ، بعد إزالة هذه المغايرات ، ارتأت من الحكمة أن تتخذ لنا مساعداً أجنبياً يعيننا فى حل المسائل المالية ، فأرجو مولاى أن يعطى لهذا الأوربى ، الذى سيصير موظفاً مصرياً ، لقب **مستشار مالى** يختص بسموكم أمر انتقائه وتعيينه ، ويتعلق بجنابكم العالى توا . ومن ثم فيكون له أن يحضر جلسات مجلس النظار متى دعاه رئيس المجلس ، دون أن تكون له اختصاصات ناظر ، وله أن يتفحص المسائل المالية ويبدى رأيه بشأنها تحت حدود يعينها سموكم . وكيف كان الحال فليس له الحق مطلقاً فى التداخل فى أعمال البلاد الادارية

وإذا صدّق سموكم على ما ارتأته حكومتكم من هذا القبيل فاسمحوا لى وزملائى بأن نعرض على جنابكم العالى عهد وظيفة المستشار المالى إلى السير أوكلند كلفن ، بناء على أن المدة التى قضاها فى درس إيرادات البلاد ومعرفته بنظاماتها المالية ، تؤهلانه لنوال ثقة سموكم وثقة حكومتكم . وانى فى أى الأحوال خادمكم المتواضع الخ .

رئيس مجلس النظار

**شريف**

وعليه صدر الأمر بتعيين السير اوكلند كلفن مستشاراً مالياً (١)

**المشكلة المالية** . سبق الكلام عن هذه المشكلة فى تقارير دوفرين و نورثبروك ولقد كانت عناية السير افلن بارنج بها عظيمة

وحصلت مخابرات بين انجلترا والدول بخصوصها ، وكانت فرنسا تضع العراقيل لمناوأة انجلترا رغبة منها فى أخذ تعويض عن إبعادها عن إدارة مصر التى استأثرت بها انجلترا

**قضية صندوق الدين ضد الحكومة** . ومن ذلك ان الخزانة المصرية نقصت إيراداتها حتى صرح المستر ادجار فنسان المستشار المالى أنه فى دفعتين متواليتين فى سنة ١٨٨٤ كان ينقص الخزانة مبلغ خمسة آلاف جنيه لدفع المطلوب منها

وعند ما رأت الحكومة المصرية الصعوبات لتحصيل الأموال نقداً ، اتفقت مع البنك العمومى المصرى وبنك الكريدى ليونيه على أخذ مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه انجليزى نظير ان تبيع لهما الغلال الواردة من الصعيد بدل المال وقدرها ٤٠٠ ألف أردب تقريباً. ويكون للبنكين ٥ ٪ فائدة على المبلغ المذكور ، ونصف فى المائة عمولة ، ونصف فى المائة سمسرة فى البيع . وحفظت الحكومة لنفسها حق التصرف فى بيع هذه الغلال فى الأوقات بالأسعار التى تلائمها . وفى شهر أغسطس باعت الحكومة ما لديها بسعر الأردب من القمح ٦٢ قرشاً ومن الفول ٧٩ قرشاً ومن الشعير ٤٥ قرشاً ومن العدس ٧٠ قرشاً . وهاته الأسعار بما فيها مصاريف النقل إلى الاسكندرية . وبلغ جملة ثمن المحصول الذى تسلمته حتى ١٠ أغسطس سنة ١٨٨٤ ١٢٠ مليما ٢٢٨٤٠٠ جنيه مصرى . أما مديرية أسيوط فنظراً لأن كل المتحصل من إيراداتها يورد لصندوق الدين فقد جعلت أسعار محصولاتها بعد خصم مصاريف النقل ٥٨ قرشاً للقمح و ٦٩ قرشاً للفول و ٣٧ قرشاً للشعير و ٦٠ قرشاً للعدس

لذلك نصح بارنج بايقاف دفع الكوبون المخصص للديون فصدر المرسوم الخديوى أن تذهب كافة الايرادات المخصصة لا إلى صندوق الدين بل إلى نظارة المالية . وأجل استهلاك الدين تخفيفاً للاثقال المالية وتمكيناً من قيام الحكومة بتعهداتها أولى من توقيف رواتب الموظفين . وكانت النتيجة ان استولت الحكومة على مبلغ ٥٢٠ ألف جنيه من حساب صندوق الدين ، فأوعزت فرنسا إلى مندوبها فيه برفع قضية أمام المحاكم

(١) وقد خلفه السير ادجار فنسان فى ٦ نوفبر سنة ١٨٨٣ وكان قد وصل مصر في يوم ٣ منه

المختلطة على هذا التصرف الذى هو ضد قانون التصفية ، فوافق باقى أعضائه ما عدا العضو الانجليزى . فرفعت الدعوى فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٤ وبعد تأجيلات صدر الحكم فى ٩ ديسمبر باخراج نوبار باشا من الدعوى . وان يدفع مصطفى باشا فهمى ناظر المالية ، ومصطفى باشا صبحى مدير الغربية ، واحمد بك شكرى مدير المنوفية ، ومحرز بك مدير البحيرة ، ومحمد باشا زكى مديرأسيوط ، والمستر كاليار مدير عموم الجمارك ، وعلى باشا رضا ، والمسيو لومزيريه مدير السكة الحديد . بطريق تضامنهم جميعاً مع الحكومة المصرية مبلغاً قدره ٥٢٠ ألف جنيه إلى خزينة صندوق الدين كل بما يخصه . وكذلك حكمت المحكمة عليهم بأن يدفعوا الفوائد باعتبار ٧ ٪ سنوياً من تاريخ دفع المبالغ بغير وجه حق إلى خزينة المالية إلى حين ارجاعها مع المصاريف . فاستأنفت الحكومة المصرية هذا الحكم

هذه كانت احدى العراقيل التى وضعتها فرنسا فى سبيل انجلترا بمصر ، رغم ان الدول كانت قد اتفقت على عقد مؤتمر بلندره للنظر فى حل المشكلة المالية المصرية بناء على دعوة وجهها اللورد جرانفل فى ١٩ ابريل للنظر فى المشكلة المالية المصرية وتعديل قانون التصفية ، وكان قد عقد فعلا تحت رياسة اللورد جرانفل ، وبدأ عمله من يوم ٢٨ يونيه سنة ١٨٨٤ وبعد مناقشات طويلة ومباحثات شاقة ورغم العراقيل التى كانت تضعها فرنسا لتعطيل سيره فقد انتهى الامر بالتوقيع فى ١٧ مارس سنة ١٨٨٥ على الوفاق المالى المصرى من الدولة العثمانية وألمانيا واستراليا وفرنسا وانجلترا وروسيا وإيطاليا . واشترط انه إذا مضت ثلاث سنوات على مصر من تاريخ قرار المؤتمر ولم يزل ارتباكها بل استمرت معرضة لخطر الافلاس تشكل لجنة دولية مالية لتنظر فى المسألة وترفع أيدى الانجليز عن العمل

ويقضى الوفاق المالى بما يأتى : —

(أولا) عمل قرض من بيت روتشيلد بضمانة الدول كلها قيمته الاسمية ٩ مليون جنيه انجليزى (٨٫٧٧٥٫٠٠٠) جنيه مصرى بفائدة ٣½ ٪ . يدفع من هذا المبلغ : —

ا — ٢٫٦٥٧٫٠٠٠ جنيه مصرى قيمة عجز الميزانية سنة ٨٨٤ والسنين التى سلفتها .

ب — ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه قيمة ما يتوقع من العجز فى ميزانية سنة ١٨٨٥ .

ج — ١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه لأعمال الرى — د — ٥٥٠٫٠٠٠ جنيه تعويضات لأجل إلغاء بعض رواتب التقاعد — هـ — ٥٠٠٫٠٠٠ جنيه أموال احتياطية لخدمة الخزينة .

ويدفع من هذا القرض أيضاً تعويضات حوادث الاسكندرية ، وما يتبقى يستهلك من أصل الدين بشراء سندات بقيمتها ( ثانياً ) جعل فائدة لهذا الدين مبلغ ٣٠٧١٢٥ جنيها مصريا ( ثالثاً ) يفضل هذا القرض على ما سواه من الديون ( رابعاً ) لا يجوز عمل أى ضريبة على السندات التى تصدر بهذا القرض (خامساً ) إلغاء شرط قانون التصفية الخاص بالتصرف فى الزائد من الايرادات ويستعاض عنه بآخر يقضى بأن عجز الميزانية الحرة يعطى من الايرادات المخصصة ، وأن تقسم الزيادة العامة قسمين ، قسم يذهب لصندوق الدين والآخر أى الايرادات الحرة ، للحكومة المصرية . ولكى ينفذ هـذا الشرط على حقيقته حددت الدول نفقات إدارة البلاد تحديداً دائماً بمبلغ ٥٫٢٣٧٫٠٠٠ جنيه مصرى سنوياً . وعلى ذلك أباح الاتفاق للحكومة المصرية — كمعونة مالية أخرى — حق بيع أراضى الدائرة السنية والدومين والمفاوضة فى فرض الضرائب على الأجانب (سادساً ) حجز ٥ ٪ من كوبونات الدين لمدة سنتين ( سابعاً ) تأجيل دفع أقساط الاستهلاك المستحقة على معظم الدين مدة سنتين كذلك ( ثامناً ) لا تكون ضمانة هذا القرض سبباً فى تدخل الدول فى ادارة شئون مصر

ومن الاحتياطات التى اتخذت لتخفيف قرض روتشيلد أن تقرر استبدال المعاشات بأراض أميرية ، سواء كانت من أراضى الدومين أو الأملاك الحرة ، وتضرب على الأراضى المعطاة فى نظير المعاش أموال أميرية تستخلصها فى كل سنة . وتقتصد المرتبات المعينة لمستخدمى قلم المعاشات

وكان الخديو اسماعيل طلب الى الحكومة المصرية أن تدفع له مبلغ خمسة ملايين من الجنيهات المصرية نظير الأموال التى أنفقها على الأراضى التى تخلى عنها للحكومة المصرية ، والمرتب المستمر الذى تقرر له ودفع المتأخرات المستحقة له ومكافأة مالية على تركه للحكومة بقية الأراضى والسرايات والمفروشات والأمتعة الثمينة التى استولت عليها سنة ١٨٨٠ ولم تذكر فى حساب سنة ١٨٧٩ ، وكذلك تسوية مسألة المواشى التى استولت عليها أيضاً وحساب أراضى الدائرة السنية من سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨٠ . فنظرت الحكومة فى هذه الطلبات وانتهت بتسويتها بدفع مبلغ سنوى له نظير ذلك

وقد تبين من الكشوف الرسمية التى قدمت فى ٤ يناير سنة ١٨٨٥ أن رأس مال الدين الموحد الذى كان فى ٢٦ أبريل سنة ١٨٨٤ هو مبلغ ٥٥٫٩٩٢٫٤٤٠ جنيها انجليزيا قد انخفض بعد الاستهلاك الذى تم إجراؤه عن قسط نوفبر الماضى الى

٣٢٠ر٩٩١ر٥٥ جنيها انجليزيا وفائدته التى تستحق فى أول مايو سنة ١٨٨٥ مبلغ ٨٢٦ر١١٩ر١ جنيه انجليزى و ٨ شلنات

وهاك بيانا عن حالة التصفية فى يوم ٩ أبريل سنة ١٨٨٥ رفعه ناظر المالية الى الجناب الخديوى فظهر منه أن الدين السائر الذى كان فى ختام سنة ١٨٧٩ ( أثناء عملية الجرد) مبلغ ٨٧٤ر٠٦٠ر١٢ جنيه وفى ختام سنة ١٨٨١ ٨٥٩ر٨٨٤ر١٢ وفى ختام سنة ١٨٨٤ ٥١٩ر٤١١ر١٣ جنيه وذلك على أثر إقامة بعض الدعاوى المرفوعة ضد الحكومة والتى لم تكن قد نظرت حين إجراء عملية التصفية أو على أثر قرارات خصوصية بشأن تسوية بعض ديون أو اختلافات من تحرى سندات بعض الديون وغير ذلك

أما مجمل الديون التى صار سدادها سواء من بقايا الضرائب أو ديون الحكومة على الدائنين أو سندات أو نقود فيلغ لغاية ديسمبر سنة ١٨٨٤ ١٩٠ر٢٢٤ر١٣ جنيها فيكون الباقى من الديون تحت السداد لغاية التاريخ المذكور ٣٢٩ر١٨٧ جنيها هذا عدا بعض دعاوى لاتزال مرفوعة ضد الحكومة وهى مما لا يمكن تقدير قيمتها ولو بالتقريب .

أما أموال التصفية فكانت فى آخر ديسمبر سنة ١٨٨٤ ٣٦٠ر٣٨٢ جنيه انجليزى و ٨ شلنات اسمية عن سندات الدين الممتاز تبلغ قيمتها الفعلية (على معدل ٨٧٪) ٨٠١ر٣٧٢ جنيه مصرى ومن ٥٢٠ر٢١٢ جنيه انجليزى اسمية عن سندات الدين الموحد تبلغ قيمتها الفعلية ( على معدل ٦٥٪ ) ٨٣٥ر١٣١ جنيه مصرى ومن ٢٦٠ر١٢٨ جنيها مصريا عن رصيد حساب جار مع نظارة المالية فجملة ذلك يبلغ ٨٩٧ر٦٣٢ جنيها مصريا

**تهديد فرنسا بقطع علاقاتها بمصر** . من يوم أن احتلت انجلترا مصر وانفردت بادارة شئونها وفرنسا توجه الانتقاد والطعن على أعمالها وتتحين الفرص للتشنيع بها ، اذ كان غرضها أن يكون لها حظ فى الادارة المصرية ، فلما لم تمكنها انجلترا من ذلك حنق الفرنسيون على الانجليز خصوصاً بعد مسألة الغاء المراقبة الثنائية ، وكان من أهم أدوات توجيه الطعون والانتقادات جريدة البوسفور ايجبشيان الفرنسية

فلما أن كان يوم ٥ أبريل سنة ١٨٨٥ نشرت هذه الجريدة فى قسمها العربى منشور من المهدى مثيراً للخواطر . ولم يكتف مدير الجريدة بذلك بل أرسل كمية كبيرة من هذا العدد إلى داخل البلاد لتوزيعها مجانا ، فلم تجد الحكومة مبرراً لوقوفها مكتوفة اليدين أمام هذا الأمر ، فاتخذت بواسطة البوليس وبموافقة قنصل جنرال انجلترا الاجراءات اللازمة نحو تعطيلها ، فأبلغت ذلك إلى قنصل جنرال فرنسا لأرسال مندوب من قبله

لحضور التنفيذ فى مساء يوم ٨ أبريل فاحتج على ذلك . ولكن لم يجد احتجاجه فقد توجهت قوة من البوليس أغلبها من الأوروبيين إلى مطبعة الجريدة لقفلها . وكان بادارة الجريدة وكيل القنصلية الفرنسية فى مصر . فقصد البوليس توا إلى محل المطبعة وكسر أحد أبوابها بأمر فنك بك قومندان قوة بوليس مصر ودخل اليها وأخرج العمال وسأل صاحبها الخروج فأبى واحتج على ذلك . ولما علم وكيل القنصلية الفرنسية بذلك خرج من محل الادارة وتوجه إلى محل المطبعة وأراد الدخول فمنعه البوليس وأهانه بأن دفعه إلى الوراء ، وأمر الضابط عساكره بحشو بنادقهم . فعاد وكيل القنصلية إلى الادارة وكتب تقريراً وافياً عما رآه كى يرفعه إلى حكومته . ولكن رغم كل ذلك فقد قفلت المطبعة وختمت بالشمع الأحمر وتركت قوة من البوليس لحراستها . وكنت أسير بالصدفة فى تلك الجهة فى ذلك اليوم فشاهدت جمهوراً كبيراً من الأوربيين . وخصوصاً الفرنسيين ، اجتمعوا لمشاهدة هذا الحادث وكثير منهم كان يحمل نوبار باشا رئيس النظار تبعية ذلك ، ومنهم من زعم أن هذا الحادث ربما سبَّب فى سقوط نظارته

ولما أن بلغ متولى أعمال القنصلية الفرنسية حكومته ذلك أرسل دوفريسنيه اليه فى ١٨ أبريل أوامر مشددة يأمره فيها بالذهاب حالا إلى الجناب الخديوى ونوبار باشا لتبليغهما طلباته التى منها : رفت المأمورين الذين دخلوا محل البسفور رغماً عن احتجاج القنصلية ، ثم فتح المطبعة بلا شرط . وقد ختمت الطلبات بما يأتى : — ( بلغوا الحكومة المصرية طلباتى هذه رسميا واطلبوا منها الجواب السريع فاذا ترددت فى إجابة الطلب فالحكومة الفرنسية ستتخذ الاجراءات اللازمة لتكفل نوال مطالبها إذ أنها لا تقبل أن تمس حقوقها مطلقاً )

فتوجه إلى سراى عابدين وأبلغ الخديو ذلك ، ثم إلى نظارة الخارجية فلم يقابله نوبار باشا بحجة أن وقته لايسمح باستقباله لاشتغاله بأمور هامة ! وقابله تيجران باشا وكيل النظارة . ولكن لما أن علم نوبار بما جاء بتعليمات دوفريسنيه طلب من متولى أعمال القنصلية مهلة ثمانية وأربعين ساعة لاعطائه الجواب .

ولقد أثار هذا الموضوع أعضاء مجلس العموم بانجلترا فى ٢٠ أبريل سنة ١٨٨٥ أعلن جلادستون أن المخابرات بهذا الصدد جارية بينه وبين فرنسا وأن انجلترا تود من مصر أن تنهج منهج العدل ، وأنه يعتقد بأن حكومة مصر سوف لا تخرج عن هذا المبدأ . كما اعترف بمسئولية انجلترا أيضا عن هذا الحادث

وفى يوم ١٩ ابريل ( أى بعد انقضاء المهلة ) توجه نوبار باشا الى قنصلية فرنسا وتقابل مع المسيو تيللانديه القائم بأعمالها ليقدم جواب الحكومة المصرية راجيا منه أن يبلغ مسيو دوفريسنيه رغبة الحكومة فى أن يفسح لها أجلا آخر مدة عشرة أيام يتمكن فى خلالها من مخابرة الدولة العلية، إذ أن المسألة تتعلق بالامتيازات الدولية ومع الحكومة الانجليزية تلقاء مركزها الحالى. فأجاب بأنه لم يكن ينتظر منه مثل هذا الرد فى آخر دقيقة وأن تبليغ حكومته رغبة الحكومة المصرية لا يجدى نفعاً إذأن جوابها سيكون بالرفض بلا جدال، ولدى من تعليمات حكومتى ما يخولنى أن أقول ما قلت. ومع كل ذلك فسأنقل طلبكم لها تلغرافياً لأبرهن لكم على شدة إخلاصى. غير أننى على ثقة أن الرد سيكون سلباً، إذ أن الدولة العلية لا دخل لها فى أعمال مصر الداخلية، وانجلترا لا مصلحة لها فى المسألة التى نحن بصددها. فأخبره نوبار باشا بأنه كتب الى الباب العالى بهذا الشأن. وقال له: — أرجوك أن تبلغ طلبى الى وزير خارجيتكم. وبعد مبارحته القنصلية أبرق الى الدولة العثمانية يستشيرها فى المسألة، كما أبرق تيللانديه الى حكومته بما دار بينه وبين نوبار باشا فتلق الرد بالرفض. وسأله الحصول على جواب نهائى لايقبل التردد قبل الساعة الرابعة من مساء يوم ٢١ ابريل. وفى صبيحة هذا اليوم قابل تيللانديه نوبار وأخبره بما كان. وعند الساعة الرابعة زار نوبار باشا القنصلية الفرنسية وأخبر تيللانديه أنه تلق تلغرافا من الباب العالى أنه قد صدرت الأوامر للسفير العثمانى بباريس بمخابرة المسيو دوفريسنيه، وعليه لا يمكننى أن أتم شيئاً فأجابه المسيو تيللانديه بأنه لايعرف ذلك بل رفضه باسم فرنسا. فقال له نوبار باشا: — ليس ذلك بحجة حتى ترفضه بل حقوق. فرد عليه بأن فرنسا لا تعترف للباب العالى بالتدخل فى مثل هذه المسائل الداخلية. وانصرف نوبار باشا فأبرق ثانية الى الباب العالى بملخص الحادثة. وكتب تيللانديه بدوره الى حكومته يطلعها على جملة المسألة ظاهرها وخافيها وفى يوم ٢٤ ابريل توجه تيللانديه الى سمو الخديو، ثم الى نوبار باشا وترك لكل منهما نسخة من التعليمات الجديدة الواردة اليه من حكومته بالمضمون الآتى: — « بما أن حكومة مصر أبت أن تعامل فرنسا بما يقابل خدماتها العديدة لها ورفضت انفاذ ما سألته منها، فالرجاء من جنابكم أن تبلغوا تعلماتى هذه إلى سمو الخديو ودولتلو نوبار باشا وتعلموهما أن دولة فرنسا تمتنع من الآن عن تسهيل أى أمر يتعلق بمصر وقد أوقفت الوفاق المالى، ثم مسألة ضرب الضرائب على رعاياها، وأمرت أيضاً باستئناف دعوى صندوق الدين ضد الحكومة المصرية، ولم تكتف بهذا فقط بل تعلن أيضاً قطع علاقاتها

السياسية مع مصر ، وتأمر وكيلها المسيو تيللانديه بعد تبليغ ذلك للحكومة أن يبارح القطر المصرى والعودة حالا الى باريس ، ويقول أيضا : — « إن دولة فرنسا لديها من المعدات التى تكفل حصولها على حقوقها واحترام مركزها ورعاية حريتها وانفاذ مطالبها . هذا وفى الوقت نفسه اقرأ تلغرافى هذا على زملائك قناصل الدول » ثم زار قناصل الدول وبلغهم ذلك ولما أن شاع فى العاصمة خبر سفره زاره بعض القناصل وأعيان الأجانب .

ولقد اشتد الموضوع تحرجا حتى انه كانت بمياه الاسكندرية بارجة حربية فرنسية فبارحت الميناء قبل شروق يوم ٢٥ ابريل سنة ١٨٨٥ الموافق عيد جلوس الخديو كى تتخلص من أداء واجب التحية باطلاق المدافع كالعادة ، ورغم الحاح بارنج على تيللانديه بتأجيل سفره فقد بارح العاصمة فى يوم ٢٦ ابريل إلى الاسكندرية لانتظار أوامر دولته بها ، وكان يودعه بالمحطة الجالية الفرنسية وقناصل الدول ما عدا قنصلى انجلترا وإيطاليا

وفى هذه الاثناء عرضت الحكومة الانجليزية على الحكومة الفرنسية ترضيات مهمة على شرط تأخير اصدار جريدة البسفور حتى يتم الاتفاق على قانون المطبوعات الذى شرعت الحكومة المصرية فى سنه ، أما فرنسا فقد رفضت على ما قيل كل اشتراط فى هذا الصدد

بعد ذلك استمرت المخابرات بين فرنسا وانجلترا فى هذا الشأن إلى أن تم الاتفاق على فتح المطبعة واعتذار الحكومة المصرية . ففى يوم ٢ مايو سنة ١٨٨٥ رجع تيللانديه إلى القاهرة فاستقبله فى المحطة جم خفير من الفرنسيين وزاره قناصل الدول مهنئين بعودته . وفى اليوم التالى زاره نوبار باشا بالملابس الرسمية فاستقبله بالقنصلية ومعه قومندان البارجة الحربية الموجودة بالاسكندرية وقنصل فرنسا بالاسكندرية وكذلك المسيو تاليه نائب القنصلية بملابسهم الرسمية فأبدى نوبار باشا عبارات الأسف عما قد حصل من قطع العلاقات واعتذر عن أمره بقفل المطبعة ، ثم نزل فتوجه إلى سراى عابدين وأخبر الخديو باعادة الصلات بين فرنسا ومصر ، وبعد ذلك توجه تيللانديه إلى السراى وكان وراء عربته ثلاث عربات أخرى بها جماعة من الفرنسيين ليروا ما سيكون فى كيفية استقباله . ولما أن وصلت العربة أمام السلاملك وقف له قره قول الحرس الخديوى تعظيما . وقد تبودلت بينه وبين الخديو عبارات المجاملة . وبعد

خروجه أرسل تلغرافاً إلى قناصل فرنسا بباقى مدن القطر برفع العلم الفرنسى فوق دور قنصلياتهم عند الظهر تماماً

وبعد ظهر هذا اليوم ذهب مندوبا القنصل الجنرال وقنصلها إلى مطبعة سريير التى تطبع فيها البسفور وكان فى انتظارهما عبد الله بك صقر رئيس قلم أفرنكى البوليس المصرى فتقدم إلى الباب وفك الاختام ثم انسحب بعد أن سلم المطبعة إلى المندوبين

أما جريدة البسفور فقد استأنفت ظهورها يوم ٢٠ مايو سنة ١٨٨٥

وبعدئذ أخذت الحكومة المصرية فى المخابرة مع حكومتى فرنسا وانجلترا لاصدار قانون عام للمطبوعات يسرى مفعوله على الجرائد جميعها سواء أكانت مصرية أم أجنبية، وانتهت المخابرات بدون نتيجة، وتقرر رفع القضايا على الجرائد الأجنبية عند مخالفتها أمام المحاكم المختلطة

**ألاعيب البسفور ايجبشيان** . ومما يجدر ذكره فى ذاك الحين أن ظهرت اعلانات ملصقة على الجدران باللغة الفرنسية . كل اعلان يحتوى على كلمة واحدة مركبة من حرفين أو ثلاثة فقط ، وهى مكتوبة بلون أزرق على ورق أبيض ، وبعدظهورها ست مرات فى ستة أيام تكونت منها جملة معناها : « ها هو سيتكلم » فتحير الناس ، لا سيما وقد علموا أن مثل هذه الاعلانات قد ألصق على شوارع الاسكندرية أيضاً . وبعد ذلك ظهر على الجدران اعلانات على ورق مختلف الألوان مكتوب بها علامة الاستفهام . بحجم كبير وقد كتب تحتها ما ترجمته « هو من ؟ » أى من الذى سيتكلم ؟ . وربما كان الغرض من اختلاف ألوان الاعلانات مخاطبة الناس على اختلاف جنسياتهم . وقد ظهر الجواب بعد يوم على ورق أبيض فى سطرين ما ترجمته « هو » ولكنه ليس بالكبير ، أى هذا الذى سيتكلم . ثم ظهرت بعد ذلك اعلانات مرسوم فيها عين انسان ومكتوب تحتها ما ترجمته : — « تيقظوا وافتحوا أعينكم ولا تغفلوا » .

وقد زادت الدهشة والحيرة وكثر اضطراب العامة إذ فهموا من هذه الاعلانات أن سيقع فى يوم شم النسيم — وكان قريباً — تظاهر واضطراب يسفك فيه الكثير من الدماء .

والحقيقة أن هذه الاعلانات كانت هى أيضاً من مبتكرات جريدة البسفور إيجبشيان الفرنسية . ولكن نظراً لاضطراب حبل الأمن ووجود القلاقل الكثيرة

فهم الناس هذا الفهم، ولهذا أيضاً اتخذت الاحتياطات اللازمة واستعد البوليس للطوارىء في يوم شم النسيم.

ولما جاء يوم ٢١ أبريل، وهو يوم شم النسيم المرتقب، لم يقابله الناس بالسرور والانشراح كعادتهم لقلق نفوسهم وخوفهم من حدوث فتنة مّا وإراقة دماء من المصريين والأجانب.

وقد كانت الشوارع مقفرة إلا من رجال البوليس. وانقضى اليوم وكأن البلاد تحت الأحكام العرفية. ولو وقعت حادثة واحدة في هذا اليوم لجرت وراءها حوادث خطيرة وربما مذابح هائلة.

ومن القطع الهزلية التي كانت تنشرها الجريدة أيضاً إذ ذاك تهكما على السياسة الانجليزية في مصر قطعة في صورة اعلان وهي: —

## البيـــون وشركاه

محل كبير لمبيع الدساتير الجديدة بأثمان رخيصة للدول الصغيرة والكبيرة.

وهو مستعد لتوريد السفراء والمعتمدين الرسميين وسواهم

أحسن مجموعة من أصناف قواد العصاة الذين يصلحون للثورات...

### أســـاطيل لأجل اطلاق القنابل والتدمير...

إن هـــذا المحل المعروف بأقدميته وبراعة وكلائه

يتعهد بالعناية بسعادة الشعوب بنفقات قليلة...

وهو مستعد أن يعالج مسألة الاصلاحات اللازمة...

وشـــعاره الـــكتمان والثقة..

**تشكيل المحاكم الأهلية** . بسطنا فى الفصل الثانى كيف كان القضاء فوضى فى عهد اسماعيل ، رغم الأصلاحات التى ادخلها على ما كان عليه فى زمن اسلافه . فلما تولى توفيق وجه عنايته إلى ايجاد نظام يضمن العدالة للأهالى فعهد إلى لجنة مكونة من خيرة رجال مصر ، تحت رياسة فخرى باشا القانونى ناظر الحقانية تنظيم القضاء على أحدث الطرق ، فاجتمعت هذه اللجنة وأخذت فى القيام بما عهد اليها مسترشدة بالقانون الفرنسى على الأخص ، الا أنها أوقفت عملها لنشوب الحرب العرابية ، فلما وضعت اوزارها استأنفت عملها . وفى هذه الاثناء حضر اللورد دوفرين وأشار فى تقريره بضرورة إدخال عنصر أجنبى فى المحاكم الجديدة ، فأخذت اللجنة بهذا الرأى

وقد صدر الأمر العالى الخاص بتنظيم المحاكم الأهلية فى ١٥ فبراير سنة ١٨٨٣ وهو يقضى بان يكون عدد المحاكم الابتدائية كلها ثمانياً وعدد الاستئنافية اثنتين . وان يكون فى كل محكمة ابتدائية . اورويان ، وفى كل محكمة استئنافية اربعة

ولما ان أتمت وضع القانون المدنى ، عرضته بواسطة ناظر الحقانية على الجناب الخديوى فصدر دكريتو به فى أول نوفمبر سنة ١٨٨٣ بالتصديق عليه والعمل بموجبه بعد مضى ثلاثين يوماً من افتتاح المحاكم الأهلية

وفى ٣٠ ديسمبر صدر الأمر بتشكيل محكمة استئناف مصر برياسة اسماعيل يسرى باشا ومعه وكيلان واثنا عشر عضواً . منهم أربعة بلجيكيون ، وعين ابراهيم بك فؤاد رئيساً لمحكمة مصر الابتدائية ومعه وكيل وثمانية اعضاء ، منهم بلجيكيان . وحسين واصف بك رئيساً لمحكمة الاسكندرية الابتدائية ومعه وكيل وستة اعضاء منهم أوروبى . واسماعيل صفوت بك لمحكمة طنطا الابتدائية ومعه وكيل وخمسة اعضاء منهم أوروبى . وكذلك تعين رئيسان واعضاء لمحكمتى بنها والمنصورة

وفى اليوم التالى قدم فخرى باشا ناظر الحقانية رؤساء المحاكم الأهلية الجدد إلى الخديو ، وألقى خطاباً وجيزاً يشكر فيه سموه على عنايته بايجاد محاكم اهلية منظمة ؛ فرد عليه حاثاً الأعضاء على القيام بمهام مناصبهم بذمة وأمانة . وبعد ذلك حلفوا اليمين الآتية بين يدى سموه :— ( اقسم بالله العظيم ان أؤدى وظيفتى بالذمة والصداقة ) وانصرفوا من لدنه شاكرين

أما كيف تسنى للحكومة انتخاب من يقوم بمناصب القضاء فى المحاكم الجديدة فذلك أننى كنت كلفت من قبل توفيق بتنظيم مكتبته الخصوصية بسراى عابدين فعثرت على

دفتر مذكور فيه أسماء بعض من يمكن ترشيحهم لهاته المناصب من موظفى نظارات الحكومة ومشهود لهم بالكفاءة والأمانة ، ومنهم من له دراية باللغة الفرنسية أو الانجليزية ، ومنهم من تخرجوا فى مدرسة الادارة والألسن

وفى ١٤ فبراير سنة ١٨٨٤ عقدت محكمة استئناف مصر أولى جلساتها للنظر فى القضايا التى لديها ، وبلغ مجموعها فى هذا اليوم تسعا . وشهدها بطرس غالى باشا وكيل الحقانية والسير بنسون مكسويل الانجليزى النائب العمومى . وكان شفيق بك منصور وكيل النائب العمومى مدعياً عمومياً فى القضايا المذكورة . واستمرت هاته المحاكم فى اعمالها فى تقدم مستمر حتى يومنا هذا

ومن القضاة الأجانب المعينين فى المحاكم المسيو فليمنك ، الذى حين رأى ان المرافعات والمداولات والاوراق جميعاً باللغة العربية ، وهو لايعلم منها شيئاً ولا يوجد فى جلسات المحاكم مترجمون لترجمة أقوال المحامين الى اللغة الفرنسية حتى يتمكن القضاة الأروبيون من سماعها ، ويكونوا على بصيرة من حكمهم ، احتج على ذلك وخاطب فى هذا الشأن غير مرة نوبار باشا . ولما لم يحصل من طلباته على شىء اضطر أن يطالب بحقوقه أمام المحاكم المختلطة ويظهر لديها أنه أتى مصر لأجل أن يكون قاضياً لا آلة صماء تشغل محلا فى الجلسات . وقد طلب فسخ الشروط المعقودة بينه وبين الحكومة المصرية وأن يدفع له تعويض عن باقى المدة المقررة فى تلك الشروط ( وكانت خمس سنين ) فانتهى الأمر بتعيين بعض المترجمين لمساعدة الأجانب فى فهم القضايا

وصدر فى ٥ فبراير سنة ١٨٨٥ أمر يقضى بأن القضايا الحقوقية والجنائية التى صدرت فيها أحكام من مجالس السودان الابتدائية ولم تصدر عنها أحكام استئنافية فى القضايا التى يحكم فيها الآن من تلك المجالس يكون استئنافها فى مجلس الاحكام (١) وتعتبر احكامه نهائية

**النظم النيابية** . سبق ان نوهنا بالمجهودات التى قام بها سمو الخديو فى ترقية الحالة المالية والأدارية وما نفذ من اللوائح والقوانين التى عملت لهذا الغرض الى ان وصل اللورد دوفرين ووضع تقريره الذى جاء فيه أنه لا بد من ايجاد مجالس نيابية فى القطر المصرى . ونظراً لأن مجلس النواب كان موجوداً من قبل برياسة سلطان باشا

(١) كان مجلس الاحكام موجوداً فى مدة اسماعيل واستمر فى عمله فى عهد توفيق حتى تشكلت جميع المحاكم الاهلية فالغى وكان يرأسه جعفر باشا والد فخرى باشا ناظر الحقانية

وصدر الأمر باعتماد لائحته الداخلية فى ٢٤ مارس سنة ١٨٨٢ ، فأنه كان مستمراً فى عمله الى نشوب الحرب . ولما انتهت وانتدبت الحكومة الانجليزية اللورد دوفرين لوضع نظامات جديدة للادارة المصرية قال بوجوب استبدال مجلس النواب بمجالس أخرى هى : مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية . فأخذت الحكومة برأيه وصدر الأمر — كما قدمنا فى الكلام على تقريره — فى أول مايو من هذه السنة بالقانون النظامى المصرى وبقانون الانتخاب

وفى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٣ صدر أمر بتعيين سلطان باشا رئيساً لمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية

وفى ٢١ منه صدر الأمر بتسمية الأعضاء المعينين بعد اذ تم اختيار المنتخبين لهذا المجلس

وفى ١٩ يناير سنة ١٨٨٤ صدر أمر عال بعقد هذا المجلس بصفة غير عادية فى يوم ٢٤ منه ، على أن تعتبر جلساته عادية ، أى تبتدىء دورته ، فى أول فبراير . وفى هذه الجلسة غير العادية ألقى الرئيس سلطان باشا خطاباً طويلا حدد فيه اختصاصات المجلس وحث الأعضاء على النهوض بما ألقى على كواهلهم من أعمال ومسئوليات ، ونظر فى تنظيم أعمال المجلس الداخلية

ثم بدأ المجلس دورته العادية فى أول فبراير ، فعقد أولى جلساته برياسة على شريف باشا وكيله لأن محمد سلطان باشا كان مريضاً ، وتلى فى هذه الجلسة محضر الجلسة غير العادية . فصدق المجلس عليها ثم أخذ يباشر أعماله فى حدود سلطته

**كليفورد لويد** : كان التدخل الأجنبى فى شئون مصر قبل الاحتلال قد انتهى كما قدمنا الى حصول الانجليز على منصب ناظر للمالية وحصول الفرنسيين على ناظر للاشغال فى زمن اسماعيل . وجاء الاحتلال فبدأ الانجليز يتدخلون فى إدارة البلاد تدخلا فعلياً مباشراً بواسطة تعيين مفتش عام للاشغال ، ومستشار للمالية ، باعتبار أن كلا المنصبين مهم لتنمية ثروة البلاد

ولم يخطر ببالنا يومئذ أن يتدخل الأجانب فى نظارة الداخلية التى تعنى بالشئون المحلية والداخلية المحضة والتى لا يمكن للأجنبى أن يتعرفها كما يعرفها المصرى . فانتهز الانجليز فرصة قبول نوبار باشا لرياسة النظارة فأوعزوا اليه أن يقبل ( لأول مرة ) تعيين وكيل انجليزى لنظارة الداخلية ، فقبل ، ظنا منه أنه يساعد على الاصلاح المنشود ، وان كان هذا الظن لم تحققه الأيام . ولقد بذل مجهوداً عنيفاً فى إقناع الخديو بقبول

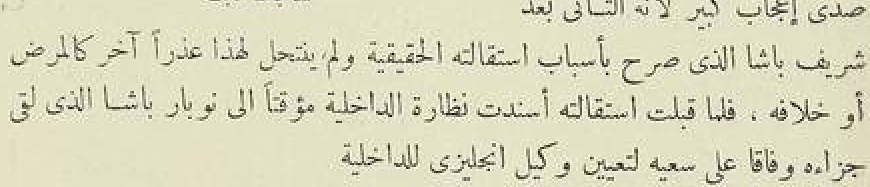
هذا التعيين فأصدر سموه أمراً فى ١٥ يناير سنة ١٨٨٤ بتعيين من يرشحه الانجليز لهذا المنصب ، وهو كليفورد لويد . ولقد ساءنا نحن فى السراى كما ساء الناس جميعاً تحقيق هذه الخطوة لما فيها من الدلالة على أن نية الانجليز ترمى الى زيادة التقلقل فى شئون البلاد . ولو أن الاختيار وقع على شخص محبوب فى ذاته ، أو سياسى حازم فى تصرفاته ، لمر أمر تعيينه بأقل ما يمكن من الامتعاض . ولكنه ظهر لسوء الحظ أو ربما كان لحسنه ، أن تصرفات هذا الوكيل شاذة فى بابها ، ومتناقضة لا يبررها عقل . وزادت سلطته فى نظارة الداخلية حتى استأثر بها ولم يعد للناظر رأى فى أى شىء . وظل الحال على هذا المنوال يزداد سوءا على سوء حتى حضر ثابت باشا ناظر الداخلية الى السراى فى ٨ مارس سنة ٨٤ حاملا استقالته التى يقول فيها : —



محمد باشا ثابت

« إنى قبلت الانتظام فى هيئة الحكومة على أمل أن أقوم بخدمة وطنى العزيز الذى نشأت فيه وربيت ، ولكنى رأيت أن آمالى قد حبطت ، وأن ليس فى الامكان تحقيقها لا فى الحال ولا فى الاستقبال ، وفضلا عن ذلك فقد علمت من قرائن الأحوال أن ليس فى وسعى المحافظة على شرف المصلحة فيما بعد لذلك أرجو ....... الخ »

ولقد كان لموقف ثابت باشا صدى إعجاب كبير لأنه الثانى بعد



شريف باشا الذى صرح بأسباب استقالته الحقيقية ولم ينتحل لهذا عذراً آخر كالمرض أو خلافه . فلما قبلت استقالته أسندت نظارة الداخلية مؤقتاً الى نوبار باشا الذى لقى جزاءه وفاقا على سعيه لتعيين وكيل انجليزى للداخلية

استمر كليفورد لويد فى خطته العوجاء ، وتصرفاته السيئة ، وتجاوزت سلطته سلطة الناظر حتى أنه كان يصدر الأوامر دون اطلاعه عليها . وعمت الفوضى وكثرت حوادث السرقة والتعدى فلم يكن يمر يوم دون أن نسمع بحادث سطو من الأشقياء . وكان البوليس من

يقوم بواجبه فيقبض على المتهمين ويحاكمون فيودعون السجن أو يودعون تحت المحاكمة .
فما راعنا إلا صدور أمره بالافراج عن أربعمائة سجين فى السجون المختلفة بالمديريات ،
فيهم من صدرت عليهم أحكام ، وفيهم من كانوا تحت المحاكمة من كبار الأشقياء . فزادت
جرأة اللصوص وقويت شوكتهم لدرجة أنهم كانوا يهاجمون العزب والقرى فى رائعة
النهار بأزياء مختلفة ، فمنهم من كانوا يرتدون الملابس الافرنجية والبرانيط ، ومن كانوا
يلبسون ملابس البوليس . وزادت الحالة خطورة حتى أصبح الناس لا يأمنون على
أرواحهم وأموالهم فهال الأمر الحكام الاداريين من مديرين وعمد ومشايخ ، فرفعوا
التقارير المطولة لنظارة الداخلية ، حتى أن بعض مشايخ عرب ضواحى القاهرة حضروا
لنظارة الداخلية وقدموا تقريراً منهم بخصوص حالة مصر الداخلية التى قل فيها الأمن
بسبب ضياع السلطة الحاكمة ، وبما أنهم مسئولون عن خفر دركات الحدود فيطلبون
تنحيهم عن هذه المسئولية ما دامت الحالة مستمرة كما هى الآن . وذكروا مسألة إطلاق
صراح المسجونين سواء أكانوا لصوصاً أم قتلة قائلين إن هذا مما يزيد ارتباك الحال
وزعزعة الأمن

ولقد زاد كليفورد استهتاراً فى أعماله حتى أنه لم يعد يعتبر ناظر الداخلية شيئاً مذكوراً
بجانبه ، فكان يصدر الأوامر يعين هذا ويفصل ذاك وليس له من رادع . ولقد بلغ من
سوء تصرفه أنه أصدر نشرة للمديرين فى ٣١ مارس سنة ١٨٨٤ ذكر فيها ان من يخبر
البوليس بموت ثور أو كلب أو هرة أو أية بهيمة كانت ينقد مكافأة قدرها خمسة جنيهات
ويتعين على المدير فى الحال عزل مشايخ الناحية التى وجد بها البهيم ميتاً . وهذه النشرة
صدرت بدون علم من ناظر الداخلية الذى كان رئيساً للنظار

ورغم ان كليفورد لويد كان يصدر الأوامر بالافراج عن المسجونين كان يجرى
تعذيبهم داخل السجون بالضرب بالكرباج وتعليقهم من أصابعهم مما يدل على تصرفاته
الغريبة المتناقضة . فلما أن بلغ ذلك النائب العمومى المستر مكسويل توجه فى يوم ٥
ابريل إلى الاسكندرية ليزور السجن وليقف على ما فيه ومبلغ صحة ما سمعه ، فلم يصرح
له بالدخول ومنع بواسطة ناظر السجن محتجاً بأن عنده أوامر من رجل عظيم القدر
( وكيل الداخلية ) تمنعه من الدخول ولم يتمكن فعلا من ذلك

ولقد تجاوزت بكليفورد لويد القحة كل حد ، حتى أنه كان موجوداً فى الاسكندرية
فى يوم ١٠ ابريل للنظر فى قانون البلدية وصادف ان كانت تمثل احدى الروايات
بتياترو « زيزينيا » فما كان منه إلا أن توجه لمشاهدة التمثيل وجلس فى مقصورة الخديو
الخاصة مما أدى إلى سخط الجمهور

فلما أن طفح الكيل اضطر نوبار باشا إلى التوجه لمقابلة الخديو لرفع استقالته إليه فى ١٠ ابريل من جراء أعمال كليفود المذكور، ثم قابل بارنج وأوضح له الأسباب التى حملته على تقديم استقالته، وهى عديدة، منها مسألة البوليس الذى وضح فساد نظامه مما أوجب ارتباك الداخلية، وفقد الأمن العمومى الواجب على الحكومة رعايته وتأييده، وأنه طالما أراد اصلاح ذلك. وقال ان المديرين جردوا من كل سلطة وسطوة فارتبكت الحال وحكم بتشكيل لجنة لذلك قضت بمنحهم السلطة (على غير ارادة كليفورد لويد) مع إدخال بعض تعديلات فى اختصاص النيابة العمومية بالمحاكم الأهلية، وقد اشترك فى ذلك كله أعضاء مجلس شورى القوانين النائب عن الأمة. وقال نوبار باشا أيضاً إن من وظيفة النائب العمومى زيارة السجون ولكنه منع من ذلك أولا وثانياً وثالثاً بامر من كليفورد وختم كلامه بأن قال: — « ان الاعمال لا تتمشى على نمطها دون إحداث تغيير فى وظائف سامية بنظار الداخلية ».

ولقد أبلغ السير بارنج دولته بذلك، وبعد مداولات ومفاوضات عديدة، تقرر أن يستمر نوبار باشا فى منصبه، فأن الحكومة المصرية هى الحاكمة وان المستر كليفورد وكيل الداخلية يكون كسواه من وكلاء النظارات، باعتبار ان الأوامر يوقع عليها الناظر أو يوقع عليها هو باذن منه، وأن ليس له أن يحدث أمراً جديداً إلا بعد عرضه على مجلس النظار، وليس له أن يحضر الجلسات إلا إذا دعاه نوبار باشا، وعليه أن يتبع أوامر ناظره، واذا رؤى أنه لم يسلك هذا المسلك فللحكومة رفته من منصبه كأحد الوكلاء.

وبناء على هذا قبل نوبار باشا البقاء فى منصبه وعملت الحكومة على تدارك الخطب وتحسين الحال والضرب على أيدى المجرمين والأشقياء؛ فصدرت الأوامر من النائب العمومى فى ١٦ أبريل بالقبض على جميع الذين أطلق سراحهم من سجن مديرية الغربية وغيره من السجون، وكانت أكثر قضاياهم لم يتم تحقيقها، وفعلا قبض عليهم وأعيدوا إلى السجن ثانية، كما صدرت الأوامر فى ٢٢ مايو إلى سائر المديريات للنظر فى أمر الأشقياء واستئصال شأفتهم بعقابهم بأقصى العقوبات كالاعدام شنقاً أو بالسجن المؤبد

فلما وجد كليفورد أن سلطته قد تلاشت ولم يبق له أى نفوذ قدم استقالته التى قبلت تواً وبارح الديار المصرية غير مأسوف عليه يوم ٢٨ مايو سنة ١٨٨٤

ولما أن رأت الحكومة أن وطأة اللصوص والعصابات لم تخف فى الوجه البحرى اضطرت أن تصدر أمراً فى ٥ اكتوبر بتشكيل لجان مخصوصة فى كل من مديريات

الغربية والمنوفية والشرقية والبحيرة، وفوضت اليها تحقيق حوادث اللصوص والحكم عليهم نهائياً بدون احتياج إلى احالة دعاواهم إلى المحاكم . وكانت مدة هاته اللجان أربعة أشهر تجدد لمدة أخرى إذا دعا الحال لذلك . فكان جزاء كبار الأشقياء اعدام بعضهم شنقا ونفى الآخرين مؤبداً إلى الواحات

وقد رؤى توطيدا للامن أن تصدر الحكومة قرارا بشأن تشكيل فرقة اصلاحية تؤلف من ذوى السوابق العديدة أو ممن سبق نفيهم إلى السودان ثم عادوا ولم يتعاطوا صناعة ولم يكن لهم مأوى ويتحقق إلى القوميسيونات المشكلة فى المديريات لضبط الأشقياء وجود شبهات قوية ضدهم حتى ولو لم تقع منهم جناية وقت ضبطهم . وقد صدر الأمر مؤذناً بذلك ومشيراً إلى وجوب تشكيل قوميسيونات مخصوصة بالمحافظات والمديريات، تؤلف من عمد وأعيان المدينة تحت رياسة محافظ الجهة أو وكيله فى حال غياب المحافظ . للنظر فى مسائل هؤلاء الأشخاص الموجودين بمدن المحافظات أو ملحقاتها

أما هذه الفرقة ( الاصلاحيـة ) فقد وكلت اجراءات التنفيذ فى أمرها الى ناظر الحربية فيتولى ارسالها اما الى سواحل البحر الاحمر أو الى جهات السودان أو غيرها من الجهات الأخرى .

**مداعبات البسفور** . لم تثر أعمال كليفورد لويد حقد المصريين وحدهم بل غلت مراجل حقد الاجانب أيضاً عليه وغيظهم منه . وكانت جريدة البسفور الفرنسية دائبة التعريض به فنشرت بعددها المؤرخ ٢٧ مايو ما يأتى : — « انه لما علم اللصوص والأشقياء أن حاميهم عزم على مبارحة مصر اجتمع فى جهة طرة مئات من اللصوص وتألفت منهم جمعية تحت رياسة أحدهم المسمى ابراهيم الاسكندرانى أحد المتسببين فى حريق الاسكندرية . فقام فيهم خطيباً فأوضح للحضور المزايا التى حصلوا عليها بوجود كليفورد لويد فى الداخلية، فانه كان المساعد الأكبر لنوال مرغوبهم ، وهو الذى أخرجهم من السجون ، فأعطى لهم الحرية التامة فى مباشرة صناعتهم . وأخذ يسرد كل صفاته ومزاياه الحسنة ، وأخيراً أسف من كون المستر كليفورد لويد عزم على مبارحة مصر وقال بما انه كان المحامى عنا فى السراء والضراء فعلينا أن نقوم بواجبات الشكر لحضرته . ثم بعد ذلك ألقيت خطب عديدة تؤيد ما قاله ابراهيم الاسكندرانى، وأخيراً تم الاتفاق على اقامة وليمة شائقة تقدم الى جناب المستر تذكاراً له وذلك بواسطة افتتاح اكتتاب بهذا الخصوص. وبالفعل تم ذلك فى نفس الجلسة وبلغ ما تحصل من المتبرعين ٣٠ ٤٤

لكن ظهر لأمين الصندوق الموكل بجمع القيم أن من ضمن هذا المبلغ ٣١ قرشاً زائفة فلهذا السبب تأخر الاكتتاب إلى جلسة أخرى .

وعند سفره فى ٢٨ مايو سنة ١٨٨٤ أرسلت عدداً عظيما من الكلاب إلى محطة العاصمة ، ولدى تحرك القطار ابتدأت الكلاب تنبح نباحا متواصلا مظهرة توديعها لكليفورد ! !

**كليفورد ومكسويل** . حفزت التصرفات السيئة والحماقات التى كان يأتيها المستر كليفورد لويد الصحافى العربى المعروف بشارة بك تقلا صاحب جريدة الأهرام فكتب خطاباً إلى احدى الصحف الانجليزية فى لندره يندد فيه بسياسة الانجليز فى مصر وينعت المسلك المعوج الذى انتهجه بعض الموظفين منهم بمصر وعدد غلطات المستر كليفورد لويد حينما كان وكيلا للداخلية ، فرد عليه كليفورد لويد بجواب نشرته التيمس. ولما كان ما جاء بهذا الرد بعيداً عن الصحة فقد كتب المستر مكسويل النائب العمومى عن الحضرة الخديوية جواباً يدحض فيه أقوال كليفورد لويد ويظهر سيآته ، وأردفه بجواب آخر عثرنا على ترجمته التى نقتطف منها ما يلى :—

« بلغنى فى أوائل مارس أن قد أعيد الضرب فى السجون مع أن هذا القصاص ( كما قلت سابقاً ) قد ألغى بموجب أمر عال وبحسب قانون العقوبات . وبما أنى نائب عمومى كان لى الحق بزيارة السجون ومراقبتها ، وكان من واجباتى أن أتحرى واستقصى المخالفات التى ترتكب فيها وأكتب عن ذلك تقريراً الى ناظر الحقانية

« وفى زيارتى سجن الاسكندرية بغية التحرى عن مسألة الضرب المنوه عنها أخبرنى السجان بأن لديه أوامر من الدكتور كروكشنك مدير عموم السجون ( الذى باسمه كانت تنفذ اجراآت لويد) بأن لايعترف بسلطتى ويمنعنى من تفتيش السجون وسجلاتها وأنى لا أقدر على زيارة السجن إلا متى كنت مصحوباً باذن من الدكتور المذكور .

« فعرضت المسألة حينئذ على نوبار باشا فأجابنى أنه غير قادر على التدخل ( كذا ) وأحالنى على السير بارنج ، وإذ وجدت هذا السير موافقا على تصرف لويد ومعضداً له رأيت من المناسب أن لا أستقيل من وظيفة حرمت القيام بها بدون أن أتحقق أفكار اللورد جرانفل فى شأنها، فحررت إذ ذاك جوابين الى حضرته وسلمتها الى السير بارنج وعقب ذلك بيومين زارنى حضرته والمستر لويد فى محل عملى ، وفى هذه الأثناء سلما معى بمسألة حق فى المراقبة ثم طلبا الى استرجاع المحررين فقبلت ذلك بناء على تسليمها بحقوق

وتأسفهما على ما مضى . ولكننى ندمت على ذلك حالا إذ أنه عقب الحادثة الآنفة ببضعة أيام جاءنى تقرير جديد يستدعى منى التحرى والفحص ومفاده أن الدكتور كروكشنك قد أفرج عن عدد من السجناء الذين ألقوا فى السجن الى أن يجىء دور محاكمتهم . فأسرعت حينئذ الى سجن القاهرة واطلعت على لائحة تسجل فيها اسم ٥١ محبوساً كانوا معدين لأن يفرج عنهم بأمر الدكتور . وقد كتب هو فى ذيلها أن مدة سجنهم وازت جرائمهم ، على حين لم يعلم عن تلك الجرائم أمر إلا من سجل السجن . وإذ تبين أن هذه اللائحة غير مستوفية التحقيق وجدتها بعد أن نظرتها بزمن وجيز ممزقة واستعيض عنها بأخرى تحتوى على ٢٦ اسما فقط . فنبهت المستر لويد الى ذلك بطريقة حبية ، فأجابنى كتابة بأنه رأى من الضرورى الافراج عن الناس الذين ألقوا فى القيود أثناء المحاكمة لمدة خمس سنين أو ست ولكن لم أتبين صحة لهذه الدعوى إذ لم يكن فى سجن مصر سوى رجل واحد صرف فيه ١٥ شهراً وآخر ١١ شهراً وآخر خمسة أشهر وأياما ، وأما الباقون فلم يصرفوا فيه إلا أربعة أشهر أو دون ذلك

« أما هذا الأفراج فاعتبره المصريون طريقة انجليزية لاجراء العدل وتبينوا منها ليس الشؤم فقط ، بل الخطر . اذ سجن قطاعى الطريق واللصوص مدة ٣ او ٤ اشهر ثم إطلاقهم لا يكفى لردعهم عن المنكرات بل يزيدهم عتواً وتمسكا بمهنتهم المستقيمة ! فاعترضت على هذا الأمر ليس لكونه قد انفذ بدون عفو خديوى وبدون أمر النظار فقط ، بل لأنه أجرى أيضاً باستبداد وكيل الداخلية ولأنه آل الى فقد الأمن فى البلاد . ففسحت حينئذ الحجة ضد هذا التصرف والسياسة المنكرة . أما السير بارنج فكان معضداً لذلك أيضاً بحجة أن تداخلى يسبب اضطراباً عديم النهاية وأنهى الى أن المستر لويد يفضل اخراج السجون من تحت ادارته أولى من خضوعه لمراقبتى . ولكن من أين يأتى الاضطراب وما هى الاضرار التى تنشأ عن مراقبتى على حين لم اتعد النظر فى اجراءات المستر لويد وتقديم لائحة منها إلى ناظر الحقانية — ولكن المستر لويد والسير بارنج قصدا أن يحرمانى حق المراقبة لأنهما رأيا استعمال السوط خفية . ولذلك لم يسألا أولى الأمر اباحة الضرب اذ لو سألا سمو الخديو ذلك لقال لهما : — وماذا يقول اللورد دوفرين اذا التجأنا الى هذا الامر ! !

« وقد قال المستر لويد فى رسالته بأنه مع كونه وكيل الداخلية لم يجر عملا بدون معرفته وتصديق الحكومة المصرية . اما انا فأعتبر هذا الكلام عارياً عن الصحة وأظن ان سعادة ثابت باشاوزير الداخلية سابقا لا يصدق عليه ، ودليله عدم امكانه البقاء مع

وكيله الانجليزى إلى أكثر من شهرين ، كما أظن أن عبث المستر لويد بالقانون فى استعماله الضرب فى السجون وقفل ابوابها دون النواب العموميين أوجب له فى دوائر الحكومة السخط والضغينة

**الشركات المختلفة . التليفون .** فى ١٦ مايو سنة ١٨٨٤ اتفقت الحكومة المصرية مع شركة التليفونات الانجليزية بمصر على مد خطوط تليفونية إلى نظارات المالية والخارجية والداخلية والأشغال والحقانية والحربية ، وإلى إدارات الجندرمة والبوليس وصندوق الدين والمستشار المالى ، وكان هذا أول عهد مصر بالتليفون

**شركة بورصة مينا البصل .** وفى الشهر نفسه طلب مدير البنك الانجليزى المصرى بالاسكندرية ومعه طائفة من التجار بالثغر الى الحكومة المصرية التصريح لهم بانشاء شركة تسمى ( شركة بورصة مينا البصل التجارية المصرية ) ومن شأنها أن تبتاع الأملاك المعروفة بأملاك مينا البصل التجارية ، وأن تنتفع من سائر إيراداتها ومنافعها . فرخصت لهم الحكومة بذلك وصدر الأمر فى أول يونيه بانشاء الشركة وحدد رأس مالها بمبلغ ٣٥ الف جنيه انجليزى وزعت على ١٧٥٠ سهما قيمة كل منها عشرون جنيها على شرط أن السهم لا يصبح فى ملكية حامله إلا بعد دفع قيمته كلها

**شركة قناة السويس .** قررت اللجنة الدولية المؤلفة من أعضاء إدارة شركة قناة السويس توسيع القناة الحالية والاستغناء عن انشاء قناة أخرى وذلك فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٤ كما سعى المسيو فرديناند دلسبس لدى الحكومة المصرية حتى تم الاتفاق فى ٨ ديسمبر من العام المذكور على انشاء ترعة حلوة بين بورسعيد والاسماعيلية ، وأن تبقى قناة السويس على اتساعها الحالى وقدره ٢٢ مترا وعلى أن تعمق

# الفصل العاشر

## السودان

فى الوقت الذى كانت مصر تضطرم فيه بحوادث الثورة العرابية كان السودان يضطرم بثورة أخرى أضرمها الداعية الكبير محمد احمد ( المهدى )



محمد احمد المهدى

وكان المهدى يتتبع أدوار الحوادث فى مصر منذ بدايتها . ويعلم أن الثورة العرابية ترمى إلى إخراج الأجانب من مصر ، فبدأ يفكر هو أيضاً فى إخراج الأجانب من السودان سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين ، واصطبغت دعوته بلون دعوة دينية عتيدة ، وانتهز فرصة اشتغال الحكومة المصرية وانصراف جهودها إلى معالجة الحركة العرابية ، وفوز العرابيين عليها ، فاستطاع أن يبسط نفوذه وأن يوطده . وكانت القوات التى بعث بها حاكم السودان العام لقمع الفتنة فى بدايتها ضعيفة مفككة فهزمها المهدى شر هزيمة ، وكان لانتصاره هذا أثر فعال فى انتشار الثورة .

ولسنا نقصد هنا أن نتحدث عن الثورة السودانية ، فقد حفلت كتب التاريخ بأخبارها ولم يكن لنا اتصال شخصى بكل حوادثها حتى نثبتها فى مذكراتنا . ولكن ما علمناه من هذه الحوادث فى المعية يدعونا إلى اثباته كصورة لصداها الذى تردد بها

من ذلك انه عقب المرحلة الأولى من الثورة عين عبد القادر حلمى باشا حكمدارا ( حاكما ) للسودان مكان رؤوف باشا ، وكان رجلا قوياً حازماً فاتخذ التدابير الكافية لقمع الحركة وفاز على رجال المهدى فى عدة مواقع ، وكاد الأمر ينتهى بسحق الثورة المهدية . لكن جماعة من الأجانب وشوا به عند الخديو والقوا فى روعه ان الحكمدار الجديد لا يبعد أن يستقل بالبلاد السودانية فى غفلة من الحكومة المصرية ، فانتهت هذه

الدسيسة باستدعاء هذا الرجل الجرىء الحازم من السودان ، وبعد رجوعه علمنا منه أن أهم أسباب قيام الأهالى ضد الحكومة هى :—

(١) حنق البقاره تجار الرقيق ومن أهل الثروة ومسموعى الكلمة بين القبائل ، على الحكومة من صرامتها فى تنفيذ أوامر منع تجارة الرقيق وقسوتها عليهم حتى نضب معينهم

(٢) سوء إدارة الحكام وغلظة المنفذين لأوامرهم من رجال الباشبوزق وأخذهم الرشوة

(٣) شهرة محمد احمد المهدى بالصلاح والتقوى وما كان يوهم الأهالى به من اتصاله بالنبى ( صلعم ) فى منامه ، وبأنه هو المهدى المنتظر . وقد قوى هذا الاعتقاد فى نفوسهم منذ انتصاراته المتعددة فى بدء ظهوره مع ضعف رجاله وقلة العدد الحربية عنده

واستفحل الأمر وزاد فى خطورته ان العرابيين لم يعملوا على حسمه بارسال النجدات السريعة ، كما طلب منهم الخديو كى لا تضعف قوتهم فى مصر كما يزعمون ، ومحافظة على حياتهم وسلطانهم

وهذا يدفعنى الى الاعتقاد بأن السبب المباشر فى ضياع هذا الأقليم المهم لحياة مصر هو إهمال عرابى ورفاقه تنفيذ ما أشار به الخديو .



هكس باشا وأركان حربه

فلما كان الاحتلال الانجليزى بعد انتهاء الثورة العرابية ، فكرت الحكومة فى إرسال

حملة مكونة من عشرة آلاف رجل إلى السودان بقيادة هكس باشا قوامها الجيش العرابى المنحل . وكان الاعتقاد سائداً فى نفوس هؤلاء الجنود بأن الحكومة انما ارسلتهم للتخلص منهم ، ففت ذلك فى عضدهم وكان من أهم أسباب فشلهم عند ما نشبت الحرب بينهم وبين الدراويش فى معركة حاسمة فى شيكان قريباً من الايض عاصمة كردفان حيث خر فيها هكس باشا قتيلا ولم ينج أحد من جنوده قتل منهم من قتل وأسر الباقى . وكان ذلك فى يوم ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣

عندئذ أشار الانجليز على الحكومة المصرية باخلاء السودان فأبى شريف باشا أن يذعن لهذا الرأى ووقف موقفه المشرف المشهور مفضلا ترك الحكم على ترك السودان . وقد علمنا ان المحاورة بينه وبين الخديو كانت شديدة ، فهو لم يكن يريد التخلى أما الخديو فقد رجح فكرة الجلاء بناء على رغبة بدت من جانب الانجليز وتخويفه بشبح الثورة الآتية من الجنوب

فلما أن رأى شريف باشا تصميم الخديو على اخلاء السودان اجتمع هو والنظار وقرروا عدم الموافقة على ما عرضه بارنج من اخلائه كاوامر حكومته ، وفى الوقت نفسه وقعوا عريضة الاستقالة التى رفعت للخديو فى ٨ أبريل سنة ١٨٨٤ وهذا نصها :—

« ان الأسباب التى حملت النظار على الاستعفاء هى ان حكومة مصر ترى أنه من الممكن المحافظة على أملاكها السودانية التى بيدها الآن بواسطة ١٠ آلاف جندى . وان التخلى عن السودان مضر بمصلحة مصر سياسياً وتجارياً . وفى حال تخلى مصر عن السودان تقفل بيوت عديدة تجارية شهيرة بالقطر ، ولا ترى الحكومة لزوماً لترك الخرطوم وسواها الخاضعة والتى لم يحصل فيها هياج وحاميتها قادرة على حفظها وصونها ، وان حكومة مصر لا تقبل مطلقاً تلغراف اللورد جرانفل القائل بوجوب قبول كل نصيحة انجليزية بدون تردد ما دام جيش الاحتلال موجوداً فى مصر وان كل ناظر لا يكون مشربه انجليزيا لا يلزم وجوده فى النظارة — فهذا مناقض لنص الدكريتو الخديوى الصادر فى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٧٨ القائل بأن النظارة مسئولة أمام الخديو ليس إلا . وبناء عليه لا تستطيع النظارة الحالية قبول ما تطلبه انجلترا »

فقبلها الخديو تواً واستدعى رياض باشا وعرض عليه تأليف النظارة على أساس إخلاء السودان فاعتذر وكان مما قاله لسموه :—

( إننى أود لو كنت ناظراً فى نظارة شريف باشا حتى يكون لى شىء من فخر موقفه المشرف )

وعرضت النظارة فى ٩ ينايرسنة ١٨٨٤ على نوبار باشا فقبلها وتشكلت فى ١٠ منه على أساس فكرة الجلاء عن السودان ، ولم يبق بعد ذلك إلا التفكير فى طريقة الجلاء . وبعد أن تشاور الخديو فى هذا الأمر مع نوبار باشا والسير بارنج وعبد القادر باشا والجنرالين وود واستيفنسن قائد القوات الانجليزية فى مصر . فقر الرأى على انتداب جوردون باشا الذى عرض نفسه فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣ على الحكومة الانجليزية والذى أرسل خصيصاً لمصر لذلك فوصل فى ١٦ يناير سنة ١٨٨٤ وصدر الأمر



جوردون باشا

الخديوى فى ٢٤ منه بتعيينه حكمداراً عاماً للسودان ، وكلف القيام بعمل اللازم نحو إخلاء السودان كتعليمات الحكومة المصرية له . أما الحكومة الانجليزية فقد سلمت إليه خطاباً بالتعليمات اللازمة جاء فيه : —

« أن حكومة جلالة الملكة ترغب منك السفر بدون إمهال الى مصر كيما تقدم لها تقريراً عن الحالة العسكرية فى السودان وعن الوسائل التى يلزم اتخاذها لضمانة نفوس

الجاليات المصرية هنالك ونفوس الأوربيين فى الخرطوم، فعليك اذاً أن تتفحص وتقرر الينا أفضل الوسائل الممكن اتخاذها للتمكن من تخلية داخل السودان وذلك لأجل ضمانة أمن وادارة موانى البحر الأحمر التى هى تحت سيادة الحكومة المصرية . وفى الوقت نفسه يطلب منك أن تصرف اهتماماً خصوصياً فى شأن الوسائل الفعالة التى يجب أن تتخذ لردع الحركة الثورية وجلاء القوة المصرية بحيث لا ينجم عن ذلك ما يعزز تجارة الرقيق وأن تأخذ التعليمات اللازمة من وكيل الملكة وقنصلها الجنرال فى القاهرة الذى بواسطته تبعث تقريراتك وأنت تعتبر كوكيل ومفوض لاتمام أية مأمورية أخرى شاءت الحكومة المصرية إناطتها بك بواسطة السير افلن بارنج، وستصحب الكولونيل ستيوارت ليساعدك فى المأمورية المعهودة إليك . وفى حين وصولك الى مصر تتخابر مع السير افلن بارنج الذى يحكم بالاتفاق معك اذا كان من الواجب ذهابك تواً الى سواكن أو التوجه بنفسك أو إرسال الكولونيل ستيوارت الى الخرطوم عن طريق النيل »



سلاطين بك

كذلك استدعى الخديو الأمير عبد الشكور ابن الأمير عبد الرحمن سلطان دارفور فلما مثل بين يديه بسراى الاسماعيلية أعلمه سموه بعزمه على استرجاع مديرية دارفور إليه وتعيينه سلطاناً عليها تحت شروط من ضمنها حرية التجارة وإلغاء بيع الرقيق وعند وصوله الى دافور يعين سلاطين بك ( نمساوى الأصل ) رئيساً على جيوش دارفور وتبقى العساكر المصرية فى خدمته ما دامت الثورة موجودة ، وعند ما يشكل هو جيشه لا يحارب إلا عند وصول أوامر إليه من الخرطوم أو من القاهرة وأن يدفع تعديات المهدى عن بلاده ويتعهد هو وذريته بتبعيته لمصر . فشكر الأمير عبد الشكور هذا الاحسان

الجليل وقال انه لن ينسى أبداً المعروف الذى صادفه هو وعائلته من سموه .وقد وعد السلطان الجديد باخلاصه التام للخديو الذى تفضل عن طيب خاطر باسترجاع مديرية دارفور إليه . وكذلك أحسن عليه بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى مع رتبة الميرميران الرفيعة وألفين من الجنيهات ، وكلفه بالسفر مع جوردون الى الخرطوم وسلم إليهما منشورات لتوزع على القبائل ومنشورات لتوزع على أهالى دارفور للخضوع للأمير عبد الشكور لأنه ولى عليهم سلطاناً

وفى يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ سافر جوردون والامير عبد الشكور على قطار خاص . ولقد سافر مع الأمير نحو أربعين امرأة من اتباعه ، فوصل إلى كورسكو حيث بقى فيها (١) وواصل جوردون السفر إلى الخرطوم فوصلها فى يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ وبمجرد وصوله ـ ولما ان كان يعرف ان الزبير رحمت باشا من عظماء دارفور والمقيم بمصر له نفوذ عظيم فى السودان ـ طلب منه أن يرسل تلغرافاً إلى أعيان السودان ينصحهم فيه بأن يظهروا الطاعة وينضموا لجوردون باشا فقام بارسال هذا التلغراف فى ٨ مارس سنة ١٨٨٤

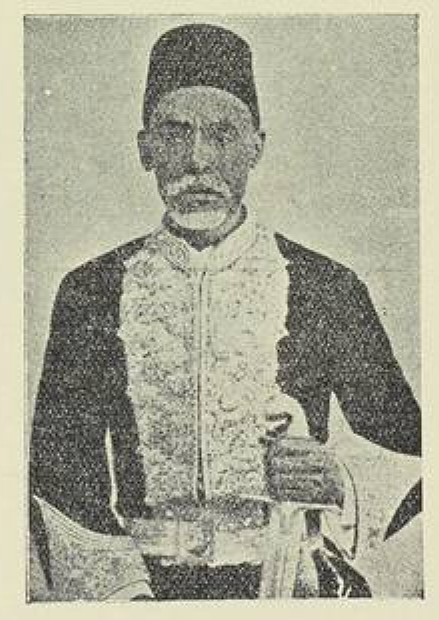
بعد ذلك فكر فى استمالة الأهالى اليه بأن أصدر منشوراً جاء فيه أنه أمر بتخفيض الضرائب إلى النصف وأباح تجارة الرقيق، كما أمر باحراق دفاتر الحكومة الموجود بها المتأخر من الضرائب على الأهالى، وكما فكر أيضا فى استمالة المهدى اليه فأرسل اليه رسولا يحمل اليه هدية من الملابس المزركشة بالقصب والمموهة بالذهب وينقل اليه كتابا سلميا يسميه فيه سلطانا على كردفان مبيحا له الحرية التامة والاستقلال فى العمل . فتوجه الرسول ولم يرد اليه الرد من المهدى إلا فى يوم ١٥ مارس حيث قدم فى اليوم المذكور ثلاثة دراويش من قبل المهدى فدخلوا الخرطوم وطلبوا مقابلة جوردون ولكن الحجاب سألوهم أن يدخلوا عليه بدون سيوف فأبوا فأذن لهم ولما مثلوا بحضرته خاطبوه بقولهم ان خطابك وصل إلى المهدى وأمر بكتابة هذا الخطاب ردا عليه فننقله اليك وسلموه اليه ونصه : ـــ

---

(١) بقى الأمير عبد الشكور فى كورسكو ولم يسافر الى دارفور وفى ٢٧ فبراير سنة ١٨٨٤ كتب للعاصمة يطلب مالا ويستدعى باقى النساء من أتباعه اللاتى تركهن بمصر وقد قال انه ان لم ينل ما يطلبه فانه لا يمكنه الاستمرار فى السير والذهاب لمحل مأموريته . وقد أجابت الحكومة طلبه فسافر على الفور حتى وصل دنقلا فبقى فيها حتى يوم ٣١ مارس سنة ١٨٨٥ إذ بارحها عائداً مع عائلته لمصر نظراً لعدم تمكنه من توليته سلطنة دارفور لوجود وال من قبل المهدى

« الى جوردون . أخذت خطابك الذى تسمينى فيه سلطانا على كردفان فتولانى الذهول من ذلك وداخلنى مزيد الاستغراب المتولد عن زعمك أنك تعطينى بلادا هى لى وأنا لها . واعلم وفقك الله أن رسالتى المهدوية لا تستوقفنى فى كردفان فقط بل تقضى على بأن أذهب إلى الخرطوم وأحتلها ومنها أسير إلى الأصقاع البعيدة والأنحاء الشاسعة . وأما الهدية المزركشة التى بعثتها الى فهى اليك راجعة بل هى بك أولى وأليق . فان دعوتى تأبى اتشاح مثل هذه الملبوسات . هذا هو شرح حالتى . وأما أنت فاذا رغبت الحياة فاتبعنى لتنجو بنفسك واليك دلقا ( لبس الدراويش ) فالبسه واسلك مسلك الدراويش فتنال رضاى »

فلما تلا جوردون الخطاب أمر بنقض كتابه الأول أى بعزل المهدى من سلطنة كردفان وبأن يسلموا الدلق إلى الدراويش ليرجعوه الى سيدهم



الزبير رحمت باشا

ولما رأى أن لا فائدة من استمالة المهدى بواسطة وعوده وهداياه ومنحه ، ووجد أن الحالة فى ضنك شديد من شدة الحصار على البلد كما أن الثورة امتدت حتى شندى ، كما أخبر الحكومة فى ١٧ مارس بذلك ، فكر فى أن ينتدب الزبير رحمت باشا ليكون وكيلا له نظراً لأن هذا الأخير من رجال السودان العظماء وله كلمة مسموعة واخوان وأقارب فأرسل اليه تلغرافا هذا نصه : —

« سعادة افندم الزبير باشا بمصر — نحن عينا سعادتكم وكيلا لحكمدارية عموم السودان فيكون معلوم سعادتكم ذلك وعند حضوركم لبربر تخابرونا بحضوركم وتسعوا لما فيه الاصلاح وبحضور سعادتكم تنظروا فيما اذا كان يمكن ارسال اثنين وابورات لحضور سعادتكم ويجرى ارسالهم وسعادتكم تعملوا ترتيب فى كيفية حضوركم للخرطوم بالوابورين المذكورين ، والاثنين الآخرين الموجودين ببربر بواسطة أعمال دراوى من الحديد لوقاية ما بهم من العساكر من ضرب الرصاص وتحضروا ما هو لازم معكم

من الجعليين وتعملوا مقدما استكشافات بالطريق بدون مخاطرة لسعادتكم افندم »

فرد عليه الزبير باشا فى ١٦ ابريل سنة ١٨٨٤ بالتلغراف التالى :—

« الى جوردون باشا بالخرطوم — قد تشرفنا بورود تلغراف سعادتكم المتضمن تعييننا من طرف سعادتكم وكيلا لحكمدارية عموم السودان ونعرف سعادتكم أننا فى غاية التشكر ونهاية الممنونية من حسن التفات سعادتكم وجميل توجهاتكم فى سائر الأحوال ويسوءنى أن أعرف جنابكم مع غاية الأسف بأن الحالة الحاضرة لا تسعف الآن بالمرغوب وأرجو الله تعالى أن يديم سلامتكم ويتمم نجاحكم لما فيه الخير والصلاح العمومى افندم »

ومع كل هذا فلم يبخل الزبير باشا على جوردون بالمساعدة بناء على أوامر الحضرة الخديوية ، فقد أرسل فى ٢١ مايو بواسطة فضل الله افندى ومحمد ابو جبالى ومحمد ولد رحمة خطابين إلى عشائر السودانيين والقبائل المحاصرة للخرطوم يرجوهم فيهما ادخال هؤلاء الثلاثة لمقابلة جوردون وطلب منهم أن يطلقوا له الحرية ويرافقونه إلى كورسكو فى حالة ما إذا أراد المهاجرة . ولكن كل هذا لم يكن ليغنى فتيلا (١) فقد حوصر جوردون فى الخرطوم مدة كبيرة نفذت فيها النقود فأصدر أوراقاً مالية على النسق الآتى :—

| خمسة غروش ميرى |
|---|
| ٢٤١٥٠ |
| هذا المبلغ مقبول يجرى دفعه من خزينة الخرطوم أو مصر بعد مضى ستة أشهر من تاريخه ؟ ٢٥ ابريل سنة ١٨٨٤ جوردون |

وأصدر أمراً بمحاكمة كل من يمتنع عن المعاملة بهذه الأوراق . كما أنه لما رأى ما تظهره حامية الخرطوم من الشجاعة فى الدفاع عنها أوجد نيشاناً لتوزيعه عليهم تشجيعاً لهم

وأرسل احدها إلى الخديو اسماعيل فى نابولى بواسطة قنصل إيطاليا الجنرال بمصر مع خطاب ترجمته كالآتى (٢) :—

---

(١) أنظر القبض على الزبير باشا وابعاده إلي جبل طارق في صفحة ٢٧٦

(٢) حصلنا على ترجمة هذا الخطاب من قنصل جنرال إيطاليا شخصيا

« إلى سمو اسماعيل باشا خديو مصر سابقاً حفظه الله — من ضمن الانعامات العديدة التى غمرتنى بها مدة حكمكم السعيد قد أحسنت على بجملة نياشين لم أزل افتخر بها وصيرتنى أسير شكرك . هذا ولما أن تعينت حكمداراً للسودان وذهبت للخرطوم سليما بحمد الله لم يمض إلا شهران حتى انقطعت الصلات بينى و بين مصر، وأقامت العربان الحصار على المدينة . فى مدة هذا الحصار ظهر مراراً من العساكر والمستخدمين الملكيين وأعيان البلد جملة أعمال خطيرة وشجاعة غريبة يستحقان مزيد الاعتبار . وبالاخص عند ما كانوا يحتملون الصعوبات التى تصادفهم ولهذا أردت ان أكافئهم على سلوكهم الحسن وصداقتهم الخالصة فأمرت باصطناع نياشين ووزعتها عليهم وسبق ارسلت لكم عينة منها على وابور (عباس) ولكن بما انى أخشى من عدم وصوله لكم أرسلت اليوم واحداً آخر ارجو منكم قبوله . وغاية رجائى أن تقبلوه منى من نوع التذكار افندم — من عبدكم المخاص الشاكر لافضالكم — جوردون »

بقى جوردون محاصراً بالخرطوم فأرسلت الحكومة الانجليزية الجنرالين جراهام وبيكر لمساعدته وانقاذ حاميات السودان الشرقى . فذهبا ولم يفلحا بعد أن دوختهما الدراويش

غير أن المستر هويت النائب عن الحكومة الانجليزية أمر فى ٧ مارس سنة ١٨٨٤ بالقيام لعدُوه عاصمة الحبشة هو والكولونيل ماسون بك النائب عن الخديو لعقد معاهدة مع ملكها حتى يمكن اجلاء العساكر من السودان بمرورهم بالأراضى الحبشية ولقد حررت هذه المعاهدة فى ٣ يونيه سنة ١٨٨٤ هذا نصها :—

« المادة الأولى: من تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة يباح للحبشة حرية نقل البضائع ومن ضمنها الأسلحة والذخائر عن طريق مصوع تحت حماية انجلترا

المادة الثانية : فى أول سبتمبر سنة ٨٤ الموافق ٨ مسكرام سنة ١٨٧٧ تعاد بلاد بوغوس إلى ملك الحبشة ومتى انجلت جنود الحضرة الخديوية عن كسلة وامديب وسنهيت فحينئذ تسلم البنايات الموجودة فى بوغوس خاصة الحضرة الخديوية مع المؤونات والذخائر التى تبقى فيها إلى ملك الحبشة فتصير من أملاكه

المادة الثالثة : يتعهد ملك الحبشة بتسهيل انجلاء جنود الحضرة الخديوية عن كسلة وامديب وسنهيت بالمرور بأراضى الحبشة (١)

---

(١) قد نفذ النجاشى ما وعد به كما أن الحكومة المصرية بذلت جهدها فى إخلاء بربرة وزيلع وهرر وعهدت فى ٥ مارس سنة ١٨٨٧ إلى الرحالة الانجليزى الشهير استانلى فى انقاذ امين باشا ) الالمانى الأصل ) مدير بحر الغزال ومن معه من الجنود وقد نجح في ذلك أما دنقلة وما جاورها فقد تمكنت الحكومة أيضاً من إجلائها

المادة الرابعة : يتعهد سمو الخديو بأداء التسهيلات التى يطلبها حضرة ملك الحبشة فى تعيين رئيس أساقفة

المادة الخامسة : يتعهد كل من سمو الخديو وملك الحبشة بتسليم أى مجرم فار تخلصاً من العقاب من أملاك الواحد إلى أملاك الآخر

المادة السادسة : يقبل ملك الحبشة رفع كل خلاف يقع بينه وبين الحضرة الخديوية عقيب التوقيع على هذه المعاهدة إلى حكومة جلالة الملكة

المادة السابعة : يقتضى التصديق على هذه المعاهدة من الحكومة الانجليزية والحضرة الخديوية وارسال ذلك الى عدوه بأسرع ما يمكن »

أما المهدى فاستمرت انتصاراته واتسع نفوذه حتى أصبحت الحالة فى السودان على أسوأ ما يكون . وحتى أصبح يخشى على جميع الموجودين هناك من الرجال العسكريين عامة ، وجوردون باشا والكولونيل ستيوارت خاصة . فانتدبت حكومة جلالة الملكة الجنرال اللورد ولسلى (بطل موقعة التل الكبير) للقيام لوضع حد لهذه المشاكل واجلاء الجنود المصرية والانجليزية عن السودان وزودته بالتعليمات اللازمة لذلك

وصل ولسلى العاصمة فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٤ وتوجه لسراى عابدين وتشرف بزيارة سمو الخديو ورد سموه له الزيارة بقصر النزهة الذى أعد لنزوله . وعند عودة سموه من هذه الزيارة علمنا أن أوامر انجلترا للورد ولسلى هى : — (١) انقاذ جوردون وستيوارت من الخرطوم (٢) تقليل الأعمال العسكرية وحصرها بقدر الطاقة (٣) إزالة الحكم المصرى من السودان (٤) اجلاء العساكر المصرية والموظفين الملكيين وعائلاتهم (٥) رغبة الحكومة الانجليزية فى ايجاد حكومة مستقلة استقلالا تاما فى ادارتها الداخلية بالخرطوم عن حكومة مصر (٦) تدفع الحكومة المصرية إعانة لأى شيخ أو جملة مشايخ يثبت اقتدارهم على استتباب النظام على وادى النيل من وادى حلفا إلى الخرطوم بالشروط الآتية : — « ا » مسالمة مصر وصد من يشن الغارة على الأراضى المصرية . « ب » بذل الجهد فى رواج التجارة مع مصر . « ج » بذل غاية الجهد فى منع تجارة الرقيق (٧) فوض اليه عقد وابرام أى اتفاقات لا تخرج عن هذه التعليمات .

وقام ، بعد زيارات أخرى تبودلت بينه وبين رؤساء الحكومة مزوداً بالعساكر الانجليزية والمال ، إلى السودان . ومساعدة له فى مهمته أرسل الخديو فى ٦ نوفمبر سنة ١٨٨٤ أمراً كريماً إلى جميع المديرين والمشايخ والأعيان فى جميع البلاد السودانية

يامرهم فيه بتعضيد الجنرال ولسلى فى جميع اجراءاته الحربية التى سيباشرها قريباً ، وأن يطيعوه فى سائر الأمور .

وصل الجنرال ولسلى وجيشه إلى كورتى فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٤ واستمر فى محاربة جيش المهدى على أمل الوصول إلى الخرطوم لفك الحصار عنها

وعند ما علم جوردون بوصول ولسلى مع تجريدة لانقاذه ووجوده قريباً من الخرطوم ، أرسل إليه وابورين وعليهما الكولونيل ستيوارت وخشم الموسى بك ( رئيس الشايقية ) لمساعدة الحملة على الوصول على جناح السرعة . فأمر ولسلى السير تشارلس ولسن ومعه جزء من الجنود الانجليزية بالتقدم نحو الخرطوم بالوابورين . وفى اثناء سيرهم كان العدو يطلق عليهم النيران من الشاطىء إلى أن وصلوا إلى الخرطوم ولم تنقطع عنهم النيران ، فاستدلوا بذلك على سقوطها سيما وأنهم رأوا أن سراى جوردون مهدمة تماماً ولا أثر للأعلام المصرية أو الانجليزية على الخرطوم . وعلم ولسن أن جوردون قد قتل فرجع على جناح السرعة إلى كورتى وأخبر الجنرال ولسلى بذلك . وكان سقوط الخرطوم وقتل جوردون فى يوم واحد وهو يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ بخيانة فرج باشا الذى فتح للمهديين الطريق للدخول إليها

فلما أن علم ولسلى بهذا الخبر أرسل فى الحال إلى الحكومة المصرية ، ولما علم الخديو بذلك تأثر جداً وأرسل خطاب تعزية إلى زوجة جوردون فى ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٥ . كما أخبر ولسلى حكومته أيضاً بذلك بواسطة بارنج فوردت اليه الأوامر بالانتظار حتى تصله تعليمات أخرى ، لأن حكومة انجلترا ، بعد زوال المبرر لحملتها وهو إنقاذ جوردون ، ترددت بين الاقدام والاحجام . ولما كان البرنس حسن باشا شقيق الخديو قد أظهر لبارنج فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٤ استعداده للذهاب إلى السودان وإخضاع الثائرين خابر بارنج بذلك حكومته ، وفى اليوم التالى وردت إليه التعليمات بأخذ رأى ولسلى فى الموضوع ، فأبلغ ولسلى بذلك بناء على أوامر حكومته ، ولكن لم يتم أمر الى أن سقطت الخرطوم وتغير الموقف . فحصلت مخابرات بين الحكومتين المصرية والانجليزية بخصوص تعيين البرنس حسن باشا معتمداً سامياً فى السودان فاستدعاه الخديو فى يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٨٥ وأبلغه رغبته فى تعيينه فقبل هذا التعيين على أن يكون من قبل الخديو بصفته والياً للسودان ، وأن يكون مستقلا فى الادارة ، وتكون كل مخابراته مع مصر مباشرة ، وأن تطلق له الحرية التامة فى انتخاب وتعيين من يطلبهم

فى خدمته، وأن يصرح له بجمع قوة قدرها ثلاثة آلاف رجل من مصريين وشراكسة وأتراك وألبانيين، وأن لايكون لديه أحد من الانجليز. واستمرت المخابرات بينه وبين الخديو ونوبار وبارنج الذى أبرق إلى حكومته بذلك فرفضت الحكومة طلبات البرنس وقالت: — ليس ثمت من ضرورة لجمع قوة. فأجاب بأنه كيف يتيسر له تنفيذ كل ما يراه يعود على مأموريته بالنجاح. فأجيب بأن العساكر المصرية والانجليزية الموجودة بدنقلا تكفى للقيام بما يطلبه. وأخيراً عدل عن مطالبه وقبل العمل بلا قيد ولا شرط فأبلغ هذا القبول إلى ولسلى فجاء الرد فى ١٦ فبراير سنة ١٨٨٥ بموافقته بشرط أن يكون البرنس معتمداً سامياً من قبل الخديو فيرافق الحملة الانجليزية فى سيرها ويكون ذا سلطة على جميع المديرين وغيرهم من حكام السودان المدنيين. ولكنه يلزم قبل قبوله هذه المهمة أن يشترط عليه الانصياع إلى مطالبنا بدون شرط. وإذا قبل فليأت إلى كورتى فأبرق بارنج بذلك إلى حكومته فرد عليه جرانفل بأنه لايرى مانعاً من إرساله إلى دنقلا على شرط أن لا يكون فى مأموريته شىء يدعو إلى إعادة السيادة المصرية على السودان أو إكراه السودانيين على قبولهم أن يكون حسن باشا حكمداراً عليهم

وبعد أن تمت مراسم التعيين والقبول أخطرت انجلترا حكومة الاستانة بذلك كما أخطر حسن باشا الباب العالى بهذا التعيين أيضاً

وفى ١٩ فبراير سنة ١٨٨٥ أولم بارنج وليمة فاخرة للبرنس حسن باشا حضرها نوبار باشا وعبد القادر باشا وخيرى باشا ودومرتينو باشا والجنرال ستيفنسن والمستر فنسان وغيرهم من علية القوم

وفى ٢ مارس بارح البرنس حسن محطة بولاق الدكرور الى أسيوط على القطار الخديوى الخاص، ورافقه حتى أسيوط ذو الفقار باشا مندوباً من قبل الخديو. وكان فى وداعه بالمحطة السير بارنج ودومرتينو قنصل جنرال إيطاليا والجنرال استيفنسن وعدد من كبار مصر وأعيانها يتقدمهم شريف باشا وكبار الجاليات الأجنبية. وكان بالمحطة فرقتان من العساكر المصرية والانجليزية بموسيقاتهما، وعند وصول البرنس الى المحطة صدحت الموسيقى المصرية بالسلام الخديوى وبعدها صدحت الموسيقى الانجليزية. وقد كان لوداعه بالمحطة أثر عظيم فى النفوس. وصدرت الأوامر الى جميع المديريات بالاحتفال بالبرنس عند مروره بها، وعند وصوله الى آسيوط نزل باليخت الخديوى (زينة البحرين) وبارحها فى ٤ مارس سنة ١٨٨٥ الى أسوان حيث سافر منها على وابور (السعيدية) الى كورسكو ووادى حلفا حيث وصلها فى ٣١ مارس ولم يتم

سفره الى دنقله ، اذ وردت — قبل وصوله الى وادى حلفا بيوم واحد — برقية من لندرة بالايعاز الى البرنس حسن بالرجوع ، كما صدرت الأوامر الى اللورد ولسلى بالرجوع أيضاً الى مصر

أما السبب فى إحجام انجلترا بعد عزمها على فتح السودان فسنورده عند الكلام حوادث سنة ١٨٩٩

انتظر البرنس وصول الجنرال ولسلى الى وادى حلفا ليسافرا معاً الى مصر

فبارح ولسلى دنقله فى يوم ٣٠ مارس ووصل أسوان فى ٧ أبريل سنة ١٨٨٥ قبل البرنس حسن الذى كان قد رحل قبله ووصل محطة بولاق الدكرور فى يوم ١١ أبريل مساء . وقد استقبله السير بارنج والجنرال استيفنسن وذو الفقار باشا من قبل الخديو . وفى يوم ١٢ أبريل تشرف بمقابلة الخديو بسراى عابدين ، ورد سموه له الزيارة وبعدها غادر ولسلى القطر المصرى مشيعاً بالاعزاز والاكرام

أما البرنس حسن فقد بارح وادى حلفا فى يوم ٦ أبريل الى العاصمة فوصل محطة بولاق الدكرور فى صباح يوم ١٨ منه فى قطار خاص . وكان فى انتظاره بالمحطة ذو الفقار باشا من قبل الخديو واسماعيل كامل باشا سر ياور الخديو وكثيرون من الوجهاء والأمراء . وقد توجه تواً الى سراى عابدين فقابل سموه ثم ذهب بعدها الى سراى الجزيرة حيث زاره النظار والأعيان مهنئين بسلامة الوصول

**القبض على الزبير باشا وابعاده عن مصر .** فى أثناء وجود ولسلى فى دنقله ضبط أربعة خطابات قيل إنها من الزبير باشا رحمت أرسلها لأحد المشايخ فى أسوان لتوصيلها للمهدى . فبعث ولسلى تلغرافا الى بارنج بالقبض على الزبير باشا فعرض هذا الأمر على الخديو ونوبار باشا فلم يوافقا . ورغماً عن ذلك فقد قبض عليه بأمر بارنج بواسطة عساكر انجليزية فى منزل السنوسى بالاسكندرية كما قبض على ولديه وأرسل الجميع الى جبل طارق فى ١٥ مارس سنة ١٨٨٥

**احتلال ايطاليا لمصوع .** لما فشلت تجريدة ولسلى وصارت السودان فى يد المهدى انتهزت إيطاليا هذه الفرصة واحتلت مصوع فى ٥ فبراير سنة ١٨٨٥ برضاء انجلترا، نظير موافقتها على سياستها فى مصر، وأعلنت أن احتلالها هذا سيكون مؤقتا وللمحافظة على سيادة الدولة العثمانية فيها . فاحتج الخديو على الحكومة الايطالية فى ٩ فبراير سنة ١٨٨٥ وأرسل بذلك للباب العالى الذى قام بالاحتجاج لدى الدول فى ١٠ منه ، كما أرسل فى هذا

التاريخ يشكر سمو الخديو على احتجاجه . وفى ١١ فبراير أرسلت الدولة العلية تخبر الخديو أنها ستتخذ جميع الاحتياطات اللازمة صونا لحقوقه . ولما طلب سموه تعليمات فى ١٧ منه من الباب العالى عما يتخذ نحو احتلال إيطاليا لمصوع ، صدر الأمر بعدم جلاء الحامية المصرية عنها

فبقيت الحامية المصرية فى نفس المدينة رافعة العلم المصرى . أما الايطاليون فاحتلوا ضواحيها رافعين عليها علمهم[1]

وفى ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٥ توفى محمد احمد المهدى وخلفه التعايشى[2]

---

(١) انتهى الأمر فيما بعد على جلاء الحامية المصرية عن مصوع وتركها لايطاليا

(٢) كان للتعايشى أطماع كثيرة ، منها فتح مصر، فأرسل اليها ولد النجومى ( عبد الرحمن ) بجيش جرار واقتحم الحدود المصرية حتى وصل إلى طوشكى حيث هزمته الجنود المصرية شر هزيمة فى ٣ أغسطس سنة ١٨٨٩ وطاردت جيوشه بعد قتله إلى داخل السودان

# الفصل الحادى عشر

## متفرقات

### (١) الخديو توفيق

تكذيبه اشاعة استقالته . قالت الايجبسيان جازيت فى عددها المؤرخ ١٧ يناير سنة ١٨٨٤ ما ملخصه ؛ انه فى اثناء المحادثتين الطويلتين اللتين دارتا بين الخديو ومكاتب التيمس قال الخديو انه لا شك عنده فى أن الجرائد الانجليزية مهمة غير ان مكاتبى بعضها فى القاهرة يرسلون اليها معلومات على غير أساس من الصحة ؛ منها أنهم يزعمون انه فكر فى الاستقالة وانه يلح على الاحتفاظ بكردفان ودارفور . ومن الغريب انه لايعلم شيئاً عن ذلك ولم يحادث احدهم بهذا الخصوص. وقال عن استقالته انه لم يكن يفكر مطلقاً فى منصب الخديوية ، وان أحسن ايامه أيام ان كان بعيداً عن هذا المنصب . وانه لم يقبله الا قياماً بالواجب نحو والده ووطنه ، مسترشداً بنصائح المراقبة الثنائية ونصائح انجلترا . وكان أمامه واحدة من ثلاث خطط للحكم ؛ الاولى اما اتباع هذه النصائح ظاهراً والعمل على محاربتها فى الخفاء . أو اطاعتها اطاعة عمياء . أويناقش نصائحهم بكل صراحة ويبدى آراءه فيها فأذا قبلت كان بها والا فهو مضطر لقبولها وقد اتبع فى الحكم الطريقة الأخيرة فاعتبر ضعيفاً ، فهل كان يقاوم للنهاية ؟؟

وأن ما يقال عنه من انه غير محبوب فانجلترا كذلك غير محبوبة فى مصر لرغبتها فى ادخال الاصلاحات فى البلد . وهكذا قل عن الاطباء الذين كانوا يطهرون المنازل ضد العدوى ، وجميع الحكام الذين ينفذون الأوامر بصرامة . وكذلك القضاة الذين يعاقبون المجرمين وغيرهم . وعلى العموم فكل عمل يسير فى مجراه الطبيعى فهو غير محبوب . وقال انه وان كانت ستستمر الحال على ذلك الا أن واجبه يقضى عليه بالاستمرار فى طريقته هذه الاستمساك بالصبر وترقية اخلاق الفلاح . ولا يمكن أن تنال محبة الاهالى واعترافهم بالجميل قبل مضى اعوام وشعورهم بالفائدة التى تعود عليهم. كما قال انه لو كان يعتقد انه باستقالته يخدم وطنه لما تردد لحظة فى ذلك . ولكن هذه الفكرة لم تجل فى خاطره ولم يتكلم فى هذا الموضوع

وأما مسألة كردفان ودارفور وإلحاحه فى استردادهما فليس له محل من الصحة ، اذ أن مصر قد فقدتهما من شهر وانسلختا عنها . أما بخصوص السودان الشرقى على ساحل البحر الأحمر فليس فيه أى فائدة مباشرة لمصر ، وبما أن مصر كانت قد تسلمته من تركيا فيجب أن تسلمه اليها . وبما أن هذا يكلف الخزينة المصرية كثيراً من النقود فلا تفكر فيه مصر .

أما مسألة الخرطوم فهناك تردد فى اخلائها لأن النظار يجدون من الضرورة الاحتفاظ بها ، فلو صممت انجلترا على طلب اخلائها فستستقيل النظارة وفى هذه الحالة تؤلف نظارة أخرى

وقال ، فى ملاحظاته على الرأى العام الانجليزى وصداقته له ، انه قوة عظيمة كما أن اللورد راندلف شرشيل قوة عظيمة أيضاً ( ضحك ) ولكن مصالح مصر هى فوق كل ذلك وانه كان وسيكون صديقاً لانجلترا إلى الابد .

واختتم حديثه بأنه لا يصرح لمكاتب التيمس بالاعلان عن ارائه فى المسألة السودانية قبل أن يعرض على مجلس النظار . وكانت المحادثتان قبيل استقالة شريف باشا ورفض الأنذار النهائى الذى قدمه له السير افان بارنج فى صباح يوم ٨ يناير سنة ١٨٨٤

احتفاؤه بضيوفه الأجانب . فى صباح يوم ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ وصلت مياه الاسكندرية البارجة السويدية (واناليس) تقل سمو الأمير أوسكار دوق دوجوتلاند وثانى انجال ملك السويد والنرويج . وكان فى استقباله بالميناء محافظ الاسكندرية وقنصل حكومته العام وكثير من عظماء جاليته ، فهنأوه بسلامة الوصول ، وبعد ذلك رد سموه الزيارة لمحافظ الثغر واستقل القطار الى العاصمة فوصلها فى مساء ذلك اليوم مع حاشيته ، وكان بانتظاره فى محطة العاصمة تونينو بك التشريفاتى الأول مرسلا من قبل الخديو ومهنئاً بسلامة الوصول . وبعد ذلك زار سمو الأمير جناب الخديو ورد الزيارة له وقد احتفى به سموه ورجال الحكومة ايما احتفاء

**انعامات** . فى ٢١ ابريل صدر الأمر العالى بالانعام بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى على الجنرال وود سردار الجيش المصرى سابقاً وبالنيشان العثمانى من الدرجة الثالثة على الماجور كتشنر بمناسبة استقالتهما من خدمة الحكومة . كما أنعم فى يوم ٧ سبتمبر برتبة الميرميران الرفيعة على دومرتينو باشا رئيس القلم الافرنجى بالمعية السنية ، وعقب هذا الانعام أخذت صورته مع مرؤسيه



من الشمال الى اليمين شفيق وموسى عصمت وفي الخلف أودان بك وفى الوسط دومرتينو باشا وبعده سعيد ذو الفقار ثم احمد ذو الفقار واقفاً

في وسط هذه الصورة دومرتينو باشا « جالسا » وعن يمينه موسى عصمت فشفيق « جالسين » وعن شماله سعيد ذو الفقار « جالسا »
فاحمد ذو الفقار « واقفاً » واودان بك « واقفاً » من خلف

صلاة العيد . فى صباح يوم ٢٤ يوليه سنة ١٨٨٤ أدى جنابه العالى صلاة عيد الفطر فى حوش سراى رأس التين ومعه جميع أفراد المعية والخدم وعساكر الحرس . وبعد الانتهاء من الصلاة صعد سموه الى قاعة الاستقبال الكبرى واستقبل وفود المهنئين من مصريين وأجانب

**سياحة الأميرين عباس ومحمد على** . فى يوم ١٥ يونيو سنة ١٨٨٤ سافر الأميران عباس ومحمد على الى بور سعيد يصحبهما على بك جمال والدكتور عيسى بك حمدى ويوسف بك ضيا الضابط بالمدرسة العلية وموسيو مونتان ناظرها ومحمود افندى شكرى بقلم تركى المعية . قاصدين الى سويسرا عن طريق مرسيليا ومنها الى برلين فى سياحة غير رسمية ، وكانت هذه السياحة لأول مرة لهما

وفى صباح ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤ عادا فاستقبلهما فى الميناء المحافظ وكبار الموظفين ، ثم ركبا قطاراً خاصاً فوصلا العاصمة فى الساعة العاشرة صباحا وكان فى انتظارهما بالمحطة جم غفير من ذوات العاصمة وأغلب مستخدمى المعية السنية وفريق من تلامذة المدرسة العالية وقد حظيت بلقياهما ولثم أيديهما ، وعند وصولهما إلى فناء سراى عابدين نحرت جاموستان تحت أقدامهما ووزع لحمها على الفقراء

تشجيعه للعلم . مضى ما يثبت مبلغ تشجيع توفيق للعلم ونشر الثقافة فى بلاده . ونثبت هنا له يدا أخرى على ذلك ؛ تلك أن بعض أفاضل المصريين من أساتذة ومتشرعين وغيرهم فكروا فى إيجاد مدرسة ليلية يطلق عليها ( جمعية التعليم المصرية ) الغرض منها تعليم الشبان المصريين مجاناً الرياضيات والطبيعيات والقانون وبعض أصول الصحة وغير ذلك تحت رياسة لطيف بك سليم وكيل محافظة مصر الذى اختار للتدريس معه شفيق بك منصور وجبران بك لحيل وحامد افندى محمود وعبد العزيز افندى لحيل ( باشا ) بالمحاكم الأهلية واحمد افندى علوى ( باشا ) حكيم العيون بالمدارس الأميرية وعصمت افندى ناظر مدرسة القبة واحمد افندى حشمت ( باشا ) بالمحاكم الأهلية وابراهيم افندى مصطفى ( بك ) الكيماوى والسيد رضوان الحفناوى ( الشيخ ) وأبو النعمان افندى وحسن افندى عاصم ( باشا ) وانضم يعقوب افندى صروف وفارس افندى نمر ، الذى سيأتى ذكرهما ، الى هذه الجمعية

وتقرر أن يقبل فيها ٦٠ طالباً يعتبرون رسمياً أما غير الرسميين فكثيرون وسيعطى للاربعة الذين يمتازون على أقرانهم ويكونون من المقيدين رسمياً مكافأة نفيسة

وقد توجه لطيف بك سليم ومعه بعض أعضاء هـــذه الجمعية إلى سراى عابدين وتشرفوا بمقابلة الخديو وشرحوا له غرض جمعيتهم وسبب جعلها ليلية حتى يتيسر للمدرسين وللشبان الذين لاتسمح لهم أوقاتهم النهارية بالحضور الى المدرسة . فانشرح صدر الخديو من هـذه الفكرة الجليلة وأمر فى الحال حكومته بمساعدتها وإيجاد محل لائق للدراسة مجاناً فنزلوا شاكرين لسموه حسن رعايته لهذا المشروع

وفى يوم ١٢ مارس سنة ١٨٨٥ أعلن عنها لطيف بك بالوقائع المصرية وقال ؛ ان ديوان الأوقاف خصص لهذه المدرسة ، بناء على الأمر ، قبة الغورى الكائنة بشارع الغورية . ويعد هذا الاعلان الذى أوضح به برنامج الدراسة ومواعيدها واشتراطاتها أسرع الشبان إلى الالتحاق بها ، وبدأت فى العمل فى أوائل ابريل سنة ١٨٨٥ - وهى أول مدرسة ليلية من نوعها

معرض الأقطان وسك نقود جديدة . وفى أواخر سنة ١٨٨٤ افتتح سمو الخديو مع نظاره أول معرض للقطن بالقـاهرة وعرضت به جميع عينات القطن التى تزرع بمصر ليتسنى للمزارعين الوقوف على أجود الأصناف حتى يقوموا بنشر زراعتها فى أراضيهم ، لما فى ذلك من الفائدة المادية التى تعود عليهم وعلى مصر من أهم محصولاتها الزراعية . وقد هرع لمشاهدة هذا المعرض كبار القوم من مصريين وأجانب وكان آية فى الرونق فشكر سمو الخديو المسيو البير اسماعيلوم بك مديره على قيامه بتنسيقه خير القيام

وقد صدر الأمر بسك نقود جديدة

سفر الأميرين عباس ومحمد على للدراسة بسويسرا . وفى يوم ٣٠ يونيو سنة ١٨٨٥ سـافر الاميران عباس بك ولى العهد وشقيقه محمد على إلى أوروبا وبمعيتهما على باشا جمال ( اللالة ) والدكتور عيسى باشا حمدى ومحمود افندى شكرى كاتب تركى إلى سويسرا للدخول فى مدرسة لانسى بجنيف ، التى يديرها هكسيوس (١) وقد قضيا حيناً فيهـا ثم دخلا معهد « تريزيانوم » بفينا . وبذا ألغيت المدرسة العـالية التى كانت قد أنشئت ليقضيا فيها مراحل التعليم الأولى بمصر .

---

(١) وبعدها أقاما فى مدينة نيوشاتل بسويسرا للدرس ومعهما الشيخ احمد عبد الرحيم مدرس اللغة العربية لهما

وقد أرسل لى كل من سموهما صورته الكريمة قبل سفرهما مكتوباً عليها بخطه — « إلى خوجتنا العزيز احمد افندى شفيق »

ومن الأسف أنهما فقدتا عند غيابى عن مصر فى زمن الحرب العظمى

مكتبة الخديو توفيق . كلفنى الخديو توفيق بترتيب مكتبته بسراى عابدين . وكان موقعها فى الدور الثانى من السلاملك . وكان لها بابان أحدهما يطل على بهو السلاملك والثانى على حديقة الشتاء . فقمت بتنظيمها وترتيبها . وأذكر أنها كانت تشتمل على قليل من الكتب لايتجاوز عددها خمسمائة مجلد . وخرائط شتى لمصر والسودان ، وكان بها خريطة حائط كبيرة جداً تملأ فراغ أحد جدرانها ، وقد وضعت فى عهد الخديو اسماعيل عن أفريقية ووضحت بها المناطق التى فتحها الجيش المصرى فى السودان وأعالى النيل فى عهد اسماعيل .

وكان معظم الكتب من الأطالس وكتب الجغرافيا والتاريخ والسياحة وفنون العمارة العربية ، وغير ذلك مما كان يهدى إلى اسماعيل ثم إلى توفيق من بعده .

وحدث ذات مرة بينما كنت بهذه المكتبة أنظم محتوياتها أن جاء الأميران عباس ومحمد على نجلا الخديو ومعهما عبد صغير وخادم انجليزى ، وكان الأميران يلعبان فركبا فوق ظهر الانجليزى وأخذ هو يعدو بهما حتى أنهكه التعب . فقلت للأمير عباس : — ألا تتركان هذا الرجل يستريح قليلا ؟ فكان جوابه : — أليس هو انجليزياً ؟ فقلت أجل ولكن . . أليس نفساً ؟ فقال سموه : — نعم ولكن يجب أن نتعبه لأنه هو وإخوانه الذين « خسّروا » مصر .

التشريفات الخديوية . وكذا كان الخديو جاداً فى توفير أسباب السعادة والراحة لرعيته ، وكان الشعب كعادته شديد التعلق به ، حتى لقد ضاق ثغر الاسكندرية فى عيد الجلوس بالوافدين والمهنئين فى ٢٦ يونيه سنة ١٨٨٥ ، وبلغ من شدة الزحام أن آوى الناس إلى المساجد ومنازل الأهالى لضيق الفنادق .

وبالنسبة لقرب حلول عيد الفطر أشفق الخديو على شعبه ولم يرد أن يحمل المهنئين نفقات أخرى فى الحضور والعود . ولذا أرسل قلم التشريفات كتاباً إلى رئيس النظار يعلن فيه أن التشريفات فى هذا العيد ستقتصر على حضرات النظار دون سواهم . وكذلك أرسلت الأوامر للمديرين والمحافظين بملاحظة أعمالهم بدلا من حضورهم مع العمد والأعيان .

احصاء السكان . بناء على الأمر الكريم الصادر فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ قد اتم المسيو يوانيه الموظف فى مستشارية نظارة المالية تقريره عن احصاء الأهالى والبلدان فى مصر . وقد تبين منه ان أهالى مصر الطبيعية التى يحدها وادى حلفا لغاية ٣ مايو سنة ١٨٨٣ — ٦٫٨٠٦٫٣٨١ نفساً بما فيه البدو وسكان العزب والأجانب . واذا رفع عدد هؤلاء من جملة الأحصاء ومقدارهم ٣٦٤٫٠٠٦ لوجدنا ان مقدار عدد سكان مصر ٦٫٤٤٢٫٣٧٥ واذا قوبل هذا بحصر سنة ١٨٦٦ الذى كان ٤٫٤٥٦٫١٨٦ نسمة لوجدنا ان زيادة السكان فى هذه المدة بلغت نحو ٤٥ ٪.

(٢) **القبة الطيارة** . فى يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٨٣ هرع الأهالى أفواجاً إلى قصر النيل لمشاهدة المركبة الهوائية ( القبة الطيارة ) وصاحبها المستر سيمون الانجليزى . وفى الساعة الثانية مساء صعدت المركبة حاملة ثلاثة أشخاص وارتفعت الى نحو الالف قدم ، وكانت متصلة بحبل مربوط بها وبالأرض . وعلى هذا المنوال صعدت مراراً وأخيراً ركب فيها صاحبها وخادمه وبعد ان أفلت الحبل منها صعدت بهما حتى غابت عن الابصار ونزلت فى حلوان .

(٣) **فرقة عربية للتمثيل**. قدمت إلى الاسكندرية يومئذ فرقة تمثيل عربية برآسة الشيخ خليل القبانى فذهبت فى ليلة ٢٦ يونيو إلى المسرح وكانت الرواية « نكران الجميل » فاعجبنى التمثيل واغتبطت بالأخص لان فرقة عربية تعنى بهذا الفن الجميل .

تغيير اسم جريدة رسمية . قرر مجلس النظار بجلسة ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٨٤ بأن يستبدل اسم الجريدة الرسمية الفرنساوية (مونيتورايجبسيان) باسم (جرنال أوفيسه دوجوفرنما ايجبسين) أى ( جرنال الحكومة المصرية الرسمى ) وقرر أيضاً ان تضم هذه الجريدة وجريدة ( الوقائع المصرية) الرسمية العربية إلى ادارة واحدة تابعة لنظارة الداخلية . وقرر أن يكون صدورها ثلاث مرات فى الاسبوع فى أيام الاثنين والاربعاء والسبت ، ماعدا أيام الأعياد ، بدلا من صدورهما يومياً وذلك من بدأ سنة ١٨٨٥

(٤) **عالماد فاضلاد** . وفد علينا فى فبراير سنة ١٨٨٥ الدكتوران فارس نمر ويعقوب صروف من خيرة متخرجى الجامعة الأمريكية ببيروت ، وكانا يصدران مجلة المقتطف المزينة بالصور التى ذاع صيتها ليس فقط فى بيروت بل فى العالم الشرقى

خصوصاً فى مصر . وكان لها من القراء المعجبين بها من أول صدورها الكثيرون من أبناء القطر وكنت من بينهم فسرنا قدومهما






الدكتور فارس نمر

وكانت هذه المجلة فريدة فى بابها لما كانت تحويه من الموضوعات العلمية والأدبية والصناعية .

وقد تعرفت اليهما وما زال حبل الصداقة ممدودا بينى وبين الدكتور فارس نمر للآن

وقد كانت رسائل التشجيع ترد عليهما من كبار المصريين اقتطف من بعضها ما يأتى؛ فقد كتب شريف باشا يقول: ـ (لما كان المقتطف خير ذريعة لنشر المعارف بين المتكلمين بالعربية فلا عجب إذا نال ما نال من رفعة المقام فى اعتبار الخاصة والعامة معاً ؛ وقد بلغنى فى هذه الأثناء خبر نقله إلى القطر المصرى فاستحسنت أن أبدى مسرتى لما فيه من الفوائد التى لا تستغنى عنها البلاد )

كما كتب رياض باشا أيضاً يقول : ـ (فان للمقتطف عندى منزلة رفيعة ، وقد شغفت بمطالعته منذ صدوره إلى اليوم فوجدت فوائده تتزايد ، وقيمته تعلو فى عيون عقلاء

القوم وكبرائهم ، ولطالما عددته جليساً أنيساً أيام الفراغ والاعتزال ، ونديماً فريداً لا تنفذ جعبة أخباره ، ولا تنتهى جدد فوائده . سواء كان فى العلم والفلسفة أو فى الصناعة والزراعة )

وكتب شفيق بك منصور يكن يقول عن الدكتورين : — ( وقد كنا نسمع ولا نكاد نصدق بما لهما من جميل المزايا وجليل السجايا ، فضلا عن الباع الطويل فى كل فن جليل . فلما التقيناصدق الخبرُ الخبَر فرحباً بخير نزيل ونزيل الخير ( المقتطف ) فلقد أتيت أهلا ووطئت سهلا ونزلت على الرحب والسعة ، وقد فتحت أمامك أبواب الأندية أندية الفضلاء ، وأخليت لك صدور المجالس مجالس العلماء )

وقد صدر أول عدد منه بمصر فى يوم ١٠ مارس سنة ١٨٨٥ وهو الجزء السادس من العام التاسع للمجلة

(٥) **عيد استقلال اليونان** : فى يوم ٤ ابريل سنة ١٨٨٤ كان عيد استقلال اليونان ، فظهر رعاياها فى العاصمة بمظاهر الفرح والسرور متنوعة الاشكال ، وفى ليلة العيد تألفت منهم جماعة يحملون الاعلام وسعف النخيل فذهبوا أولا إلى ادارة جرنال البسفور ايجبسيان الفرنسى وطلبوا من مديره أن ينزل ، فقابلوه بالترحيب والاكرام وأجلسوه على كرسى موضوع على تخت بوش مربع من خشب ومزين ، وحملوه بهذه الصفة ، وكان حاملا بيده مزراقا طويلا فى أعلاه نسخة من البسفور أشبه برايه . وبعد ذلك طافوا كل شوارع الموسكى والأزبكية وكلما مروا أمام لوكاندة بها انجليز صرخوا هاتفين : — فلتعش فرنسا . . فلتعش ايطاليا — لأنه كان مع هؤلاء الجماعة جملة من الفرنسويين والايطاليين — فلتعش اليونان فلتعش مصر فليعش استقلال مصر . وهكذا من الكلام الذى ربما أثر كثيراً فى عواطف الانجليز بالعاصمة ، وأخيراً رجعوا بمدير جريدة البسفور إلى محل ادارته وصرخوا جميعاً : — فلتعش حرية المطابع . وعندها شكر المدير لهذا الجمهور وأظهر سروره التام . ثم ذهبوا جميعاً إلى القهوة المشهورة الكبيرة المسماة أولدرادو تتقدمهم الموسيق ، وهناك صدحت موسيق القهوة ابتداء المارسليز — وهو سلام جمهورية فرنسا — فصاح كل من بالقهوة — ما عدا الأنجليز الذين كانوا بها — هاتفين : — فلتعش فرنسا . ثم صدحت سلام ايطاليا فصاح الجميع : — فلتعش ايطاليا : — ثم سلام اليونان فصاحوا : — فلتعش اليونان . وأخيراً طلبوا جميعاً السلام الخديوى فصدحت الموسيق وكان كل من بالقهوة قياماً رافعين قبعاتهم فى أيديهم وفى

آخر السلام صاحوا : — فلتعش الحضرة الخديوية . فليعش استقلال مصر . وبعد ذلك ابتدأت الموسيقى بضرب سلام الملكة فهاج من بالقهوة — ما عدا الانجليز — وصفروا للموسيقى علامة على عدم الاستحسان فاضطرت الموسيقى أن تمسك عن العزف ولما رأى الأنجليز ذلك خرجوا من وقتهم من القهوة وفى قلبهم حزازات . وقد حدثنى بذلك صديق لى شاهد كل اولئك .

(٦) **دفاع صاحب الاهرام عن حقوق مصر وهديته** . لما ذهب المغفور له بشارة تقلا بك صاحب جريدة ( الأهرام ) فى صيف سنة ١٨٨٤ الى لندن ، وكان المؤتمر منعقداً فيها للنظر فى المسألة المصرية ، ألقى خطاباً ضافياً عن مطالب المصريين وشدة رغبتهم فى الجلاء ، ومقدرة حكومتهم على ادارة بلادها وعلى القيام بالاصلاح دون حاجة الى دولة من الدول ، فهبت صحف لندن تلوم حكومتها لأنها سمحت له بمثل ذلك أمام الرأى العام الانجليزى وكانت حجتها أنه لا يحق له أن يتكلم باسم مصر والمصريين ، وأن المصريين يقولون غير قوله . فقام أعيان البلاد وألفوا لجاناً توافدت على دار الأهرام بالاسكندرية مقدمة لصاحبه قراراتها وقرارات الهيئات النيابية بأنه يتكلم باسم مصر والمصريين ، وبأنه يعرف عن آراء الأمة المصرية وبأنها تكل اليه ذلك .



بشارة تقلا بك

وفى يوم ٢ اغسطس سنة ١٨٨٤ أرسلوا إلى ادارة الجريدة خطاباً مع هدية عبارة عن ساعتين ثمينتين من الذهب على احداها نقش اسم بشارة بك تقلا والثانية سليم بك تقلا وهذا نص الخطاب : —

« سعادة سليم بك تقلا صاحب امتياز جريدة الأهرام وبشارة بك تقلا مديرها الأكرمين .

« خير الناس من ينفع الناس ، وخير الشرف ماتولاه صاحبه عن اخلاص وحرية فى سبيل الذود عن الحقوق الوطنية والمصلحة العمومية . ذلك ما تبيناه كل التبين فى أسلوب جريدتكما الغراء — الأهرام — فقد سلكتما فيه مسلك الجد والثبات بدفاعكما عن الوطن وخدمتكما البلاد بالأخلاص والصدق وحسن الرأى ، مما انطبع على أفئدتنا حسن ذكره ، فكانت بما أثبتته فى محاماتها عن الوطن ناطقة بلسان أبناء القطر وذويه الصادقين . واذ لم يكن لهم بد من مقابلتهم اياكما بالشكر رأينا أن نرسل اليكما كتابنا هذا شاهداً عدلا على امتناننا من جريدتكما مشفوعة بتذكار لاينظر الى حقارة قيمته بل إلى حسن الغاية التى استدعت اليه ، حيث قد سطر عليه هذه العبارة (اهرام شعائر وطنية سنة ١٣٠١) فاقبلا أيها العزيزان ذلك وتأكدا اننا حافظون لكما الذكر الجميل الذى يخلد فى بطون التاريخ الجليل . وعلى المنتقد أن يراجع ماسطر باهرامكم والله ولى التوفيق » التواقيع سر تجار اسكندرية ابراهيم الناضورى — ابراهيم سليمان باشا — سعيد الغريانى — سعد الله حلاّبه — عبد الرحمن علايلى — احمد رستم شريف على زاده — سليمان العبانى — مصطفى احمد الطحّان — على على المصرى — الفقير خليل العشماوى الشافعى عفى عنه — محمد ادريس — محمد البحيرى — سليمان العزبى — محمد خليل الديوانى — عمر الحدينى — عبد الرحمن الجوربجى — ابراهيم شعت — مصطفى خليفة — محمد عبد الله — الفقير ابراهيم سيد احمد — متولى محمود — الحاج سيد احمد خليل — على فرغلى — على حسن الديب .

وفى صبيحة يوم ٣ أغسطس ورد الى ادارة هذه الجريدة كتاب ثان موقع عليه من ذوات الأقاليم المصرية الداخلية ونوابها فى مجلس شورى القوانين والمجالس الوطنية العمومية وأعيانها وعمدها وهاك نصه :—

« جناب الأكرمين الفاضلين صاحبى العزة سليم بك تقلا صاحب ومحرر جريدة الأهرام البهية وبشارة بك تقلا مديرها دام بقاؤهما

« بعد التحية والاكرام إننا ما برحنا نطالع جريدتكما الوطنية عما يتعلق بالمسألة المصرية وتوابعها وأن الخطة التى سلكتماها فى سبيل المدافعة عن حقوق مصر والمصريين هى خطة حميدة تدعو كل وطنى الى إبداء الثناء الجميل ، فان جريدتكما أظهرت حقيقة حالة هذه الديار وأتت بجميل بيانها على إبداء وسائل الاصلاح مما يبقى لكما الذكر الطيب الذى لا يبرح مقروناً بالاعتبار لسعيكما المشكور ومحافظتكما على عهد الاخلاص والصداقة للوطن ألهمنا الله جميعاً الى ما فيه التوفيق وحسن العاقبة والسلام » التواقيع

حسن عبد الرازق ( المنيا ) ابراهيم سعيد ( غربية ) أحمد عبد الغفار ( منوفية ) محمد الشواربى ( قليوبية ) مصطفى أبو العز ( غربية ) أحمد الشريف ( غربية ) حسين أبو حسين ( منوفية ) على مهنا ( بحيرة ) السيد سليمان ( منوفية ) محمود محمد أبو حسين (منوفية) منجود العطار (منوفية) محمد العرابى (غربية) عبد الوهاب عفيفى (شرقية) ابراهيم حبيب ( منوفية ) فرج ذكرى ( منوفية ) محمد حمودة ( غربية ) أحمد الصوفانى (بحيرة) عثمان الهرميل (غربية) عبد المجيد العبد (غربية) ابراهيم الجندى (منوفية) عبد الرحمن فايد (غربية) مبروك الديب (غربية) منصور السيد (شرقية) عبد اللطيف الشاذلى (غربية) خليفة عوض (بحيرة) محمد حمد (غربية) عبد المجيد المراس (غربية) مصطفى الشيخ ( غربية ) حسين حمزة ( بحيرة ) ابراهيم دبوس ( بحيرة ) متولى محمد ( أسيوط ) محمد صيرفى ( بحيرة ) حسين أمين ( بحيرة ) على الناقورى ( بحيرة ) أحمد الصباحى (غربية) سيد احمد زعزوع ( بنى سويف ) على الهراوى ( الفيوم ) السيد الفق ( منوفية )

وهؤلاء جميعاً من أعيان الأقاليم وفيهم من هو حائز للرتب العالية ؛ المتمايز والثانية والثالثة الخ .

وفى يوم ٥ أغسطس دعا محافظ الاسكندرية الأعيان الذين قدموا الهدية والكتاب الى سليم بك تقلا وأنبهم على فعلهم هذا ، فأجابوه : — إننا لم نفعل شيئاً مخالفاً ، فاننا لما رأينا اعتدال هذا الجرنال وذوده عن حقوق أهل البلد ، فضلا عن أن مديره بشاره بك صرف المبالغ الوافرة فى سياحته الى لوندرة وكان يفيدنا ويعلمنا أولا بأول كل ما هو جار فى المؤتمر ، قدرنا هذه الخدمة الجليلة التى تستحق المكافأة ، واذا كان غير ممكن لنا أن نؤلف عصبة ونرسلها الى لوندرة للدفاع عن حقوقنا فهذا بشاره بك تقلا قد دافع بكل ما أمكنه . فكيف لا نكافىء ونظهر انشراحنا من هذه الأعمال التى تخلد لهذا الجرنال ومحرره ومديره الذكر الجميل ؟

وفى يوم ٦ منه دعا سمو الخديو من الأعيان الشيخ سليمان باشا — ابراهيم بك الناضورى — مصطفى بك الطحان — سعد الله بك حلاً به الى سراى رأس التين والمفهوم أنه تحادث معهم فى هذا الأمر ، بل يقال إنه لا مهم على هذا العمل . وقد كتب سموه الى على باشا شريف كتاباً بهذا الخصوص ، بصفة أن الموقعين على المحرر الثانى من أعضاء مجلس شورى القوانين وسعادته الوكيل للمجلس .

وفى يوم ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٤ صدر الأمر العالى بتعطيل جريدة الأهرام وقد جاء فى أمر التعطيل :ـ ( نظراً لأن جريدة الأهرام نشرت جملة مواد سياسية من شأنها خدش سلطة واعتبار الحكومة الخديوية . ونظراً لأن العدد الصادر من هذه الجريدة فى ١١ أغسطس سنة ١٨٨٤ نشر فيه مراسله من لندرة من هذا القبيل أشد طعناً مما سبق نشره . ونظراً لأن نشر مثل هذه الجمل، مع ما عليه حالة القطر الحاضرة وحالة الأفكار، يعد مخلا للنظام العمومى . أمرنا بما هو آت :ـ تغلق شهر من تاريخ اعلان صاحبها )

والمفهوم أن ما ذكرته الأهرام فى مقالتها التى تسبب عنها الغلق كان انتقاداً مراً على سوء ادارة الانجليز بمصر . وقد احتج قنصل فرنسا على غلق الجريدة

٧ ـ **منع دخول جريدة العروة الوثقى للقطر المصرى** . قرر مجلس النظار فى جلسته يوم ٢١ يوليه سنة ١٨٨٤ منع دخول جريدة العروة الوثقى إلى القطر المصرى بحجة أنها مهيجة للأفكار . ولما أن كانت ادارة البريد الفرنسى لا يمكنها منع إرسال الجريدة المذكورة من باريس إلا بأمر خاص من الحكومة الفرنسية ، فقد خابرت الحكومة المصرية الحكومة الفرنسية فى ذلك

ولا ننسى أن محرر هذه الجريدة هو الأستاذ الشيخ محمد عبده ومدير سياستها هو السيد محمد جمال الدين الأفغانى . وهى تصدر فى باريس

٨ ـ **حفلة بارنج** . فى يوم ٦ فبراير سنة ١٨٨٥ أحيا السير بارنج قنصل جنرال انجلترا حفلة راقصة بمنزله دعا اليها القناصل وذوات العاصمة وأغلبهم من الأجانب وكبار الانجليز ، وقليل من الوطنيين . وقد طلب إلى المدعوين الحضور بالملابس الرسمية ، رغم أن هذا الطلب لا يكون إلا فى الحفلات التى يحييها الخديو فقط . وتصادف أنه علم بسقوط الخرطوم وقتل جوردون ومع هذا كله فلم يؤجلها وأقامها فعلا !!!

# الباب الثانى

## الفصل الاول

### عهد الدراسة

فكرة السفر للدراسة . سفرى الى باريس . التحاقى بمدرسة العلوم السياسية . امتحان السنة الأولى . امتحان الدبلوم . الانعام بالرتبة الثالثة . دراستى الحقوق . امتحان الكفاءة فى الحقوق . هدية خديوية . محاضرة عن الاسلام فى الجزائر

**فكرة السفر للدراسة .** قُدر لى ، بعد ان شهدت حوادث الثورة العرابية ، وبعد ان عادت السكينة إلى البلاد واستقرت الأمور فى نصابها ، ان أترك الحياة العملية حينا وان أعود الى حياة التحصيل والدرس مرة أخرى

فقد كنت كما قدمت من ضمن موظفى القلم الأفرنجى بالمعية السنية ، وكنت حينئذ فى الرابعة والعشرين ، وكان رئيسنا المباشر مسيو اودان ، وكان عملنا تبييض الرسائل الفرنسية الصادرة من الديوان واثباتها فى دفاتر الصادر . قضينا فى هذا العمل بضعة أعوام دون أن نترق ، وطلبنا مراراً أن يعهد الينا بتلخيص الرسائل الواردة فكان مسيو اودان يأبى علينا ذلك ويثبط هممنا . فسعينا لدى جودار باشا رئيس القلم الافرنجى أولا ، ثم لدى خلفه دومرتينو باشا . ولكن مسيو اودان كان يقاوم سعينا دائماً ويحتج بانا لا نستطيع القيام بهذه المهمة ، وأنه أسهل عليه تلخيص الرسائل من تصحيح ما نكتبه

فلما يئسنا من تحقيق رغبتنا اتفقنا فيما بيننا على أن نعد أنفسنا لعمل أفضل ، وأن نصقل كفاياتنا من طريق آخر هو محاولة السفر الى فرنسا واستئناف الدراسة فيها ، وان ابدأ بالسعى لتحقيق هذه المحاولة . فوافقنى على هذه الفكرة الزميل احمد ذو الفقار ( باشا )

وعلى ذلك رجوت دومرتينو باشا أن يتوسط لدى الجناب الخديوى ليأذن لى بالسفر

كى أتمكن من اجادة اللغة الفرنسية ، واستطيع عند عودتى أن أقوم بعمل أفضل من نسخ الرسائل . وكان ذلك سنة ١٨٨٤ : فابدى الخديو ارتياحاً لملتمسى ولكنه ارجأ الأذن لى عاماً بسبب انتشار الوباء ( الكوليرا ) يومئذ فى مرسيليا . وهكذا تمت الخطوة الأولى .

**سفرى الى باريس** . وفى أوائل يوليه سنة ١٨٨٥ رجوت دومرتينو باشا ان يكرر وساطته من أجلى لدى الخديو ففعل ، وقابلت سموه على أثر ذلك فقال لى : — « لقد أذنت لك فى الذهاب إلى فرنسا لاتمام دراستك فكن مطمئنا وخذ ما يكفيك من الزمن » فقبلت يده ودعوت له

ثم طلبت من مسيو اودان أن يتناول مرتبى وسلمته خاتمى للتوقيع به على كشف المرتبات على أن يرسله لى ، كما اعتدت أن افعل بالنسبة لمرتب دومرتينو باشا أثناء سفره . فوعد بتحقيق هذا الرجاء

سافرت فى ١٤ يوليه سنة ١٨٨٥ مع رئيسى دومرتينو باشا وأسرته وقد نزلوا فى نابلى وواصلت سفرى إلى مرسيليا ومنها أخذت القطار إلى باريس . وعند وصولى ركبت عربة إلى فندق كنت احتفظ بعنوانه

وقد لاحظت ان الاحياء القريبة من المحطة ليست من الرونق والفخامة كما كنت اتصور عن هذه المدينة، فكدت ارتاب فيما كنت اسمعه وأقرؤه عنها، ولكنى ما كدت أصل إلى شارع الأوبرا حتى شاهدت آيات روعتها وعظمتها ولا سيما دار الأوبرا الفخمة وما حولها

فلما وصلت إلى الفندق الذى كان صاحبه موظفاً سابقاً بنظارة الأشغال المصرية، رحب بى كل الترحيب ولم يدخر وسعاً فى العناية بأمرى

وبينما انتظر وصول راتبى فى أوائل أغسطس، إذا بخطاب من مسيو اودان يعتذر فيه من عدم ارساله لأنه لا يستطيع أن يبصم بخاتمى بالنيابة عنى على كشف المرتبات، خوفاً من أن تقف نظارة المالية على غيابى فيسأل عن ذلك . ولكن الواقع ان المالية لم يكن لها يومئذ شأن بموظفى المعية السنية . غير انى أحسست ان غرضه من ذلك تقصير مدة اقامتى فاضطررت إلى طلب اجازة رسمية ثلاثة أشهر ونصف ، وتملكنى بسبب ذلك شىء من الكدر

وفى هـذه الاثناء كنت أفكر فى اختيار نوع الدراسة الذى يلائمنى . وحدث أن وقع فى يدى برنامج مدرسة العلوم السياسية فوافقتنى محتوياته وعزمت على اختيار هذه الطريق

وكان على باشا ذو الفقار ( كبير التشريفات ) قد زودنى عند سفرى برسالة إلى رئيس البعثة المسيو مزمر . فقصدته — وكان رجلا طويل القامة مهيب الطلعة — وقدمت إليه الرسالة وأنبأته بعزمى على الالتحاق بمدرسة العلوم السياسية . فاشار على بأن اتلقى دروساً فى اللغة الفرنسية والتاريخ ، إذ لا استطيع بدونهما السير فى هذه الدراسة . وأرسلنى بتوصية إلى طالبة بمدرسة اللغات الشرقية تدعى الآنسة تالبوتيه ، وكانت تُدَرِّسُ الفرنسية لبعض الطلبة الشرقيين . فاختبرتنى فألفتنى ضعيفاً واشارت على بالكتب اللازمة ومضيت اتلقى عنها الدروس الأولى .

وكان من بين تلاميذها من المصريين محمد افندى شاكر الذى كان يسكن مع مصرى آخر هو صالح افندى صبحى فتعرفت اليهما وساعدنى الأخير على السكنى فى فندق قريب من المدرسة التى أزمعت الالتحاق بها



( محمد شاكر )



( صالح صبحى )

**التحاقى بمدرسة العلوم السياسية** . وأنفقت فى هذه الدراسة التمهيدية زهاء ثلاثة أشهر ، وفى أكتوبر سنة ١٨٨٥ التحقت بمدرسة العلوم السياسية ، ولم أنقطع عن تلقى الدروس الخصوصية ، وبعثت إلى مصر التمس مد إجازتى بمقتضى شهادة صحية ، فمدت لثلاثة أشهر أخرى .

وليست مدرسة العلوم السياسية ذات صبغة حكومية ، بل هو معهد حر ذو منزلة سامية من حيث الهيئة العلمية . وكان يتولى التدريس فيها جماعة من فحول العلماء والأساتذة الاخصائيين

أما الدراسة بهذ المعهدفتنقسم إلى أربعة أقسام: المالى — والمستعمرات — والادارى — والسياسى (١) . وقد اخترت الأخير إذ من خريجيه يختار موظفو السلك السياسى فى فرنسا ومنهم من يصل إلى مقاعد الوزارة

وكانت المحاضرات تلقى بالفرنسية ولكن لضعفى فيها اعتدت بادىء بدء أن ألخص ما يلقى على باللغة العربية مع مزيج من الفرنسية من العبارات أو الكلمات التى لا أفهمها لكى أراجعها وأتفهمها بعد .

وفى ٢٣ يناير سنة ١٨٨٦ ، سجلت اسمى فى جمعية طلبة مدرسة العلوم السياسية وأديت رسم الدخول والاشتراك السنوى . وللجمعية مجلة شهرية تتناول مختلف الموضوعات السياسية والمالية وغير ذلك . وتجتمع أعضاؤها مرتين كل شهر للمناقشة فيما يعرض من الطلبة فى موضاعات شتى . وقد شهدت الاجتماع الأول فى مساء أول فبراير ، وكانت دعوة إلى العشاء بقصد اجراء التعارف بين أعضاء الجمعية . فحضر نحو أربعين ومنهم بعض الأساتذة وسكرتير المعهد وكثير من المتخرجين فيه . وبعدالتعارف والطعام خطب السكرتير فحث الطلبة على الاتحاد والتآلف والعمل للنهوض بالجمعية

ومضيت فى دراستى بنشاط وجزت أول امتحان فرعى ، وكتبت إلى دومرتينو باشا أخبره بذلك وأطلب مد الأجازة المرضية ثلاثة أشهر أخرى . فرد على مشجعاً

---

(١) كانت المواد التى تدرس بهذا القسم هى : — التاريخ السياسى من سنة ١٦٤٨ الى سنة ١٧٨٩ ومن سنة ١٧٨٩ إلى العصر الحالى . تاريخ أوربا المعاصر . المسألة الشرقية منذ سنة ١٨٥٦ . الجغرافيا وخصائص الأجناس المختلفة . التجارة الخارجية والتشريع الجمركى والتشريع التجارى المقارن . القانون الدولى العام والخاص

بالمثابرة وبأن سمو الخديو صرح لى بالأجازة بنصف مرتب كما تقضى بذلك لائحة الأجازات، وكان ذلك فى ٢٩ مارس سنة ١٨٨٦. فقبلت راغماً لشدة حرصى على الاستمرار فى دراستى ولجأت الى الاقتصاد ما استطعت ، ولبثت مشغول البال حيناً لذلك الأمر حتى تسلمت فى ١٢ ابريل كتاباً من محمد زكى بك ( التشريفاتى الثانى ) يخبرنى فيه بأن الأمر قد صدر الى المالية بالاستمرار فى صرف مرتبى كاملا ، باعتبار أننى معين من قبل الخديو فى مهمة خارجية ، وأن مرتبى سيصرف إلى كله لحين عودتى. فاغتبطت بهذا النبأ وسرى عن نفسى ما كان يساورها من الاشتغال

**امتحان السنة الأولى** . وتقدمت لامتحان السنة الأولى فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٦ وبدىء بالتاريخ العام وأستاذه العلامة لروا بوليو فسألنى فى الموضوعات الآتية : —

(١) الفرق بين حالة الصرب فى معاهدة سان ستفانو وحالتها فى معاهدة برلين

(٢) نظام الادارة الصربية فى عهد الدولة العثمانية

(٣) المجر وتقسيمها السياسى ، دستورها وتاريخه

(٤) إلى أى جزء من اجزاء الامبراطورية كانت تنتمى سيليزيا ، وإلى أى جنس ينتمى اكثرية السكان؟

(٥) ما هى الأحزاب فى ايطاليا؟

وسألنى المسيو بيچونو عن تقسيم بولونيا

وكانت أجابتى لهذين الاستاذين دون الجيدة

وفى صباح يوم ٢٤ منه أمضيت الامتحان فى دروس الاستاذ البير سوريل ، وكانت إجابتى موفقة جداً ، وكانت الأسئلة فى الموضوعات الآتية : —

(١) الشروط الأولية لمعاهدة فيلا فرنكا والدور الذى لعبته النمسا فى مشروع الوحدة الأيطالية . وهل كانت ايطاليا حرة إلى بحر الادرياتيك؟

(٢) كيف حلت مسألة الدوقات النمساويين، وماذا كانت سياسة نابليون الثالث تجاه هذه المسألة؟

وبعد أن أجبت على كل هاته الاسئلة سألنى عما اذا كنت مسلماً أو مسيحياً وقال لى أحب ان أسأل المجدين أسئلة صعبة فسألنى : —

(٣) ما هى الأصلاحات التى قام بها البابا پى التاسع ، ولماذا لم يتقدم عند انضمام

الكثيرين من اهالى روما التابعين له إلى جيش البيومنت لمحاربة النمسا على رأس هذا الجيش، لأخراج النمساويين من أراضى ايطاليا ولتوحيدها؟

وكانت اجابتى على هذا السؤال بوجه خاص موضع اعجاب الاستاذ فالتفت للطلبة الحاضرين وقال : — « ها هو ذا مصرى يجيب جيداً على اسئلة دقيقة لا تختص ببلاده ولا بدياناته ، فاحب أن أرى الفرنسيين يجيبون بمثل هذه الدقة على ما يختص بمصر »

وبعد عصر هذا اليوم أمضيت امتحان القانون الدولى امام المسيو رينو فسألنى عن مسألة الصيد ومسألة التلغراف البحرى فاجبت إجابة دون المتوسط

وفى اليوم الثالث أمضيت الامتحان أمام موسيو فرارى فى التاريخ السياسى فسألنى فى الموضوعات الآتية :—

(١) المسألة الشرقية من منشئها (٢) تقسيم بولونيا (٣) معاهدة برادا فكانت إجابتى جيدة

وفى العصر أديت امتحان القانون العام أمام المسيو فُنْك براتانو وكانت الأسئلة :—

(١) مركز مصر بين الحكومات وهل لها أن ترسل ممثلين سياسيين ؟
(٢) النظم الدولية التى توجد فى مصر ولا توجد فى غيرها
(٣) نظام المحاكم المختلطة
(٤) المحاكم التى يَرفع لها استئنافا فرنسى مقيم فى البلاد الشرقية
(٥) مركز قناة السويس ومدى حرية الملاحة فيها

فأحسنت الاجابة

وفى يوم ٢٥ يونيه أديت الامتحان فى المسألة الشرقية من سنة ١٨٥٦ إلى عصرنا أمام مسيو ڤاندال ، وسئلت فى :—

(١) ثورة الروملى الشرقية . والاتفاق المعقود بين البرنس اسكندر والسلطان . المواد التى رفضتها الروسيا من هذا الاتفاق . وهل وصل مؤتمر الاستانة إلى نتيجة . ما هو الحادث المهم الذى وقع فى هذا الوقت . وأى الدول كانت مضادة لبعضها فى هذا المؤتمر؟
(٢) تاريخ الصرب ابتداء من سنة ١٨٥٦ إلى يومنا هذا

وكانت إجابتى متوسطة

وبعد الظهر أديت الامتحان فى القانون التجارى المقارن أمام المسيو ليونكان

فسألنى عن الدفاتر التى توجد لدى التاجر الألمانى والأمور التى تتعلق به فى أثناء اشتغاله بالتجارة ، ثم سألنى عن القانون الألمانى وتاريخه فأجبت إجابة حسنة .

وفى اليوم الثامن والعشرين من يونيه علمت من سكرتير المدرسة أنى نجحت فى سبعة علوم ولم أنجح فى القانون الدولى ، فوجب على أداء الامتحان فيه مرة أخرى .

وفى ١٢ أغسطس سنة ١٨٨٦ جاءتنى رسالة من ذو الفقار باشا يوصينى فيها بنجله ابراهيم بك ، وكان قادما للدراسة . وقد حضر فعلا إلى باريس فى يوم ٩ أغسطس فقدمته لمسيو مزمر ، وعندئذ استقر رأينا على السكنى فى منزل فى شارع جرينيل بالقرب من نظارة المعارف واشترينا ما يلزم من الأثاث والأدوات وكان ذلك فى منتصف سبتمبر سنة ١٨٨٦

**امتحان الدبلوم** . وفى منتصف أكتوبر سنة ١٨٨٦ فتحت مدرسة العلوم السياسية أبوابها عقب إجازة الصيف وعدنا للدراسة .

وكنت قد بدأت افكر فى وضع رسالتين لاتقدم بهما إلى الامتحان النهائى . فخطر لى ان اكتب احداهما عن « الغاء الرقيق فى مصر » والثانية عن « تاريخ مصر السياسى فى عهد اسماعيل ، مع مقارنته بعهد توفيق » وعرضت الموضوعين على رئيسى السابق جودار باشا ، وكان يقيم يومئذ فى مدينة « دول » فاستحسنهما . ولكنى حينما استشرت المسيو مزمر رئيس البعثة السابق لم يوافق على الموضوع الثانى لانه كان ظاهر الميل إلى اسماعيل .

وفى ١٤ فبراير سنة ١٨٨٧ استشرت المسيو فاندال استاذ المسألة الشرقية بمدرسة العلوم السياسية فرأى ان أعدل برنامج الرسالة السياسية وأن يكون موضوعها « سياسة فرنسا فى مصر ابتداء من عهد المراقبة الثنائية إلى عصرنا » وأرشدنى إلى بعض المراجع والوثائق الرسمية . فأخذت برأيه

وفى السابع عشر من يونيه بدأنا امتحان الدبلوم . وكان موضوع الامتحان التحريرى « علائق فرنسا مع روسيا منذ معاهدة باريس سنة ١٨١٤ إلى سنة ١٨٣٠ »

وفى يوم ١٨ منه كان موضوع الامتحان التحريرى فى القانون عن الطرق المتبعة فى بلاد أوروبا المختلفة للاستحصال على الجنسيات الاجنبية

وفى ٢١ منه عقد الامتحان الشفوى وسئلت فى القانون الدولى مقرر السنتين . فاحسنت الأجابة

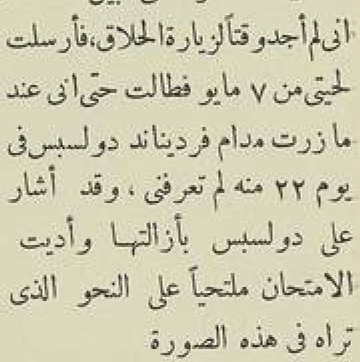
وفى يوم ٢٣ منه كان الامتحان فى نظام القنصليات الفرنسية وعن ابعاد وطلب تسليم المجرمين . وفى عصره كان الامتحان فى التاريخ السياسى ، وكان موضوعه « سياسة انجلترا منذ بدء الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٧٩٣ وموقف الأحزاب الانجليزية ازاءها »

وفى يوم ٢٤ منه صباحاً امتحنت فى القانون الدولى العام فسئلت فى الرق وبعد الظهر امتحنت فى نظام الجمارك والمعاهدات التجارية

وفى يوم ٢٥ منه امتحنت فى الجغرافيا وسئلت عن ما هى الطريقة التى استعملتها انجلترا لحفظ نفوذها التجارى فى البحر وكذا ما تملكه فى الهند براً وبحراً . وعن تكوين النمسا وتقسيمها السياسى

وفى يوم ٢٧ يونيه اعلنت اسماء الفائزين فى الدبلوم فكنت من بينهم .

ومما اذكره انى قبيل الامتحان كنت شديد الانهماك فى الدرس والمذاكرة حتى انى لم أجد وقتاً لزيارة الحلاق، فأرسلت لحيتى من ٧ مايو فطالت حتى انى عند ما زرت مدام فرديناند دولسبس فى يوم ٢٢ منه لم تعرفنى ، وقد أشار على دولسبس بأزالتها وأديت الامتحان ملتحياً على النحو الذى تراه فى هذه الصورة





( شفيق باشا بلحيته )

وكنت قد أقسمت ان لا أزيلها حتى أنجح فى الامتحان . فلما فزت أزلتها ، وأقمت مأدبة غذاء دعوت اليها اصدقائى وشربنا شمبانيا (١) ولأول مرة شعرت برأسى تهتز فوق كتفى . ثم ذهبنا فى العربات للرياضة فى غابة بولونى ولما استنشقت الهواء العليل زال ما بى وكان يوم فرح وسرور

---

(١) وكنت قد ذقت هذا المشروب لأول مرة فى حياتى فى حفلة مدام فرديناند دولسبس ولم أشعر يومئذ بالنشوة التى شعرت بها اليوم .

**الانعام بالرتبة الثالثة .** بعدئذ وصلنى كتاب من مسيو أودان يزف إلى فيه بشرى إنعام سمو الخديو على بالرتبة الثالثة بمناسبة نجاحى فكان لذلك أثره العظيم فى نفسى وكتبت إلى سموه خطاب شكر

وبعد حين قابلت مسيو جرى سكرتير مدرسة العلوم السياسية ، ورجوته أن يطلعنى على الرسالة التى قدمتها عن « سياسة فرنسا فى مصر ابتداء من عهد المراقبة الثنائية » لأطلع على رأى الأستاذ فاندال وملاحظاته عليها . فوجدت أنه لم يغير شيئاً فى نصها ولكنه أشر عليها بما ترجمته :ـــ « كتبت بعناية وكثير من البحث مع ايراد وثائق جديدة أو قليلة الذيوع ولكن الانشاء ضعيف والأسلوب غير متقن » وعلمت منه أيضاً أن الأستاذ فونك برنتانو كتب عن رسالتى الرق فى الاسلام بأنها جيدة وفيها معلومات على أساس الشرع الاسلامى

**دراستى الحقوق .** وكان وقت الانتساب فى كلية الحقوق بالسوربون قد فات فاستعنت بالمسيو فرديناند دولسبس لدى وزير المعارف على تقييد اسمى بصفة استثنائية فقبل رجاءه . وأرسلت له خطاب شكر على ذلك فى ١٨ فبراير سنة ١٨٨٧ والتحقت بالمدرسة

**امتحان الكفاءة فى الحقوق .** وفى يوم ٢ أغسطس سنة ١٨٨٩ أديت امتحان الكفاءة فى الحقوق وكان الممتحنون أربعة من الأساتذة فسألنى الأول فى الاحتياطى وكيفيته عند ما يكون الأصل موجوداً ، ثم سألنى فى الوصية . ومع صعوبة هذه الأسئلة كانت اجابتى فيها جيدة . وسألنى الثانى فى القانون المدنى عن الالتزام لأجل والفرق بين الشرط والأجل . والثالث فى الاجراءات عن الاختصاص المطلق والاختصاص النسبى فى الدعاوى . وسألنى الاخير فى قانون العقوبات عن الادعاء بالحق المدنى . فأجبت إجابة حسنة وعلمت قبل انصرافى أنى قد نجحت بنوال ثلاث كرات حمراء وواحدة بيضاء (١) وكتبت فى الحال بذلك الى أسرتى ورؤسائى فى الديوان الخديوى .

---

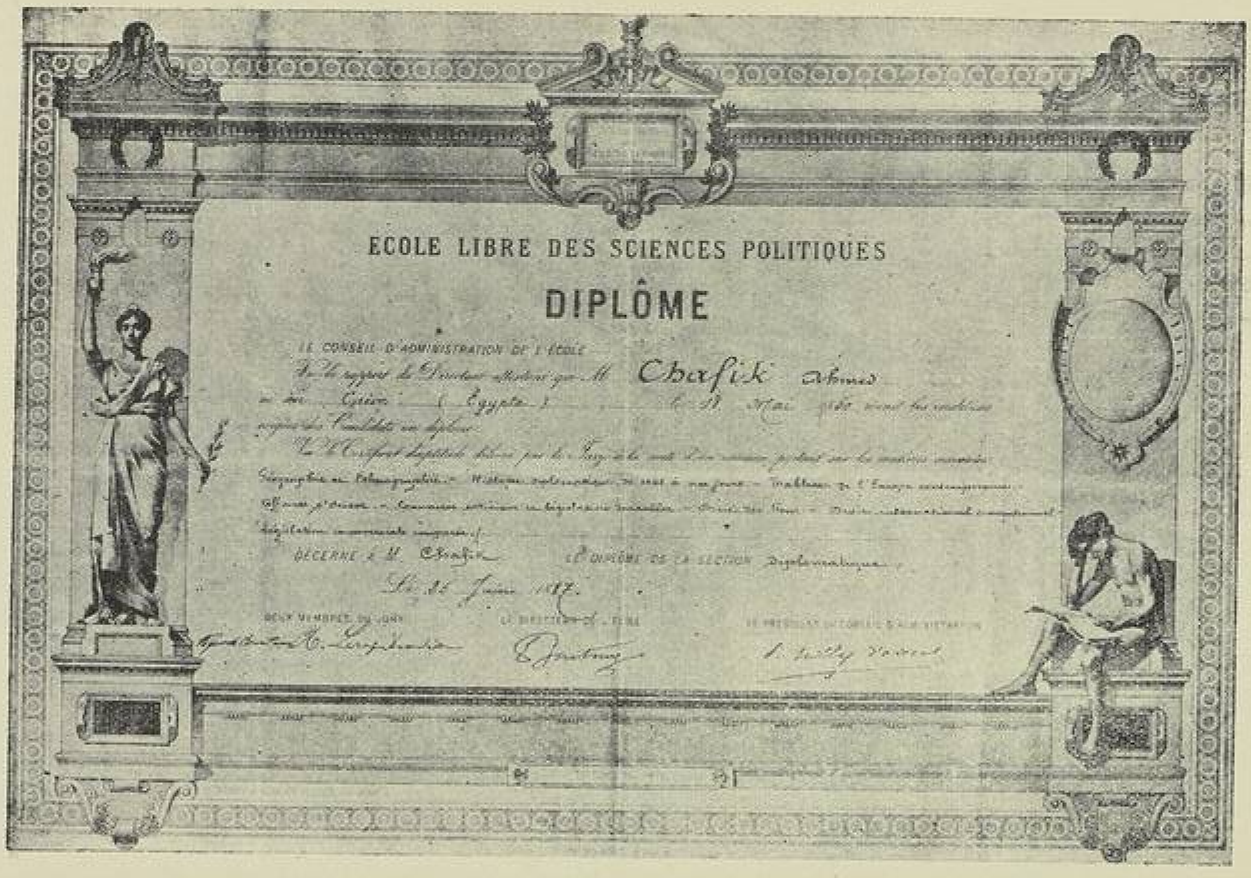
(١) درجات الامتحان فى الحقوق ليست بالأرقام ولكن بالكرات ، فالكرة البيضاء تدل على الاجابة الصحيحة ، والكرة الحمراء على الاجابة المتوسطة والسوداء على الرسوب

ولما علم مدرسى الخصوصى فى الحقوق بنجاحى من الخطاب الذى كنت أرسلته اليه ، أجابنى بأنه ما كان يشك مطلقاً فى نجاحى خصوصاً وأننى غير هياب ، وهنأنى بذلك

**هدية خديوية** . وبمناسبة هـذا النجاح تفضل سمو الخديو فأهدانى صورته الكريمة ، بعث بها الى محمد زكى بك . وقد هز هذا التشجيع نفسى وملأها سروراً وفخاراً

وكنت أتمنى أن أتوج دراستى بتمرين عملى فى بعض وزارات الحكومة الفرنسية ، ولكن لم يسمح لى الوقت بتنفيذ هذه الرغبة

**محاضرة عن الاسلام فى الجزائر** . ومما قيدته من حوادث ١٨٨٩ أننى شهدت فى أواخر فبراير من هذه السنة محاضرة فى مدرسة العلوم السياسية عن « سياسة فرنسا فى الجزائر » تناول فيها المحاضر السياسة الغربية فى هذه البلاد وخططها ومشاريعها ، ومما قاله : — « ان فرنسا تلاقى عنتاً فى اغتنام عطف العرب لأنه يتعذر امتلاك قلوبهم ما دام الاسلام يحول بينهم وبين الخضوع لأمة نصرانية » فكانت الفكرة المقصودة بهذه العبارة هى أن توجه فرنسا جهودها لاخماد حمية الاسلام فى نفوس الشعب الجزائرى تمهيداً لاستعباده المطلق ( وهـذا ما تميزت به السياسة الفرنسية فى شمال أفريقية فى العهد الأخير )



ECOLE LIBRE DES SCIENCES POLITIQUES

DIPLÔME

LE CONSEIL D'ADMINISTRATION DE L'ÉCOLE

Cherif Ahmed

( Egypte )

DÉCERNE À M. Cherif

LE DIPLÔME DE LA SECTION Diplomatique

DEUX MEMBRES DU JURY

LE DIRECTEUR DE L'ÉCOLE

LE PRÉSIDENT DU CONSEIL D'ADMINISTRATION

دبلوم مدرسة العلوم السياسية

ACADÉMIE
DE PARIS

ENSEIGNEMENT
SUPÉRIEUR

# UNIVERSITÉ DE FRANCE

## FACULTÉ DE DROIT DE PARIS

# CERTIFICAT DE CAPACITÉ EN DROIT

Nous, Professeurs de la Faculté de Droit de Paris,

En exécution de la loi du 22 ventôse an XII, des décrets du 4 complémentaire de la même année, du 3 juillet 1806, du 22 août 1854, du 28 décembre 1880, et conformément aux arrêtés des 5 mai 1829 et 20 juillet 1861,

Vu le relevé des registres fait par le Secrétaire de la Faculté, constatant que M. Ahmed, Chafik.
né à Caire, ~~département de~~ Egypte, le 18 Mars 1860.
a pris quatre inscriptions dans ladite Faculté,

Vu les certificats d'assiduité délivrés par les professeurs de Code civil, de Code de procédure civile et de Droit criminel,

Après avoir fait subir au candidat les épreuves prescrites par les règlements ci-dessus visés,

L'avons déclaré digne du certificat de CAPACITÉ EN DROIT

Fait à Paris, le 2 Août 1889.

Les Membres du Jury,

Vu :
Le Doyen,

Le Secrétaire,

Nous, Vice-Recteur de l'Académie de Paris, après nous être assuré de la capacité et de la bonne conduite du candidat, ratifions, par délégation de M. le Ministre de l'Instruction publique, le présent certificat de CAPACITÉ EN DROIT, que nous délivrons au sieur Ahmed pour en jouir avec les droits et prérogatives qui y sont attachés.

Fait au chef-lieu et sous le sceau de l'Académie, le 8 AOUT 1889

Signature de l'Impétrant,

Ahmed Chafik

شهادة الكفاءة فى الحقوق

# الفصل الثانى

## المشاهدات فى سنى الدراسة

— ١ —

**المتاحف والآثار . الحدائق . أهذا هو الثلج ؟ . المستشفيات . معرض الجثث «لامورج» . سراى الصناعات ومعرض العمال . دار المسكوكات . مصنع سيفر للخزف . الجمعية الجغرافية . الكنائس . مجلس الشيوخ مجلس النواب .**

---

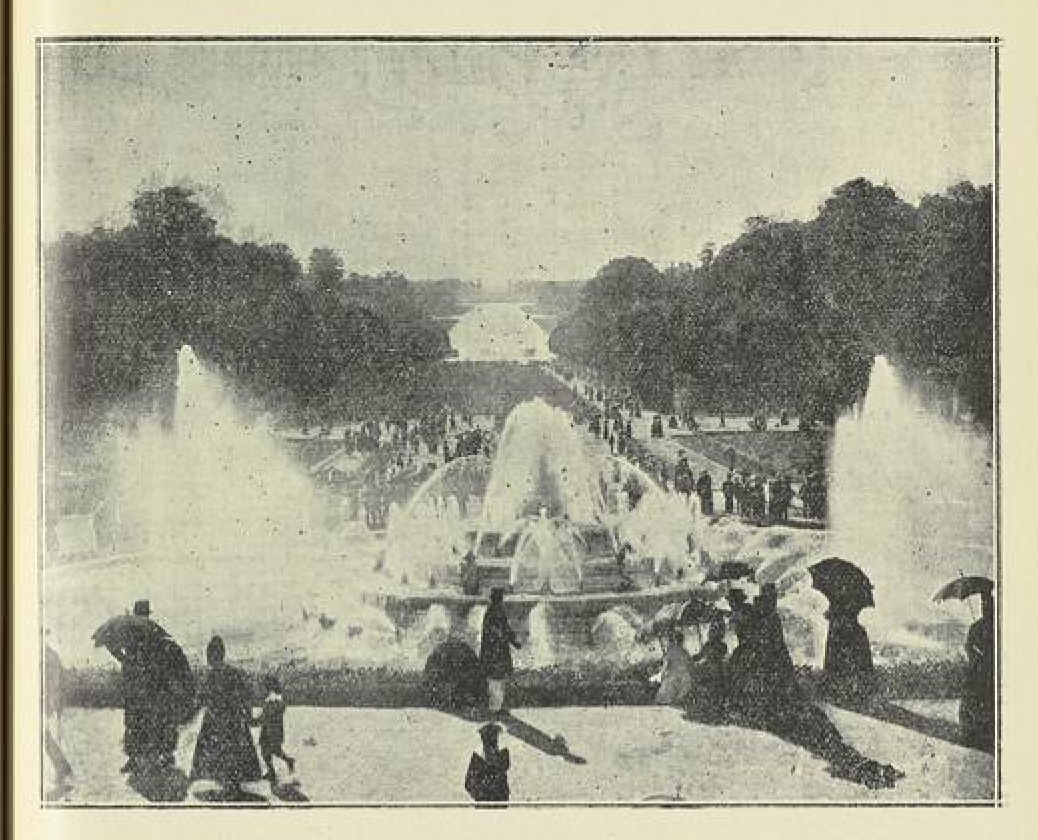
أتاحت لى فرصة الأعوام القلائل التى قضيتها فى الدرس بباريس، أن أشاهد كثيراً من مظاهر الحياة فيها وآثارها . وسأعرض من ذلك أهم ما رأيته

### المتاحف والآثار

متحف قصر فرساى . أول ما قصدت مشاهدته من المتاحف هو هذا المتحف . توجهت فى ٣٠ اغسطس سنة ١٨٨٥ للتفرج عليه . وهو القصر الذى كان يسكنه لويس الرابع عشر ، وفيه صور زيتية عديدة آية فى الفن ، وبه أوان خزفية فى غاية الأبداع ، ويوجد به المحل الذى كانت تقيم فيه خليلة الملك ، وكذلك الباب السرى الذى كانت تستعمله . وعلى باب أحدى خزائن الملكة قفل جميل الصنع قيل انه من صناعة لويس نفسه ، حيث انه كان مغرماً بصناعة الأقفال .

يحيط بهذا القصر حديقة غناء منسقة تنسيقاً جميلا ، وبها فسقيات تتدفق من نافوراتها المياه بشكل بديع والى ارتفاع عظيم . ويبدأ اندفاق المياه منها فى الساعة الرابعة والنصف مساء حتى الساعة الخامسة فى أيام معلومة .

ويوجد فى آخر الحديقة ، قصران يسمى أحدهما تريانو الصغير والآخر تريانو الكبير .

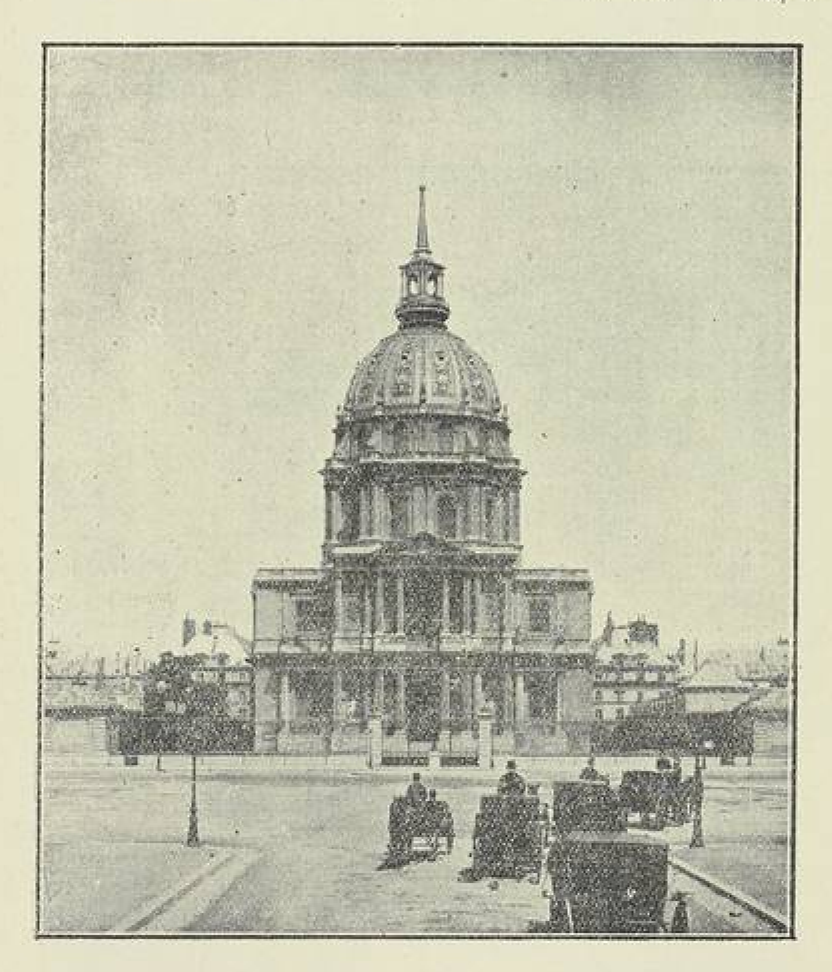


متحف فرساى والنافورات

متحف لوكسمبورج . فى يوم ١٣ سبتمبر قصدت اليه وهو داخل الحديقة المسماة بهذا الاسم، وقد بنى فى سنة ١٦٢٠ وهو فى منتهى الفخامة زينت جدرانه بنقوش وصور لأمهر الفنانين . وفيه جناح خاص لعرض لوحات المصورين المعاصرين، وبه آيات من بدائع الفن . وخصص فى بعض العصور لسكنى بعض الأميرات والأمراء . كما حول أحياناً إلى سجن لاعتقال بعض الكبراء .

دار العجزة . وبعد أسبوع زرت دار العجزة وقد بناها لويس الرابع عشر لتكون ملجأ للجند الذين يصابون فى الحروب بعاهات ولا أهل لهم ، أو لمن يؤثرون منهم البقاء فيها على الذهاب لأهلهم . وفى داخل هذه الدار متحف الطوبجية وبه الأسلحة بجميع أنواعها منذ أقدم العصور إلى يومنا ، ومنها أسلحة ودروع لكثيرين من ملوك فرنسا وغيرهم ، وتماثيل لبعض مشاهير الفرسان من مختلف الأمم .

وقد أريد بأقامة هـذا المتحف أن يكون سلوى اللاجئين اليه من الجند العجزة إذ يذكرهم بمناظر الحروب ومجدها

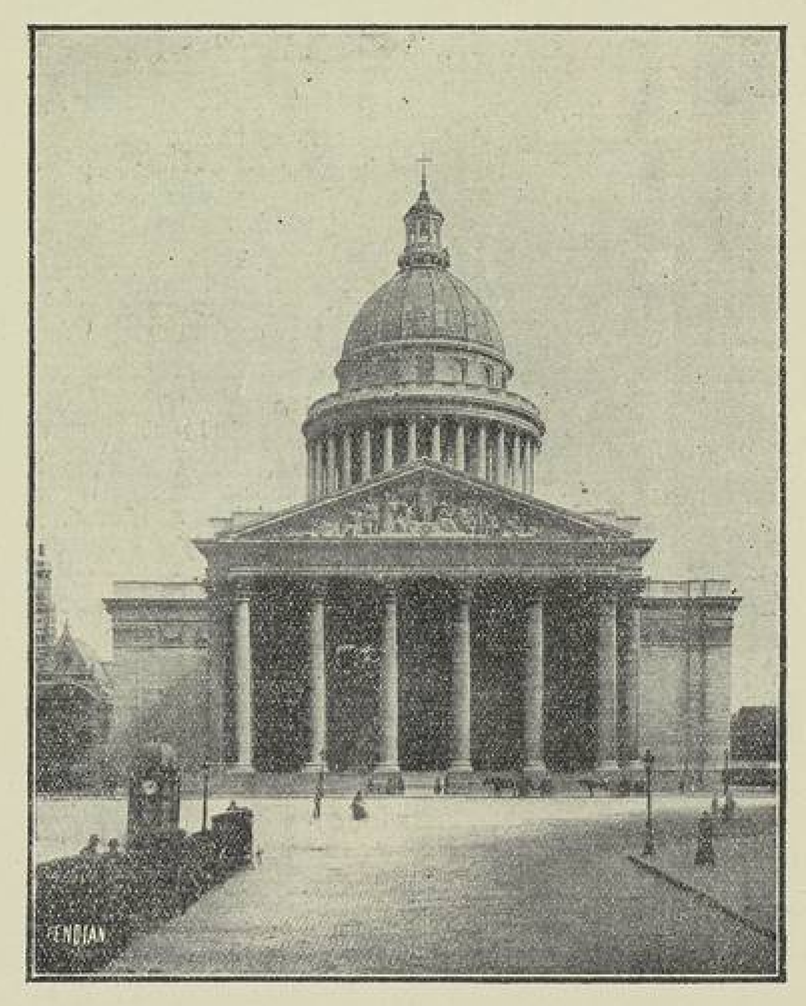


دار العجزة

ومن أغرب ما شاهدت فى هذا المتحف سلسلة من الحديد طولها مائة وثمانون مترا ، وهى التى استعملها الأتراك لوقاية جسر أقاموه على نهـــر الدانوب ( الطونة ) أيام حصارهم لمدينة فينا .

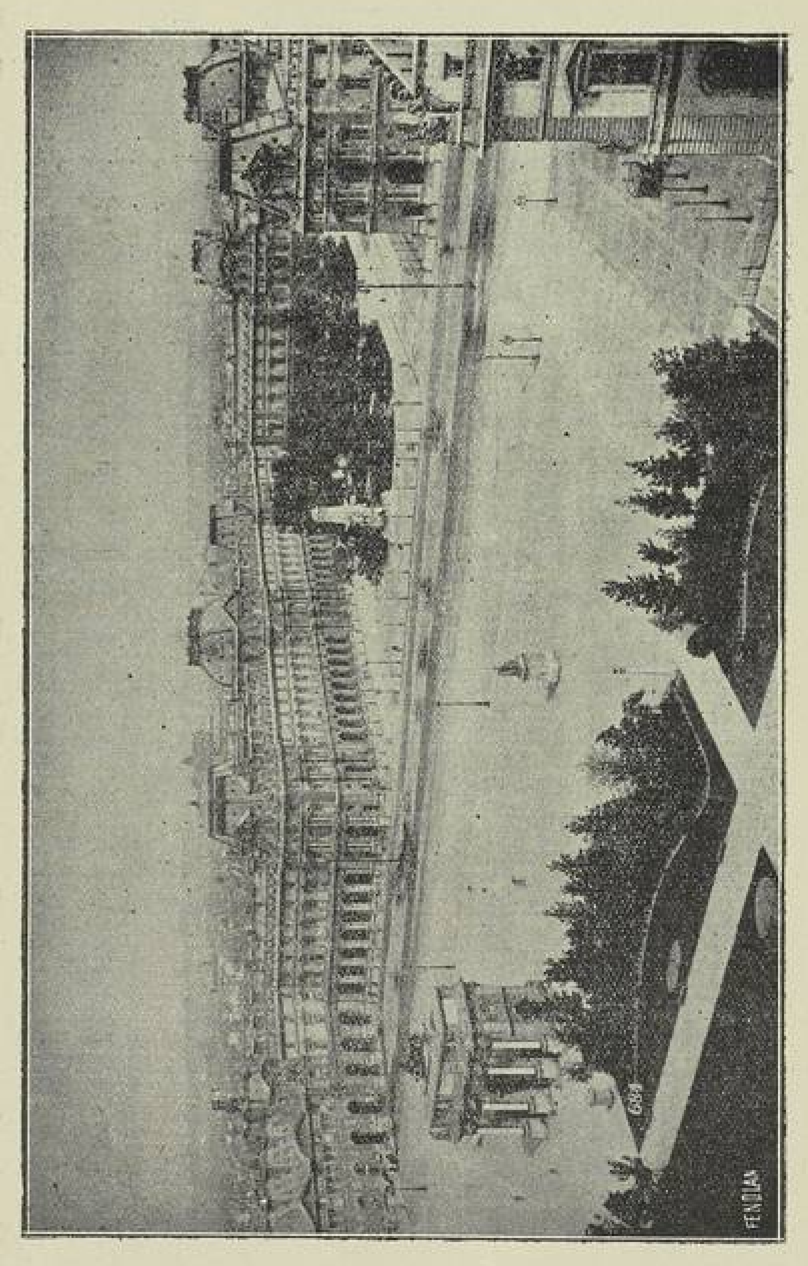
وفى هـذه الدار أيضاً كنيسة قسمت إلى قسمين خصص أحدهما للعبادة والآخر جعل مدفناً لرفات نابليون الأول ؛ وهو عبارة عن مربع شاسع ضلعه ستون مترا وفوقه قبة فخمة والقبر فى وسطه ، وقد نصبت حوله تماثيل عديدة لنابليون وكثير من الاعلام التى غنمها فى حروبه .

الپانتيون . وفى نفس هـذا اليوم زرت الپانتيون ، وهو بنـاء فخم يقع على ضفة نهر السين الغربية يبلغ طوله نحو ١١٢ متراً وعرضه ٨٤ وله ثلاثة أبواب كبيرة وقد شيدت على وسطه قبةشاهقة يبلغ ارتفاعها ٨٣ متراً . والپانتيون مدفن عظماء فرنسا، وحول فنائه اعمدة كبيرة اقيمت عليها أروقة للزائرين، وقد زينت جدرانه بمختلف النقوش والرسوم



الپانتيون

متحف اللوفر . فى ٢٣ يناير سنة ١٨٨٦ ذهبت لزيارته فوجدته قصراً شامخاً فخماً من أعظم أبنية باريس . ينقسم إلى قسمين ؛ اللوفر القـديم واللوفر الحديث . ولـكل من القسمين روعة تأخـذ بالنفس . ويمتاز اللوفر الحديث بقبابه الفخمة وفيه ابهاء متسعة



متحف اللوفر

غصت بتماثيل دقيقة بديعة الصنع لأشهر الحوادث والشخصيات . وقد خصصت الطبقة الأولى من القصر لآثار الحفريات والنقوش المصرية القديمة ، والطبقة الثانية لآثار التصوير وبها كثير من القطع الفنية الخالدة . كذلك يعرض فى هـذه الطبقة كثير من

آثار العصور الوسطى . أما الطبقة الثالثة فتحتوى على أقسام خاصة للأمم ذوات المدنيات العريقة كمصر ؛ والهند والصين وغيرها .

قصر تريانو الكبير . فى يوم ٢٩ يوليه سنة ١٨٨٦ توجهت مع البرنسين عباس ومحمد على (١) إلى ڤرساى حيث زرنا قصر تريانو الكبير. فشاهدنا فيه عربات التشريفات الكبرى التى كانت مخصصة للملوك ومنها عربة نابليون الثالث ويقدر ثمنها بنحو المليون من الفرنكات ، وكانت تجرها ثمانية جياد . وهذا القصر كان قد بناه لويس الرابع عشر وفيه سريره ومكتبته وغير ذلك من آثاره .

كما أن به الصالة الكبرى التى حوكم فيها الجنرال « بازين » وحكم عليه بالموت جزاء خيانته فى حرب السبعين ( سنة ١٨٧٠ )

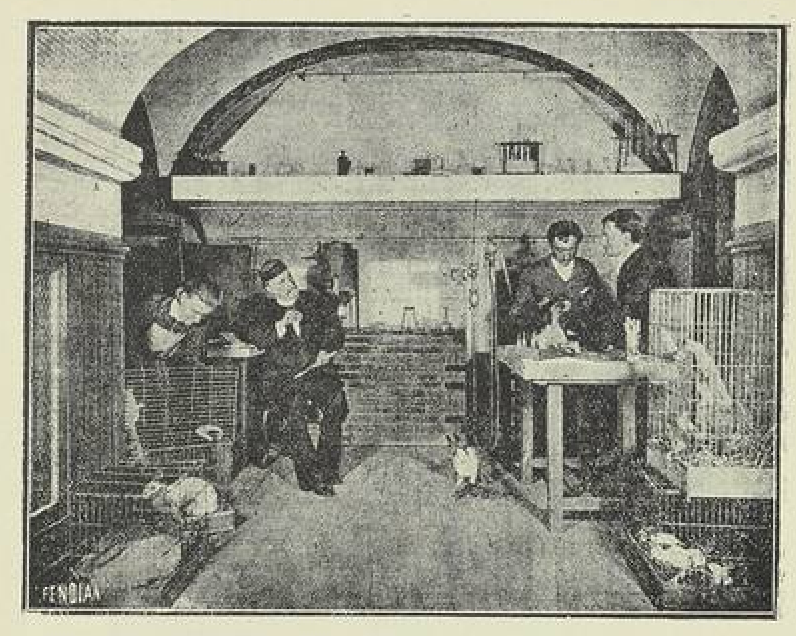
سراى فونتينبلو . وفى يوم ٦ اكتوبر توجهت مع صديق فرنسى لمشاهدة هذه السراى التى تعتبر من أجمل المتاحف والآثار ، وبداخلها جملة مساكن تاريخية ؛ منها مسكن لويس الرابع عشر وعشيقته مدام دُمَنْتِنُن ، وسكن فرنسوا الأول مشيدها ، كما يوجد بها الجناح الذى اعده نابليون الأول لسكنى البابا مدة ان كان أسيراً بها . أما جدران أغلب الحجرات فمكسية بأبسطة غالية جداً قديمة العهد الا أن ألوانها حافظة لبهجتها . وبها مكتبة منظمة جداً فيها نحو الثلاثين ألف مجلد . ومحاطة بحديقة جميلة

ويتبع السراى غابة كبيرة جداً ، وقد تعجبنا من وجود صخور فى وسط هذه الغابة التى صرفنا فى مشاهدتها بضع ساعات . والسراى معدة لاقامة رئيس الجمهورية مدة فصل الصيف

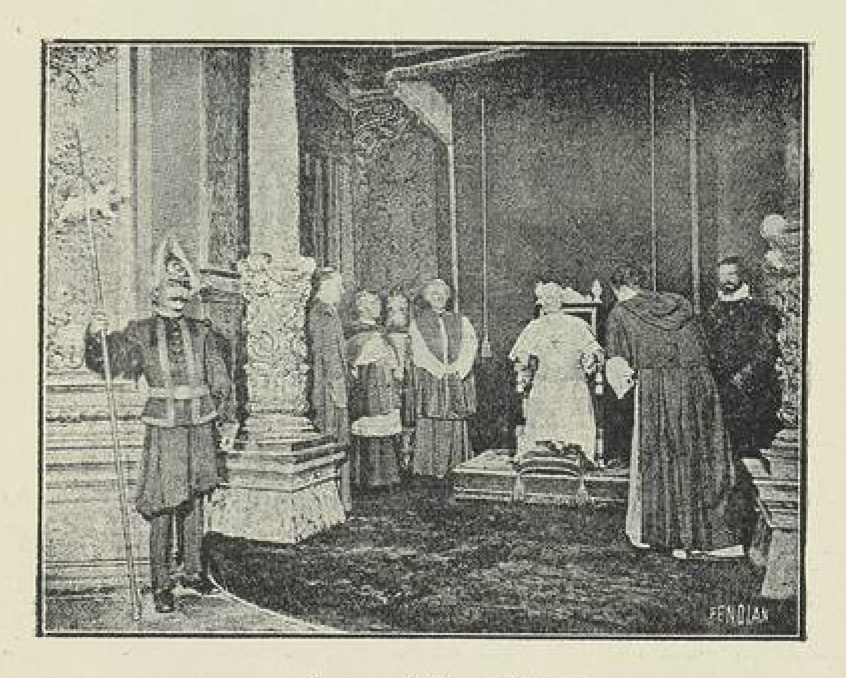
متحف جريفن . وهو متحف أهلى يضم صورا من الشمع لمشاهير الرجال بملابسهم ، واشهر الحوادث . ويقصده الكثيرون من السواح كل عام . وقد زرته منفرداً ومع بعض اصدقائى وفى المرة الأولى وجدت رجلا واقفاً امام مقعد خشبى ملون بالبوية وهو ملتفت إلى ثيابه التى وسخت بألوان المقعد فظننت انه رجل حقيق ، فوقفت أمامه برهة ولما لم أجد منه حركة دهشت وتنبهت الى انه من التماثيل الموجودة بهذا المتحف ، ومما لفت نظرى ثلاث صور ؛ صورة معمل باستور الكيماوى ، وحفلة استقبال البابا ليون الثالث عشر ، والمقصلة ( الجيوتين )

---

(١) أنظر فصل المصريين فى باريس




معمل باستور الكيماوى فى متحف جريفن




حفلة استقبال البابا ليون الثالث عشر فى متحف جريفن



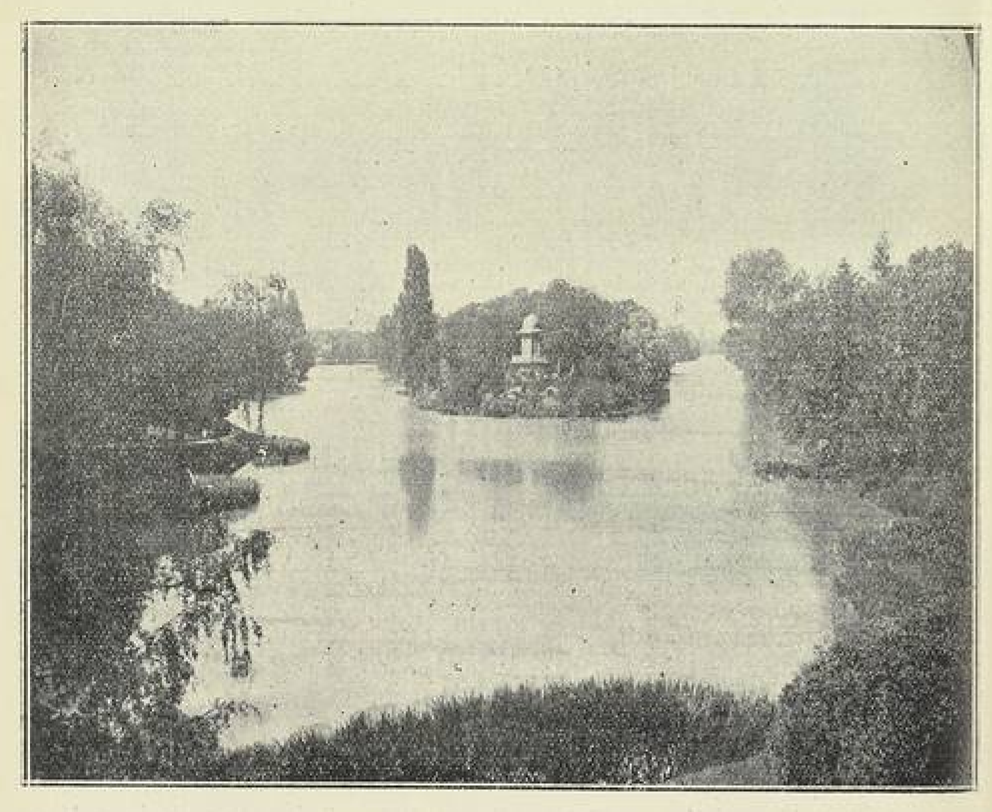
المقصلة ( الجيُوتين )

**الحدائق** . وفى باريس حدائق كثيرة أذكر منها مايأتى :ـــ

حديقة لوكسمبورج . فى يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٥ زرت حديقة لوكسمبورج ، وهى من أقدم وأجمل حدائق باريس . وفى وسطها حوض أقيمت على حافته تماثيل كثيرة ، والحديقة منسقة تنسيقاً جميلا . ومما أعجبنى فيها وجود أشجار الكمثرى على أشكال مختلفة ، منها شكل الأهرام والمظلات والمربع والاسطوانى وغير ذلك ، تتدلى منها ثمار الكمثرى البديعة . ويهرع اليها الباريسيون للرياضة وتصدح فيها الموسيق العسكرية يوما فى الأسبوع

غابة بولونى . تشرف عليها بلدية باريس ، وقد نظمتها للنزهة وجعلتها على شكل الغابات الطبيعية ، وغرست بها الأشجار الباسقة وجعلت فيها الأدغال والأزهار المنسقة. وهى متنزه علية القوم ، وملتقى الشباب الأنيق من كل صوب ، ومسرح لأسراب الحسان.
وقد زرتها مرارا صيفا وشتاء منفرداً ومع أصحابى

ومن أبدع مناظرها بحيرتان جميلتان كأنهما من صنع الطبيعة ، وبينهما مكان يسمى ملتقى الشلالات ، اذا صعد الأنسان اليه أبصر حوله منظراً ساحراً اذ يرى نهر السين ينساب داخل باريس هادئا براقا ، ويرى من الناحية الأخرى ضاحية « سان كلو » البديعة الواقعة على ضفة نهر السين اليسرى ، وكذا يرى الماء يتدفق من نواحى الغاب إلى العلاء فى اشكال باهرة حتى ليبلغ ارتفاع تدفقه فى بعض الأحيان عشرات الأمتار .



بحيرة غابة بولونى

ومن عجيب ماشاهدته تجمد مياه البحيرتين فى الشتاء وانزلاق الرجال والنساء عليها بالقباقيب .

وبداخل هذه الغابة ترام صغير يوصل إلى حديقة الحيوانات التى تحتوى على أكثر أنواع حيوانات الدنيا من أليف ومفترس ، وفيها شاهدت بعض أهالى جزيرة سيلان رجالا ونساء واطفالا ، والنساء يرتدين مآزر كأهل السودان والحبشة ، ولكن يمتاز بزخرفته . وقد أعجبت برقصهم وألعابهم فوق الفيلة

كما انه يقام بغابة بولونى أيضاً سباق الخيل المشهور لنوال الجائزة الكبرى (١) سنوياً .

حديقة التويلرى . ومن حدائق باريس الشهيرة أيضاً حديقة التويلرى وهى واقعة بجوار ميدان الكونكورد « الوفاق » وتصدح بها الموسيقى العسكرية أيضاً ، وبوسطها بحيرة جميلة . وتقام فى هذه الحديقة بعض الاحتفالات الشائقة كما سيأتى

حديقة النباتات . وفى يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٥ توجهت اليها وشاهدت ما تحويه من الحيوانات الكاسرة والثعابين وعظم البالين (٢) ويبلغ طول بعضه فوق الثلاثين متراً . وكذلك صالات بها هياكل عظمية لبعض المشاهير ومن بينها هيكل سليمان الحلبى (٣) قاتل الجنرال كليبر فى مصر مدة وجود الفرنسيين

وبينما كنت أنظر محل القردة تصادف وجود اثنتين من الغانيات فقالت احداهما حينما كانت تحدق فى قرد كبير وهو فى حالة هياج شهوته : آه لو كان عنده فلوس (جاليت) لسررت من وجودى معه

**أهذا هو الثلج** ؟ . سبق أن نوّهت عن نزولى فى فندق بالقرب من مدرسة العلوم السياسية ، وأخذت فيه صالونا داخله غرفة نوم صغيرة . فى يوم ٨ ديسمبر سنة ١٨٨٥ استيقظت من نومى وأنا أشعر ببرد أكثر من المعتاد . وخرجت من الغرفة إلى الصالون ورفعت الستار عن الشباك المطل على الشارع فوجدت أرضه بيضاء ، وعربة توزيع الألبان مارة وسطحها أبيض ، ورأيت أشياء مثل ندف القطن تتساقط من السماء . فقلت فى نفسى : — أهذا هو الثلج ؟ لأننى كنت أظن أنه عبارة عن شىء متجمد كالملح . وقد أعجبنى منظره ولم يمنع الناس من السير . فذهبت إلى المدرسة وكنت على وشك السقوط مراراً من الانزلاق . ولو وجه الانسان نظره إلى الأشجار وأسطحة المنازل لوجدها كلها بيضاء . وفى اليوم التالى اشتد البرد . وهذا يرجع الى تجمد الثلج على الأرض

---

(١) انظر فصل المسارح والملاهى (٢) نوع من السمك الهائل

(٣) وقد علمت أن أحد المصريين الذين زاروا هذا المتحف حين رأى هذه الرفات صلى عليها .

وقد تمكنت من الفسحة فى الشانزليزيه ولما توسطته شاهدت المياه التى كانت تتدفق من أفواه التماثيل الموجودة حول الفسقيتين قد تجمدت وأخذت شكل نصف دائرة ، وكان منظراً جميلا

## المستشفيات

مستشفى الأمراض السرية . فى ٣١ يناير سنة ١٨٨٦ توجهت مع سيدة لزيارة معلمة انكليزية مريضة بهذا المستشفى . وعند دخولنا أجرى الحراس تفتيشنا مخافة أن تكون معنا فواكه أو أشياء غير مباح تقديمها للمرضى .

وينقسم إلى قسمين ؛ قسم للرجال وآخر للنساء . وهو ذو صالات واسعة وغرف صغيرة تضاء جميعها بالزيت . وكلها نظيفة ، وأسرته من حديد وملابس المرضى مكونة من قمصان وجلاليب كلها من البفتة تصرف من ادارة المستشفى لكل منهم ، وبجانب سرير المريض دولاب صغير عليه بعض الأدوية وكوب للشرب ، وفى داخله حاجات المريض . وقد لاحظت أن أكثر المريضات فى ريعان الشباب وبعضهن غاية فى الجمال . وكلهن مريضات بهذا المرض المنتشر بين النساء فى باريس

وقد علمت أن بهذا المستشفى ٦٩٠ سريراً للرجال والنساء

مستشفى « أوتيل ديو » . وفى يوم ٣٠ يونيه سنة ١٨٨٦ توجهت ومعى صديقاى صالح صبحى ومحمد شاكر . وكلاهما من طلبة الطب ، لزيارة هذا المستشفى الذى يقع بجوار مدرسة الطب ، وهو مستشفى فخم يقصده الاساتذة ومعهم الطلبة ليشرحوا لهم أعراض الأمراض بطريقة عملية ويقوموا أمامهم باجراء العمليات الجراحية على نحو مستشفى قصر العينى . ودخلنا قاعة العمليات وكان بها أستاذ يشرح للطلبة حالة امرأة أصيبت فى كف يدها بخراج فظيع ، ثم تناول المشرط وفتح الخراج فبدرت من المريضة صرخة قوية فأصابنى فى الحال دوار وسقطت على الأرض ، فأسرع رفيقاى إلى إسعافى وقادانى إلى الخارج حيث استنشقت الهواء النقى وعاد إلى صوابى

**معرض الجثث « لامورج »** . زرته فى نفس اليوم وقد انشىء خصيصاً لعرض الذين يموتون بأسباب جنائية أو غيرها ، حيث توضع الجثث به بعد اتخاذ الاحتياطات لوقايتها من التعفن ، وليتعرف أهل الموتى هنالك على جثث موتاهم ، وتعمل أيضاً به المواجهات القضائية فيأتى المحقق ومعه المتهم لمواجهته بمن نسب اليه الاعتداء على حياته ،

فيضطرب القاتل غالباً متى رأى ضحيته وجهاً لوجه ، ويكون ذلك فى أغلب الأحيان قرينة قوية على جرمه

وتبق الجثث فى العرض مدة معينة من الزمن تنقل بعدها إلى قاعة التشريح، وفيها تلق دروس الطب الشرعى على الطلبة وتشرح لمعرفة أسباب الوفاة . وقد شهدت فى هذه الزيارة أستاذ الجراحة يتكلم عن تشريح بنت اغتصبها أحد المجرمين، وبعد ان أتى معها الفحشاء ، خنقها ودفنها تحت روث البهائم . ولم أتأثر إلا من الرائحة الكريهة التى كانت تنبعث من الجثة

**سراى الصناعات ومعرض العمال** . وفى يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٥ زرت سراى الصناعات وبها معرض عظيم فيه جميع المخترعات الحديثة من آلات وخلافه مما يدل على قوة فرنسا فى عالم الاختراع

وفى يوم ٣٠ يوليه سنة ١٨٨٦ توجهت مع البرنسين وعلى باشا جمال الى معرض العمال، فوجدنا من ضمن ما رأيناه ساعة مركبة على كورتين من البلور ؛ واحدة كبيرة وعليها تقسيم الساعات ، والثانية فوقها صغيرة وعليها تقسيم الدقائق . والكرة الكبيرة مركزة على لوح من الخشب واقف عليه رجل قابض رمحا وهذا الرمح يعين الساعة فى الكرة الكبيرة . وهى آية من آيات الفن

**دار المسكوكات** . فى ٣٠ مارس سنة ١٨٨٦ دعانى الى زيارتها أحد أصدقائى بمدرسة العلوم السياسية ، فزرنا متحفها وهو ذو ابهاء متسعة نظمت فيها ، دواليب ، مسطحة وضعت بها أنواع العملة القديمة والحديثة لكل بلاد العالم تقريباً ؛ فنها المستدير والمربع والمثقوب والمستطيل ، وهى عملة اليابان التى كانت تتعامل بها قديماً ، وعلى كل منها تاريخ سكها . ثم زرنا المعامل وشاهدنا كيفية صنع الريالات المستعملة فى تونكين ببلاد الصين ، وكيفية صنع المداليات

وكانت كل الأجهزة المستعملة فى المعمل تدار بواسطة آلتين بخاريتين قوة كل واحدة منهما ٢٥ حصاناً

**مصنع سيفر للخزف** . فى عصر يوم ٢٩ يوليه زرت مع البرنسين عباس ومحمد على مصنع الخزف الموجود بسيفر فى ضواحى باريس ، فشاهدنا كيفية صنعه من أول ما يكون عجيناً إلى حين صيرورته خزفاً بأشكال بديعة ، وكذلك كيفية طلائه بما يسمى ، بالمينا ، وحرقه وتذهيبه

وبعد خروجنا من المعمل تفرجنا على متحفه ، فوجدنا به أشياء بمبالغ باهظة ونادرة المثال . وهذا المصنع مشهور شهرة عظيمة فى أقطار العالم كلها من زمن بعيد .

**الجمعية الجغرافية** . كنت مدة إقامتى بباريس انتهز كل فرصة لحضور الاجتماعات العلمية ، ففى يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٨٨٦ دعانى المسيو فرديناند دولسبس أنا وابراهيم بك ذوالفقار — وكنا تعرفنا به — لزيارة الجمعية الجغرافية التى يرأسها وأوصى بجلوسنا وراء مقعده مباشرة . وكان للجمعية دار حسنة بديعة التنسيق بشارع « سان جرمان » وكان الاجتماع فى بهو فخم غص بالحضور وزين بتمثالين كبيرين للرئيس . وافتتحت الحفلة بين التصفيق والهتاف له . وكان مواطنوه يطلقون عليه اسم « الفرنسى العظيم » . ثم تلا السكرتير تقريراً عن أعمال الجمعية طوال عام ١٨٨٦ وما تم فيه من السياحات والاستكشافات موضحاً كلامه بالفانوس السحرى . وتكلم بعده سائح تجول فى بلاد « يوكاتان » من أعمال أمريكا الوسطى فوصف لنا سكانها وخواصها وعرض علينا مناظرها . فصفق له الحضور كما شكره الرئيس باسم العلم ، وسلم اليه مدالية من الذهب وجائزة مالية أوصى بها أحد الأغنياء لمن يقوم بسياحات أو استكشافات مفيدة . وبعد الانتهاء من هذه الجلسة شكرنا مسيو دولسبس وانصرفنا

فرديناند دولسبس

**الكنائس** . تضم باريس مجموعة عظيمة من الكنائس وقد شاهدت منها ما يأتى : —

كنيسة سان روك . عند ما كنت أتلقى درسى فى اللغة الفرنسية لدى معلمتى فى أحد الأيام، حدثتنى أنه سيقام فى منتصف ليلة ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٥ فى الكنائس احتفالات عيد ميلاد المسيح ، ووعدتنى بمرافقتها لى لزيارة احداها ومشاهدة هذه الاحتفالات . وفى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ٢٤ ديسمبر توجهنا إلى كنيسة سان روك وتفرجنا على هـذا الاحتفال . وكان الازدحام عظيما جداً ، وهناك سمعنا الترانيم الدينية ينشدها النساء فتتمشى مع الحان « الأورج » فتخرج رخيمة مطربة . وعند منتصف الليل تماماً أخذن فى نشيد ميلاد المسيح والحاضرون يرددونه بنغمات جذابة وتوقيع شجى

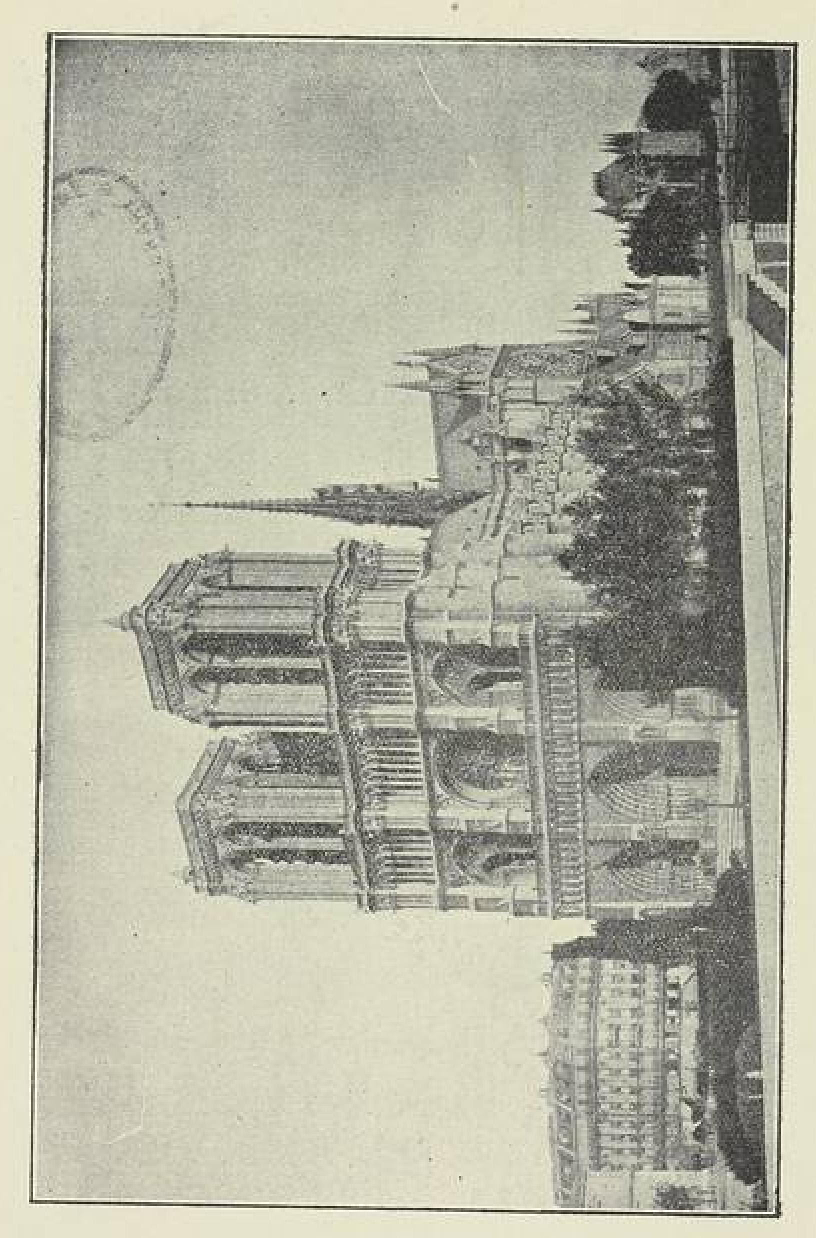
وتقيم الطوائف المسيحية فى جميع أنحاء العالم مثل هذا الاحتفال سنويا فى الوقت نفسه

كنيسة سانت أوستاش . وهى من أفخم الكنائس التاريخية فى باريس ، قصدتها فى يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٨٦ ، وهو عيد الفصح ، لشهود قداس هام نظمه الموسيقار المجرى الشهير « ليتز » بمناسبة وجوده فى باريس . وكان الدخول بأجر يختلف ما بين خمسة فرنكات وعشرين فرنكا ولكنه مجانى للواقفين فالتحقت — نظراً لعدم وجود أمكنة خالية — بهؤلاء ، وكان الزحام شديداً جداً وثمت طائفة عددها نحو الأربعمائة من الممثلين والممثلات يرددون الألحان الدينية على توقيع « الأورج » الذى كان يعزف عليه الموسيقار المذكور بنفسه . وكانت الموسيق والترنيم آية فى النظام والابداع

وفى ليلة ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٨ توجهت لمشاهدة احتفال دينى آخر بهذه الكنيسة وكان يرافقنى صديقاى احمد بك (١) وابراهيم بك ذو الفقار ، وكان الزحام شديداً جداً ، وعند منتصف الليل ابتدأ العزف على « الاورج » ، ورتل الأطفال الترتيلات الدينية كما غنى رجل مشهور من ممثلى الأوبرا أغنية دينية بصوته الجميل . وكان الناس يصفقون له استحساناً ويستعيدونه مراراً .

كنيسة نتردام ومعبد سان لويز . وهى أعظم كنائس باريس وأفخمها ، بنيت منذ العصور الوسطى وتوالت عليها يد التجديد والتجميل مراراً ، ولكنها ظلت محتفظة بشكلها وواجهتها التاريخية التى هى قطعة من الفن البديع ، ولها طبقات ثلاث فى أعلاها برجان يشرفان على باريس . ويبلغ ارتفاعهما نحو ٦٨ متراً . زرتها فى يوم ٢٥ أبريل سنة ١٨٨٦ وشهدت فيها « القداس الأعظم » وكان القس الأكبر يرتدى ثيابه الكهنوتية المزركشة يرفعه من خلفه ولد صغير . وعلى رأسه تاج وأمامه صفوف من الأطفال

(١) كان قد حضر احمد بك ذو الفقار من اكس القرية من مرسيليا بعد أن بدأ بدراسة الحقوق بها لاتمامها فى باريس



كنيسة نتردام ومعبد سان لويز

تبدأ بالصغار منهم وتنتهي بالكبار ، ومن خلفه القسس حسب مراتبهم . وبعد إلقاء القداس طاف هذا الموكب حول الكنيسة . وكان القس الأكبر يبارك الحاضرين وهم يمرون أمامه واحداً بعد الآخر ، فيلمس رأس كل منهم بتاج من الشوك وقد مررت به كالآخرين وباركني كما باركهم !

وبعد أن انتهى القداس زرت معبد سان لويز ، وهو مجاور للكنيسة ، وقد بناه لويز القديس ملك فرنسا فى سنة ١٢٤٥ . ورغم صغر هذا المعبد فانه بديع جداً ، وقمته من الخارج مذهبة وعالية ، وكذلك شبابيكه فى غاية من الجمال ودقة الصنع

خطبة ضد الحكومة . وفى ٣٠ مارس سنة ١٨٨٨ عدت لزيارة كنيسة نتردام فسمعت هناك حبراً مشهوراً يخطب بفصاحة وينحى باللوم على رجال السلطة المحلية، لأنهم يمنعون الراهبات من دخول المستشفيات لا لسبب سوى وجود الصليب على صدورهن . وبعد أن انتهى من خطابه سار الجمهور الى داخل المعبد وجثوا راكعين على الأرائك المصفوفة ، وبدأ القس باجراء بعض المراسم الدينية . أما أنا فانسللت الى الخارج

انتقام قس عصرى من رئيسه . وبمناسبة الكلام عن كنيسة نتردام ، أذكر أن تعرفت الى أحد قساوستها عند ما كنت مدعواً للغداء ذات مرة عند مسيو جرى وبعد الانتهاء من الطعام أخذنا نتجاذب أطراف الحديث فرأيت أنه ، رغم تربيته الدينية ، رجل عصرى مستنير . وقد ذكر أن رئيسه يضطهده ولا ينفك يعاقبه لانكاره بعض التقاليد الدينية ، وقص علينا أنه أراد أن ينتقم من رئيسه وأن يسخر به فرآه يوماً فى عزلة ، وكان قد وقع عليه الجزاء لاهماله فى واجباته الدينية ، فقال له إننى رأيت فيما يرى النائم فى حلمه كأننى مت ودفنت ، فحضر الى من يرحب بى وعرض أن يقودنى لاشاهد ما فى الدنيا الأخرى فشكرته وتبعته . وبعد أن سرنا مدة طويلة وصلنا الى باب كبير مغلق فطرقه صاحبى ونادى على الحارس ، وذكر له إسمى . فلما دخلنا من الباب وجدنا كأننا فى مدينة ذات شوارع متسعة ولكن أهلها قليلون وأغلبهم من الشيوخ والعجائز ، لذلك لم يرق المنظر فى عينى ، هذا الى أنى شعرت برجفة باردة فسألت دليلى عن اسم هذه المدينة فأجاب : — إنها « الجنة » فرجوته أن يخرج بى منها مسرعاً لنزور مدينة أخرى أقل برودة . فخرجنا ثم سرنا حتى وصلنا الى باب آخر دخلنا منه كما دخلنا الجنة . فوجدت جوها ألطف وأهلها خليطا من الشبان والكهول ، فقلت لصاحبى لا بأس بما رأيت ، فما اسم هذا المكان فقال : — إنه « مكان الغفران » ثم سألته عما اذا كانت توجد مدن أخرى لزيارتها ، فقادنى الى باب ثالث فتحه لنا حارسه ، وما كدت أدخل حتى ألفيت الجو حاراً والسكان أغلبهم فى متوسط العمر كسيدى الرئيس ، والجميع فى هرج ومرج ، فاختلطنا بهؤلاء الناس ورافقى منظرهم . وواصلنا السير حتى وصلنا الى ميدان كبير جداً صفت فيه كراسى ،

وكنت متعباً من السير الطويل فطلبت من دليلى أن يجد لنا مكاناً للجلوس ، وبعد البحث الدقيق لم نجد إلا كرسياً واحداً فاتجهت إليه ، وما كدت أجلس حتى سمعت من خلفى صوتاً ينهرنى بشدة ويقول :ـ ( قم أيها الوقح . . كيف تجرؤ على الجلوس فوق هذا الكرسى وهو المخصص لرئيسك ! ! ) فسألت دليلى أين نحن؟ فقال : — فى «جهنم» ! ! فانتبهت من حلمى على أثر ذلك وأنا ألعن الشيطان الرجيم . فضحكنا لهذا الانتقام اللطيف الذى رتبه القس لرئيسه وسألناه : — وما ذا حصل لك منه ؟ فأجاب : ـ لقد لعننى مع الشيطان وضاعف على الجزاء .

كنيسة سان سولبيس والكردينال لافيجرى والرقيق . فى أول يوليه سنة ١٨٨٨ ذهبت الى كنيسة القديس سولبيس لاستمع فيها الى محاضرة يلقيها الكردينال لافيجرى عن الرقيق ، وهو موضوع يهمنى بصفتى مسلما . وكان يصحبه الكردينال سودانى صغير قال إنه أنقذه من الرق

وقد تكلم عن سير الرق فى أفريقية ، ولفت الانظار الى انتشاره ومما قال : —

« لقد زاد الرقيق فى أفريقية منذ عشر سنين وأصبح يقدر بمليونى نسمة فى السنة ، فاذا استمرت هذه الحال خمسين عاما أخرى فلن يبقى فى تلك الأنحاء انسان حر . وما يزال الرق ذائعا عند حدود مصر وفى زنجبار وبلاد العرب وعلى ساحل البحر الاحمر . وبالرغم من رقابة السفن الانجليزية فان النخّاسة يعبرون هذا البحر فى جوف الليل فلا يراهم أحد »

ثم تكلم عما يلاقيه الرقيق من الجور والذل . وتعرض الى الاسلام فى هذه النقطة فقال : — « ان سوء معاملة الرقيق أمر يبيحه الاسلام » ونصح فى ختام محاضرته للحاضرين بالتطوع لمحاربة الرق وتحرير الارقاء .

ولاحظت أن فى كلام المحاضر شيئاً من المغالطة لما يأتى : —

أولا — ان الرق قد ألغى منذ عشر سنين فى معظم البلاد الاسلامية تنفيذاً للمعاهدات التى عقدت بينها وبين انجلترا .

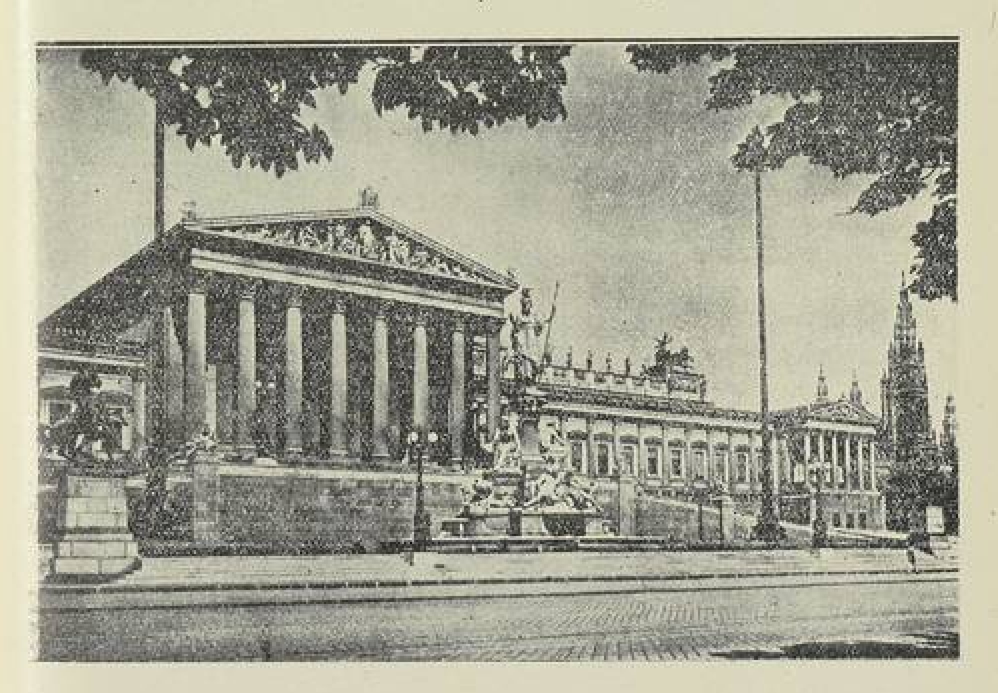
ثانياً — ليس من المعقول أن ينتهى الرقيق بخراب البلاد التى أشار اليها المحاضر فى نصف القرن مع ان الرق يباح فيها منذ أقدم العصور ولم يحصل الخراب ! (١)

---

(١) وقد رددت على الكردينال فى سنة ١٨٩٠ فى مؤلف بالفرنسية ترجم إلى اللغتين التركية والعربية عنوانه : « الرق فى الاسلام »

**مجلس الشيوخ** . أردت مشاهدة البرلمان الفرنسى بقسميه فقصدت إلى مجلس الشيوخ فى يوم ٢ يوليه سنة ١٨٨٧ ، وكنت قد تعرفت عند مسيو «مزمر» الى أحد الشيوخ وهو مسيو «جان ماسيه» (١) فسألت عنه وأخذت فى ترحاب إلى أحدى المقاصير المشرفة على المجلس ، وكانت الجلسة قد بدأت وأخذ أحد الأعضاء يتلو مشروع قانون أعدته الحكومة بزيادة ضريبة الوارد على السكر ، وكانت هناك ضوضاء شديدة والرئيس يدق الجرس باستمرار مطالباً بالنظام والسكينة . ثم قام أحد المعارضين للمشروع فتكلم عن المضار التى تنشأ عن تطبيقه، وتلاه أحد أعضاء الحكومة فحبذ إصدار القانون. ثم اقترع على اصداره ففاز الأغلبية . وقد انتهت الجلسة فى الساعة السادسة مساء .

**مجلس النواب** . وفى ٣١ اكتوبر سنة ١٨٨٧ زرت مجلس النواب مع ابراهيم بك وأخيه احمد بك ذو الفقار . وشهدنا جلسة صاخبة كان التراشق فيها شديداً حتى خيل الينا اننا فى مسرح لا فى مجلس نيابى .



سراى مجلس النواب

(١) وقد اشتهر بمؤلفين لصغار الناشئة أحدهما « حساب الجد » في قالب قصة ، فاعجبت به وترجمته للعربية ولم يطبع . وكتاب « لقمة خبز » لتعريف الصغار وظائف الأعضاء الداخلية للانسان .

# الفصل الثالث

## المشاهدات فى سنى الدراسة

## — ٢ —

### الملاهى والتياترات

---

**الملاهى** . لم أفكر فى بداءة اقامتى فى باريس أن أجوب ملاهيها الليلية منفرداً وأنا غريب عن المدينة ضعيف فى لغة القوم ، حتى فتح لى هذا الباب زميل من سكان الفندق الذى نزلت به بادىء بدء . وكان تعرفنا على مائدة الطعام عقب وصولى الى باريس فلما علم أننى مصرى عرفنى بنفسه أنه وسيط تجارى ( قومسيونجى ) لأنواع النبيذ وأنه يلقى تسهيلا ومعاونة أينما ذهب خارج فرنسا ، فهو يود مساعدة من يتعرف إليهم ولا سيما الأجانب .

وأخبرته بدورى أننى جئت إلى باريس لأول مرة للدراسة . فعرض على أن يرافقنى لمشاهدة بعض الملاهى . واتفقنا على أن نبدأ فى نفس هذه الليلة وهو يوم ٢٢ يوليه سنة ١٨٨٥ بزيارة أحد هذه الملاهى وأن نقضى فيه السهرة ، وصحبنا طالب بالطب يعرفه

مرقص بوليه . وكان المكان المقصود يقع على الضفة اليسرى من نهر السين فى حى الطلبة بجوار المرصد . واسمه « بوليه » ، ووصفه لى صاحبى بأنه محل للرقص يضم طائفة من الفتيات اللائى يرقصن مع الزائرين . ولما لم أكن قد عرفت الرقص بعد رجوت صاحبى الا يترك ذراعى خشية أن تجذبنى إحدى أولئك الحسان للرقص معها . فضحك من كلامى وطمأننى

وعند ما وصلنا سمعنا ضجة عظيمة من داخله . وكان يهبط إليه ببضع درجات ، وهو عبارة عن بهو شاسع يسطع بالأنوار غاص بالزائرين من الجنسين وخصوصاً الطلبة ، تدوى فى أرجائه ضوضاء عالية هى مزيج من الضحك والصياح والصفير . وفى

ناحية من المكان حديقة نظمت حولها مخادع من الشجر لتكون خلوات لجلوس الزائرين مع الفتيات ، وتناول المشروبات على انفراد .

وفى أثناء تجوالنا لفت نظرى جمع غفير يحيطون بجماعة يرقصون رقصة الكادرى (المربعات ) وعدد الراقصين فيها عادة أربعة أزواج نصفهم نساء والنصف الآخر رجال ، وكانت كل راقصة ترتدى ثياباً شفافة وترفع ساقها بمنتهى الرشاقة حتى تلمس بطرف حذائها قبعة الراقص معها ، وهو يقابلها بحركات رشيقة ويميل يميناً ويسار . وهذا ما يسمى بالشاهو ولا يرقص إلا فى محال اللهو لا بين العائلات . وكانت الفتيات تجذب الأنظار بما تشف عنه أثوابها الرقيقة . وبعض من يقومون بهذه الرقصة يتقاضون أجراً من صاحب المحل

وكان بين جماعة الراقصين رجل ذو لحية وخطها الشيب يلبس ردانجوت وقبعة عالية تلبس عادة فى الرسميات مما يلفت النظر ، فلما سألت عنه صاحبى زادنى الجواب دهشة إذ قال لى إنه أقدم الطلبة وأكبرهم سناً ! !

وبعد أن رأينا هذه الرقصة صعدنا إلى مكان مرتفع لنتناول شيأ من المرطبات ، وكان صاحبى يتحدث مع بعض الفتيات ويخمش خدودهن مداعباً ، فسألته عما إذا كان يعرفهن فاجابنى : كلا ، ولكنه يسمح لنا أن نروح عن نفوسنا ويمكنك أن تحذو حذوى.

وفى منتصف الليل خرجنا اربعة بدلا من ثلاثة ، ذلك ان أحدى الفتيات أخذت ذراع صاحبى وزميله فحمدت الله على أنها لم تلتفت إلى . ولكن سرعان ما سألت عنى فما إن علمت أنى مصرى حتى تركتهما وتعلقت بذراعى . ويمكنك أن تتصور حالتى النفسية وما أصابنى عندئذ من الارتباك والخجل ، ودار الحديث بيننا على النحو الآتى : ـ

هل حضرت باريس لأول مرة ؟ — نعم . — هل عندكم فى مصر محال مثل « بوليه » ؟ لا . — هل عندكم مسارح ومراقص ؟ — نعم — هل تعرف الرقص ؟ — لا

وهكذا كانت أجوبتى مقتضبة مرددة بين « نعم » و « لا » . لشدة حيائى من جهة ولعدم إجادتى لغتها من جهة أخرى .

ولما وصلنا إلى ميدان لوكسمبرج قالت لى : — هل انت ذاهب لفندقك ؟ قلت : نعم . فقالت — وهلا تحب أن تأتى عندى ؟ قلت : — لا

وتذكرت فى هذا الوقت ما كنت قد سمعته من بعض اخوانى بان الحرص على الصحة يقضى بالحذر من مخالطة أمثال هذه الفتاة .

ثم قالت بتعجب : هل أنت (بيسو) ؟ فأجبت — نعم . دون أن أفهم معنى لهذه الـكلمة . ولـكن الدور كان على كلمة « نعم » حسب نظام أجوبتى .

وما ان سمعت هذا الجواب حتى تركتنى وتناولت يدى رفيقى وأخذ الثلاثة يرقصون حولى ويصيحون : « بيسو . بيسو » فخجلت جداً ودهشت ، وبعد ان أخذوا نصيبهم من الصياح والقفز سألت صاحبي عن معنى هذه الكلمة التى هاجتهم (بيسو) فاجاب معناها أنك لم تدخل دنيا وهى تريد أن تدخلك فى دنياها . قلت : — وهل يليق عملكم هذا امام الناس وفى وسط الميدان ؟ قال : — لا بأس من ذلك فنحن فى حى الطلبة ، ويحق لنا أن نأخذ قسطنا من اللهو دون إخلال بالنظام .

وأخيراً دخلنا محلا للجعة بعد منتصف الليل . فلما يئست الفتاة من الارتباط بأحدنا تركتنا بعذر ما . ورجعنا إلى فندقنا وذهب طالب الطب إلى مسكنه . وكانت تلك أول حادثة لى فى باريس .

القط الاسود . وفى الليلة التالية ذهبت مع صاحبي إلى محل آخر غريب فى بابه اسمه « القط الاسود » فقابلونا عند الدخول بنكات يوجهونها للزائرين رجالا ونساء يخصون كل واحد بنكتة تتناسب مع مظهره . وهذا ما ذكرنى بالمداحين فى مصر الذين يطوفون الشوارع ويقابلون المارة بكلمات المدح ان كانوا يجودون عليهم بالحسنة أو بتهكم ان أعرضوا عنهم . وهناك وجدنا كثيراً من الناس وأخبرنى صاحبي ان بين هؤلاء ادباء مشهورين . وفى هذا المكان بعض الملاهى شاهدناها ثم انصرفنا .

الفولى برجير . وفى ٢٠ اغسطس سنة ١٨٨٥ زرت الفولى برجير وهو مسرح فى حى مونمارتر تمثل فيه بعض الروايات الهزلية والألعاب المختلفة وتؤمه انصاف الحرائر . ومن الألعاب التى شاهدتها وأدهشتنى بغرابتها نوع من الدرافيل ، وهو من فصيلة السمك المستأنس ، ذو رأس كبير ويعيش عادة فى البحر ولـكنه يستطيع الخروج منه . وكان موضع دهشتى أن المدرب جعل هذه الاسماك تلعب العاباً خاصة ؛ فأتى بطوق ملىء فراغه بالورق فكانت تقفز وتخترقه ثم تلعب بالكرة برؤوسها وتتقاذفها فيما بينها ، وكذلك جعلها تعزف على بعض الآلات الموسيقية الوترية . ثم تطلق طبنجه اعدها المدرب وغير ذلك من الالعاب الغريبة .

وفى يوم ٤ مارس سنة ١٨٨٧ عدت لزيارته ومعى ابراهيم بك ذو الفقار فوجدناه مزدحماً ، وقد شاهدنا فيه ألعاباً عجيبة من ذلك ثلاثة رجال يلعبون فى الهواء على العقلة

وقد صفق لهم الجمهور لمهارتهم الخارقة للعادة . ورأينا كذلك أربع ببغاوات مدربة لضرب الموسيقى بأرجلها ، وتطلق مدفعاً صغيراً ، وتدحرج كرة موضوعة على خشبة ضيقة ومستطيلة بأرجلها دون أن تقف . وبعد ذلك يأمرها مدربها فتجر عربة صغيرة تركب فيها إحداها ويجرها آخر كالحصان والثالث يقودها كالحوذى ، وكل هاته الألعاب تعرضها فوق طولة . أما مدربها فكان يخاطبها بالانجليزية

الأيبدروم . فى يوم ٦ سبتمبر سنة ١٨٨٥ ذهبت الى الأيبدروم فشاهدت فيه ألعاباً رياضية تدل على مهارة فائقة فى الجباز والعقلة . وكان به خيول وكلاب وفيلة مدربة ، ومنها ما يضرب على الدفوف ضربات منتظمة ويزمر ويرقص ويقعد للطعام ويدفع الدراهم بعد الأكل . وفيل يركب دراجة ذات ثلاث عجلات وغير ذلك

وفى أثناء اللعب خرجت ثلاث عربات مسرعة للسباق كل واحدة يجرها زوج من الخيل، تقودهما امرأة ، فتسابقوا وفى الأثناء قلبت عربتان ووقعت إحداهما فوق إحدى المرأتين فغشى عليها ولكن لم يصبها ضرر مّا

وفى يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٦ ذهبت ومعى ابراهيم بك إليه مرة أخرى فوجدناه مزدحماً بآلاف المتفرجين ، لأن هذا اليوم هو اليوم الوحيد فى السنة الذى يحضر فيه نحو ألف وخمسمائة لاعب رياضى يتسابقون . وقد أرسلت كل بلدة فرقة عنها بملابسها الخصوصية ، فابتدأ اللعب فى الساعة الثانية والنصف مساء ولم ينته إلا فى الخامسة وبعد ذلك قام وزير الحربية ، وهو رئيس شرف جمعية الرياضيين ، فألقى خطاباً صفق له الحاضرون ، أثنى فيه على همتهم وعنايتهم بهذا الفن الذى هو العلاج الطبيعى للأجسام ، والبذرة الأولى لاعداد جيوشهم . ولما انتهى من خطبته سلم نيشان الليجون دونور من الدرجة الخامسة الى رئيس الجمعية ونيشان الأكاديمى على أحد الأعضاء ، ثم وزعت المكافآت على المستحقين

مولد بجهة المرصد . فى يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٥ ذهبت الى مكان أشبه بمولد فى جهة المرصد حيث شاهدت أنواعاً من اللهو وهناك ركبت على الخيول الخشبية وكان بجانبى شيخ وفى عروة سترته علامة نيشان الليجون دونور مصحوباً بعائلته ، فقلت فى نفسى لو فعلتُ فى مصر كما أفعل هنا لضحك على الجميع لأن مثل هذا اللهو البرىء مما يؤاخذ عليه فى وطنى من يفعله

السرك الجديد . فى يوم ٣١ مارس سنة ١٨٨٦ شاهدت السرك الجديد ، وهو مكان تعرض فيه من نساء ورجال ألعاب بهلوانية وأخرى على الخيول وعلى الحبل بمهارة كبيرة

وهو عبارة عن ساحة مستديرة تعرض الألعاب فى وسطها وحواليها المقاعد وأرض الساحة من الخشب ، وقد فرشت فوقها الأبسطة وعليها جزء من الرمل . وتبدأ بألعاب الخيل والألعاب البهلوانية . ثم ترفع الأبسطة بما فيها ويضغط على زر فيهبط الجزء الخشبي وفى مكانه تتدفق المياه من أنابيب دائرية حتى يمتلىء ويكون شبه بركة وعندئذ تبدأ الألعاب المائية من الجنسين

وعدت لزيارة هذا السرك فى يوم ٢ مارس سنة ١٨٨٧ وكان معى ابراهيم بك وشاهدنا كثيراً من ألعاب على الخيل والعقلة وأعجب ما شاهدناه حماراً يحضر كل ما طلبه اللاعب ويجرى عند ما يأمره بالجرى ويتمرغ مع صاحبه ويتبادلان القبلات ، إلى غير ذلك من الألعاب الخارقة للعادة

خيال الظل . فى يوم ٢٦ يونيه سنة ١٨٨٦ ذهبت مع سيدة إلى كونسير فى الشانزليزيه حيث سمعنا الغناء وتفرجنا على خيال الظل . وكان رجل يصنع بيديه هيئة كلب وماعز وأرنب ووعل وأشياء عجيبه جداً

سرك الصيف . وفى الساعة الرابعة من يوم أول أغسطس سنة ١٨٨٦ توجهنا إلى سرك الصيف فى الشانزليزيه وتفرجنا على ألعاب هناك تفوق التصور يقوم بها انكليز وغيرهم

نادى الشطرنج . كان مسيو مزمر مدير البعثة المصرية سابقاً من هواة الشطرنج ، وكان عضواً فى ناديه الموجود بالقرب من شارع الاوبرا ، فأرسل لى وابراهيم بك لشهود حفلة مهمة فى هذا النادى تقام يوم ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٧ . فذهبنا اليه فرأيناه غاصا باللاعبين والمتفرجين ، وكان بين اللاعبين فتحى زغلول ( باشا ) الطالب المصرى . ولما حل موعد اللعب أخذ اللاعبون مكانهم على صف واحد ، وكانو ثمانية أمام كل لاعب رقعة الشطرنج برقم معين ، وكانوا جميعاً ضد لاعب مشهور إسمه « روزنتال » وهو يهودى ، وقد ولى وجهه شطر زاوية ، وابتدأ اللعب دون أن يشترك هو فيه بل كان موكلا عنه اثنين ينقلان قطع الشطرنج بناء على أمره ، وجعل كل لاعب يسير قطعة ويرد على اليهودى بلعبة على هذا النحو ، والمراقبان يلاحظان نقل القطع ، والموظفون فى النادى يسجلون كل لعبة . وبعد أن استمر اللعب ساعة وربع ساعة ترك الجميع اللعب وذهبنا إلى المقصف فتناولنا فيه ما أردنا . ثم دق الجرس فرجعنا إلى الملعب فقال روزنتال : — لنراجع الألعاب الماضية ونتذكرها ؛ ثم أخذ يسرد ألعاب كل لاعب برقمه وما لعبه هو ضده بالترتيب ، ثم سألهم عما إذا كان ما سرده صحيحاً فقال الجميع :

نعم . وأخذ اللاعبون فى اللعب وهو يجيبهم وبعدها قال للاعب رقم ٦ : « شاهك ميت فى لعبتين » وقد حصل . وكان ينذر بقية اللاعبين قبل نقل حجارتهم بأن الشاه سيموت بعد لعبة أو اثنتين حتى لم يبق من الثمانية غير اثنين أصبحا متساويين ( باطة ) أحدهما صاحبنا فتحى زغلول . فخرجنا فى دهشة من ذكاء هذا اللاعب وحمدنا الله على أن مواطننا لم يغلب . وقد ذكر لنا مسيو مزمر أن أبطال العالم فى هذه اللعبة كلهم من اليهود

ركوب الخيل . خطر لى أن أتعلم ركوب الخيل فاشتركت فى عشرين درساً بمحل تعليم الركوب . وفى يوم ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٨٧ ذهبت لأول درس ، فأعطيت حصاناً بليدا فركبته ، وكان أمامى من المتعلمين نحو خمسة عشر ، لأنى كنت آخر تلميذ التحق بهذا المحل . وأمرنا المعلم أولا ان نمشى خطوة خطوة بشكل دائرة ، ثم أمر الأول أن يخرج من الخط وينفصل عن الباقين ويسبقهم فى الدائرة حتى يلحق أخر تلميذ ويسير خلفه ، ثم يتقدم الثانى فيفعل مثله ، وهكذا فلما جئت فى المقدمة ، عاكسنى الجواد لبلادته فأمرنى المعلم بضربه ففعلت وبذلك أديت مهمتى .

وفى الشوط التالى أمر المعلم بالسير خبباً وحدث ماحدث فى الدور الأول ، ومثّل الجواد معى دوره السابق . وأخيراً أمرنا المعلم بالسير عدواً بالنظام السابق والحمد لله لم يحصل لى شىء

أما الدرس الثانى ، فلم يمر بهذه السهولة إذ حدث فى أثناء الخبب أن وقف الجواد الجديد الذى سلم لى ، فلما جربت معه ما جربته مع صاحبه من قبل من الضرب لم تفلح التجربة ، وعندئذ قال لى المعلم : اضربه بشدة ، فنفذت الأمر ولكنى ما كدت أفعل حتى شعرت بنفسى ملقى على الأرض ، فبادر المعلم لأنهاضى . ولم تكن الأرض صلبة فلم أصب بسوء بل واصلت الدرس حتى نهايته . وهكذا واظبت على تلك الدروس حتى انتهى الاشتراك وصرت أجيد ركوب الخيل نوعاً مّا .

مونتانى روس . وفى يوم ١١ مايو سنة ١٨٨٨ ذهبت ومعى ابراهيم بك وصديق فرنسى إلى مكان بالقرب من ( الجراند اوتيل ) يسمى « مونتانى روس » ( جبال الروسيا )

وفى هذا المحل رُبىً تشبه الجبل بين منخفضة ومرتفعة ، وترتقى قمته بواسطة سلم من الخشب ، وهناك يركب المتفرج فى عربة بها جملة صفوف من المقاعد كل مقعد منها يسع اثنين ، ثم تندفع على شريط إلى أسفل حتى إذا وصلت إلى المنخفضات أحس الراكب

كأن قلبه قد هوى . وهناك ترتفع الأصوات وخصوصاً من السيدات فتسمع صياحهن عالياً ، وفريق منهن يفعل ذلك من تأثير السقوط وفريق آخر للفت أنظار الرجال .

دخلنا هذا المحل لتمضية السهرة فوجدناه غاصاً بالزائرين والزائرات ، ووجدنا كل المقاعد الأمامية محتلة ، فأردنا الانتظار برهة حتى يخلو بعضها فنجلس لنتمتع برؤية الفتيات يسرن فى الطريق الممتد امام المناضد . ثم تخلفت برهة عن زميلى وتركتهما يراقبان خلو منضدة ، وقصدت إلى مكان لعب فلميشت (اطلاق السهام) وهو عبارة عن دائرة من القش داخلها مقسم إلى حلقات ملونة فيأخذ اللاعب سهاماً ( مراشة ) كل سهم له طرف مدبب وآخر ريش لتصويبها على الدائرة فلعبت فأصاب احدها الهدف . وبذلك نلت جائزة وكانت ديكا صغيراً لطيفاً رشقته فى عروة السترة .

وعند ما رجعت إلى صاحبىَّ تصادف خلو منضدة أمامية ، فأسرعت اليها وطلبت منهما اللحاق بى ولكنهما أبطآ . وبينما كنت ألتفت لهما أحثهما على الاسراع إذا برجل كهل يرتدى « ردنجوت » فى عروتها وسام الشرف سبقنى إلى هذه المنضدة وجلس أمامها ، فجلست أنا أيضاً بجانبه فجذب المنضدة اليه فقربت مقعدى منها فالتفت الى قائلا :— هذه المنضدة جلست أنا عليها قبلك فقلت له :— ولكنى لمحتها قبل أن تلمحها ولولا بطء زميلىَّ لكنا أصحابها . واشتد الجدال بيننا على حين كان صحباى يضحكان ولا يلبيان دعوتى للحضور والجلوس معى . ولما ضاق صدر الرجل نادى الخادم وطلب منه أن يحضر صاحب المحل . ولكن الخدم هناك يناصرون الشيبة ويحترمون الشباب ، فكان طبيعياً ألا يجيب الطلب . وفى النهاية ترك خصمى المنضدة فحضر الزميلان . وبعد ان جلسنا سألتهما عن سر ضحكهما . فكان الجواب :— أين الديك ؟ فالتفت إلى العروة فلم أجده وفهمت أنه سقط عند اشتداد الجدل بيننا . وأما صاحبنا فقد رأيناه بعد ذلك على منضدة خلفية مع احد الفتيات .

وقد عدت مع أصدقائى لزيارة هذا المحل مراراً

سباق الجائزة الكبرى . فى يوم ١٦ يونيه سنة ١٨٨٩ توجهت لمشاهدة سباق الجائزة الكبرى فى « لونجشام » بغابة بولونى ، وهو سباق خيل كبير يقصده الكثيرون من جميع أنحاء أوروبا لشهرته وأهميته ، ويعتبر هذا اليوم كعيد عظيم . وكان الزحام شديداً جداً ومن أهم مظاهره أن السيدات تفدن إليه لابسات أحدث الأزياء ، وخصوصاً الغانيات فانهن يتبارين فى ذلك مباراة باهرة ، فيكون هنالك معرض فخم لأحدث الأزياء وأفخمها

وقد فاز فى هذا السباق حصان فرنسى اسمه « فازستاس » لم يكن يتوقع أحد فوزه وراهنت على غيره بعشرة فرنكات نخسرتها

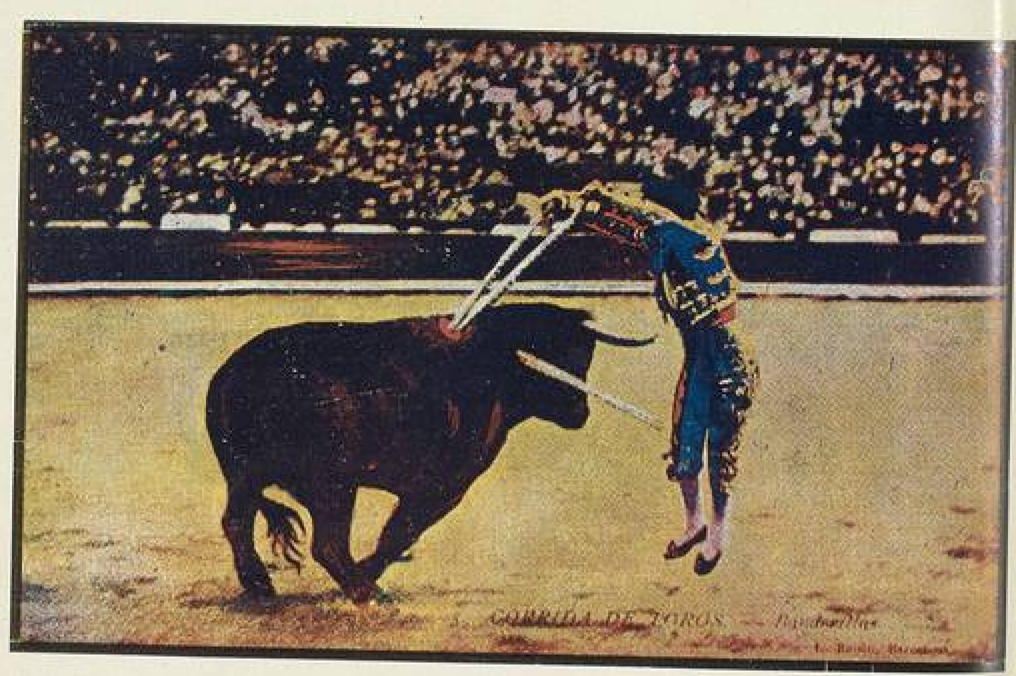
بوفالوبيل . فى يوم ٧ أغسطس سنة ١٨٨٩ توجهت لمشاهدة هذا الملعب ، وهو عبارة عن سرك عظيم يظهر فيه هنود أمريكا أى سكانها الأصليون بملابسهم وحرابهم وكيفية قتالهم الأمريكانيين ، الذين تغلبوا عليهم وأخذوا أراضيهم وطردوهم منها . ووجوه هؤلاء الهنود صفراء أو حمراء وملابسهم عبارة عن بنطلون ضيق مرقع بجملة قطع ملونة ، ورؤساء القبائل لهم أجنحة ملونة أيضاً وعلى رؤوسهم ريش طويل ، وهم مهرة فى ركوب الخيل حتى أنهم أتوا بخيول متوحشة من الغابات يصعب ركوبها إلا بعد تدريبها بواسطة هؤلاء الرجال ، وقد رأيتهم بعد أن يطلقوا هذه الخيول يعدون خلفها ويتمكنون من ركوبها ويجرون عليها جمله ألعاب تدل على فروسيتهم واقتدارهم وقد قاموا بعرض كيفية اقتناصهم هذه الخيول من الغابات .

سيرك الشتاء . فى يوم ١٦ أغسطس سنة ١٨٨٩ مساء توجهت مع ابراهيم بك إلى هذا السيرك ، وتفرجنا على سهرة اسبانيولية عبارة عن كونسير « أغانى وموسيقى » ورقص اسبانيولى . ومن العجيب أننا رأينا من ضمن الأشياء فرقة عازفة مؤلفة من ٣٠ غلاما عمر الأكبر منهم ثمانى سنوات ووقعوا أدوارا بغاية الاتقان

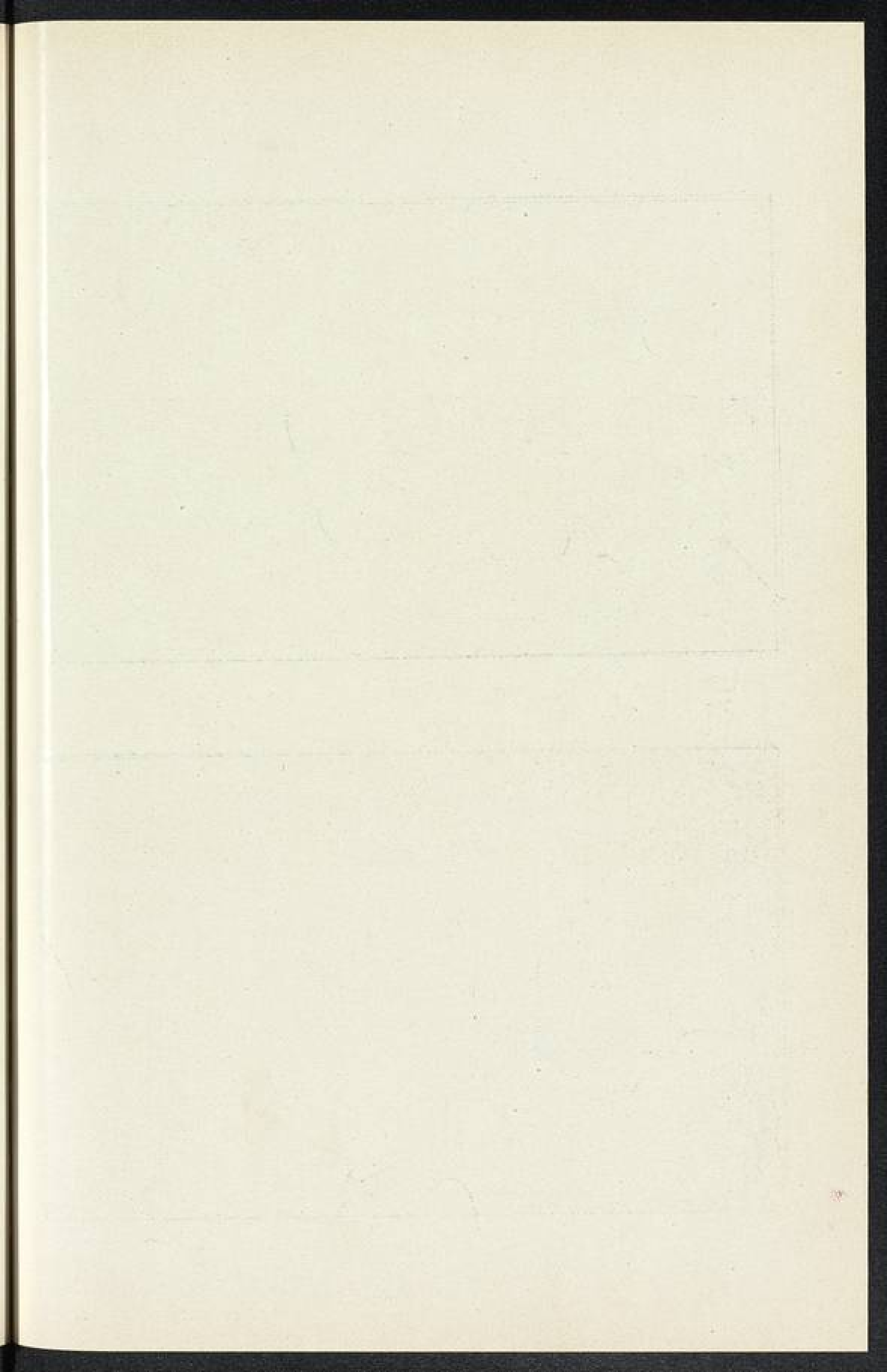
مصارعة الثيران . فى يوم ١٨ أغسطس سنة ١٨٨٩ توجهت ومعى صابر بك صبرى وكيل مدرسة المهندسخانة — وكان قد حضر لباريس — إلى محل مصارعة الثيران بالقرب من غابة بولونى ، وقد أنشىء بمناسبة المعرض العام ، فرأينا استعراضاً عاماً للموجودين فى هذا المحل ، وهم من الاسبانيين الماهرين فى مصارعة الثيران ، فدخل أحدهم ممتطياً حصاناً عليه من كل جهة نقرزان واثنان يمسكان بعنانه يتبعه أربعة خيالة اسمهم « بيكادور » ثم هيئة عساكر اسبانياً القديمة ، وبعدها عربة تشريفة مزخرفة جداً يجرها أربعة خيول ووراءها مصارعو الثيران « توريادور » وأخيراً الخدم . وبعد اتمام الموكب دورته أمام الجمهور انصرف الى الداخل ثم نزل الميدان فارس « بيكادور » يتبعه بعض « التوريادور » بملابسهم الملونة وفتح باب اصطبل خرج منه ثور هائج فعاكسه الفارس ، فلما أراد الثور أن يهجم على الحصان رشقه الخيال بنبلة فى قفاه فهاج الثور واشتد هياجه وأراد أن يفترس بعدوه ولكن الخيال ماهر فرشق الثور نبلة ثانية وثالثة ورابعة ، وكان « التوريادور » يهيجون الثور ويدفعونه نحو الفارس وبعدئذ انسحب الفارس من الميدان وابتدأ احد مصارعى الثيران « التوريادور » فى أن يزيد هياج الثور بملابسه التى تشبه برنس الحمام الملونة بألوان أظهرها الأحمر فأتى بنبلتين ورشقهما فى قفا الثور دون أن يصيبه ضرر منه



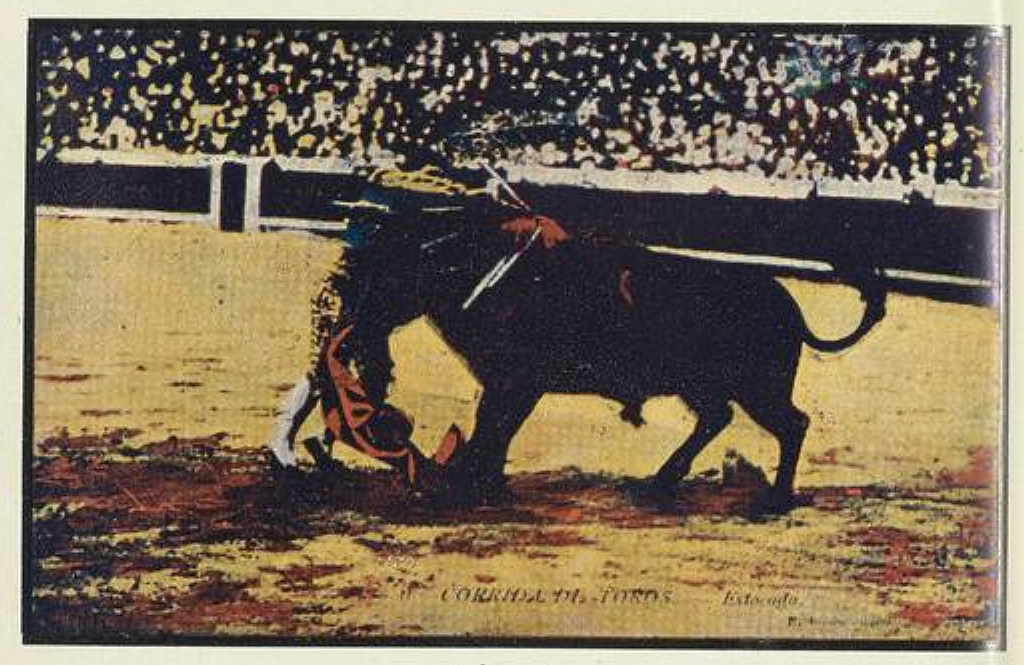

البيكادور




التوريادور



ولما تعب الثور من شدة ألم النبال جاءه التوريادور الخصيص بالاجهاز عليه وفى احدى يديه شيش سميك وفى الأخرى قطعة قماش حمراء فوصل هياج الثور الى أقصى حد واستمر هذا فى معاكسته حتى هجم عليه الثور للافتراس به . ولكن التوريادور تملكه بفراسة ومهارة وضربه بالشيش ضربة هى القاضية فخر صريعاً فأجهز عليه . وقد منعت الحكومة ذبح الثيران أمام الجمهور ولهذا فانهم عقب وقوع الثور يجرونه للداخل بواسطة الخيل ويذبحونه بعيداً عن الأنظار

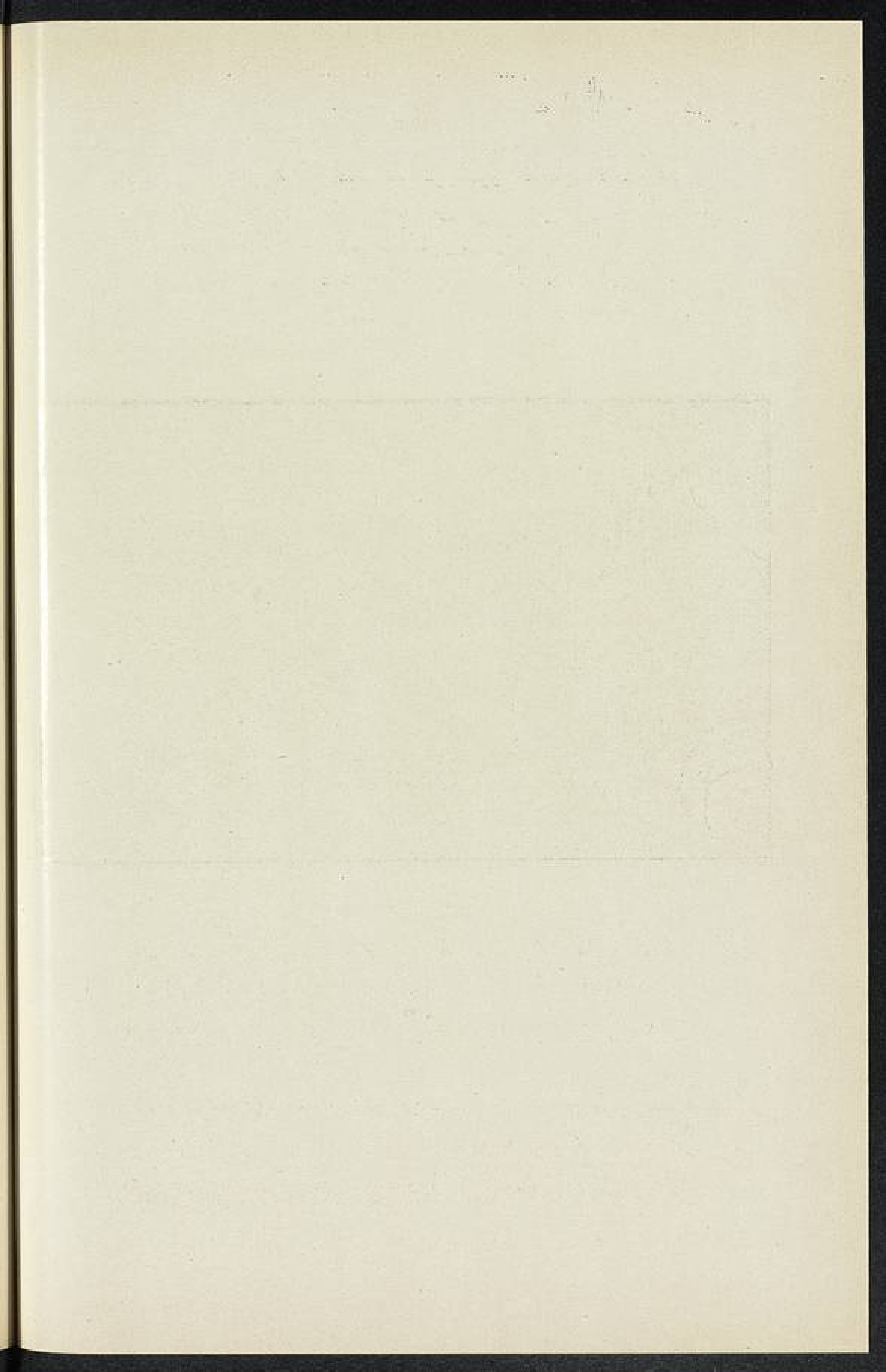



التوريادور المُجْهِز

**التياترات** . من التياترات ما خصصت له الحكومة إعانة مالية سنوية ، وهى الأوبرا والأوبرا كوميك والكوميدى فرانسيز والأديون ، ثم ان الاثنين الأولين تمثل فيهما الروايات الغزلية التى تنتهى فى الغالب بمأساة ، والأخيران يمثل بهما الروايات الشعبية ( كلاسيك )

الأوبرا . فى يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٥ مساء توجهت ومعى طوبيا بك ، الذى كان قد حضر معى من مصر ، الى الأوبرا لمشاهدة رواية سيجور

وفى يوم ٢٦ سبتمبر توجهت لمشاهدة رواية ( الأفريقية )



ولكنى فى كلا الروايتين لم أتذوق الموسيقى لعدم تعود أذانى سماعها ولا الغناء نظراً لأدغام الممثلين والممثلات له حتى ليصعب فهمه على نفس الفرنسيين الذين لم يسبق لهم قراءة الرواية . أما المناظر ، أما نشيد الممثلين والممثلات فى جماعة واحدة مع توقيع الموسيقى ، أما جوقات الراقصات ومايقمن بالرقص على أشكال مختلفة منظمة وخصوصا الراقصة الأولى وما تبديه من الرشاقة والخفة ورقصها على أطراف الأصابع ، فهى من أبدع ما شاهدته فى الأوبرا

أما داخل الأوبرا فقد أعجبنى جداً السلم الداخلى فانه فخم لامثيل له فى مسرح آخر وهو موصل الى الطابق العلوى الذى به صالات جميلة جداً ونقوشها بديعة ومعدة لاستراحة المتفرجين بين الفصول



سلم الأوبرا الكبير

وفى يوم ٦ مارس سنة ١٨٨٧ أقيمت فى الأوبرا حفلة رقص مقنع أى أن الرؤوس محجوبة بوضع وجوه مستعارة من الكرتون عليها حتى لا يعرف لابسوها من نساء جميع الطبقات . فقصدتها لابساً الطربوش والسترة الاسلامبولية ولهذا وجه الى بعض الحضور شيئاً من النكات على سبيل المزاح . فمن قائل انى أغا وآخرون أنى سفير ومنهم من قال انى السلطان وهكذا . وقد أراد الحاجب أن يمنعنى من الدخول الى ساحة المرقص لأنى لم أخلع طربوشى كعادتهم فى خلع القبعات عند الدخول ولأنى لم أكن لابساً « فراك » وهو اللباس الرسمى . فأفهمته أن خلع الطربوش لايليق فى عاداتنا وأن الذى أرتديه هو الزى الرسمى عند المصريين وكان قد التف حولنا جمع كبير فبعد هذه البيانات صاحوا قائلين الحق ما قاله . وعندها سمح لى بالدخول

وبالرغم من اختلاف الأزياء لم يعجبنى منها شىء مطلقا . وكان على السلم الكبير الداخلى موسيق كما كان فى المرقص نفسه جوقة موسيقية أخرى تديرها احدى الممثلات الشهيرات . وقد لقبت هذه الليلة تونسياً فى المرقص ولباسه السروال والسلطة وطربوش لف عليه شالا غبانياً كعادة التونسيين

وفى مساء ١٢ يوليه سنة ١٨٨٩ صحبت تونينو بك التشريفاتى الأول ، الى الأوبرا وكانت تمثل فيها رواية عايدة ، فأبدع الممثلون والممثلات والموسيق و الأغانى كانت كذلك منتظمة جداً وكنت قد تعودتها ، أما الرقص فكان فى غاية الرشاقة وكان جلوسنا بجانب فرنسى عليه سيما الوقار وبيده نوتة الموسيق ليتبع توقيعها على الموسيق طول مدة التمثيل ولم يهتم لا بالمناظر ولا بالرقص . وكانت له لحية ( سكسوكة ) على طراز لحية نابليون ، فاستغرب تونينوبك أحواله وكان بجواره فقال لى بالعربية : — هلا شاهدت عدم اهتمام من بجانبى الذى لحيته كلحية التيس بالتمثيل ؟ فما كاد ينتهى من كلامه إلا وقد التفت إليه الرجل وخلع عن عينيه منظاره وقال له بالعربية : — هل أنت مصرى ؟ فخجل تونينو ولم يكن يتوقع معرفته للعربية ولكنه بعد الاعتذار علم أنه ضابط عظيم أمضى أعواماً عديدة فى تونس

الاودبون . شاهدت فيه فى يوم ٥ سبتمبر سنة ١٨٨٥ رواية لويس الحادى عشر وهى تصوره كملك ماكر لا يؤمن جانبه ولا يأمن هو جانب أحد . ومن مواقف الرواية أن يغمى عليه مرة ويظن ابنه أنه مات فينتزع تاجه ويضعه على رأسه . وبينما هو يفعل ذلك يفيق والده فينتزع تاجه مرة أخرى ويرده إلى موضعه

وفى يوم ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٧ شاهدت فيه رواية « لآرلوزين » وهى رواية تراجيدى نثرية شعرية من تأليف الفونس دوديه وتتلخص فى حكاية شاب ريفى أراد والداه أن يزوجاه من ريفية من بلدته القريبة من مدينة آرل . ولكنه كان قد تعرف بفتاة من هذه المدينة وعشقها وصمم على أن يترك التى خطبها له والداه وأخيراً أخبره أحد أصدقائه أن حبيبته التى من آرل كانت معشوقته فيما مضى فاختل عقله وعالجه والداه وتم الاتفاق على أن يزوجاه ممن قد خطباها له فقبل ، ولكن فى ليلة زفافه ألقى بنفسه من نافذة منزله . فمات منتحراً

وفى هذه الليلة تفهمت روح الموسيقى الافرنجية واستشعرت لذتها ؛ فقد كانت النغمات التى ترسلها الجوقة الموسيقية من آلاتها تساير المناجاة الغرامية بين العاشق والمعشوق ؛ خفوت ورقة فى موقف التذلل والاستعطاف . وصخب عند النفور والغضب ، وهكذا مما كان يهز المشاعر ويأخذ بالألباب

ومن ذلك الحين وأنا أهتم بالموسيقى الافرنجية وأعنى بتتبع نغماتها

الشاتليه . مسرح متسع جدا يسع كثيرا من الممثلين شاهدت فيه فى يوم ٣ أكتوبر سنة ١٨٨٥ رواية ( كوكو فيليه ) . وهى قصة رجل مجازف يقتحم المخاطر ويتغلب عليها ويصل الى غايته . وهى قطعة ذات ٣٢ منظرا بديعة للغاية ويرى منها البحر والمركب البحرية بالنوتية والمدافع وغير ذلك من المناظر البهجة الجميلة وسرعة تغيير المناظر يحصل فى أقل من لمح البصر

وتفرجت فى يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٧ وكان معى ابراهيم بك ذو الفقار على رواية « ميشيل أو سترجوف » وهى قصة تاريخية وقعت حوادثها فى الروسيا ما بين الروس والتتر ، وكان ميشيل زعيم روسى عظيم انتدبه الشعب لمهمة سرية فقبض عليه القيصر ولما لم يبح له بسر هذه المهمة حكم عليه بأن تفقأ عيناه بواسطة مسامير من الحديد المحمى جداً

كما حضرت أيضاً فى يوم ١٧ يونيه سنة ١٨٨٩ « سياحة حول الأرض فى ٨٠ يوما » عن جول فرن تظهر فيها مناظر فى غاية الابداع ووسائل النقل تظهر كحقيقتها فى الماء واليابسة على المسرح . وقد اتم السائح هذه الدورة فى الميعاد المحدد ونال الرهان

وفى يوم ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٩ توجهت إلى هذا التياترو وصحبة البرنسين عباس ومحمد على وشاهدنا رواية « برنس الشمس » وكانت بديعة ومناظرها صينية محضة

كوميدى فرانسيز . فى يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٥ توجهت اليه لمشاهدة رواية ( تارتوف ) تأليف فولتير وهى التى ترجمها محمد بك عثمان جلال إلى اللغة العربية والمعروفة عندنا برواية « الشيخ متلوف » ويمتاز الممثلون فى هذا التياترو بأنهم يعطون الكلمات حقها فى النطق حتى يتفهمها الحضور

وكذلك حضرت روايات أخرى فيه

لاجيته . وفيه تمثل الروايات ذات المناظر البهجة وحضرت فيه فى يوم ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٥ رواية « عقلة الصباع » وهى عبارة عن عائلة فقيرة جداً مؤلفة من رجل حطاب وزوجه ولهما سبعة اطفال من ضمنهم ولد ضئيل الجسم جداً اطلقوا عليه اسم « عقلة الصباع » وفى ذات ليلة بعد ان نام الأولاد اتفق الرجل وزوجه على أنهم يأخذونهم فى الصباح إلى الغابة ويضللونهم فيها تخلصاً من نفقاتهم ! ولكن « عقلة الصباع » الذى كان منصتاً لحديثهم انسل بعد نوم والديه إلى الخارج وجمع كثيراً من الزلط الأبيض الصغير ورجع لمحل نومه فى الصباح استيقظت الأولاد وتبعوا الوالدين وكان عقلة الصباع فى أثناء المسير يسقط زلطاً مما جمعه ليتعرف به الطريق إذا ما نفذ والداه ما أراداه بهم . ولما ابتعد الأولاد عنهما وعاد الوالدان أدراجهما ، عندئذ أخبرهم عقلة الصباع بالواقع وأخذ إخوته وقفلوا راجعين متتبعين الزلط . وفى أثناء الطريق قابلهم غول فأخذهم لمسكنه كى يأكلهم ولكن عقلة الصباع لم يغفل اسقاط الزلط طول الطريق حتى مسكن الغول وبعد أن مكثوا أياماً عند الغول سمع عقلة الصباع فى ذات ليلة صوت الغول يقول لأولاده سناً كل هؤلاء الصغار غداً ، فجهزوا السكاكين وسنوها ونفذ أولاد الغول ما سمعوه من أبيهم . عندئذ نبه عقلة الصباع إخوته وأفهمهم الواقع واتفقوا على الهرب بعد نوم الغول وأولاده فنفذوا ذلك فعلا متتبعين فى سيرهم الزلط الأبيض إلى أن وصلوا آمنين إلى منزل والديهم وأخبروهما بما حصل .

وشاهدت فى هذا التياترو فى يوم ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٦ رواية « النملة والصرصور » وهى مأخوذة من خرافات لا فونتين الشهيرة

وفى يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٩ صحبت البرنسين عباس ومحمد على إلى هذا المسرح وشاهدنا رواية ( بنت ضارب الطرمبيطه ) وكانت مضحكة للغاية .

لوناسيون . شاهدت فيه فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٥ رواية « نوتردام دى بارى » تأليف فيكتور هوجو . وهى مأساة حصلت وقائعها فى الكاتدرائية الكبرى بباريس « نوتردام » وهى أن رجلا عشق فتاة جميلة لدرجة الجنون وأراد أن يتزوج بها فلما لم يتمكن من نوال مطلبه دخل هذه الكاتدرائية وصعد حتى مكان ناقوسها والقى بنفسه من ذلك العلو الشاهق فدق عنقه ومات .

الادن . وهو فخم مشيد على الطراز الشرقى ، وبه ملعب متسع فى مواجهة الداخل اليه وعلى جوانبه المقاعد وخلفها الألواج . وهناك ممر متسع ترى فيه عادة بنات الهوى رائحات غاديات . وبعد الممر توجد صالات واسعة لتناول المشروبات . قصدته فى يوم ٤ ابريل سنة ١٨٨٦ لمشاهدة حفلة رقص محجبة كما شاهدت فيه فى نفس هذه الليلة أيضاً منظراً عمومياً « بانوراما » لموقعة سيدان الشهيرة التى وقعت بالقرب من باريس بين المانيا وفرنسا فى حرب السبعين وبعد أن وصلت إلى دهليز منحدر وجدت كأنى فى وسط المعركة وحوالى السماء والأراضى المزروعة والبيوت المخربة والجرحى من الجنود والطوابى المهدمة والمدافع وكأنها تطلق قذائفها بحيث خرجت وكأننى ممن شاهدوا هذه الموقعة .

وفى يوم ١٨ يونيه سنة ١٨٨٦ توجهت بصحبة البرنسين عباس ومحمد على إلى هذا المسرح وشاهدنا رواية « براهما » بمناظرها الهندية البديعة وبعد ذلك شاهدنا الحاوى الذى يقوم بالعاب مدهشة ، من ذلك انه أحضر امرأة وأجلسها على كرسى وغطاها بمنديل كبير ولما رفع المنديل لم نجد المرأة وبقى الكرسى ثم أتى بعد ذلك بفرخ ورق أبيض وعمله قرطاس وصار يفرغ منه ورداً الواناً حتى ملأ سلة وقد سر البرنسان من ذلك سروراً زائداً .

كلوني . ويقع فى حى الطلبة ويمثل فيه روايات تدخل السرور على النفوس وفى ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٨٧ شاهدت به رواية ( ثلاث نساء لزوج واحد ) وكانت مضحكة للغاية والمناظر بديعة جداً .

وكذلك شاهدت رواية ( مفاجأة الطلاق ) وهى أيضا مضحكة للغاية

التوفوتيه . توجهت وصديق فرنسى اليه فى يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٨٨٧ وشاهدنا رواية « آدم وحواء » طبقاً لنص الأنجيل وخلاصتها أن حواء أغواها الشيطان وأكلت من شجرة التفاح المحرمة ثم أغوى آدم فأكل منها أيضاً فأخرجا من الجنة .

وفى اليوم الثامن عشر من ابريل سنة ١٨٨٩ ذهبت اليه ومعى ابراهيم بك وشاهدنا رواية ( مملكة النساء ) وخلاصتها أن اثنين من أغنياء باريس ركبا يختاً وفى أثناء رحلتهما أصاب البوصلة عطلا فرسى اليخت على أرض يجهلانها فسارا مدة حتى وصلا مدينة يسيطر فيها النساء ويتولى الحكم فيها ملكة لها جيش من النساء ؛ وناظرات وموظفات يقمن بالأعمال العامة ، بينما الرجال يقومون باعمال المنزل من طبخ وغسل وخياطة ، وكنا نشاهد على المسرح هؤلاء الرجال فى المنازل يؤدون هذه الأعمال والمرأة هى التى تغازل الرجل وتدعوه لتناول الطعام وتدفع له أجرة إذا ملكته حتى تخطفه وهكذا .

وبينما الشابان يتجولان فى المدينة وجدا ضجة وجموعاً محتشدة فى ميدان واسع قريب من سراى الملكة فلما سألا عن السبب علما أن الملكة ستمر بموكبها فوقفا يتفرجان ، وهنا رفع ستار المسرح فشاهدنا فرساناً من النساء الجميلات وبعد المرور أمامنا جاء موكب الملكة فى عظمة وأبهة ، واتفق انها لمحت أحد الشابين فتعلقت بحبه وكذا أحبت ناظرة الحربية زميله الآخر وبقيا مدة فى حيازتهما وأخيراً رأى الشاب الذى أحبته ناظرة الحربية مذلة الرجل فى هذا البلد وحقارة شأنه وأراد تغيير حالته ففر من عندها واختلط بالرجال فى المنازل وأخذ يضرم فيهم نار الحماسة والتمرد على هذا النظام الغريب حتى تمكن من إثارتهم ثم نشبت المعارك بين الجنسين وانجلت فى النهاية عن انتصار الرجال وتزوجت الملكة بمحبوبها الشاب .

فولي دراماتيك . وتمثل به الروايات المضحكة، قصدته ومعى إبراهيم بك فى يوم ١٨ يونيه سنة ١٨٨٨ وكانت تمثل فيه رواية « شيطان الربيع » وخلاصتها أن رجلا كان متزوجا بشابة جميلة لطيفة وكان يصدق معها فى وعوده طول العام ما عدا فصل الربيع فيتغير سلوكه معها . وشكت الفتاة ذلك لأمها وتركت لها تدبير العلاج لهذا الداء الذى أعياها علاجه . وتوصلت أمها إلى حل جميل هو أن تعطى ابنتها مسحوقا مسهلا تدسه فى طعام زوجها حين يسوء سلوكه ، فاذا أعطى ميعادا لغير زوجته على أن يزورها فى فصل الربيع أقعده الاسهال عن الوفاء بوعده . وهكذا حفظته الزوجة لنفسها بهذه الحيلة الظريفة .

الأوبرا كوميك . تفرجت فيه فى يوم ٦ يناير سنة ١٨٨٩ على رواية كارمن وهى من الروايات المشهورة والمعلومة للجميع وكان التمثيل والمناظر فى غاية الدقة والفخامة

الفاريتية . فى يوم ٢٠ يونيه سنة ١٨٨٩ ذهبت ومعى احمد زكى بك لمشاهدة رواية « غادة الكاميليا » وقامت باهم أدوارها سارة برنار الممثلة الذائعة الصيت ومع أنها كانت متقدمة فى السن إلا أنه كان فى صوتها ونشاطها يجرى دم الشباب وتتلخص هذه الرواية فى أن شاب من عائلة راقية طالب باحدى الجامعات تبادل الحب وامرأة متزوجة وحاول والد الشاب نصحه ومنعه عنها فلم يتمكن وأخيرا أغرى المرأة على أن تعرض عن ابنه ونظراً لحبها لهذا الشاب أرادت الموت فأهملت معالجة نفسها من مرض السل فعاجلتها المنية وكانت مناظر الرواية فى غاية الابداع والاتقان

محال الدعارة بباريس . لا أقصد الكلام عن هذه المحال بالتفصيل لأنها تشبه فى العادة ما هو موجود منها فى جميع البلدان ولكنى اكتفى بالقول بأن أشهر محل للدعارة فى ذاك الزمن كا يسمى سراى فاطمة «شابانيه» الموجود بالقرب من دار الكتب بشارع ريشيليو وهو كبير مزين بأحسن الأثاثات وجدران الغرف بالمرايا والفتيات فيه من أجمل الفرنسيات وتستعرض فى صالون كبير على الزائرين بدون لباس تقريباً لأن ما يوجد فوق أجسامهن لا يمنع الناظر من رؤية جميع أعضائهن وقد زرت هذا المحل مع بعض أصحابى من المصريين ولكن لم أتصل باحداهن

# الفصل الرابع

## المجتمع الباريسي وذكريات التعارف

**طبقات المجتمع الباريسي . معهد الرقص ومفلاته . بعض الاحتفالات والمهرجانات العامة . الحفلات الرسمية . فردينانه وشارل وفيكتور دولسبس . مدموازيل مبزونه . اسرة كونجسفورت . اسرة بيات . اسرة كونتنال . مدام اوليفييه . مدام امبرتونه . الكونت دونارسياك . البارونه دبرنتال . أنالا بلانتيه . مدموازيل مارتانه والخادمات وعبد الله الطباخ وغيرهم**

---

باريس مدينة النور والعرفان ، كما أنها مجمع اللهو والطرب ، ومسرح الغزل والقصف ، يقصدها الزوار من كل فج ، فنهم من يجتني العلم فى معاهدها ومدارسها ، ومنهم من يغترف من مناهل لهوها وملذاتها . والحياة فيها هينة تتسع لكل الناس ولجميع الطبقات كل بحسب مقدرته . فبينما تجد فيها من المطاعم المتواضعة ما تتناول فيه الطعام بفرنك وربع عن أربعة أصناف بما فيها الحلوى مع النبيذ والفاكهة ، اذا بها من المطاعم الفخمة ما ينفق فيه على الوجبة الواحدة مئات الفرنكات . وقس على ذلك سائر نواحى المعيشة من مسكن وملبس . فاغنياء القوم يرتدون الثياب الأنيقة الغالية . ويفتن الباريسيات الموسرات بوجه خاص فى اختيار الازياء ، وينفقن عليها الأموال الجمة . على حين يستطيع أهل الطبقات الفقيرة ارتداء الثياب المتواضعة بابخس الأثمان . وأيسر ما فى باريس هو التعليم ؛ فالمعاهد المختلفة مفتوحة أمام الجميع بأقل النفقات .

**طبقات المجتمع الباريسي .**

الطبقة العليا . تلعب المرأة الباريسية فى الحياة الاجتماعية دوراً كبيراً فى جميع الطبقات ، وهى صاحبة السلطان بالاخص فى الطبقة العليا ، ومن الصعب على الرجل أن يقف فى

سبيلها أو يخالفها . وللزوجه قبل الزوج أن تنظم أسلوب الحياة المشتركة ، وأن تقيم من الحفلات ما شاءت ، وأن تستقبل من الزوار من شاءت . وكثيراً ما ينزوى الزوج فى مكتبه أيام الحفلات والاستقبالات . فتنفرد المرأة بترأسها وتتقبل من ضروب الغزل والاعراب عن العواطف ما تعتبر أنه حق لجمالها وظرفها . وتكثر أمثال هذه الحفلات حينما يكون للأسرة بنات فى سن الزواج . فكأنها عندئذ تلتمس السبيل لتزويجهن باقامة المراقص والسهرات ودعوة الشبان اليها ، وكثيراً ما تصل إلى غايتها عن طريق التعارف والغزل .

الطبقة الوسطى . أما الطبقة الوسطى فربما كانت أكثر حشمة ومحافظة على التقاليد ، ومع ذلك فكثيراً ما يعشق نساؤها الترف فيدفعهن ذلك إلى التماس معونة خليل أو أخلاء ، لأن مقدرة الأزواج لا تنى بتحقيق رغائبهن فى اقتناء الحسن من الثياب والحلى .

الطبقة الدنيا . وأما الطبقة الثالثه فتكاد لا تتقيد بشىء من التقاليد ، لان الفقر يضطر الأسرة غالباً إلى أن تدفع بفتياتها ، متى بلغن سن الرشد ، إلى اكتساب العيش من أى السبل ، وكثيراً ما تؤثر الفتاة — متى كانت على جانب من الجمال والظرف — حياة اللهو والمجون فتنحدر فى تيارها .

لفتت نظرى هذه الظواهر . وأذكر أنى كنت أتناول الطعام ذات يوم فى أوائل سنة ١٨٨٦ مع بعض السيدات فدار الحديث على أحوال الفتيات الباريسيات ، فقلت ان الذى يشاهد أزياءهن الفاخرة ونفقاتهن الكثيرة يعتقد أنه لا توجد بينهن فتاة فقيرة ، لأن مظهر الجميع يدل على الغنى والترف . فقالت احداهن : — « لا تغرك هذه المظاهر لأن ما تراه من آيات التجمل والترف على الفتيات الفقيرات ، انما هو من مال أصدقائهن ، وقل أن تجد فتاة أو سيدة باريسية حتى من جميع الطبقات . ليس لها صديق يجيب رغباتها وينفق فى سبيلها النفقات الكثيرة ! ! »

**معهد الرقص وحفلاته** . ومن مظاهر المجتمع الباريسى البارزة فى طبقاته الثلاث إقبال الشبان والشابات على تعلم الرقص . وقد شوقنى صديق فرنسى من زملائى فى المدرسة الى تلقى دروسه قائلا انه من لوازم المدنية وضرورى للاتصال بالأسر الكبيرة . وألح علىّ فى أن أتلقى معه دروساً فى معهد ليلى للرقص راق يؤمه علية القوم من فرنسيين وأجانب . وكان موقعه فى شارع « روڤال » الفخم ويديره أمريكى يدعى مستر رودى وقرينته . فوافقته وبدأت أتلقى دروس الرقص فى يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٨٨٥

ولم يكن المعهد قاصراً على تعليم الرقص بل كان يعنى أيضاً بتعليم الفنون الموسيقية والغناء والخطابة والالقاء . والمدرسون فيه من أعلام هذه الفنون ، وكان معلم الرقص الموسيو دو سوريا أستاذ الرقص فى الاوبرا .

وكان طبيعياً أن تعرفنى مسز رودى بكثير من الأسر الفرنسية والأجنبية ؛ وكان من بين الأسر التى عرفتنى بها أسرة وود وارد الامريكية ، وتتألف من أم وأخيها وبناتها الثلاث . وقد راقت فى نظرى احداهن وهى اوليف وود وارد . فكنت أكثر من الرقص معها . وكذلك تعرفت الى وصيفة المدموازيل ميزون أرملة الجنرال ميزون الذى كان على رأس التجريدة الفرنسية ضد ابراهيم باشا فى حرب المورة باليونان ، وبواسطة هذه الوصيفة تعرفت الى المدموازيل نفسها .

ونشأ عن ذلك أن كان بعض السيدات اللاتى تعرفت اليهن يدعوننى لبيوتهن فى الحفلات الساهرة التى يقمنها . فكنت أتعرف هنالك بغيرهن وهكذا اتسع نطاق معارفى .

وكان من المتبع فى هذا المعهد أن تقام من وقت الى آخر حفلات ساهرة يدعى اليها أصدقاء المعهد من طلبة وغيرهم .

ففى يوم ٨ يونيه سنة ١٨٨٦ دعيت الى إحدى الحفلات فذهبت فى الساعة التاسعة مساء ، وسمعت بعض قطع صغيرة على البيانو والكمنجة والهارب والناى وغيرها من الآلات الموسيقية ، وغنَّى جماعة من الرجال والنساء ومن بينهم مؤلفو القطع التى غنبت وانتهت الحفلة عند منتصف الليل .

وفى حفلة أخرى أقيمت فى ١٢ منه سمعت محاضرة عن تاريخ الرقص ذكر فيها المحاضر أن الرقص كان موجوداً عند المصريين واليونان القدماء ، وكذا عُرف عند الهنود والصينيين والعرب والترك . ولم تكن حركاته سريعة كما هى الآن .

وفى النهاية أوصى المحاضر بتعلم رقصة « الفالس » المثلثة الخطوات لأن ذات الخطوتين قبيحة كأنها القفز . ثم أبدى أسفه عن تطور الرقص حتى خرج عن تقاليده فبعد أن كان شريف المقصد أضحى اليوم نقيض ذلك .

وفى حفلة ثالثة أخذت معى كراسة موسيقية تحتوى على السلام الخديوى وسلام ولى العهد والسلام التركى باللغة التركية وثلاثة أدوار عربية من تأليف زاكر بك رئيس الموسيقى الخديوية ، وعرضتها على المستر رودى وبعض الحاضرين ليعلموا أن فى البلاد الشرقية مؤلفين موسيقيين وموسيقى حية

وفى آخر يونية سنة ١٨٨٧ أقيمت حفلة بمناسبة انتهاء الفصل الدراسى للمعهد فحضرتها أيضا ، وفيها تقدمت الى "مسز رودى قائلة : — سأعرفك بأحد مواطنيك . فشكرتها معربا عن سرورى بهذا التعارف . وكان المقصود رجلا يرتدى اللباس الشرقى « طربوش وقفطان وشىء يشبه الجبة » وعلى عينه نظارة وهو يعزف بالناى على نغمات البيانو . فلما انتهى من العزف تقدمت السيدة وقالت له : — مسيو جيمس . أعرفك بمسيو شفيق . وكان هذا الرجل هو « أبو نضارة زرقاء » الصحفى المصرى المشهور الذى ورد ذكره فى كلامنا عن عصر اسماعيل ، تحدثنا عن الأيام الخالية ، أيام كان بمصر .

**بعض الاحتفالات والمهرجانات العامة** . ولما كانت الاحتفالات والمهرجانات تعطى فكرة عن المجتمع الذى يقوم بها دونت بعض ما رأيته اثناء اقامتى فى باريس

**عيد فرساى** . فى يوم ٣٠ اغسطس سنة ١٨٨٥ توجهت مع صالح افندى صبحى ومحمد افندى شاكر إلى فرساى لمشاهدة عيدها فى هذا اليوم ، فرأينا فيها ما يشبه مواسم الموالد بمصر ؛ اذ كان الزحام عظيما والاراجيح على اختلاف أنواعها ، والخيول الخشبية التى تدور ، وتياترات وغيرها . وكانت المدينة مزدانة بالرايات والمصابيح . وفى الساعة التاسعة مساء ابتدأ اطلاق النيازج . وبعد ذلك قصدنا إلى ميدان المولد « فوار » ولعبنا اليانصيب فكان حظى زهرية من الزجاج بلون الفضة وزهرية أخرى من البللور العادى الأخضر وقدحين من الزجاج الملون وزجاجة ملأى بالبرقوق المخلل . وبعد ان شاهدنا كل ذلك رجعنا إلى باريس حول منتصف الليل .

**بوق الصيد وموسم الصوم** . ومن أغرب ما استلفت نظرى اننى شاهدت فى ١٠ مارس سنة ١٨٨٦ ، أناساً يسيرون فى الطرقات يحمل كل منهم بوقاً طويلا اسمه بوق الصيد ينفخون فيها فيكيفون الاصوات على نحو خاص ، واستمروا كذلك فى اليوم الثانى . وعلمت انها عادة متبعة عندهم فى منتصف أيام موسم الصوم

**مهرجان خيرى بالتويلرى للفقراء** . فى يوم ١٦ مايو من هذه السنة أقام كبار التجار والصناع والصحفيون فى حديقة التويلرى مهرجاناً خصص دخله للفقراء ، فذهبت ليلا مع صالح صبحى ومحمد شاكر إلى الحديقة . وكان تنظيم المهرجان فى غاية الدقة والبهجة . وقد زينت الأشجار بمصابيح من الورق الملون . وأقيمت فى كل ناحية أنواع شتى من ضروب اللهو واللعب .

فاطمة التونسية . واستوقف نظرنا إعلان باسم « فاطمة التونسية » على احد محال اللهو فدخلنا اليه فالفينا به ثلاث راقصات احداهن فتاة رائعة الحسن هى « فاطمة الجميلة التونسية » ووالدها يرتدى لباساً مغربياً من رأسه إلى قدمه ولم يظهر منه إلا عيناه . وبعد ان غنت الفرقة على نغمات البيانو غناء عربياً ، رقصت فاطمة هذه وفى يدها منديلان تلوح بهما فى الهواء كالرقص المستعمل فى مدينة الاسكندرية . ثم رقصت فتاة أخرى رقصة بدوية . وكان الفرنسيون يضحكون لهذه المناظر ويصيحون مهللين . وعلمت أن هذه الفرقة تتجول منذ حين فى فرنسا وتجنى أرباحاً طائلة ، وتنهال عليها العطايا من مال وغيره ، ولا سيما بالنسبة لفاطمة الحسناء التى لم تكن مسلمة فى الواقع كما يدل اسمها بل كانت يهودية . وكان عازف البيانو جورج شقيقها .

ثم طفنا أرجاء الحديقة بعد ذلك وسمعنا الموسيقى الحكومية ، وكان منها اربع تطوف بالحديقة عازفة فترسل أنغامها العذبة إلى مدى بعيد . وشاهدنا باقى المراقص والمسارح والألعاب السحرية والنيازج التى اطلقت من بركة الحديقة ليلتئذ .

وعلمت أن الدخل فى هذه الليلة وحدها بلغ مائة وعشرين الف فرنك وبلغت النفقات مائتى الف فرنك . ولكن الليالى التالية عوضت هذا النقص وأربت عليه . وقد عدنا إلى زيارة هذا المهرجان الفخم فى ليال أخرى .

حفلة عسكرية خيرية . ومن الحفلات البديعة التى خصص دخلها للفقراء أيضاً مناورات حربية أقيمت فى ميدان « شارل دوماس » أمام المدرسة الحربية . وكان الدخول بأسعار تتراوح بين الفرنك الواحد والأربعين فرنكا . ومما استلفت الأنظار فى هذه الحفلة وجود خمسين من عرب الهوارة بالجزائر ، وقد صفق لهم الجمهور طويلا لما أبدوا من مهارة فائقة فى ألعاب الفروسية على ظهور خيولهم العربية ، حتى أن المسيو جريفى رئيس الجمهورية أعرب لهم عن استحسانه . وابتدأت المناورات فى الساعة الثانية مساء وانتهت فى نحو الخامسة

عيد الأزهار . كان يوم ٥ يونيه سنة ١٨٨٦ عيد الأزهار بحديقة التوليلرى ، فشاهدت هناك نفس الزينات التى كانت فى حفلة يوم ١٦ مايو الخيرية ، غير أن بائعات الورد كن منتشرات فى أرجاء الحديقة ، وقد حمل كل زائر باقة منها . وركب بعض الأغنياء عربات زينت بأنواع الورود المختلفة الألوان وكان مع سائق إحداها مظلة منسقة تنسيقاً جميلا مصنوعة من الأزهار . ولكن المطر هطل مدراراً فى هذه الليلة فأتلف نظام المهرجان فأعيد فى الليلة التى تليها وقد مضيت لمشاهدته فكان أبدع ما يكون

مهرجان غابة فنسين . وفى يوم ١٨ يوليو مساء ركبت وصالح صبحى القطار قاصدين ضاحية « بل إير » لمشاهدة مهرجان غابة فَنْسين ولما أن وصلنا وجدنا مدخل الغابة مضاءاً بهلال من نور كما كانت الأشجار التى تحف جانبى الطريق مزخرفة بالفوانيس الورق الملونة ذات الأشكال المختلفة . وأخيراً وصلنا إلى بحيرة عظيمة فى وسطها جزائر صغيرة ، وكانت كلها ، ودائرة البحيرة على اتساعها ، والأشجار التى تحف بها ، مزينة بالمصابيح زينة بديعة تدل على الذوق السليم . وكانت فى الجزائر المذكورة ثلاث حلقات للرقص ، كما رأينا فى البحيرة عدداً من القوارب مزخرفة بالأنوار ذات الألوان المختلفة فى أجمل نظام ، إذ أن صاحب القارب الذى يفوق الآخرين فى الزركشة ينال جائزة حسنة ومداليات شرف

أما شاطىء البحيرة فكان مزدحماً بألوف المتفرجين جلوساً على الحشائش

وفى الساعة التاسعة أطلقت الألعاب النارية وكان يوجد قريباً من البحيرة جهة اسمها « سان منديه » مزينة أيضاً وبها بالونات لصعود المتفرجين وأشياء أخرى مما توجد عادة فى الأعياد وفى منتصف الليل رجعنا إلى باريس

عيد الغسالات . شاهدته فى يوم أول ابريل سنة ١٨٨٧ — ويقع فى يوم النصف من أيام الصوم الاربعين — حيث يرى فيه عادة كثيرات من الغسالات فى هيئات مختلفة مضحكة يركبن العربات وفيهن الجميلات ، والجماهير تملأ الطرقات ، حتى اذا كان الليل أقامت المسارح ومحلات اللهو الأخرى حفلات راقصة

وقد ذهبت الى « الايدن تياتر » مع ابراهيم بك ذو الفقار وكانت به حفلة راقصة محجبة وكان غاصاً بالمتفرجين لمناسبة هذا العيد

الكرنفال . فى يوم ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٨ كان عيد كبير فى أثناء موسم الصوم فخرج الناس جميعاً الى الطرقات لمشاهدة مناظر « الكرنفال » وخرجت بعد الظهر للتفرج ، فكانت الشوارع الكبيرة غاصة بالجماهير ، فرأيت أزياء مختلفة مضحكة لم يرقى منها سوى القليل . وكان من أبدع ما شاهدته كلباً صغيراً لبس ملابس ملونة وحمل فى فمه مظلة كأنه يستظل بها ، وهو يسير فى وسط الزحام محافظا على مظلته . وكانت بعض الساقيات فى مشارب البيرة يركبن الخيل فى أزياء المحامين ، والأخريات يركبن فى عربات بأزياء مختلفة . وذلك للاعلان عن هذه المشارب

الجمعة المقدسة . وقع هذا اليوم من هذا العام فى ١٩ ابريل سنة ١٨٨٩ وهم يحيونه

فى الكنائس وتغلق فيه وحده من السنة حوانيت القصابين ، ويحرمون فيه الذبح فاشتريت ما لزمنى من اللحم فى يوم الخميس

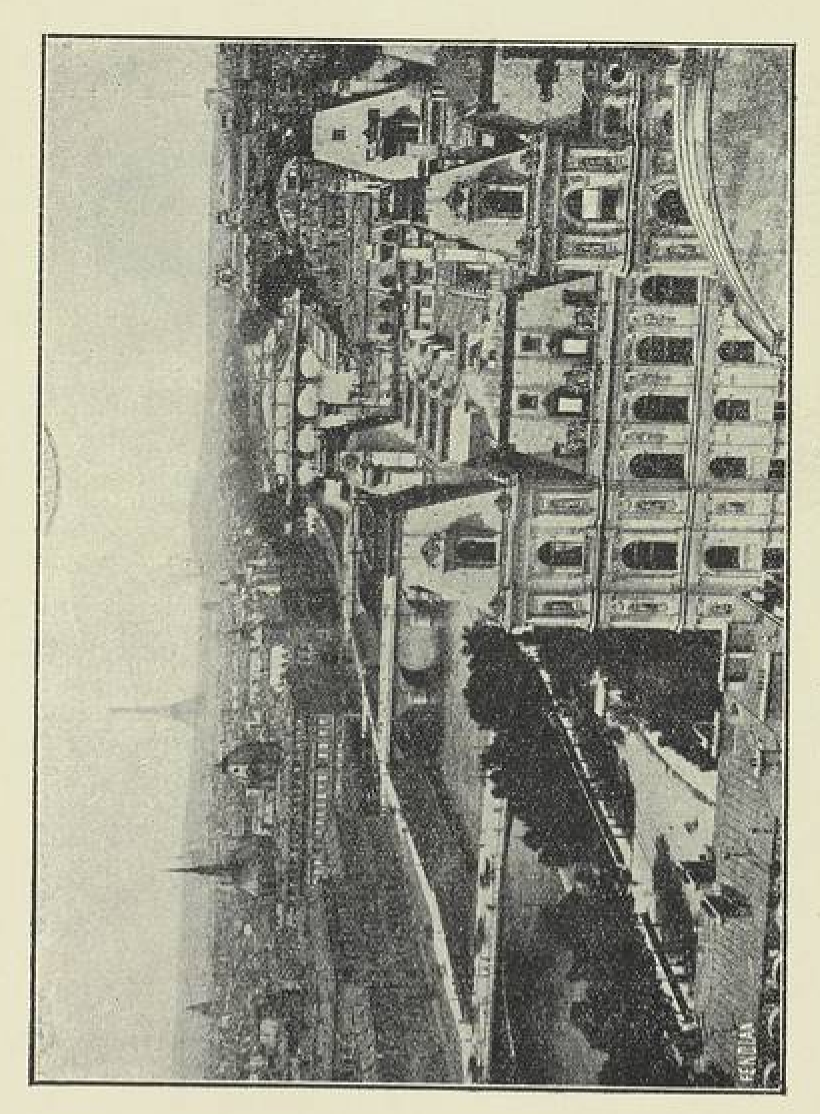
العيد المئوى لمجلس النواب . فى ٥ مايو سنة ١٨٨٩ احتفل فى فرساى بالعيد المئوى لمجلس نواب الأمة الذى اجتمع فى سنة ١٧٨٩ أعنى سنة نشوب الثورة ، فذهبت واحمد بك وابراهيم بك ذو الفقار لرؤية الاحتفال وشهدنا استعراضاً عسكرياً أجرى أمام سرادق رئيس الجمهورية والمدعوين ، وشق الجند بعد ذلك الشارع الكبير المفضى الى ميدان فرساى . ثم ذهبنا الى حديقتها وشهدنا تدفق المياه من نافوراتها الجميلة المشهورة الى علو شاهق ثم عدنا فى المساء الى باريس وكانت شوارعها تموج بالناس من كل الطبقات

عيد الجمهورية . يقع هذا العيد فى يوم ١٤ يوليه من كل سنة تحتفل به فرنسا والفرنسيون فى جميع أنحاء العالم احتفالا شيقاً . فى صباح هذا اليوم من سنة ١٨٨٩ اجتمع تلاميذ المدارس الصغار بملابسهم الرسمية والبنادق الصغيرة « زى الكشافة » ومروا فى الشوارع جماعات جماعات وأمامهم البروجية من زملائهم ، ثم تلاقوا جميعاً عند دار البلدية وهناك قاموا بحركات عسكرية « ميدان ألاى »

وفى الساعة الرابعة مساء اقيم استعراض عسكرى عظيم فى « لونجشام » بغابة بولونى ، حضرها رئيس الجمهورية ، وأعضاء مجلس الشيوخ والأعيان وعدد عظيم من المتفرجين .

وبعد تناول العشاء خرجت واحمد بك وابراهيم بك ذو الفقار ومعنا السيد توفيق البكرى — وكان قد حضر لباريس — وشاهدنا الزينات فى ميدان الكونكورد « الوفاق » والشانزيليزيه وغابة بولونى . وكانت الأشجار مزينة بالمصابيح المختلفة الألوان ، والجسور العديدة المقامة على نهر السين مزدانة بالأنوار ذات الألوان الثلاثة التى يتكون منها علم الجمهورية (أزرق وابيض واحمر) وكان المنظر خلاباً . وعند العودة مررنا بميدان اللوفر . ومن ثم افترقنا فذهبت والسيد توفيق إلى ميدان الأوپرا فوجدنا هناك زحاماً هائلا والجمهور يمنع العربات من المرور مالم يخلع كل من السائق والراكب قبعته ويهتف « لتحيى الجمهورية » فلم نركب الا بعد ان جاوزنا كنيسة مادلين .

وكانت المراقص فى هذه الليلة قائمة فى كل مكان فى الأنحاء والمحال الكبيرة وفيها جميعها يتسع للشباب من الجنسين مجال اللهو والتمتع واشباع الشهوات الجامحة



السنج كارى على نهر السين فى عيد الجمهورية

**الحفلات الرسمية** . وهناك ناحية لها أهميتها الخاصة فى تعريف المجتمع الباريسى، وهى الحفلات الرسمية . وقد قمت فى عام ١٨٨٧ وباقى مدة اقامتى بباريس بعدة زيارات رسمية أذكر منها ما يأتى : —



صورة مرقص في عيد الجمهورية

حفلة وزارة الحربية . في يوم ١٤ مارس ذهبت الى وزارة الحربية فى سهرة تلبية لدعوة تلقيتها، فلما وصلت الى دار الوزارة التى كانت مزينة بالأنوار الساطعة فى الداخل والخارج. وجدت كاتبا فى بهو يسجل اسماء الزائرين ، فقدمت اليه بطاقة دعوتى ودخلت إلى بهو آخر يؤدى إلى قاعة الاستقبال ، وهناك كان بعض الموظفين يعلن اسماء الحضور بصوت عال ، فلما أعلن اسمى دخلت فوجدت الجنرال بولانجيه الوزير واقفاً ووراءه صف من الكراسى يفصله عن الواقفين خلفه. فتقدم وصافحنى بيده وحيانى تحية

حسنة . وكان أغلب الحاضرين من الضباط . ولما جاء سفير الدولة العلية اسعد باشا حياه الوزير باحترام ، وقابلته فى إحدى الغرف وسلمت عليه لسابقة معرفتى به .

وشاهدت في دار الوزارة داخل احدى الغرف ثريا مصرية مضاءة بالغاز على هيئة بنادق وطبنجات وسيوف صنعت بمنتهى الأتقان . وكذلك شمعدانات كبيرة ركبت من بنادق . وكانت الموسيقى تعزف بانغام شجية . وانصرف المدعوون فى الساعة الحادية عشرة حيث كان ختام الحفلة مثنين على همة القائمين بها ، وخصوصاً الجنرال بولانجيه الوزير .

وبهذه المناسبة أذكر ان الجنرال كان فى ذلك الوقت كالحاكم بأمره فى فرنسا ، ولم يحرز هذه المكانة الا بأقدامه وشجاعته . وكان جميع الشعب يحبه ويتغنى باسمه . حتى ان المقاهى الغنائية القومية كانت تردد أناشيد وضعت عنه منها :-

Quand les pioupious d'Auvergne vont en guerre
Le canon tonnera, pour sûr l'on dansera
On trempera la soupe dans la grande soupière
Et pour la manger on ne se passera pas de Boulanger.

والمعنى هو :—

لما يذهب بواسل سكان مديرية أوفرنى للحرب

فانهم محققاً يرقصون بين دوى المدافع

ويثردون الخبز فى قروانات الشوربة الكبيرة

ولكى يحصلوا على الخبز ويأكلوه لا يستغنون عن « الخباز » (١)

وكان فى شبابه وسيما تتطلع اليه الحسان ، ولا سيما حين كان يركب جواده الأبيض .

وأشير بهذه المناسبة إلى المناظر العاصفة التى وقعت فى باريس فى ٢٧ يناير سنة ١٨٨٩ حينما انتخب الجنرال بولانجيه نائباً عن إحدى دوائر باريس فى مجلس النواب . وخصوصاً أمام كنيسة مادلين حيث كان يتناول الطعام فى مطعم « دوران » ومكث به منتظراً نتيجة الانتخابات ، وفاز بأغلبية ساحقة على مسيو جاكيه مرشح الحكومة والمؤيد منها .

---

(١) ترجمتها بالفرنسية « بولانجيه »



الجنرال بولانجيه يحصى عدد المنتخبين له

وكان الجنرال روح جمعية الرابطة الوطنية التى تقاوم الحكومة وتعمل لاسقاطها بوسائل متطرفة . فكان فوز بولانجيه ضربة للوزارة ، وعلى أثر هذا الفوز قامت فى باريس مظاهرات عديدة كان الشعب يهتف فيها للجنرال . واشتدت الحماسة من الفريقين ، وخشى على النظام ، وتحمست نساء باريس بالاخص للجنرال ، ووزعت صورته فى كل مكان . ورأت الحكومة ان تحاكم الجنرال لتهم نسبتها إليه ففرفى أول ابريل سنة ١٨٨٩ — اتقاء لبطش خصومه — إلى بروكسل حيث كانت تثوى حبيبته البلجيكية فى قبرها فانتحر عليه ليرقد الى جوارها

ولو عاش بولانجيه لكان من المحتمل أن يصل إلى رآسة الجمهورية .

وشاع فى ذلك الحين ان مسيو دوفريسنيه وزير الحربية هو الذى أبلغ الجنرال

بولانجيه نية الحكومة فى القبض عليه ، فذكرنى هذا الموقف بموقف محمود باشا البارودى
ازاء العرابيين يوم كان ناظراً للاوقاف ، حيث كان يوقفهم على خطط الحكومة ونياتها .

فى وزارة المعارف . فى ١٦ مارس سنة ١٨٨٧ قصدت إلى وزارة المعارف مع ابراهيم
بك فى الساعة العاشرة ليلا حيث كان هناك استقبال رسمى ، وقبل الساعة الحادية
عشرة بقليل فتح المقصف وقاعة الرقص فرقصت شوطا واحداً .

وكانت المقابلة بنفس النظام الذى شرحته فى استقبال وزارة الحربية ويزيد عليه
ان زوج الوزير كانت تشاركه فى الاستقبال .

عند رئيس الجمهورية . وفى مساء ٢١ يناير سنة ١٨٨٨ ذهبت مع ابراهيم بك إلى قصر
الاليزيه وكان رئيس الجمهورية قد أقام حفلة راقصة دعا إليها الكثيرين من عظماء فرنسا ،
وكانت بطاقات الدعوة وصلتنا بواسطة الموسيو مزمر ، فتجولنا فى السراى قليلا ثم
دعينا إلى مقابلة الرئيس ، وكانت معه قرينته تستقبل المدعوين ، فسلمنا عليهما فى الغرفة
الخاصة بذلك ثم خرجنا إلى الأبهاء الأخرى المعدة للجلوس والسمر . وكانت الأنوار
ساطعة داخل وخارج السراى ومفروشاتها ثمينة وعدد المدعوين عظيما والمقصف فاخراً

فى وزارة الخارجية . وفى يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٨٩ توجهت مع المسيوجرى سكرتير
مدرسة العلوم السياسية إلى وزارة الخارجية وكان هناك استقبال لوزيرها ، فَقُدِّمْتُ اليه
ووجدته فى غاية الديموقراطية والبساطة . وبعد المقابلة زرنا أبهاء الاستقبال ، وهى
شاسعة أنيقة مرتفعة السقوف .

وكان بين الذين ذهبوا إلى الخارجية هذا اليوم ميثاق افندى مستشار السفارة العثمانية ،
وجمال بك سكرتيرها ، فقدمت اليهما المسيو جرى وقدمنى هو إلى العلامة جستاف لوبون .

فى مجلس الشيوخ . وفى اليوم التالى لهذه الزيارة تناول مسيو جرى طعام العشاء معنا .
ثم ذهبنا لمقابلة دعانا اليها رئيس مجلس الشيوخ فى دار المجلس ، وكنت كالزيارات الرسمية
السابقة ألبس الاستامبولية والطربوش والوسامات الصغيرة . فاستقبلنا الرئيس بلطف
ورحب بنا . وهناك قابلنا اسعد باشا السفير التركى فقدمنا اليه مسيو جرى . وقدمنا
هو إلى المسيو سيلر ناظر المالية وصديق جمبتا الحميم ، فابدى سروره بهذا التعارف ثم
عرفنا إلى غيره من كبار الموظفين .

ورأينا هناك رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وغيرهما من العظماء .

**ذكريات التعارف** . ذكرت فى مقدمة هذا الفصل وصفاً موجزاً لكل طبقة من طبقات المجتمع الباريسى الثلاث . وهنا اكتفى ببعض الحوادث الخاصة التى وقعت لى فى اتصالى ببعضها ، مما يعطى صوراً أوضح وأكثر تفصيلا

وإذا كان معهد الرقص قد هيأ لى التعرف ببعض الأسر فقد كان هناك عاملان آخران ساعدانى فى التعرف إلى كثير من الأسر الراقية ؛ الأول هو المسيو فرديناند دولسبس وأسرته ، والثانى هو مدموازيل ميزون

أسرة دولسبس . فى صباح يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٨٨٦ توجهت مع ابراهيم بك ذو الفقار إلى منزل مسيو دولسبس ، وهو قصر فخم فى شارع من أحسن شوارع باريس ، فقابلنا بغاية الترحاب وأمر صغرى بناته التى عمرها لا يتجاوز خمس سنوات أن تفرجنا على الأصطبل والعربخانة وما يتبعهما وقد وجدناها منظمة نظيفة جداً وبعدئذ دعانا لتناول الغذاء معه ، وكان ابراهيم بك أعطاه جواباً حرره الباشا والده له بوصية، وقد سر كثيراً لأن ذو الفقار باشا كان ممن ساعدوه على نيل امتياز حفر قناة السويس لدى سعيد باشا . ولما جلسنا إلى المائدة معه وأولاده المسمى أحدهم اسماعيل أخذوا يسألوننا عن مصر وشؤنها

وفى أول يناير سنة ١٨٨٧ ذهبت وابراهيم بك إلى دار دولسبس لتهنئته بالسنة الجديدة فلم نجده وتركنا له بطاقة الزيارة فبعث إلينا رداً على التهنئة فى اليوم الخامس منه

وفى ٢٧ يناير سنة ١٨٨٧ بناء على دعوة فرديناند دولسبس ذهبت وابراهيم بك حيث حضرنا حفلة ساهرة كان المدعوون أغلبهم متقدمين فى السن إلا بعض الجنس اللطيف بملابسهن الثمينة وأذرعهن وصدورهن العارية وكانت الموسيقى مؤلفة من أربعة عازفين إيطاليين مهرة ، وهناك قابلنا ابراهيم باشا توفيق محافظ القنال كما تعرفنا بشارل (١) دولسبس نجل فرديناند

وقدمنا مسيو دولسبس لزوجته لأول مرة وذكرها بالوصية التى حملناها له فى زيارتنا له فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٨٦

وقد اهتمت بالوصية ورحبت بنا ، وقد كانت على جانب عظيم من الجمال فهى ذات قد معتدل ، سمراء اللون باسمة الثغر خفيفة الروح فى سن الشباب وان كان

---

(١) كان لمسيو فرديناند دولسبس ولدان من الزوجة الأولى هما شارل وفيكتور وسيأتى ذكرهما

زوجها فى سن الشيخوخة . ودعتنا للحضور دائماً فى ليلتى السمر التى تقيمها فى كل اسبوع لأصدقائها فشكرناها وأجبنا هذه الدعوة مراراً عديدة . وهذا بخلاف الحفلات الكبرى التى مكنتنا من التعارف مع كثير من أرقى الأسر الفرنسية ومشاهدة أحسن صور الحياة الاجتماعية الرفيعة

وفى يوم ٧ فبراير ذهبت وابراهيم بك إلى منزل دولسبس ومعى أدوار موسيقة عربية وتركية طلبتها منى زوجته فلم نجدها بالمنزل فتركتها مع بطاقتى . وفى يوم ١٠ منه وصلتنى رسالة شكر منها فذهبت لزيارتها فى مساء نفس اليوم فقابلتنى بترحاب وقدمتنى لجماعة من اخصائها منهم الكونت ميرمون وهو ضابط سوارى فى الجيش الفرنسى وسيم الطلعة أنيق المظهر ، وقد لاحظت فى كل مرة قضيت السهرة عندها أنى أجد هذا الكونت على الدوام بجانبها أثناء لعب الورق . وقد رقص أولادها على سبيل التمرين رقصة تسمى ( مونويه ) (١) فأعجبت برقصهم ، وقالت لى إنهم سيرقصونها مرة أخرى فى حفلة تقيمها مدام كونجسفورت قرينة أحد رجال المال فى فرنسا . فرجوت المسيو دولسبس أن يطلب لى تذكرة دعوة لهذه الحفلة فوعد بأن يصحبنى معه إليها فشكرته وقرينته على هذا العطف الكبير

وبعد ذلك بأيام ذهبت مع ابراهيم بك لزيارة دولسبس فى مكتبه بشركة قناة السويس فأخبرنا أنه سيقيم حفلة استقبال للخديو اسماعيل ، وكان يومئذ فى باريس لأستشارة الأطباء ووعد سموه بحضور هذه الحفلة ، ودعانا لحضورها . وفى اليوم المحدد ومساء ١٧ مارس سنة ١٨٨٧ ، ذهبنا إلى داره بملابسنا الشرقية ، وكانت الحفلة فى منتهى العظمة والبهاء . شهدها كثير من علية القوم من بارونات وكونتيسات يرتدين الملابس الفاخرة والجواهر الثمينة فتزيدهن جمالا على جمالهن . وكان بين الحضور بعض اعضاء الاكاديمى وغيرهم من الكبراء . ورقص فيها أولاد دولسبس رقصة « المونويه » وفى منتصف الليل دخلنا المقصف وكان يحتوى على أفخر أصناف المأكولات والمشروبات فتناولت مع رفيقى ما لذ لنا منها ، وقبلت أن اتعاطى مع رُبة الدار واثنتين من المدعوات ثلاث كوبات من الشمبانيا ، وقد استغربت من عدم تأثير هذا المشروب تأثيراً سيئاً ولو اننى لم اشربه قبل ذلك .

---

(١) وهى رقصة كانت معروفة من عهد لويس السادس عشر ولباس الراقصين بها من أحسن وأفخر أزياء ذلك الزمن وهى رقصة تشبه الكادرى ولكنها ذات حشمة ووقار

وكان يدير الرقص المسيو دى سوريا مدير الرقص فى الأوبرا ، وأستاذى فى معهد الرقص « رودى » ، وقد تعرفت فى هذه الليلة بمسيو مارس مصور جريدة المصور « اللوستراسيون » ورأيته والقلم الرصاص فى يده يأخذ صورة الراقصين ثم صورته جالساً على مقعد وعلى ركبتيه صغرى بناته ونشرتها جريدة المصور فحفظتها



( صورة سهرة عند دولسبس — نقلا عن اللوستراسيون )

ولم يحضر الخديو اسماعيل هذه الحفلة ، وعلمنا أنه اعتذر عن الحضور لمرضه .

ولما استأذنا فى الخروج سألت دولسبس عما إذا كان لديه وقت للتحدث فى مسألة تختص بمصر وقناة السويس فاظهر استعداده . وكان لذلك الموضوع علاقة برسالتى عن (نفوذ فرنسا فى مصر) ثم سألته عن سفره إلى المانيا فذكر لى انه تحادث مع البرنس بسمارك بخصوص جلاء الجيوش الانجليزية عن مصر ، وانه يثير هذه المسألة دائماً ويرجو أن يحصل على بعض النتائج .

وفى يوم ١٤ ابريل كنا مدعوين لحفلة أخرى راقصة عند مسيو دولسبس وهنالك قابلنا سفير الدولة العثمانية ، وكان يلبس قبعة ، ودام الرقص إلى الساعة الأولى بعد نصف الليل ، وكنت ضمن الراقصين . وهناك قابلنا مسيو فيكتور دولسبس ووعدت قرينته بأن أرسل اليها كمية من البامية الناشفة التى وردت لنا من مصر فشكرنا فيكتور .

شارل دولسبس . عند ما كنا عند فرديناند دولسبس فى ٢٧ يناير سنة ١٨٨٧ دعانا نجله شارل لتناول طعام العشاء عنده فى ٣١ منه . وفى تلك الليلة لقينا هناك أخاه فيكتور دولسبس وقرينته ومسيو انسلين قنصل جنرال هولانده فى مصر سابقاً ، والمسيو بيات وقرينته وهم من موظفى شركة قناة السويس ومسيو بوكار من مديرى الشركة وهو من الأغنياء وكان مفتشاً للغابات سابقاً وكان أعزب . وقد استقبلتنا مدام شارل بكثير من الحفاوة والظرف . وبعد انتهاء السهرة انصرفنا شاكرين

وفى اليوم السابع من فبراير ذهبت ومعى ابراهيم بك لزيارتهما ثانية فلاقتنا مدام شارل بظرفها المعهود ويومئذ ترجمت لها بعض نقوش على طست نحاس من صنع شارع خان الخليلى وكانت تختص بالسلطان قايتباى ، ولذلك رجتنى أن أكتب لها تاريخه مختصراً فوعدتها بذلك وانصرفنا

وفى ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٧ كنت مدعواً مع ابراهيم بك ذو الفقار لتناول طعام العشاء عندهما ، وكان مسيو بوكار بين المدعوين ، وهو صديق حميم لمدام شارل ، وبعد تناول الطعام أخذنا فى لعب الورق ، ولم أكن أعرف فيه شيئاً ، فقالت لى ربة الدار : — « الساذج تمتلىء يده » وأجلستنى بجانبها لترشدنى إلى اللعب . ولكن رغم ذلك لم يصدق هذا المثل الفرنسى الذى ذكرته ، فقد خسرت ٣٢ فرنكا . بيد أن اللعب كان لمجرد التسلية والدعابة .

فيكتور دولسبس . بناء على دعوة من مدام فيكتور دولسبس توجهت وابراهيم بك

فى يوم ٣٠ ابريل سنة ١٨٨٧ حيث تناولنا طعام العشاء ، وكان من بين أنواع الطعام « البامية الناشفة » التى سبق أرسلناها هدية اليهما ، وقد قوبلنا من الزوجين بالحفاوة والترحاب الفائقين ، وجلسنا بعد العشاء نتسامر إلى ساعة متأخرة من الليل ، ثم انصرفنا شاكرين

وقد استمرت التزاور بيننا وبين أسرة دولسبس وأنجاله طول مدة إقامتنا فى باريس

مدموازيل ميزون . هى بنت الجنرال ميزون الذى كان على رأس التجريدة الفرنسية ضد ابراهيم باشا نجل محمد على باشا الكبير لاخراج الجيش المصرى من « مورة » باليونان ، وكنت تعرفت اليها بواسطة وصيفتها فى معهد الرقص ، كما أسلفت ، فدعتنى لحفلة راقصة تقيمها بمنزلها بباريس فى حى « نويى » فى يوم ٢٤ يوليه سنة ١٨٨٦ وقد استصحبت معى محمد بك زكى بعد أن استحضرت له رقعة دعوة وكان بمعية البرنسين عباس ومحمد على عند زيارتهما لباريس فى هذا الوقت — بعد أن آوى البرنسان إلى فراشيهما — فعرفته بصاحبة الدعوة ، وببعض معارفى من سيدات ورجال فرنسيين وغيرهم وبينهم الآنسة أوليف وود وارد التى سبق أن تعرفت بها، وقدمتنى صاحبة الدعوة لعائلة المسيو كوتتال ومدام أوليڤييه. وقد رقصت معها.

كما تدين تدان ! . ولما رأت الآنسة وود وارد زكى بك يقف وحيداً لا يرقص سألتنى عنه فأجبتها : إنه لا يعرف الرقص . فقالت : ولكن لا يليق تركه على هذا النحو ، ومع أن العادة تقضى أن يدعو الرجل المرأة الى الرقص معه إلا أننى فى هذه الحالة الخاصة سأدعوه الى الرقص معى . فلما دعته الى الرقص امتنع معتذراً ، ولكنها أصرت فاضطر لاجابتها ورقصت معه رقصة الكادرى وهى رقصة سهلة لأنها عبارة عن حركات بسيطة بأشكال متنوعة . فكانت تقوده بدلا من أن يقودها ، ولكنه فى أثناء ذلك كان يحدجنى حانقاً ويشير إلى منذراً ظناً منه أننى أغريت الآنسة به ! !

وبعد انتهاء الرقص دعينا الى قاعة الغناء والعزف على البيانو . فقال زكى بك للآنسة وودوارد : — لم لا تطلبين من شفيق أن يغنى مع أنه مشهور عندنا بجودة الغناء ؟ فتركت ذراعه فى الحال وجاءتنى مسرعة تطلب إلى أن أغنيهم شيئاً ما دمت مغنياً مشهوراً فى مصر ! ! فقهقهت وقلت لزكى بك : — ما هذا الانتقام ؟ وأخبرتها أنه يقصد بذلك الدعابة والانتقام وأنى لم أغن قط ، وقلت لها : — أنظرى إليه كيف يضحك . ولكنها

أصرت وقال هو : — لا تصدقيه . وأخيراً أردت أن أغنى ولكنى فى هذه اللحظة نسيت كل الأغانى لشدة حيرتى وخجلى ، ولم يسعنى إلا أن أترنم بالنشيد الخديوى :

يا ربنا . احفظ لنا خديوينا . حامى الوطن . . . . الخ

وأنا فى غاية الخجل والارتباك

ثم رقصت ابنة وصيفة مدموازيل ميزون رقصاً اسبانيولياً بالساجات ، صفق لها الحاضرون كثيراً

وبعد أن تناولنا من المقصف الفخم ما طاب لنا رجعنا الى صالة الرقص ورقصنا « الكوتيُّون »[1]

مكافاة . ومن ضمن ألعاب « الكوتيُّون » أن أجلست مدموازيل وود وارد على كرسى ثم أتيت بشابين أعطيت كل واحد مريلة ملفوفة وأفهمتهما أن الذى يحل مريلته ويلبسها قبل الآخر يكافأ بالرقص مع المدموازيل الجالسة على الكرسى . فقبلا ، وتصادف أنهما لبسا مريلتيهما فى آن واحد واحتارت وود وارد مع من ترقص وكل منهما يدعى أنه السابق فنهضت من مكانى وفرقت بينهما وأخذتها من وسطهما ورقصت معها . فضحك المتفرجون وصفقوا لى استحساناً لهذا الحكم

ولعبة أخرى وهى أن الشاب يجلس التى ترقص معه على كرسى ويعطيها مرآة ثم يمر الشبان الآخرون من ورائها واحد بعد واحد وتنظر وجوههم فى المرآة فالذى تريده أن يرقص معها تشير له برأسها ، والذى ترفضه تمسح المرآة بمنديلها عند رؤية وجهه فيها . فلما أجلست مدموازيل وود وارد جئت بكل الشبان وكانت ترفضهم فجئت أخيراً فقبلتنى ورقصت معها . أما المرفوضون فكانوا يتبعوننا بالقفز برجل واحدة . وبالاختصار فانها كانت ليلة بهجة وكان المقصف « البوفيه » مفتوحاً طوال السهرة التى استمرت الى الفجر

ورجعنا الى باريس بواسطة عربات كبيرة أعدت لنا وكنا جميعاً فى حالة سرور عظيم وبعضنا يلبس طراطير من الورق أخذها من هدايا « الكوتيون » والبعض يضرب بالمزمار الصغير الذى حازه من الهدايا

وقد دعيت مراراً عند المدموازيل فى سهرات جميلة

---

(١) تمتاز رقصة الكوتيون بأن تأتى ربة الدار بهدايا صغيرة كالورود والنياشين والمراوح وغيرها فتوزع تارة على الشبان وطوراً على الفتيات فيقدم الشاب هدية لمن يريد الرقص معها فيكون ذلك اشارة إلى وقوع اختياره عليها وميله لها والعكس بالعكس لهدايا الفتيات

أسرة كونجسفورت . فى يوم ٢٠ فبراير سـنة ١٨٨٧ ذهبت عصراً إلى منزل آل كونجسفورت حيث كان مسيو دولسبس قد استحضر لى دعوة ، فاستقبلنى مسيو پيات الذى تعرفت به عند شارل دولسبس وهو صهر المسيو كونجسفورت وقدمنى لربة الدار وأدخلنى الى بهو الرقص . وكان به كثير من الأطفال بين الثالثة والعاشرة بنين وبنات فى أزياء مختلفة على نحو الأزياء الفرنسية القديمة والأزياء الأجنبية ؛ فمنهم زوج — صبى وصبية — يرتدى الزى الأرناؤوطى ، وزوج آخر يرتدى الزى الجزائرى ، وصبى فى هيئة نابليون وهكذا .

ثم حضر المسيو فرديناند دولسبس فلما لمحنى سلم علىَّ وقدمنى لربة المنزل أيضاً وعرفنى ببعض المدعوين . ومع أن الرقص كان للاطفال فان مسيو دلسبس افتتحه بالرقص مع احدى السيدات ثم تبعه أولاده فرقصوا رقصة «مونويه» فأعجب الحاضرون بهذه الرقصة وصفقوا لهم استحساناً

وعند الانصراف أخبرتنى ربة الدار أن يوم استقبالها هو كل يوم أحد ، فحييتها شاكراً . وبقيت صلتى بهذه العائلة وثيقة فكنت أتردد على منزلها ، ومن ذلك أنه فى يوم ٢٩ فبراير سنة ١٨٨٨ دعيت لحفلة رقص يرتدى فيها المدعوون أزياء غريبة فراق لى أن أرتدى لباس شيخ ، وذهبت الى الشيخ احمد عمران مدرس اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية فاستعرت جبة وقفطانا ومركوبا أحمر وعمامة . وضعت عليها شريطا من القصب وذهبت بهذا الزى وما كدت أبدو فى المكان حتى دوت عاصفة من الضحك والتصفيق ، ثم رجانى الحضور أن أرقص مع طفلة لا تزيد عن ست سنوات فكان منظراً عجيباً اذ غرقت الفتاة فى اكمامى الطوال وأخفتها الجبة فى طياتها . وقد خرجت من هذه الحفلة والسرور ملء نفسى

اسرة بيات . فى يوم ٣ مارس سنة ١٨٨٧ زرت مسيو بيات — وكان فيما سبق كاتب العقود الرسمية بباريس — فى منزله الجميل الذى يدل على سعة ومقدرة صاحبه ، فقابلنى بالترحاب هو وزوجته ، واطلعنى على مكتبته الهائلة النفيسة التى تحوى مجلدات قيمة ومن ضمن الموجود بها كتب عربية وفارسية نفيسة وعنده نسخة من القرآن مكتوبة بخط جميل. وتعرفت عنده بالكاتب المعروف المسيو «پول دوپوامِّى» حضر حرب العرابيين ورافق الحملة الانجليزية بصفة مكاتب لجريدة الوقت «لوطان» .

وقد تحادثت مع زوجته مدام بيات التى كانت زارت مصر مع زوجها وقد زعمت انها رقصت مع الخديو توفيق أيام كان ولى عهد فى حفلة أقامها الخديو اسماعيل .

وبقيت صلتى بهذه العائلة وثيقة والزيارات تتوالى ، وقد دعيت عندهم فى ١٤ فبراير سنة ١٨٨٨ فى حفلة راقصة فقدمتنى مدام بيات إلى كريمتى مسيو « ايرن » أحد اقرباء دولسبس ، وهما فتاتان جميلتان رقصت معهما عدة رقصات ، وفى هذه الحفلة تعرفت بأسرة « بيهون » وكان قد سافر إلى مصر لبعض شئون تخص قناة السويس فقدمنى الرجل لأبنته التى رقصت معى رقصة « الكوتيون » وهى فتاة مرحة لعوب رغم صغر سنها فداعبتها وداعبتنى .

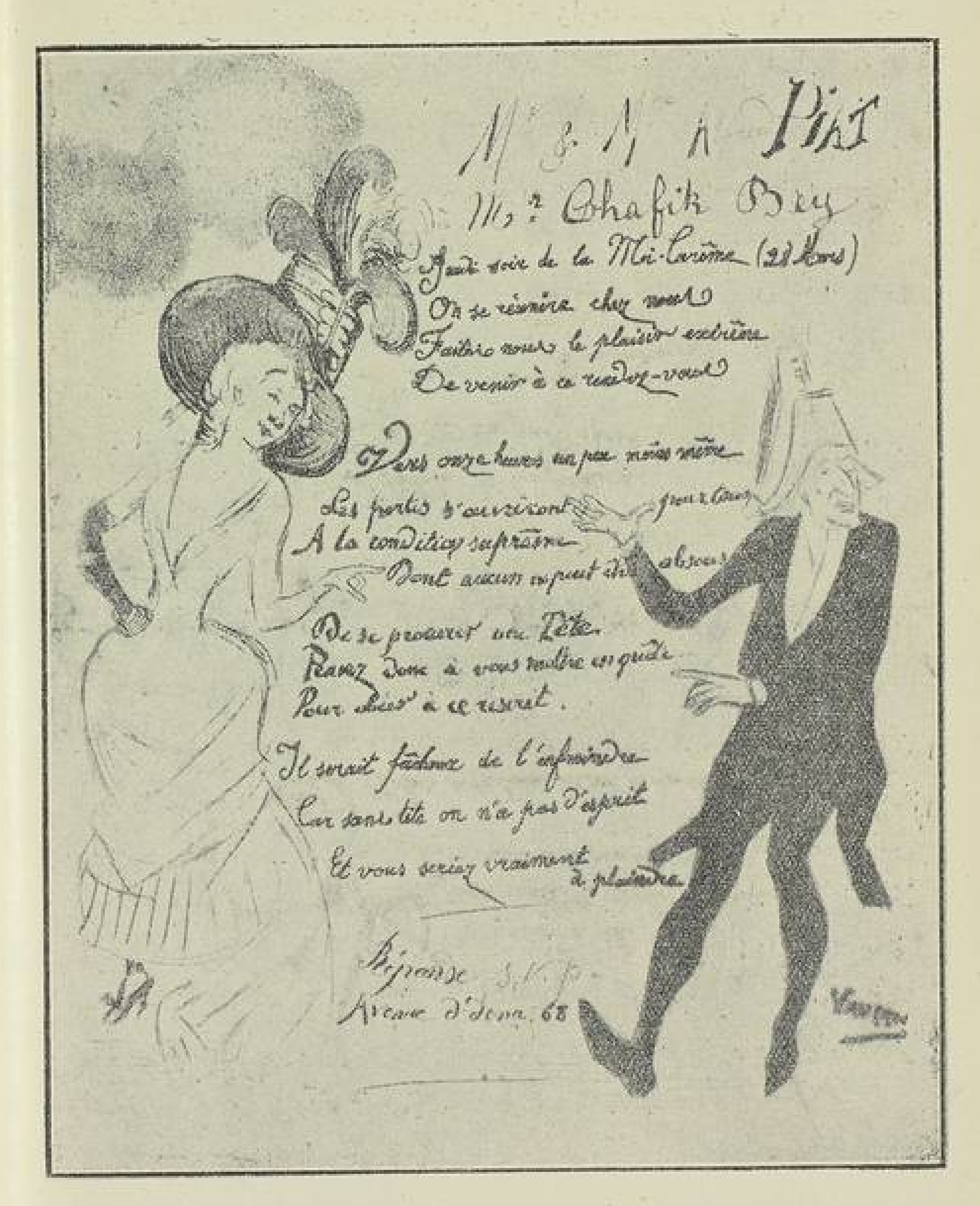
وشهد هذه الحفلة كثير من الرجال والنساء والأطفال فى أزياء الهنود والسودانيين والمصريين والصينيين وغيرهم من الأجناس المختلفة أما أنا فقد كنت بالطربوش والسترة الأسلامبولية .

ورقصت احدى بنات صاحب الدعوة ، وهى فى نحو الخامسة ، فصفق لها الحاضرون لما أتته من ضروب المهارة والدلال واستعادوها للرقص مرات .

وفى ٢٨ مارس سنة ١٨٨٩ دعيت إلى حفلة عند هذه الأسرة وكان المدعوون بملابس السهرة ولباس الرأس فقط على أشكال مختلفة ، وكنت قد ارتديت السترة الاسلامبولية وضعت على رأسى عمامة ، وبعد الغناء والعزف على البيانو ابتدأ الرقص فرقصت مع مدام كونجسفورت والمدموازيل ميزون وكانت تضع على جبينها منديلا حريرياً مقصباً على الطراز المصرى . وقد وقعت لى معها نكتة لطيفة ؛ ذلك أنها أعطتنى مروحتها حينما رأتنى متبرماً بالحر وبعد أن روحت بها لحظة رددتها اليها شاكراً ومستفهما عما تريد أن أكافئها به وهل تقبل منى نقطة عطر مصرية ؟ ثم أخرجت زجاجة العطر واعطيتها قطرة منها على يدها فشكرتنى .

وكانت هذه الحفلة فى منتهى البهجة .

أسرة كوتتال . وهى من الأسر الغنية الراقية تعرفت بأفرادها عند مدموازيل ميزون ، وهى مكونة من مسيو كوتتال وزوجه وابنتهما ازابل . ولهذه الأسرة قصر بحديقة صغيرة فى حى راق وهو « پارك منسو » وكنا نتردد أنا وابراهيم بك فى أيام استقبالها ومن ذلك أننا ذهبنا فى يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٧ لزيارتها فاستقبلتنا هى وابنتها



M. & M. A. Piat
M. Chafik Bey
Jeudi soir de la Mi-Carême (28 Mars)
On se réunira chez nous
Faites-nous le plaisir extrême
De venir à ce rendez-vous

Vers onze heures un peu moins même
Les portes s'ouvriront pour tous
A la condition suprême
Dont aucun ne peut être absous

De se procurer une Tête
Pensez donc à vous mettre en quête
Pour obéir à ce décret.

Il serait fâcheux de l'enfreindre
Car sans tête on n'a pas d'esprit
Et vous seriez vraiment à plaindre

Réponse S.V.P.
Avenue d'Iéna, 68

صورة دعوة عند مسيو ييات — ليوم ٢٨ مارس سنة ١٨٨٩

الحسناء ، ثم حضر المسيو كونتال . ومن الغريب أنه رغم كبر سنه كان يحنى على ارتياد المراقص ولقاء الحسان ، وكان يظهر لى الرغبة الشديدة فى مرافقة ابنته فى حفلات الرقص ويشوقنى للرقص معها . ولما كنت اعتذر بعدم معرفتى بصاحبة الدعوة كان

يأتيني بدعوة منها ويقول لى هلا تحب أن ترقص مع كريمتى الحسناء؟ وبهذه الوسيلة كنت أمتثل لقوله

وكان يظهر لى من كل ذلك أنه يريد أن يزوجنى من ابنته

واستمرت صلتى بهذه العائلة ممتدة حتى جاءنى فى ذات يوم خطاب من مدام كوتتال تدعونى فيه اليها للاستفهام عن بعض أمور خاصة ، فزرتها فى يوم ٥ ديسمبر سنة ١٨٨٧ حيث قابلتنى فى غرفة ابنتها وأعلمتنى أن السبب فى دعوتى هو أن الدكتور صالح صبحى الذى سبق له التردد على الأسرة بعد أن عرفته بها طلب أن يتزوج ابنتها فلم تقبل نظراً لاختلاف الأديان والطبائع . ثم أخذت تحدثنى عن شئون ابنتها وأرتنى معبدها الصغير المقام لها فى هذه الغرفة وقد فهمت من ذلك ومن عنايتها بى أنها تريد أن توثق الصلة بينى وبين ابنتها لأتزوجها . ولما ان زرتها فى يوم ٢ فبراير سنة ١٨٨٨ قدمت مجموعة من العملة المصرية من الفضة والنيكل والنحاس لابنتها فسرت بذلك أيما سرور وقدمت المدموازيل لى هدية مماثلة عبارة عن قطعة من ذات السنتيم وأخرى من ذات السنتيمين من النحاس مما يندر وجوده وأظهرت لى رغبها فى اقتناء كتاب ميشيل أو سترجوف فاشتريته وقدمته هدية اليها فتقبلته شاكرة ومسرورة . وفى زيارة أخرى سألتنى مدام كوتتال عما إذا كنت أعرف شيئا من الديانة المسيحية وقدمت إلى كراسة ايزابل فى هذه الديانة لأطلع عليها وأبدى رأيى على ما جاء فيها ، وكان جهد مدام كوتتال أن اتنصر كى أتزوج ابنتها . وبعد أيام رددت الكراسة وأبديت رأيى فيها واستفهمت عن بعض المواضع الدقيقة فأجابتنى بأنها من خصائص القساوسة

وفى يوم ٦ مايو سنة ١٨٨٨ ذهبت مساء لزيارة هذه الأسرة أنا وابراهيم بك بدعوة منها لتناول العشاء فوجدنا بعض السيدات والرجال وكان معنا عبد الله الطباخ وكنا قد اشترينا كنافة وضعناها فى صينية ولم يبق إلا إنضاجها فلما وصلنا وكلنا إحدى الخادمات بعبدالله لتذهب به إلى المطبخ . ومما يضحك أننا علمنا أن هذه الخادمة اظهرت ميلها إلى الطاهى فاهدته وردة ، وهكذا لكل ساقطة لاقطة

وكنت أجلس على المائدة بجانب الآنسة ايزابل ، وبعد تناول الطعام والاستراحة قمنا للرقص فأخذت بذراعها . وكان بين المدعوين قس عليه وقار وله هيبة ، واثنان من طلبة المدرسة الحربية الفرنسية أحدهما أخو المدموازيل فى الرضاع ، وكان هناك أيضاً

شاب ذو لحية علمت أنه يعطى دروساً للآنسة وربما كان مرشحاً للزواج بها. وبعد الرقص ابتدأ فصل الغناء والعزف على الآلات الموسيقية والبيانو ، ولما طلب بعض الحاضرين من ايزابل أن تسمعنا قطعاً موسيقية على البيانو تمنعت خجلا واحمر وجهها ، وكانت آية فى الجمال فألحوا عليها فلم يفلحوا . فجاءنى والدها وطلب منى أن أرجوها فلبت رجائى وصفق لها الحاضرون

وفى يوم ٢٠ مايو سنة ١٨٨٨ زارنا أخ الآنسة كوتتال فى الرضاعة وتناول طعام العشاء معنا ثم ذهبنا جميعاً الى احد الملاهى فمكثنا هناك إلى الساعة التاسعة . ثم ركبنا عربة وأوصلناه الى محطة « مونبرناس » للرجوع الى مدرسته فى ضواحى باريس. وبعد ذلك بيسير من الزمن زرت أسرة كوتتال مع ابراهيم بك والدكتور صبحى وقدمت الى مدام كوتتال صورتى والى ابنتها نوتة موسيقية فيها سلام الخديو وسلام عباس بك ومارش السلطان فسرت بها كثيراً ، ثم أرتنى الوالدة نماذج من شعر ابنتها منذ ولادتها حتى اليوم محفوظة بتواريخها. وكذا مجموعة من صورها منذ الطفولة مرتبة بحسب السن وشيئاً من الملبس المحفوظ من يوم تدشينها لتأكله مع عريسها فى المستقبل. وأرتنى أيضاً أول زهرة اشتغلتها بيدها فأعجبت بهذه العناية وذلك الحرص على حفظ الذكريات العزيزة

مدام أوليفييه . هى سيدة رشيقة فى سن الأربعين توفى عنها زوجها منذ سنوات وكان جنرالا فى الجيش الفرنسى أقامت معه فى الجزائر عدة أعوام وقد تعرفت بها كما سبق عند المدموازيل ميزون وفى احدى مقابلاتى لها عند صاحبتها دعتنى لزيارتها فى يوم ٢ فبراير سنة ١٨٨٨ فلما ذهبت الى منزلها ألفيته فاخر الأثاث والمظاهر وكانت بمفردها فاطلعتنى أولا على كثير من الصور الزيتية والتماثيل الدقيقة التى تزين المكان ومنها صور شرقية كثيرة . ثم تجاذبنا أطراف الحديث عن الشرق وعادات أهله سواء فى مصر أو فى الجزائر ولا سيما عن تقاليد الزواج وكنت أرى منها شغفاً كبيراً لمعرفة الدقائق التفصيلية التى تحيط بهذه التقاليد لا سيما « الدخلة » ودخائلها

وبعد أن أمضينا فى هذه الأحاديث مدة من الزمن استأذنت فى الخروج وبينما أنا كذلك لاح تمثال صغير لسيدة جميلة فوق رف وهو دقيق الصنع لدرجة تلفت النظر فسألتها كيف تنظف هذه التماثيل من الأتربة الناعمة التى تتردى فى ثناياها فابتسمت عندئذ ولطمت خدى بلطف قائلة: «بسفليه»؛ وهى كلمة لها معنيان «المنفاخ» و«الكف» ثم ضحكتُ وضحكتْ فرابنى المعنى الذى قصدته وخشيت أن يكون شركا أقع فى حبائله وأنا طالب ولا مال لى

وفى يوم ١٠ فبراير سنة ١٨٨٨ استصحبت معى ابراهيم بك وذهبنا لزيارتها مرة أخرى فوجدنا عندها سيدة عرفتنا بها وهى مدام امبرتون .

وفى أثناء حديثنا علمت مدام أوليفيه أن عندنا طاهياً مصرياً وطلبت أن نرسله لها يوماً لعمل طعام « الكسكسى » الذى تميل اليه من عهد إقامتها فى الجزائر فارسلناه لها فى اليوم التالى .

الكونت دونار سياك . عرفنى به المسيو جرى فى دعوة غذاء . وكان ذلك فى يوم ٢٠ نوفبر سنة ١٨٨٨ ثم حضر الكونت وزوجه فدعوانى لزيارتهما فى قصرهما وفى صباح ٩ ديسمبر سنة ١٨٨٨ سافرت مع مسيو جرى الى جرانسير وهناك وجدنا عربة فى انتظارنا فركبنا إلى قصر جرمانيا ، قصر الكونت ، وهناك دخلنا الى بهو شاسع بديع التنسيق فقوبلنا بالترحاب وتناولنا طعام الغذاء ، وكنت بجانب الكونتس وبعدئذ خرجنا للصيد بعد أن ألبسنى مسيو جرى ملابس الصيد ، ورافقنا الكونت والحارس ينفخ فى بوق أنغام الصيد ، وابتدأنا فى ميدان خاص من الغابة لا يؤمه سوى أخصاء الكونت ثم انتقلنا إلى الميدان العادى . وكان مجموع ما صيد تسعة طيور من طير الفراخ الغيطى « فيزان » ، وهو طير ذو ريش جميل وبعد أن تناولنا طعام العشاء هممنا بالعودة فأعطى الكونت كلا منا فرخا مما صدناه وإن كنت فى الواقع لم أصد شيئاً ولم يكن نصيبى من الرحلة إلا لبس ثياب الصيد ومرافقة الصيادين وأخذ الفرخ فى النهاية !!

**الطبقة المتوسطة .** تعرفت من بين سيدات الطبقة الثانية بكثيرات أذكر منهن :

مدام امبرتون . وهى سيدة فى منتصف العمر ولكنها ميالة إلى الخلاعة والغزل إذ أنها كانت قبل زواجها تشتغل بالتمثيل فى باريس . ويجتمع فى منزلها كثير من الأدباء الفنانين على اختلافهم من فرنسيين وأجانب ، وهى تقطن بالقرب من كنيسة « سانت جوستان » وزوجها صاحب مصنع للزجاج الثمين ذهبت بناء على دعوة منها فى يوم ١٥ فبراير سنة ١٨٨٨ وكانت الدار حافلة بكثير من المدعوين والمدعوات يتسامرون ويسمعون الأغانى التى كان يوقعها بعض الرجال والنساء على الآلات الموسيقية مما يجعل للاجتماع روحاً جميلا ويسبغ السرور والابتهاج .

ولقد أدهشنى منولوج ألقاه أحد ظرفاء الفرنسيين يمثل التعارف بين الرجل والمرأة والمغازلات وما ينشأ عنها . . . . كل ذلك بأسلوب رشيق تتوارى خلفه صور واضحة للأدوار التى تبتدىء بالتعارف وتنتهى بما تنتهى اليه مستورة بستار رقيق . وكان هذا

يبدو بالنسبة لشرقى مثلى كانه نقص كبير فى الأخلاق ولكنى عرفت بعد ذلك انه من الأساليب الظريفة التى يسمح بها المجتمع الفرنسى حتى ويعدها مهارة . وكانت السيدات يحجبن وجوههن خلف مراوحهن ويضحكن عند كل نكتة من المنولوج . وقد حضرت عندها حفلة رقص فى ٣٠ مارس سنة ١٨٨٩ وزرتها زيارة الوداع فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٨٩

ولكى يتصور القارىء المصرى مرونة المجتمع الباريسى وقبوله لأمثال هذه الملح أذكر أن أحد زملائى فى المدرسة أطلعنى على عدد من المجلة المصورة المسماة الحياة الباريسية ( لافى باريسين ) فلما تصفحتها زادت دهشتى عند ما وقع بصرى على صور ست فتيات بيد كل واحدة منهن الحليون[1] وتحت كل صورة توضيح لها لكيفية تذوقه بالطريقة التى تشتهيها .

ولا أزيد ذلك تفصيلا لأن المقام لا يسمح بكشف المستور ...

وهاك أنموذجا من قطعة مترجمة عن الفرنسية تدلُّك على لون من الأدب الفرنسى:

## حسرات زوجة محامى

لزوجى الأستاذ جريلو عهدت لسوء حظى بقضيتى . وهو يتظاهر بالكفاءة مختالا وقد قال لى : سأجعل منها نصيبى . آه : أى وعد جرىء ، إذ منذ تسلم القضية تأكدت من الفشل لأنه يسوف دائماً .

قضيتى التى جئت بها مهراً لم يمسسها أحد بعد . ولم نكد نخلو حتى تصفحت الدوسيه بأصابعى . ولقد خيل لى أن عباراته المتأججة ستفتح الآفاق أمامى . ولكن لقد غرد النسر كعصفور ! ! فالتسويف ديدنه .

فى كل يوم أطرح هذه المسألة على بساط البحث . وأخرج من غلالتها مستندات الأقناع ولكن طريقته شاذة ولا يستطيع أن يكون له رأيا . ومهما فعل يظل ضئيلا ثم يطلب التأجيل . ومع ذلك فأننى أساعده ، فأحثه وأشجعه ، وأنبح صوتى فى الصباح والمساء ؛ أهتف له عالياً ومن المنبر الرحب أدله على الطريق بغير طائل وألمسته نقطة الدفاع ولكنه يتراخى .

هيا بنا . . . كن شجاعا ، تقدم الى المنبر شامخاً ، واعتن بالاستهلال ، وطارد ودافع

(١) أسبرج بالفرنسية ، قوش قونماز بالتركية

وترافع فى الموضوع ثم . . . خاتمة مستفيضة ، واتبه بحجة بليغة . ولكنه يبقى على الحواشى طالباً التأجيل !

وزوجى يسحب معه شاهدين قد تكمشت بشرتهما ، لا يفيدان فى الموضوع شيئاً ؛ فهما رخوان لا حراك بهما ، فليس لديهما — وهذا واضح — ما يمكن أن يمداه به من حجج ، فهو يودع المستندات خجلا ثم يطلب التأجيل .

ودوسيه قضيتى كان يمكن أن يبقى بكراً حتى الآن ، لو لم أستشر فى هذه القضية محامياً تحت التمرين ، صغيراً متحمساً ذا صوت ذهبى . فبفضل قريحته الوقادة التى تعرف تماماً كيف تجد همزة الوصل أستطيع أن أحتمل زوجى . . . الذى يطلب التأجيل دائماً !!

البارونة دى رتال . ووقعت لى أثناء وجود البرنسين بباريس فى سنة ١٨٨٦ قصة مع سيدة عرفتها ، من نوع الغزل الروائى فقد حدث ذات ليلة فى جراند أوتيل حيث نزل البرنسان ، أننى كنت مع محمد بك زكى فى غرفة على جمال باشا — وكان بصحبة البرنسين — فلمحنا من النافذة سيدة حسناء ذات قد مياس وجسم معتدل وملبس فخم وجواهر ثمينة فى شرفة أمامنا فاتصلنا بها عن طريق الاشارات ومضينا ليالى فى طريق المغازلات الصامتة وقد عرفنا منها اسمها ونمرة مسكنها بواسطة الكتابة على زجاج نافذتها وإنارتها من الخلف حتى تظهر على مثال الواجهات والاعلانات المضيئة . ولكنا لم نوفق الى لقائها أثناء وجود البرنسين لضيق الوقت

فلما سافر البرنسان ذهبت إليها وتعرفت بها وكنت على أهبة السفر لرحلة صيفية فوعدتها بالزيارة بعد رجوعى وتركت لها عنوانى ، وقد علمت أنها مجرية الأصل وأنها كانت زوجة لأحد رجال السياسة فى المجر ثم جاءت الى باريس لأنها مهبط ربات الجمال

ولم أتمكن من زيارتها بعد رجوعى من السفر حتى كان يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦ حيث وصلتنى منها برقية تقول فيها . إنها تظن أننى حضرت من السياحة واذا كان الأمر كذلك فلماذا لم أذهب لمقابلتها . وعلى ذلك ذهبت فى يوم ٢ أكتوبر سنة ١٨٨٦ فقابلتنى باشة وسألتنى عما وقع لى فى سياحتى فقصصت عليها طرفا مما شاهدته فى دييب ولندن ولما خرجت تمشت معى وصيفتها وتدعى مدام « لتك » ، وحدثتنى بأن البارونة كانت تذكرنى كثيراً أثناء غيابى فأبديت لها شكرى على هذه العناية — ولا عجب فانها لما علمت بمرافقتى للبرنسين ظنت أننى من الأغنياء فعمدت الى استمالتى لها بكلام وصيفتها

وبعد ذلك بأيام قلائل عدت لزيارتها وأهديت لها مقداراً من السجاير المصرية ودعوتها لتناول الطعام فى منزلنا فلبت الدعوة وحضرت فى يوم ١٦ أكتوبر مساء

فاستقبلتها مع ابراهيم بك بالترحاب وإظهار السرور لحضورها وكانت أوصتنى بتجهيز شىء من لحم العجول والتوابل « البهارات والشطة » وكانت كلها جاهزة فصنعت بنفسها طعاما مجرياً من ذلك يسمى « الجلاش » وقمت أنا بدور صبي الطاهى « مرمطون » ثم أكلنا وشربنا وبعد المسامرة وتمضية بعض ساعات سرور معها أهديت اليها منديلا حريرياً نقشت عليه صورة قصر البللور بلندن، وكنت اشتريته خصيصاً لذلك، تذكاراً لسياحتى ثم رافقناها إلى سكنها. واستمرت صلتى بها حتى كان يوم ٢١ مارس سنة ١٨٨٧ حيث زرتها فوجدت لديها شخصاً يلقب بالكونت وهو يقدم اليها فى الظاهر بعض مؤلفات موسيقية ولكن الحقيقة أن الكونت كان يتردد عليها لمسائل خاصة قد تعد غريبة فى نظرنا نحن الشرقيين ولكنها عادية فى بلد كباريس. والواقع أن الكونت كان يتوسط بينها وبين إيطالى مثر يرغب فى الحظوة بها ويقنعها بأن تقبل مبلغاً أقل مما تطلب، وقد أخبرنى هذا الكونت عن فتاة فى السادسة عشرة يبحث لها عن أحد الأغنياء وقال لى فى عرض حديثه عنها: إذا كنت تملك اثنى عشر ألفاً من الفرنكات فاننى أعطيك عنوانها فى الحال. ومثل هذه الحوادث تكشف ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية فى باريس. وفى أحد الأيام وصلتنى من البارونة دعوة لتناول طعام الغذاء فلما وصلت وجدتها فى سريرها بلباس النوم فهشت وبشت فى وجهى وقبلتنى قبلة عرفت مغزاها ! وبعد قليل حضر الطعام ثم ابتدأت المغازلة التى عرفت منها أنها مصممة على اقتناصى اليوم، ولما أعلمه من النتيجة التى لا أقوى عليها حصل لى انكماش فدهشت وقالت لى: إذن فان حبك لى بعيد عن الشهوة ! « بلاتونيك » وكانت هذه آخر زياراتى لها

أنا لابلانتية . فى مساء يوم ٨ مارس سنة ١٨٨٧ زارنا الدكتور صالح صبحى ومعه فتاة عليها مظاهر الريف معتدلة القامة بوجه لا بأس به غير أن حواجبها خفيفة، وكانت فى سن الثمانية عشر تقريباً، وقصتها تتلخص فى أنها جاءت الى باريس فى نفس المساء فلقيها فى الطريق ورأى أحد السفلة يتعرض لها فرده عنها وطمأنها. وكان ذلك بالقرب من منزلنا فاصطحبها الينا. وكانت معلمة فى بلدتها ولكن أسرتها أرادت أن تزوجها كرهاً بمن لا ترغب آثرت الفرار إلى باريس. وقد دعوتها للبقاء معى كصاحبة فلبت الدعوة وأقامت عندى تساعدنى فى أعمالى الدراسية

وقد بقيت معى حتى حضر والدها إلى باريس بعد أن علم أنها تقيم عندى ونزل فى أحد الفنادق وأرسل إليها يطلب مقابلتها فذهبت إليه وحادثها فى شأن رجوعها معه فأبت وعادت فأخبرتنى. ولكنى لم أشأ أن يحرم أهلها منها فنصحتها بالعودة مع أبيها

وأفهمتها أنى أتممت دراستى وسأغادر فرنسا وأخشى ان بقيت فى باريس ان تسقط فى مهاوى الرذيلة . ثم هدأت روعها وأعطيتها شيئاً من المال فقبلت نصحى وعادت إلى أسرتها فى يوم ٢٢ يوليه سنة ١٨٨٧

مدموازيل مارتان . كنت قد تعرفت بها عند مدام أمبرتون ، وهى احدى الممثلات الباريسيات متوسطة الجمال ومن مزاياها أن الموجود معها لا يمل مؤانستها . وقد دعتنى لزيارتها بعد هذا التعارف ، وكانت تقطن بشارع الأوبرا فى الطابق العلوى ، فأجبت دعوتها وهناك اسمعتنى قطعاً وقعتها على البيانو وامضيت معها ساعتين ، وبعد ذلك طلبت منى أن أحضر فى تياترو النوفوتيه حيث تمثل هى دوراً فى رواية جديدة لابدى استحسانى لها مع بعض أصحابى أثناء ظهورها على المسرح فوعدتها بالذهاب

وفى المساء استصحبت بعض الأصدقاء وأخذت باقة لطيفة من الزهور قدمتها لها فى أثناء التمثيل وصفقنا لها استحساناً وتشجيعاً

وقد تعرفت بكثيرات غير من ذكرت من الطبقة المتوسطة لا أرى داعياً كبيراً لتسجيل حوادثهم

**الطبقة الدنيا** . والآن بقى أن أصف شيئاً من حالة الطبقة الثالثة بذكر بعض حوادثها ؛ من ذلك أننى زرت مرقصاً فى حى مونمارتر — المشهور بمحال اللهو والخلاعة — وصفه لى أحدهم فوجدت المكان فى ذاته مقبولا وان الحضور فيه من الطبقة الدنيا ، وكان ثمت بعض الفتيات الحسان فى ملابس بسيطة ، وقد سألنى الذى أشار علىّ بزيارة هذا المرقص عن رأيى فيه فحدثته بما تقدم وعلى ذكر الفتيات سألته عن احداهن استحساناً لها فقال ليتنى كنت معك فأقدمها إليك فعجبت لهذا الشعور الغريب والاباحية المطلقة

وقد كنت أعرف خياطة أعهد إليها بصنع ثيابى الداخلية وكانت جميلة ذات وجه يشوبه أسنان مشوهة . ولما كانت تعلم ذلك فانها تجتهد فى اخفائها قدر طاقتها وكنت كلما أتودد إليها ألقى منها جفاء وخشونة لا أدرك سببهما ، وقد ادعت ان ضابطا كبيرا خطفها وأسكنها فى قصر وأتى لها بجواهر ثمينة ، وأن آخرين قتلوا أنفسهم فى هواها . وقد عرضت أمر هذه الفتاة على المسيو جرى فى أثناء حديث دار بيننا عن النساء

وطباعهن فأخبرنى ان ملاطفتى لها هى سبب هذا الكبرياء . وقال لى ان النساء كالقطط ان طردتهن جئن إليك وان طلبتهن ابتعدن عنك

**عبد الله الطباخ والخادمات .** اما حديثى عن الخدم فقد كان يقوم بخدمتنا طباخ مصرى يدعى عبد الله كان قد احضره ابراهيم بك معه من مصر ليتولى الطهى لنا . وكان مزوداً ببعض البقول والخضر المصرية الجافة التى يندر وجودها فى باريس. وكان عبدالله ماهراً فى صناعته فارتحنا إلى وجوده غير أن ناحية الخطر التى نخشاها عليه كانت فتيات باريس اللائى من طبقته ، وقد اطمأننا عليه منهن لانه لا يعرف كلمة واحدة من الفرنسية ، ولكن الظاهر ان صاحبنا كان امهر من ان تقف امامه هذه العقبة أو كان اذكى مما حسبناه . اذ ما لبثنا أن لاحظنا عليه التغيب عن المنزل كثيراً وكنا اذا سألناه عن سبب غيابه يعتذر بأنه كان مع البواب . فنصحنا له بالا يغيب الا باذن منا . وفعل بالنصيحة أياماً ويظهر انها كانت أقصى ما استطاع الصبر عليه ثم رجع إلى سابق عهده فى التغيب والأعتذار .

وفى ذات ليلة من صيف سنة ١٨٨٨ عند رجوعنا من احدى السهرات صادفناه فى الطريق وعلى راسه قبعة سوداء عالية مائلة إلى الخلف ( وكان ابراهيم بك اعطاها له ) وإلى جانبيه فتاتان تتأبطان ذراعيه وهو فى حالة نشوة ظاهرة حتى انه لم ينتبه لمرورنا به. ولما أخذنا نتقصى فى احواله عرفنا انه صاحب زوجة البواب مع انها أكبر منه سناً وهى التى طلبت منه ان تتحقق من ان جميع اجزاء جسمه سوداء مثل وجهه !!؟ وبعدها تعرف ببعض الخادمات فى نفس المنزل الذى نسكنه . وقد حدث له فى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٨ أن تعدى عليه أحد الفرنسيين بأن ضربه بسلطانية شوربة فى وجهه فجرحته جرحاً بالغاً ومزقت فمه فعالجناه حتى شفى، وقد عوقب من ضربه بالسجن شهرين من المحكمة فى جلسة أول فبراير سنة ١٨٨٩

عندئذ قررنا ارجاعه إلى مصر وسلمناه لشركة كوك لتوصيله واستبدلناه بخادمة فى متوسط العمر فأخذت هذه تبدى لنا من مظاهر الحنان ما لا يبدو الا من والدة . وكانت تظهر لنا انها أمينة ومقتصدة .

ولكن فى آخر الشهر وجدت ان المصروف أكثر من المعتاد فلاحظت عليها ذلك. وكان جوابها ان هذا بسبب الدعوات الكثيرة التى كنا نقيمها لاصدقائنا فاجبتها بان هذه الدعوات ليست جديدة علينا وانها كانت كذلك فى الشهر الماضى . فوعدتنى بزيادة التدقيق

وفى الشهر التالى كانت نتيجة التدقيق زيادة المصروفات عن الشهر الأول فانذرتها باخراجها من خدمتنا اذا ظلت على هذا النحو .

وفى ذات يوم هبت زوبعة فسمعت فرقعة فى نافذة المطبخ فلما ذهبت لغلقها لم أجد الخادمة هناك ووجدت دفتراً صغيراً ملقى على الارض دفعه الهواء من الرف فظننته فى مبدأ الأمر دفتر الخباز ولكنى دهشت حينما فتحته وقرأت فيه تحت عنوان ( مكسب الشهر ) حساباً يومياً لهذا المكسب والجملة فى كل عشرة أيام والجملة العمومية فى آخر الشهر وهى تتراوح بين ٣٠ و٣٥ فرنكا .

مع ان مرتب الخادمة الشهرى هو ٤٠ فرنكا فقط ! — أردت أن اتبين ما اذا كان هذا المكسب من نفقاتنا نحن فلاحظت انها لم تكسب فى يوم احد . ولما رجعت إلى مذكراتى علمت اننا فى هذا اليوم كنا مدعوين عند مسيو ريشبورج الروائى الشهير فى ضواحى باريس ، واذ ذاك تأكدت من خيانة الخادمة . ولما سلمتها الدفتر وسألتها عن هذا (المكسب) ادعت ان لها دكاناً وان مكسبها منه . ولكنى لم اقتنع بقولها وطردتها. وكانت طوال مدة اقامتها تأتى كل صباح بسبت صغير تدعى ان به اشغالا يدوية تعملها عند خلوها من العمل ولكنها كانت فى الواقع تحمل فيه ما يتبقى من طعامنا .

# الفصل الخامس

## المصريون فى باريس

**تكريم المسيو مزمر . البرنس عباس ومحمد على . البرنس حسين كامل الصغير . قصة النبيذ . سفير تركيا وحكمه عن اسماعيل . سمكة أول ابريل . الطالب برهوت . يوسف طلعت ( باشا ) . الشيخ احمد عبد الرحيم وابنته . على بك شاهين . مأدبة مصرية . بروسالى . بطرس غالى باشا . طلب مبارزة بين مصريين . السيد توفيق البكرى . وفد مصر لمؤتمر المستشرقين . أوامر خديوية**

---

اتفق لى بالطبع أثناء وجودى بباريس ان اتصل بمعظم المصريين الذين يؤمونها وغيرها سواء للدراسة أو للزيارة وان أقف على طرف من أخبارهم وأحوالهم وقد قيدت بعضها فى مذكراتى

**تكريم المسيو مزمر** . كان المسيو مزمر ـ كما قدمت ـ مدير البعثة المصرية، ولكنه أقيل من منصبه فى هذه الأيام ، فاجتمعنا ثمانية عشر طالباً مصرياً وقررنا دعوته لتناول العشاء معنا رداً على دعواته الماضية لنا ولمناسبة تركه منصبه . وفى الساعة السابعة من مساء يوم ٥ ديسمبر سنة ١٨٨٥ اجتمعنا وجلس الطالب حسين رشدى ( باشا ) على يمين المحتفل به ثم نهض عقب انتهاء الطعام وألقى كلمة أبدى فيها أسف طلبة البعثة لفراق مديرهم وشكرهم له لما بذله لهم من صادق المعاونة والنصح . ثم شربنا نخبه .

ثم قام المسيو مزمر وشكر الجميع على هذه الحفاوة وقال :ـــ « انى من وقت تسلمى الادارة إلى اليوم كنت دائماً أوصيكم بشيئين : التمسك بالدين الاسلامى ، والاخاء فيما بينكم . ثم افهمتكم حسن نية الحضرة الخديوية واهتمامها بتوسيع نطاق التعليم وانكم ستجدونها فى كل وقت سنداً قوياً لكم

أما من ناحيتى فانى أعلم علم اليقين ان انفصالى ناشىء عن دسائس أرمنية (١) ولكن محبتى لذات الحضرة الخديوية لم تتزعزع بسبب انفصالى. ولذا فانى أشرب نخب سموه

ثم قام أحد أعضاء البعثة وشكر المسيو مزمر بالنيابة عن الطلبة فى مونپلييه فأجابه بالشكر ورجاه أن يكتب لهم عن لسانه شاكراً.

وحينما هم مسيو مزمر بالانصراف رجوته أن يسمح لى بكلمة قصيرة بالاصالة عن نفسى وبالنيابة عن زملائى الذين ليسوا من أعضاء البعثة. فقلت: « اننا مغتبطون باجتماعنا حولكم هذه الليلة. ولو أن حالتنا المتواضعة كطلبة لم تساعدنا على اظهار شكرنا كما أردنا. وان النصائح التى قدمتموها لنا والخدمات التى أديتموها لكل منا لشاهد صادق على حسن نيتكم، ولهذا نأسف لانفصالكم عنا جد الأسف لاننا نرى فيكم أباً رؤوفاً »

فشكرنا مسيو مزمر جميعاً وانصرفنا فى نحو الساعة العاشرة.

**البرنسان عباس ومحمد على.** قدم البرنسان عباس ومحمد على نجلا الخديو إلى باريس فى ١٨ يونيه سنة ١٨٨٦. بقصد الرياضة وترويح النفس اثناء عطلة مدرستهما بجنيف فاستقبلتهما وحاشيتهما بالمحطة ورافقتهما إلى جراند اوتيل حيث تناولنا جميعاً طعام العشاء. وبعد ذلك ذهبنا إلى « الادن تياتر » وشاهدنا فيه العاباً مذكورة بفصل الملاهى.

وفى اليوم التالى ذهبت مع زكى بك التشريفاتى الذى كان يرافقهما إلى السفارة العثمانية فى باريس لسابق معرفتى بالسفير، وطلبنا اليه تعيين موعد لزيارة البرنسين له. فعين الغد موعداً، وكان يوم ٢٠ يونيه فقصدت السفارة مع البرنسين عصراً وفى معيتهما الدكتور عيسى باشا حمدى طبيب الخديو الخصوصى ومحمد زكى بك وعلى جمال باشا الذى كان بمثابة مرب لهما، وجلسنا هنيهة مع السفير اسعد باشا ولما استأذنا فى الانصراف قام فودعنا إلى رأس السلم وفى اليوم التالى رد لسموهما الزيارة.

وفى يوم ٢٢ يونيه سافرا والحاشية إلى انجلترا للسياحة ومكثا بها حتى يوم ٢٧ يوليه حيث ورد لى تلغراف من زكى بك يخبرنى بوصول البرنسين إلى باريس فى هذا اليوم فانتظرتهما وعند وصولهما رافقتهما الى جراند اوتيل.

---

(١) يريد بذلك يعقوب ارتين باشا وكيل المعارف فى ذلك الوقت

وقد وقعت فكاهة ظريفة فى ذلك الحين وهى انه لما جاء الطلبة المصريون الذين كانوا فى باريس لزيارة البرنسين كان بينهم الدكتور صالح صبحى وكان ذا لحية مدببة على الطراز الفرنسى النابليونى . ولكنه قبل أن يزورهما رأى أن يقابل الدكتور عيسى باشا لما بينهما من صلة علمية . وكان مع الباشا محمد بك زكى فدارت بينهما هذه المحاورة :

عيسى باشا — وهل تنوى زيارة البرنسين أيضاً ؟

— نعم

— وبهذه اللحية ؟

— أيـــوه

— لا لا ياحبيبى. لا . يجب ألا تقابلهما بها !

— وما المانع يا باشا . هل هى وسخة أو فيها عيب ؟

— لا . ولكنها غير مناسبة . فيجب إزالتها أولا

وهنا تدخل محمد بك زكى فى الموضوع فقال لعيسى باشا : — « واحد شايل دقنه والثانى تعبان ليه » !!

ثم زار البرنسين بعد ذلك مع احتفاظه بلحيته . واخبرهما بما حصل بينه وبين الدكتور عيسى باشا فضحكا كثيراً واستظرفاه . وكان من أثر ذلك انهما كانا يستصحبانه فى بعض جولاتهما مرتاحين إلى نكاته اللطيفة .

وفى أول اغسطس سنة ١٨٨٦ طلباه لمرافقتهما فى رياضة خلوية بضاحية روبنصون، إحدى ضواحى باريس ، فركبنا جميعاً عربة من النوع المسمى ( مايل كوتش ) وهى تستعمل عادة فى الذهاب إلى الصيد أو اللهو وتجرها اربعة خيول ، وكان احد السائقين ينفخ فى بوق صيد موقعاً نغمات الصيد بين حين وآخر ، فكان الدكتور صبحى يرد عليه قائلا « زمر يازيدان . الدرة طابت »

وفى هذه الضاحية شجرة عتيقة مشهورة صعدنا اليها بسلم وتناولنا الغداء فوقها . وهناك سراى ملكية زرناها وشاهدنا ما بها من التحف والنافورات التى تفيض فى حديقتها وهى من نوع نافورات فرساى ولكنها أقل منها روعة وقد لاقينا هناك البرنس حسن باشا أخا توفيق باشا فاكل معنا فوق الشجرة . وفى يوم ٣ اغسطس

سافر البرنسان عباس ومحمد على إلى جنيف مصحوبين بمسيو شارل هكسيوس ابن صاحب مدرسة لانسى الموجود بها البرنسان وكذلك البير كوك نجل المستر كوك وقد نال النيشان العثمانى من الدرجة الرابعة مكافأة له على الخدمات التى أداها للبرنسين اثناء سياحتهما فى فرنسا وانكلترا وسويسرا.

**البرنس حسين كامل الصغير** [١]. وفى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٧ حضر إلى باريس البرنس حسين كامل الصغير نجل اسماعيل بك ابن محمد على باشا الصغير الذى احرق بالسودان ويصحبه يوسف ضيا (باشا) معاون تشريفاتى خديوى. وقد حضرا لزيارتى مساء وتناولا طعام العشاء عندنا كما تناولاه فى اليوم التالى، فاستقبلتهما انا وابراهيم بك بالترحاب، وعلمت من البرنس انه حضر للتعلم فى باريس.

وقد اتفق موجيل بك رئيس بعثة الحكومة المصرية ويوسف ضيا على اختيار مسكن لسموه فى البيت الذى اسكنه على ان نشترك فى تناول الطعام معاً وان الاحظ اعماله نوعاً ما، وأرسل ضيا برقية لسمو الخديو فجاء الرد بالاستحسان. وقد استشارنى مدير البعثة فوافقت. وقد طفت مع البرنس ويوسف ضيا شوارع باريس ومتنزهاتها وذهبنا إلى بعض التياترات والملاهى.

وفى هذه الاثناء كان البرنس قد بعث فى طلب مبلغ كبير من المال لتأسيس المسكن الذى ينوى الأقامة فيه ولنفقات أخرى وكانت دائرته تعجز عن اجابة مطالبه فانتهى الأمر بأن وردت فى يوم ٢٢ نوفمبر برقية تقضى برجوعه لمصر.

ولما أن كان لا يوجد لدى البرنس ويوسف ضيا النقود الكافية فقد ذهبت مع الأخير لمحل كوك وأخذنا التذاكر منه واتفقنا على أن تضاف نفقات الفندق بمرسيليا على الحساب الذى بلغ نحو خمسماية فرنك وفى يوم ٢٣ منه سافرا إلى مرسيليا ومنها لمصر.

**قصة النبيذ**. فى ذات يوم قابلت صالح صبحى ظهراً بالقرب من فندق فدعوته لتناول الغذاء معى فابى قائلا: «إن مائدتك فقيرة» يعنى انها لا تضم بين الوانها نبيذاً. وكان يعلم اننى لا أشرب الخمر مطلقاً.

وقد كان الداعى إلى ذلك أننى نشأت على كراهة الخمر واجتمعت عوامل لغرس هذه

---

(١) كان البرنس جميل الصورة وقد تزوج فيما بعد بثلاث شركسيات واقام سنوات طويلة فى استانبول وكان له غرام كبير بالتزين والتجمل كما هى عادة السيدات وينظر من نافذة منزله فيظن المارة أنه أمرأة فيغازلونه

الكراهية فى نفسى منها ان والدتى كانت دائماً تحذرنى منها وتضرب لى الأمثال على اضرارها وتصورها لى بصورة الداء العضال الذى يدفع بصاحبه إلى الهلاك المحقق . ومنها ان الظروف قيضت لى ان أرى مثالا ملموساً لمضار الخمر وفتكها ؛ ذلك أنه اثناء أقامتى بمصر فى بركة الفيل كان يسكن بجوارنا رجل من بقية المماليك مدمن على الشرب لا يكاد يفيق قط ، وقد فعلت به الخمر أقصى مايفعله الداء بمريض فذهبت برشاده وتركته رثا كئيباً بعد ان جردته من ماله وكرامته . وكثيراً ما كنت أراه ملقى على الأرض فى حالة مزرية لا يعى شيئاً مما حوله يقف ليتعثر ويهم لينبطح ويلقى عليه المارة من قوارص نكاتهم مايحطمه لو كان يفهمه ولكنه لم يكن يسمع أو يفقه . وقد كان قدومه إلى الحارة متأخراً كل ليلة مثاراً لضجة من السكان تمتزج بها ضحكات السخرية من كل صوب ولست أنسى شبحه وهو ملقى على الأرض فى ليلة ممطرة وقد لطخه الوحل وجاء اليه خفيران غليظان فحملاه من رجليه ويديه الى منزله .

كانت كل صورة من هذه الصور فى ذهنى كافية لتنفيرى من الخمر . وكنت اذكر هذا المسكين كلما ذكرت الخمر وأتخيله معها جزءا لا ينفصل من صورتها . فكان شبحاً مخيفاً يهيب بى ألا أذوقها .

فلما ان دعوت صديقى للغذاء وأبى « لفقر مائدتى » وعدته أن اقدم له شراباً فقبل دعوتى، وبعد أيام زرته فى يوم حار وهناك طلبت كوبة ماء. فقال : هلا تستحسن شراب الرمان؟ قلت : بكل شكر. فقدم الى قدح شراب احمر فتناولته وشربت كل ما فيه دفعة واحدة ولكنى شعرت بحموضة فى طعمه فكان عذره انها ناشئة عن قدم زجاجة الشراب — شراب الرمان بطبيعة الحال

ومضت مدة بعد هذا الحادث الذى مر فى سكون .

وبعد أيام لاقانى مرة أخرى قريباً من فندق فدعوته للطعام فأبى ما لم أعده بالشراب معه . ولكنى افهمته استحالة ذلك وقصصت عليه حكاية جارى السكير وحدثته عن تلك الصورة المزعجة القذرة التى خلفتها الخمر فى مخيلتى وانى صممت على عدم تناول شىء منها ما حييت ولم اتناول منها شيئاً للآن .

فقهقه صاحبى . عندئذ تذكرت شراب الرمان المزعوم وخطر لى انه ربما كان خمراً وانها كانت مكيدة فكهة منه ، وسألته عن الحقيقة فاذا هى كما توقعت وذكر لى انه أضاف على الشراب شيئاً من السكر لتخفى على حقيقته . وكان كثيراً ما يقول لى : « انه سيأتى يوم

فيه تضطر لشرب الخمر ولا سيما فى فصل الشتاء القارص ، وكنت امانع فى هذا وانكره حتى جاء الشتاء فاضطررت لتناول النبيذ باعتدال بأمر الطبيب (١)

**سفير تركيا وحكمه على اسماعيل** . وفى يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٨٧ ذهبت عصراً مع ابراهيم بك لأقدمه إلى السفير التركى اسعد باشا فقابلنا مقابلة حسنة . ودار بيننا الحديث حتى وصلنا الى حالة مصر فقال السفير : « ان مصر من عهد محمد على إلى الآن وهى فى تقدم مستمر . غير ان الخديويين الذين أتوا بعد محمد على لم يحسنوا الادارة مثله فنشأ عن ذلك تراكم الديون خصوصاً فى ولاية اسماعيل باشا الخديو السابق. نعم انه ادخل فى مصر اصلاحات كثيرة كانشاء الشوارع وحديقة الازبكية والاوبرا ولا سيما السكك الحديدية والرى . ولكن هذه الاصلاحات كلها لا توازى نصف ما اقترضته مصر ، ثم أشار إلى اسرافه فى اللهو والملاذ . ولم يقل شيئاً عن الخديو توفيق

وقد ارسل السفير سكرتيره جمال بك رداً على زيارتنا له .

**سمكة أول ابريل** . اعتاد الأوربيون أن يتفكهوا فى أول يوم من أبريل بتدبير أكاذيب مثيرة للدهشة أو الضحك لغرابتها ومن الحوادث التى بلغتنى هذه الحادثة الظريفة :

تلقى أحد الطلبة المصريين فى العام الماضى فى أول ابريل من إدارة البريد اخطاراً فتسلم به « طرداً مغرماً » فذهب ودفع قيمة الرسوم المقررة وتسلمه فاذا هو عبارة عن صندوق من الصفيح كصناديق المربى . ولما فتحه وجد ما لا يسر عيناً أن تقع عليه فقذف به إلى المرحاض متقززاً ساخطاً وفهم انها « كذبة ابريل » ثم اجتهد ان يعرف من هو مرسل الهدية ، وما لبث ان عرفه وأسرها فى نفسه للعام التالى أى هذا العام .

وفى آخر يوم من مارس سنة ١٨٨٧ ذهب إلى حمام وكلف إدارته بارسال « حمام منزلى » عبارة عن مغطس من الصاج وماء ساخن فى برميل بعنوان صديقه صاحب هدية العام الفائت ودفع قيمته وحدد له ميعاداً فى الساعة الثامنة صباح أول ابريل . وغادره الى حمام آخر فكلفه نفس التكليف بتأخير نصف ساعة عن الميعاد الأول . وغادره الى ثالث كذلك .

وفى الصباح أفاق صاحبنا من نومه على طرق عامل الحمام لغرفته وهو يحمل ما أوصى

---

(١) ولما رجعت لمصر وكنت اتناوله على الأكل احسست بضرر من تناوله فكنت عقب الأكل اتثاءب ويكاد يغلبنى النعاس فضلا عما كنت أشعر به من التهاب فى الحنجرة فتركته بتاتا

به صديقه . فدهش اذ قال له الرسول: — هذا هو الحمام الذى أوصيت به ودفعت أجرته فلما أنكر أخرج له عنوانه المكتوب لدى الادارة وأخيراً قبله وهو يعجب فى نفسه . وما كاد يبدأ فى خلع ثيابه ويستعد للاستحمام حتى دق الباب عامل الحمام الثانى وعنوان الطالب فى يده وهو يصر على أن يترك ما يحمله كالأمر المعطى له ، ويرفض صاحبنا وينكر توصيته بشىء فلا يزيد العامل الا أصراراً ، وبينما هما فى مشاحنة أمام باب المسكن اذا بعامل ثالث يجىء . وما أن رآه صاحبنا يحمل ما يحمل حتى زاد سخطه وحصلت ضجة فاجتمع أمام الباب لمشاهدة الأضحوكة كثير من السكان. فخجل الطالب ومنعاً من استمرار هذه المهزلة استسلم أخيراً وأدخل الأخيرين فى غرفته الصغيرة

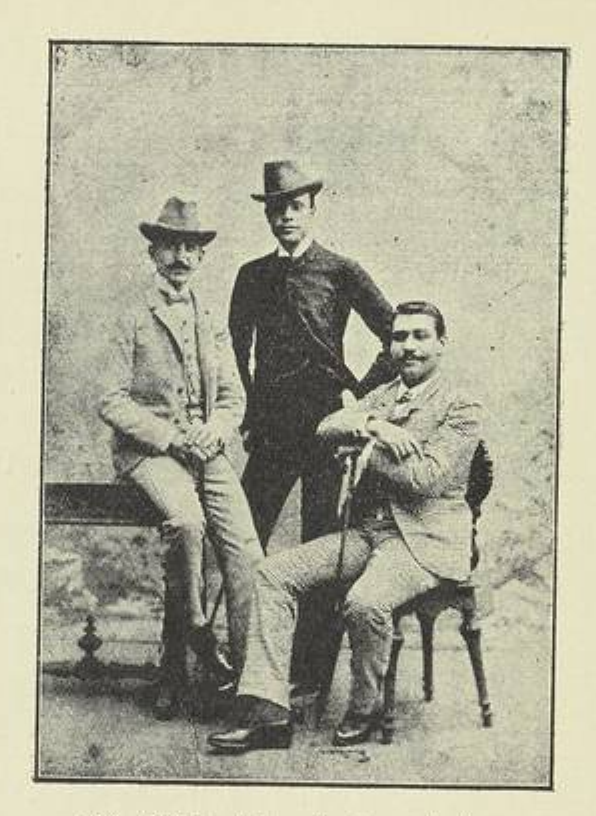
ولعل صاحبه المُهدى قصد بهذه الحمامات أن يغسل بها قذارة الهدية السابقة !!

وفى أول ابريل سنة ١٨٨٨ وردالينا مظروف ففتحناه فاذا فيه :

Aimables Egyptiens ورسم سمكة لها رجلان وبيدها عصا وأمامها رجل فى يده قبعة وهو واقف للسلام عليها

**الطالب بهجت** . وفى يوم ٢ ابريل سنة ١٨٨٧ جاءتنى رسالة من محمد بك زكى يكلفنى فيها بناء على أمر سمو الخديو أن أذهب الى فرساى للاستعلام عن حالة بهجت افندى الطالب فى مدرستها وأن أكتب لوالدته وهى منتمية للسراى رسالة كل خمسة عشر يوماً أشرح لها حالته فيها . فذهبت فى اليوم الثالث ولم يكن هذا اليوم من الأيام المسموح فيها زيارة الطلبة كما عرفنى ناظر المدرسة . فأظهرت أسفى الزائد وقلت بالفرنسية "C'est embêtant"، داخزوق ، فراجعنى الناظر وقال: ماذا تقول؟ ففهمت ان كلمتى لم تكن أدبية فغيرتها وقلت: "C'est enuyeux" ، شىء يغيظ ، فلما أن أصلحت غلطتى قال: "à la bonheur" ، هذا حسن ، ولهذا سمح لى بصفة استثنائية بمقابلة بهجت

**يوسف طلعت (باشا)** . وفى ٧ يوليه سنة ١٨٨٧ حضر يوسف طلعت نجل طلعت باشا رئيس الديوان الخديوى الى باريس حيث تعلم اللغة الفرنسية فأقام معى وابراهيم بك فى مسكننا مدة ثم انتقل الى سكن خاص . وهو خريج المدرسة الحربية وقد حضر حرب العرابيين ضد الانجليز بجهة قناة السويس . وتصادف عند حضوره ان كان فصل الأمطار والصواعق فلما سمع الرعد القاصف ورأى نزول الصواعق وخطف البرق وقع له من الانزعاج ما ادهشنا، إذ بادر إلى السرير واختفى تحت الأغطية



( من اليسار ) يوسف طلعت وابراهيم ذو الفقار وشفيق

حتى لا يرى أو يسمع شيئاً . فلما هدأ الجو سكن روعه فسألناه كيف يخشى هذه العواصف الجوية مع أنه من الضباط الذين حضروا المواقع المخيفة وشهدوا اطلاق المدافع ونزول القذائف ؟ فأجابنا إنه كان يتقيها باختفائه فى الخنادق !

**الشيخ احمد عبد الرحيم وابنه** . فى أول نوفمبر سنة ١٨٨٧ قدم إلى باريس الشيخ احمد عبد الرحيم الذى كان مدرس اللغة العربية للبرنسين عباس ومحمد على فى نيوشاتل بسويسرا . فلما غادراها وانتظما فى معهد « التريزيانوم » بفينا قدم الشيخ احمد إلى باريس لدرس الحقوق واللغة الفرنسية وكان قد تعلم منها شيئاً أيام وجوده بسويسرا : فدعوته لتناول الطعام معى وعلمت منه أنه يريد أن يعين خلفاً للشيخ حسن جلال مدرس اللغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية والذى سيغادر باريس قريباً فنصحته بكتابة التماس بذلك الى زكى بك وأشرت عليه بكلمة توصية فجاءنى الرد فى يوم ١٤ منه وفيه ما يأتى « وصلنى التماس الشيخ عبد الرحيم وعليه توصيتك فاخبره بأن يسكت ولا يقلق فسيعين

قريباً ) وقد عين عقب ذلك فعلا واستمرت علاقتنا به إلى أن دعانى وابراهيم بك فى يوم ٢٣ ابريل سنة ١٨٨٩ للعشاء عنده وقد أرانا ابنته التى رزق بها منذ ثلاثة أشهر. وحدثنا عن الصعوبة التى لاقاها عند ما أراد أن يسميها « نجية » فان مسجل الأسماء لم يقبل هذا الاسم لأنه غير موجود فى التقويم المسيحى . والتقاليد تقضى بان كل مولود يولد فى فرنسا يجب أن يختار اسمه من بين الأسماء المدرجة فى هذا التقويم وأخيراً وجد اسم « زينبيو » وهو اسم ملكة حكمت مصر فى الزمن الغابر. فقبله الاستاذ وحلت المشكلة . وأصبح للمولودة اسمان أحدهما رسمى وهو « زينبيو » والآخر غير رسمى وهو « نجية » .

**على شاهين بك .** وفى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٨٧ كلفت من قبل الخديو بمهمة تتعلق بطالب مصرى هو على بك شاهين. نجل شاهين باشا ناظر الحربية فى عهد الخديو اسماعيل(١) وكان يدرس فى مدرسة « توديكوم » بجنيف ويقيم مع عائلة مدير المدرسة مسيو تافان وكانت له ابنة حسناء أحبها على بك فبلغ سمو الخديو توفيق ذلك .

فجاءنى أمر من سموه بان أذهب إلى جنيف وأبذل كل ما فى وسعى لاستصحاب على بك شاهين وابعاده عن جنيف . وفى يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٨٨٧ مساء بارحت باريس إلى جنيف فوصلت مساء ٢٢ منه إلى « دول » ونزلت بها وتوجهت لزيارة جودار باشا رئيسى السابق فقابلنى بكل ترحاب وقال لى : ( قبلنى ياشفيق ) والدموع تجول فى عينيه وتغديت عنده وقدمنى لأفراد عائلته وتحدثنا كثيراً . ولما آن ميعاد متابعتى السفر إلى جنيف ودعنى وعانقنى فوصلت هنالك يوم ٢٣ نوفمبر . وكان معى من زكى بك ثلاث رسائل احداها لمسيو تافان والثانية لمسيو هكسيوس لمساعدتى فى مهمتى والثالثة لعلى بك نفسه . ولما تسلم مسيو هكسيوس رسالته أرسل معى نجله شارل هكسيوس لمقابلة مسيو تافان وهنالك سلمته رسالته — ولم يكن على بك موجوداً — فوعدنى بان ينبه عليه بالاستعداد للسفر والحضور لمقابلتى فى الفندق وفى المساء تلاقيت بعلى بك وحادثته فى مسألة سفره واقنعته بوجوب الطاعة لاوامر سمو الخديو،فقبل متألماً ثم سويت حساباته .

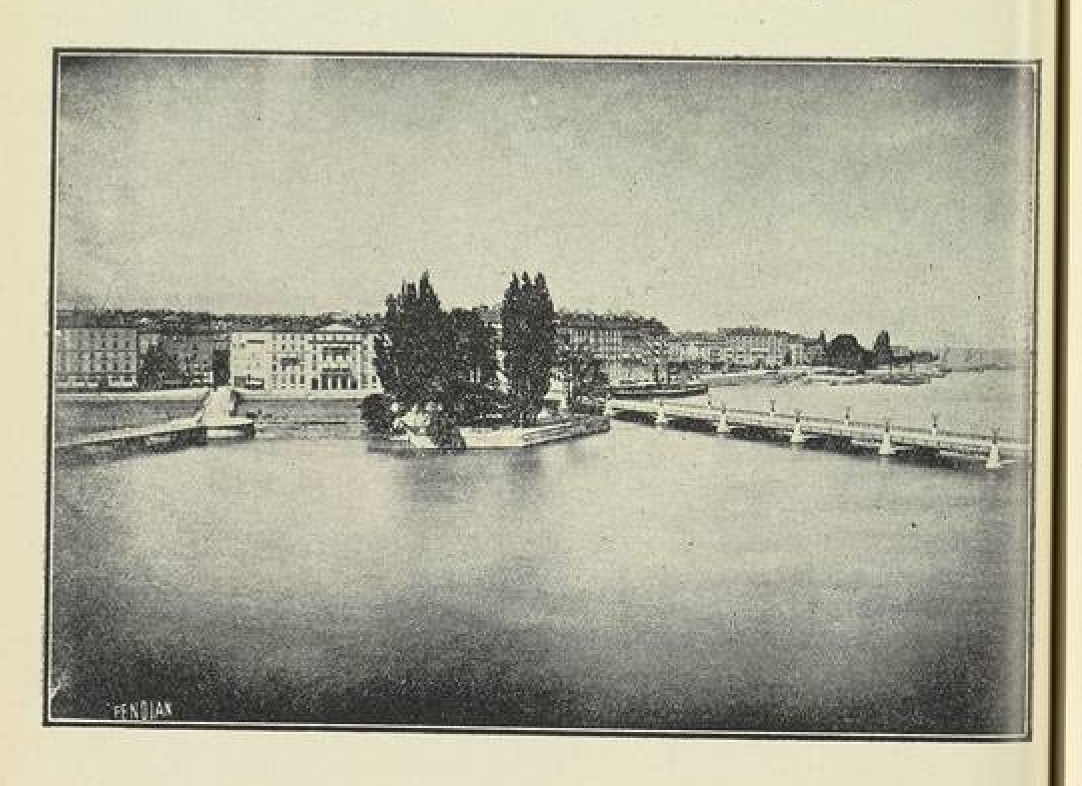
وقد لاقيت فى ذلك صعوبة كبيرة اذ أن المسيو تافان كان يتعلل بكل ما وسع لتعطيلنا وانتهيت اخيراً معه بدفع كل مطلوبه

---

(١) كان شاهين باشا قد توفى وابنه تحت الوصاية

وغادرنا جنيف يوم ٢٧ حيث وصلنا فى اليوم التالى الى اكس ونزلنا فى أحد فنادقها . وفى وقت الطعام لمحت بين الحضور أحمد بك ذو الفقار زميلى بالمعية فسلمت عليه باشتياق وأكلنا معاً . وعلمت منه أنه ذاهب الى باريس لدراسة الحقوق بعد أن استأذن سمو الخديو فى السفر لاتمام دراسته . وبقيت فى اكس أياماً أرتب شئون على بك حتى انتهيت منها ورجعت الى باريس . ولم يفتنى مدة وجودى بجنيف أن أشاهدها وأتفرج على ما فيها ومما اذكره أننى فى يوم ٢٤ نوفمبر توجهت الى الكورسال بصحبة على بك شاهين وبعض المصريين فوجدته فى بناء لطيف ، وهو مجمع الأغراب وتسمع فيه الموسيقى وتفرجت على الرقص وسمعت الغناء وشاهدت أعمالا أتاها منوم مغناطيسى قدير

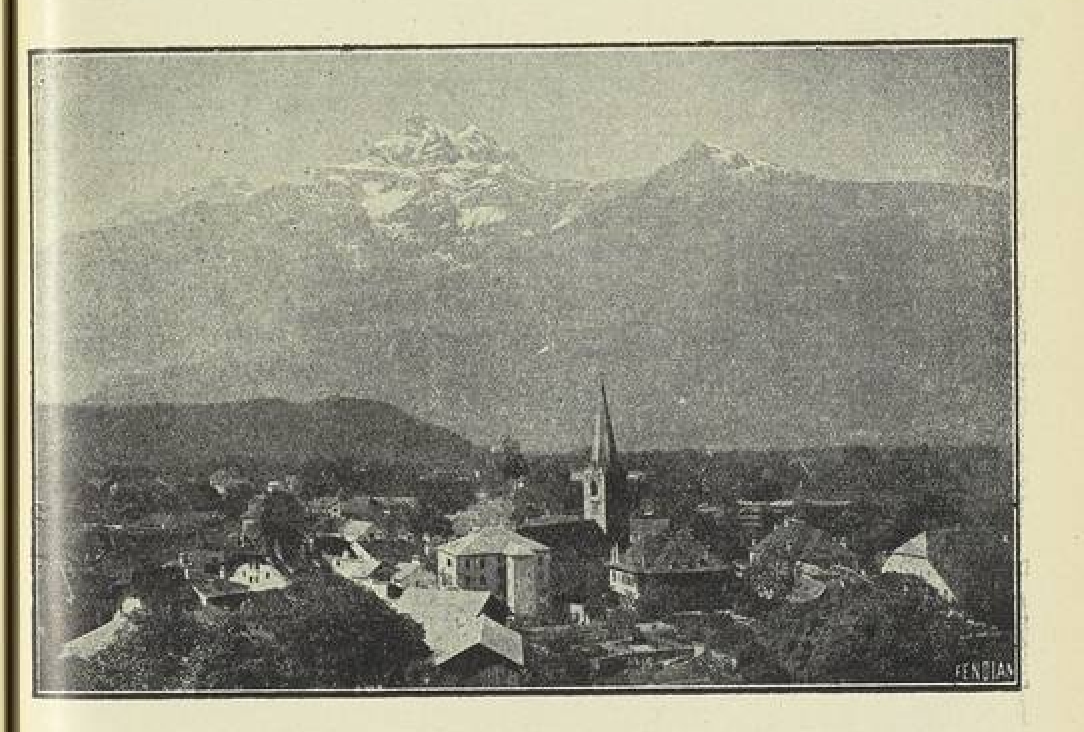
ومدينة جنيف جميلة وبها مبــــان شاهقة وحديقة جميلة على البحيرة وتسمى « الحديقة الانجليزية »



رصيف مونت بلان وجزيرة روسو

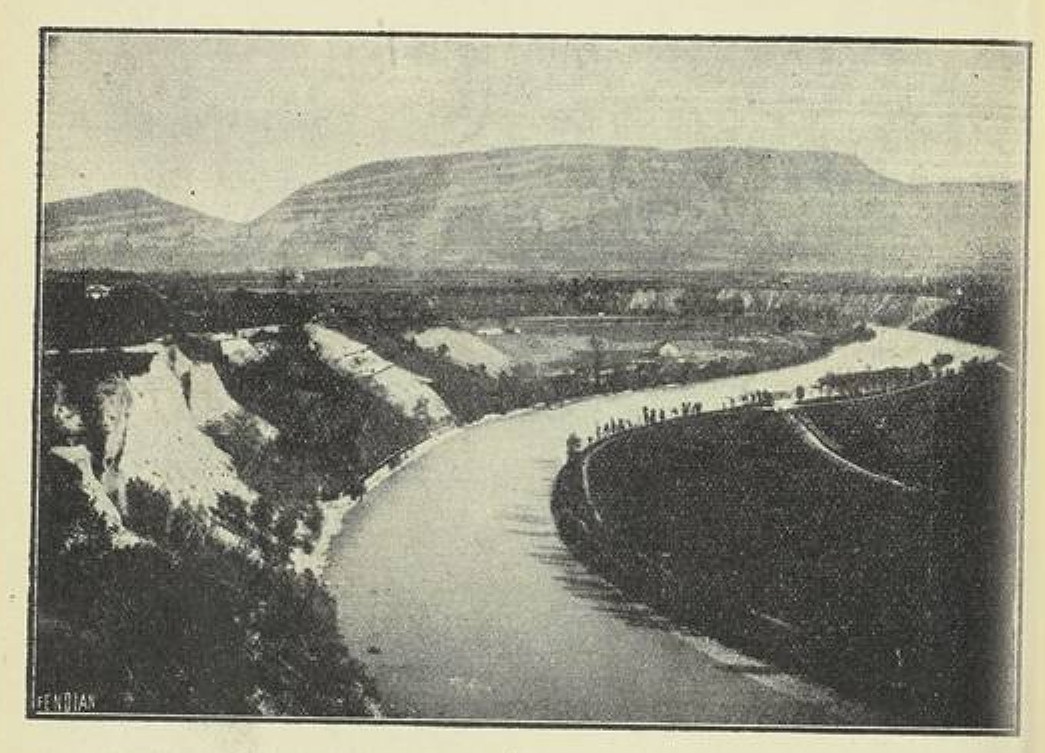
وشاهدت رصيف « مونت بلان » كما تفرجت على جزيرة روسو الواقعة فى وسط البحيرة وهى بديعة جداً بها حدائق غناء .

وشاهدت من نوافذ غرفتى بالفندق والتى كانت تطل على البحيرة جبل ( دان دى ميدى )




جبل دان دى ميدى على بحيرة جنيف

وفى يوم ٢٥ منه صحبت على بك شاهين لزيارة جبل ساليف الواقع على حدود جنيف فى الجهة الفرنسية




جبل ساليف

وفى يوم ٢٦ منه توجهت إلى مصنع لصنع الساعات ومحل لبيع العلب الموسيقية ، ومن أغرب ما شهدته فيه « قصرية » عند ما يبول الانسان فيها تحدث نغمات موسيقية ، وكذلك قلل للشرب تحدث أصواتاً جميلة عند الشرب منها . وفى مساء هذا اليوم توجهت إلى دار الأوبرا وشاهدت لعبة ( القلب واليد ) وكان التمثيل عاديا . ويشترط فى هذه الأوبرا أن تخلع كل السيدات قبعاتهن ولكن يصرح للعجائز فقط ترك القبعات على رؤوسهن .

**مأدبة مصرية** . وفى ٢٦ مارس سنة ١٨٨٨ دعونا مسيو جرى وصاحبته (١) ومسيو بوب وصاحبته (٢) للعشاء معنا . وقد وضعنا للاطعمة أسماء مبتكرة بقصد الفكاهة والانشراح فكانت كما يأتى : —

(١) كان لها محل تجارى فى السوق الكبير للخضر والفاكهة واللحوم في باريس

(٢) انتظم مسيو بوب فى السلك السياسى فيما بعد وعين قنصلا جنرالا لفرنسا فى مصر قبل الحرب وكان زميلا لى بمدرسة العلوم السياسية

( ١ ) شوربة عدس فلاحى
( ٢ ) سمك ، صومون ، مع صلصة بربرية
( ٣ ) فرخة محشية على الطراز المصرى
( ٤ ) سلاطة تركى
( ٥ ) خرشوف حريمى
( ٦ ) كنافة خديوية
( ٧ ) جبنة رومى
( ٨ ) أهرام من الدندرمة
( ٩ ) سجاير فرعونية
(١٠) قهوة الاتركة
(١١) فواكه ومشروبات

وفى أثناء الطعام كنا نتحدث فى أمور شتى ومضحكة ؛ من ذلك أن خليلة مسيو جرى أخبرتنا أنها فى ذات مرة كانت واقفة أمام محلها بالسوق وتصادف مرور رجل فانزلقت قدمه من بقايا بعض الخضر على الأرض وكاد يسقط لولا أنه قبض على ملابسها من الأمام فتألمت وقالت له : « هل تريد أن تستعمل مشعرى حبلا للخلاص ؟ » وهذا دليل على أن نساء هذا السوق لا يأنفن من استعمال بعض التعبيرات غير الحسنة .

وبعد تناول الطعام قصدنا أحد المسارح وأمضينا السهرة فى أنس وحبور

**بروسالى** . وفى يوم ١٢ مايو جاءنى المسيو بروسالى ، وهو أرمنى كان موظفاً فى صندوق الدين بمصر وحضر الى باريس لدرس الحقوق ، وكان يحضر للدكتوراه وقد رجانى ، بناء على نصيحة مسيو رينو الشهير معلمى فى القانون الدولى،أن أدله على المصادر الخاصة بموضوع الامتيازات التى حصلت عليها مصر من السلطان ، لأنه كان يريد وضع رسالته فى هذا الموضوع ، فأرشدته الى مجموعة الأوامر والفرمانات السلطانية المطبوعة بمطبعة الجوائب .

**بطرس غالى باشا** . وفى ٢٥ منه حضر بطرس باشا غالى وكيل الحقانية الى باريس لرؤية ولديه نجيب وواصف غالى الطالبين بمدرسة فرساى ونزل بفندق الدانوب . فذهبنا فى يوم ٢ يونيه لمقابلته ، فرأيناه جالساً على مقعد فى مدخل الفندق ، فتقدم ابراهيم

بك لتحيته ولكنه لم يرفع قبعته، ولم يبد اهتماما به أما أنا فلم يعرفني وقد ذكرته باسمي فلم يهتم أيضاً، وعندئذ اعدت قبعتي إلى رأسي. ثم صعد معنا إلى غرفته وأخذ يحدثنا عن التعليم والدراسة وتمنى لنا النجاح فشكرناه وانصرفنا

**طلب مبارزة بين مصريين**. فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٨ وقعت مشادة خطيرة بين عزيز ثابت ( بك ) نجل ثابت باشا رئيس الديوان الخديوى واحمد ذى الفقار (باشا) نجل على ذى الفقار باشا السر تشريفاتى؛ تطاول فيها الأول على الثانى فقابله هذا بلطمة على وجهه فخرج عزيز متهيجاً ثم أرسل شاهديه يطلبان من احمد ذى الفقار المبارزة لرد شرفه، فتدخلت فى الامر ونصحت احمد بان يجيب الشاهدين بان لعزيز أن يطلب حقه بطريق غير المبارزة؛ لانها محرمة فى القوانين المصرية. ثم كتبت لعزيز رقعة انصحه فيها بالا يشرك الاجانب فى شئوننا وان يتركنا نسوى المسألة فيما بيننا.

وفى ٢ يناير سنة ١٨٨٩ قصدت يوسف بك طلعت، وكان يسكن فى طابق بنفس المنزل الذى نسكن فيه، وهناك وجدت عزيز ثابت فحادثته فى الأمر وكررت له نصحى ولكنه أبى حتى إذا لوحت له بابلاغ الأمر للمعية اشتد غيظه ورمانى بألفاظ جارحة رددت عليه بعضها. ثم بعثت برسالة شخصية إلى محمد بك زكى التشريفاتى بتاريخ ٥ يناير أخبره بالحادث وأرجوه أن يبلغه لثابت باشا لأنى أعتقد انه لا يرضى عن مثل هذا التصرف من نجله فى بلاد أجنبية. وارسلت بطاقتى الشاهدين، وكانا من مراسلى الصحف فى فرنسا، مشيراً إلى الفضيحة التى تترتب على نشر تفاصيل الحادث فى الجرائد وهو ما لا أرضاه لوالدى المتخاصمين وكلاهما أعتبره والداً لى. وفى ١١ منه انتهى الحادث وعاد المتخاصمان. ولكن عزيز استمر رغم ذلك فى مقاطعتى.

**السيد توفيق البكرى**. لما علمت من خطاب ورد لى من مصر ان السيد توفيق البكرى سيحضر إلى فرنسا استقبلته فى ليون يوم ١٥ يونيه سنة ١٨٨٩ ورافقته إلى باريس. وهنالك استأجرت له حجرتين بواسطة محل كوك وأرسلت نبذة عنه إلى جريدة « الفيجارو » فنشرتها بنصها فى اليوم التالى. وقد اتفق على تناول الطعام معى وابراهيم بك.

وفى ٦ يوليه وردت لى رسالة من والدتى توصينى فيها بالسيد وملاحظته فى باريس حتى لا تغره مظاهرها ولا يندفع فى تيارها خوفاً من غضب سمو الخديو عليه لو علم بأنه أساء السيرة.

فعملت بالوصية وكنت استصحبه دائماً حتى كان يوم ٢٧ يوليه حيث توجهنا إلى بهو غناء فى الشانزليزيه فشعر بخفقان فى القلب أثناء الغناء، فعرضته على أحد الصيادلة فهول له الأمر فأثر عليه الوهم واشتد اضطرابه. فرأيت عندئذ ان اعرضه على طبيب فأكد له أن لا خوف عليه ولكنه بالرغم من ذلك صمم على العودة لمصر وبدأ فى شراء بعض الهدايا وقفل راجعاً فى يوم ٣١ يوليه سنة ١٨٨٩ .

**وفد مصر لمؤتمر المستشرقين** . وافق اليوم السابع من أغسطس سنة ١٨٨٩ عيد الأضحى ففى يوم ١١ منه أى رابع أيام العيد دعوت لتناول طعام العشاء عندى عبد الله باشا فكرى وابنه أمين بك فكرى والشيخ حمزة فتح الله والشيخ محمود عمر، وهم أعضاء البعثة العلمية الموفدة لتمثيل مصر فى مؤتمر المستشرقين ببلاد السويد والنرويج فى هذا العام .

وكنت فى اليوم السابق قد كتبت خبراً عن حضورهم إلى جريدة الفيجارو فنشر فى هذا اليوم بنصه .

وكانت المائدة تحتوى على ضلع محشى وكفتة وبسطة وطاووق كوسى(١) وعدس وسلطات مصرية وفواكه ومربات وحلوى

ومن الفكاهات التى حدثت أثناء تناول الطعام أن الضيوف طلبوا بصلا يتناولونه مع العدس كالعادة فى مصر. فأمرت الخادمة أن تأتى بالبصل فاذا بها بعد فترة قد عادت الينا ببصل مخروط خرطاً دقيقاً كالمعد للطبخ ! فضحكنا لهذا التصرف وطلبنا منها أن تحضره لنا سليما من غير خرط ، ففعلت وأظهرت استغرابها من أكله على هذا النحو

**أوامر خديوية** . ابان اقامتى فى فرنسا صدرت إلى جملة أوامر من سمو الخديو أذكر منها ما يأتى : —

التنويم المغناطيسى . لما كان الخديو قد قرأ عن التنويم المغناطيسى وعن المنوم الفرنسى موتون الشهير فقد جاءتنى رسالة من المعية تطلب منى فيها بأمره أن أشاهد ما يقوم به المنوم المذكور وأن آخذ عنه دروسا فى هذا الفن ان أمكن ، فترقبت ظهور اعلان حفلة من حفلاته ، وفى يوم ٢٥ يناير سنة ١٨٨٨ ذهبت لمشاهدة هذه الحفلة ، وعلى سعة البهو المقامة فيه فقد كان غاصاً بالحضور رجالا ونساء

---

(١) وهو صنف حلو من صدر الدجاج الناعم واللبن

وكان مع المنوم آنسة يجرى فيها تجاربه فبدأ بتنويمها ثم أمرها فأتت بأمور أدهشتنا؛ منها أنه أخذ نقوداً من أحد الحاضرين فى كفه ثم سأل النائمة عن مقدارها ونوعها فأخبرته بحقيقتها تماما . ومنها أنه تناول دبوسا غليظا وقال لها :— اننى أمسك بيدى شيئاً صنع من القطن وأغمده فى ذراعها فلم تشعر به . ومنها أنه أخفى ساعة وأمرها وهى نائمة أن تبحث عن مكانها ثم أمسك يدها حتى أوصلته إلى مخبأ الساعة .

وقد صفق له الحاضرون طويلا . ولكن نهضت سيدة واعترضت بأنه ربما كان بينه وبين الآنسة التى معه اتفاقاً وتفاهماً وطلبت أن يجرى العملية مع أحد الحاضرين فأبدى ارتياحه للطلب وطلب منها أن تكون هى موضع التجربة فقبلت .

وهنا أجلسها فى مكان التنويم وأخذ يمسح على جبهتها حتى نامت ثم ألقى عليها أسئلة اقترحها بعض الحاضرين وطلب منها الاجابة عنها فأجابت دون تلعثم .

وأخيراً سألها عما اذا كانت تعرفه فقالت : نعم . فسألها هلا تحبينى ؟ فقالت :— لا . وكيف أحبك ولى زوج أحبه ! فقال :— ولكن أريد أن تحبينى، فاضطربت ، ثم كرر قائلا: نعم أريد أن تحبينى . فأجابت عندئذ فى خضوع :— أحبك — فقال : حينئذ أطلب منك أن تأتى وتقبلينى . فأجابته بأن ذلك مستحيل . ولكنه أصر وأمرها بتقبيله . فصدعت بالأمر وتقدمت لتنفيذه ولكنه دفعها قائلا :— ارجعى فلست أريد فرجعت وهنا صفق له الحاضرون وانتهت الحفلة .

وقد أرسلت تقريراً بما شاهدته فى هذه الليلة . فجاء لى الرد بأنه لا حاجة لتلقى دروس فى التنويم .

وعلى ذكر التنويم المغناطيسى توجهت فى يوم من أيام مارس سنة ١٨٨٨ مع ابراهيم بك لمشاهدته فى صالة بالقرب من الأوبرا . ولما وصلنا هنالك شاهدنا المنوم وقد نوم شابا وجعله يفعل ما يأمره به فيبكى تارة ، ويضحك أخرى ، ويغنى حينا ، ويسكت حينا ، ويسخن ويبرد وهلم جرا . وهو فى جميع هذه الحالات غير شاعر بما يفعله وقد فقد كل احساسه . ونوم المنوم ذراعه الأيمن فصار كأنه ليس من جسمه حتى أن سيدة من الحضور تقدمت فغرزت فى لحمه دبوس القبعة فنفذ من الناحية الأخرى دون أن يحس . وتقدم رجل فعضه عضا قويا ولم يشعر . ولكن بقيت آثار الدبوس والعض

الاشتراك فى دائرة المعارف . وفى ١٠ مارس سنة ١٨٨٨ صدر إلى الأمر بأن أشترك

باسم سموه فى نسخة من دائرة المعارف « لاروس » الجديدة التى كان يجرى طبعها فنفذت الأمر .

مخدر للاسنان. وفى اكتوبر سنة ١٨٨٨ جاءتنى رسالة من زكى بك التشريفاتى يطلب إلى فيها بالأمر أن اذهب إلى عيادة طب الاسنان المسماة « لوفر دانتير » بجوار سراى اللوفر . وقد اشتهرت هذه العيادة بسائل مبتكر يسمى « الماء الوحيد » ويستعمل فى خلع الأسنان بدون ألم . لأن التخدير بالكلوروفورم لم يكن قد عرف بعد . وقد قرأ الخديو عن هذا الاختراع فى بعض الصحف الفرنسية فأراد أن يتحقق من صحته وأرسل يكلفنى بهذه المهمة فتوجهت إلى العيادة المذكورة فأذا بها تقع فى مكان شاسع فاخر يضم عدة غرف للعمليات ، وأفهمنى مديرها يومئذ أنه لم يكن فى هذا اليوم اية عملية مهمة يمكن مشاهدتها وحدد لى للحضور والمشاهدة يوماً آخر . وفى الموعد توجهت ثم دعيت إلى غرفة العمليات ورأيت الطبيب يستعد لأجراء عملية لسيدة أجلسها امامه ثم تناول امبوبة فيها السائل المقصود « الماء الوحيد » وأراها لى . ثم حقن بها لثة الاسنان المرغوب خلعها وبعد برهة ابتدأ فى العملية وكانت رأس السيدة ترتجف من تأثير الخلع ولكنها لم تبد أى تألم .

ولما سألت الطبيب عن عناصر هذا المركب امتنع عن ذكرها قائلا بانه من اختراع العيادة وخاص بها فقط .

وفى ٢٧ أبريل سنة ١٨٨٩ صدر إلى الأمر بالتوجه الى العيادة الأميركانية للأسنان بشارع لافاييت . والسؤال عما اذا كانت هناك اختراعات وأدوية جديدة للأسنان فنفذت ما طلب منى

سماعة من ذهب. وصدر لى الأمر بعد ذلك بمشترى سماعة من ذهب لتقوية السمع فاشتريتها وارسلتها ، وكانت هذه السماعة لدولة حرم الخديو « الوالدة » لوضعها بأذنها نظراً لضعف حاسة السمع عند دولتها .

وصدرت جملة أوامر أخرى قمت بتنفيذها فى حينها .

# الفصل السادس

## رحـــلات فى فرنسا وخارجها

ديبب . برتيه . جرانفيل وجبل سانه ميشيل . لندره . ألمانيا . النمسا . سويسرا . ايطاليا

بعد أن أديت الامتحان الأول فى مدرسة العلوم السياسية ــ فى صيف سنة ١٨٨٦ اعتزمت ترويح النفس من عناء العمل واستنشاق الهواء الطلق بعيداً عن ضوضاء باريس وزحامها

**ديبب .** فى مساء ٢٢ أغسطس أقلنى القطار الى دييب ثغر مديرية نورماندى الواقع تجاه الشاطئ الانجليزى . وهى بلدة طيبة الهواء فى فصل الصيف وبها كازينو جميل كنت أزوره من وقت الى آخر لسماع الموسيقى ولعب اليانصيب . وبها حمامات خاصة للرجال وأخرى للسيدات وحمام مختلط للجنسين ، وكان يزورنى بين الآونة والأخرى فى الفندق الذى نزلت به هناك أحد زملائى فى مدرسة العلوم السياسية فيصحبنى للرياضة فى ضواحى المدينة حيث كان لأسرته منزل بديع .

وكانت المدينة مزدحمة لوجود سباق الخيل . وقد شاهدت موكباً تتقدمه موسيقى يتبعها أناس يحملون المشاعل يطوفون بالبلد .

وإقليم نورماندى مشهور بنوع من الشراب اسمه سيدْر يستخرج من التفاح وهو لذيذ الطعم ومرطب جداً وبه قليل من الكحول .

وتعرفت هناك بالروائى المشهور ريشبورج حيث ضمتنا فى الفندق مائدة طعام واحدة من تلك الموائد الكبيرة التى تزول حولها الكلفة ويجلس جميع الزائرين اليها ببساطة وانشراح . وقد سر الكاتب بمعرفة شرقى مثلى وأخذ يستطلعنى كثيراً عن أحوال الشرق وتقاليده . وانتقل بنا الحديث ذات مرة إلى الزواج فى مصر والعادات

المتبعة فيه. ثم تغلغل معى إلى الدقائق والخفايا فكنت أصفها له بصراحة. ولما لاحظت أن بجوارنا سيدات وأوانس خفضت صوتى

وعدت من هذه الرحلة إلى باريس بعد سياحتى بانجلترا — كما سيجىء بعد — وقد صفا ذهنى واستفاد جسمى من الراحة والهواء العليل.

**برنيه** . وقد عدت إلى زيارة نورماندى مرة أخرى. ففى مساء الثامن من يونيه سنة ١٨٨٩ سافرت مع ابراهيم بك ذو الفقار إلى مدينة « برنيه » . وهى بلدة صديقنا مسيو جرى ، فلما وصلنا اليها توجهنا إلى منزله حيث تناولنا طعام العشاء. ثم آوى كل منا إلى غرفته.

وفى اليوم التالى استيقظت فى الساعة الخامسة ونزلت إلى الحديقة فشعرت بانتعاش لرؤية النبات واستنشاق شذى الزهر. وبعد تناول الفطور ركبنا مع مسيو جرى عربة للتنزه فى الضواحى فسارت بنا خلال الغابات. وهناك حقل يسمى « روبنصون » وبه شجرة عتيقة كتلك التى فى ضاحية باريس ويصعد اليها بسلم ويمكن الجلوس فوقها لتناول المرطبات. وكانت رياضة جميلة لولا أن فاجأنا المطر فبادرنا بالرجوع

واستمر هطل المطر فى اليوم التالى ومع ذلك فقد خرجنا إلى البلدة وشاهدنا موكباً دينياً عظيماً يضم جماعات مختلفة من البلدان القريبة تحمل الأعلام والأجراس المسماة « تين تونيل » يضربون به : تن تن ... ويرتدى حاملوها ملابس لطيفة ووراءهم فتيات بملابسهن البيضاء. ويصطف الرجال صفين. وكانت كل طائفة تزور كنيسة معينة فى برنيه ثم تعود إلى بلدتها. وبالقرب من الكنيسة محل لشراب « السيدر ». وهناك أيضاً سوق تباع فيها الفاكهة ونوع من الفطير الخاص بهذا اليوم.

وفى صباح اليوم التالى عدنا إلى باريس.

**جرانفيل وجبل سان مشيل** . وفى ١١ اغسطس سنة ١٨٨٩ قمت برحلة أخرى إلى الاقاليم فسافرت إلى « جرانفيل » مع احدى السيدات التى تعرف تلك الجهة ، فلما وصلناها ركبنا عربة سارت بنا شوطا طويلا. وبعد أن تناولنا الطعام بالفندق خرجنا للرياضة على شاطىء البحر وعدنا إلى الفندق عصراً.

وفى صباح اليوم التالى هطل مطر شديد فلم نخرج الا فى المساء.

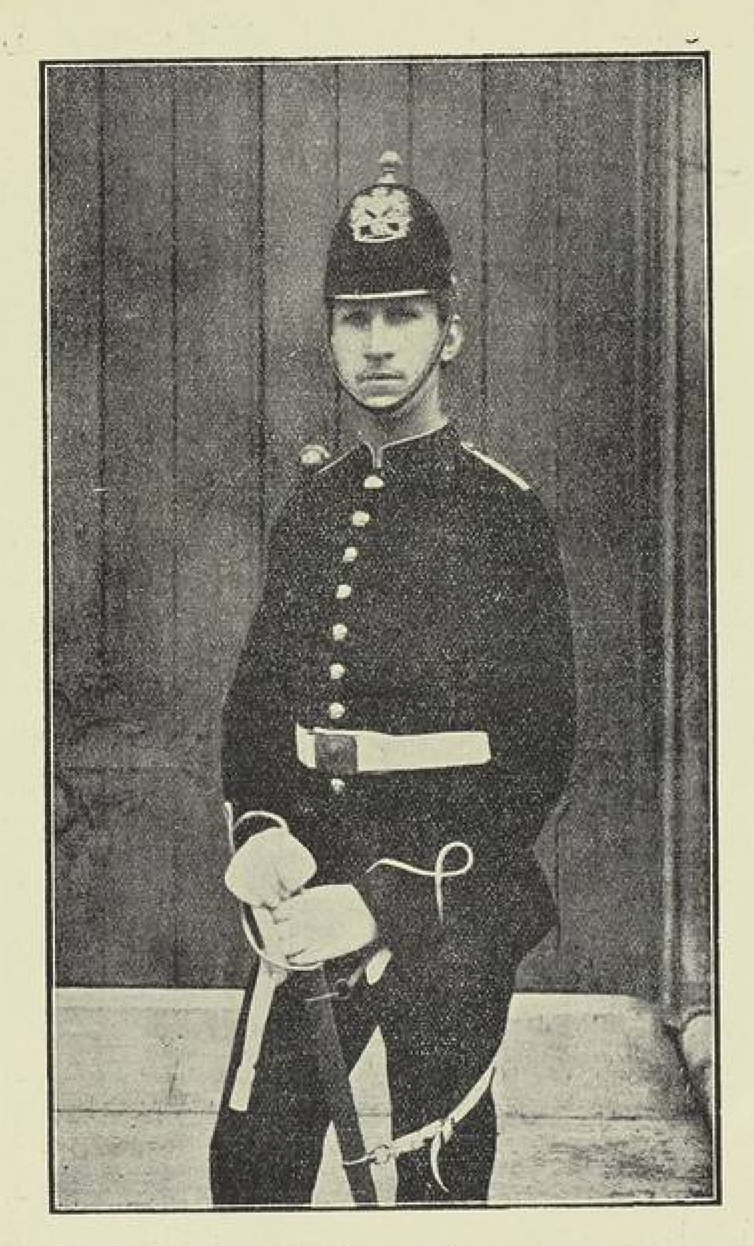
وفى يوم ١٣ منه استيقظنا مبكرين وتأهبنا للذهاب إلى جبل سان ميشيل فركبنا عربة قطعت بنا المسافة اليه فى ساعتين ونصف ساعة . بين مناظر بديعة تحيط بها الحقول النضرة من جهة والبحر من جهة أخرى . أما الجبل فهو قائم فى وسط الماء ويربطه بالشاطىء جسر عريض وفوقه بعض البيوت كأنها حلى تزين هامته ، وفى قمته كنيسة تبدو عليها مظاهر القدم والجلال ، يجتمع المتفرجون لزيارتها فيقودهم الدليل اليها لشرح أماكنها ، وفيها مدافن عتيقة . وهناك عجلة كبيرة كانت تستعمل لرفع المساجين لان هذه الكنيسة كانت فى وقت ما سجناً للمجرمين السياسيين .

وهذه البلدة الصغيرة القائمة على الجبل يعبر الانسان اليها على جسر من الخشب ينتهى ببوابة فى مدخلها فندق يعرف باسم مدام « بولاريميه » شهير بصنع « العجة » اللذيذة . ثم يسير الانسان فى شارع صاعد حتى يصل إلى باب الكنيسة التى ذكرناها .

وبعد خروجنا منها لفت نظرنا علم يرفرف فقصدناه فوجدنا محلا دفعنا رسم الدخول اليه ، وفيه شاهدنا منظراً « بانوراما » تمثل موقعة تاريخية حدثت بين الفرنسيين والانجليز فوق هذا الجبل . وكان الانجليز قد جاءوا وقت جزر البحر لاقتحامه ولكن المد فاجأهم فاغرقوا جميعاً . وفيه غير ذلك متحف يضم تماثيل بعض المساجين السياسيين القدماء فى هيئاتهم الطبيعية وهناك نموذج للقفص الحديدى الذى كان معداً لاعتقال المحكوم عليهم فى الكنيسة .

ثم قصدنا بعد ذلك إلى فندق مدام « بولاريميه » واقمنا فى هذه البلدة يومين نجول فى ضواحيها ثم عدنا إلى باريس .

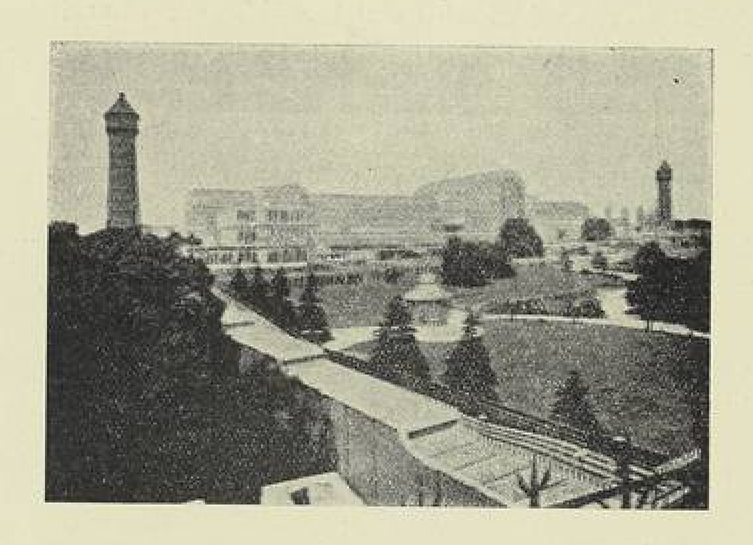
**لندره** . ذكرت أنى قصدت إلى ثغر دييب فى أواخر اغسطس سنة ١٨٨٦ . وقد غادرتها يومئذ بعد أقامة قصيرة إلى نيوهافن على الشاطىء الانجليزى . ثم ركبت القطار إلى لندره فوصلتها فى ٢٨ اغسطس ، وكنت قد أبرقت بخبر قدومى إلى صديق عبد العزيز عزت ( باشا ) وكان وقتئذ طالباً بالمدرسة الحربية الانجليزية . فوافانى الساعة الثالثة إلى الفندق الذى نزلت به وأخذ حجرة بجوار حجرتى ليكون بجانبى مدة إقامتى فى لندره ، وكان يسكن فى ضواحيها .



عبد العزيز عزت ( باشا )

قصر البللور . وبدأنا بمشاهدة معرض قصر البللور الواقع على مقربة من لندره فركبنا القطار اليه نحو نصف ساعة ، وهو قصر ضخم شيد من البللور والحديد فقط على هيئة مستطيل ذي جناحين . طوله ٤٩٠ مترا وفى وسطه رحبة طولها ١١٧ مترا وعرضها ٣٦

مترا ، ورحبة أخرى فى الجهة الجنوبية طولها ٩٥ مترا وعرضها ٣٢ مترا وعلى جانبي القصر برجان ارتفاع كل منهما ٨٦ مترا .



قصر البللور

وقد قيل لى ان تكاليف هذا القصر مع برجيه وحديقته بلغت مليونين ونصف مليون من الجنيهات الانجليزية .

وشاهدنا فى الرحبة الجنوبية كثيراً من تماثيل ملوك انجلترا القدماء . وفيها فسقية فخمة وحولها النباتات المائية تكسبها رونقاً وجمالا .

ورأينا ضمن نماذج المبانى القديمة نموذجاً لأعمدة الكرنك ورسوماً منقولة عن معبد رمسيس الثالث بطيبة . وكذا نماذج للعمارة اليونانية القديمة وأخرى للعمارة الرومانية . ثم نموذجاً لجزء من قصر الحمراء بغرناطة فى الأندلس يمثل ( كوة السباع ) و ( قاعة الحكم ) و ( قاعة ابن سراج ) . ونموذجاً لقاعة من قاعات ملوك الهند فى وسطها فسقية بديعة . وفى القصر فوق ذلك ملاعب وملاهى ومطاعم مختلفة . وقد تناولنا طعام العشاء هناك وتمتعنا بمشاهدة حديقة المعرض . وهى حديقة بديعة جميلة التنسيق، ومن أبدع مناظرها جريان الماء وتنوع هيئاته عند اطلاقه بالحياض وحين مروره بمنعرجاتها المرتفعة والمنخفضة . كما شاهدنا الألعاب النارية التى تعرض فى المساء

أما قسم المصنوعات ففيه معروضات من الهند ومالطة وقبرص واستراليا وغينا

وجميع البلاد التى تحت الحكم البريطانى ، ومنها « بوابة » هائلة جداً من الكرتون ذات لون ذهبي أقيمت رمزاً للذهب الذى استخرجته انجلترا من مناجم استراليا ، وبوابة أخرى نقشت نقشاً بديعاً وقد أهداها احد ملوك الهند خصيصاً لوضعها فى مدخل المعرض . وكذلك معرض الحاصلات فانه يحتوى على اصناف كثيرة يضيق الوصف عن ذكرها .

منحف مدام تيسو . شاهدناه فى يوم آخر وهو عبارة عن بناء عظيم من طبقتين ويوجد فى الطبقة العليا تماثيل لمشاهير الرجال والنساء صنعت من الشمع وفوقها الملابس العادية حتى يخيَّل للرائى فى بادىء الأمر أنها أجسام حية ، وكان من بينها تمثال عرابى بشكله الطبيعى وفى لباسه العسكرى .

المتحف البريطانى . ثم زرنا المتحف البريطانى وهو مقسم إلى سبعة أقسام : قسم المطبوعات — المخطوطات — الرسم والتصوير — الآثار الشرقية — الآثار البريطانية والقرون الوسطى — الآثار اليونانية والرومانية — وقسم النقود والمداليات .



المتحف البريطانى

وهو مركب من طبقتين تشتمل كل طبقة على قاعات يشغل كل واحدة منها قسم مما ذكرنا

أما قسم الآثار المصرية فيشغل ثلاث قاعات من المعرض ، وهى مرتبة حسب تواريخها . وترجع إلى الفى سنة قبل الميلاد و ٦٤٠ بعده ، ومنها حجر رشيد المشهور .

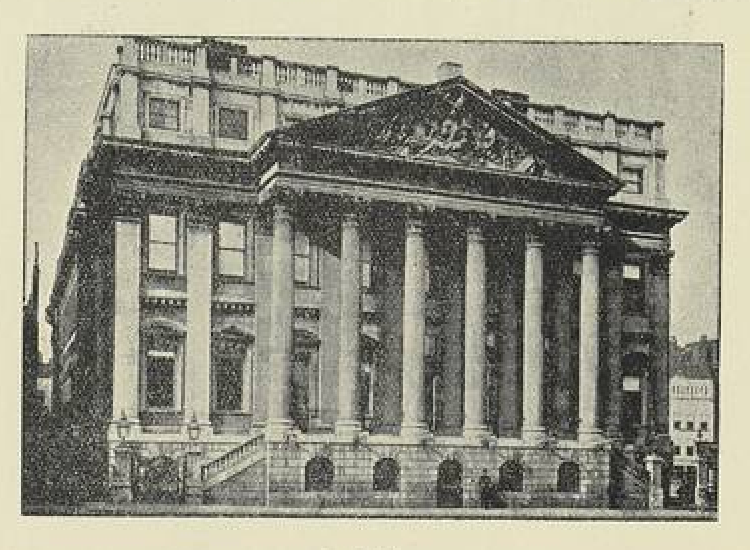


كاتدرائية سان پول

كاتدرائية سان پول. ومن المعاهد الأثرية التى زرناها كاتدرائية سان پول، وهى تقوم على مرتفع من الأرض، وقد شيدت على هيئة صليب، وتعد أكبر الكنائس بعد كنيسة القديس بطرس فى روما وكنيسة ميلانو الكاتدرائية.

ومنظر واجهتها من الخارج جميل وأمامها بهو يحمل سقفه اثنا عشر عاموداً من الرخام وهى من كنائس البروتستانت ولذا كانت خالية من النقوش والزخرف وبها كثير من قبور العظماء.

دار البلدية. وأما دار البلدية (جُلد هول) فكان أهم ما شاهدناه بها قاعة كبيرة

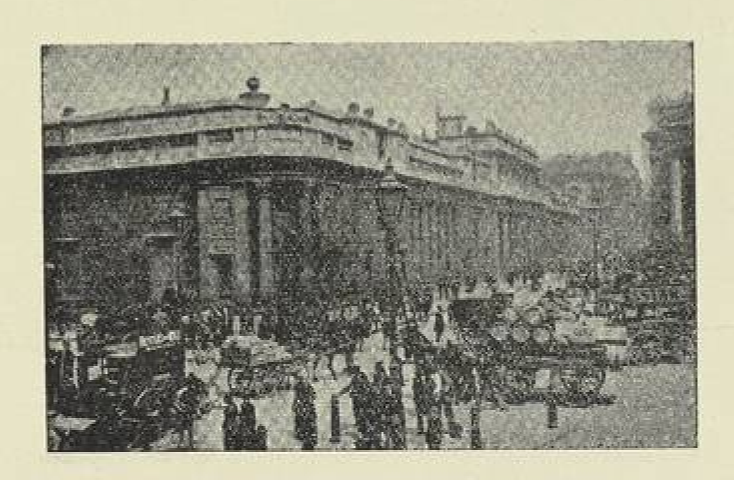


دار البلدية

طولها ٤٦ مترا وعرضها ١٥ مترا وارتفاعها ١٧ مترا لها سقف من الخشب بديع ، وهى معدة لاجراء الانتخابات البلدية وللاجتماعات الخاصة بالنظر فى شئون المدينة ، ولحفلات تكريم العظماء .

وبالدور الأرضى من هذه الدار متحف للآثار الرومانية فى العصور الوسطى ، وكذلك مجموعات من خطوط عظماء الانجليز مثل شكسبير وكروموبل وولنجتون ونلسون وغيرهم .

بنك انجلترا . وهو بناء ضخم جداً يشغل نحو ١٦٠٠٠ متر مربع وبداخله ثمانى رحبات بها غرف شاسعة يشغلها عمال المصرف .



بنك انجلترا

وقاعة الصرف طولها ٢٤ مترا وعرضها ١٣ مترا وضعت فوقها ساعة فريدة . تتفرع منها قضبان من النحاس مجموع أطوالها ٢١٥ مترا تتصل بست عشرة ساعة موزعة فى انحاء العمارة ، وتتحرك الساعات بواسطة الاسلاك المذكورة .

ومن أغرب ما فى هذه القاعة جهاز لنقد الجنيهات ، وهو ينقد فى الدقيقة الواحدة ثلاثة وثلاثين جنيها ويضم الصحيح منها فى ظرف خاص والناقص فى ظرف آخر .

وتقع تحت هذه القاعة أقبية بها الخزائن الحديدية المخصصة لحفظ الأمانات التى يودعها الأفراد .

البورصة . وتقع امام البنك ومدخلها مرتفع عن الأرض قليلا وامامها اثنا عشر

عاموداً بديعة الصنع ، وفوق هذه الأعمدة بناء مثلث عليه نقوش تمثل اجراءات التجارة وصورة عمدة المدينة ورجال البلدية ورجلا عربياً وآخر هندياً وثالثاً يونانياً ورابعاً تركياً وتجاراً من الأنجليز والهنود والصينيين والفرس والزنوج وغيرهم .

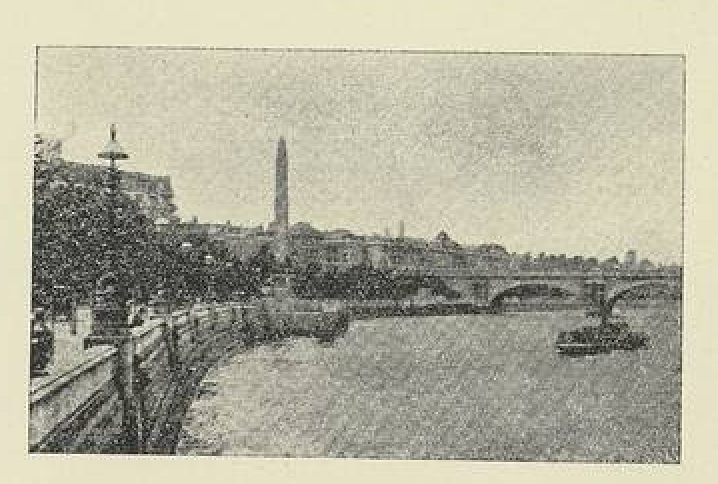
ويعرف الحى الذى تقع فيه البورصة باسم « ستى » وهو كثير الازدحام بسبب حركة الأعمال التجارية والمالية .

وأمام البنك والبورصة ميدان متسع هو ملتقى خطوط عربات الاتوبوس فى لندره وفيه حركة هائلة .

كوبرى التاميز . ومن مشاهد لندره أيضاً جسرها المقام على نهر «التاميز» وطوله ٢٨٣ متراً وعرضه ٢٦ متراً وقد شيد على خمس عيون نصف بيضاوية من حجر الجرانيت .

وبالقرب من هذا الكوبرى عامود يصعد المشاهد فوقه فيرى مناظر المدينة جميعها تقريباً ، ويراها كأنها البحر الزاخر تموج بالجموع . وارتفاع هذا العامود ٦١ متراً ويسمى « الاثر » وقد أقيم فى سنة ١٦٧٧ تذكاراً للحريق الهائل الذى دمَّر لندره فى سنة ١٦٦٦ .

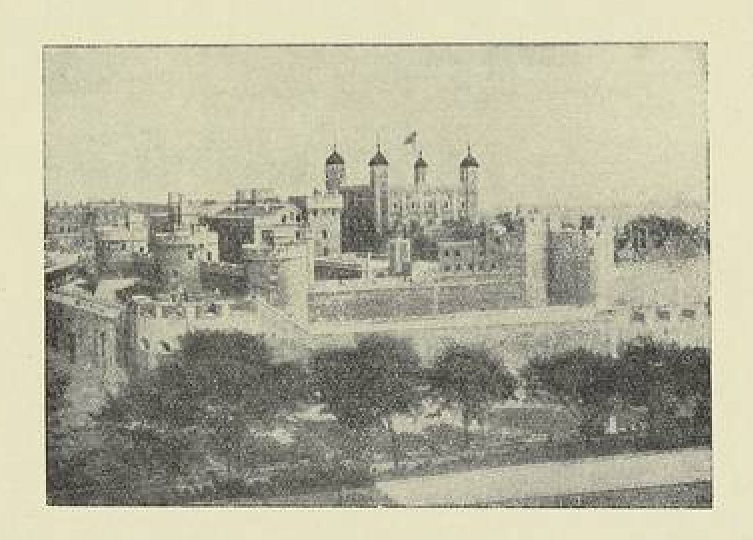
رصيف فكتوريا . ويقع غرب الكوبرى على الضفة اليسرى لنهر التاميز حتى يصل إلى كوبرى ويستمنستر ، وطوله أكثر من كيلو مترين ، وفى وسطه طريق خاص بالعربات عرضه عشرون متراً وممران من الجانبين للسائرين .



رصيف فكتوريا

مسلة كليوباترة . وعلى هذا الرصيف تقوم مسلة كليوباترة التى أهدتها مصر إلى انجلترا وقد أقيمت فى مكان غير ظاهر .

برج لندرة . وهو حصن قديم كان سجناً فى الماضى . يتألف من عدة مبانى مختلفة يحيط بها خندق عميق ، وله اربعة ابواب على أحدها مكتب تذاكر الدخول وفيه معرض للاسلحة القديمة وجواهر التاج . وهى محفوظة فى دولاب من البللور فى الرحبة الداخلية .



برج لندرة

وقد رأينا على يسار الطريق عند الدخول مدفعاً تركياً علمنا ان السلطان عبد المجيد أهداه للحكومة الانجليزية سنة ١٨٥٧ .

نفق التاميز . وهو سرداب تحت النهر يوصل بين ضفتيه لتسهيل المواصلات بينهما وقد عمل نفق آخر للسائرين امام برج لندرة لنفس الغرض .

ميدان الطرف الأغر « ترافلجار » . وهو من أعظم ميادين لندرة . ويجتمع فيه الكثير من السائحين الأجانب لمشاهدته . وقد سمى بهذا الاسم تخليداً لذكرى بطل البحر الأميرال نلسون الذى مات موتاً مجيداً فى واقعة ترافلجار اثناء محاربته الاسطولين الفرنسى والأسبانى ، وقد أقام الانجليز تمثال بطلهم فى وسط الميدان على قاعدة من البرونز فوق عامود من الجرانيت طوله ٤٤ متراً . وعلى الأوجه الأربع لقاعدة العامود صور بارزة تمثل احداها واقعة أبى قير المشهورة سنة ١٧٩٨ . والثانية صورة واقعة كوبنهاجن

سنة ١٨٠١ وفيها نلسون يوقع شروط الصلح على مدفع . والثالثة صورة واقعة سان فنسان سنة ١٧٩٧ وفيها نلسون يتسلم سيف القائد الأسبانى . والرابعة صورة واقعة ترافلجار سنة ١٨٠٥ وفيها صورة نلسون فى حالة النزع .

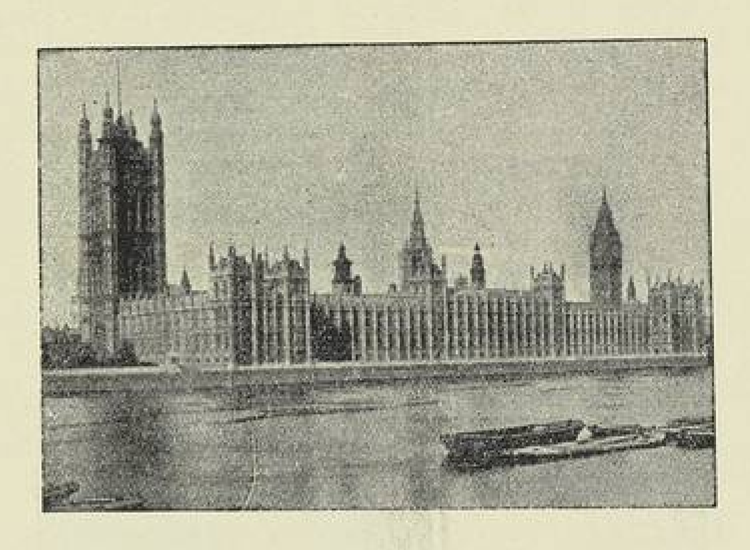


ميدان الطرف الأغر

وتتفرع من ناحية الميدان الشمالية الغربية طريق تسمى « پال مال » ويتخلل هذه الطريق ميدان « واترلو » ويتفرع من هذا الميدان الشارع المسمى « ريچنت » وهو من أهم شوارع لندره وبه توجد مساكن العظماء والأمراء ومحال اللهو الراقية والمطاعم الفخمة وغيرها . ومن الغريب انه لا يحتوى سوى قهوة واحدة للجلوس وهى فرنسية . أما باقى مشارب لندره فليست فيها أماكن للجلوس ولكن يتناول الناس المرطبات وغيرها وقوفاً ثم ينصرفون . والانجليز يقدرون الوقت فلا يضيعونه فى الجلوس بالمقاهى .

دار البرلمان . أو قصر وستمنستر ويشغل مسطحاً قدره ٣٢٣٧٣ متراً مربعاً ، وفيه احدى عشرة رحبة و ١١٠٠ حجرة . وقد بلغت نفقات انشائه عدة ملايين من الجنيهات . وواجهة وستمنستر شرقية وبزاويته من جهة الشمال برج الساعة وارتفاعه ٩٨ متراً . ولهذه الساعة اربعة وجوه قطر كل منها سبعة أمتار . ويشرف على ادارتها

أحد علماء الفلك ، ويعرف فيها فضلا عن الساعات اليوم والشهر والسنة . وتسمع دقات جرسها الضخم على مسافات شاسعة .



دار البرلمان

حديقة الاسماك . « رويال اكواريوم » وفيها حياض كبيرة ملأى بمياه البحر وأخرى ملأى بمياه النهر لتربية الأسماك وحفظها فى نوع المياه ودرجة الحرارة المناسبة لها .

ريجنتس بارك . وهو من حدائق لندرة الشهيرة ويشغل مساحة قدرها ١٨٩ هكتارا وبها منازل لبعض الأفراد والشركات .

هيد بارك . وهو بستان أنيق شاسع ، مساحته ٥٨ هكتاراً . وقد حُفرت به بحيرة كبيرة متسعة تتصل بنهر « التاميز » ، وقد غدا هذا البستان ملتقى أهل الثراء والجمال يجتمعون فيه للسمر والنزهة .

وفى يوم الاحد ترى المدينة — وهى المدينة الفخمة الزاخرة — هادئة ، خالية الطرقات لأن جميع السكان يخرجون ذلك اليوم إلى الحدائق للنزهة ، ويذهب الكثيرون إلى هيد بارك حيث يجد الفتيان والفتيات تسامحاً كبيراً من رجال البوليس .

وقد دعانى صديق عبد العزيز عزت « باشا » لمشاهدة التمثيل فقصدنا إلى مسرح الادن وهو معد للتمثيل والرقص والغناء ويقصده كثير من الغانيات .

وزرنا محلا لشرب الشاى يدفع زائره شلناً ثم يشرب الشاى ويأكل ما يشاء من أنواع الفطير الموجودة بكثرة .

وتوجد بلندره عربات تسمى « كاب » وهى ذات عجلتين ويجرها حصان واحد للسائق كرسى من الخلف يسوق منه . ( وفى المناظر السابقة يرى شكل هذه العربة )

وإليك بعض ملاحظاتى العامة عن لندرة .

شوارعها — لا يوجد فيها شجر الا نادراً

بناياتها — فخمة وبواجهات بعضها تماثيل والمبانى مسودة من دخان الفحم الحجرى الذى يحرق فى المعامل وقاطرات والسكك الحديدية فى داخل المدينة ، حتى سراى المملكة

أعظم بناياتها — مجلس النواب وسراى الحقانية الجديدة (Cours de justice)

أُمينبُوس — مثل التى فى باريس وداخلها مفروش ببساط والكمسارى ينادى على المارة بَاسم الجهات الذاهب اليها وتارة ينزل ويذهب ليأتى بالسيدات ويركبهن

الدكاكين — تقفل يوم الأحد وبعضها يقفل من ظهر يوم السبت .

نساء لندره — يستحسن البرانيط المدورة على شكل الطربوش وريش النعام القصير من الامام ويملن الى التعطر .

وبعد انتهاء مشاهداتى شكرت لعبد العزيز عزت ( باشا ) جميله وعدت الى باريس

**المانيا** . اعتزمت فى صيف ١٨٨٧ أن أقوم برحلة فى بعض بلاد أوربا الوسطى برفقة ابراهيم بك ذو الفقار . فغادرنا باريس فى ٣١ اغسطس إلى ستراسبورج ، وفى الطريق نزلنا بمدينة نانسى ؛ وهى جميلة نوعاً والكثير من بيوتها تحيط به الحدائق وجوها لطيف ، ويشقها خطان متعامدان من الترام .

ستراسبورج . وغادرناها قبل الظهر إلى ستراسبورج ولدى وصولنا اليها نزلنا فى احد الفنادق وبعد قليل من الراحة خرجنا لمشاهدة المدينة وعدنا . وفى اثناء العشاء حضر لمقابلتى ضابط المانى واتضح انه كان يريد مقابلة توفيق بك التركى الذى كان فى ستراسبورج وسافر منها وكان بها بمهمة رسمية .

وكان أهم ماشاهدناه فى هذه المدينة جامعتها العظيمة ؛ وهى بناء فخم شاسع تتوسطها

قاعة فسيحة جداً صنع سقفها من البللور. وفى الطابق الاعلى بهو كبير جداً كثير الزخرف وفى صدره صورة الامبراطور غليوم الثالث مهداة منه للجامعة .

وشاهدنا أيضاً كنيسة القديس توما وما فيها من ذخائر فنية عجيبة. وأهم ما استرعى نظرنا فيها صورة تمثل المارشال دوسكس يهم بالنزول إلى مقبرة يفتحها له ( الموت ) وقد صور فى شكل هيكل عظيم، ولكن امرأة حسناء ( فرنسا ) تمنعه، وهرقل أمام الموت يتحسر على هذا المصاب ، وبين الاثنين ( النفس ) تحت أقدام المارشال وإلى يمينه أعلام ترمز إلى البلاد التى هزمت امام فرنسا وهى انجلترا والنمسا وهولاندة ، وإلى يساره أعلام فرنسا الخافقة المنتصرة .

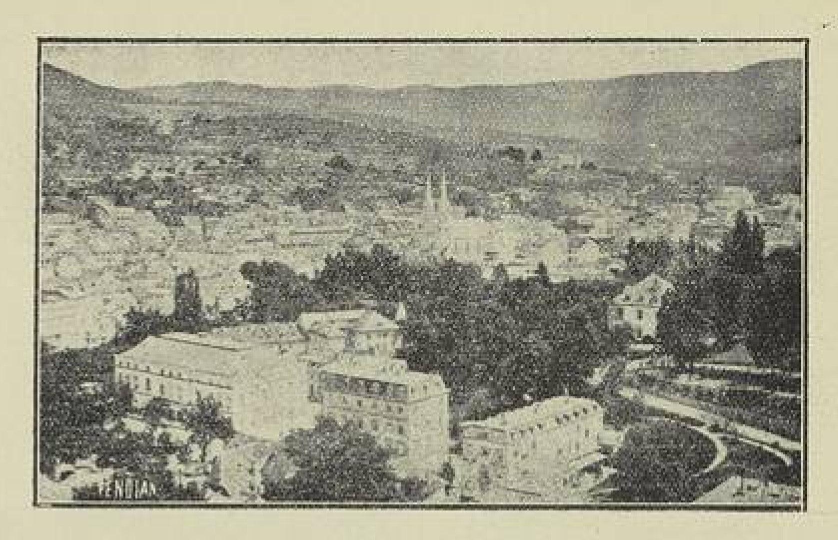
وذهبنا إلى الكاتدرائية لرؤية ساعة ستراسبورج الشهيرة وفيها يرى الانسان حركة الأرض والشمس والقمر والنجوم . وفوقها صورة المسيح وإلى يساره ديك اذا حلت الساعة الثانية عشرة انتقل من اليمين وغاب فى الشمال وعند ما يمر بصورة المسيح يحنى ظهره وينفض جناحيه ورجليه ثلاث مرات أثناء دق الساعة .

ويخيل للناظر أن المدينة أشبه بحصن لما فيها من الحركات العسكرية الدائمة والجنود الغادية الرائحة .

بادن بادن . ثم غادرنا ستراسبورج فى يوم ٢ سبتمبر الى بادن بادن . وهى بلدة جميلة ظريفة من كل ناحية من نواحيها حتى لكانها خلقت للبهجة والمرح والغبطة والسرور ؛ فشوارعها وبيوتها وحدائقها وملاهيها كلها جذابة ساحرة . ويقصدها الكبراء من كل فج

وفى المساء ذهبنا للتريض فى المحل المسمى « كونفرساسيون » يدخل اليه من باب حديد الى طريق واسعة محاطة بأشجار من الجهتين . وعلى جانبى هذه الطريق دكاكين يباع فيها أفخر ما يوجد فى البلد ، وفى نهاية هذه الطريق جملة محلات لشرب الجعة ، وأمامها ميدان به كشك للموسيق . وقد رأينا بها امبراطور البرازيل السابق وهو يرتاض فى حدائقها بكل بساطة . وكان موجوداً بها للاستشفاء بمياه حماماتها . وسكانها أهل دين وورع حتى أن المعابد منتشرة فى الحدائق وحتى بالفنادق يوضع الانجيل فى كل غرفة من غرفها .

ويشرف على المدينة جبل مركور وارتفاعه ٦٧٠ متراً وقد صعدنا الى قمته وكان المنظر خلاباً




بادن بادن

كارلسروه. ثم سافرنا الى كارلسروه وهي عاصمة دوقية باد، وقد اخترقت على

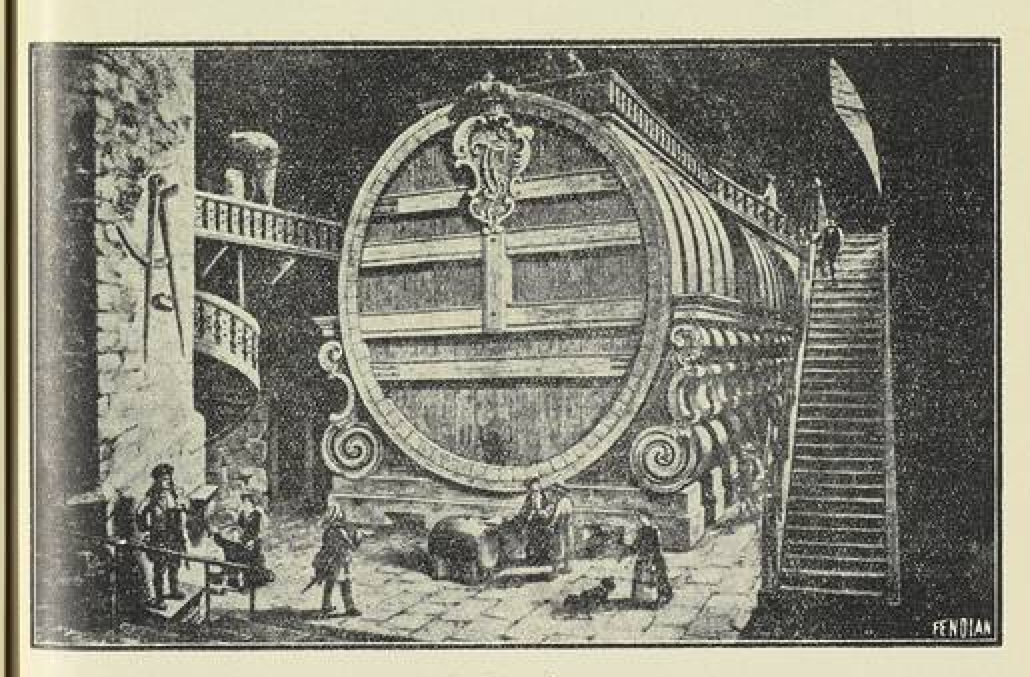
مدينة كارلسروه

شكل مروحة مركزها ميدان سراى الدوق وشوارعها تتفرع من هذا الميدان وتنتهى الى شارع محيط على شكل نصف دائرة . وصادف يوم زيارتنا للمدينة عيد جلوس دوق بادن ، وكان الأهالى فى فرح والموسيقى العسكرية تصدح .

هيدلبرج . وصلناها فى يوم ٣ سبتمبر وموقعها جميل جداً ولكن مبانيها ليست رائعة ويكتنفها جبلان يخترقهما نهر ، وفى بعض ميادينها تماثيل من البرونز .

وبها جامعة ولكنها ليست فخمة على أنها أقدم جامعات ألمانيا . وترى على وجه طلبتها آثار الجروح لغرامهم بالمبارزة . وقد ترى بعضهم مقطوع الأذنين .

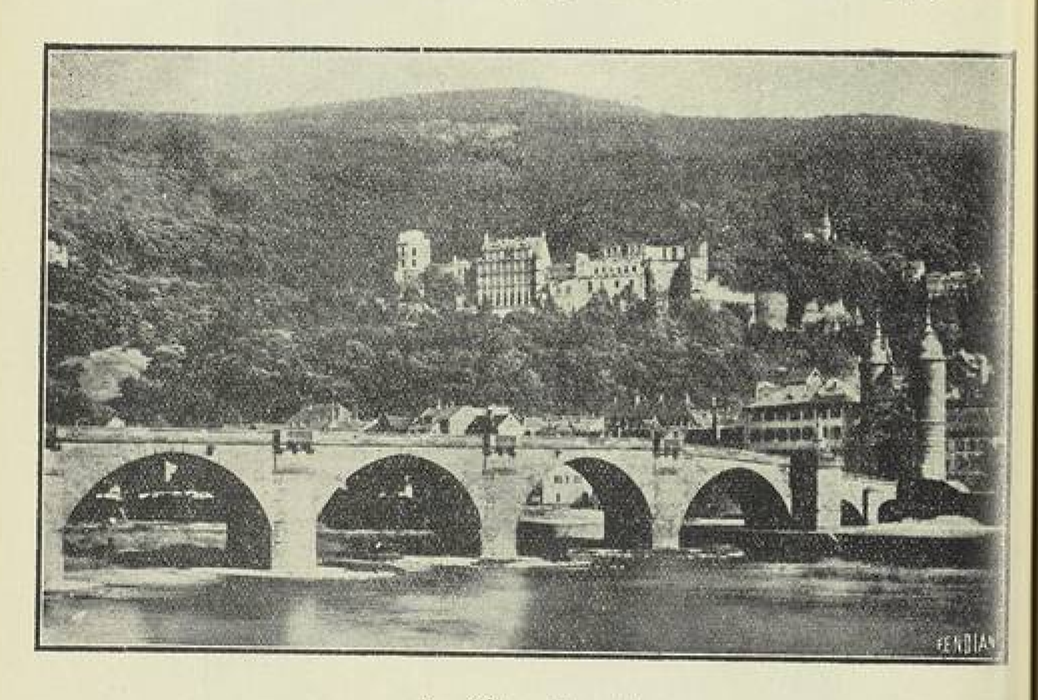
وفى هيدلبرج برميل هائل يمثل البيرة التى هى الشراب الألمانى القومى




هيدلبرج . البرميل

وفى صباح الغد ذهبنا لمشاهدة القصر الدوقى ؛ وهو قديم جداً مشيد على مرتفع وموقعه فى وسط جبل محاط بالخضرة وواجهته عظيمة جداً . أما ظهره فكأنه حصن عظيم إذ يبلغ سمك بعض جدرانه نحو ستة أمتار ونصف متر . وعند مايجتمع عدد من المتفرجين تأتى إحدى الخادمات وتقود الزائرين الى داخل القصر . وأول ما يصادف الزائر فناء واسع مكون من ثلاث طاقات ومزخرف بالنقوش الجميلة وصور مشاهير

العصور الخالية . ثم مخزن الأسلحة وهو تحت أطباق الأرض . وثمة سلم صغير ينزل الزائر به الى الكنيسة . وهى تحتوى على كثير من الصور والتماثيل



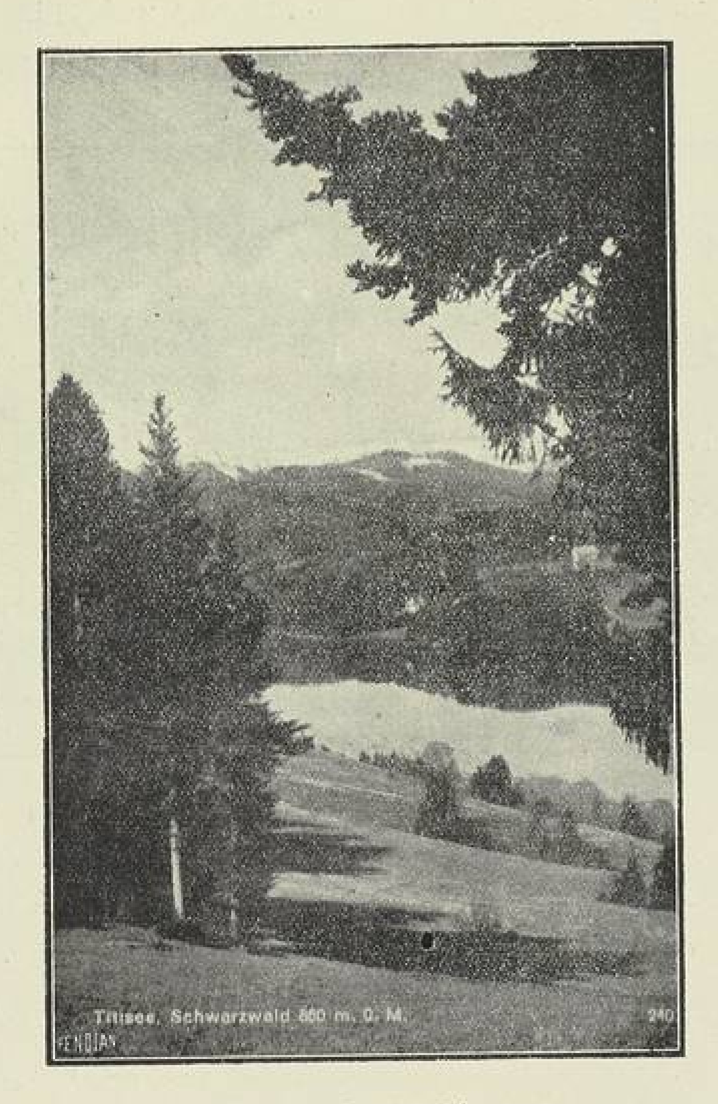

هيدلبرج . القصر والكبرى القديم

وكانت السراى ليلتئذ كأنها فى وسط اللهب ، ويخيل للناظر أنه حريق ولكنه ناشىء عن نور ( ناربنجال ) الحمراء

ثم زرنا المتحف وهو يحتوى على بعض اشلاء ورؤوس من حكموا هيدلبرج ونقوش على الأحجار ، وفى البهو بئر عميقة جداً تحيط بها أربعة أعمدة

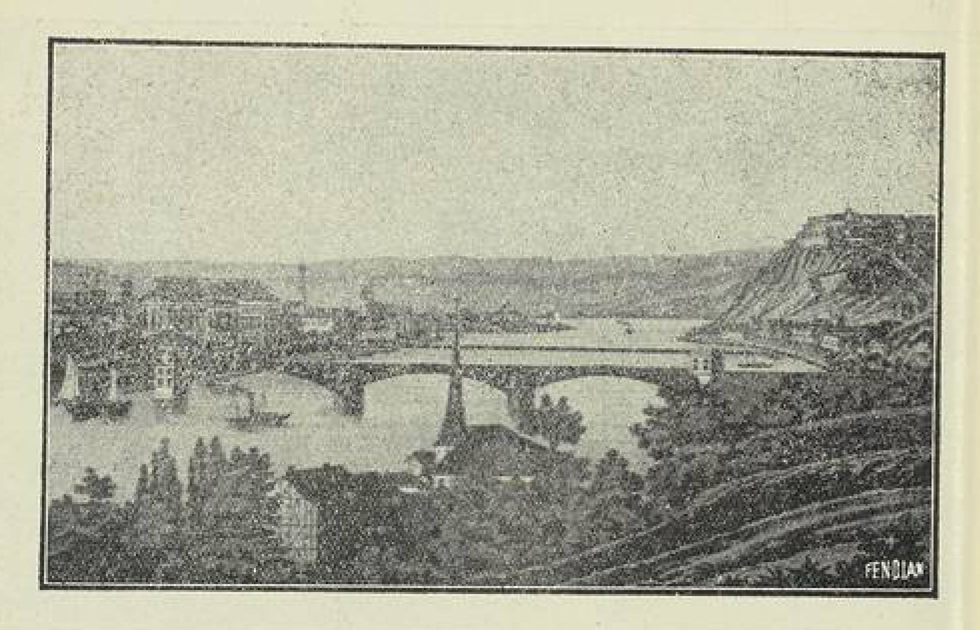
الغابة السوداء . وقد شاهدنا عند مرور القطار من كارلسروه الى هيدلبرج الغابة السوداء وهى معدة للاستشفاء بهوائها الجديد ومياهها المعدنية وفيها قبوتينى الرائعة المنظر

ميانس . فى يوم ٤ سبتمبر سافرنا الى ميانس وليس فيها ما يستحق الذكر غير كنيستها الفخمة الجميلة وبعض المناظر البديعة على ضفاف نهر الرين . وبارحناها فى ٥ منه بطريق الرين الى كولونيا . ومررنا فى طريقنا بكوبلنس وهى مدينة تجارية ليس إلا




قبوتيتى . في الغابة السوداء ( موريا تداركا )

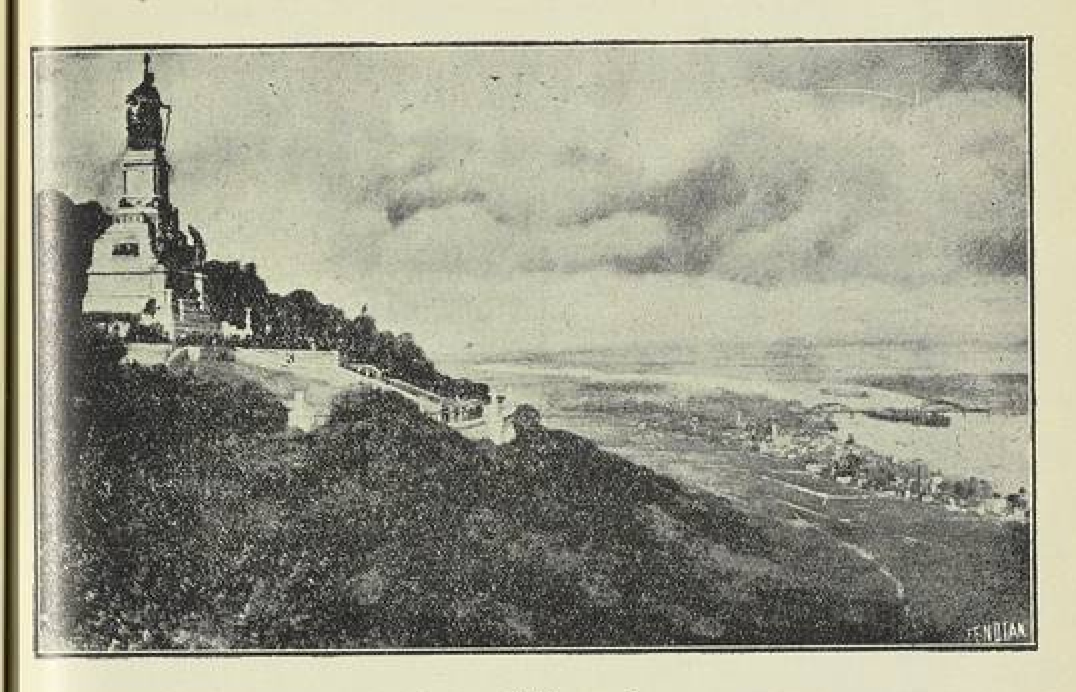
كولونيا . وصلناها فى يوم ٥ منه والطريق بينها وبين ميّانس حافل بالمناظر الجميلة ، وقصور الملوك والأمراء ، واطلال الأبنية القديمة الأثرية . وكان الجو قاتماً فلم نتمتع كما يجب بهذه المناظر . ومما شاهدناه مدينة « يوهانسبرج » الشهيرة بنبيذها والتى بها قصر « ميتيرنيخ » وبعدها قرية ريدنز هايم وبالقرب منها تمثال هائل يسمى چرمانيا أقيم تذكاراً لانتصار الألمان فى حرب السبعين




مدينة كوبلنس

ومن الفكاهات التى وقعت لنا على ظهر الباخرة أننا عند تناول الغذاء شربنا نبيذ الرين الأبيض المشهور وكان لذيذ الطعم . ولكننى عقب الطعام شعرت بنشوة . وفى أثناء ذلك مر بنا مراقب الباخرة لأخذ التذاكر ونحن على الكورتا وكنت أنا الذى أتولى الانفاق فى هذه السياحة وأحمل قوائم المصروفات والأوراق ، وكانت معى التذكرتان ففتشت عنهما فى أكثر جيوبى فلم أجدهما ، وكنت أضحك من نفسى لما أشعر به من تأثير النبيذ ، وكان رفيق يشاركنى فى هذا الضحك مع جميع الموجودين ، والموظف أمامى ينتظر بفارغ الصبر التذكرتين . ولما عيل صبره من كثرة التفتيش فى الأوراق تركنى ضاحكا وقال لى : خذ راحتك وابحث عن التذكرتين على مهل . والغريب أننى لم أعثر عليهما إلا فى آخر جيب فتشته !

أخيراً وصلنا الى كولونيا إحدى كبريات مدن ألمانيا الحربية ، وهى متسعة شاهدنا أهم ما فيها ، وهى كاتدرائيتها القديمة . وبها برجان يبلغ ارتفاع كل منهما ١٥٩ متراً وبأعظم ميادينها ثلاثة تماثيل كبيرة أحدها لبسمارك وآخر لفون مولتك والثالث لفريدريك غليوم راكباً جواداً تحف به رجال الدولة .



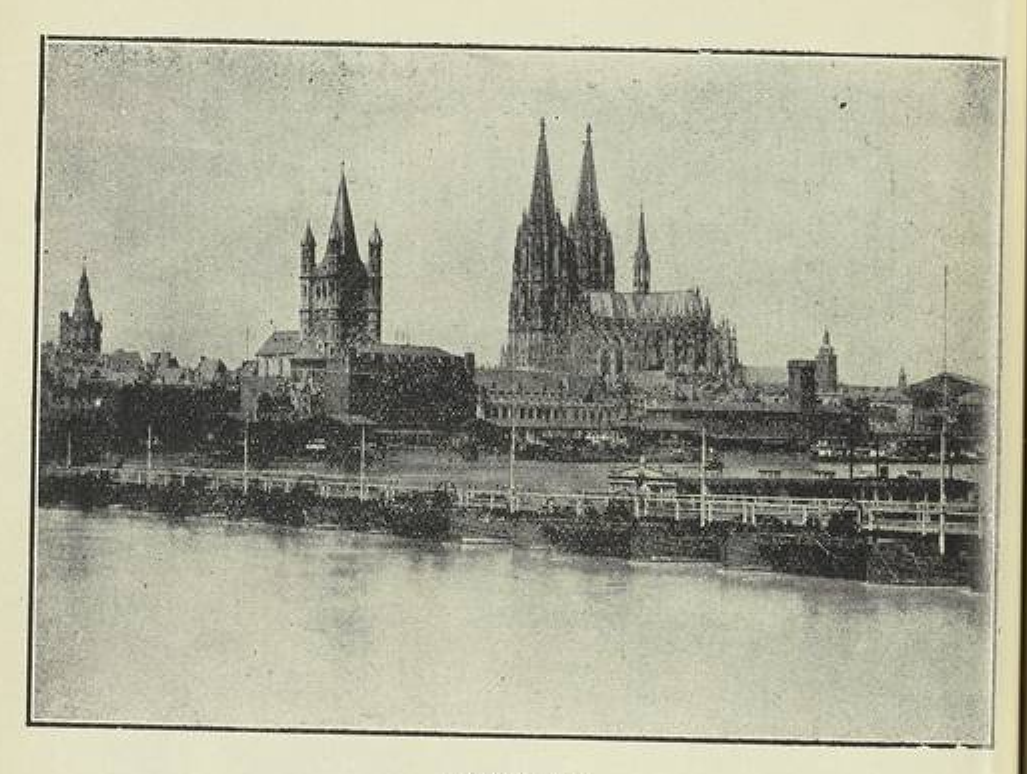
نيدر ڤالد تمثال جرمانيا

وهذه المدينة مشهورة بماء الكولونيا. وأعظم شوارعها هو شارع هوخ حيث تحفه الدكاكين العظيمة والعمارات الكبيرة. وفى كولونيا حديقة للنباتات وأخرى للحيوانات. ولما كنا قد قررنا زيارة مونيخ بعد انتهاء رحلتنا فى الرين اضطرنا الى أن نرجع بالسكة الحديدية من مدينة كولونيا الى ڤيسبادن ومنها الى مونيخ

ڤيسبادن. وصلناها فى يوم ٧ منه فى طريقنا الى مونيخ وهى مدينة صغيرة إلا أنها جميلة رشيقة ذات مناظر ساحرة، وسكانها يميلون الى المرح، وتسمع أصوات الموسيق فى أغلب بيوتها، وأشهر ما فيها حماماتها المعروفة وكان بالفندق الذى نزلنا به مطعم غريب أقيم على شكل كهف به جبلاية صناعية تتدفق منها المياه وعليها الشجيرات.

وفى هذه المدينة كازينو فخم يؤمه الأغنياء الذين يستشفون بمياه الحمامات. وبها كورسال بديع يقصده الزائرون، ومحل للموسيق

وفى يوم ٩ منه صباحا سافرنا الى مونيخ عن طريق فرنكفور التى مكثنا بها ساعة واحدة لتغيير القطار. وفى أثناء ذلك تنزهنا فى داخل المدينة. ومما رأيناه من انتظام



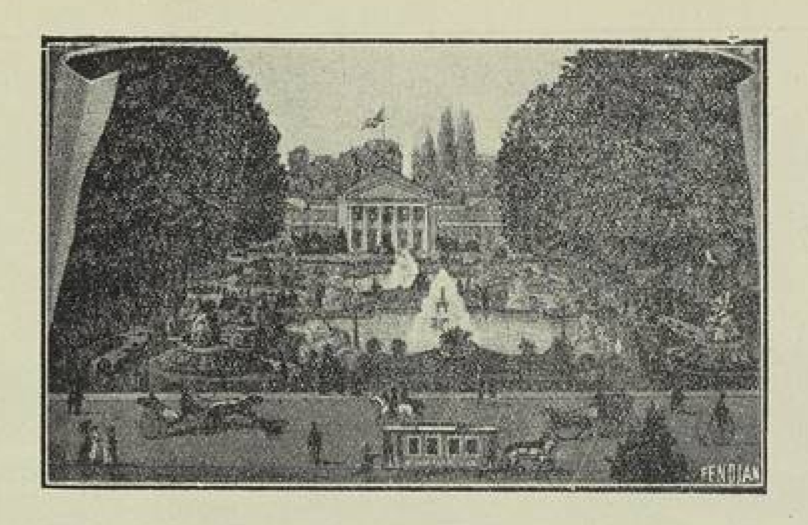
كاتدرائية كولونيا

شوارعها وبيوتها الشاهقة وميادينها الجميلة المزينة بالفساقي حكمنا بأنها من أعظم بلاد ألمانيا .

ولما حل ميعاد القطار وكان على أهبة التحرك أخذت حقيبتنا الكبيرة من ابراهيم بك ووضعتها مسرعا فى الشبكة المعدة للحقائب ، وبينما كنت أهم بأخذ الحقيبة الأخرى قام القطار فسقطت الحقيبة الكبيرة من أثر الاهتزاز على رأس مسافر ألمانى فاعتذرت له عما حدث ، باللغة الفرنسية ، ولعله ظن أنى فرنسى فتمتم طويلا ثم سكت ، وقد ظهرت على وجهه علامات الغضب

مونيخ . وفى المساء وصلنا الى مونيخ وقد أعجبت بمحطتها كثيراً ، وهى مدينة قد لا تروق أغلب الزائرين لكثرة ما فيها من البيوت العتيقة وان كانت مع ذلك تحتوى على كثير من الميادين الشاسعة ، والقصور الملكية الفخمة ، والمسارح ومحال الموسيق . ولاحظت أن بها كثيراً من ثكنات الجنود ، ونساؤها غير حسان .

أما مشارب الجعة فهى كثيرة جداً ، وقد دعانى رفيق إلى تناول شىء منها فدخلنا



فيس بادن — الكازينو

مشرباً جاءوا لنا فيه بقدحين كبيرين سعة الواحد منهما نحو لتر فدهشت لكبرهما . ومع أنى لم أكن ذقت الجعة من قبل فانى تناولت بعضها تحت تأثير إلحاح الزميل . وما كدت أشرب ثلث القدح حتى شعرت بتأثير الشراب فى رأسى ، فاضطررت ان أعود إلى الفندق تاركا زميلى ونمت حتى استفقت .

وفى المساء أردنا أن نذهب إلى محل غناء فدلنا بواب الفندق على مسرح بالقرب منا فتوجهنا اليه ، وكان أشبه بقهوة بها موسيقى وغناء ، ولهذا لم يرق لنا . وكان الغناء الالمانى كذلك غريباً ناشزاً عن أذواقنا فخرجنا آسفين .

وفى ١٢ سبتمبر سافرنا إلى ايشل بالنمسا .

ومما لاحظته فى القطارات الالمانية نظافة العربات ووجود أربع درجات . تمتاز الأولى منها بأن عرباتها ذات صالونات بها مناضد وكراسى من القش فى زمن الصيف ، والجهات الخلوية أعدت لها عربات خاصة تسمى عربات المناظر ( بانوراما ) كلها من الزجاج لتمكين السائح من رؤية المناظر الجميلة ، وكذلك لاحظت أن جميع كسارية القطار ينزلون فى لحظة واحدة عند وقوفه .

## النمسا .

يشوفشوفن . ولما تركنا آخر بلد المانى ودخلنا الحدود النمساوية واصلنا السير حتى وقف بنا القطار فى يشوفشوفن بعد الغروب ، وكنا ظننا أننا سنستمر إلى ايشل

ولكن الكمسارى افهمنا بالاشارة ان القطار لا يستمر فى السير وانه لا بد من النزول فى هذه القرية حتى يقوم القطار التالى فى الصباح .

ويشوفشوفن تكتنفها جبال عالية ، وهى بلدة صغيرة نائية عن العمران . فاستوحش صديق ابراهيم بك ذى الفقار لرؤيتها . وتشاورنا فيما نعمل ، واخترنا بين البقاء بالمحطة والنوم فى مكان مأمون داخل البلدة ، وأخيراً دلنا ناظر المحطة على مكان للنوم على احدى مرتفعات الجبل ، فصعدنا اليه وهناك أعطونا غرفة كبيرة . ولكن صاحبى كان قد صمم من شدة خوفه على أن نمكث طول الليل ساهرين ، ولما عارضته محتجاً بتعبنا من السفر اشترط على الا ننام إلا بعد أن نغلق الباب ونوصده بالكنبة والكراسى وكل ما هو موجود فى الحجرة . ففعلنا ذلك !! ونمنا مطمئنين إلى هذه المتاريس !

وفى الصباح نزلنا مبكرين بعد تناول طعام الفطور وأخذنا القطار إلى ايشل فسار فى التيرول بين مناظر بهيجة ولا سيما بالقرب منها حيث توجد بحيرات غاية فى الجمال

ايشل . نزلنا بها فى فندق لطيف حيث احتجزنا حجرة تطل على نهر ايشل الذى يخترق المدينة ، وعلى ضفته الأخرى غابة تقع فيها السراية الملكية . وخلفها مرتفع ترتاض فيه الأمبراطورة وحاشيتها . ومما سمعته من خدم الفندق أن الامبراطورة لا تنزل المدينة مطلقاً وانها اذا شاءت الرياضة خرجت إلى الغابة مع حاشيتها .

وفى المدينة حمامات معدنية مشهورة يقصدها الأجانب من كل فج . أما شوارعها وبيوتها فلا تستحق الذكر على عكس ضواحيها فأنها بديعة ، وبها مكان للرياضة يسمونه إسبلاناد يحتوى على جملة بيوت خلوية « ڤيللات » جميلة الزخرف ، وبها حدائق غناء ، وثمت كازينو تحيط به حديقة متسعة يلتق فيها كل الاجانب ، وامام السلم العام كشك الموسيق .

فينا . ومن ايشل ركبنا القطار وكان به عربات ( بانوراما ) من الدرجة الأولى على ما وصفنا . فاخترنا ركوبها وقد وصلنا ڤينا يوم ١٥ سبتمبر وما كدنا نرى مناظرها الأولى حتى أعجبنا بجمالها الفائق . وركبنا من المحطة عربة طلبنا من سائقها أن يوصلنا إلى فندق رويال ، فأجابنا بالايجاب ، بيد أنه لم يسر إلا قليلا حتى أدركنا أنه لا يعرف الطريق ، فاستوقفته حينما رأيت أحد رجال البوليس فسألته باللغة الفرنسية ولكنه لم يفهم شيئاً . وكنا بالمصادفة امام قهوة فكشف أحد خدمتها فى دليل المدينة عن رقم الفندق وأعطاه للسائق . اما رجل البوليس فقد أخذ فى مذكرته رقم العربة واسم الفندق .



الكنيسة الكبرى سانت اتين

وكان قد اجتمع حولنا فى هذه اللحظة خلق كثير ففهمت ان أهل فينا كاهل باريس تأخذهم نزعة الفضول .

وبعد ان وصلنا إلى الفندق — والذى رأينا فى طريقنا اليه كاتدرائية سانت اتين الفخمة — جلسنا لتناول طعام العشاء فى مطعمه فوجدنا على المائدة قطعتين صغيرتين من الخبز على كل طبق ، إذ العادة فى ألمانيا والنمسا ان تؤكل البطاطس مسلوقة بدل الخبز ،

ولهذا لا يقدم خبز كثير الا بالطلب، ولم نلبث ان اكلناهما . لأن خبز فينا مشهور بالجودة ولكنا كمصريين طلبنا المزيد منه فجاء لنا الخادم بقطعتين أخريين . ولما كررنا الطلب أتى لنا بكمية كبيرة من الخبز على أمل أن يكفينا هذا القدر الكبير . وبعد الطعام نزلنا للفسحة فوجدنا فى سبيلنا سرباً من بنات الهوى فمال أحدنا إلى صاحبه وهمس فى اذنه : « الخير كثير هنا » ثم رجعنا للنوم .

وفى صباح اليوم التالى توجهنا إلى فندق المتروبول وقابلنا هناك اسكندر بك ريشتوفتش الذى كان مرافقاً للبرنسين فى فينا ، وهو من المتمين إلى الخديو وكان موظفاً سابقاً فى شركة كوك ، فدعانا للغداء معه وبينما نحن على المائدة اذا بتونينو (باشا) التشريفاتى الأول وعلى جمال ( باشا ) وكانا فى رفقة البرنسين ، فدهشا لرؤيتنا لجهلهما وجودنا بفينا

وقد علمت منهما ان البرنسين التحقا فى اليوم السابق لوصولنا بمدرسة « التريزيانوم » الملكية أو معهد مارى تريز ، وهى مدرسة لتعليم ابناء الاشراف ، وأنهما سيعاملان فيها حسب قوانين المدرسة أسوة بغيرهما من الطلاب . وقد عين أحد ضباطها لملاحظتهما وللخروج معهما فى أيام الاحاد والعطلة .

وفى يوم الاحد التالى لوصولنا ذهبنا إلى فندق المتروبول وانتظرت البرنسين فى الردهة ، فرحبا بى كثيراً وقد كنت فيما سبق أستاذاً لهما فى المدرسة العلية بمصر ، ودعوانى لتناول الغداء معهما ، ثم صحبتهما بناء على رغبتهما لشهود حفلة السباق . وكان ذلك فى يوم ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٧ .

أما مشاهداتى فى فينا فهى :—

رافقت ابراهيم بك ذى الفقار ذات يوم إلى حديقة كبيرة تسمى « فولكس جارتن » أى حديقة الشعب ، وبها كشكان للموسيقى احدهما للموسيقى الاميرية والآخر للعازف الأشهر اشتراوس . وقد سمعنا عزفه فدهشنا لبراعته، وكان يتابع بحركات جسمه نغمات الموسيقى الراقصة التى يعزفها . وهذا المكان يؤمه كثير من بنات الهوى .

وفى مرة أخرى ذهبت مع ابراهيم بك وبرت كوك بن كوك واسكندر بك إلى كافيه ليرا المشهورة بتردد الحسان عليها ، ومما لاحظته ان من عادتهن المرور بين الرجال الجالسين على المناضد ولا يجلسن الا إذا دعين إلى ذلك ، بخلاف بنات الهوى فى باريس

فانهن يقمن بالمناورات لاجتذاب الرجال . وفيها فرقتان موسيقيتان من الفتيات ترتدين ملابس بيضاء عليها وشاح ، فاشار برت كوك الى إحدى بنات الهوى فجاءت وأخذ يداعبها وقدم من السجاير والمشروبات ما طلبت . وعندما أردنا القيام سألته عما إذا كان يريد تمضية الليل معها فاعتذر فالحت عليه فاعاد اعتذاره . ولما رأت منه الأباء ظنت انه لا يملك ما يدفعه لها ولكنها أحبته . فأفهمته انها لا تطلب مالا وأنها على استعداد أن تنقده من عندها اذا أراد ، فأبى أيضاً . وما زالت به حتى نزل عند رغبتها وعلمنا بعدئذ انه نقدها فوق ما كانت تتوقعه

وفى يوم آخر ذهبت مع رفيقى إلى مكان للنزهة فى ضواحى فينا اسمه « براتر » وكان زحام المتنزهين عظيما فى عربات نظيفة ، وجياد كريمة ، حتى عربات الاجرة وفى هذا اليوم شاهدنا من جمال السيدات مالم نره فى المانيا .

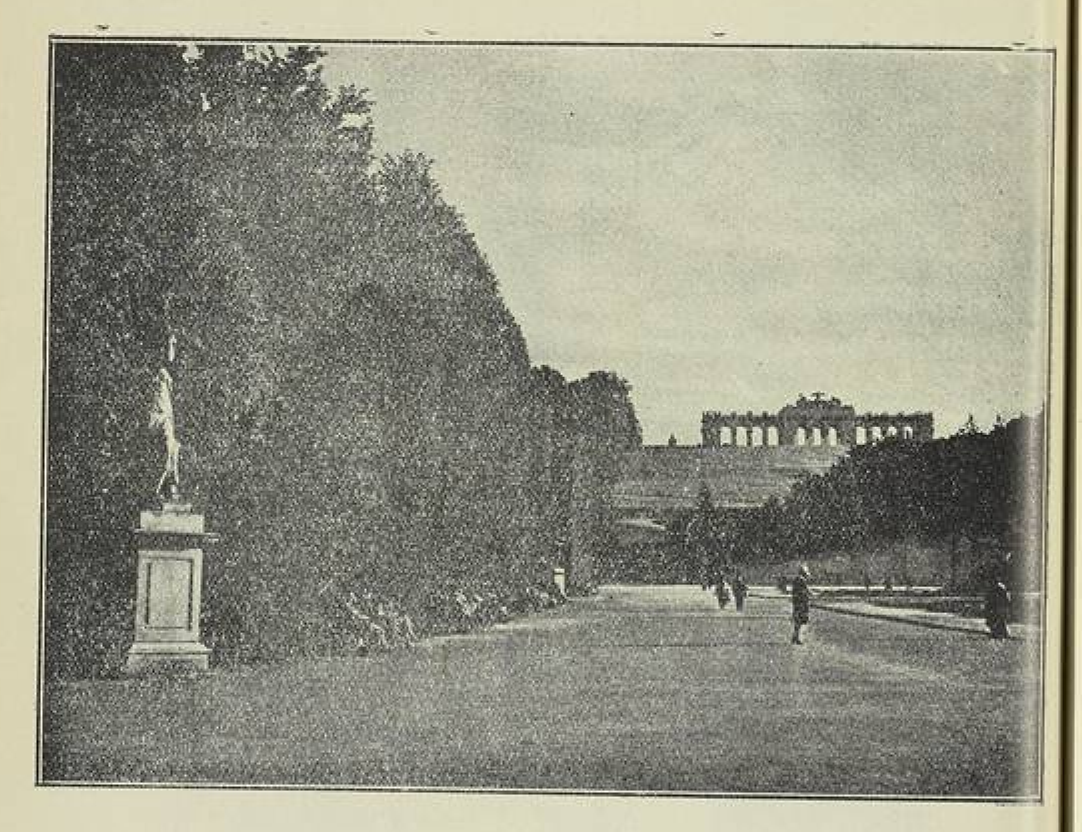
لا كسمبورج . وفى مرة أخرى ركبنا القطار إلى « لا كسمبورج » فى ضواحى فينا وشاهدنا فيها القصر الملكى القديم تحيط به بحيرة كبيرة وتحيط بالاثنين من الخارج حديقة واسعة . فركبنا قارباً ذهبنا به إلى القصر لمشاهدة محتوياته . وأهمها جملة صور لملوك بوهيميا . وتحت الأرض سجن فى وسطه صورة نمر ، وفى أحد أركانه تمثال رجل مقيد بالسلاسل تتحرك يده بواسطة آلة . وكان هذا المكان معداً لمن يحكم عليه بالاعدام فيلقى إلى حيوان مفترس ليأ كله .

شامبرون . وبعد أن تجولنا فى البحيرة رجعنا بالقطار إلى محطة شامبرون وهى آخر محطة قبل فينا ثم مشينا قليلا حتى وصلنا إلى القصر المشهور بها ، وهو الذى يقيم فيه الامبراطور فى الصيف .

وبالقصر حديقة واسعة بها حوض كبير له فوارتان بينهما تماثيل تمثل (اله البحر) وخيول البحر . ويليه تل مزين بالخضرة . فى أعلاه مشرفية كبيرة مغطاة بالخضرة طولها ٩٥ متراً وارتفاعها ١٩ متراً وتسمى ( جلوريت ) وتحتها حوض من الماء إذا نظر الانسان فيه رأى فينا وما حولها فى غاية الوضوح .

ثم نزلنا لمشاهدة حديقة النباتات وبعض الآثار الرومانية . وحديقة النباتات هذه كمثيلتها فى باريس وتمتاز عنها بالنظافة .

وفى يوم ٢٥ سبتمبر شاهدنا متحف القصر الامبراطورى وفيه كثيرمن الذخائر

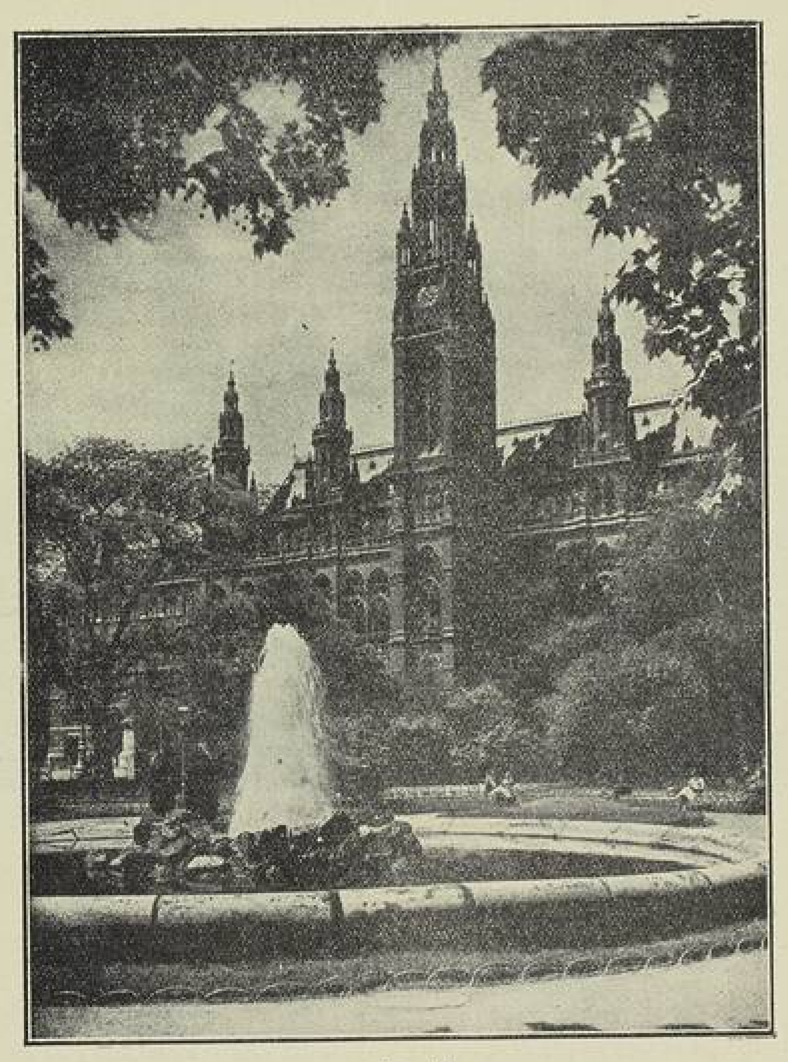


حديقة شامبرون

الفنية القديمة؛ منها ساعة قيل ان الخليفة هارون الرشيد أهداها إلى الامبراطور شرلمان، وهى أول ساعة عرفت فى التاريخ .

وقد لاحظنا ظاهرة عامة فى أهالى فينا وهى انهم فى غاية الأدب ، يبدو ذلك فى كل معاملاتهم حتى أنهم يبدأون بالتحية كل من قابلوه على الطريق فى الضواحى . وأحسن شارع فى فينا هو شارع (رِينْج) وهو طويل جداً وفيه كثير من المبانى الشاهقة. وأعجبنى فيها الأوبرا والمجلس البلدى . وقد شاهدنا فى الاوبرا رواية ( اكيلْسيور ) وكانت الموسيقى منتظمة والمناظر جميلة والرقص بديعاً .

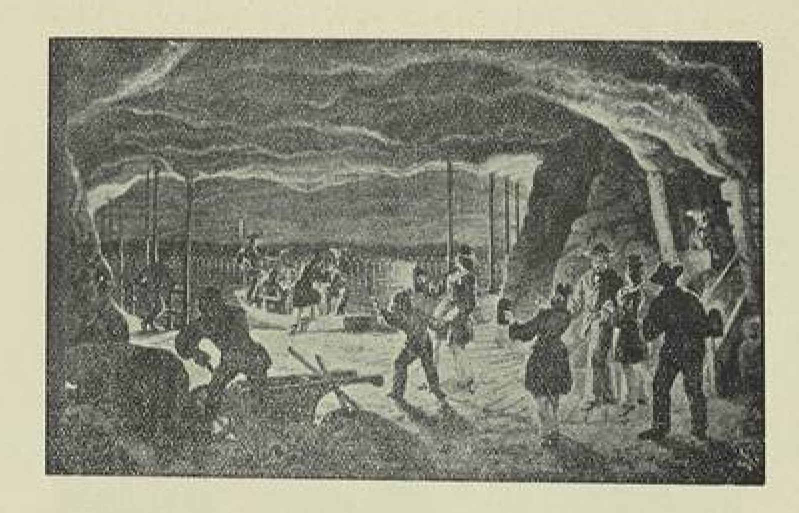
سالسبورج . وغادرنا فينا يوم ٢٦ سبتمبر إلى سالسبورج وهنالك وقع لنا حادثان لطيفان :



المجلس البلدى

الاول — اننا اثناء مرورنا باحد الشوارع وجدنا رجلا ألبانياً يحمل على رأسه (طبلية) بها حلوى (كاغد حلواسى) مصنوعة من النشا الرقيق جداً على شكل الورق على طبقتين بينهما الحلوى ، وهى مستديرة ، وهو ينادى باللغة التركية فاستوقفناه وتحدثنا معه فعلمنا انه استوطن هذه المدينة وانه يرتزق من بيع هذه الحلوى التى يقبل السكان على شرائها .

والثانى — انى وابراهيم بك تسلقنا جبلا حتى وصلنا إلى فوهة ينزل منها لاستخراج



النزول فى البئر

الملح من باطنه . ولما أردنا النزول جاء الحارس لكل منا برداء كالقميص من التيل منعاً لتلوث ملابسنا ، وزود كلا منا بمصباح ، وسار بنا برهة فى نفق حتى وصلنا إلى بئر ركب عليها حاجزان من الخشب منحدران أفهمنا الدليل أنا سننحدر على هذين الحاجزين وهو أمامنا وعلينا أن نعمل مثله . ثم نزل قليلا فلم يجرؤ أحدنا على النزول وراءه فعاد الينا ليشجعنا . فاما ابراهيم بك فابى كل الأباء وعاد من حيث أتى . وأما أنا فتبعت الدليل حتى جئنا أسفل البئر . وبعد أن مشينا فى طرقات كل سقوفها وجوانبها من الملح نزلنا بئراً أخرى ، ثم وصلنا إلى بحيرة كبيرة مضيئة بمشعل ماؤها من الملح الذائب ،



بحيرة الملح

وهناك ركبنا زورقا صغيراً ثم غادرناه وركبنا فى ( ترولى ) فأوصلنا إلى فوهة ثانية فى أسفل الجبل ومنها نفذنا الى الخارج فلحقت بصاحبي فى الفندق .



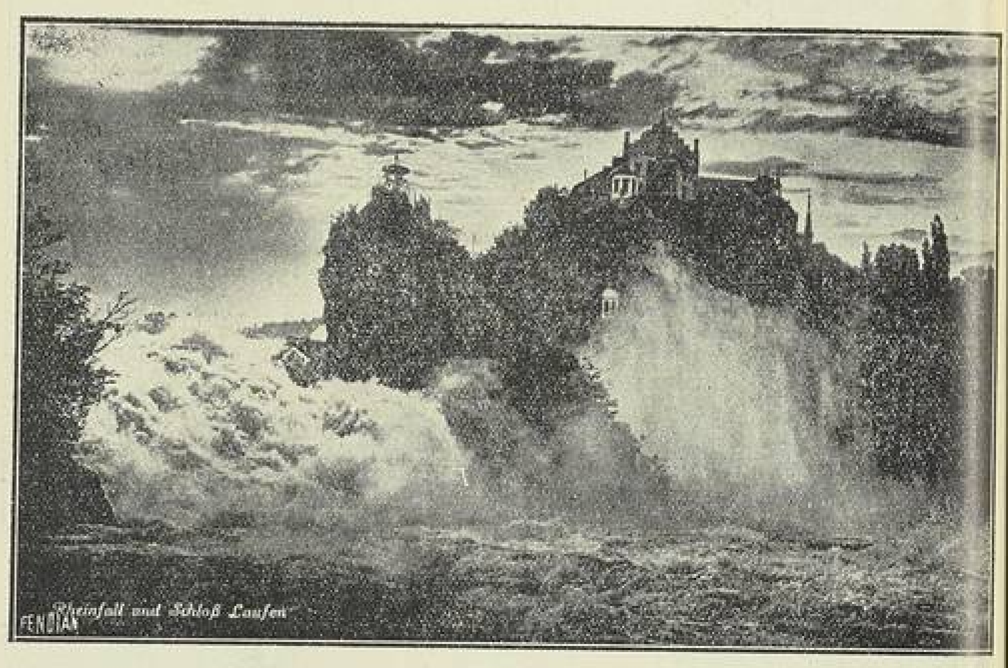
عربة الترولى

ثم بارحنا سالسبورج فى يوم ٢٧ منه إلى لَنْدَوْ فوصلناها فى منتصف الليل ومنها ركبنا وابوراً ببحيرة كونستانس إلى (رومانشورن) بسويسرا . وفى ٢٨ منه بارحناها إلى زوريخ وهى مدينة موقعها لطيف، على بحيرة جميلة ، وشوارعها حسنة ، وبيوتها عظيمة . وبعد ظهر ذلك اليوم بارحناها إلى باريس فوصلناها فى صباح يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٧

**سويسرا .**

نيوهاوزن . فى صيف سنة ١٨٨٨ قمت برحلة فى سويسرا وايطاليا والنمسا فغادرت باريس فى مساء يوم ٢٤ يوليه قاصداً إلى بال فوصلتها صباح اليوم التالى ومنها ذهبت إلى نيوهاوزن ، وبعد أن استرحت فى فندق هنالك يممت شطر الرين ورأيت فى قهوة على الشاطىء غرفة مظلمة أقيم فيها نموذج من الشمع للنهر وتموجاته وانحدار الماء من الشلالات . ثم عبرت إلى الضفة الأخرى وسرت قليلا لمشاهدة انحدار الماء . وقد لبست بذلة من الكاوتشوك وصعدت سلماً يوصل إلى جانب الشلال بحيث ابتل رأسى من رشاش الماء المنحدر بمنتهى الشدة . ورأيت على الجانبين كثيراً من الآلات التى تدار بقوة الشلال .

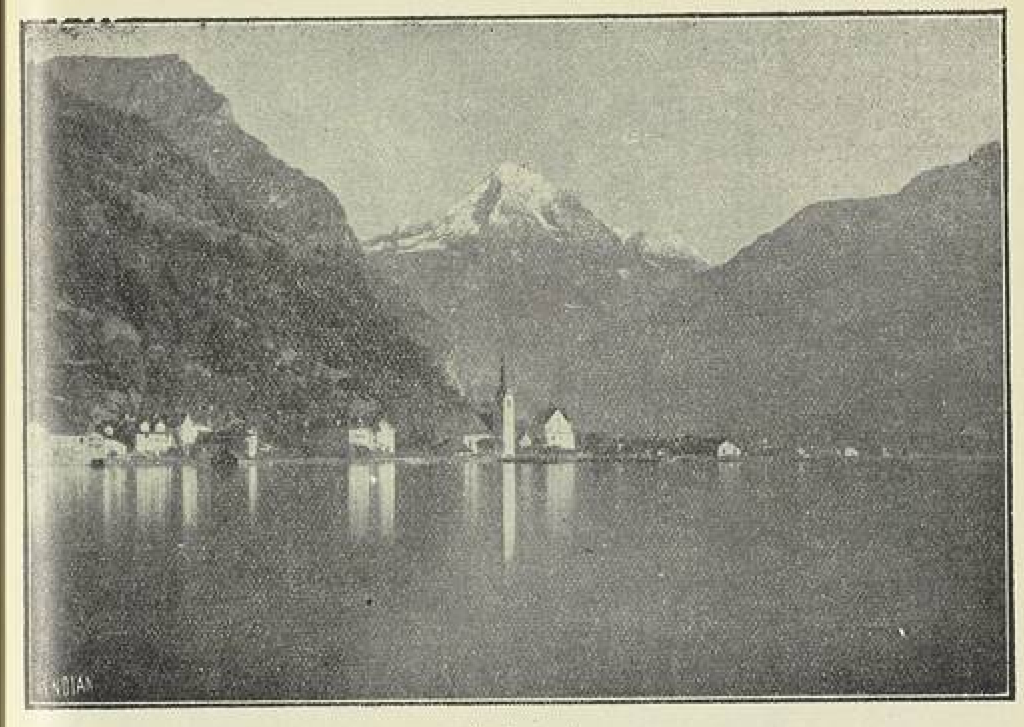
وفى المساء زين الشلال بنور كهربائى مختلف الألوان فكان منظر الزينات مع انحدار المياه آية فى الروعة . كما شاهدت قصر لوْفِنْ الواقع على الشلالات .



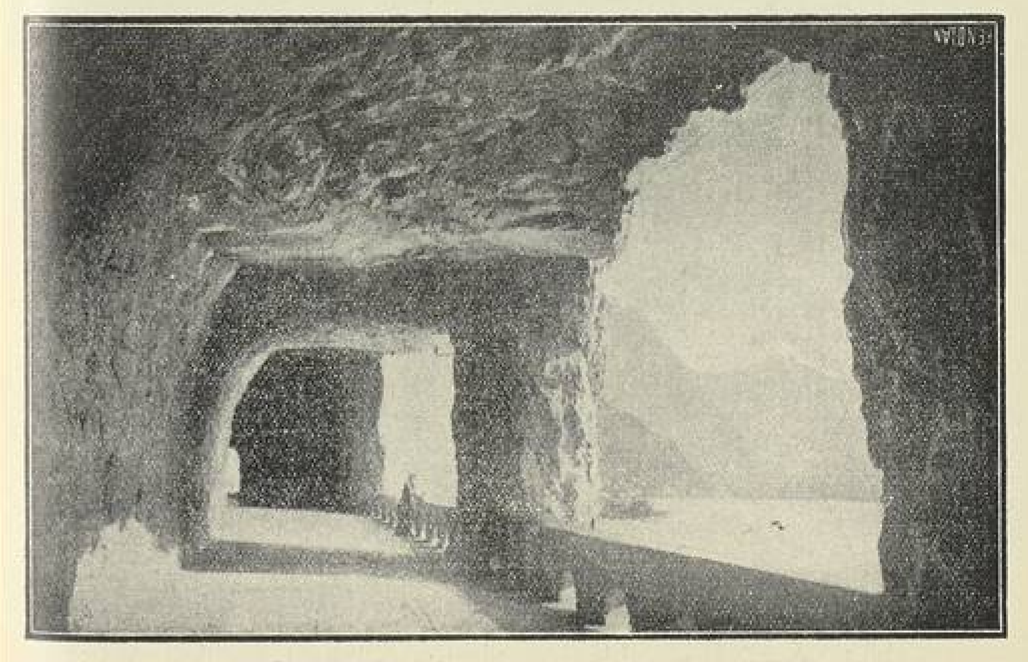

شلال نهر الرين وقصر لوفن

لوسرن . عدت إلى بال ثم غادرتها ماراً « بأولتن » إلى لوسرن . فلما وصلت إليها نزلت فى فندق « ليبالانس » على بحيرة الأربع المقاطعات . وبعد العشاء تنزهت على شاطىء البحيرة الساطع بالأنوار الكهربائية ، وسمعت الموسيقى فى حديقة مطعم سويسرا وهى جميلة ، وكنت أرى من نوافذ غرفتى جبل پيلات على يمين البحيرة ، وجبل ريجى كولمْ عن يسارها ، ومدينة لوسرن بينهما . وغروب الشمس عند البحيرة من أبدع المناظر وأعظمها سحرا

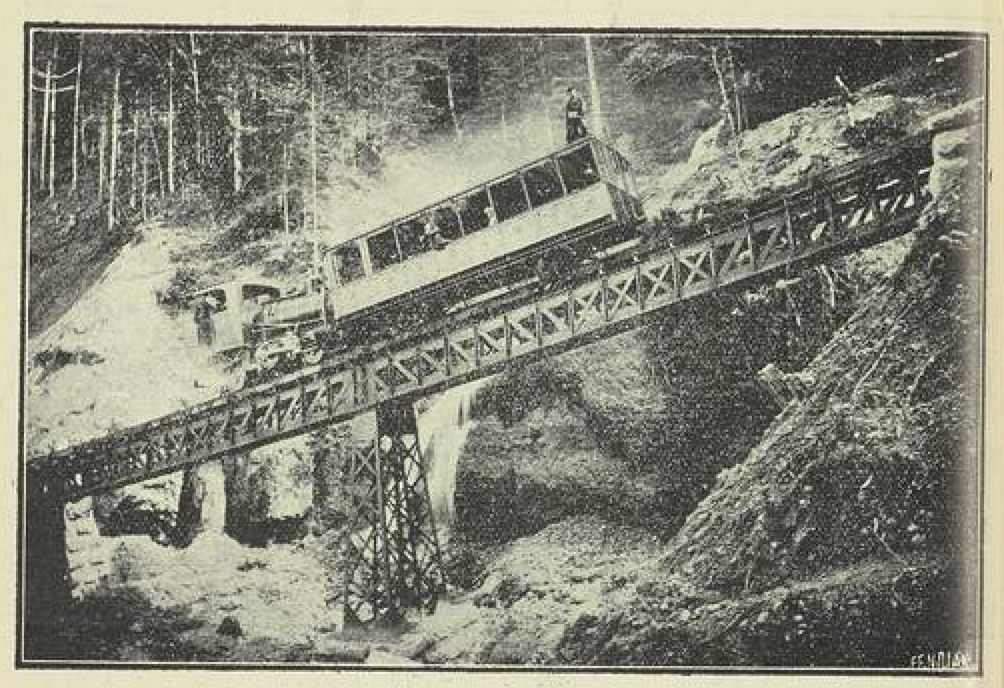
وفى صباح يوم ٢٨ منه سافرت بطريق البحيرة إلى فلولن ، وفى الطريق مر الزورق البخارى على معبد جيليومتِلْ حيث تمثال جيليومتل ممسكا بنشابته . وبعد وصولى إلى آلدورف تناولت الغذاء وتنزهت قليلا فى البلدة وصعدت على جبل صغير فوق قمته كنيسة من أقدم كنائس سويسرا . ثم رجعت إلى فلولن وشاهدت جبل اوريرو تشتوك على بحيرة الأربعة الأقاليم ومنظره الساحر . وبعد ذلك سرت على الأقدام إلى سيسيكون فى الطريق



اوربرو تشتوك



اكسن اشتراسى



جبل وسكة حديد ريجى كولم

الحرى المعروف باكسن اشتراسى ، وهى سكة بديعة يخترق الأنسان فيها عدة أنفاق .
ولما وصلت أخذت القطار إلى آرت جولداو ، ثم أخذت تذكرة لصعود جبل ريجى كولم
بالقطار ، وهو يسير على قضيب باسنان (تروس) وعبارة عن عربة واحدة ، وكنت
اشاهد أثناء صعوده انحدار الجبل والشلالات وفى اثناء ذلك يعبر القطار على قناطر
على فراغ هائل ومجرد النظر إلى هذا الفراغ يدخل فى النفوس الرعب حتى ان بعض
النساء يصحن من هول المنظر ولا يزال فى الصعود حتى يصل إلى قمة يبلغ ارتفاعها عن
سطح البحر ١٨٠٠ متراً وبعد أن شاهدت منها منظر الطبيعة العام وتأملت بحيرات
سويسرا وجبالها الشامخة نزلت وبعد الاستراحة عدت فى المساء إلى لوسرن .

وفى ٢٨ يوليه أخذت تذكرة دائرة من لوسرن لمدة ثمانية أيام وطريقها لوسرن .
برن — تون — انترلاكن — بريانز — برونك — فلوسرن .

برن . فى الطريق اليها مر القطار على « لانجناو » أما برن فهى عاصمة الجمهورية
السويسرية ، وفى سكانها شىء كثير من الحسن والوسامة . وقد شاهدت فى هذه
المدينة سراى الحكومة التى يجتمع فيها الأعضاء للنظر فى أعمال الجمهورية وتقع على
نهر آر الذى يشق البلد . وحدائقها ومتنزهاتها فى غاية الانتظام . وفيها حظيرة



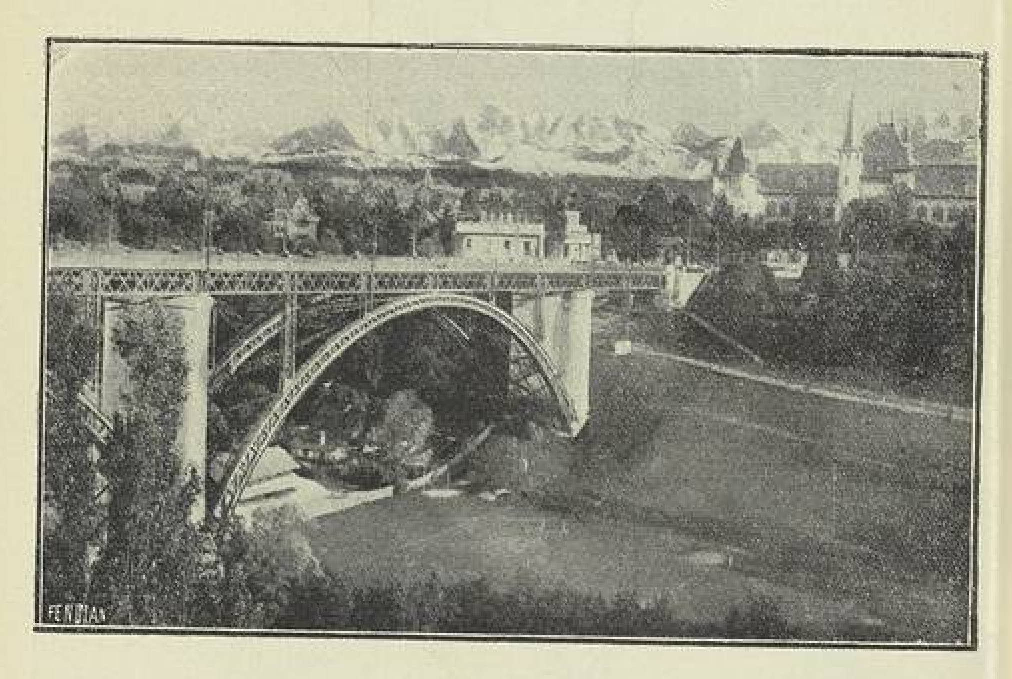

سراى الحكومة والبرلمان

منخفضة عن سطح الأرض خصصت لعدد من الدببة المتدربة فيقذف المتفرج لها ببعض المأكل كالخبز والفاكهة فتلتقطها بمهارة عجيبة . رافعة رأسها ويديها الأماميتين كأنها تطلب




محل الدببة

المزيد . وقد شاهدت ببرن كوبرى كيرخفلد وهو أعلى كبرى فى سويسرا فى ذاك الوقت .

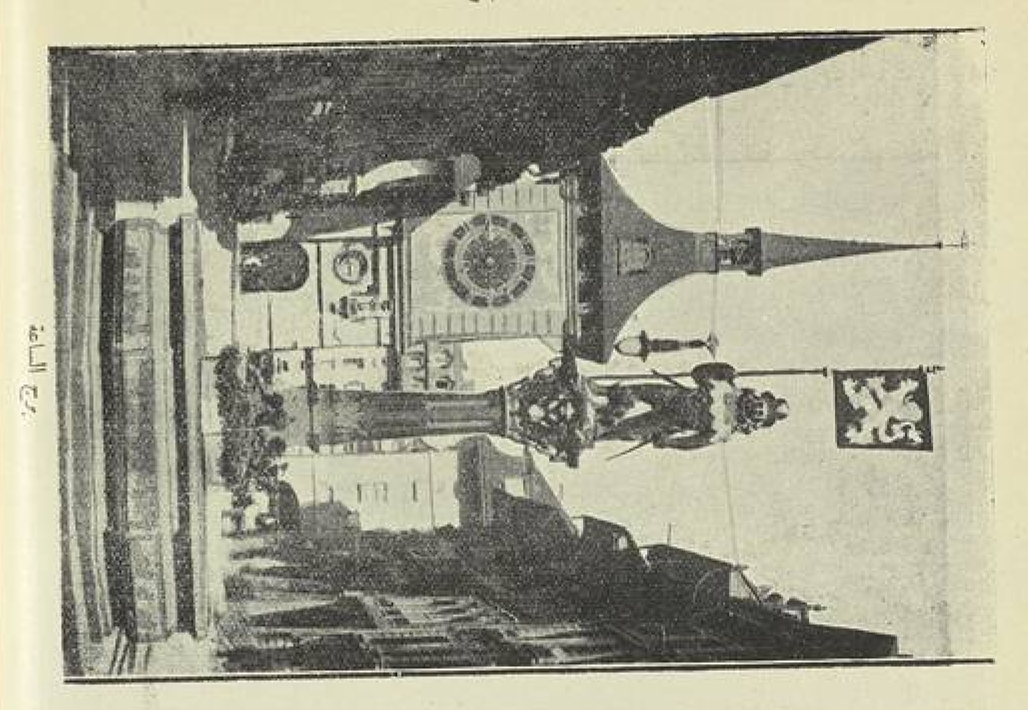



كوبرى كيرخفلد

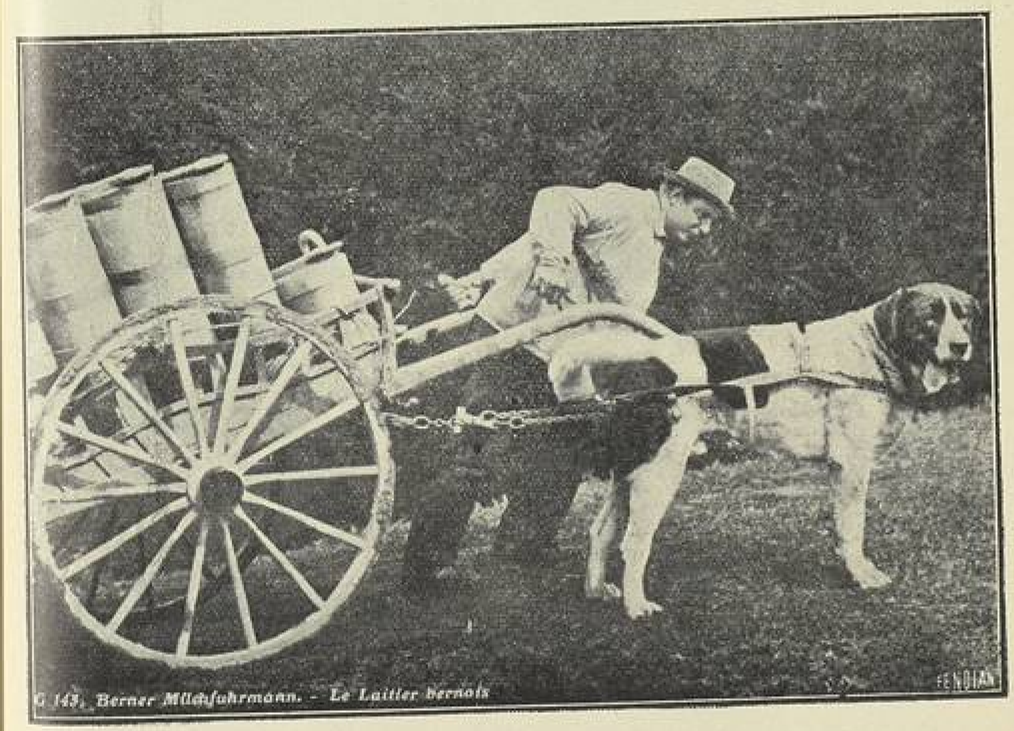
ومن أهم الأشياء الأثرية فيها برج الساعة المشهورة ، فعند حلول الظهر تماماً يفتح باب صغير ويخرج منه رجال يمثلون الأثنى عشر حواريا الذين كانوا مع المسيح ويمرون ويدخلون من باب آخر ويدق كل واحد منهم دقة فتكون دقاتهم اثنى عشر دقة أى الظهر تماماً

ومما لفت نظرى فى برن موزعو الألبان فانهم يستخدمون الكلاب الكبيرة الحجم فى جر العربات التى يضعون فيها الألبان

وتوجهت لزيارة كاف دوجرينيه « بدروم » فنزلت اليها وشربت بها كأساً من النبيذ الأبيض . وهذه المغارة قديمة أيام أن كان منتشراً فى سويسرا وضع القمح فى مغارات من هذا القبيل ، وقد صارت الآن مطعما يؤمه الناس . وبهذا الكهف برميل هائل جدا لخزن النبيذ



الساعة

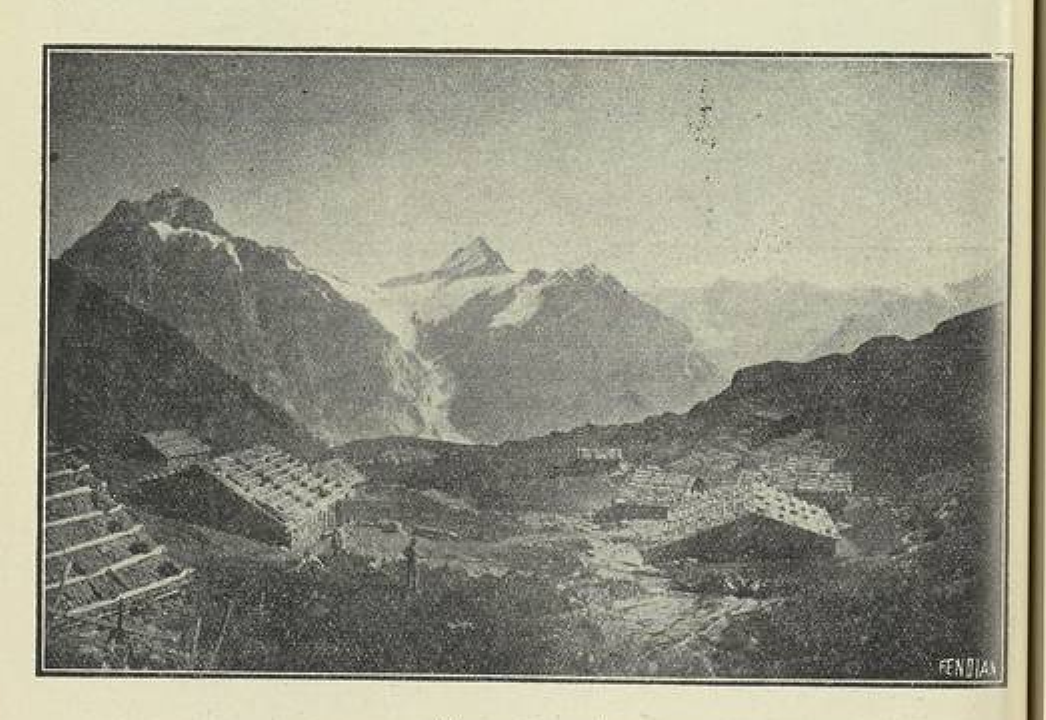



برن — توزيع اللبن

تون . وفى يوم ٢٩ يوليه مساء سافرت الى تون ولم أجد بها ما يستدعى الاهتمام سوى القصر العتيق المسمى تيفرنج وموقعه بديع جداً ، وتحدق به مياه بحيرة تون من الجهتين . وقد صعدت أكمة هنالك ارتفاعها نحو الف متر وتفرجت منها على شلال لطيف ومضيقه الخلق البديع

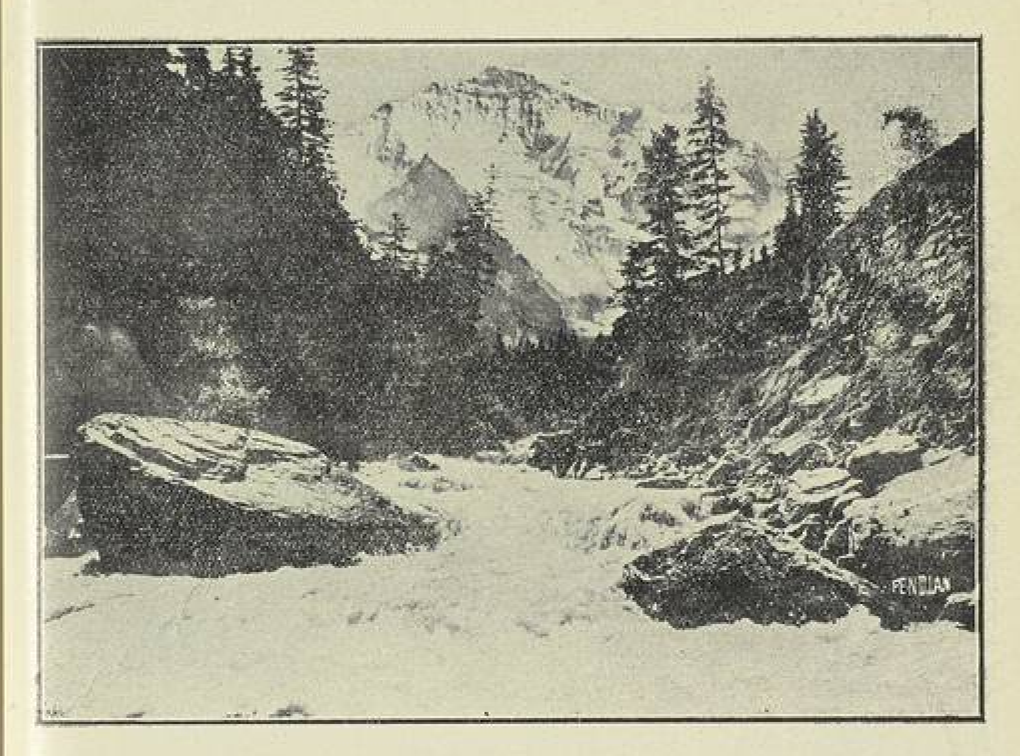
انترلاكن . بارحت تون اليها وقد أعجبت بجمال الطريق بين تون ودارلنجن التى منها أخذت القطار الى انترلاكن . وبعد الغداء فيها تفسحت بها ؛ وهى عبارة عن شارع واحد تقريباً .

وفى صباح اليوم التالى ركبت عربة وتوجهت الى وادى جرِنْد لفالد ماراً بالقرية




وادى وقرية جرند لفالد

المسماة باسم هذا الوادى ونهر لوتشين الذى يجتاز الوادى . وتفرجت على مضيق لوتشين وهو يبهر العقول ويذكر المرء بصنع ربه العظيم . وهناك ينبوع نهر لوتشين وفى هذا




نهر لوتشين

المضيق مدفع من الخشب لو ضربه الانسان لسمع له صوت هائل جداً وقد سمعت صوته وأنا فى مكان مرتفع فسألت الدليل عما إذا كان هذا صوت الرعد فأخبرنى بحقيقة هذا المدفع . ويطلقه الأنسان مقابل شىء من النقود .

وبعدها تفرجت على المغارة المثلجة ذات اللون الأزرق القريبة من الينبوع السابق ذكره ، وهى تضاء بثلاثة مصابيح فى الحائط الثلجى اثنان فى المغارة وواحد فى الدهليز. ورأيت هناك امرأة تضرب على العود فيسمع له رنين كبير . وبعد التفرج على المغارة صعدت إلى جبل الثلج ، وقد دهش الدليل من صعودى على الجبل ونزولى منه بسهولة مع أن حذائى عادى ويلزم لذلك حذاء بمسامير فى نعله . ورجعت إلى الفندق وبعد الغداء ذهبت بعربة إلى وادى لوتر برونن وهو واد مرتفع وفى الطريق شاهدت رجلا

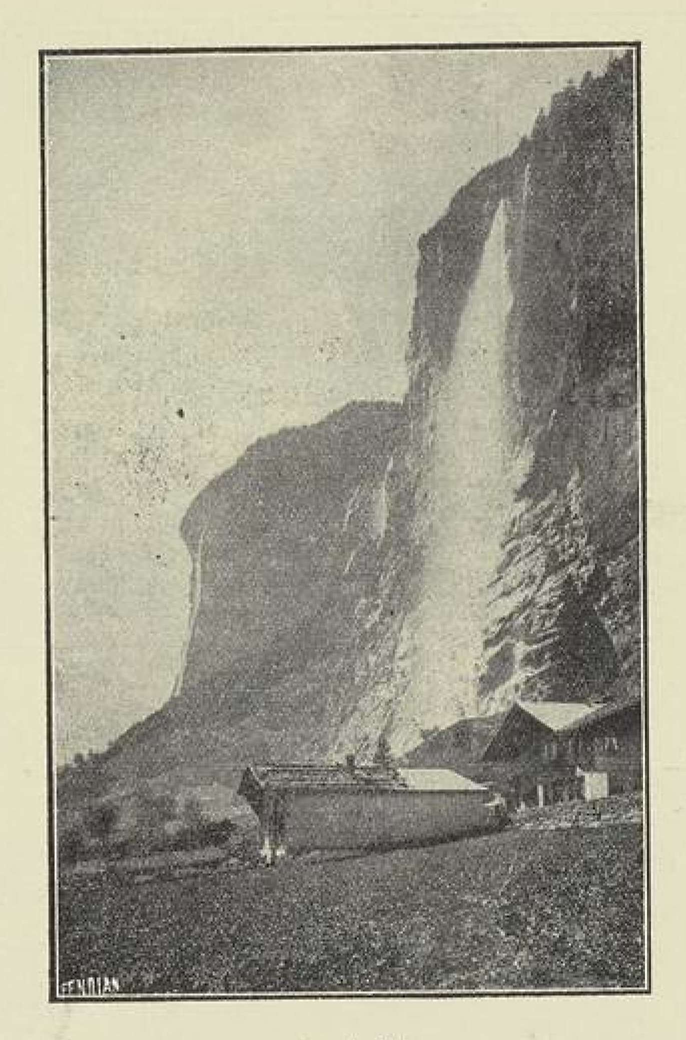


ينبوع ومضيق لوتشين



المغارة المثلجة

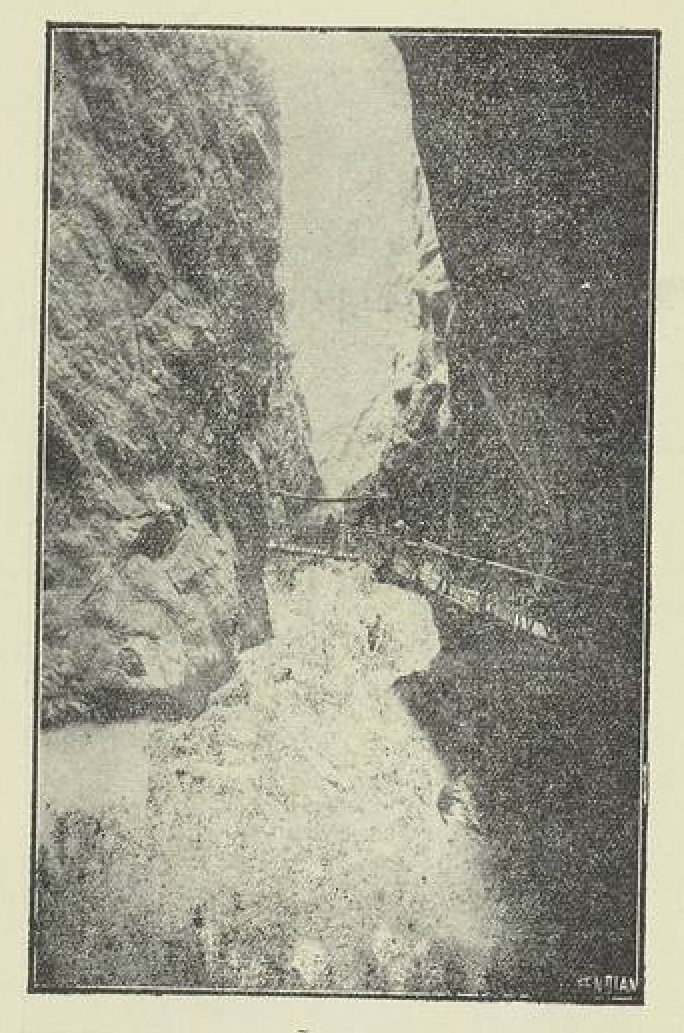
ينفخ بمزمار طويل واسع الفم فكان صـــوته يدوى فى الوادى. ووصلت إلى شلال ترومّلباخ وهو عجيب رهيب حلزونى الشكل تقريباً وأسفت لعدم وجـــود آلة تصوير لأخذ صورته. ثم شاهدت شـلال اشـتَوْباخ فى هـذا الوادى .




شلال اشتوباخ

بريانز . وفى ٣١ يوليه توجهت بطريق البحيرة إلى بريانز فرأيت هناك شلال جيسباخ الواقع بالقرب من نهاية بحيرة بريانز كما شاهدت مضيق نهر آر الذى يصب فى البحيرة وهذه المناظر فى منتهى الأبداع .

برونك . ثم توجهت إلى برونكْ ولم يكن فيها ما يستلفت النظر فعدت فى يوم ٣١ يوليه مساء إلى لوسرن وبذلك تمت الدورة .



مضيق نهر آر

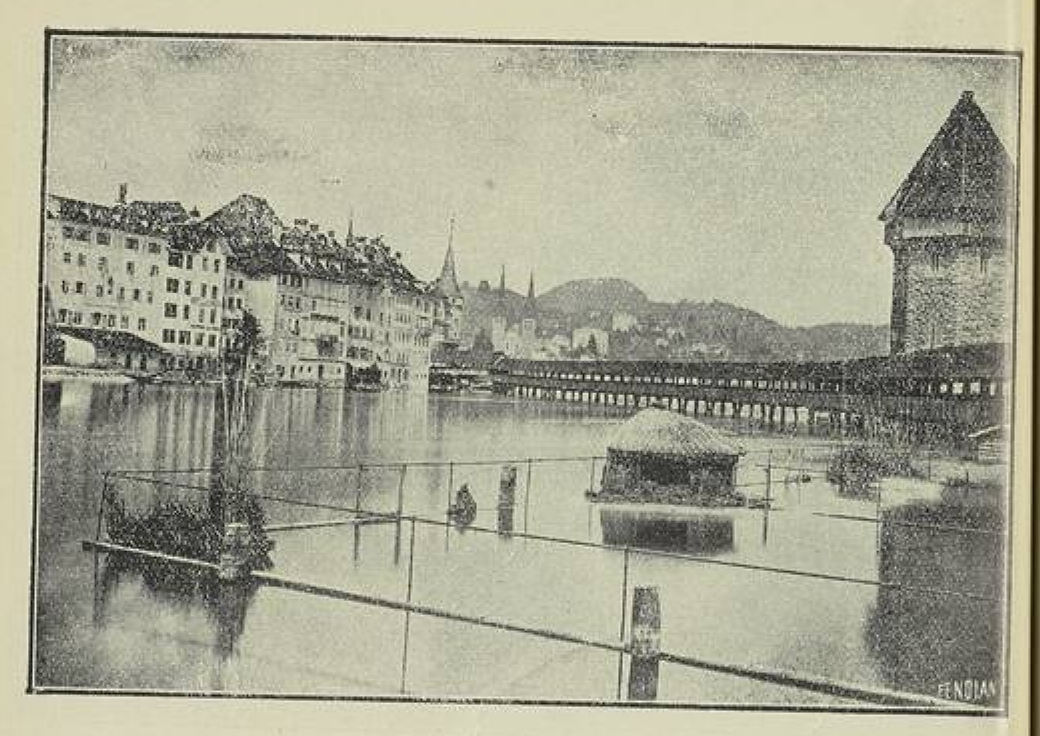
وقبل مبارحتي لوسرن تفرجت على أهم آثارها ؛ وهو سبع منحوت في جبل به عين ماء على الطريق العام . وقد اتُّخذ هذا التمثال تذكاراً للضباط والجنود السويسريين الذين قتلوا في ليلة ٢ اغسطس سنة ١٧٩٢ وهم يدافعون عن سراى تويلرى قصر لويس السادس عشر ملك فرنسا .

وهذا الأثر هو عبارة عن أسد مات قابضاً على شعار ملك البوربون وجنبه مجروح بطعنة بليغة تحت الظهر وعلى سيماه ملامح الضجر والتألم ؛ يشيرون بذلك إلى شجاعة




شلال جيسباخ

السويسريين وصدق وفائهم . كذلك لم يفتنى التفرج على الكوبرى الخشبى القديم المسمى ( دولان بيل ) المقام على نهر روس ، ويشتمل على رسوم ونقوش عتيقة تمثل بعض تواريخ سويسرة . وبجانب هذا الكوبرى البرج القديم المتخذ من سالف العهد دفترخانة تحفظ فيها أوراق المدينة ودفاترها وهو فى وسط نهر روس الذى يقسم المدينة إلى قسمين متصلين ببعضهما بواسطة أربعة كبارى مقامة عليه .

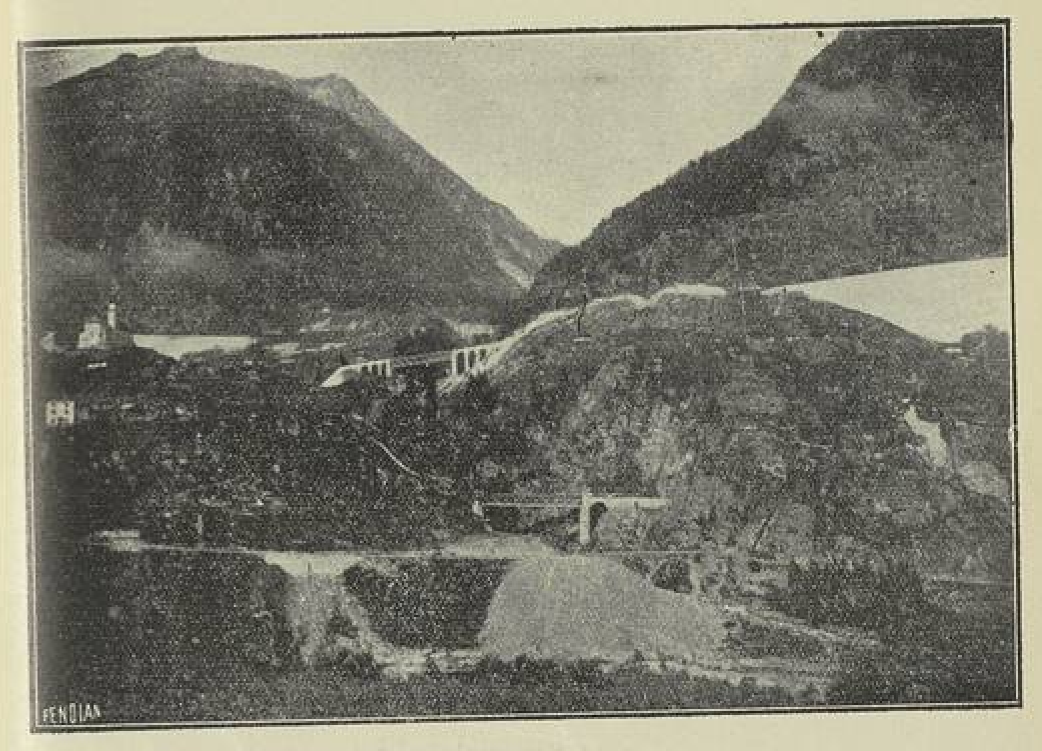



الكوبرى الخشبي القديم بلوسرن

**ايطاليا**

ميلانو . وفى أول أغسطس سنة ١٨٨٨ بارحت لوسرن إلى ميلانو فمر القطار بفلولن وهى واقعة على أول بحيرة لوسرن من جهة الجنوب ، وبعدها إلى جوشن ففازن ، وهى أول منفذ سان جوتار من جهة سويسرا . عندئذ يدخل القطار فى النفق فتغلق النوافذ الزجاجية بالعربات وتضاء مصابيحها فيسير متعرجا ملتوياً فاذا مر بأجزاء من النفق مكشوفة اجتاز جسوراً خشبية فينتقل من جانب إلى آخر ليدخل ثانية فى النفق وهكذا حتى ينتهى . ويرى الأنسان أنه قد مر بطرق حديدية فوق بعضها لكى يصل الى آخر النفق فى « أيرلو » . وفى أثناء مرور القطار فوق الكبارى يهول الانسان النظر الى قرار الوادى لبعده السحيق وعند وصول القطار الى نهايته يجد الأنسان بحيرة لوجانو الجميلة فمدينة كياسو على حدود سويسرا .

ويبلغ ارتفاع الوادى نحو الفى متراً وطول النفق من أيرلو إلى جوشن ١٤٩١٢ مترا ويقطعه القطار فى ٢٠ دقيقة .




مدخل سان جوتر عند فازن

ومن كياسّو انتقلت الى القطار الأيطالى فأقلنى إلى بِلّزونا فميلانو .

وهى مدينة جميلة ذات حدائق غناء وتجارة واسعة

ومما شاهدت فيها مقبرتها الفخمة ذات التماثيل البديعة المنصوبة على بعض القبور . وبها مكان لاحراق الموتى .

عربة وعليها جثة للاحراق

ويتم حرق الجثة فى خمسين دقيقة وأجرته ثلاثون فرنكا . واذا كان المتوفى قد مات بمرض معد فأن الجثة تحمل إلى الفرن فى نعش خشبي أو مغطاة بالقماش وقد شاهدت هذا المكان وبه محل متسع لحفظ الرماد المتخلف من احراق الجثث فى أوان مخصوصة محكمة الغلق مكتوب على كل منها اسم المتوفى وتاريخ الوفاة .

وكذلك شاهدت كنيستها العظمى . وقد شيد بناؤها من المرمر الثمين وهى أكبر كنائس أوروبا .

وفى جوار الكنيسة الكبرى عمارة كبيرة جميلة ذات طبقتين مفصولة بطرقتين متسعتين متقاطعتين على شكل صليب ، والطابق الأرضى يحتوى على مخازن تجارية ويجد الانسان فيها ما يطلبه من الأشياء الفاخرة وهذه العمارة تسمى « جالرى فيكتور عمانوئيل » -



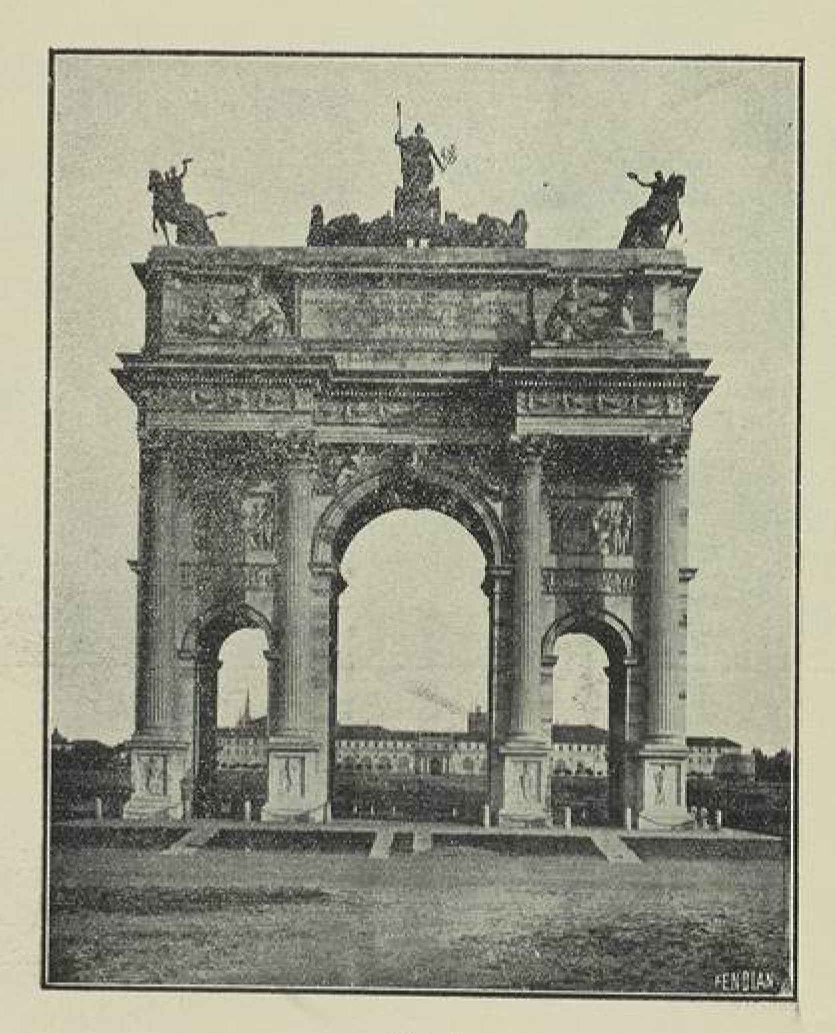
الكنيسة الكبرى والميدان




جالرى فيكتور عمانوئيل

وبهذه المدينة « باب السلام » وهو أقل من نظيره فى باريس . وقد أقيم سنة ١٨٥٩ تذكاراً لانتصار الجيوش الفرنسية والايطالية المتحدة بقيادة نابليون الثالث على النمساويين ، وتحرير ايطاليا من نيرهم .

وزرت مكتبة ميلانو ورأيت فيها بعض المخطوطات العربية محفوظة بمنتهى العناية. وفيها جزء من كتاب الموسيقى وعلم التأليف لأبى نصر محمد بن محمد الفارابى (٧٤٨م) وكتاب المقرب فى النحو لابن عصفور (٧١١م) وإيضاح المشكل له أيضاً . وكتاب معجم ما استعجم للبكرى . وقاموس جغرافى إلى حرف الميم فى جزأين وينقصه الجزء الثالث . وهناك أيضاً ثلاثة مصاحف مخطوطة احدها صغير جداً كالحجاب . ويرجع تاريخه الى القرن الثالث عشر المسيحى ، وآخر مستطيل ولكنه صغير ، كتب فى القرن الخامس عشر الميلادى والثالث كبير .



باب السلام

والذى لفت نظرى هو أن ميادين ميلانو وشوارعها الكبيرة مضاءة بالنور الكهربائى ، ويخيل إلى أنها اسبق فى استعمال الكهرباء من باريس . وأهم ميادينها ميدان « سكالا » الذى به التياترو المشهور بهذا الاسم . ويوجد به أيضاً تمثال « ليوناردو دافنشى »

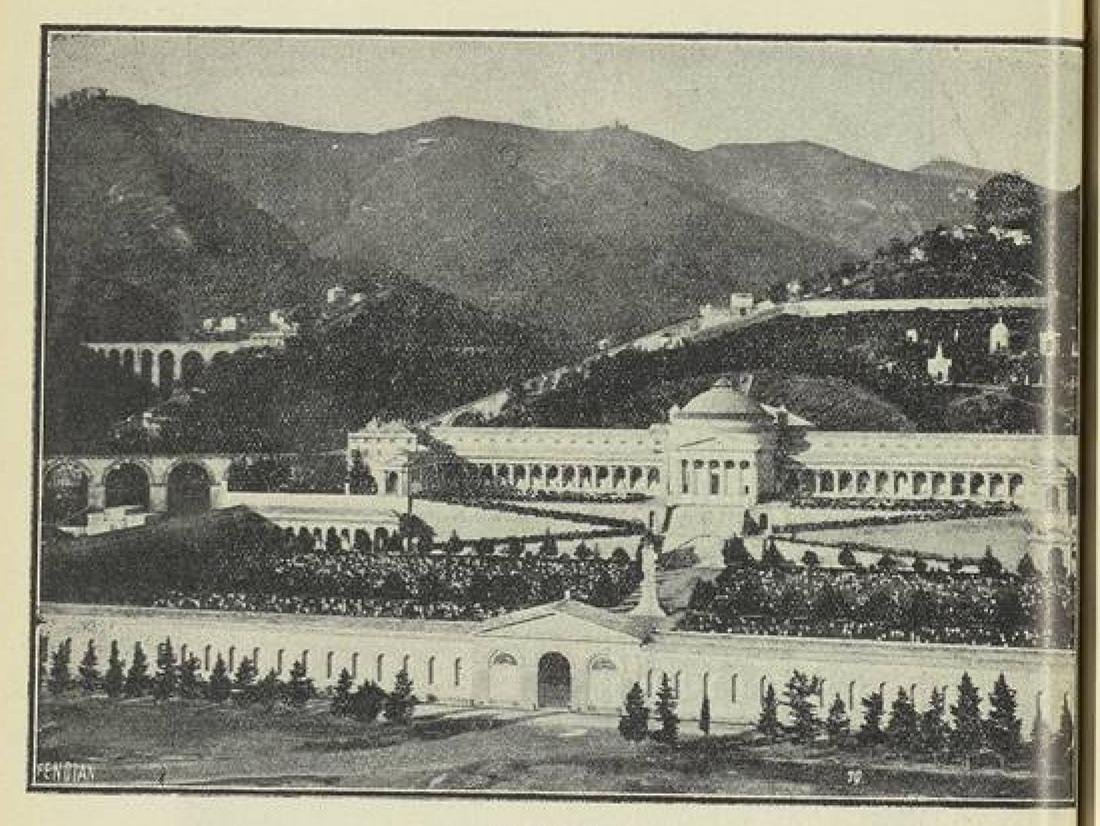


ميدان سكالا

جنوة . وفى ٤ اغسطس سافرت إلى جنوة وشاهدت الفنار الموجود بمينائها العجيبة والبحر الهادىء ، والخليج يحيط بالمدينة والمنظر البديع حول الفنار

ثم ذهبت إلى قصر « دوريا » امير البحر الذى انتصر على الترك فى موقعة ليبانتو سنة ١٥٧١ وقد شيد فى أوائل القرن السادس عشر ولا تزال رسومه ونقوشه على بهائها وبهجتها. وفى بهوه الأكبر صور آل دوريا وصورت فى سقفه صورة « چوپيتير وهو يخلق بملكة العمالقة ، وصورة الاميرال دوريا الشيخ يلعب مع قطته وفى القصر خريطتان رسمت فيهما خطط موقعة ليبانتو وكيف صفت سفن جنوه . وامام القصر مما يلى البحر حديقة غناء فى وسطها فسقية جميلة .

وفى جنوه مقبرة غنية بالتماثيل الجميلة ربما كانت أكثر روعة من مقبرة ميلانو ، وبالمحطة تمثال من الرخام لكريستوف كولمب مكتشف امريكا وهو واقف على هلب وامامه امريكا جاثية على ركبتيها .



مقبرة مدينة جنوة

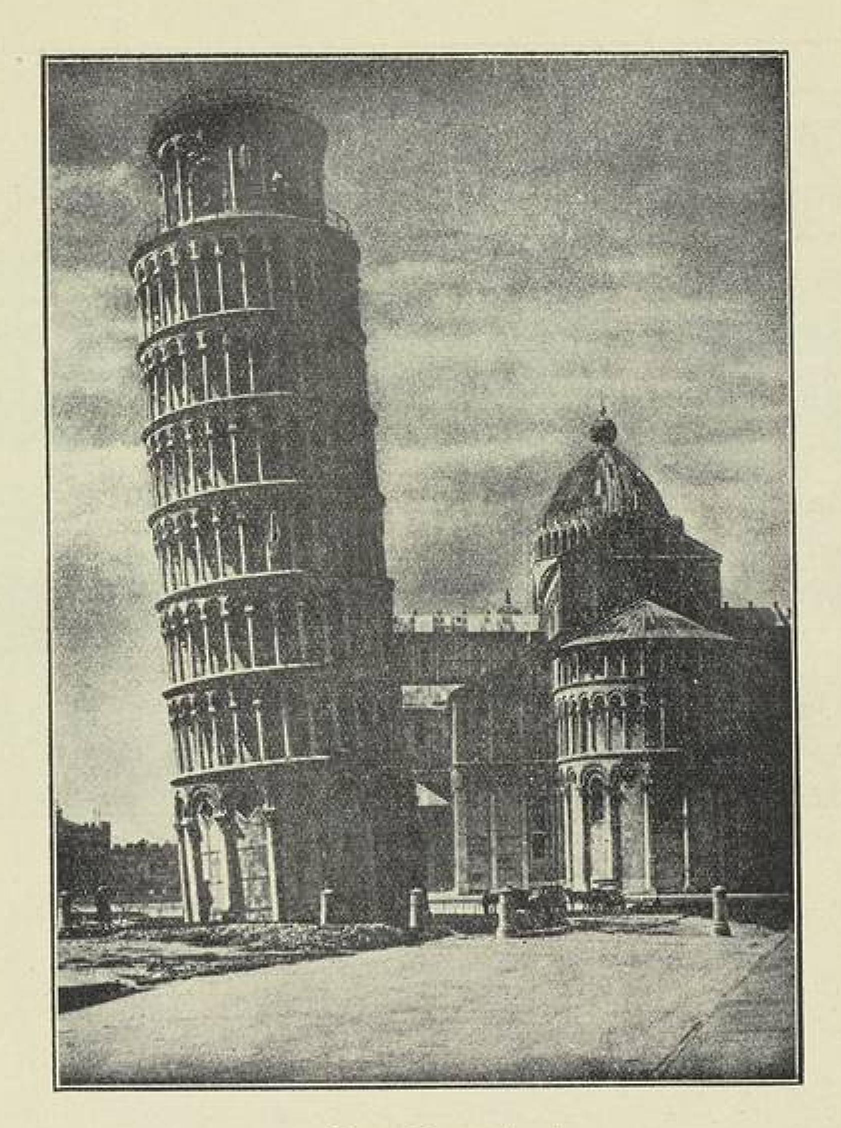
وفى جنوه ايضاً قصور كثيرة من الرخام وخصوصاً فى شارع « جاريبالدى » وقد بارحتها إلى بيزا فى يوم ٥ اغسطس .

بيزا . ويمر القطار بثمانين نفقاً صغيراً ويرى الأنسان على الشاطىء آثار مدينة لونا التى دمرها البحارة العرب سنة ١٠١٦ ميلادية .

واهم ما فى بيزا كنيستها الكبرى وهى مصنوعة من المرمر الاصفر وامامها البرج الهائل الشهير وسلمه ٢٩٤ درجة وارتفاعه ٥٤ متراً ونصف . وهو مائل يخيل اليك انه على وشك السقوط .

وقد صعدت اليه مع الدليل فرأيت فى أعلاه سبعة أجراس يزن اكبرها ستة أطنان، وهو موضوع فى الجهة المقابلة للميل . ويقال ان جاليليه تمكن بواسطة هذا البرج من الاهتداء إلى نظريته فى الجاذبية .

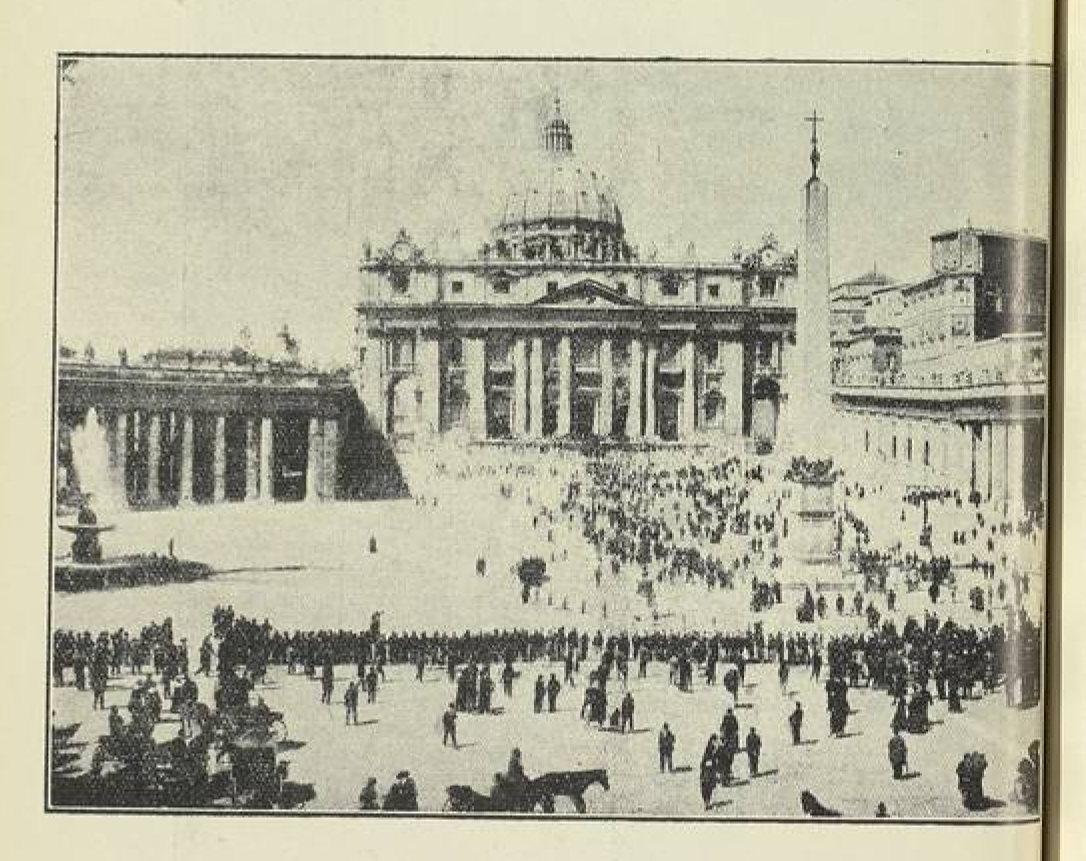
وبيزا على العموم نظيفة أنيقة وطيبة الهواء .



البرج المائل مع الكنيسة الكبرى

روما . وغادرتها إلى روما فقابلت هناك مسافرين بلجيكيين كنت تعرفت بهما في ميلانو واتفقنا على اللقاء في روما، فذهبنا معاً لزيارة كنيسة القديس بطرس ؛ وهي صرح أثري فخم ارتفاع أجراسها عن سطح الأرض ١٣٩ متراً، ويخيل اليك حين رؤية مدخلها أنها صغيرة ولكنك حينما تدخل اليها تجدها شاسعة هائلة وهي واقعة على ميدان

متسع وسقفها منقوش بالمرمر المزخرف بالصور الرائعة وفى نهايتها مقابل باب الدخول مصلى تسمى « التريبونا » وبها تمثال من البرونز يعرف باسم « كرسى القديس بطرس » ويقال انه يحتوى على الكرسى الذى كان يجلس عليه هذا القديس ومعه اربع صور كبيرة وتحته مكان ينزل اليه بسلم محاط من جانبيه بالرخام، ومصابيحه من البرونز المذهب وفى هذا المكان توجد المقبرة التى بها جزء من رفات القديس بطرس أما بقية رفاته فمدفونة فى كنيسة القديس بولس الواقعة خارج روما .

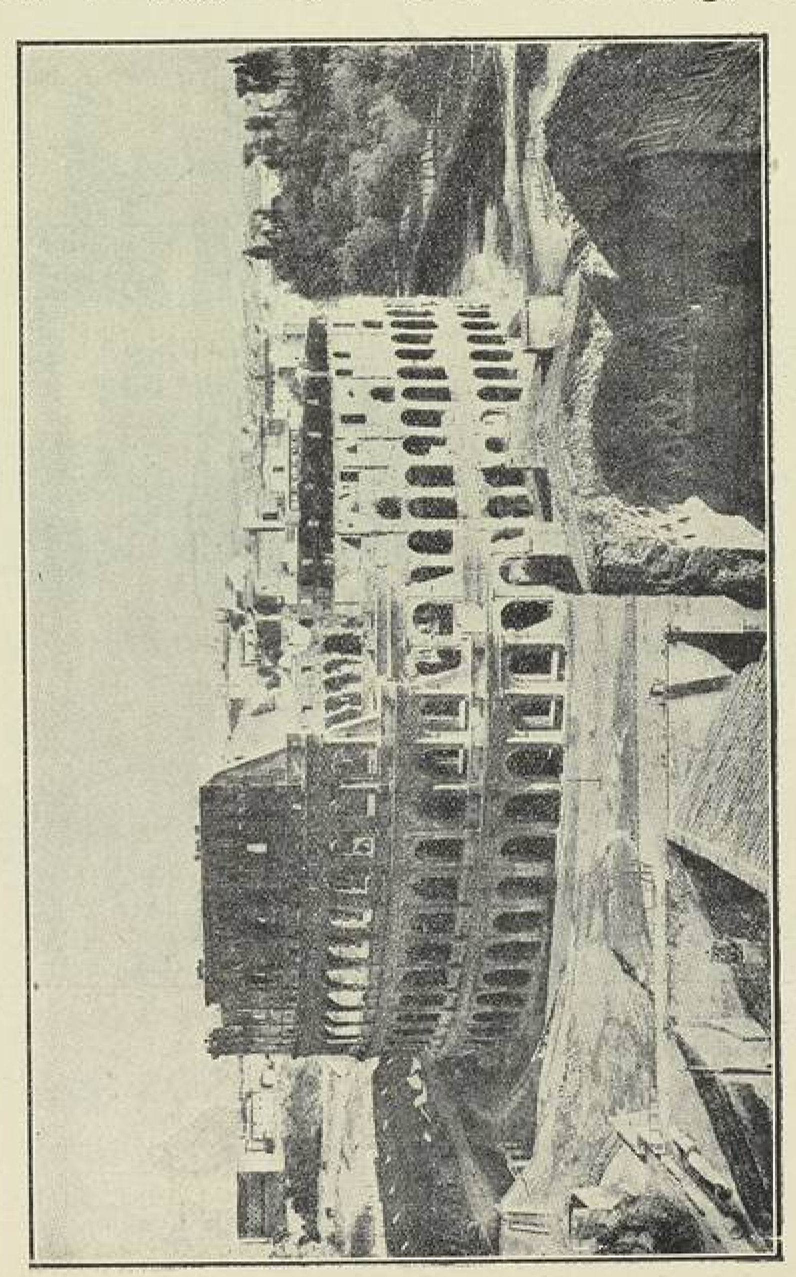


كنيسة القديس بطرس

وزرنا الفاتيكان الذى بجوار كنيسة القديس بطرس فوجدنا به متحفاً مصرياً به موميات وتماثيل مصرية ، وكذا شهدنا بداخله مصلى سكستوس الشهيرة « كابلا سيستينا » بنيت فى سنة ١٤٧٣ م وفيها صور تمثل القيامة صنع « مشيل آنج » وقد اتم صنعها فى سبع سنين وهى غاية فى الروعة والجلال، وفى السقف صور تمثل خلق الدنيا والشمس

والقمر وآدم وحواء وسقوط أول رجل وطرده من الجنة وفى جهة ، أخرى من القصر توجد المكتبة وقد شاهدناها من الباب الحديدي لضيق الوقت .

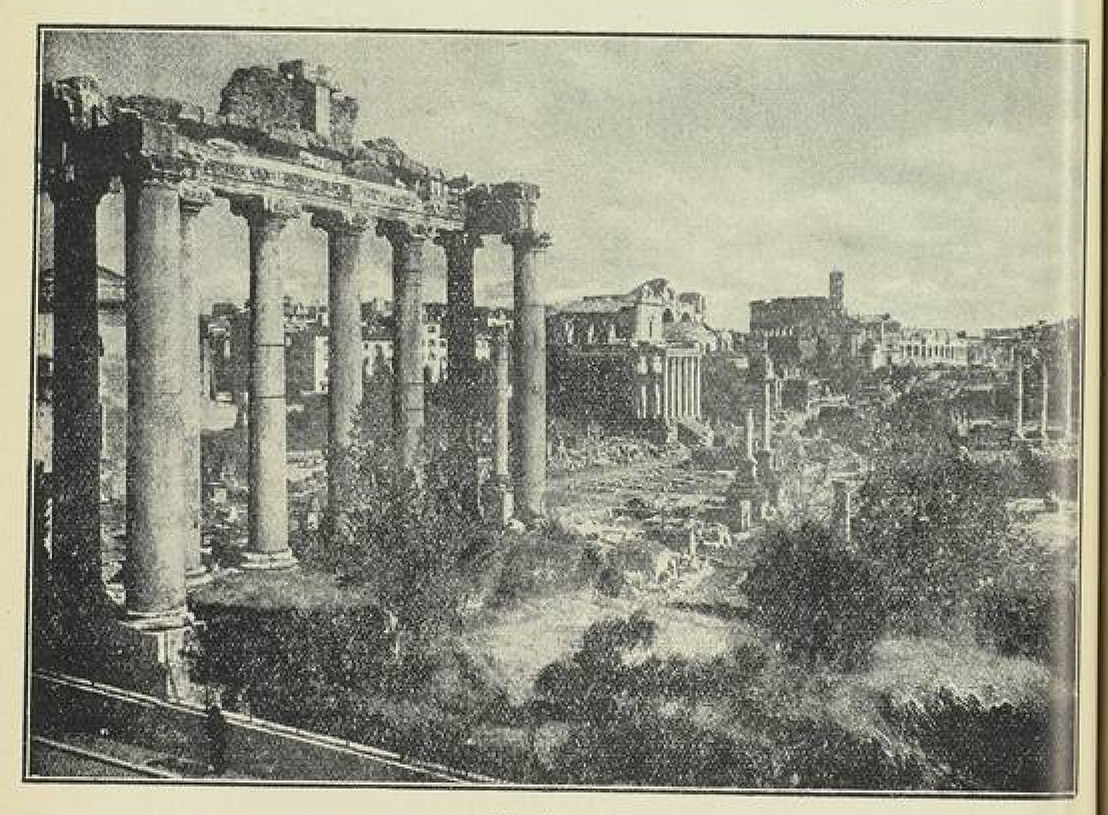
وفى صباح اليوم التالى زرنا كثيراً من الأمكنة والكنائس ومن ضمنها كنيسة



منظر عمومى للكولوزيوم

يصعدون اليها زحفاً لأنهم يزعمون ان المسيح عليه السلام صعدها على ركبته ، وكذلك كنيسة صليب بيت المقدس ويزعمون ان بها بقايا الصليب الذى صلب عليه المسيح وهو فى خزانة بداخلها خزانات اخرى يفتحها القسيس لتظهر هذه القطع الخشبية المسمرة بصلبان من الذهب، ويوجد أيضاً مسمار يقولون انه استعمل فى تثبيت الخشبة التى صلب عليها المسيح. وذهبنا بعد ذلك لمشاهدة « الكولوزيوم » وهو أثر هائل شيد على شكل « إيبدروم » ويقال انه كان معداً لمحاكمة المذنبين ومنهم من كان يحكم عليه بمصارعة الأسود فيهلك أمام اعين المتفرجين ، وشاهدنا أيضاً الفوروم الرومانى وهو جزء من مدينة روما القديمة

وبروما حديقة تسمى فيللا بورجيز بها طرق منظمة وحياض للماء وبداخلها سراى البرنس بورجيز .

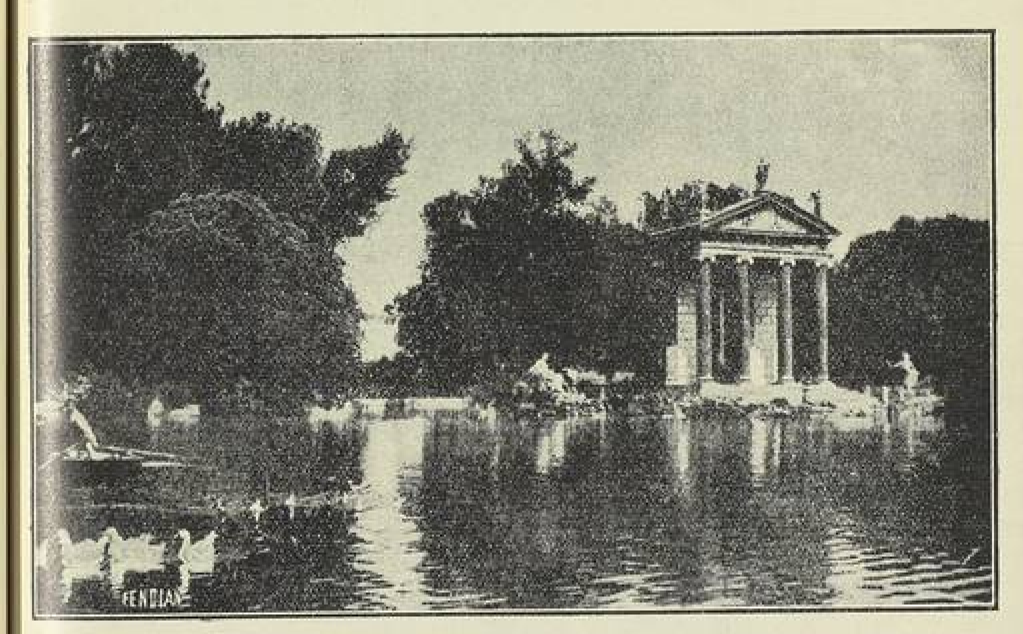


الفوروم الرومانى

وبها أيضاً متنزه پنشو الموجود باعلى جبل يُصعد اليه بطريق حلزونية فى الطبقة الأولى من هذا الجبل سراى يقوم عليها تمثال فيكتور عمانوئيل وفى قمته المتنزه الموجود

به أشجار ناضرة وأزهار عاطرة وتماثيل متقنة ، ومن هذه الحديقة يرى الانسان المدينة وقد أعجبنى فى هذه الحديقة ساعة فى وسط فسقية تدور بواسطة ماكينة تسير بقوة الماء

وقد شاهدت حديقة البرنسات وبوسطها بحيرة جميلة ويقع على شاطئها معبد اسكولابيو




معبد أسكولابيو

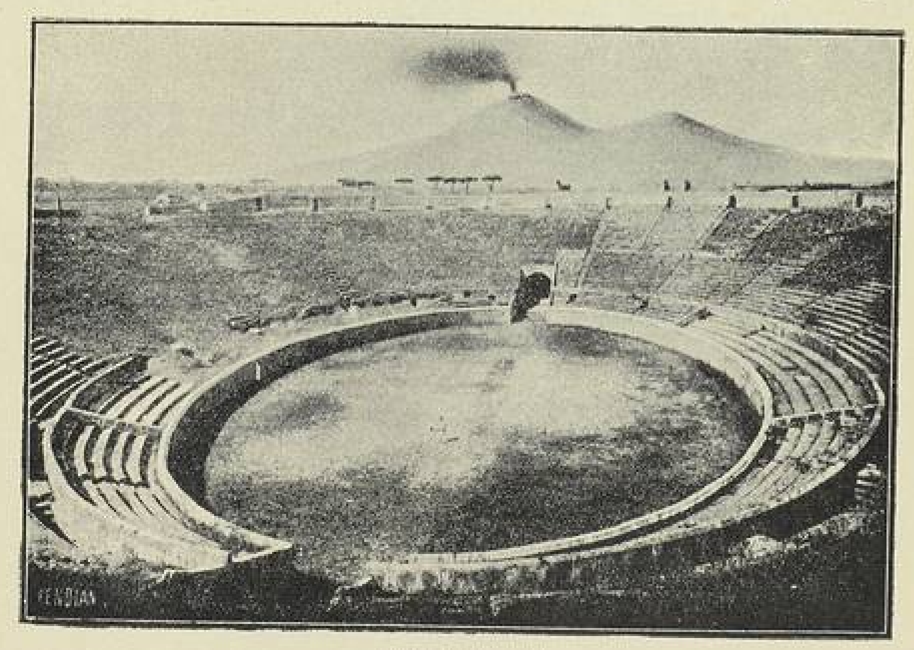
ومن أهم شوارع روما شارع ( نانونالو )وهو متسع ومنظم تشرف عليه القصور اللطيفة وكذلك شارع كورسو

نابولى وبومبى . وصلت إلى نابولى ومعى رفيقاى البلجيكيان فى صباح ٨ أغسطس وزرنا متحفها الجميل ومتنزهاتها البديعة وذهبنا بعد ذلك إلى السوق العام فابتعنا منه بعض الفاكهة وهى رخيصة جداً ، وتشبه هذه السوق إحدى الأسواق البلدية فى مصر حيث ترى الباعة يضعون الفاكهة فى سلال أو على ( طبالى ) على هيئة أكوام من تين وعنب وكريز وبرتقال وكذلك بطيخ مقسم شقات .

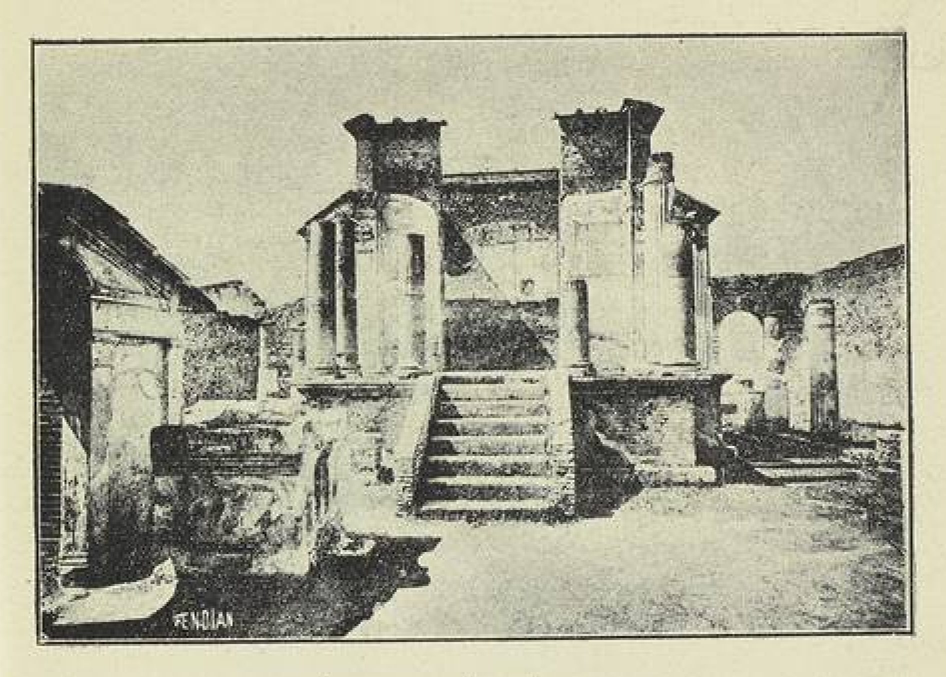
ومما استرعى انظارنا محل بالخشب عند السوق سألنا عنه فوجدناه « تياترو » وكان على بابه موسيقى تعزف لجلب المتفرجين فأخرجت قطعة فضية لشراء تذكرة فاعتذر

العامل بأنه ليس لديه « فكة » وعرفت ان قيمة الدخول اربعة صولديات أى عشرين سنتيما فدفعتها ودخلت، وكانت الحفلة نهارية ( ماتينيه ) . وقبل البدء سمعنا ضجة علمت ان سببها دخول متفرجين من غير اجر . ولما سألت عن سبب ضآلة رسم الدخول قيل لى : — ان صاحب التياترو يدرب فيه الممثلين والممثلات . وكان التمثيل بطبيعة الحال سيئاً . وان كان بعض الممثلين قد أجادوا ادوارهم . وعلمت ان اصحاب المسارح يذهبون لأمثال هذا التياترو لاختيار بعض الذين يلمحون فيهم الكفاءة والنبوغ .

وبعد ان قضينا يوماً فى نابولى ذهبنا إلى پومپي فزرنا متحفها وما كشف من آثارها القديمة ، وهناك بعض رجال البوليس المختصين بارشاد الزائرين مقابل «عطية» سرية ومكثنا نحو ساعتين نطوف الاحياء المكتشفة . ويمكن القول بان أساليب الحياة العصرية لا تختلف كثيراً عن أساليب الحياة الرومانية . ولا سيما فى أوضاع المبانى فانها كطراز المبانى فى هذا العصر فأن المحكمة مثلا والشوارع والحارات ودكاكين الزياتين والصيارفة والخبازين والطحانين كل ذلك كان موجوداً وانما لحقه الآن شيء من التغيير والتحسين. وفى هذه البيوت القديمة شاهدنا آثار الحجاب . فان كل بيت منها ينقسم إلى قسمين: — قسم للرجال وآخر للنساء كما كان الحال عندنا ولا يزال فى بعض البيوت . وقد شاهدنا ايضاً آثار ميدان الانفياترو ودار معبد ايزيس وهما من الآثار التى تدل على ما كانت عليه مهارة الرومانيين فى فن البناء



آثار ميدان الانفياترو




دار معبد ايزيس

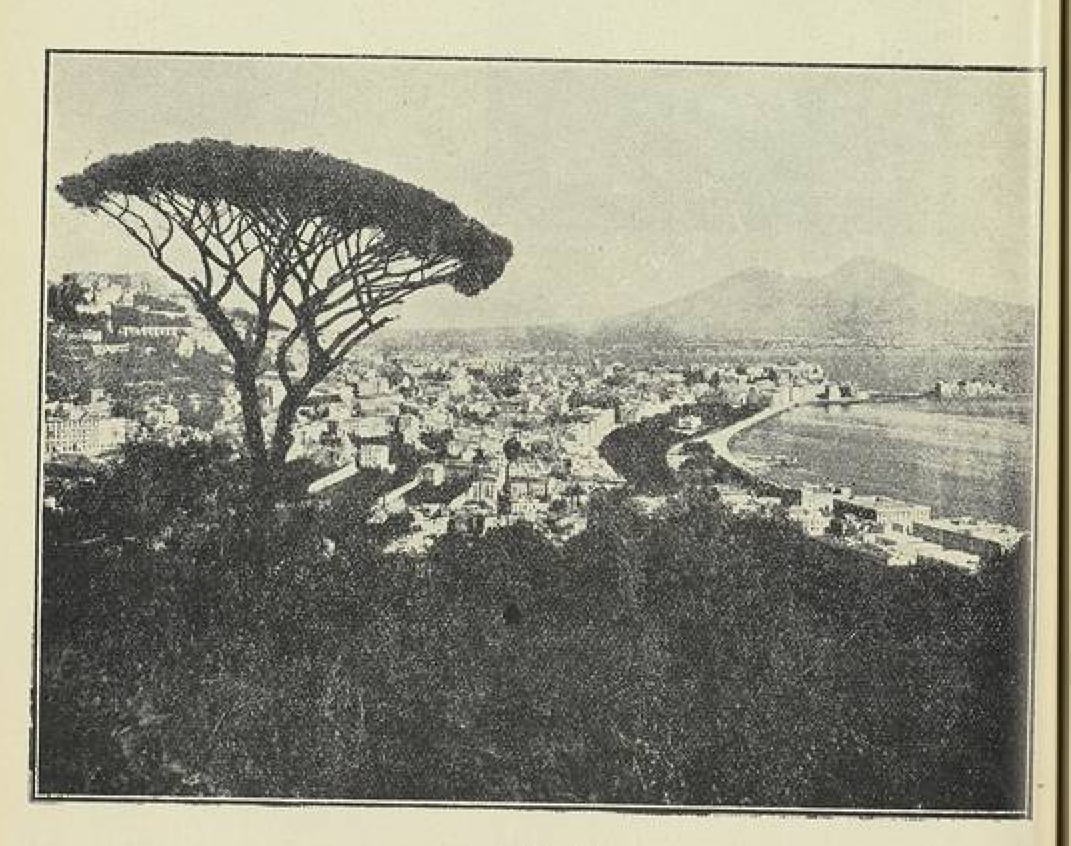
ومما رأيناه بيت نيرون الذى كان يؤتى اليه بالحسان للاستمتاع بهن . وعلى جدرانه صور غاية فى الفحش تمثل اجتماع الرجل بالمرأة . وهكذا كان الرومان لا يتورعون عن تصوير هذه المناظر المثيرة . وبها حارة للدعارة فى بيوتها صور الفحش

وغادرنا پومپي إلى جبل فيزوف لمشـــاهدة المرصد المقام بجوار الجبل لمراقبة حركات البركان ثم عدنا إلى ناپولى .

ولما علمت بوجود رئيسى دومرتينو باشا فى قرية ( كاستلاً مارى ) الواقعة على مقربة من تلك الناحية أرسلت اليه برقية فأجاب بدعوتى لتناول طعام العشاء فذهبت اليه فرحب بى وأخبرنى خلال الحديث ان الجناب العالى مسرور من سلوكى مرتاح من ناحيتى ، وخصوصاً بعد ان اخبره مسيو مزمر بانى لم أعرف فى باريس الا بالرغبة فى الدرس والتحصيل . وقال لى انه سأل سموه عما ينويه لى عندالعودة وان سموه هز رأسه علامة الرضا ووعده بالنظر فى أمرى بعين الرعاية .

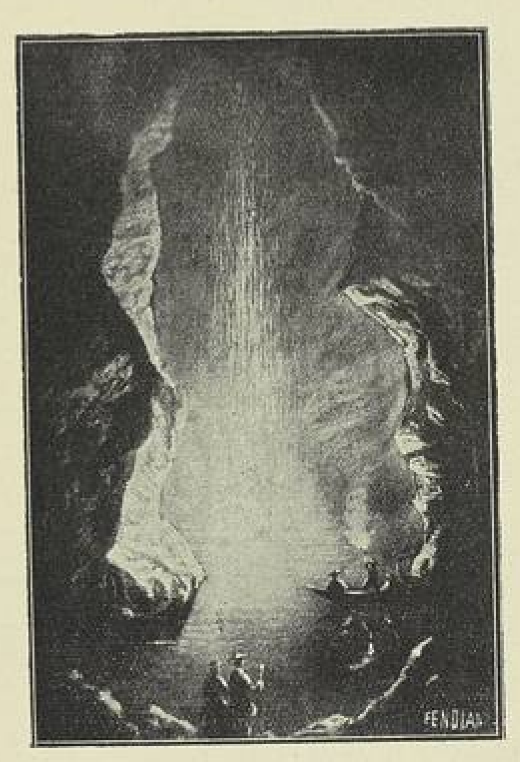
وقد قالت لى مدام دومرتينو حينما سمعت هذا الحديث : « ألم أقل لك منذ زمن انك ستصير ناظر ديوان ؟ »

وفى صباح اليوم التالى عدنا ثانية إلى پومپي ومنها ركبنا الجياد الى جبل بركان فيزوف، وقد وصلنا بالخيل إلى أسفله فوجدنا هناك ادلاء لاصعاد من لا يستطيعون الصعود فرفضنا معونتهم وتسلقنا الجبل وبعد أن استرحنا عدة مرات وصلنا إلى القمة. وهناك فوهة البركان وهى واسعة جداً . ولكن الفوهة الحقيقية الجديدة التى يقذف منها محتوياته من احجار ومواد ملتهبة ليست بهذا الاتساع . وما اروع منظر البركان إذ يلتهب فانك ترى المواد المقذوفة حمراء كالحديد المحمى وهو يقذفها بضجة هائلة كصوت الرعد القاصف . ودخان كثيف يغشى البصر ويرهق الصدور ويرى الناظر الأرض تحت قدميه وكلها من الكبريت الأصفر . والسائر فوق الأرض يشعر بحرارة تلهب قدميه . وقد نزلنا سراعاً خيفة الدخان الخانق وصادفنا فى النزول فوهات ضيقة تقذف بدخان محرق . وقد وجدت ان نعل حذائى قد بلى تماماً من تأثير الحرارة .



منظر بركان فيزوف

ثم عدنا إلى نابولى وبعد قليل من الراحة قمنا بنزهة بحرية إلى جزيرة كابرى وشاهدنا فيها غاراً يسمى كهف الزرقة « جروت دازور » وسبب هذه التسمية ان الانسان حين يدخله يرى الماء ازرقاً لطيفاً وقد دخلناه فى زورق ومن الغريب ان بحاراً صغيراً نزل فى الماء فوجدنا جسمه قد صار ابيض بلون الفضة وصار وجهه ازرق وهذا الكهف متسع من الداخل وسقفه من الصخر والمدخل صغير ومنخفض بحيث يضطر الانسان إلى احناء رأسه عند الدخول . ثم رجعنا .



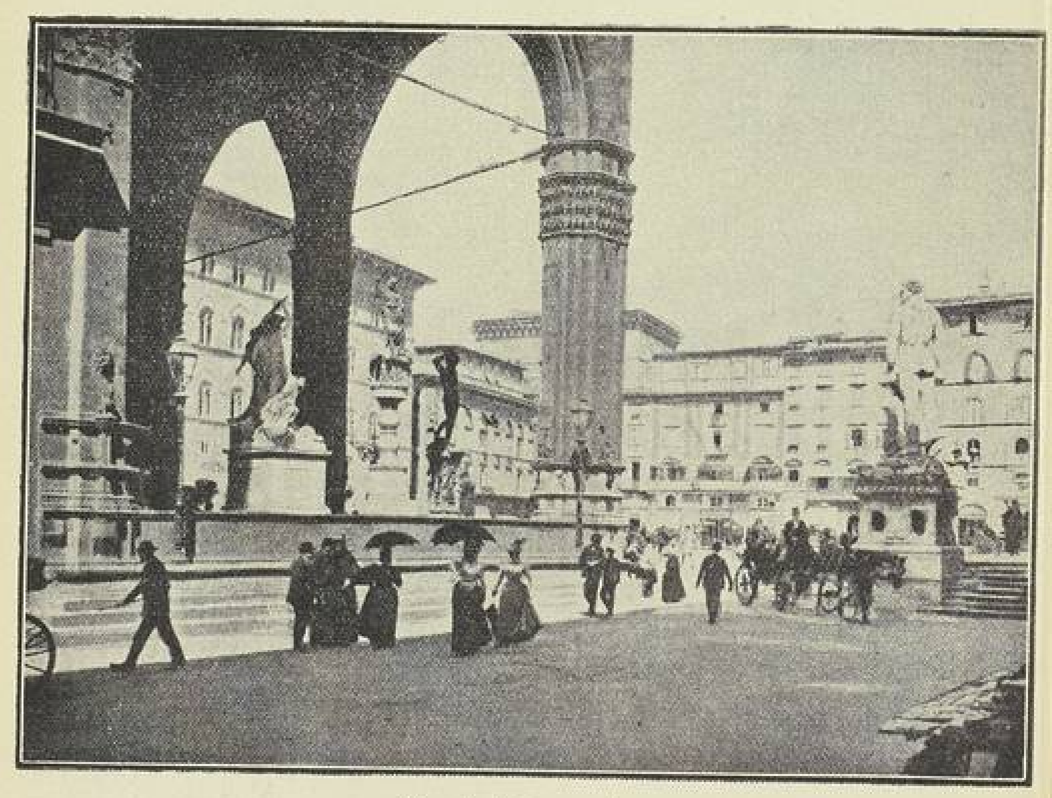
داخل كهف الزرقة

ومن الحوادث الفكهة التى وقعت لى ولزميلىّ فى فندق « رويال » الذى سبق نزلت فيه فى اول سياحة لى بأوروبا سنة ١٨٧٩ أننا حين طعام العشاء طلبنا شيئاً من النبيذ كعادتنا أثناء تجوالنا بايطاليا بشرب نبيذ المدينة التى ننزل فيها واخترنا نوعاً يسمى « نبيذ فيزوف الصغير » فلما شربناه وجدناه لذيذاً ذكى الرائحة فاكثرنا منه حتى دارت رؤوسنا وشعرنا بنشوة ابتهاج فأخذنا فى الضحك بمناسبة وبغير مناسبة وكان جميع الجالسين معنا فى غرفة الأكل يضحكون معنا ولكن كان ضحكهم فى هذه الحالة علينا لا مشاركة لنا .

وميناء نابولى جميلة والحركة التجارية فيها عظيمة وغادرناها إلى روما فوصلناها ثانية فى صباح يوم ١٣ اغسطس .

فلورنسا . ومن روما ذهبت منفرداً إلى فلورنسا فى اليوم التالى فوجدتها مدينة جميلة يمر بها نهر أرنو ويقسمها إلى قسمين قسمها الشمالى وهو الأكبر اتساعاً وبه المدينة القديمة والقسم الجنوبى وهو القسم الجديد ويصل القسمين ببعضهما أربعة كبارى

ورصيف النهر مبنيين ويستعملان للتنزه وشوارعها مرصوفة . وبها ميادين كبيرة أهمها
وأجملها ميدان سنيوريا وهو فى القسم الشمالى من النهر وبه قصر ( فكيو ) القديم
وتشغله البلدية وبه كثير من التماثيل حتى يخيل للرائى أنه متحف ويمتد من هذا الميدان
شارع فى نهايته ميدان وكاتدرائية ( القديسة ماريا دلفيورى ) وبميدان سنيوريا محل
يطلق عليه ( لوچا دى لانسى ) ويصعد اليه ببضعة درجات وهو عبارة عن قاعة فخمة



ميدان سنيوريا ولوجا دى لانسى

ذات أقبية على طراز القصور العمومية والخصوصية فى توسكانيا وبها تماثيل من
الرخام وظهرها من البرونز تمثل الأمل والأحسان والقوة والاعتدال والأيمان وتماثيل
أخرى من أهمها تمثال من الرخام يمثل خطف الرومانين لنساء مديرية اسبينا لعدم وجود
النساء عندهم على ما يقال وهو من صنع چان بولونيا المشهور . وبميدان سنيوريا
فسقية جميلة وتمثال للغرندوق كوزم من البرونز

ومن ميدان سنيوريا يعبر الأنسان إلى الشاطىء الأيسر من النهر بواسطة الكوبرى

القديم (بونت فكيو) وهناك يوجد قصر جالرى پيتى وهو قصر فخم على شكل قلعة علوه ١١٨ قدماً وبالطابق الاعلى من الجناح الأيسر (جالرى بيتى) وبها صالات متعددة بها نحواً من خمسمائة صورة زيتية اجملها صورة العذراء جالسة على مقعد وهى من صنع فرانچلكو وكل الصور الموجودة هى من صنع المصورين القدماء المشهورين فى جميع مدن ايطاليا وقد كان قصر بيتى مركزاً لحكومة جمهورية التوسكان أمر بتشييده لوقا بيتى رأس عائلة بيتى والتى كانت تزاحمها عائلة مديشى وفى أول دور توجد قاعة المجلس وهى متسعة وسقفها وجدرانها منقوشة برسوم جميلة وبها عدة تماثيل من الرخام لأفراد عائلة مديشى التى احتلت القصر بعد انقراض عائلة بيتى . ويقع خلف هذا القصر حديقة بوبولى وهى عظيمة جداً

وشاهدت أيضاً (جالرى دليوفيتشى) وهى من بقايا كنيسة (سان بيرشيراچو) القديمة وكانت تستعمل لمصالح البلدية بالمدينة قبل نقلها إلى قصر (فكيو) ولكنها الآن من أغنى متاحف ايطاليا وبها صور زيتية جميلة وتماثيل واعمال النحت وأنواع من المداليات وبها معروضات شرقية .

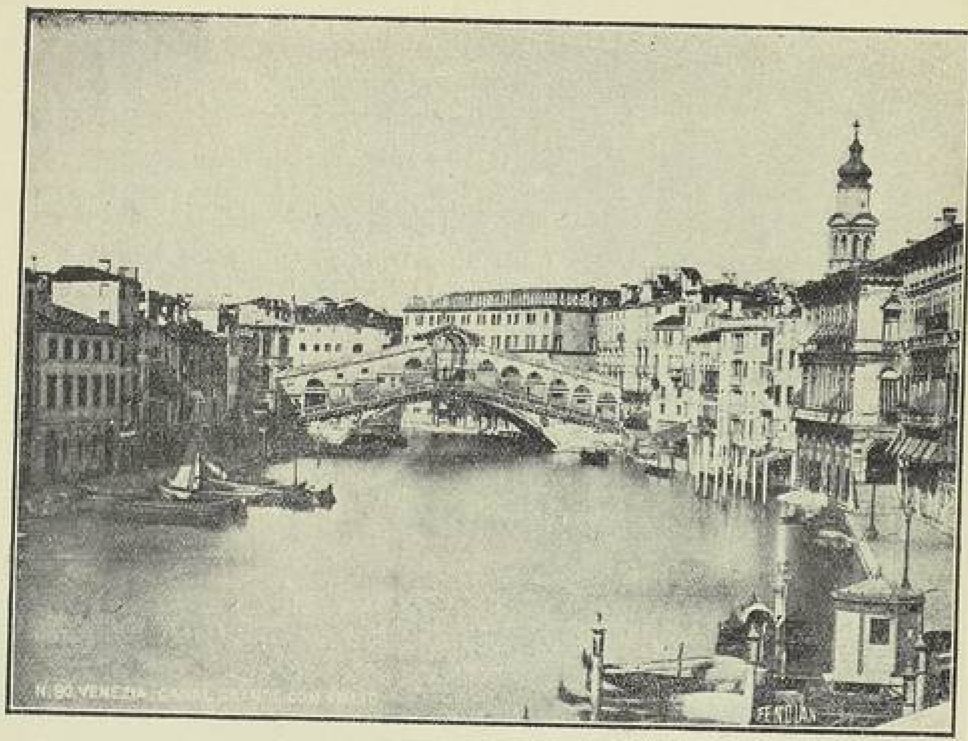
كذلك تفرجت على (كابللا دى پرنشپى) أو معبد الامراء وكان معبداً لرأس عائلة مديشى وهو آية فى الأبداع ومحلى بالرخام الموازيك الغالى صناعة توسكانيا وبه تماثيل كثيرة من البرونز لأعظم الشخصيات من عهد كوزم الأول إلى كوزم الثالث .

وبفلورنسا جملة تياترات منها تياترو ڤردى وتمثل به الاوبرات والباليه « الرقص » وهو فى الجهة الشمالية فى المدينة . وأعظم فندق بها هو (جراند أوتيل) ويقع فى ميدان (مانن) فى الجهة الشمالية من النهر . وفلورنسا مشهورة باستخراج الروائح العطرية وبالأخص عطر البنفسج وقد اشتريت من روائحها بعض هدايا لمعارفى . كما وأنها مركز مهم للفنون الجميلة

وعلى العموم فمدينة فلورنسا بجملتها يمكن اعتبارها كمتحف لغرابة مبانيها وعجائب كنائسها وكثرة متاحفها .

فنيسيا «البندقية» . ثم سافرت إلى فنيسيا (البندقية) فوصلتها فى يوم ١٦ اغسطس، وهى قائمة على عدة جزر صغيرة وتصل بين احيائها الشوارع المائية واكبرها يسمى القنال الكبير « كنالى جراندى »

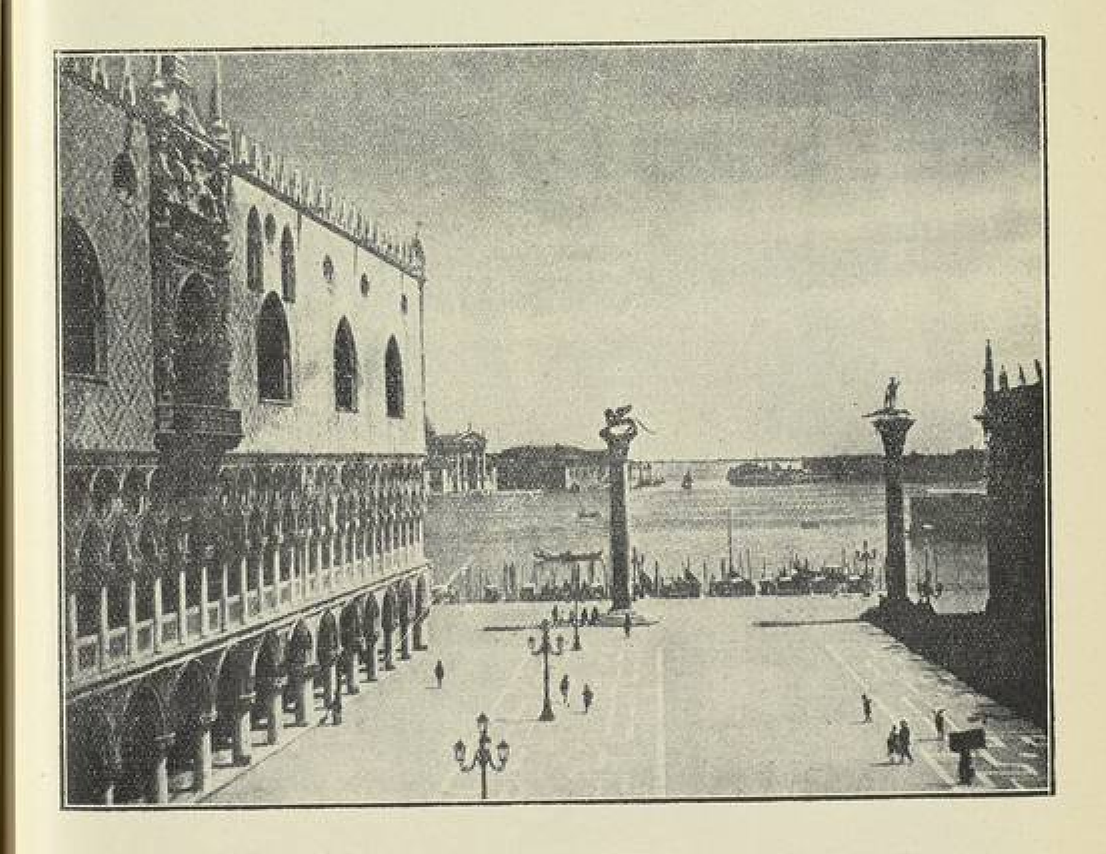
ولكل منزل زورقه الخاص بدل العربة ، وفى وسط المدينة ميدان فسيح تقع عليه كنيسة سان مارك ؛ وهى آية فى الفخامة والبهاء وداخلها كله مرصوف بالفسيفساء الرائعة



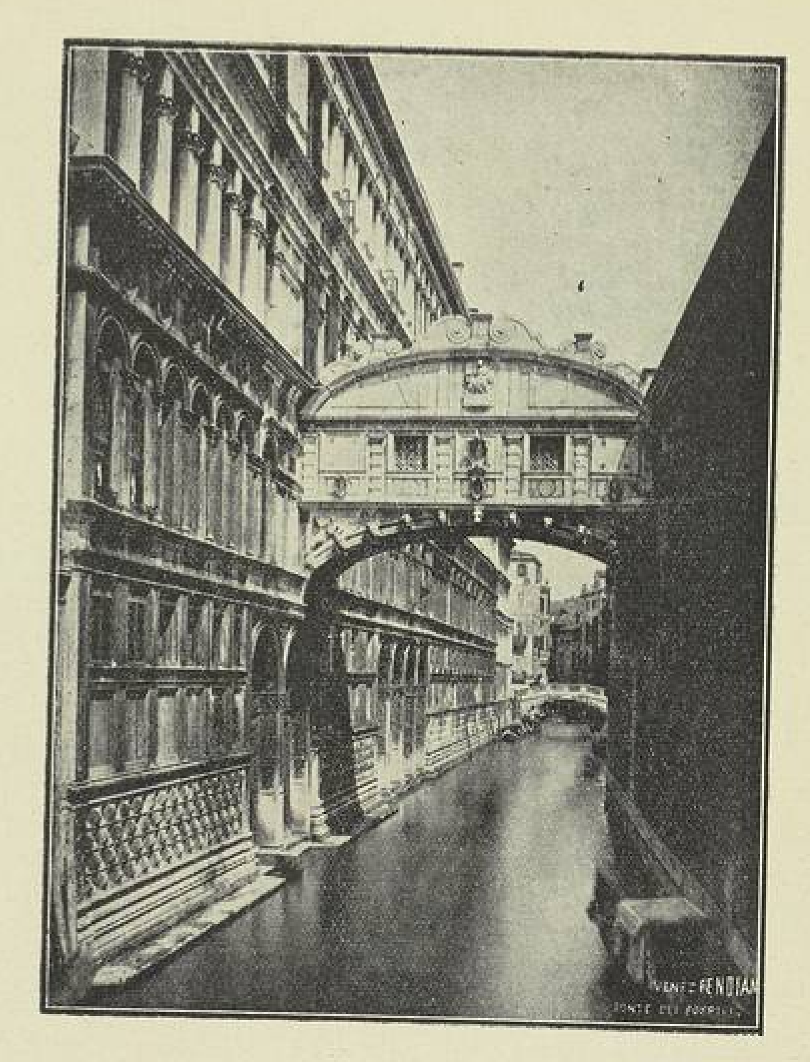
القنال الكبير والكوبرى

ميدان سان مارك مع الكنيسة والبرج

ويلى كنيسة سان مارك « قصر الدوقات » أو قصر الحكام ؛ وهو قطعة من بدائع الفن . وبه من الصور والنقوش كل نادر المثال ، وفى طابقه الأول بهو شاسع طوله ٥٢ متراً وعرضه ٢٥ مترا وارتفاعه ١٥ متراً ويسمى بقاعة المجلس الأكبر أو مجلس العشرة الذين حكموا جمهورية البندقية عصوراً طويلة . وقد زينت جميع غرفه بصور تاريخية لأكبر أساتذة الفن . ويقع تجاه القصر سجن الجمهورية القديم وهو شنيع مروع وفى الدور الأول مكان المجرمين العاديين وفى كل غرفة سرير من الخشب . وفى الدور الثانى مكان المجرمين السياسيين واسرتهم هى البلاط ويليه مكان أعد لأعدام المحكوم عليهم بالموت ولاتزال آثار الدماء فوق البلاط المثقب كانه المصفاة لنزول الدم منه . ويصل بين القصر والسجن جسر يسمى « جسر التنهدات » تروى عنه قصص كثيرة مروعة ويقال ان جثث الكبراء كانت تلقى منه إلى الماء . أما القتلى العاديون فكانوا يشنقون .



قصر الدوقات والميدان الصغير والعمودان الاثريان




جسر التنهدات

ويوجد ميدان صغير على القنال الكبير وتوجد به سلسلة غليظة متصلة من طرفيها بعامودين أخذها الفينيقيون من الأتراك وبالقرب من العمودين برج سان مارك العظيم

وشاهدت فى الميدان أسراباً عظيمة من الحمام ، وقد رتب لها الغذاء فى كل يوم ، وهو وديع مستأنس ينزل بأكتاف الزائرين فيتناول الطعام من اكفهم

ويقال ان هذا الحمام من ذرية قديمة كانت سبباً فى انقاذ فنيسيا فى احدى حروبها مع الاتراك .

وقد ركبت أحد الزوارق المسماة « جوندولا » إلى جزيرة ليدو وزرت فيها كنيسة ماچورى ؛ وهى لطيفة منصوب امام بابها مجموعة من التماثيل الفخمة وبها تمثال المسيح واقفا على الكرة الأرضية التى يحملها الرسل الأربعة مؤلفو الأنجيل . وفى كل جانب منه شمعدان هائل من البرونز منقوش ابدع نقش وخلفه مكان الترتيل يحيط به ثمانية واربعون تمثالا من الخشب .

وفى هذه الجزيرة حمام بحرى مختلط يؤمه كثير من الرجال والنساء . ولما رجعت إلى فنيسيا زرت الترسانة ومتحفها وبه بهوان كبيران يحتوى الأرضى على عدة سفن أثرية والعلوى يحوى مجموعات من أسلحة وغنائم حربية وأعلام كثيرة منها علم كبير مكتوب عليه (معركة ليبانتو) وكذلك : « لا اله الا الله محمد رسول الله » فى جملة جهات منه .

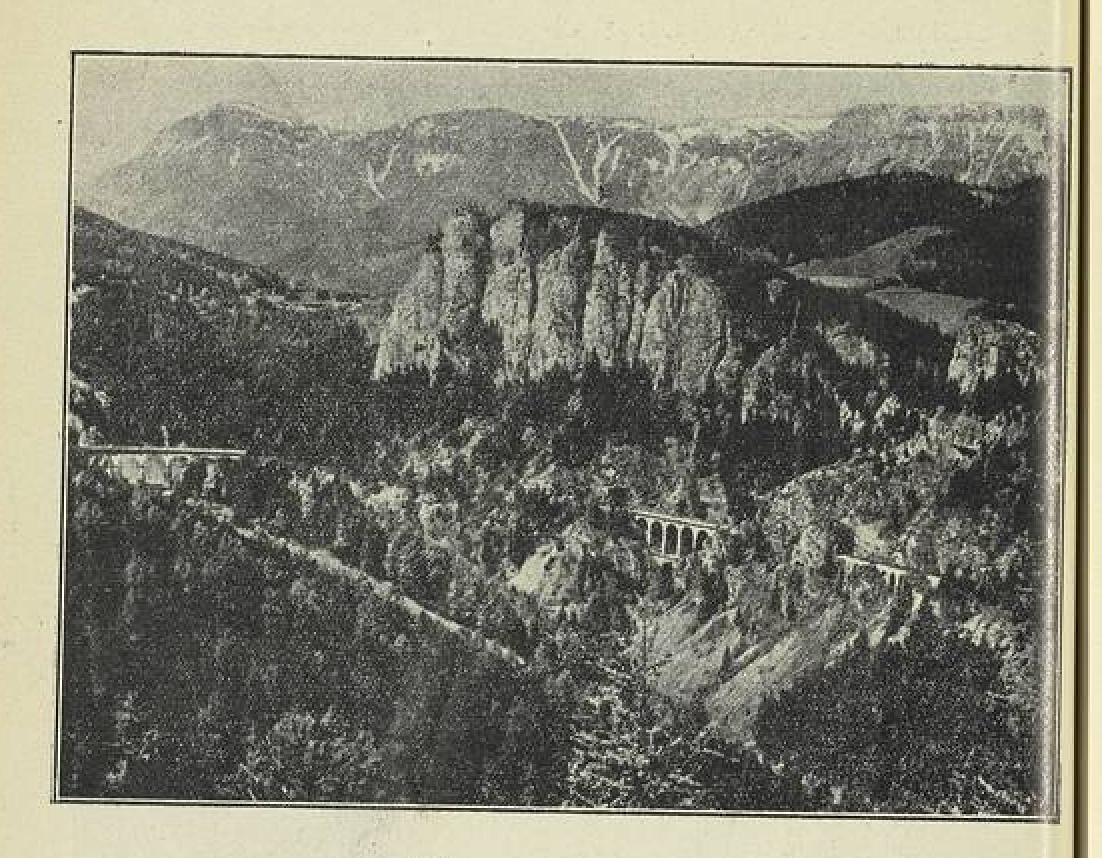
وفى ظهر يوم ١٧ اغسطس توجهت إلى الكاتدرائية وتفرجت على محل الكنوز وبالادورو ؛ أما الأول فلم يكن مهما ولم يعجبنى فيه سوى زهرية من حجر الأجات . وفيه سيف الدوق مورسينى وبعض أوان مقدسة منقوشة باحجار نفيسة . أما البالادورو فهو عبارة عن لوح من الذهب والفضة مموه بالمينا ومرصع باحجار نفيسة جداً من ياقوت وزمرد وغيرها وبعضها نادرة المثال بمثل حجمها الطبيعى . وقد عملت فى الاستانة سنة ١١٠٥ أى قبل دخول الاسلام اليها . وبعد ذلك تفرجت على صور سقف الكاتدرائية وعلى أربعة خيول من البرنز صنعت فى الاستانة أيضاً .

وهنا يجدر بى أن اذكر أن مدينة فنيسيا مشهورة بصناعة الأثاثات الخشبية المنقوشة بالأئمة ( الحفر ) وكذلك اعمال الزجاج والبللور المزخرف .

فينا . ثم غادرت ڤنيسيا إلى مدينة ڤينا فمر القطار بجبال السمرنج الجميلة المناظر وسار فى مرتفعات باستمرار ونزل فى هبوط حتى وصل فينا وذلك فى يوم ٢١ اغسطس سنة ١٨٨٨ وقصدت تواً إلى أحد الفنادق للاستراحة من عناء الرحلة .

وفى العصر ذهبت إلى فندق « المتروپول » وقابلت على باشا جمال وقمنا بنزهة قصيرة لطيفة ، وكذلك قضيت معه معظم يومين آخرين .

وفى أثناء وجودى وصلنى تلغراف من عبدالرحمن باشا رشدى سر تشريفاتى يطلب بقائى مع على باشا جمال حتى رجوع البرنسين عباس ومحمد على من الروسيا وكانا قد سافرا اليها للفسحة فأجبت الطلب ونزلت بفندق « المتروبول » ولما أن كان يوم ٢ سبتمبر ذهبت مع على باشا وبرفقتنا ترجمان إلى السراى الامبراطورية وبموجب تذكرة



منظر جبال السمرنج الذى يمر بها القطار

حصن لنا عليها مدير اللوكاندة طلعنا فى غرفة وقعدنا أمام شباك لانتظار زفة النشانجية، والطرق التى ستمر منها الزفة كلها غاصة بالجماهير . ولما كانت الساعة ١١ صباحاً دخلت حوش سراى «فرنسوا جوزيف» ، ودخل أولا رجل متقدم السن وعلى رأسه طاقية خضراء تغطى عينيه وأذنيه . وقد لبس برنساً أحمر ، وركب حصاناً أبيض . والسرج مقصب ، وفى يده عصا قصيرة ، لونها ذهبى ، وربما كانت من الفضة المذهبة ، ويمسك بلجام الحصان رجل ، وبجانب الركابين غلامان عليهما ملابس مزركشة . وهذا الرجل فى لحيته الطويلة — وان كانت حمراء — يذكرنى برجال الطرق فى الموالد . مثل المولد النبوى ، ويقال انه أقدم نشانجى منذ ٢٢ سنة . ثم مر بعده النشانجية من كل جهة وأمامهم لوحة مكتوب عليها اسم تلك الجهة ، وأمام بعضهم موسيقى نفس تلك البلد ، والبعض مصحوب ببنات الذين يرافقون النشانجية أثناء الصيد لاعطائهم المشروبات .

ولما اجتمع الجميع فى حوش السراى طلع الارشيدوق دودولف ولى العهد (لغياب الامبراطور) على البلكون وعزفت الموسيقات سلاماً ، ثم ارتجل أحد النشانجية خطبة مدح فيها سلوك العائلة الامبراطورية ومساعدتها للمشاريع النافعة وتعضيدها لجمعية النشانجية ، وختمها بالدعاء فأمن الحاضرون . ثم طلع عند الارشيدوق ومعه عمدة ڤينا الذى كانت ضمن الزفة ومكثوا مع البرنس لحظة ثم نزلوا . وضربت الموسيقات السلام الأمبراطورى ثم أخذت الزفة فى الخروج من باب غير الذى دخلت منه وطافت شوارع المدينة

بودابست . وفى ٧ سبتمبر سافرت مع على باشا جمال الى بودابست على احدى بواخر نهر الدانوب وهى عبارة عن قسمين « بودا » و « بست » يفصلهما الدانوب عن بعضهما




شارع اندراسى

فلما وصلنا القسم الأخير وجدناه جميلا وشوارعه فخمة وأعظمها شارع « اندراسى » وطوله كيلو مترين ونصف ، وعلى جانبيه كثير من المبانى الفخمة ، وفى وسطه ميدان جميل

وكان بفندق هنجاريا الفخم المطل على رصيف الدانوب والذى نزلنا به جوقة موسيقة عزفت بعض الأدوار التركية إكراماً لنا فأرسلنا لرئيسها منحة

وزرنا مدينة بودا التى أمام بست وشاهدنا فيها زاوية صغيرة مثمنة الأضلاع من زمن الأتراك ، مدفون بها ولى يسمى ( جُلْبابا ) وعلى حائط هذه الزاوية لوحة مكتوب عليها بعض آى القرآن بالخط العريض . وهذه الزاوية محفوظة بناء على مادة مخصوصة فى معاهدة كارلوفتس سنة ١٦٩٦ المبرمة بين الأتراك والنمساويين

وبعدئذ رجعنا الى بست فوجدنا الأماكن التى على الطونة مزينة بالأنوار والنهر مملوء بالسفن البخارية وفيها الموسيقى وبجانبها سباق الزوارق فظللنا فى طرب الى منتصف الليل

وفى أثناء وجودنا وصلتنا برقية من مصر تنبىء بأن البرنسين عباس ومحمد على سيمران بها أثناء عودتهما من سياحتهما بالروسيا ، فانتظرناهما حتى وصلا فى يوم ١٠ سبتمبر ومعهما تونينو «باشا» ومحمود بك شكرى والأستاذ نجيب افندى المعلم التركى، وأخبرنا البرنسان أن مقابلة القيصر لسموهما كانت فى منتهى الحفاوة . وعدنا الى فينا فى نفس اليوم ونزلنا جميعاً بفندق المتروبول

وفى أثناء وجودنا به وقعت لنا حادثة مع رجل محتال لم تكن أولى حوادثه معى؛ فقد لقينى قبل ذلك فى محطة لوسرن فى أوائل أغسطس سنة ١٨٨٨ وبعد أن تأمل فى وجهى وجلس بجانبى سألنى عما اذا كنت مصرياً ، فأجبته : نعم — قال : والى أين تقصد ؟ قلت : الى إيطاليا. فقال: وأنا أيضاً . وبعد أن تحادثنا برهة قام لأخذ التذكرة ثم رجع وطلب منى بضعة فرنكات قرضاً حتى يصرف ورقة مالية . فارتبت فى أمره . ولكنى أردت أن أمتحنه فقلت له : يا صاحبى ليس معى إلا بضعة أفلاس ( قطع نحاسية ) أقل من فرنك فأخذها منى ، فعندئذ فهمت أنه محتال ولم أعثر عليه فى القطار الذى أقلنى الى إيطاليا .

وبينما كنت أتجول فى ميدان سان مارك بڤينسيا عقب وصولى من سويسرا طلب منى أحد المارة أن أصرف له ورقة من ذوات العشرين فرنكا إيطالياً ، فما كدت أرى وجهه ويرى وجهى حتى انصرف عنى مسرعاً واذا به المحتال الذى لقيته فى محطة لوسرن !

وكان من غرائب الاتفاق أنه جاء أحد الخدم وقال لجمال باشا : — إن أحد المصريين يريد مقابلته ليطلب اعانة يتمكن بها من الرجوع الى مصر لأن نقوده نفذت . وكنا على وشك النزول لتناول طعام الغداء . فلما اقتربنا من بهو الفندق أمام المدخل اذا بصاحبى نفسه . فما ان وقع بصره على حتى لاذ بالفرار ! فاستغرب الحضور هذا الفصل . وعندئذ أخبرتهم بالقصة فضحكوا .

وكان البرنسان يغدقان على من الرفق والعطف ما يملأ نفسى امتناناً وغبطة .

وفى ١١ سبتمبر ودعت على باشا جمال ومحمود شكرى بك وتونينو باشا، عند سفرهم عائدين الى مصر ورجوتهم أن ينوبوا عنى فى تقديم آيات الولاء لسمو الخديو المعظم

بعد سفرهم مكثت بڤينا لمشاهدة بعض الأشياء التى لم أشاهدها من قبل فزرت سراى المتاحف فى شارع (رنجشتراسى) وهى مركبة من قسمين خص كل منهما بأنواع من الآثار والتحف، مثل النقوش الايطالية والتحف العربية من سروج وأسلحة مزخرفة؛ وكذلك موميات مصرية وغير ذلك . وبين قسمى سراى المتاحف حديقة زاهرة فيها تمثال الأمبراطورة مارى تيريز وهو من البرونز موضوع بهيئة الجلوس على قاعدة من الرخام وحوله تماثيل لقواد جيوشها ومشاهير رجالها

وأعظم شوارع ڤينا هو شارع رنج ، وهو على شكل نصف دائرة وفى جهته الشمالية على ضفة الطونة الرصيف الرحب المعروف برصيف فرنسوا چوزيف . وعليه من الأبنية البديعة والأماكن المشيدة ما هو جدير بالمدح والاطراء . وهناك متنزه ( اشتاد پارك ) الجميل الذى تحفه الأشجار العظيمة وبه الزهور البديعة ذات الرائحة العطرة .

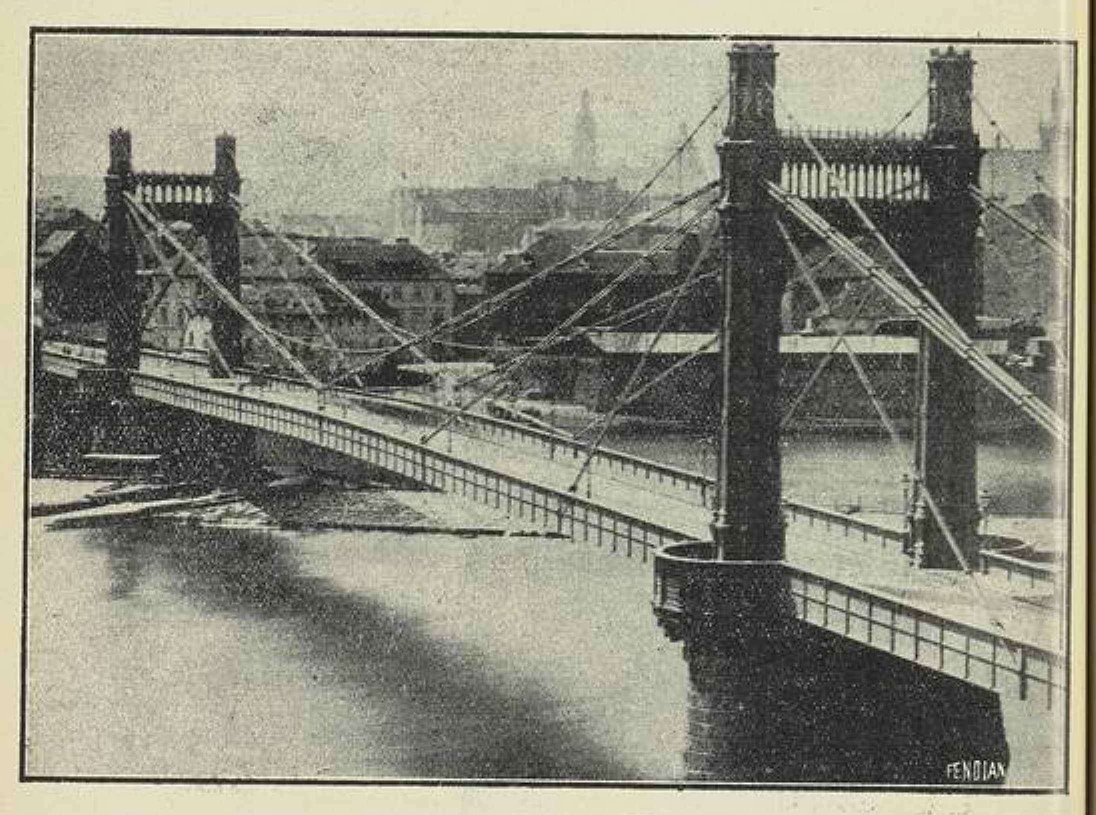
ويقع بهذا الشارع من الأبنية الفخمة مايعجز عنه الوصف؛ منها بناء الأوبرا الجميل وسراى المحاكم وسراى البرلمان والفنادق الكبرى وسراى البلدية وهى فى غاية الزخرفة والابداع لما احتوته من التماثيل والصور الجميلة، وباعلى بابها برج شاهق يبلغ ارتفاعه نحو المائة متر، وامامها ميدان بهيج غرست به النباتات البهية والأزهار اللطيفة .

ومن الشوارع التجارية المهمة الشارع الموصل من الأوبرا إلى كاتدرائية سانت اتين ، ثم سوق جرابن وفيهما المغارات الكبيرة التى تحتوى على التحف الغالية من مجوهرات وأقمشة وملبوسات وأوان فضية وأحجار نفيسة وخصوصا الكهرمان . وقد اشتريت منها بعض الحاجيات كهدايا .

وفى يوم ١٤ سبتمبر مساء سافرت إلى براج ، وفى الصباح خرجت لمشاهدة المدينة وأهم ما فيها فوجدتها جميلة ، وهى عاصمة بوهيميا وثالثة مدن النمسا والمجر بعد ڤينا وبودابست ، وهى المركز التجارى لبوهيميا ومشهورة بالمنسوجات المختلفة وصناعة الآلات والمواد الكيماوية والسكر والجلد والأسلحة والصباغة وصناعة البلور والخزف.

ويقسم نهر مولدو المدينة إلى قسمين يصلهما ببعضهما عدة كبارى أكثرها استعمالا

كوبرى كارل ؛ وهو من أهم كبارى النمسا والمجر . وبه ست عشرة فتحة وطوله ٤٩٧ متراً وعرضه عشرة أمتار . وعليه ثلاثون تمثالا . وكذلك كوبرى فرنسوا جوزيف وهو من أفخم الكبارى بهذه المدينة .




كوبرى فرنسوا جوزيف

وشطر المدينة الواقع على الشاطىء الأيمن ينقسم إلى قسمين القسم الجديد والقسم القديم . أما الجزء الواقع على الشاطىء الأيسر فكله جديد وشوارع القسم القديم غير منتظمة ومبانيه قديمة . وبه كل الحركة التجارية والصناعية . وتفرجت على دار البلدية فوجدتها فخمة رغم قدم مبانيها وأمامها ميدان أقيم به برج لساعة عظيمة شيد فى سنة ١٤٧٤ . كما شاهدت بهذا الحى الجامعة الكبرى المبنية على طراز جامعة باريس شيدها شارل الرابع فى سنة ١٣٤٨ .

وأما الأقسام الجديدة فشوارعها ومبانيها منتظمة وجميلة ولكنها أقل حركة . وبها

أبنية فخمة منها المستشفى الحربى ، ومن أهم أحيائه حى كليشت وتقع فيه قصور عظماء التشك وحى هراد ستشن وبه قصر أحد ملوك الغابرين ومنه يمكن مشاهدة المدينة وضواحيها ، وقد أعجبنى منظره .

وفى يوم ١٦ منه زرت أهم المتاحف الموجودة بالمدينة؛ وهى متحف التاريخ الطبيعى، ومتحف الآثار الأهلى ومعرض الصور ، كما شاهدت حديقة النباتات وبداخلها المعرض وتفرجت على تياترها الفخم الذى يسع عدداً عظيما من المشاهدين .

ثم بارحتها الى درزد (عاصمة سكسونيا) فى يوم ١٦ مساء ، وفى الصباح خرجت للتفرج عليها فوجدتها مدينة نظيفة متسعة يمر بها نهر الألب فيشطرها شطرين : المدينة القديمة والمدينة الجديدة ، ويصل الشطرين ببعضهما ثلاثة كبارى ؛ الأوسط منها — وهو أقدمها — يطلق عليها اسم « كوبرى أوجست » وقد أقيم فى القرن الثالث عشر وطوله ٤٣٩ مترا وعرضه ١٢ ½ مترا و كوبرى (ماريثبرك) وقد بنى فى سنة ١٨٥٢ . وهومخصص لسير العربات والسكك الحديدية كما يمر به الناس ، وكوبرى ألبرت الذى أنشىء فى ١٨٧٧ .

وتقع على الضفة اليسرى من النهر حديقة الكونت بردهل ، وهى ذات منظر خلاب لعلوها ، وبجوارها قصر قديم رقيت الى ساحته بواسطة سلالم كبيرة محلاة بأربعة تماثيل تمثل الليل والنهار والصبح والمساء ، وهى من صنع ( سيلنخ ) .

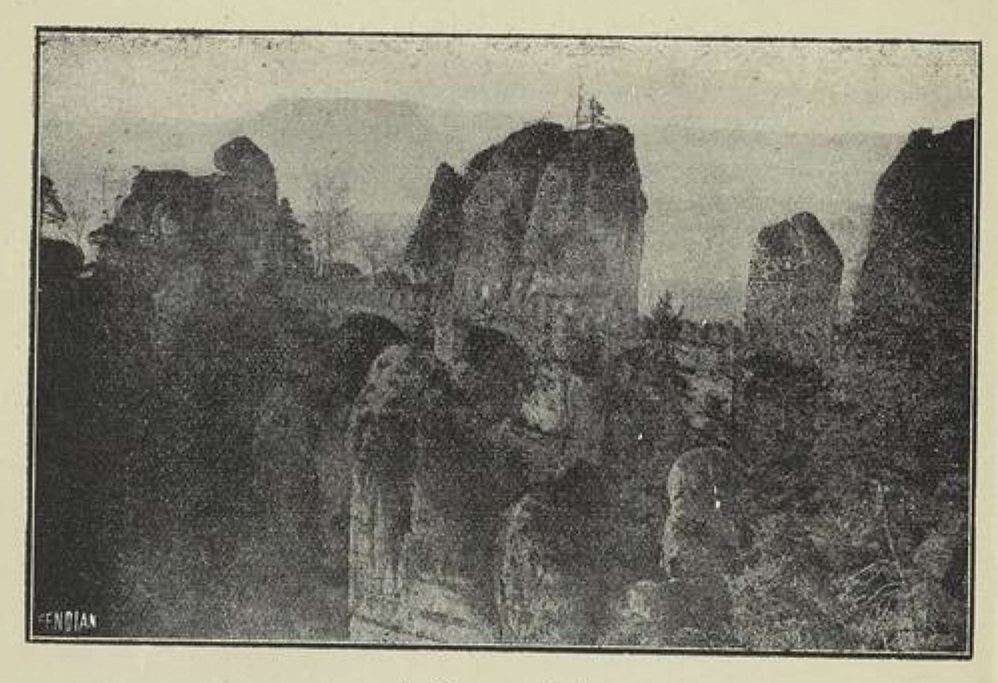
وهناك توجد أكاديمية الفنون الجميلة ومعرضها وحديقة النباتات .

كما أن فى درزد حديقة للحيوانات تحتوى على مجموعة من الحيوانات المستأنسة والمتوحشة ، وفيها مطعم تناولت غذائى به .

وأهم ميادين هذه المدينة ميدان ( الت ماركت ) ومنه تتفرع عدة شوارع .

اما القسم الجديد فأهم ميادينه هو ميدان (البرت) وأهم شارع متصل به هو شارع ( هوبتس ) ويسير الى جهة الجنوب حتى نهر الالب ، وبهذه الشوارع محلات تجارية فخمة ومقاهى جميلة وأبنية شاهقة .

وبدرزد متاحف كثيرة أهمها متحف المصنوعات ، ويحتوى على مصنوعات من كل الانواع والنماذج وخصوصا المخترعات الالمانية مثل الاثاثات والفخار ومصوغات الذهب والبرونز والحديد وغير ذلك . وهذا المتحف غنى على وجه الخصوص بالمنسوجات




ضاحية سويس ساكسون

وكذلك شاهدت متحف جوهانم ويحتوى على دورين بالدور الاول منه القسم التاريخي وأهم مابه أثاثات من القرن السادس عشر مثل ساعات وكؤوس للشرب من مخلفات الامراء السكسونيين . وقد شاهدت به الخيام التركية التي من ضمنها خيمة الوزير الاكبر قرا مصطفى ، وقد غنمها النمساويون فى حصار ڤينا سنة ١٦٨٣ بقيادة جون سوبيسكى القائد النمسوى

وبهذا المتحف صالة تسمى صالة الملابس رأيت فيها ملابس ملكية للاعياد من القرن السادس عشر ،كما شاهدت القناع الحربى لنابليون الاول . وبالدور الاول ايضاً قسم الاسلحة النارية وبه مجموعة ثمينة منها كما شاهدت فيه صورة زيتية تمثل اثنين يتبارزان

وبالدور الثاني من هذا المتحف توجد صالة بها مجموعة ثمينة من الاوانى الخزفية من صناعات الصين واليابان والهند وفرنسا وساكس ، وأهمها مجموعة الصين وساكس

كما شاهدت أحد المتاحف التى بها بعض الآثار التى يمكن زيارتها فى الصيف وهى قاعات الصور الزيتية وبها صور من عمل أشهر المصورين كرفائيل وقاعات بها تحف مرصعة بالاحجار الكريمة صُنِعَت فى القرنين السادس عشر والثامن عشر وربما كانت أغنى

تحف اوروبا وكذلك صالة بها تماثيل من البرونز لشخصيات مشهورة وقاعة بها مداليات مختلفة وصالة تحوى أوانى فضية أثرية

ويقع فى الجانب الشرقى من المدينة الحديقة الكبيرة ، وهى حديقة غناء وفى وسطها متحف به آثارات قديمة .

وفى يوم ١٨ منه توجهت الى ( سويس ساكسون ) التى تقع فى ضواحى درزد وهى جهة بديعة يخترقها نهر الالب وتمتاز بجمالها الريفى وصخورها الهائلة ومضيقاتها الطبيعية مما يشبه مثيلاتها بسويسرا .

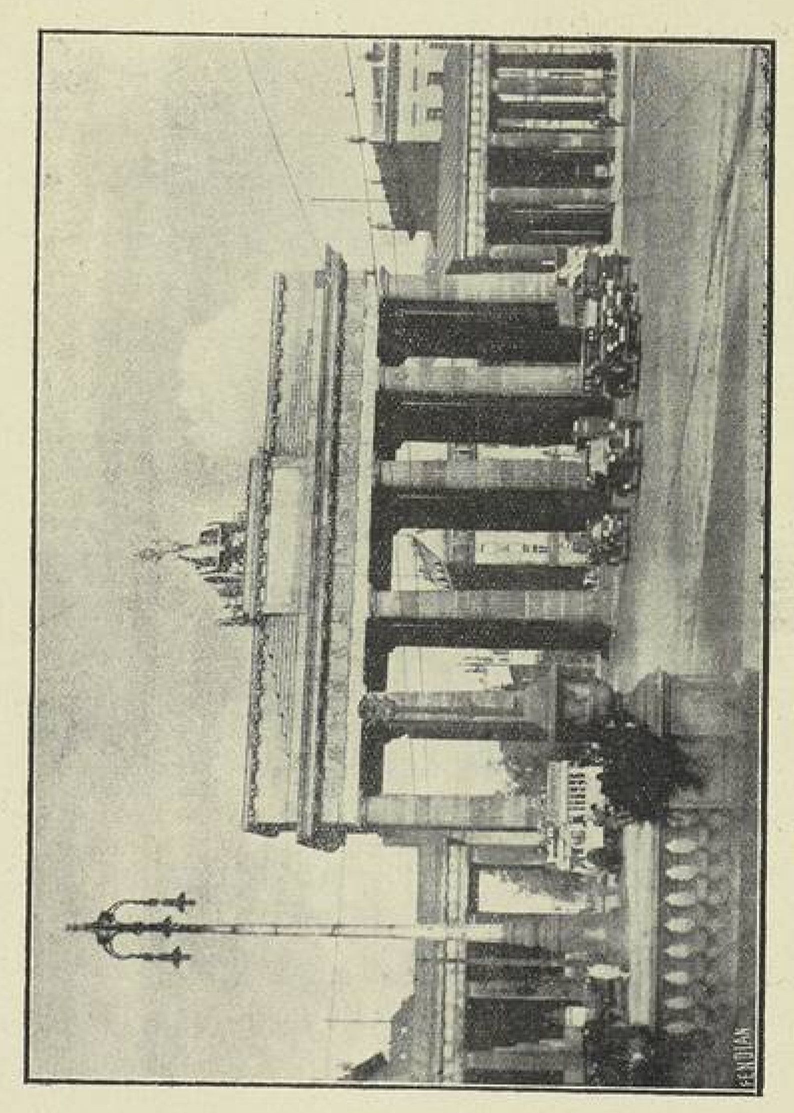
وأهم المسارح الموجودة بمدينة درزد هو التياترو الملوكى وهو جميل وتسع صالته الفين من المشاهدين .

وبعد ظهر يوم ١٩ سبتمبر قصدت الى برلين فنزلت بأحد فنادقها المتوسطة وقد وجدته نظيفا والطعام به جيداً

ومن أهم ماشاهدته فيها هوشارع (اونتردين ليندن) أو شارع أشجار الزيزفون ، وهو جميل جداً طوله كيلومترين ونصف وعرضه ستون متراً ويتفرع منه شوارع طويلة غير متسعة ومن أطولها شارع فريدريك حيث يبلغ طوله ثلاثة كيلومترات وفى نهاية شارع الزيزفون يقع ميدان باريس وبه قصور العظماء ، كما يوجد بهذا الشارع حديقة الاسماك وبها أماكن للطير وبعض الحيوانات الأليفةوالمفترسة ، وكذلك يوجد به سراى ( الكونت ريدرن ) وهى تشتمل على مجموعة رسومات حديثة وقديمة وعلى كثير من التماثيل .

كما يقع فى هذا الشارع ( السوق الامبراطورى ) وهو بناء شاهق يحتوى على دكاكين ومقاهى ومطاعم ، وكذلك يوجد به متحف ( پانو بتيكوم )وهويشبه متحف مدام تيسو بلندره . وبه صور كثيرة من الشمع لمشاهير الامراء والعظماء ، وخصصت احدى قاعاته لتماثيل الملوك بملابسهم الرسمية . ورأيت فى ضمنها تمثال السلطان عبد الحميد خان .

وفى آخر شارع الزيزفون تمثال فريدريك الاكبر وبعده ميدان الاوبرا وبه السرايات الفاخرة ودار الاوبرا وكنيسة سانت هيدويج وسراى الامبراطور غليوم الاول . وهناك يوجد ايضا متحف الأسلحة ويحتوى على كثير من الأسلحة النارية والبيضاء قديمها وحديثها مرتبة على حسب التواريخ ، وكذلك يحتوى على الاعلام والمدافع التى غنمها الألمان فى حروبهم .



باب براندبورج

كذلك شاهدت باب ( براندبورج ) وهو فى طرف شارع الزيزفون من جهة الغرب بعد ميدان باريس ، وهو بناء شامخ ارتفاعه ٢١ متراً وعرضه ٦٢ متراً وبه خمس فتحات

كما تفرجت على (تيرجارتن) حديقة النباتات التى تعزف بها الموسيقى ، وهى محل جميل للتنزه ، ويفصل هذه الحديقة من شارع الزيزفون باب براندبورج ، وتعتبر هذه الحديقة خارجة عن المدينة

وشاهدت ببرلين ميدان (لوشجارتن) وهو من أهم الميادين بها . ويقع على الضفة الغربية من نهر (سپْرِيه) وهو ميدان فسيح تظله الاشجار عرضه مائتا متر وطوله مائتان وخمسون ، وفى وسطه تمثال ( فريدريك غليوم الثالث ) وبجوانب هذا الميدان القصر الملوكى والكنيسة الكاتدرائية والمتحف القديم وقد زرته ، وهو بناء عظيم على الطراز اليونانى القديم بواجهته ثمانية عشر عموداً ، يوصله الى المتحف الجديد على بعد منه ممشى . والمتحفان يشتملان على كثير من الآثار القديمة المتعلقة بالقرون الوسطى وما بعدها وما قبلها وعلى رسوم كثيرة من صنع أساتذة هولنده والمانيا وايطاليا ،وبها تماثيل من صنع الألمان وغيرهم مما جعل هذا المتحف يضارع أكبر المتاحف فى الاتساع وغزارة المادة وحسن الترتيب .

وبهـــذه المدينة يوجد شارع غليوم ويحتوى على كثير من القصور والسرايات الفاخرة كما توجد به أغلب دور الحكومة .

وشاهدت قصر (مونبيجو) ويشتمل على متحف ( هُنْسلرِن ) وهو يحتوى على الآثار التى تتعلق بالعائلة المالكة ومن ضمنها المنضدة التى وقع عليها نابليون الثالث فى سراى سان كلو اعلان حرب سنة ١٨٧٠ . وبه قاعات اخرى بها صور العلماء وكبار أمراء الجيوش وصور أعضاء العائلة المالكة . كما شاهدت الميدان الملوكى بالقرب من باب ( براندبورج ) وهو من أحسن أماكن برلين وبه بساتين وفساقى المياه ، وفى وسطه عمود يعرف بعمود النصر مقام من الحجر والبرونز وارتفاعه واحد وستون متراً ونصف مرسوم على احدى جوانبه حرب الدنيمارك ، وفى جانب ثان واقعة ( سادوا ) وفى الجانب الثالث واقعة سيدان ، والرابع وصول الجيوش سنة ١٨٧١ وهو من الآثار البديعة .

ومن أهم شوارع برلين شارع ليبزج وينتهى الى ميدان بوتسدام ويبعد عن بوتسدام التى بضواحى برلين مسافة ساعة بالسكة الحديد ، قصدتها فى يوم ٢٣ سبتمبر وهناك شاهدت بالقرب من المحطة قصر فردريك الثانى ملك بروسيا ، ويسمى بقصر ( سان سوسى ) أى الهادىء ، وحول هذا القصر حديقة غناء متسعة وبجوار سورها طاحونة هوائية قديمة أراد الملك أن يشتريها ويضمها الى حديقة القصر فأبى صاحبها فهدده الملك بنزع ملكيته فلم يأبه صاحبها بذلك بل قال : — ( هناك فى برلين قضاة )



الطاحونة التى بجوار قصر سان سوسى فى بوتسدام

فسر الملك لذلك عند ما بلغه وعلم بأن القضاء فى بلاده يسير فى مجرى العدل وأخيراً صرف النظر عنها وتركها لصاحبها وبقى المثل الذى فاه صاحب الطاحونة ( فى برلين قضاه ) .

وبارحت برلين فى مساء نفس هذا اليوم الى باريس حيث وصلتها فى صبيحة يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٨

# الفصل السابع

## مشاهد الوداع

### ومعرض باريس العام

**بولفارات باريس . أفنو الاوبرا . ميدان الوفاق ( لاكونكورد ) . أفنو دوشانزليزيه . المخازن الكبرى التجارية . سوق الخضار الكبير المركزى « هال سنترال » . مجارى باريس . معرض باريس العام .**

---

لما أكملت دراستى وشعرت باقتراب مغادرتى لباريس والعودة إلى الوطن رأيت أن الق على المدينة العظيمة نظرات وداع خاصة ، وأن أرى مشاهدها ومناظرها البارزة بعين التأمل والاستقصاء ، ولا بتلك النظرة السطحية التى كنت القيها عليها طوال إقامتى . وفى هذا الفصل أذكر بعض المناظر التى استرعت اهتمامى ولم أذكرها من قبل :

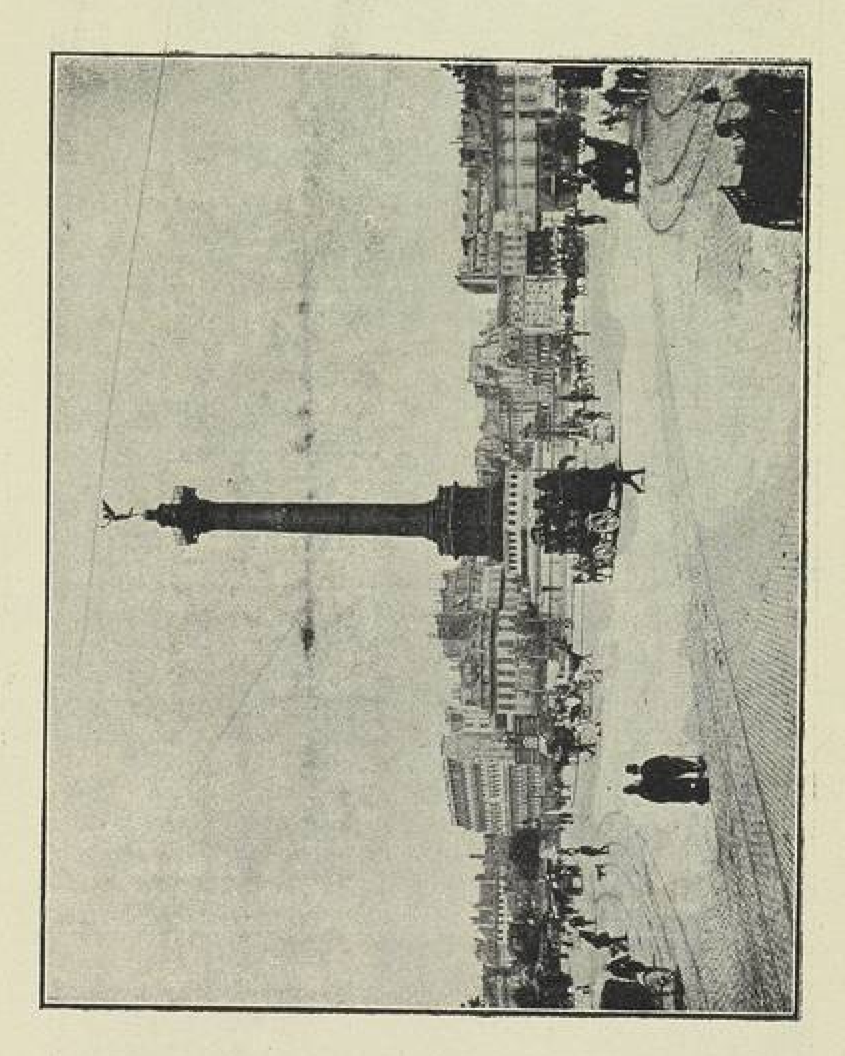
**بولفارات باريس** . من أروع ما فى باريس مجموعة الشوارع الكبرى[١] « الجران بولفار » وهى سلسلة من الشوارع تبلغ الاحدى عشر ، وتقع متعاقبة على شكل قوس تقريبا ، بعضها مرصوف بالأحجار وبعضها مغطى بالأخشاب . وهى تجمع بين المبانى الحديثة الفخمة والمبانى الأثرية الرائعة ومنها الأبواب القديمة التى تشبه من حيث المواقع باب النصر وباب الحسينية وغيرهما فى مصر ، كما أنها تضم عددا من المبانى البسيطة على الطراز القديم ويوجد بها كثير من المسارح الكبيرة والبيوتات المالية

---

(١) تقسم الطرق التى تتخلل باريس إلى «١» حارات Ruelle «٢» شوارع Rue وليس بها أشجار على جوانبها «٣» أفنو Avenu وهى شوارع متسعة تتفرع منها عدة طرقات وبها أشجار على الجانبين وفى بعضها طرقات للراجل ورا كبي الجياد من الجانبين والوسط للعربات كما هو الحال فى الشانزليزيه «٤» بولفارات Boulevard وهى عبارة عن الشوارع التى تفصل المدينة عن ضواحيها وبعضها بوابات أثرية موجودة للآن داخل المدينة .

العظيمة . وهى شديدة الازدحام وعلى السائر بها أن يكون فى غاية الحيطة والحذر وإلا اصطدم بالعربات أو الامنيبوس .

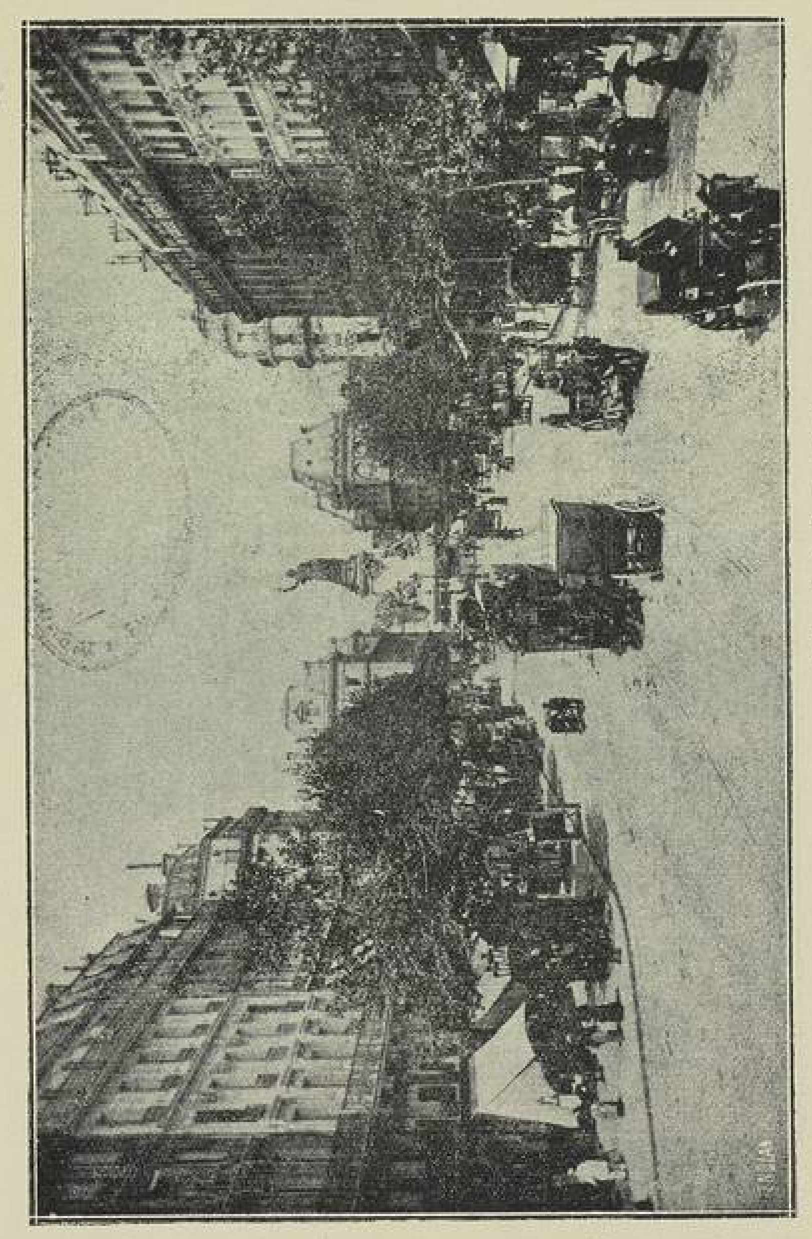
و « الجران بولفار » يمتد من ميدان الباستيل الموجود به عامود ١٤ يوليه إلى كنيسة المادلين وأهمها :



الباستيل وعامود ١٤ يوليه

بولفار دو تامبل (شارع المعبد) . الموصل إلى ميدان الجمهورية ؛ وهو من أجمل الميادين ، وفى وسطه تمثال الجمهورية فى هيئة امرأة رشيقة جذابة .

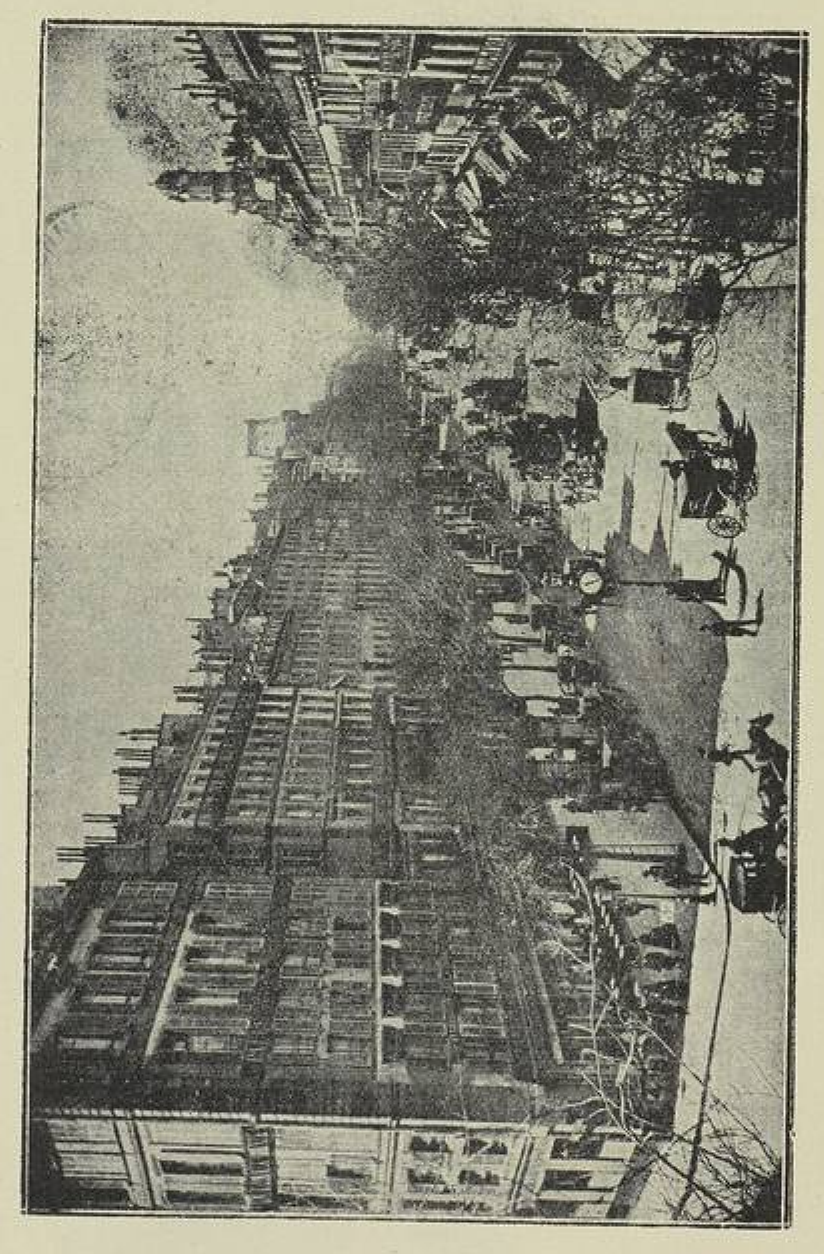
بولفار مونمارتر . وهو كثير الحركة ، والمقاهى التى على جانبيه عديدة ، وبه بيوتات تجارية كبيرة . ويوجد به متحف جريفن السابق ذكره .



ميدان الجمهورية وفى الوسط تمثال الجمهورية ويرى شارع دو تامبل

بولفار دزيتاليان . وسمى كذلك نسبة إلى التياترو الايطالى الذى كان به من قبل ومن هذا البولفار تتفرع عدة شوارع مهمة ويقع فيه كثير من المصارف والبيوت الكبيرة .

بولفار دوكابوسين . وبه القهوة الاميريكية المشهورة باجتماع فتياتها الجميلات فى المساء ،
وهو ينتهى بميدان الاوبرا وعلى الجانب الآخر من الميدان يوجد الفندق المعروف



بولفار دزيتاليان — شارع ستيز

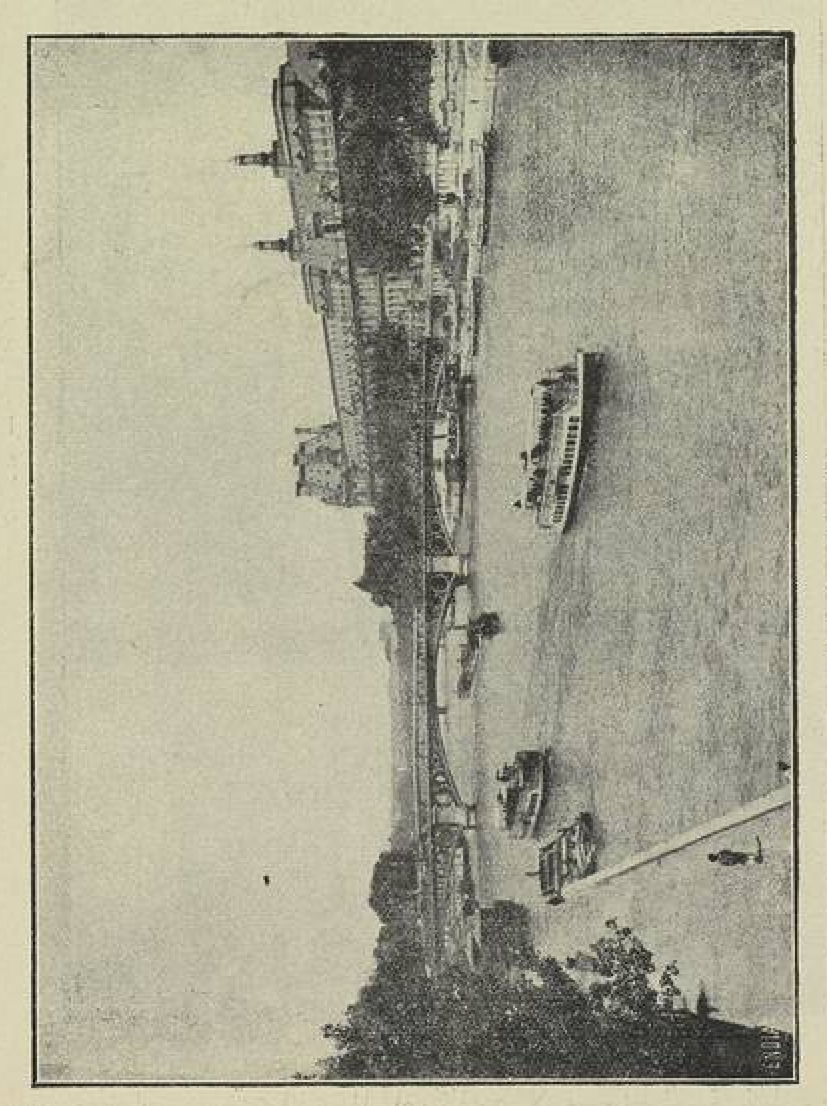
باسم « جراند اوتيل » وتحته القهوة المسماة « كافيه دو لا يه » وبعد الفندق بقليل يوجد

«المونتانى روس» الذى سبق ذكره . واذا استمر الانسان فى السير انتهى الى كنيسة المادلين.

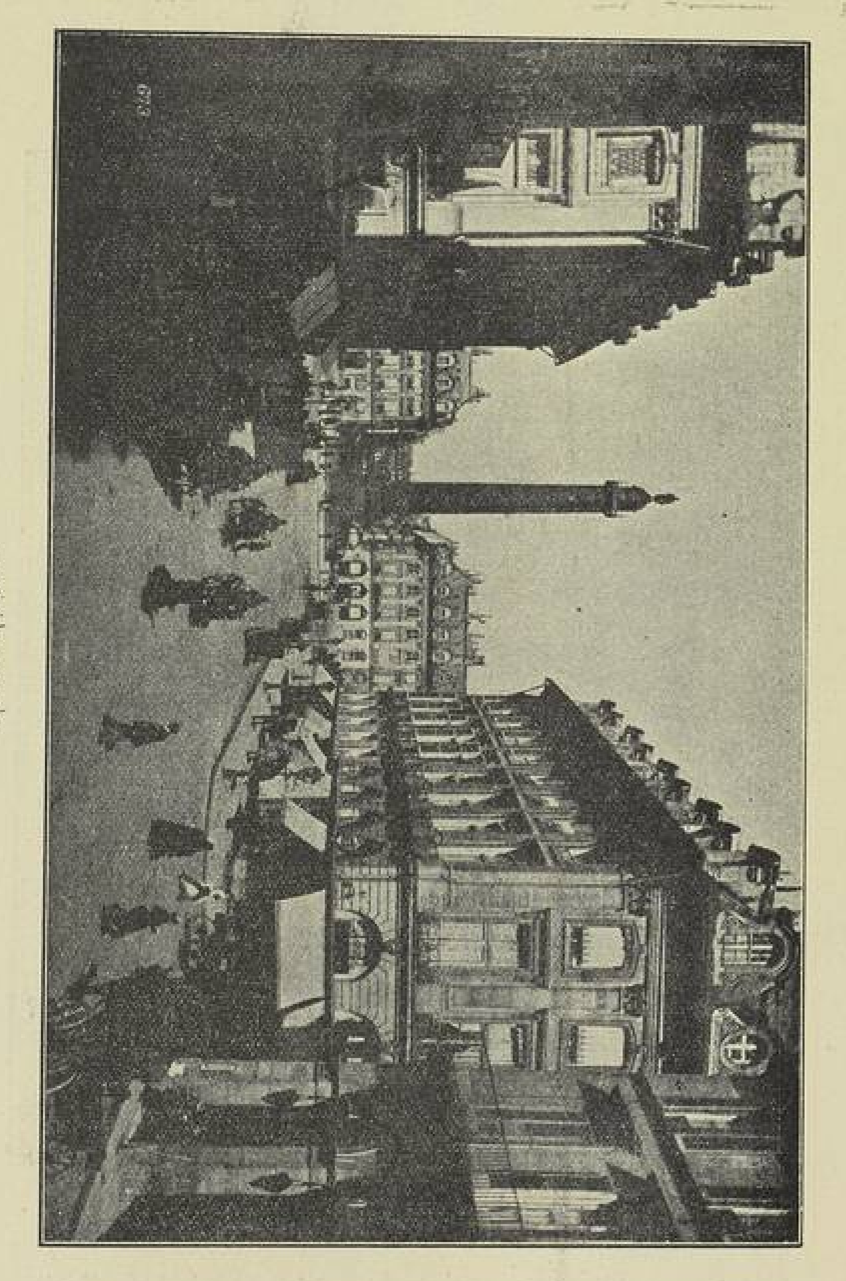
وبالقرب من الاوبرا شارع لابيه «السلام» وهو من أحسن الشوارع وفى وسطه « ميدان فندوم » المسمى باسم العامود التاريخى ، وبه أيضا فنادق مشهورة وبيوتات لبيع الجواهر يؤمها السواح الاغنياء لمشترى الحجارة الكريمة ذات الأثمان الغالية .

كل هذه البولفارات والمشاهد تقع فى الشاطىء الأيمن من نهر السين .

ويقع على الشاطىء الأيسر دار المجلس البلدى وهى من أجمل وأروع مبانى باريس



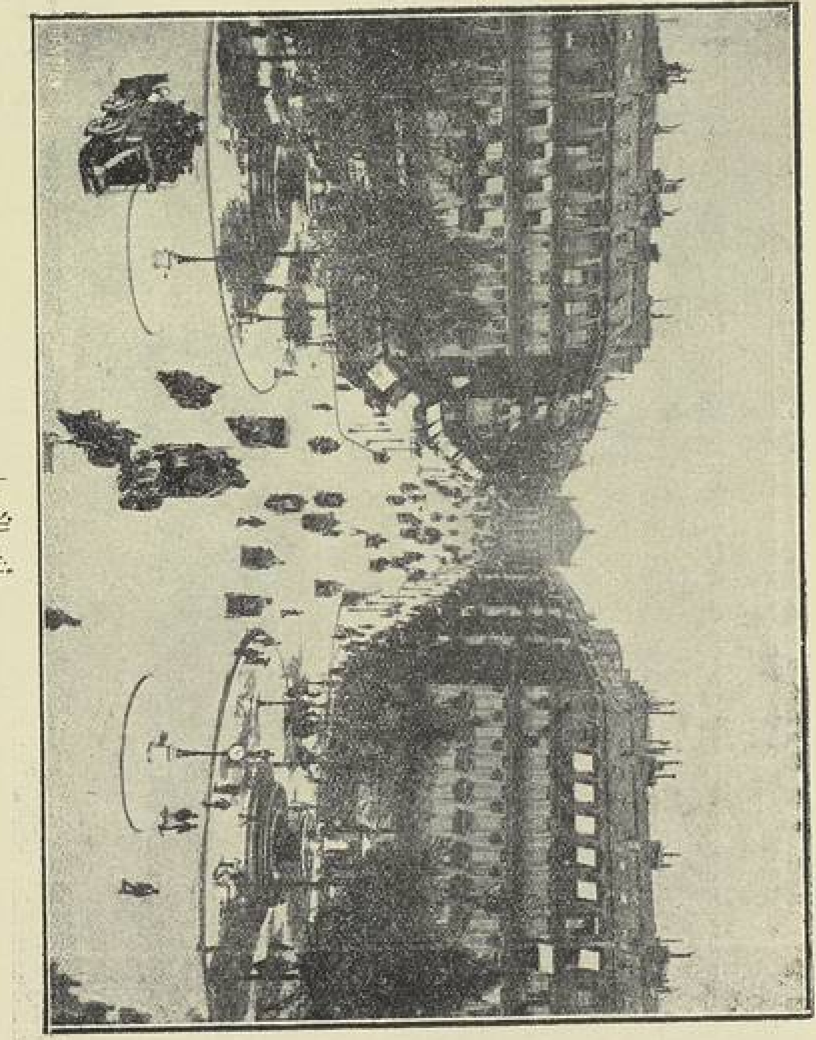
المجلس البلدى ونهر السين



عامود ميدان فندوم

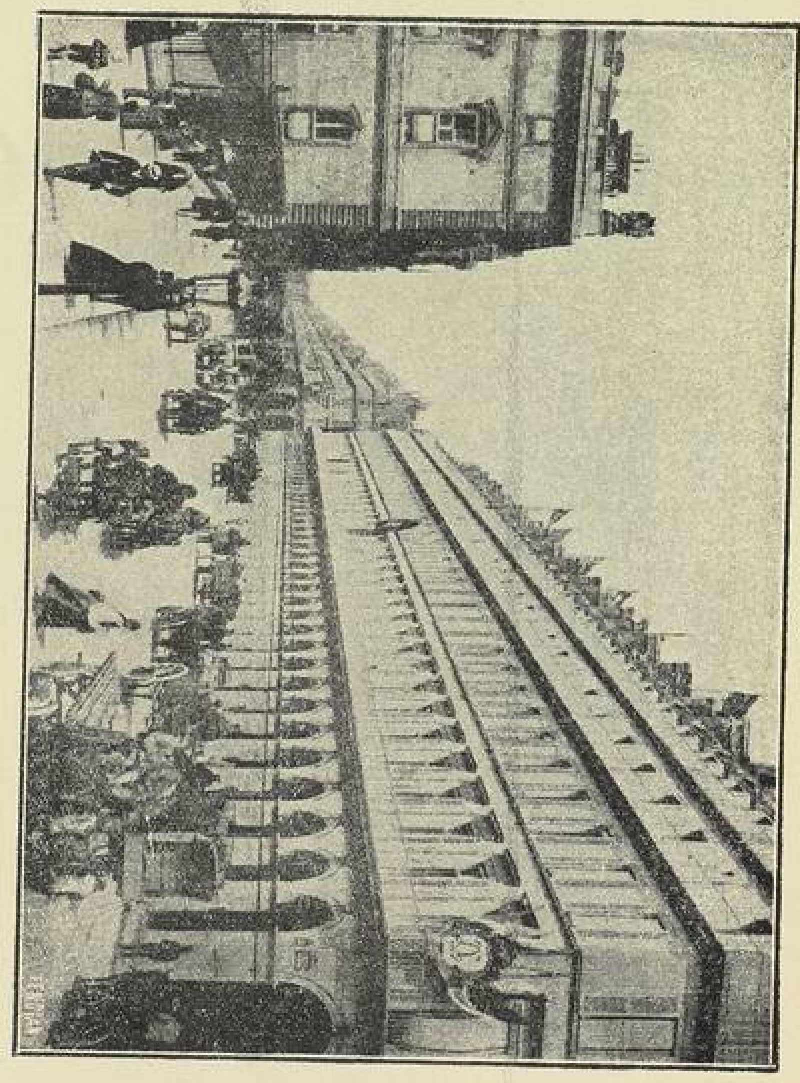
أفنو الأوبرا . ويمتد من الاوبرا الافنو المسمى باسمها حتى ميدان الكوميدى فرانسيز ومنه الى سراى اللوفر الواقعة على طريق ريڤولى الشهيرة المحاذية لنهر السين

وطولها ٣ كيلومترات والتى تبدأ من ميدان الوفاق (لا كونكورد) الى طريق سانت أنطوان، وعماراته متشابهة فى البناء والجسامة ومنه جزء بيواكى



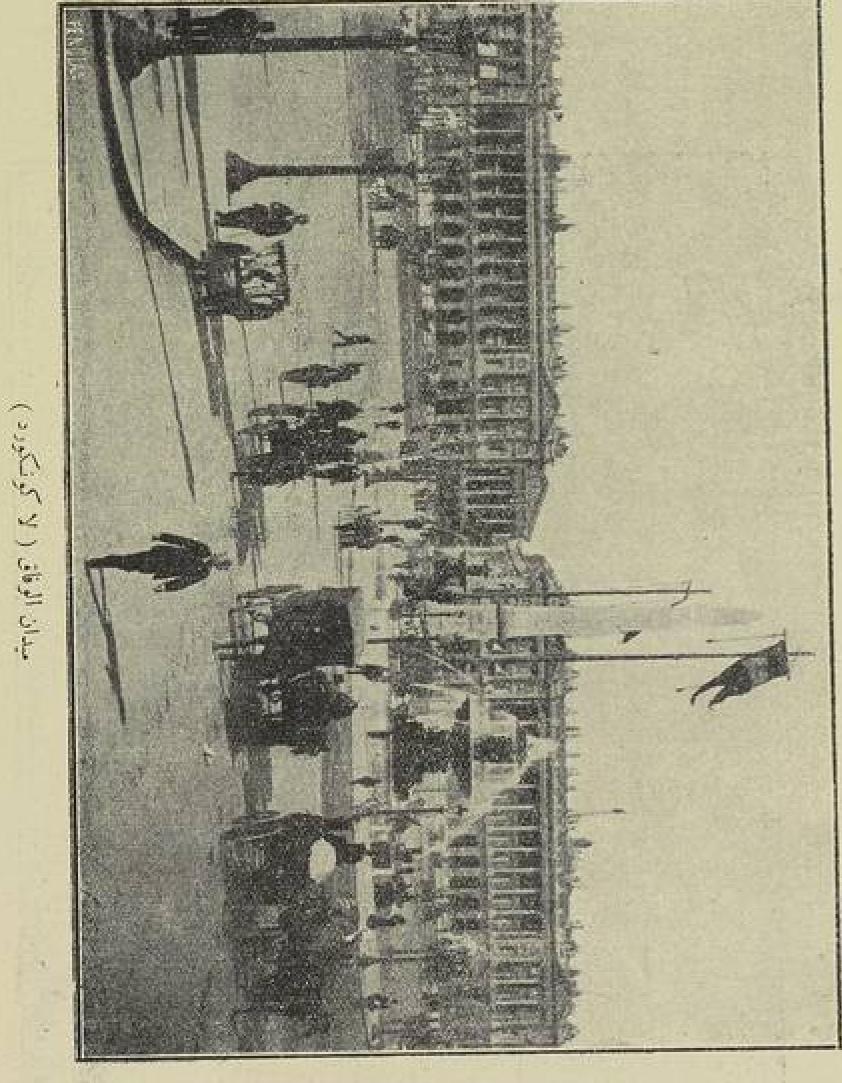
**ميدان الوفاق (لاكونكورد)**. وتزينه ثمانية تماثيل من البرونز ترمز الى أشهر المدن الفرنسية وفى وسطه مسلة كيلوباتره التى أهداها محمد على باشا الكبير الى الملك لويس فيليب سنة ١٨٢٦ . وعلى جانبى هذه المسلة فسقيتان كبيرتان تصبان الماء

فى ثلاثة أحواض جميلة . والى يمين ميدان الوفاق (لا كونكورد) يقع الشارع الملوكى ( رويال ) الذى ينتهى بكنيسة المادلين السابقة الذكر والى يساره القنطرة المؤدية الى مجلس النواب وواجهة كل من الكنيسة ودار مجلس النواب المتقابلين بهما أعمدة على شكل متقارب بعضها من بعض



شارع ريفولى

**افنو دو شانزايليزيه** . وهو يقع أمام مسلة كيلوباتره وهو متنزه عظيم طوله نحو سبعمائة متر ويختلف عرضه بين ثلثمائة واربعمائة متر وعلى جوانبه منازل فخمة رائعة



ميدان الوفاق ( لا كونكورد )

ويؤمه المتنزهون من جميع أنحاء باريس وفى فصل الصيف يؤجر بعض الزائرين الكراسى لمشاهدة أغنياء باريس الذين يخرجون للتنزه فى عرباتهم الفخمة

وهو ينتهى بمنحدر يتصاعد حتى قوس النصر العظيم ، ومنه تتفرع شوارع كبيرة واسعة ومنها الطريق المؤدى الى غابة بولونى الشهيرة



افنو الشانزليزيه بآخره قوس النصر

وعلى يمين هذا المتنزه سراى الاليزيه حيث يقيم رئيس الجمهورية ، وعلى يساره سراى الصناعات التى بنيت لاقامة معرض سنة ١٨٥٥

وميدان الوفاق والأفنودوشانزليزيه مع قوس النصر لمن أحسن ما شاهدته فى البلاد المختلفة التى زرتها

**المخازن الكبرى التجارية** . بباريس مخازن كبرى تجارية عظيمة أهمها مخازن اللوفر والبرنتان وجاليرى لافييت والبون مارشيه . ومن أهم مميزات الأخير أن مدام بوسيكو المثرية العظيمة صاحبته جعلت للموظفين به جزءاً فى أرباح ما يبيعونه فأصبح كل منهم يعمل باخلاص كأنه يعمل لنفسه . كذلك خصصت صندوقا يضع كل عامل وعاملة فيه جزءاً من أرباحه . ومنه يصرف الى العاملات مهورهن عند الزواج . وأنشأت أيضا صندوق تقاعد من مالها لمساعدة الموظفين الذين يبلغون الخمسين فى خدمة المحل باسم معاش تقاعد الموظفين كذا أوصت لعدد معين منهم بثروتها التى تبلغ ستين مليونا من الفرنكات

وفى كل هذه المخازن أمكنة للهو وبها مكاتب يجد فيها الزائر كثيراً من الكتب القيمة والصحف المختلفة والأوراق المعدة للكتابة بلا مقابل . وفى الصيف تقدم المرطبات للزوار مجاناً . وفى هذه المخازن كل مايحتاجه الانسان من الأدوات المنزلية والملابس .

**سوق الخضار الكبير المركزى ( هال سنترال )** . وهو مركز هائل لتجارة المواد الغذائية متسع الجوانب تشقه شوارع كثيرة سقفت بالزنك وتحتها مخازن أرضية لخزن البضائع . ومن أعجب ما يشاهده الانسان فى هذه السوق حظائر السمك فانه يحفظ فى الماء ليبقى حياً تسد منه حاجات المشترين ويترك الباقى سابحا فى حظائره تحت الطلب . وقد زرت هذه السوق فى فجر أحد الأيام فوجدت العربات المحملة بأصناف الخضر والفواكه والطيور تتزاحم حتى غصت السوق فى داخلها وخارجها ورصت بشكل منتظم .

وان الانسان ليدهش متى علم أن هذه الكميات الضخمة من حاجيات المآكل المختلفة توزع سريعاً كل يوم وتستهلكها المدينة العظيمة بمنتهى السهولة ولا يعزب على القارىء انه توجد هناك أسواق فرعية أخرى كالحال عندنا بمصر .

**مجارى باريس** . ومن أعجب ما يدهش الشرقى الذى يزور هذه المدينة مجاريها ؛ وهى تقع فى باطن الارض وقد زرتها قبل مغادرتى لها . فاذا هى طرقات منظمة متقاطعة على حسب الشوارع التى فوقها ، وقد ركبت « الترولى » فسار يشق بى هذه الطرقات دون ان تنبعث أية رائحة كريهة لأن المياه فى هذه الطرقات تتدفق بانحدار إلى خزاناتها فى خارج المدينة ، وقد وضعت على هذه الشوارع السفلى أسماء الشوارع العليا وأرقام المنازل فيها فى مقابلها من أسفل حتى يستطيع الانسان أن يعرف مكانه ورقم المنزل الذى هو تحته . وهى تنار بالكهرباء . ويدفع الزائر أجراً على زيارتها

**معرض باريس العام** . كانت فرنسا تتأهب منذ بدء سنة ١٨٨٩ لافتتاح معرضها العالمى، فجالت بخاطرى رغبة فى أن أكون من ممثلى مصر فيه ، فزرت مسيو دولسبس فى إدارة قناة السويس وكذا قابلت ابنه شارل وتحدثت معهما فى هذا الموضوع فوعدا بمساعدتى لدى الجناب الخديوى لتحقيق رغبتى

الاستعداد للمعرض . وفى صيف سنة ١٨٨٨ قدم باريس السيد مصطفى الديب الماوردى التاجر المعروف بمصر ليسعى فى الحصول على قطعة أرض فى المعرض ليقيم عليها محلا مصريا وكان معه رسالة من محمد زكى بك التشريفاتى يرجونى فيها أن أصحبه إلى موجيل بك مدير البعثة المصرية لكى يقدمه إلى مدير المعرض ، ففى ١٦ يوليه قصدنا إلى مسيو شارل دولسبس وخاطبناه فى الامر فأفهمنا أن الحصول على الارض المرغوبة يمكن بدفع رسوم زهيدة ، ومع ذلك فقد أبرق إلى البارون دولور مدير القسم المصرى يطلبه للحضور لمباحثته فى هذا الموضوع ، فحضر وعلى أثر ذلك أفهمنا مسيو شارل أنه يمكن الحصول على قطعة مساحتها ثلثمائة متر مربع مقابل ستة آلاف فرنك، ولما لاحظ السيد مصطفى ضخامة هذا المبلغ وعدنا شارل بأن يبذل لمساعدتنا جهداً آخر

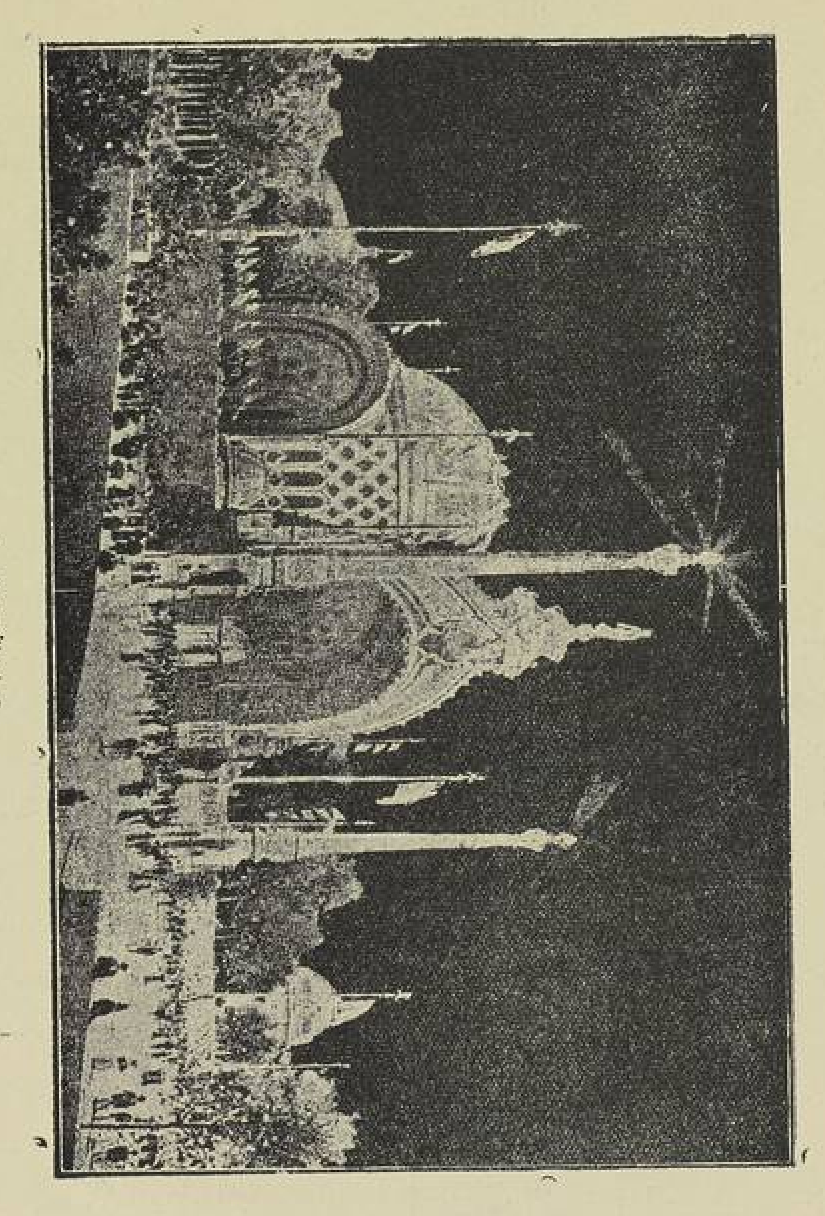
ولم تشترك مصر فى المعرض بصفة رسمية ولكنها خصصت مبلغ مائة الف فرنك بصفة مساعدة لهذا الغرض وعين مراقب لملاحظة إنفاقها

افتتاح المعرض . أما المعرض فقد افتتح رسمياً فى أول مايو سنة ١٨٨٩ وبلغت نفقات إنشائه ٤٦ مليوناً من الفرنكات واشتركت فيه كل الدول بعضها بصفة رسمية والبعض الآخر بواسطة الشركات والأفراد وقد قيدت بعض ماشاهدته فى هذا المعرض الشهير أثناء زياراتى المتكررة له منفرداً أو مصاحباً لأصدقائى

ففى يوم الافتتاح قصدت اليه فلفت نظرى عظمة البوابة الكبيرة الأثرية وقابلت السيد مصطفى وشاهدت محتويات المعرض المصرى اجمالا .

وقد قام بانشاء هذا القسم جماعة من الماليين منهم البارون دولور والموسيو شارل دولسبس وتولى الأول تنظيمه واعداد ما يلزمه من المعروضات المصرية .

القسم المصرى . وفى يوم ٧ مايو صحبت مسيو جرى إلى المعرض وقصدنا زيارة القسم المصرى بادىء بدء فالفيناه حقا قطعة من أرض مصر؛ وقد أقيم به نموذج لجامع قايتباى وسبيل ماء، ثم نماذج لبيوت مصرية على الصفين تمثل المبانى المصرية القديمة



البوابة الأثرية للمعرض

وتحت هذه البيوت محال التجارة . بها عمال وصناع مصريون بعضهم يبيع الحلى المصرية وآخرون يبيعون الحلوى والمربات الشرقية والكنافة ومحل آخر به عامل يصنع القلل وكانه فى قنا لا فى باريس، وكان أثناء مرورنا منهمكا فى عمله . ثم شاهدنا محلا لبيع العطور الشرقية والمصنوعات المصرية كانواع الفخار الأسيوطى وأوانى النحاس المنقوشة

وغيرها وصاحب هذا المحل هو السيد مصطفى الديب الماوردى وشريك له من التجار الوطنيين المتنورين وقد اشترك قبل هذا المعرض فى عدة معارض أوروبية . وكان يمتاز بمظاهر خاصة كانت سبباً فى شدة الاقبال على محله ، منها لباسه الشرقى المحض وهيئته الجذابة وعيناه السوداوان اللتان تلفتان النظر ، ومعرفته لشيء من لغات البلاد التى اشترك فى معارضها . فكانت هذه الصفات ونوع تجارته وهى العطور تجعل الاقبال عليه كثيرا ولا سيما من السيدات، وقد بلغت أرباحه فى نهاية المعرض عشرين الفا من الجنيهات اقتسمها مع شريكه .



الحارة المصرية

ومما زاد فى الطابع المصرى لهذا القسم أن البارون دولور أحضر خمسين حماراً مع المكاريين والبياطرة وصناع البراذع واعدها للانتقال من الشارع المصرى إلى الجهات القريبة منه نظير فرنك للراكب . وكان الاقبال شديداً على ركوبها وكذا على مشاهدتها

داخل الاسطبل وهى مصفوفة والمكاريون يضربون الدفوف ويلقون بعض أغانيهم الخاصة .

على أن أشد ما يلفت النظر فى هذا القسم هو القهوة المصرية وما فيها من الراقصات فقد أثار رقصهن سرور الزائرين واعجابهم .

وفى الثانى عشر من مايو ذهبت إلى المعرض مع ابراهيم بك ذو الفقار ودخلنا الشارع المصرى وتفرجنا على رقص « عيوشة » و « زينب » وكانت الأولى أكثر براعة ورشاقة .



عيوشه الراقصة

ومما لفت نظرى أيضاً وجود سكة حديد ضيقة « ديكوفيل » بداخل المعرض جعلت لنقل الزائرين نظرا لاتساعه العظيم وطول سكتها ٣ كيلو متر ونصف والقاطرات فيها تسير بقوة الكهرباء .

وقد اشتريت « بون » المعرض بمبلغ ٢٦ فرنكا ونصف وكان الاقبال عليه شديدا وهو يعطى لحامله الحق فى استرداد ثمنه بعد ٦٠ سنة وان يستعمل اليانصيب ست مرات فى آخر كل شهر من أشهر المعرض بحيث قد يتاح له أن يربح مائة الف فرنك . هذا فضلا عن خمس وعشرين تذكرة دخول مجانا ولكنى فقدته .

وفى يوم ٢٧ منه توجهت وزميلا لى فى مدرسة العلوم السياسية إلى المعرض وتفرجنا على القسم المصرى ، ثم ذهبنا إلى معرض تونس والجزائر فوجدنا النساء هنالك فى غاية الخفة والظرف وإن كانت جسومهن صغيرة

وفى يوم ٤ يونيه اتفقت مع مسيو جرى وصاحبته على تناول العشاء بالمعرض، وفى المساء تقابلنا فى القسم المصرى ودخلنا القهوة لمشاهدة الرقص، وكان معنا مسيو كولان، وهو رسام شهير فى التصوير بالزيت. فخرجنا للتجول فى مختلف الأقسام حتى الساعة السابعة وبعد تناول العشاء فى المطعم الهولندى شاهدنا سراى الماكينات بطريقة إجمالية.

وفى يوم ١٢ منه كنا على ميعاد آخر أنا ومسيو جرى ومسيو بوب (١) فزرنا القهوة المصرية وسألت السيد مصطفى الماوردى عما اذا كان يسمح بذهاب عيوشه الراقصة عند مسيو بوب للرقص مدة ساعتين فى نظير أجر لابأس به، فأسف واعتذر لأن ذلك لا يتفق مع صالح الشركة. ثم توجهنا إلى المطعم الرومانى فسمعنا ألحان الموسيقى الشجية ولا سيما صوت الناى من الغاب، وكان العازف يقلد به صوت العصافير وغيرها من الطيور المغردة، وبعد العشاء رجعنا إلى القهوة المصرية.

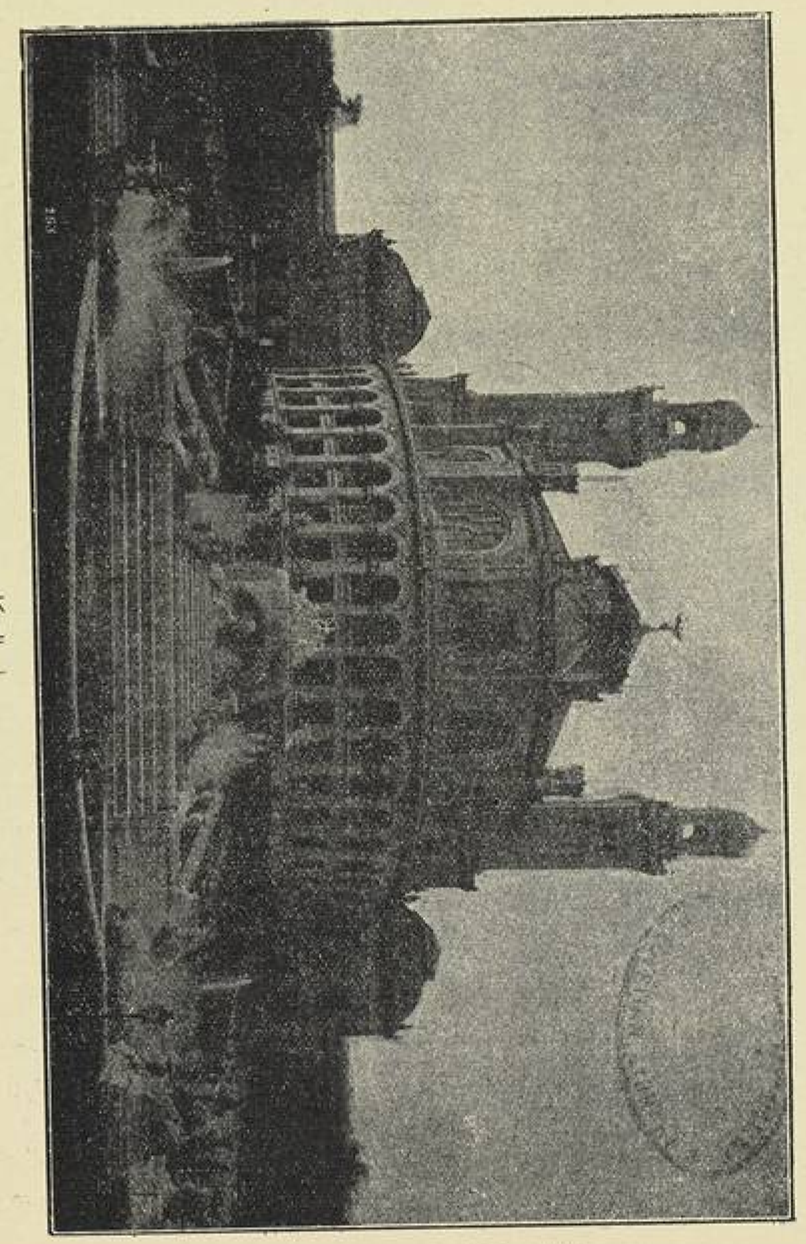
سراى التروكاديرو. وفى يوم ٢٨ منه زرت مع ابراهيم بك هذه السراى وهى على شكل نصف دائرة يتوسطها بناء مستدير فيه قاعة الاحتفالات والمجامع العلمية، وفوقها قبة فخمة وللسراى جناحان فى نهاية كل منهما مكان متسع على ارتفاع بضعة أمتار وتحته ما يشبه الغدير تنعكس فيه صور المعرض فيراها المشاهد كأنها أمامه. وشاهدنا منظر الينابيع والماء ينبثق منها عاليا بين حين وآخر فى ألوان مختلفة وأشكال بديعة. وبهذه السراى قمتان ارتفاع كل منهما ٧٥ متراً يصعد اليهما بالمصعد.

ثم عبرنا نهر السين الذى يقسم المعرض إلى قسمين فوصلنا إلى حدائق وشان دومارس، وعلى يمينهما تقع سراى الفنون العقلية وعلى اليسار سراى الفنون الجميلة أما فى الوسط فتقع سراى الصناعات المتنوعة وقد قامت القبة المركزية وهى آية فى الفخامة والبهاء

سراى الأطفال. وفى يوم ٥ يوليه عاودت الزيارة وقصدت إلى سراى الأطفال التى أقيمت هناك لعرض بعض الألعاب المسلية المضحكة للصغار بواسطة الاشارات وألعاب الحيوانات والحواة والراقصات، وهناك يستطيع أهل هؤلاء الأطفال أن يتركوهم ويذهبوا للطواف بأقسام المعرض الأخرى آمنين على أولادهم. وأحسن ما فى هذه السراى «سراى البحر» وقد صنعت بطريقة ميكانيكية دقيقة تجعل الراكب

(١) وهو من خريجى مدرسة العلوم السياسية ثم عين قنصلا عاما لفرنسا فى مصر فيما بعد

يشعر كأنه فى سفينة تتقاذفها الأمواج حتى تقف بأحد موانى. اليابان فيجد متحفاً مليئاً بما تحويه تلك البلاد



سراى الاكوادور

ورأيت بها أيضا الكرة الأرضية مجسمة وقد وضعت بمحل مخصوص متسع تحت قبة هائلة ، ومقياس الرسم فيها ١/١٠٠٠٠٠ من مساحة الكرة الأرضية الحقيقية ، ومحيط هذه الكرة ٤٠ متراً وكل ملليمتر فى سطح هذه الكرة فى مقابله كيلومترا واحداً فى سطح الأرض ، وهذه الكرة مرتكزة على مدار يتيسر معه إدارتها بالسهولة .

ثم زرت بعض المقاهى الأخرى التى تمثل البلاد المختلفة كالقهوة المغربية ، والقهوة السودانية ، والقهوة الأسبانية وهلم جرا

متحف الماس الهولندى . وفى اليوم التاسع منه كنت على ميعاد مع مسيو جرى لزيارة المعرض فقصدنا « متحف الماس الهولندى » ، وهولندا مشهورة بصناعة الماس . وهو مكون من طابقين الأول تشغله إدارة المعرض ، والثانى به المصنع وفيه الكثير من حجارة الماس الخام والمصقول على شتى الاشكال .

وعند الساعة الثانية دخلنا لتناول الغذاء فى أحد المطاعم ؛ وهى منتشرة فى أنحاء المعرض على اختلاف درجاتها ، وكثيراً ما كان يقصد بعض الزائرين المطاعم الغالية ولا يعرفون ذلك إلا عند دفع الحساب ، وهنا يدهش الزائر للارقام المرتفعة التى تقدم اليه ولكنه لا يجد بدا من الدفع .

سراى الفنون الجميلة والعقلية . وفى اليوم الثالث عشر منه قصدت المعرض مع صديق صابر صبرى « باشا » وزرنا سراى الفنون الجميلة وسراى الفنون العقلية زيارة تفصيلية ؛ فشاهدنا فى الأولى من بدائع النقش والتصوير ما لا يستطيع القلم أن يحيط بوصفه وشرحه ، وكل ما يمكن أن يقال انها كانت تضم خير ما انجبته قرائح الفنانين فى جميع البلاد .

وفى ١٩ اغسطس زرت معرض سراى الفنون الجميلة ، وشاهدت به تاريخ العمارات من ابتداء الخليقة إلى يومنا هذا عند أشهر الامم ، واتضح لى أن المصريين والهنود كانوا متقدمين فى هذا الفن . كما شاهدت خريطة قناة السويس مجسمة طولها ٦ أمتار ، وأخرى مثلها فى محل مظلم لكى يظهر سير البواخر فى الليل بواسطة الانوار الكهربائية ، وتحمل كل مركب تسير فيه نوراً كشافاً ينير أمامها الفاً ومائتى متر

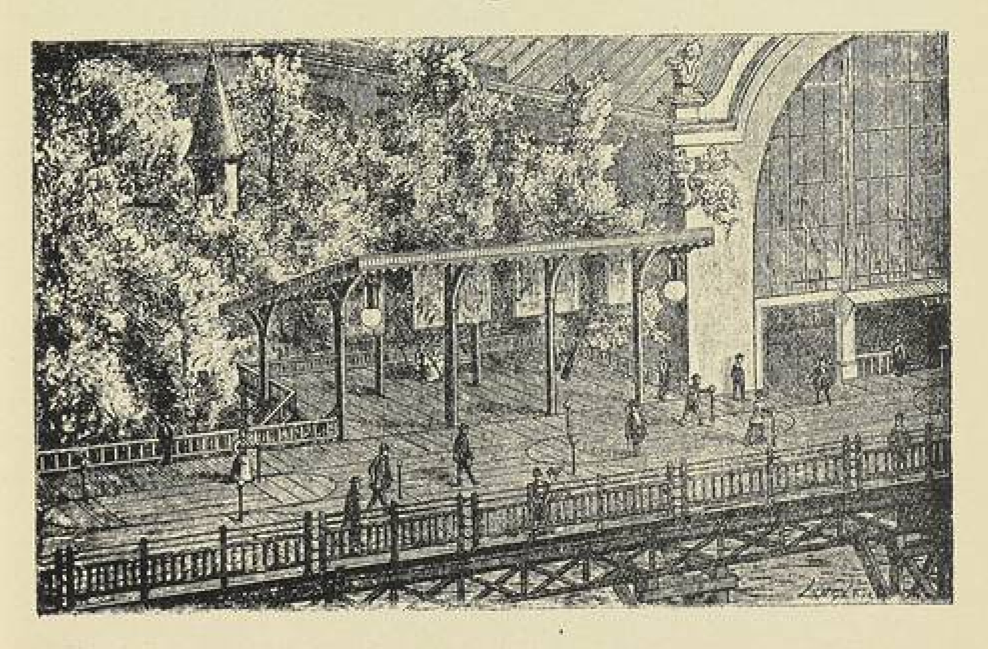
وأما السراى الأخرى فتنقسم إلى أقسام أربعة : — الأول قسم التاريخ الطبيعى الانسانى « انتروبولوجيا » ، وعلم خصائص الشعوب « انتوجرافيا » ، والثانى قسم الفنون العقلية « آرليبرو » ، والثالث قسم الفنون والصناعات ، والرابع قسم النقل وجر الأثقال .

سراى الصناعات . وفى ٢٠ يولية ذهبنا إلى سراى الصناعات من بابها الأوسط الواقع تحت القبة المركزية . وقد كان لهذا الباب وهذه القبة ذكر منشور فى انحاء العالم بالنسبة لما كانا عليه من الفخامة والعظمة ، إذ بلغ قطر القبة ثلاثين مترا ، وارتفاعها من الداخل خمسة وسبعين مترا . وفوق القبة من الخارج تماثيل منها تمثال يمثل فرنسا تقوم بتوزيع المكافآت على المستحقين الذين خدموا الانسانية والسلم والاتحاد .

ومن أهم ما شاهدناه فى هذه السراى قسم الجواهر وأخص ما يلفت النظر فيه حجر كبير من الماس يسمى « الحجر الامبراطورى » وزنه ١٨٠ قيراطا وهو ملك احدى الشركات وقد قيل لنا إن ثمنه يبلغ ٦ ملايين من الفرنكات . وقد غطى هذا القسم بغطاء من البللور ووقف الحرس حوله لايفارقونه حتى إذا جاء الليل انزل الغطاء ونام فوقه الحراس .

وطفنا كذلك بقسم الأدوات الخزفية والفخارية والزجاج والبللور والقيشانى ، وكانت به مجموعة صينية ذات ألوان ساطعة يخيل لمن يراها كأن اللهب ينبعث منها .

سراى الماكينات . وعدت أيضاً مع صابر باشا فى ٢٣ يوليو لزيارة سراى الماكينات وكانت تعرض فيها مصنوعات وآلات لجميع الدول الصناعية ، وقد خصص لكل دولة



القنطرتان المتدحرجتان الكهربائيتان

جزء منها فكانت مجمعاً لما انتجته قرائح المخترعين فى العالم على وجه التقريب . كما شاهدنا كذلك بهذه السراى القنطرتين المتدحرجتين الكهربائيتين وهما تسيران بقوة الكهرباء من أحد أطراف السراى إلى الطرف الآخر تحمل الزائرين . وهما تسيران على قضيب مرتفع من الأرض سبعة أمتار حتى يتمكن الزائرون من مشاهدة جميع الآلات الدائر منها وغير الدائر .



شاه العجم

تكريم شاه العجم . وفى يوم ٤ أغسطس ذهبت مع ابراهيم بك ومسيو جرى إلى المعرض، وأقيم فى هذه الليلة احتفال موسيقى باهر تكريما لشاه العجم فى سراى الصناعات. واجتمع كثير من الموسيقات العسكرية فكانت تضم نحو الف ومائتى عازف تحت رياسة قومندان موسيقى الحرس الجمهورى . وكان لعزفهم جميعاً رنة رائعة وصدى ساحر.

وحضر رئيس الجمهورية فى الساعة التاسعة مساء فقوبل بعاصفة من التصفيق

والهتاف المتكرر . ثم حضر الشاه بعده بقليل فقوبل كذلك بالهتاف الحاد، وكان يجيب التحية برفع قلنسوته السوداء . وكان أول ملك زار المعرض زيارة رسمية .

وحضر الحفلة ملك آخر من ملوك السودان الفرنسى مع قرينته فلم يلتفت أحد لوجودهما

وعزفت هذه الموسيقات المجتمعة مرات فكانت تترك فى كل مرة فى نفوس المجتمعين أثراً كبيراً . وبعد أن تناول رئيس الجمهورية والشاه المرطبات انصرفا مودعين بالتصفيق

سراى الاغذية

. وفى يوم ١٠ منه ذهبت مع ابراهيم بك واحمد بك ذى الفقار لزيارة سراى الأغذية ؛ وهى تتألف من طابقين عدا الطابق الارضى، مساحة كل منهما ثمانية آلاف متر وتحتوى على جميع أصناف الاغذية . وخصص الطابق الارضى للمشروبات الروحية . وأول ما استلفت نظرنا فيه برميل عظيم مملوء بالشمبانيا زنته عشرون الف كيلوجرام وسعته الف وخمسمائة هكتولتر . ثم زرنا الطابق الاول فشاهدنا المخابز والمعامل والمصانع على اختلافها والمعروضات الزراعية والادوات التى استحدثت لتقدم الزراعة

معرض المستعمرات

. وفى الخامس عشر ذهبنا نحن الثلاثة لمشاهدة ساحة دار العجزة ، وهى أغرب أقسام المعرض وتحتوى على قصور شرقية فاخرة للبلاد الواقعة تحت حكم فرنسا مشيدة على أحسن النماذج الاثرية ، وقد عرضت بها صناعات هذه البلاد ومحاصيلها، وكذا بنيت نماذج صغيرة لقرى هذه البلاد ورتبت فيها الاسواق وأسبغ عليها الطابع الوطنى

وأهم مافى هذه الساحة معرض الجزائر، والمعرض التونسى، ومعرض آنام وتونكين والهند الصينى الفرنسى ومدغشقر وغيرها

وشاهدنا بجانب هذا القسم قرية من قرى جاوه كأنما نقلت من هذه الجزيرة النائية إلى المعرض فى باريس ؛ فقد كنا بين سكان هذه القرية نشهد أحوالهم وعاداتهم وأغانيهم القومية، وهناك شاهدنا السكة الحديدية الانزلاقية ، وقد وفد كثير من الناس لمشاهدتها، وهى تمتد لمسافة مائة وخمسين متراً فقط ، وليس لعرباتها عجلات فانها تنزلق على قضبان عريضة .

معرض وزارة الأشغال . وفى يوم ٢٢ منه زرت معرض وزارة الأشغال العمومية وبها أنواع الأهوسة والكبارى والفنارات والقناطر ومخازن المياه وآلات رفعها وسواقى حديدية وغير ذلك

وفى يوم ٢٥ منه عدت لزيارة المعرض مع المسيو بوب فقصدنا أولا القسم المصرى وشاهدنا الرقص فى القهوة المصرية ، وكان يعجب به زميلى كلما رآه . ثم ذهبنا إلى معرض «البالون» وقد أقيم البناء الخاص به بجوار معرض الحربية لما بينهما من الصلة وإحياء الذكريات المجيدة التى تقترن بما أدته البالونات لفرنسا فى حرب السبعين

ثم تناولنا طعام الغداء فى أحد المطاعم وطفنا بعد ذلك بأجزاء المعرض الاخرى

معرض الآلات البخارية . وفى يوم ٢٦ منه زرت معرض الآلات البخارية وبه أنواع السكك الحديدية المختلفة وأغربها سكة حديد سانت جوتارد

# الفصل الثامن

## البرنسان فى المعرض – والعودة الى الوطن

**مسكن للبرنسين . زيارتى لوزارة الخارجية . قدوم البرنسين فى السفارة التركية . سؤال ولى العهد من الطلبة المصريين . على مائدة رئيس الجمهورية . زيارة البرنسين للمعرض رسميا . طلب نياشين خديوية . مصنع الزجاج الفنى . مشاهدة أول سيارة . مأدبة وزير الخارجية . طلب خروج ولى العهد بالقبعة . فى لوج رئيس الجمهورية بالاوبرا . توزيع النياشين المصرية والفرنسية . الاستعداد للعودة الى الوطن . سفر البرنسين الى فينا . سفرى الى الاسكندرية . المثول لدى الخديو . المغنية ليلى فى القاهرة .**

---

**مسكن للبرنسين** — وفى الثامن من فبراير سنة ١٨٨٩ وصلنى خطاب من تونينو باشا تشريفاتى أول الحضرة الخديوية يكلفنى فيه ، بناء على الامر العالى ، بالبحث عن مسكن لائق للبرنسين مده وجودهما فى باريس لزيارة المعرض ، وأن يكون موقعه فى الشانزليزيه .

وبعد مشاهدة جملة مساكن فخمة بعثت بنتيجة بحثى مفصلا ، فورد لى منه فى ١٥ مارس بأنه عرض على سمو الخديو ما أرسلته اليه بخصوص المساكن وهو يبلغنى شكر سموه على ما بذلته من العناية بهذا الصدد ، ويخبرنى فى نفس الوقت بأنه لا ضرورة للبحث بعد ذلك لأنه تقرر أن يزور البرنسان المعرض بصفة رسمية ، وستخصص لهما الحكومة الفرنسية منزلا يليق بمقامهما

ولما دعت الحكومة الفرنسية رؤساء الدول لزيارة المعرض كان بين المدعوين سمو الخديو توفيق باشا ولكنه اعتذر عن الحضور بنفسه وانتدب لتمثيله نجليه

وفى ١٢ يوليه حضر الى باريس تونينو باشا واحمد بك زكى بالاجازة ، فكتبت لجريدة الفيجارو نبذة عنهما ، ولقيت بعد ذلك أحد محرريها فأبلغنى أن الجريدة ترحب بنشر كل مايتعلق بمصر وتشكرنى على ما أرسله لها فى هذا الشأن

**زيارتى لوزير الخارجية** . وحدث فى ذلك الحين حادث غريب ؛ ذلك أن وزارة الخارجية الفرنسية أرسلت فى يوم ١٦ يوليه رسالة إلى ابراهيم بك ذى الفقار باسم ( ناظر خارجية مصر ) وفيها أن وزير الخارجية الفرنسية سيقابلنا يوم الخميس فى الساعة العاشرة صباحا ، وكنا قد طلبنا مقابلة الوزير لرجائه فى تعيين مسيو جرى ليكون بمعية البرنسين أثناء زيارتهما للمعرض رسمياً . وكنا قد وقعنا على هذا الطلب أنا بصفتى من موظفى المعيـة وابراهيم بك بصفته نجل ناظر خارجية مصر . فاستاء ابراهيم بك لهذا الخطأ فى العنوان وخشى سوء العاقبة فطمأنته من هـذه الناحية بأن الخطأ لابد أن يكون مصدره سكرتير الوزير

ولكن شد ما كانت دهشتى حينما ذهبنا فى الميعاد المحدد فوجدنا أن الوزير نفسه يعتقد أن ابراهيم بك هو ناظر خارجية مصر ، فصححنا هذا الخطأ . ولما قابلنـاه فاتحنا بقوله : « أنا شاكر لزيارتكما فهل من حاجة لأقضيها لكما ؟ » فذكرته أولا بأننا تعرفنا به بواسطة المسيو جرى وأننا تقابلنا معه مرتين بعد ذلك ، وان سبب هـذه الزيارة هو أننا نرجو انتداب صديقنا مسيو جرى لمرافقة البرنسين عند حضورهمـا . فقال انه سيبذل جهده لاجابة هذا الطلب .

وفى ٣٠ أغسطس سافرنا إلى مرسيليا لانتظار البرنسين ، وهنالك قابلت بشـارة بك تقلا صاحب جريدة الاهرام ، ثم الدكتور عيسى باشا حمدى ، وقد ذهبت معه إلى إدارة الضبط للتحري عن ميعـاد حضور الباخرة التى تقل البرنسين ، فلم نجد الضابط المختص وأجابنا سكرتيره أن وزير الخارجية كلفه إرسال برقية حين تشريفهما

**قدوم البرنسين** . ثم وصل البرنسان فى يوم أول سبتمبر وكنا فى انتظارهما بالميناء ، وقد أعددنا عربتين لركوبهما مع المعية . ولما جاء الخبر بدخول السفينة ركبنا الزورق الذى أعد لها ومعنا أحد الضباط للترحيب بهما من قبل الحكومة الفرنسية ، وذهبنا لمقابلتهما وكان معهما عبد الرحمن باشا رشدى رئيس تشريفات الخديو وعلى جمال باشا المربى ( لالا ) وحمدى بك ياور الخديو ومحمود بك شكرى كاتب ثانى قلم تركى المعية ويوسف بك ضيا معاون التشريفات ونجيب افندى معلم تركى الأنجال .

ولما ذهبنا إلى الفندق لم يسمحا لى بالانصراف بل حتما على البقاء معهما . ثم سافرنا إلى باريس فوصلناها فى صباح اليوم التالى ، وكان فى المحطة لاستقبالهما مندوب عن رئيس الجمهورية وآخر عن ناظر الحربية ، مهمته أن يرافق سموهما مدة إقامتهما ، وكذلك المسيو تمرمان المدير الفرنسى للسكك الحديدية المصرية سابقاً والكونت ديللا صالا باشا واحمد بك زكى التشريفاتى وكثير من الطلبة المصريين فى فرنسا وميثاق افندى مستشار السفارة العثمانية بالنيابة عن السفير العثمانى

وبعد الاستقبال الرسمي ذهبنا إلى السراى المعدة لاقامة البرنسين فى شارع كوبرنيك وهى السراى التى نزل بها من قبل شاه العجم ثم أمراء تونس ؛ وهى بناء فخم مؤثث على الطراز الشرقى . وفى مساء اليوم التالى لوصولنا حضر البرنسان الى غرفتى بالسراى ، وكان سمو الخديو قد انتدبنى للعمل بصفة سكرتير مع الحاشية مدة الزيارة ، وأمضيا السهرة عندى .

**فى السفارة التركية** . وذهب البرنسان وحاشيتهما إلى السفارة التركية لزيارة أسعد باشا فرد لهما الزيارة على الأثر ، ثم ركبا عصراً للرياضة فى غابة بولونى

**سؤال ولى العهد عن الطلبة** . وجاء رئيس البعثة مسيو موجيل بك ومعظم الطلبة المصريين لمقابلة سموهما وتحيتهما . واهتم ولى العهد بالسؤال عن أحوال الطلبة ودراستهم بالتفصيل من رئيس البعثة وغيره . وعلمت أن مسيو موجيل ذكر لسموه عن نجلى ثابت باشا حقائق غير مرضية . فلما سألنى سموه عن ذلك أخبرته بما حدث من أمر المبارزة التى سبق ذكرها

وبعد حين جاء نجلا ثابت باشا إلى السراى ، وبدلا من أن يطلبا المقابلة تواً زارا جمال باشا واعتذرا له عن المثول بين يدى البرنسين نظراً لأنهما لا يلبسان الطربوش ، فاستاء البرنس عباس لما علم بذلك وأمر بعدم قبولهما اذا حضرا مرة أخرى . فظنا أننى وشيت بهما وأرسلا لوالدهما يخبرانه بذلك وعزز أقوالهما جمال باشا نظراً لما حدث بينى وبين عزيز من المشادة يوم طلب المبارزة مع احمد ذى الفقار .

**على مائدة رئيس الجمهورية** . وفى الثالث من سبتمبر دعى البرنسان وعبد الرحمن رشدى باشا وعلى جمال باشا وعيسى باشا حمدى لتناول طعام الغداء على مائدة رئيس الجمهورية فى فونتين بلو ونشرت الصحف الفرنسية أنباء هذه المأدبة ، وقد رحب بهما الرئيس أحسن ترحيب وعند انصرافهما شكراه

**زيارة البرنسين للمعرض رسميا** . وفى اليوم التالى ركبنا العربات بمعية سموهما لزيارة المعرض رسمياً (١) وكان هناك فى انتظارهما رئيس النظار وناظر الخارجية وقنصل جنرال فرنسا فى مصر وناظر المعرض والبارون دى لور مندوب مصر فى المعرض المصرى والكونت دو رمسون رئيس التشريفات وخورشيد بك مندوب السفارة العثمانية . فزرنا ( الحارة المصرية ) ووقفنا أمام محل تجارة الروائح العطرية الشرقية لصاحبه السيد مصطفى الديب الماوردى، فسر البرنسان بما عرض فى هذا القسم وهنآ البارون دى لور على حسن تنسيقه له ، ثم طفنا بعض أقسام المعرض ومنها القسم الخاص بعرض الجواهر . وقد شاهدنا فيه من أثمن وأكبر أحجار الماس وغيرها مما دهشنا لرؤيتها . ثم معرض قسم المطافىء وفيه مناورة إطفاء حريق ثم انصرفنا . وقد شكر البرنسان الذين صحبوهما فى هذه الزيارة . وبعد الظهر زارا معرض الخيول .

برج إيفل . وفى اليوم الخامس من سبتمبر ذهب البرنسان مع الحاشية، وكنت معهم، لصعود برج إيفل فقوبلا بصفة رسمية ، ثم صعدنا إلى البرج ، وهو بناء عجيب شاهق يتألف من طبقات ثلاث يرتفع أولاها عن الأرض ٥٧ متراً والثانية ١١٥ متراً والثالثة ٢٧٦ متراً . وعادة لا يتسنى لطالب الصعود بالمصعد ذلك إلا اذا جاءه دوره حسب الترتيب المقرر الا فى الزيارات الرسمية

وقد رأينا من الطبقة الاولى مدينة باريس بأسرها بقبابها وأبراجها ، وكان المنظر لها رائعاً ، وبهذه الطبقة أربعة مطاعم يسع الواحد منها نحو خمسمائة شخص ، وفى الطبقة الثانية توجد مطبعة الفيجارو .

ولما صعدنا إلى الطبقة الثالثة شاهدنا باريس كأنها على خريطة وما فيها بحجم صغير جداً ، وقد أحسسنا باهتزاز هذا البرج عند وجودنا فى هذه الطبقة . وليس لأحد من الزائرين أن يتعداها إلى مافوقها ، غير أنه تصرح بصفة استثنائية إلى البرنس عباس بالصعود إلى القمة

وفى القمة فنار قوته ثلاثة آلاف امبير ، وبه ٤٨ مصباحاً ، والفنار نفسه ثابت لايتحرك ، ولكن الصفائح الزجاجية التى أمام قاذفات الضوء هى المتحركة تدار بواسطة آلة ساعة ، وقد لونت بألوان العلم الفرنسى الثلاثة ، وهى الأحمر والأبيض والأزرق

(١) يجد القارىء فى الفصل السابق وصفاً وافياً للمعرض ومحتوياته .




برج ايفل ومعرض سنة ١٨٨٩

ويبلغ ارتفاع البرج حتى القمة ثلثمائة متر .

**طلب نياشين خديوية** . وكان المسيو شارل دولسبس قد سألني عما اذا كان البرنس عباس يحمل معه نياشين مصرية للانعام بها على مستحقيها فأجبته بالنفي . فقال لي : كان من المناسب أن ينعم الخديو ببعض النياشين عند انتهاء الزيارة . فلما أخبرت عبد الرحمن رشدي باشا بهذا الحديث بعث برقية لسمو الخديو بهذا المعنى فاستحسن سموه الفكرة وتفضل بارسال سبعة عشر نيشاناً وزعت على من دلنا عليهم شارل دو لسبس .

**مصنع الزجاج الفنى** . وكتبت إلىّ مدام امبرتون تطلب أن أرجو سمو البرنسين فى زيارة محل زوجها بالمعرض . وهو مصنع لعمل الزجاج الفنى ومنه المستعمل فى مصابيح المساجد ، حتى ينال شهرة بهذه الزيارة فقبل سموهما رجائى وزارا المحل

وفى هذا الخطاب تخبرنى أنها سبق أن تعرفت بحمدى بك الياور الموجود بمعية البرنسين ورغبت فى مقابلته ، فأطلعته على ذلك فلبى دعوتها ثم عاد من لدنها مسروراً .

**مشاهدة أول سيارة** . ثم وردت لى برقية من محمد بك زكى يقول فيها : « ان سمو الخديو يأمر أن أذهب لمعاينة العربة البخارية (السيارة) لمعرفة ما إذا كانت توافق سموه ويمكن أن تسير على الرمال فى حلوان ، وكنت قد أرسلت عنها نشرة لعرضها على سمو الخديو .

وكانت هذه أول سيارة (اتومبيل) اخترعت وعرضت فى المعرض ، فذهبت لمعاينتها مع صاحبى السموعباس ومحمد على ، وكان شكلها عجيباً فان المدخنة كانت فى الخلف وهى تدار بالبخار والعجلات عريضة من غير كاوتشوك . فركبناها من المعرض إلى سراى كوپرنيك وكانت فى سيرها بطيئة وخصوصاً عند وصولنا إلى الشارع الذى تقع فيه السراى لارتفاع الطريق . وكانت المدخنة تقذف علينا الدخان . وبعد معاينتها كتبت إلى محمد زكى بك بما شاهدته

**مأدبة وزير الخارجية** . وفى ٩ سبتمبر دعى البرنسان ومعهما عبدالرحمن رشدى باشا وعلى باشا جمال لتناول طعام العشاء على مائدة وزير الخارجية ، وكان من المدعويين أسعد باشا ورئيس الوزراء ووزيرا الداخلية والبحرية وكثير ممن لهم علاقة بمصر أمثال دوبلنيير وشارل دولسبس .

وبهذه المناسبة ألقى وزير الخارجية الفرنسية هذه الكلمة : —

« أشرب نخب الخديو توفيق ونخب ابنه البرنس عباس باسم كل المجتمعين الذين يحبون مصر حباً خالصاً . وأشرب نخب مصر؛ هذه الأرض الكريمة التى يحكمها والدكم العظيم نيابة عن السلطان ويسير بها إلى السعادة والرفاهية

وانك يامولاى ستسير على هذه الخطة الطيبة التى سار عليها والدك وستجد دائماً كل معونة من فرنسا التى ترتبط بمصر ارتباطاً وثيقاً لاانفصام له لما بينهما من المصالح المشتركة والعلائق الودية منذ الأحقاب » .

فشكره البرنس عباس على هذه الكلمة الطيبة .

**طلب خروج ولى العهد بالقبعة** . وفى يوم ١١ منه أراد البرنس عباس أن يخرج بالقبعة فلم يرض جمال باشا وأرسل إلى الخديو يستشيره فورد الرد تلغرافياً فى اليوم التالى بامكان خروج الأمير بها ولكن مع عبدالرحمن رشدى باشا ولذا غضب جمال باشا

**فى لوج رئيس الجمهورية بالاوبرا** . وفى الثانى عشر دعينا جميعاً إلى الاوبرا فى لوج رئيس الجمهورية وجاء لزيارة سموهما فيه المسيو تيرار والكونت دورمسون رئيس التشريفات وبعض موظفى وزارة الخارجية

**توزيع النياشين المصرية والفرنسية** . وقبل مغادرة سموهما لفرنسا وزعا النياشين المصرية على سبعة عشر من الكبراء وأهدت الحكومة الفرنسية نيشان اللجيون دونير من الدرجة الثانية للبرنس عباس ومن الثالثة لعبد الرحمن رشدى باشا ومن الرابعة للبرنس محمد على ومن الخامسة لكل من على باشا والدكتور عيسى باشا وحمدى بك

**الاستعداد للعودة** . كان آخر أيام إقامتى فى باريس مرافقة البرنسين فى زيارتهما الرسمية للمعرض ، ومرافقتهما إلى فينا ثم العودة إلى مصر . وانتهت زيارة المعرض كما قدمت فى الثالث عشر من سبتمبر . فأمضيت اليوم التالى فى شراء بعض الهدايا والثياب الجديدة التى رأيت حملها معى ثم رتبتها فى صندوق خاص ، وقصدت محل كوك وطلبت اليه أن يرسل مندوباً لتسليم أثاث البرنسين والحاشية وتصدير بعضه إلى فينا وباقيه إلى مصر وفيها أثاثى ، وإصدار تذاكر السفر اللازمة .

ثم رتبت ما اشتريته من الهدايا والثياب الجديدة وغيرها فى صندوق خاص(١)

**سفر البرنسين الى فينا** — وفى يوم ١٥ سبتمبر غادر البرنسان فرنسا إلى فينا فاستقلا القطار السريع من محطة الشرق واجتمع لوداعهما بالمحطة كثير من الفرنسيين والمصريين ، ولاحظت أنهما صافحا جميع المودعين ما عدا نجلى ثابت باشا وكنت

---

(١) وقد ضاع هذا الصندوق الثمين قبل إرساله ولم نعثر على أثره رغم كثرة البحث

بمعيتهما وكذا عبد الرحمن رشدى باشا ونجيب افندى معلم التركية . أما بقية أعضاء الحاشية فقد سافروا إلى مصر عن طريق مرسيليا

ووصلنا فى اليوم التالى إلى فينا ثم ذهبنا تواً إلى فندق المتروبول . وبعد يوم من وصولنا زرنا مدير مدرسة «الترزيانوم» وتحادثنا معه بشأن دراسة البرنسين .

وكانت المدرسة قد خصصت للبرنس عباس غرفة خاصة مربعة بها سرير من الحديد ومشجب ودولاب للملابس وأدوات الشاى . ومنضدة من خشب الجوز وضعت عليها أدوات القهوة ، ومكتب وضعت عليه قواميس وكتب عربية وفرنسية والمانية . وكان البرنس يأخذ دروسا خصوصية ولا يختلط بباقى التلاميذ

أما البرنس محمد على فقد ضم إلى بقية التلاميذ يعامل مثلهم ويدرس كدراستهم وقد قال لى ناظر المدرسة أنه أذكى من زملائه النمسويين

**سفرى الى الاسكندرية** . وفى يوم ٢٧ سبتمبر سافرت من فينا إلى فينسيا بصحبة عبد الرحمن رشدى باشا ثم ركبنا البحر إلى مصر ، ومررنا بالطريق بثغر برنديزى . وقد آنست فى هذه السفرة بصحبة رشدى باشا إذ رأيته رجلا جم المعارف واسع الاطلاع . وكذا التقينا على الباخرة بزميل آخر هو عزيز بك كحيل مستشار محكمة الاستئناف المختلطة .

وفى صباح اليوم الثالث من اكتوبر وصلنا إلى ثغر الاسكندرية وكان فى استقبالنا محمد بك زكى وأفراد عائلتى وغيرهم فركبنا عربة من عربات السراى وذهبنا إلى رأس التين وهناك سلمت على اخوانى وشكرت رئيسى دومرتينو باشا على حسن صنيعه معى ومساعدته لى فى البقاء بفرنسا حتى إتمام دراستى . ولم أستطع الحظوة بمقابلة سمو الخديو نظراً لانعقاد مجلس النظار برياسته

**المثول لدى الخديو** . ولما عدت إلى السراى عصراً أخبرت أن الجناب العالى تفضل بالسؤال عنى وطلبنى للمثول بين يديه فمثلت . ثم سألنى عن الأميرين فطمأنته على صحتهما، وسألنى عن المعرض فقدمت له بعض لوحات أخذتها عن مناظره فسر بها

**المغنية ليلى** . وقبل سفرى إلى القاهرة دعيت إلى حفلة ختان نجلى حسين بك رمزى الياور ؛ وهما اسماعيل وحسين شيرين . وكانت حفلة غنائية ، غنت فيها المطربة

الجميلة ليلى وهى أشهر المطربات ، فأعجبت جداً بغنائها وسررت ، وكنت أعتقد أنى بعد تذوقى للموسيقى الغربية لا أستطيع أن أتذوق الموسيقى الشرقية وغناءها مرة أخرى . غير أن الحنين القديم عاد إلى نفسى عند سماعها

**فى القاهرة** . وفى صباح اليوم الرابع من اكتوبر ركبت وأخى محمد توفيق القطار للقاهرة . وكان فى انتظارنا بالمحطة سعيد بك ذوالفقار والسيد توفيق البكرى وطائفة من الآل والاصدقاء . فركبت مع السيد توفيق وتبعنا الباقون فى العربات

ولما وصلت إلى منزلنا نحر عجل للصدقة ، وصدحت الموسيقى بالسلام . فلم ترق لى هذه الضجة . وبعد انصراف الموسيقى بدأ القراء بتلاوة القرآن ، واستمر وفود الاصدقاء للتسليم على حتى منتصف الليل

وقد قضيت يوم ٥ اكتوبر بالقاهرة متجولا لزيارة بعض أفراد عائلتى والأصدقاء ردأ لزياراتهم فلم ترقنى العاصمة ولا الاسكندرية بل بدتا فى نظرى كأنهما مجموعتان من الخرائب أعدتا دليلا على تأخر الحضارة فى الشرق . ولكن رغم ذلك فلا أنكر أن بهما منازل شاهقة . ومع كل فالبون شاسع والفرق بعيد بين الشرق والغرب فى العناية بالبناء وتشييد القصور

وفى يوم ٦ اكتوبر رجعت إلى الاسكندرية

# الباب الثالث

## الفصل الاول

### بعـد العودة

ساعات مع بعض عظماء مصر . احتفاء الخديو بضيوف الاجانب . استقبال معتمد امريكا وخطابه غير المألوف . عتاب مع زميل بالمعية . مأمورية النظارة الاشغال . الرحالة استانلى . وحدات الجيش سنة ١٨٩٠ . بللو عابدين . عفريت بركة الفيل . قضية الخازندار . مشروعا زواج . الشركة التوفيقية للملاحة والانجرارية والتجارة .

---

**ساعات مع بعض عظماء مصر** . عقب عودتى إلى القاهرة قابلت ثابت باشا رئيس الديوان الخديوى فاستقبلنى بفتور . فعزوت ذلك إلى خلافى مع نجليـه ( عزيز وجميل ) . وقد حاولت عبثاً أن أزيل ماعلق بذهن الباشا ولـكننى لم أوفق

وفى عصر اليوم السابع من اكتوبر زرت رياض باشا رئيس النظار فى منـزله فاستقبلنى ببشاشة ، وكان يعرفنى قبل سفرى إذ كنت أزوره مع والدى . فسألنى عن رجوعى من اوربا ودراستى ؛ فلما أجبته أبدى سروره وتمنى لى التوفيق فى خدمة البلاد

وكان هناك الشيخ حمزه فتح الله يقص عليـه ماتم فى مؤتمر المستشرقين الذى أقيم فى عاصمة السويد والنرويج ، وقد ذكر فى حديثـه أن أحد المندوبين الافرنج دافع عن الشرق والاسلام ، فأجاب رياض باشا عن ذلك بما يأتى :ـــ

« ان الدفاع القلمى لايكفى لتشريف أمة . وإنما يجب أن ندافع عن أنفسنا بأعمالنا العلمية والأدبية والصناعيـة ، فاذا كنا اليوم فى حاجة للابرة نخيط بها الملابس ونرجع

فى استيرادها إلى اوربا فما نفع هذه المحاولات القلبية التى يراد بها الاشادة بذكر عصرفات ؟ »

ثم قال : «ان المانع من نهوض مصر والشرق إنما هو جهل رجال الدين وتعصبهم الشنيع، ومن ذلك ما حدث أخيراً من عزم الحكومة على تغيير ( ميضات ) الجوامع لأنها قذرة وموبوءة ، ومن الواجب وضع حنفيات يأخذ منها المصلون الماء الطهور . ولكن العلماء — عفى الله عنهم — وقفوا فى وجه هذا الاصلاح وعارضوه ، مع أن الدين يدعو إلى النظافة والطهارة » .

وفى الخامس عشر قصدت إلى ديوان المدارس لمقابلة مسيو مونتان (١) وحضر وقتئذ ناظر المعارف على مبارك باشا فقدمنى اليه أخى محمد توفيق وكان مفتشاً لتفتيش الوادى التابع للمعارف ، فسألنى عن الزمن الذى قضيته فى باريس وعن يوم حضورى ثم قال لى :— « هاهى مصر كسبت بكم رجلا نافعاً » . وفى يوم ٣١ منه ذهبت لزيارته فى منزله فسألنى عما درسته فى فرنسا ، ثم قال لى : « يجب أن تعمل فى الحقانية لأنها فى حاجة إلى شبان مثلك درسوا علم القانون » ، ودخل عندئذ عبدالله باشا فكرى والشيخ محمد عبده الذى أخبرنى بأنه سمع بأنى قد أعين فى المجالس الحسبية . ثم دار الحديث حول التعليم ومسائله فقال ناظر المعارف : « لقد تبين لى أن عدد تلاميذ المدارس الأميرية ستة آلاف تلميذ فقط أما المدارس الأفرنجية ففيها ستة وعشرون ألفاً وهذا فرق عظيم ! » ثم قال : « إنى أريد إنشاء مكاتب فى الأرياف لتعليم القراءة والكتابة والخط والقرآن ومبادىء الشريعة والحساب إلى القسمة والكسور ثم دروس الزراعة العلمية والعملية » فاستصوبت فكرته . قال : « وقد فكرنا فى النفقات التى تلزم لذلك فرأيناها طفيفة ويكفى أن تؤخذ ضريبة على كل فدان قدرها ( ١٥ ) بارة سنوياً ويمكن الاعتماد فى التنفيذ على نحو ألفين من الطلبة الأزهريين يوزعون على المكاتب » .

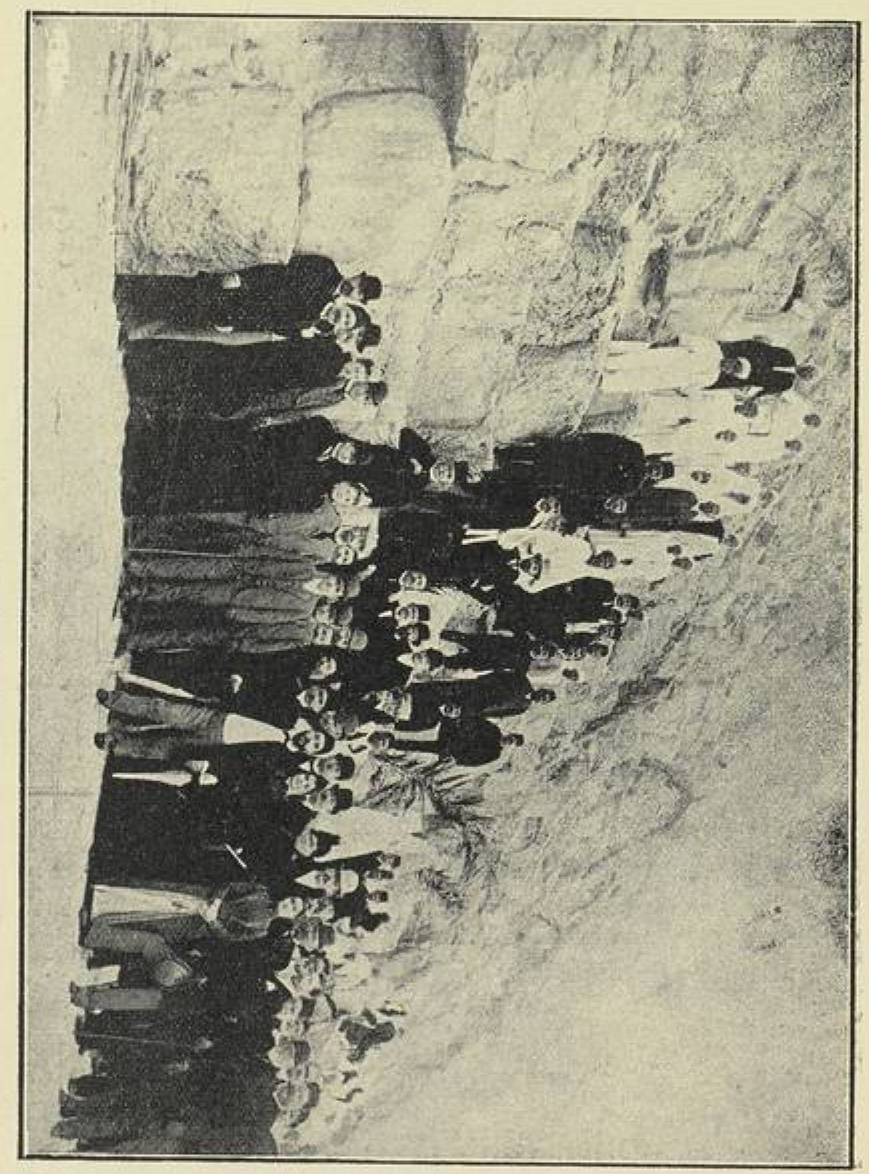
**حفاوة الخديو بضيوف الاجانب .**

احتفاؤه بالبرنس دوجال . فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٨٩ وصل البرنس دوجال إلى القاهرة فاستقبله الخديو فى المحطه ، وأطلق واحد وعشرون مدفعاً تحية قدوم ، وركب

---

(١) مفتش المدارس بالمعارف وكان مدبراً للتعليم فى المدرسة العلية التى كنت معلماً فيها

فى عربة يحفها الياوران على يمين الخديو تجرها أربعة جياد، وفى عربة ثانية ركب البرنس حسين وعلى يمينه نجل البرنس دوجال . ونزل ضيفا على بارنج . وتبادل الخديو معه الزيارات . ثم انتقل بعد ذلك ضيفاً بسراى الجيزة . وقد أقيم له فى مساء ذلك اليوم مأدبة شائقة بسراى عابدين وبعد العشاء أطلقت النيازج النارية فى ميدان السراى



حفاوة الخديو بالبرنس دوجال

و ٢٥ منه استعرض البرنس والخديو الجيش المصرى بجميع وحداته . وكانا بملابس رسمية ممتطين محاطين جوادين أبيضين بكبار الضباط من مصريين وانجليز

وقد أعجبنى وجود النقرزان لأول مرة فى قسم السوارى بالجيش

وفى يوم ٢٧ منه مساء أقام رياض باشا مأدبة عشاء للبرنس حضرها علية القوم من مصريين وأجانب

وفى ٢٨ منه دعا الخديو البرنس لتناول الغداء فى كشك الأهرام وكان فى جملة المدعوين البرنس حسين باشا ورياض باشا والسير افلن بارنج وجرانفل باشا سردار الجيش وقائد الجيوش الانجليزية بمصر وعقيلات هؤلاء الثلاثة . وأقام له فى المساء مأدبة عشاء بسراى عابدين

وفى يوم ٢٩ منه سافر البرنس إلى انجلترا مشيعاً بالاعزاز والتكريم

احتفاؤه بولى عهد المانيا . وفى يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨٩ وصل البرنس هنرى ولى عهد المانيا وقرينته ، والبرنسيس إيرين إلى بورسعيد ومنها إلى القاهرة فاستقبلهما بها عبدالرحمن رشدى باشا سر تشريفاتى مندوباً من قبل الخديو . وقد زار البرنس الخديو فى يوم أول يناير سنة ١٨٩٠ ورد سموه له الزيارة . وفى ٢ منه دعيا إلى الغداء بسراى عابدين وأرسل الخديو تلغرافا إلى امبراطور المانيا يطمئنه على نجله . ومكثا بمصر حتى يوم ١٧ منه حيث سافرا وكانت زيارتهما لمصر بصفة غير رسمية

احتفاؤه بالبرنس فريدريك . وفى يوم ١٨ يناير سنة ١٨٩٠ وصل البرنس فريدريك اوجست دوساكس إلى مصر بصفة غير رسمية ، فاستقبله توتينو باشا نائباً عن الخديو وتبادل سموه الزيارة مع الخديو

أما الزيارات الرسمية فكان توفيق يهتم بتنظيم الحفلات التى يقيمها لضيوفه . كزيارة البرنس نيقولا ولى عهد الروسيا وكذلك ولى عهد السويد والنرويج والبرنس اوسكار أخيه

وهكذا كان توفيق يحتفل بضيوفه الأجانب من الأمراء عند زياراتهم لمصر

**استقبال معتمد امريكا وخطابه غير المألوف** . شاهدنا فى السراى يوم ٢٣ نوفمبر حركة منشؤها استقبال قنصل جنرال امريكا الجديد ، وقد اطلعت على ترجمة الخطاب الذى ألقاه أمام سمو الخديو فلاحظت أنه خرج فيه عن المألوف فى هذه

المناسبات فقد قال فيه : « ان امريكا مستعدة لمساعدة مصر سواء بارسال رجال للعمل فى المحاكم أو تخفيف عبء المالية » وقد رد سمو الخديو على هذه الخطبة بالشكر

**عتاب مع زميل بالمعية** . وبلغنى يومئذ من موسى بك عصمت زميلى فى القلم الأفرنجى أن مسيو اودان بك يخشى مزاحمتى له فى وظيفته ، فعولت على مخاطبته فى هذا الأمر ، خصوصاً وقد كنت أعتقد أن ماوقع من تحديد مدة إقامتى فى فرنسا بثلاثة أشهر ونصف يرجع إلى سبب غير الذى انتحله وهو عدم إمكانه تسلم مرتبى أثناء غيابى فى اوربا

وفى يوم ٢٦ ديسمبر قابلت مسيو اودان ، وفى أثناء حديثنا عن أعمال القلم الأفرنجى أعربت له عن دهشتى لبعض رسائله وانى كنت أشتم منها رائحة التذمر ، وطلبت اليه أن يعرفنى سبب ذلك . فأجابنى أنه علم من أحد زملائى ، وهو محمد بك صادق المترجم الانجليزى ، أن غرضى من السفر للخارج هو الاستعداد للحلول محله . فنفيت له ذلك الزعم بمنتهى القوة

**مأمورية لنظارة الاشغال** . فى ٦ يناير سنة ١٨٩٠ استدعانى الخديو وأمرنى أن أحضر له خريطة الزقازيق ، وبحثنا فيها عن الطريق الموصلة من المحطة إلى المديرية ثم سألنى عما إذا كانت البواخر النيلية تستطيع أن ترسو بالقرب من الزقازيق فى بحر مويس ، فلم أستطع الاجابة لجهلى بذلك . فأمرنى أن أذهب إلى الكولونيل روس الانجليزى مستشار نظارة الأشغال وأطلب منه باسم سموه خرطاً بأهم الترع وبيان أعماقها وحالتها فى وقت الفيضان وفى زمن التحاريق ، والنقط الصالحة لرسو البواخر . فذهبت اليه ومعى رسالة من محمد زكى بك التشريفاتى ، فوعدنى بارسال ماطلبت بعد أيام

وقد سألته عن أحسن نقطة لرسو البواخر فى الزقازيق فأجابنى : — ان أحسن نقطة هى منزل قنصل انجلترا ! ولما عرضت جوابه على الخديو قال مستهزئاً : « وهل يظن أنى أنزل فى بيت قنصل انجلترا ، وما يقول الناس حينئذ ؟ ! » ثم عرضت على سموه أن نجمع الخرط الموجودة فى المكتبة الخصوصية ونجلدها فى جزئين . الأول يحوى خرط مصر فقط ، والثانى يحوى خرط السودان ، فاستحسن هذا الاقتراح وأمرنى أن أشرع فيه وعين لى رساماً للقيام بهذه المهمة

ولما كانت هذه الخرائط متفرقة فقد بذلنا مجهوداً كبيراً لجمعها من مختلف الاماكن، ولم يكن الموجود منها بالمكتبة كافياً وأخذت من قلم التنظيم خريطتى القاهرة والاسكندرية، ولما لم نجد للضواحى أية خريطة اضطررنا لطلبها من نظارة الحربية، وهناك قابلت ونجت بك وتسلمت منه خريطة للقاهرة وضواحيها كانت وزارة الحربية الانجليزية قد أنجزتها وأرسلتها للقاهرة ليتم ضبطها. وكانت مقابلة ونجت بك لى فى غاية اللطف (١)

وكذلك ذهبت لمقابلة راڤون بك رئيس قلم الرسم فى نظارة الأشغال يوم ١٨ منه وأحضرت من لدنه بعض الخرائط، وتسلمت من ناظر الأشغال خرائط مديريات الوجه البحرى من عمل محمود باشا الفلكى.

وفى يوم ٢٠ منه أرسلت كل ما جمع من الخرائط إلى مطبعة بولاق لجمعها وتجليدها

**الرحالة استانلى** . فى الرابع عشر من يناير قدم إلى القاهرة الرحالة الانجليزى الشهير استانلى على قطار خاص أمر به الخديو ونزل فى فندق شبرد. وشاهدت يوم قدومه إلى السراى حركة غير عادية. وقد شكره الخديو على انقاذ امين باشا الرحالة المتمصر (٢) الذى ساعد فى اكتشاف منابع النيل.

وانعم سموه على استانلى بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى.

وكان أمين باشا قد تخلف فى زنجبار للاستشفاء من جراح اصابته أثناء عودته، ورد ذكرها فى خطبة ستانلى - فارسل اليه الخديو يخبره بأنه قابل استانلى ووقف منه على أخباره وأنه يشمله بعطفه ويدعو له بالشفاء.

وأقام سمو الخديو مأدبة فخمة تكريما لاستانلى وتنويها بفضله. وكذا أدت الحكومة المصرية قسطها فى تكريمه، فأقامت له مأدبة عظيمة فى النيوهوتل (فندق الكونتننتال الآن) دعت اليها مائة وأربعين من كبار الموظفين والقناصل. وناب فيها رياض باشا عن الخديو وألقى خطبة شيقة أثنى فيها على الرحالة الكبير وما أبداه من ضروب البسالة والتضحية فى انقاذ أمين باشا وحملته. وختمت الحفلة بخطاب القاه

---

(١) واستمر اتصالى به بمناسبة هذه المهمة حتى أصبح صداقة بيننا

(٢) وأصله يهودى ألمانى كان مديرا لمديرية خط الاستواء فهاجمه المهديون ولكن ستانلى انقذه ورجاله الذين حضروا معه إلى مصر وكان عددهم نحو مائتى رجل وسبعين

الرحالة وعَرَّضَ فيه إلى ذكر جوردون والتي تبعة قتله على انجلترا . ووصف بعض المخاطر التي لاقاها فى انقاذ أمين باشا . ثم ذكر أنه بعد انقاذه له اسرف فى الشراب حتى غاب عن صوابه وأصيب بجروح خطرة من جراء صدمة .

وقد لاحظت أن مثل ذلك الكلام ما كان يحسن أن يقال فى حفلة تقام تكريما لاستانلى على انقاذه هذا الرجل الذى يتحدث عنه .

وكذا عقدت الجمعية الجغرافية جلسة غير عادية لاستقبال استانلى وتكريمه والاشادة بفضله على العلم والاكتشاف .

**وحدات الجيش سنة ١٨٩٠** — فى ٢٠ يناير سنة ١٨٩٠ أرسلنى سمو الخديو الى كتشنر باشا لأطلب منه صورة للاشخاص الذين أحضرهم استانلى معه فاجابنى أن استانلى أخذ صورتهم لنشرها فى كتابه ولايود إذاعتها قبل ذلك ، فاذا كان ثمة ضرورة جمعَ الأشخاص وأخذت صورتهم من جديد . ثم أعطانى قائمة بوحدات الجيش لتقديمها إلى سمو الخديو . وكانت خلاصتها كما يأتى : —

| | مدافع | جمال | بغال | خيول | عساكر | ضباط |
|---|---|---|---|---|---|---|
| في مصر والاسكندرية | ٢٤ | ١٠٧ | ٩٩ | ٥٠٣ | ٤٤٨٤ | ٣٠٤ |
| فى سواكن | ٢٧ | ١٣ | ٣٠ | ١٢٥ | ٢٤٧٧ | ٨١ |
| فى اسوان | ١٩ | ١٨ | ١٤ | ١١ | ٧٥٨ | ٣٢ |
| فى كرسكو | ٦ | ٩ | ٨ | ٥ | ٥٩٧ | ٢١ |
| فى وادى حلفا | ٥٠ | ٨٥ | ٨٥ | ٢٧٥ | ٣٨٦٥ | ١٥٠ |
| | ١٣٦ | ٢٣٢ | ٢٣٦ | ٩١٩ | ١٢١٨١ | ٥٨٨ |

**حفلة بللو عابدين** — فى أوائل يناير تقرر إقامة حفلة البللو السنوية بسراى عابدين ودعيت لمعاونة موظفى التشريفات فى كتابة رقاع الدعوة ، وكان من نصيبى كشف موظفى الحقانية ومن بينهم عزيز وجميل ثابت نجلى رئيس الديوان اللذين وظفا بالحقانية عقب عودتهما من باريس . فى صباح ذات يوم بعد ارسال تذاكر الدعوة صادفت ثابت باشا فى بهو التشريفات يستفهم بحدة عمن كتب تذكرتى الدعوة لولديه بلقب (افندى)

وكان يعرف خطى. فأجبته أنه أنا . وقد اتبعت فى الألقاب ما ورد فى الكشف الرسمى الوارد لى من النظارة وموقع بامضاء فخرى باشا ناظر الحقانية . فهدأ بعد انفعاله وقال:— وهل نجل فخرى باشا يقال عنه ( افندى ) أيضاً ؟ وكان ذلك دليل استمرار حقده على

وفى ليلة الثانى والعشرين من يناير أقيمت الحفلة وكنت ضمن المعينين لاستقبال السيدات وقد سلمت إلى وردة لتوضع فى عروة سترتى علامة على أننى من المعينين رسمياً لمرافقة المدعوين إلى مقاعدهم . وقد وقفنا بجانب مدخل السلاملك .

وكان النظام المقرر أن يعطى كل منا ذراعه الأيمن للسيدة ويقودها إلى المكان المعد لحفظ المعاطف والقبعات ، ثم يصعد بها ويقدمها لسمو الخديو فى صالة الاستقبال الكبرى . ولا يترك ذراعها إلا عند ما يصير على مقربة من سموه بخطوة واحدة ، فيدع ذراعها وينطق باسمها . فيسلم عليها الخديو واقفا ثم يدعوها للجلوس إن كانت من ذوات المكانة العالية وإلا فترجع مع من جاء بها إلى صالة أخرى وهناك يدعها وينزل ليستأنف عمله . وأذكر أن من ضمن من قدمتهن مدام دومرتينو باشا وكانت أجمل المدعوات

مدام دومرتينو

وقد رقصت مع بعض المدعوات ورآنى فى أثناء ذلك ولى النعم فابتسم .

**عفريت بركة الفيل** — وانتهت الحفلة فى منتصف الساعة الثالثة صباحا فعدت إلى منزلى فى بركة الفيل القريبة من حارة السادات ولما أن كان يشاع أن ( عفريتا ) يظهر عند السبيل الموجود فى منتصف الطريق بين بيت السادات والبركة بعد منتصف

الليل أردت أن أقف على مبلغ هذه الاشاعة وقبل وصولى إلى هـذا المكان ترجلت وصرفت العربة وسرت اليه ووقفت برهـة انتظر ظهوره وظللت أبحث عنه وأناديه وأدعوه للظهور ولـكنه لم يلب أى نداء فقلت ما أسخف عقول الذين يروجون هـذه الاشاعات !

**قضية الخازندار** — فى يوم ٢٦ يناير ذهبت مع ابراهيم بك ذو الفقـار الى محكمة مصر الابتدائية الأهلية لمشاهدة جلسة الجنـايات بها وسمعنا المرافعة فى قضية مصطفى باشا الخـازندار وكان يرأس الجلسة رئيس المحكمة ابراهيم بك نجيب ويتولى حسن بك عاصم الدعوى العمومية . فبين كيف وقعت السرقة من ممتاز بك مملوك المتوفى وكيف وجدت المبالغ المسروقة فى المراحيض . وشرح التزوير الذى ارتكبه الشيخ عبد الرحمن البحراوى ثم طلب الحكم على المتهمين

ثم قام سعد زغلول «باشا» وكان محامياً عن حليم باشا وبين للمحكمة أن دفاتر دائرة المرحوم مصطفى باشا الخازندار غُيِّرت كلها منذ سنة ١٢٧١ هجرية وذلك لكى لايظهر ما أُرْتُـكِبَ من سرقة وتزوير ولو وجدت الدفاتر القديمة لظهر منها مقدار الثروة الحقيقية ومقدار العجز وأن هذه الدفاتر الجديدة قد وضعت لمصلحة المزورين .

واستمرت المرافعة فى هذه القضية أسبوعا ثم صدر الحكم فيهـا بحبس المتهمين وأودعوا السجن . ولـكن سمو الخديو لم يلبث أن أصدر أمره بالعفو عنهم .

**مشروع زواج** — أشرت غير مرة فيما تقدم من الفصول إلى تعرفى بالآنسة ايزابيل كونتال ، وبغيرها . بيد أنى كنت أفضلها على كل من تعرفت بهن من ناحيـة الأخلاق والتربية . ولم تـكن فى الواقع أجمـل من عرفت فالآنسة أوليف وود وارد الامريكية مثلا كانت ذات قوام اهيف ومحيـا ساحر وحديث جذاب الا أنها كانت كاخوتها الامريكيات خفة وتبسطا مما لا يرتاح اليه الشرقى .

أما ايزابيل فـكانت هيفاء مليئة الجسم فى رشاقة تبدو عليهـا مظاهر الصحة ذات وجه مستدير متورد ، وعينين زرقاوين جذابتين ، وكانت فوق ذلك خفيفـة الروح لطيفة المحضر .

وميزتها الأولى أنها وهى فى السابعة عشرة من عمرهـا لا تزال على سذاجة الطفلة يبدو من حديثها أنها لا تعرف الخداع والمكر كاخواتها الباريسيات .

ووالد ايزابيل رجل وقور كان قاضياً فى عهد الامبراطورية . أما والدتها فكانت سيدة عالية الثقافة متعصبة لدينها .

وكانت الأسرة تستقبل زائريها مرة فى كل أسبوع وتقيم الولائم لمعارفها فكنت لا أنفك أتردد عليها حتى شعرت بميل نحو الآنسة ، وكانت هى تبدى نحوى مثل ما عندى كما كان والدها يعمل على إنماء هذه العاطفة . فاذا دعيت إلى وليمة أجلسنى بجانب ابنته ، واذا وردت للاسرة دعوة فى سهرة عند احدى الأسر التى لا علاقة لى بها بادر الوالد بالحصول على دعوة لى كما أسلفنا .

وكانت والدتها كلما زرتهم تقدم لى شيئا من الحلوى قائلة أنها من صنع ايزابيل .

وهكذا توثقت العلائق بينى وبين الأسرة وفتاتها حتى توفى الوالد فى سنة ١٨٨٧ فبقيت أواسيها وأشجعها .

وفى إحدى زياراتى حادثتنى فى مسألة زواج المسلمين باربع نسوة ، وفى الطلاق ومصير الأبناء الذين يرزقون لمسيحية من مسلم . فأجبتها أنه يمكن تلافى تعدد الزوجات فى عقد النكاح بان يشترط فيه أن يكون الطلاق حقا للاثنين . أما الأولاد فيتبعون ديانة الوالد كما أن الزوجة تتبع جنسية زوجها فى جميع القوانين .

وقبل أن أترك باريس زرت الأسرة لآخر مرة ووعدت الوالدة بان أكتب اليها عند رجوعى رسالة أصرح فيها بما يكنه ضميرى نحو ايزابيل .

فلما أخذت رأى والدتى فى موضوع الزواج قبلت بعد تردد قائلة إذا كانت السعادة لك فى هذا الزواج فلا أمانع فيه وعندئذ بعثت رسالة إلى مدام كونتال أبلغها فيه قبول والدتى زواجى من ابنتها وأحدثها عن البواعث التى حَبَّبَتْها الى نفسى .

وأردت أن اطمئنها من ناحية اختلاف الدين والعادات فقلت لها : — أن القرآن الشريف والانجيل كلاهما لا يمنع زواج مسيحية من مسلم وأنها يجب أن تثق بأننى لن أتزوج بأخرى لأن أحدا من أفراد أسرتنا جميعاً لم يقدم على ذلك . وأما عن حالتى المادية فافهمتها أننى لست من الأغنياء ولكنى ميسور الحال وعندى بيوت وعقارات ومرتب مناسب ومستقبل حسن . وطلبت رأيها النهائى .

وكتبت رسالة أخرى لكريمتها رداً على ما جاء منها أظهرت لها فيها سرورى برسالتها اللطيفة واستحسانها لِلْمَلْبَس الذى أهديته لها . وهو من الكريشة الحرير صنع المحلة الكبرى .

وأخيراً وردت الى من والدتها رسالة تقول فيها : أن أبنتها لا تفكر الآن فى الزواج وانها أطلعتها على رسالتى فلم تفصح لها عن شيء . ثم قالت : أنها تأسف لأن هذا الموقف ربما أضاع صديقا للاسرة ( تعنى مقاطعتى لها ) . والذى فهمته من هذه الرسالة ان ايزابيل لا ترفض الزواج منى ولكن لم يقدر لنا تحقيق هذه الأمنية .

ووقفت المسألة عند هذا الحد دون انقطاع المراسلات التى استمرت بينى وبين ايزابيل بعد وفاة والدتها حتى الآن وهى تقيم فى أحد الأديرة .

أما المشروع الثانى هو أنه عند ما تعينت فى نظارة الخارجية لقيت من رؤسائها ترحيباً ، وخصوصاً من محمد بك شريف نجل شريف باشا الفرنساوى ، وكنت أتردد عليه فى بيته حتى أُصْبَحْتُ وثيق الصلة به . ولما ألقيت محاضرتى عن الرق فى الاسلام بدار الجمعية الجغرافية وكان فى جملة الحاضرين أظهر اعجابه واستحسانه .

فى نوفمبر سنة ١٨٩١ عند ما كنت راجعاً فى أحد الأيام من السراى إلى المنزل قابلنى عبده بك البابلى رئيس الجواهرجية وفاجأنى بتهنئة لم أعرف لها مناسبة فسألته الافصاح عن سبب ذلك . فأجابنى بأنه كُلِّفَ باعداد بعض المجوهرات والفضية لجهاز احدى كريمات العائلات الشريفة اسما وأصلا والتى ستزف الى . فدهشت واخبرت والدتى بذلك ورغبت فى رؤية خطيبتى قبل الزواج فقالت : إن ذلك لا يتأتى مع عائلة شريفة كهاته ، سيما وانه لم يكن مألوفا ذلك . فرجوتها ان أرى على الأقل صورتها

وبعد يومين من ذلك حضرت احدى السيدات منتدبة من قِبَلِ هاته العائلة لابلاغ والدتى قرارها باختيارى زوجا لاحدى كريماتها فطلبت منها والدتى ان تقدم لوالدة العروس الشكر وان تعلمها بأنها ستزورها لترى خطيبتى وعقب ذلك رجعت هاته السيده ثانية وابلغت والدتى استياء العائلة من طلبها وكان هذا سببا فى عدم اتمام الزواج

**الشركة التوفيقية للملاحة والانجرارية والتجارة** — فى يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٩ وردت لى رسالة من مدير هذه الشركة يخبرنى فيها ان مجلس ادارتها قرر باجماع الآراء تعيني مراقباً للشركة ، ويرجونى ان اقبل لأن بدخولى فيها أقدم خدمات جليلة لها . ولما عرضت الأمر على الخديو امرنى بالقبول .

وهذه الشركة هى شركة مساهمة تأسست بأمر عال براس مال قدره خمسة واربعون الفا من الجنيهات وزعت على ٢٢٥٠ سهم واشترك فى تأسيسها الحاج مرزا

فضل الله واسكندر بك ريستوفتش والحاج محمد حسن ومحمد الجبالى وويصا بقطر وبشاى معوض ومصطفى بك المنزلاوى وعلى بك حسن واخنوخ افندى فانوس وبشارة بك تقلا واخوته .

وفى ٨ يناير سنة ١٨٩٠ ذهبت الى قصر النيل لمشاهدة الباخرة المسماه ( الخديو ) وهى من بواخر الشركة . فوجدتها فى غاية النظام وزرت غرف النوم فالفيتها حسنة نظيفة قد فرشت بالبسط الأزميرية كما فرش بهوها الاعلى بالسجاد الجميل ووضع فيه بيانو للعزف . وقد لاحظت علائم الارتياح والبشر على وجوه السياح .

وفى منتصف الساعة العاشرة تحركت الباخرة قاصدة الشلال فشعرت بهزة فرح تملأ نفسى وانا اتأملها وهى تشق عباب الماء فارى نتيجة اتحاد الجهود القومية .

ثم أخبرت الخديو بما رأيت فاستاء لسفر الباخرة بلا ربان وقال : ان وجود الربان يعطى رونقا للباخره فهو الذى يقابل الزائرين ويطوف بهم فيها ويصدر الأوامر للبحاره وغيرهم .

وفى اليوم التالى قابلت سموه ومعى اسكندر بك ريستوفتش فابدى له ملاحظته هذه وقال له أثناء الحديث : « ان شفيق نفسه قال لى انه لا يحب السفر فى باخرة بلا ربان » وقصد سموه بذلك بيان ضرورة وجوده « مع أنى لم أقل هذه العباره » .

وانعقد مجلس الادارة فى يوم ١٢ فبراير وقرر أن تسافر باخرة فى كل أسبوع من جسر قصر النيل الى الشلال بدلا من كل أسبوعين وأن يكون الركاب فى درجات ثلاث بتخفيض ١٥ فى المائة فى الدرجتين الاخيرتين عما يأخذه كوك

واتفقت الشركة مع أحد أصحاب المطاعم فى أسيوط على أن يقدم الطعام للركاب مع تحديد أسعار الاصناف

وتقرر كذلك أن أسافر أنا على ظهر الباخرة « القاهرة » التى ستبدأ رحلتها فى يوم ٢٠ فبراير

وفى اليوم التالى زرت سمو الخديو وعرضت عليه ما تم فى الجلسة وسألنى عن موعد سفرى وقيده فى مذكرته الخاصة .

**الرحلة الى شلال اسوان** . فى الساعة التاسعة من صباح يوم ٢٠ فبراير قصدنا إلى البدرشين فوصلنا قبل الظهر . وكان عدد السياح المسافرين معنا ثلاثة عشر جميعهم

أمريكيون وبعضهم يتكلم الفرنسية . ونزلنا لرؤية الآثار فى هذه الجهة فقضينا فى ذلك معظم اليوم

وفى منتصف الساعة السابعة مساء دخلنا قاعة الطعام وكان التعارف قد تم بين الجميع وزالت الكلفة وجلس كل يتحدث مع جاره ببساطة وسمعت اثناء الحديث ثناء مستطابا على ادارة الشركة ونظافة بواخرها وحسن نظامها من زوج سائح أمريكى كانت تجلس بجوارى .

وعند الفجر استأنفت الباخرة سيرها

وفى نحو الساعة التاسعة مساء وصلنا بنى مزار ووقفت الباخرة لتمضية الليل هنالك فأبدت السيدات رغبة فى النزول الى الشاطىء للرياضة فنزلنا ومعنا مصباح واثنان من البحارة والترجمان . ونزل معنا كل السياح وسرنا على الجسر المحيط مسترشدين بنور الباخرة . ثم عدنا وشربنا الشاى ودار الحديث على اللغة العربية وكتابتها وقراءتها ، وقد دهش السياح حينما اطلعوا على مذكراتى الخاصة بهذه الرحلة وظنوا اننى كتبتها بواسطة مجهر .

وفى الساعة الخامسة من صباح ٢٢ فبراير استأنفت الباخرة سيرها ، فمرت بمطاى وجبل الطير ، والمنيا ، والكوم الاحمر ، وبنى حسن .

ثم تناولنا طعام العشاء فشربت احدى السيدات الأمريكيات نخب الخديو ونخب أمريكا ، ورَدَدْتُ عليها بالشكر .

وفى الساعة التاسعة وقفت الباخرة قريباً من جبل « ابو فودة » وهناك رأينا ذهبية مضاءة بأنوار مختلفة الألوان فلما شاهدنا ركابها أتوا لزيارة الباخرة وجلسوا للحديث مع السياح . وفهمت أن سبب الزينة هو أنهم سيحتفلون فى الغد بعيد « وشنجطون » محرر أمريكا . فهنأتهم بهذا العيد فابتسموا مبتهجين وانصرفوا شاكرين .

وفى منتصف الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى استأنفنا السفر فمررنا بجبل أبى فودة ومنفلوط ثم وصلنا أسيوط فى الساعة الحادية عشرة والنصف فوجدنا « صندلا » كبيراً رفع عليه علم الشركة اشارة الى المرسى وكان فى انتظارنا الخواجة بشاى أحد المساهمين بالشركة وفى الساعة الثانية نزل السياح للبلد أما أنا فصحبت الخواجة بشاى الى منزل اخنوخ افندى الافوكاتو أحد مساعدى الشركة ودار بيننا الحديث عن الشركة وبواخرها وخصوصاً خط البريد بين أسيوط واسوان واتفق رأينا على أن الخط فى

حاجة الى التنظيم والدقة فى المواعيد والاكثار من عدد البواخر حتى يكفل النجاح للشركة وتستطيع منافسة شركة كوك وتكلمنا أيضاً فى مشروع وضع أكشاك صغيرة فى صنادل عند كل محطة عليها علم الشركة تذكرة للمسافرين على أن يكون فى الكشك مندوب يحث الاهالى على تفضيل بواخر شركتنا وتعطى له عمولة من ٣ الى ٤ فى المائة وأبدى الخواجه بشاى استعداده لايجاد هؤلاء المندوبين. ثم قال أخنوخ افندى – أنه لم يكن هناك مرسى للشركة فى أسيوط وانه اشترى ثلاثة أفدنة على البحر ووضع فيها صندلين لتسهيل شحن مايلزم لبواخرنا فشكرت له هذه المعاونة الكبيرة.

وبعد ذلك قصدنا دار المحكمة فقابلنا هناك عبد المجيد افندى فريد القاضى وعرفان افندى ( عرفان باشا ) ومحمد افندى فتحى رئيس النيابة ( فتحى باشا زغلول ) ثم صحبنى الخواجه بشاى الى المديرية حيث قابلت المدير احمد باشا شكرى ثم تجولنا فى شوارع المدينة حيناً فشاهدت فيها مهارة صناعها فى أعمال الخرط وسن الفيل والقلل الحمراء كما شاهدت أبنية فخمة على شاطىء النيل

وفى المساء زارنى فى الباخرة محمد افندى فتحى فتحادثنا فى شئون الشركة وطلبت مساعدته فى تسفير المساجين والمحضرين فى بواخرنا فأظهر أستعداده ورغبته للقيام بذلك عند ما تنتظم أعمال الشركة وتضبط مواعيد اسفارها بدقة بحيث تسافر البواخر مرة فى كل أسبوع على الأقل فمتى تم ذلك فانه يطلب تصريحاً من نظارة المالية بما تقدم ومن الميسور صدوره اذا قامت الشركة بهذه الاصلاحات

وفى هذا اليوم جاءتنا رسالة من الشركة بأنها أجّرت الباخرة « الخديو » إلى اللورد هارتنجتون من كبار النبلاء الانكليز فكان للخبر وقع حسن فى نفوسنا وفى نفوس السياح .

وفى ظهر يوم ٢٤ منه استأنفت الباخرة سيرها وفى نحو الساعة العاشرة مساء وصلنا إلى جبل الشيخ الهريدى وهناك القيت المراسى للمبيت .

وفى الساعة الرابعة من صباح اليوم التالى سافرنا إلى أن وصلنا دشنا فى الساعة الثامنة مساء وقضينا الليل هنالك .

وفى صباح ٢٦ واصلنا السير حتى الساعة التاسعة فكنا إمام دندرة فنزلنا لمشاهدة اثارها ومعبدها ثم عدنا بعد زيارتها وملئت نفوسنا اعجابا بهذه الآثار الخالدة . وبعد

ان تناولنا طعام الغذاء نزلنا إلى مدينة قنا فتفرجنا على عمل القلل وفى الساعة الثالثة والنصف استأنفنا السير إلى الأقصر فوصلناها فى الساعة العاشرة مساء وفى صباح ٢٧ منه نزلت مع الترجمان فطفنا بعض شوارعها وتغلب على هذه المدينة المسحة الريفية رغم أن بها مبان حسنة انيقة على شاطىء النيل يسكنها الوجهاء ووكلاء القناصل وفيها مدرستان ايطاليتان ومدرسة أمريكية وبها فندقان لشركة كوك أحدهما مفتوح والآخر معطل وقد استأجره كوك وأبقاه معطلا حتى لا تأخذه شركتنا .

وبعد تناول طعام الافطار ركبنا الحمير لنشاهد آثار الكرنك وهى على بعد ثلاثة أرباع ساعة من النيل وقد قضينا هناك ساعتين ونصف نتيه فى وادى الخلود والعظمة ثم عدنا لتناول الغذاء . وفى الساعة الثانية ونصف زارنا على أغا قنصل دولة أمريكا . ثم قدمت الباخرة « دندرة » فى الساعة الثالثة والنصف وعليها الخواجه بشاى ومعه اربعة سياح انضموا الينا وقد اتفقت مع الخواجة بشاى على أن نحيى ليلة الغد ( ٢٨ فبراير ) بمناسبة عيد ميلاد سمو الخديو وأن نزين الباخرة زينة جميلة واتفقنا على كتمان الخبر خيفة أن يصل الى كوك فيقيم من الزينات ابهج مما نقيم .

وفى صباح اليوم التالى ركبنا فى قاربين إلى الشاطىء الشرقى ثم امتطينا الركائب إلى وادى الملوك وقضينا هنالك بضع ساعات فى زيارة الآثار والمدافن ثم عدنا فاذا الباخره مزينة من جميع جهاتها بالأغصان الخضراء والأعلام والمصابيح وفوجىء السياح بهذا المنظر المبهج وشاركونا فى الاحتفال . وقد دعونا وكلاء القناصل وضباط البوليس وناظر المدرسة الايطالية ووكيل البوستة والتلغراف وعزف بعض الأهلين على الربابة وغنى آخرون أناشيد قومية فكان لذلك وقع حسن فى نفوس السياح لشوقهم إلى معرفة عادات البلاد وبينما هم يصغون إلى الغناء والعزف ظهر فجأة ثلاثة من البحارة فى هيئات مضحكة أحدهم فى شكل قرد والثانى مدربه والثالث فى لباس مهرج فكان لظهورهم رنة ضحك وسرور طويل . ثم ألقيت خطبة باللغة الفرنسية موضوعها ذكرى الخديو ورد على أحد السياح ثم جاءت احدى السيدات وهنأتنى على الخطبة . وعدنا بعد ذلك نسمع العزف على الرباب حتى الساعة الحادية عشرة ثم بدأ الرقص على توقيع البيانو واستمر إلى منتصف الساعة الأولى وختمت الحفلة بسلام الخديو وانصرف المدعوون مسرورون .

وفى الصباح أرسلت برقية تهنئة أشرت فيها إلى احتفال الأمس إلى محمد بك زكى التشريفاتى لرفعها إلى سمو الخديو .

ثم عبرت مع السياح إلى الضفة الأخرى لزيارة معبد رمسيس الثانى حيث قضينا بضع ساعات ثم بتنا ليلتنا فى الأقصر واستأنفنا السير فى صباح أول مارس حتى وصلنا إلى أرمنت فى الساعة الواحدة بعد الظهر فوجدت هناك وكيل البريد واحد مستخدمى فابريقة السكر وقد حضر لزيارة الباخرة ودعانا لمشاهدة الفابريقة فأجبنا الدعوة وتفرجنا عليها .

ثم عدنا إلى الباخره فاستأنفت سيرها إلى إسنا فوصلناها فى الساعة الخامسة والربع وهناك قابلت المدير مع وكيله حشمت بك ( حشمت باشا ) فرحب بى ودار الحديث عن الشركة فأخبرنى أن الأهالى يفضلون بواخرنا على بواخر كوك وانه إذا انتظمت المواعيد وكثرت السفريات ولا سيما فى خطوط البريد استطعنا أن نفوز فى المنافسة . ثم عرض على فكرة بناء فندق فى الأقصر فاجبته بأن الشركة لم ترتب خط البريد إلا على سبيل التجربة وانها تخشى القيام باصلاحات تتطلب نفقات باهظة قد لا تستعيضها فأكد لى أن النجاح محقق . وأما فيما يتعلق بالفندق فنى وسعه أن يساعد الشركة فى هذا الأمر وانه توجد فى الأقصر قطعة أرض ملكا للحكومة متوسطة بين المدينة والكرنك فلو أخذت الشركة جزءاً منها لهذا الغرض لكان ذلك أمر أصلح وإذا أمر ولى النعم نظارة المالية بمخابرته فانه يسهل لنا الاجراءات واستصوب أن تكون المخابرات بصفة غير رسمية . وطلب منى أن أعرض هذا الاقتراح على سمو الخديو فشكرته على هذه العناية ورجوته من جانبى أن يعرف أعيان البلاد الواقعة على النيل شيئا عن مركز الشركة ومستقبلها ويحثهم بدون اكراه على الاشتراك فى أسهمها لأن ذلك يعود عليهم وعلى الشركة بالفائدة ولأن البواخر إذا احتاجت لشىء مثل الالبان والخضر والفواكه فتشتريه منهم مساعدة لهم

واستأنفنا السير إلى أدفو فوصلناها فى الساعة التاسعة صباحا وبعد تناول طعام الافطار زرنا معبدها وهو قريب من النيل ثم عدنا إلى الباخرة وحضر عمدة ادفو الشيخ احمد محمد الباجة لزيارتنا فتحدثت معه فى شأن الشركة وطلبت منه مساعدتها جهد طاقته فعرض على أن تعد الشركة مكتبا على النيل يجلس فيه ابنه وهو يحسن اللغتين الانجليزية والفرنسية بلا مقابل فشكرت له هذه الغيرة ثم رجوته أن يحث الأعيان على الاشتراك فى الأسهم فوعد بذلك .

وخطرت لى عند مشاهدة معبد ادفو فكرة قليلة النفقات كبيرة الفائدة وهى ان ينار

المعبد بالنور الاحمر المسمى « فودى بانجال » بحيث تكون الاضاءة فى جميع نواحيه فيكون المنظر رائعاً ساحرا وينار عند مرور كل باخره تقل السياح بحيث تقف نصف ساعة أمام المعبد مقابل أن يدفع كل سائح شلنا أو اثنين وهذا ما يعمل فى شلالى جيسباخ ونيوهاوزن بسويسرا والقصر القديم فى هيدلبرج بالمانيا .

وقبيل الظهر غادرنا ادفو فوصلنا بعد ساعة ونصف الى بلدة «الحصابة» وهنالك عانينا صعوبة كبيرة لقلة ماء النيل وكذلك فى بلدة « سلوة » .

وفى الساعة الرابعة وصلنا الى جبل السلسلة والنيل عنده يضيق كثيرا وينحصر بين جبلين ورست الباخرة أمام ثلاث روابى صغيرة فطفنا بها ثم شاهدنا مقاطع الأحجار التى استعملت فى أبنية طيبة وانك لتدهش لهذه القدرة الخارقة التى استطاعت قطع هذه الأحجار الهائلة وحملها إلى مثل هذه المسافات البعيدة ومما شاهدناه أيضاً مسلة نقش على إحدى واجهاتها بالخط الهيروغليفى ولم يفصل من الكتلة الحجرية الثلاثة الاوجه الأخرى . ثم عدنا إلى الباخرة وفى منتصف الساعة العاشرة وصلنا إلى كوم امبو فنزلنا ومعنا الشمع وآلة كهربائية بقصد التفرج على الآثار .

وفى صباح يوم ٤ مارس استأنفنا السير من كوم امبو فوصلنا اسوان فى الساعة التاسعة ونصف وركبنا الحمير إلى البلد ثم عرجت على المحافظة وزرت محمد ماهر «باشا» المحافظ ( والد الدكتور احمد ماهر وعلى باشا ماهر ) وعرفته بنفسى ودار الحديث فى شأن الشركة التوفيقية فاكد لى أن الأهالى يتمنون نجاحها وهم مستعدون لمعاونتها لأنهم ساخطون على معاملة شركة كوك لهم واقترح أن تمون بواخرنا بطعام شرقى قليل النفقة ليشجع الركاب من الأهالى وأن يبنى فندق فى أسوان فقد أخبره بعض السياح فى العام الماضى برغبتهم فى الاقامة بها بضعة أيام وسمع هذا القول مرة أخرى هذا العام وذلك لجودة هواء المدينة ومن السهل جداً الحصول على قطعة أرض من أملاك الأهالى وكان كوك قد أذاع فى العام الماضى أنه سينشىء فندقا ولكنه لم يفعل وأبدى المحافظ استعداده لكل معاونة وتعضيد فشكرت له هذه الغيره . ودعوته لتناول الشاى معنا فى المساء . ثم عدت الى الباخرة فوجدت هناك قنصل امريكا باسوان عبد الكريم افندى المعارى وهو من مساهمى الشركة وبعد تناول الغذاء ذهبت مع الدكتور فهمى افندى إلى جزيرة الفنتين ( الفيلة ) لزيارة المستشفى الأميرى فوجدت به أقساما ـ للرمد وللجراحة وللأمراض الباطنية وغادرنا الجزيرة إلى الشاطىء الثانى

لزيارة البرابى المسماة باسم جرانفيل باشا السردار السابق وهو الذى اكتشفها فوق الجبل والصعود اليها صعب وقد رُكِّبَ حبل فى الجهة العليا للاستعانة به على الطلوع .
ثم عدنا إلى الباخرة وحضر المحافظ ومصطفى افندى شاكر مأمور قسم اسوان وهو يجيد اللغة الانجليزية فعرفتهما ببعض السياح وهم مستر جارمس الانجليزى ومستر كلارك والسيدة روث وهما امريكيان وجلسنا للحديث فقال مستر جارمس على سبيل المزاح ـ أننى جالس فى صدر المائدة فى كرسى الرئاسة فاذا وقع من أحد الموجودين شىء فانى أعاقبه فردت عليه السيدة قائلة « أنت تحكم على من هم مثلك فقط لا على الامريكان الذين طردوكم من بلادهم » وكان هذا الجواب الشديد على سبيل المزاح أيضاً وان كان فيه من المعنى الدقيق ما فيه وتحدث مستر جارمس مع مصطفى افندى شاكر بخصوص ادارة مصر فى الوقت الحاضر فقال ان الموظفين الانجليز يبذلون كل جهد لترقية مصر ولا غاية لهم بخلاف غيرهم من الأجانب فانهم يعملون لأنفسهم إلى غير ذلك من الدعاوى العريضة التى يكررها الانجليز فى كل مناسبة . وكانت السيدة روث فى هذه الأثناء قد فارقتنا وبقى مستر كلارك فرد على مستر جارمس بقوله : ــ « بالله دعنا من هذا الكلام فانك دائما تكدر سياحتنا باقوالك التى لا طائل تحتها ولا يجب أن تمدح بلدك إلى هذا الحد وتبخس الأجانب الآخرين من فرنسيين وامريكيين وغيرهم حتى ليظن من يسمعك أن ليس فى العالم دولة أخرى تضارع انجلترا مع أنه توجد دول أخرى أشد منكم بأسا . فأرجوك أن تترك الحديث فى هذا الموضوع لانه مكدر لرحلتنا » وانتهى الحديث على ذلك وانفرط عقد المجتمعين .

وفى صباح الخامس من مارس ركبنا إلى محطة القطار البرى لزيارة جزيرة فيله ( أنس الوجود ) وحُمِّلَ طعام الغداء على جمل سبقنا إلى الجزيرة وبعد نصف ساعة كنا أمامها وكانت القوارب الصغيرة فى انتظارنا فأوصلتنا اليها . وقصدنا توا الى قصر أنس الوجود ذلك القصر السابح فى الماء الذى هو مثال الروعة والدقة والجمال فقضينا أمامه برهة نسوح الطرف فى آية الخلود ثم دخلنا اليه وجسنا خلاله فى دهشة وخشوع وعدنا بعد الزيارة نتجول فى الجزيرة . وقد جالت فى ذهنى فكرة انارة قصر أنس الوجود بالنور الأحمر « فودى بانجال » على نحو ما رأيت بالنسبة لمعبد إدفو .

ثم قصدنا بعد ذلك فى القوارب الصغيرة إلى الشلال وقبل أن نصل اليه سمعنا صوت الماء يتساقط بشدة وهناك رأينا منظرا ساحرا ورأينا الرجال والأولاد وهم

يلقون بأنفسهم فى الماء من علو شاهق ليتناولوا بعض النقود التى يلقيها السياح فيلتقطونها بمهارة عظيمة

وفى نحو الساعة الثالثة عدنا إلى أسوان وقد دعانى وكيل قنصل أمريكا مع بقية السياح لتناول الشاى فذهبنا اليه فى نحو الساعة الثامنة وسمعنا عنده عزفا على الربابة ثم عدنا للنوم إذ كنا متعبين من رياضة النهار .

وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى نزلنا إلى السوق فاشترى كل منا ما أعجبه ثم ذهبت مع بعض السياح لزيارة المحافظ فاهدى مدام روث جلابية من جلاليب الدراويش ثم نزل معنا لزيارة المدرسة الأميرية وكان بها ثمانون تلميذا فى ثلاثة فصول ومنهم فصل يتلقى اللغة الانجليزية الى جانب المواد الأخرى

وفى الساعة الواحدة غادرت الباخرة أسوان عائدة ادراجها والسياح آسفون لمبارحتها وقد أحبوها حبا جما فوصلنا أسيوط فى ١٢ مارس وهنالك كانت نهاية الرحلة إذ كان مقررا أن تعود الباخرة إلى الأقصر مرة أخرى مع الباخرة « دندره » فى يوم ١٣ منه

وفى صباح ١٣ مارس رجعنا إلى القاهره .

وفى اليوم التالى قابلت سمو الخديو فاطلعته على نتيجة الرحلة وبمجمل حوادثها وقد سر جدا مما قمنا به للاحتفال بعيد ميلاده وكلفنى بكتابة مذكرة عنها . ثم قابلت اسكندر بك ريستوفيتش . وكانت قد عنت لى بعض الملاحظات على الشركة وبواخرها أبديتها للادارة فى إحدى الجلسات

# الفصل الثانى

**الرق فى الاسلام . الخديو واهتمامه بحلوان . نظارة مصطفى باشا فهمى تعيينى فى نظارة الخارجية . بين عباس ويوسف ضيا . بلوغ ولى العهد سن الرشد . متفرقات . وفاة المغفور له توفيق باشا . تحليل شخصية توفيق وسياسته**

---

**الرق فى الاسلام** . عقدت العزم منذ عودتى من باريس على أن أرد بالفرنسية على المزاعم التى وردت فى محاضرة الكردينال لافيچرى عن الرق فى كنيسة سان سولبيس بباريس ولقيت فكرتى استحسانا من جميع من حدثتهم عنها وخصوصا الجناب الخديوى. فأخذت بعد رجوعى من رحلة الشلال فى الاستعداد لتنفيذ هذا العزم ومراجعة المصادر التى تتعلق بالموضوع . وفى أكتوبر سنة ١٨٩٠ ذهبت إلى قلم منع تجارة الرقيق وقابلت رئيسه شيفر بك وطلبت منه بيانا بالرقيق الذى أعتق إلى الآن فأعطانيه مزودا بمعلومات أخرى من قنصلية انجلترا والكتاب الأزرق وهو مجموعة الوثائق الرسمية التى عرضت على البرلمان الانجليزى فى هذا الموضوع ، ولفت نظرى إلى النقط المهمة فيه .

ولما أتممت الرسالة عرضتها على سمو الخديو إجابة لرغبته من قبل، فأبدى ملاحظات على بعض النقط فأصلحتها وعرضتها عليه برمتها مرة أخرى بحضور دومرتينو باشا فأعجب بها وهنأنى .

وحدث بعد ذلك ان لقيت فى الخامس من نوفمبر الدكتور اباته باشا رئيس الجمعية الجغرافية فطلب منى أن ألقى محاضرة ، فعرضت عليه موضوع الرق فى الاسلام، ومع أنه كان كاثوليكيا فانه وافق عليه . ولا غرو فقد كان الرجل حر التفكير يرحب بمثل هذه المباحث الحرة .

وألقيت الرسالة فى دار الجمعية الجغرافية على دفعتين، الأولى فى ٢٩ نوفمبر والثانية فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٩٠ . وحضر القاءها كثير من عظماء الأجانب والوطنيين أذكر منهم على ذو الفقار باشا والغازى مختار باشا وأعضاء صندوق الدين ويعقوب باشا

أرتين وإسماعيل باشا الفلكى وونجت بك ولطيف بك سليم ومحمد بك شريف وحسن عاصم باشا وقاسم بك أمين وبعض القناصل الجنرالية وكثيرون غير هؤلاء من رجال القانون فى القضاءين الأهلى والمختلط كما حضرها كثير من القساوسة

وقد كتبت الصحف عن هذه المحاضرة وعن شعور الذين شهدوها . ونكتفى هنا بنقل ما كتبته الوقائع المصرية عنها بعد إلقاء الجزء الثانى منها فى عددها الصادر يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٠ . قالت : —

« وأقبل سعادة الدكتور اباته باشا فَفُوِّضَتْ اليه الرياسة . ثم سأل أعضاء الجمعية عما إذا كان عرض لأحدهم مناقشات أو ملاحظات عن الخطاب الذى ألقاه حضرة احمد افندى شفيق فى الجلسة السابقة . فنهض جناب الكونت زالوسكى ( العضو النمساوى فى صندوق الدين ) وقال انه يرى أن ماعزاه حضرة الخطيب فى عرض كلامه على تاريخ الرق إلى الديانة النصرانية لم يصادف الواقع ولم يصب المرمى، فانه جاء مباينا بالكلية لقواعدها الأساسية التى تأمر الناس بمعاملة بعضهم بعضاً معاملة الأخ لأخيه وتعرفهم بأنهم أخوة عند الله . فأجابه حضرة احمد افندى شفيق وقال : ان فى وسعه أن يعزز قوله من الأسفار التى نقل عنها(١) ثم استتبع كلامه من حيث أفضى اليه فى الجلسة السابقة فقال ماملخصه :

« ان الدين الاسلامى الحنيف لايبيح فى أى حال من الأحوال معاملة أحد من الناس معاملة الرق إذا كان أبواه مسلمين حرين ، ولا يكون الاسترقاق الا فى الحرب . ومع ذلك فهو مقيد بشروط وروابط معلومة منها أن يتم على وجه المقرر له ، ومنها أن يكون مع أقوام لايؤمنون بالله ورسوله على أنهم إذا رضوا بالاسلام ديناً أو دفعوا الجزية تخلصوا من ربقة العبودية »

ثم أيد الخطيب قوله بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار التاريخية ، وبعد ذلك انتقل إلى بيان معاملة الرقيق فقال: — ان الشريعة الاسلامية تأمر تابعيها بالتزام الرفق والرأفة مع المملوكين . واستشهد على ذلك بالمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) وكانت الفقرة التى اعترض عليها الكونت زالوسكى هكذا : « اما الديانة المسيحية فلم يثبت أن المسيح عليه السلام منع الرق قولا او عملا، ولم يأت فى الانجيل مايشير إلى ذلك . وعلى هذا المنهج سار الحواريون ورؤساء الملة المسيحية . بل ان القديس توما أثبت ان الطبيعة خصصت بعضاً من هذا النوع لأن يكون رقيقاً وبالغ القس بوفييه والقس ليون في ذلك حتى اعتبرا النخاسة تجارة مباحة »

فقد قال : ( اتقوا الله فى الضعيفين المرأة والمملوك ) وأمر ( ص ) بأن يلبس المملوك من لباس سيده ويتغذى من غذائه ولا يحمل فوق طاقته وإذا كان سيده مقترا فى معيشته فلا يسرى عليه ذلك

ثم ختم حضرة احمد افندى شفيق مقاله بايضاح أمر الزواج فأبان أن الكتاب الحكيم والأحاديث النبوية تبيح للسيد أن يتزوج مملوكته إذا اعتقها وأمهرها . ثم قال أين هذا من شريعة ( الفيزيجوتيين ) التى كانت تعاقب المرأة التى تعقد على مملوكها ولو كان معتوقاً بالحرق معاً . فصفق له الحاضرون طويلا وأعجبوا بمقاله كثيراً ،

ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى أعددت الرسالة للطبع وظهرت باللغة الفرنسية فلقيت رواجا كبيراً فى مصر واوربا ، وتلقيت عنها كثيراً من التقديرات والتهانى ، وهذه نبذ من بعض الرسائل الخاصة التى تلقيتها فى هذا الشأن :ـــ

بعث إلى الأستاذ فونك برنتانو برسالة جاء بها :

« طالعت ردك على الكردينال لافيجرى عن الرق فى الاسلام وانى لأهنيك من صميم قلبى على موضوعك هذا وعلى الأسلوب الذى نهجته لاخراجه . على أن بحثاً كهذا تكون له قيمته العلمية الكبيرة إذا استعان كاتبه بالشرائع والأحكام القانونية وعالج موضوعه فى ضوء الاشعة المنبعثة منها كما فعلتم أنتم فى رسالتكم هذه »

وكتب إلى مسيو بوكار أحد مديرى شركة قناة السويس يقول :ـــ

« انك فى مؤلفك هذا عن الرق تثبت بحذق ولباقة هذه الحقيقة ، وهى أن الرق عند جميع الشعوب الشرقية كانت له صبغة من الرفق لم تكن له فى اليونان ولا فى رومه

أما فيما يتعلق باحتجاجك على نظرية الكردينال لافيجرى فأرى أنك على صواب فيه وأن من حقك أن تدافع عن دينك وملكك . وانى أعدك بأن أنشر خلاصة وافية لمؤلفك النفيس فى الصحف الفرنسية

وأرسل إلى بعد ذلك قصاصات من هذه الجرائد فبعثت اليه بكتاب شكر

وجاءنى فى رسالة من رستم باشا سفير تركيا فى لندن مايأتى :ـــ

« ان مؤلفكم « الرق فى الاسلام » يقصد به التقرير بأن شرائع الاسلام ومبادئه تقر مطاردة الرقيق كما هو واقع ببعض أنحاء افريقية الداخلية . ان عملا كهذا لايمكن إلا أن يكون عظيم الفائدة فأنا أشكر لكم تكرمكم بالنسخة التى أهديتموها الىّ منه وسيكون من اكبر بواعث الارتياح لى أن أوزع النسخ الاخرى على بعض المؤلفين وغيرهم من الذين يلوح لى أنهم أهل لإذاعة موضوعه على الجمهور الانجليزى

وأرسل إلىّ مسيو مزمر رقعة جاء فيها :ـــ

« أهنئكم . إنكم على حق فى ردكم على معارضكم . ولو كنتم جعلتم ردكم هكذا ، رد مسلم على الكردينال لافيچرى ، لكان لهذا الرد صدى عظيم »

وأرسل الى المسيو رينو الاستاذ فى كلية الحقوق بباريس وأستاذى فى مدرسة العلوم السياسية بطاقة أثنى فيها على ما جاء بالنسخة المرسلة اليه ووعد بالكتابة عنها فى إحدى المجلات

وكتب الى الاستاذ أرتور رون، من الكتاب المعروفين الذين زاروا مصر سابقاً وقد تعرفت به فى باريس، رسالة جاء فيها :ـــ

« على أنى لايسعنى إلا أن أشهد بأن العمل الذى قمتم به ، وشعاركم فيه الصدق والاخلاص ، جاء فى نتائجه مطابقاً لكل ما كنت أسمعه أو ألاحظه بنفسى. وكثيراً ما كنت أسمع من أفراد أقاموا فى مصر منذ أربعين سنة أن الرق الأسود إنما هو نوع من الاستخدام بتعاقد عرفى لمدى الحياة يستطاع نقضه بسهولة وبطريقة لا تتنافى مع مبادىء الإنسانية، وأن الرق الأبيض إنما هو نوع من التبنى فى الغالب . وكثيراً ما يؤدى إلى الثروة وإحراز مراتب الشرف ، إلى أن قال :ـــ

« وعلى ذلك فالمماليك هم الذين ملأوا مدينة القاهرة بالأبنية الشامخة والقصور العجيبة التى اتجهت اليوم همة التنظيم العصرى عندكم إلى هدم بعضها وترك البعض الآخر ينهار أو يرمم ترميما سطحياً . وبذلك انتزع من مدينتكم ذلك الطابع الخيالى البديع الذى رسمت به هذه المبانى وكان مفخرة لها، وهو الطابع الذى أتيح لى أن أراه بنفسى سليما منذ ٢٦ سنة »

وكتب إلىّ الكولونيل شيفر :ـــ

« أنا فى غنى عن القول . أن كل مايتعلق بمسألة الرق له عندى أهمية عظيمة جدا ولا سيما متى كان الأمر مبسوطا بصراحة ونزاهة كما هى الحال فى مؤلفكم النفيس »

وفى رسالة من سعادة قره تيودورى افندى ممثل تركيا فى بروكسل :ـــ

« بناء على رغبتكم قد وزعت النسخ التى أرسلتموها إلىّ من كتابكم ماعدا واحدة منها احتفظت بها لنفسى . وإنه لمن المؤكد أنه لن يدهشكم أن تعلموا أن الذين يهتمون بهذه المسألة الخطيرة ـــ التى كثيرا ماأثارت الجدل العنيف ـــ هؤلاء قد قدروا مؤلفكم

العلمى النفيس أكبر تقدير . أما أنا فقد طالعته وأنعمت النظر فيه ولا يسعنى إلا أن أهنئكم به بكل إخلاص ومن صميم القلب. فقد كان من حسن حظى أن وجدت فى كتابكم هذا مايؤيد تمام التأييد النظريات والمبادىء التى جاهدت أنا فى سبيلها سواء كان ذلك أثناء المناظرة التى جرت شخصيا مع الكردينال لافيجرى أو فى أثناء مؤتمر بروكسل الأخير، علاوة على ماهنالك من البراهين القاطعة التى تضمنها مؤلفكم وكانت معارفى قاصرة دونها.وهى براهين تستند إلى تعاليم الاسلام وتقضى قضاء مبرما على جميع الحملات غير المشروعة المنافية للتعاليم المسيحية التى لم يتورع جماعة من رجال الكنيسة وأشياعهم عن توجيهها إلى ديانة هم يجهلون مبادئها وتعاليمها »

إلى أن قال — : « وليس لى ماأقوله فيما يتعلق بماجاء فى نشرة الجمعية الجغرافية وفى رسالتكم الى الاجبسيان غازيت (١) ولكن اليك بهذه المناسبة ما حدث لى شخصيا — فقد قدمت حكومة البرتغال مذكرة عن الغاء الرقيق والنخاسة فى مستعمراتها كان مما جاء فيها : — « انه لايزال فى مصر على رغم وجود الاحتلال الانجليزى سوق للنخاسة يلجأ اليها الخديو نفسه وكبراء البلاد وأعيانها لاقتناء الرجال الصالحين للعمل فى الحقول والخصيان الذين يحتاجون اليهم فى خدمة الحريم . »

وقد انبريت للرد على ذلك وبفضل الاحتجاج الذى قدمته وكان له وقعه وشأنه عند الحاضرين أزيلت هذه الفقرة وأمثالها من مجموعة أعمال المؤتمر وهو واجب أديته فخورا به وأكون سعيدا لوبسط الأمر عندسنوح الفرصة بين يدى الخديو »

أما الكردينال لافيجرى فانه لم يكتب لى شيئاً بعد أن أرسلت له نسختين من مؤلفى (٢)

---

(١) جاء فى مجموعة الجمعية الجغرافية ضمن الكلام عن المحاضرة اعتراض من الكونت زالوسكى الروسى ورددى عليه وكذلك نشرت جريدة الأجبسيان غازيت نقداً على ما جاء فى المحاضرة وقد فندت هذا النقد .

(٢) وقد أعلنت فى الصحف أشكر كل من يزودنى بمعلومات أوفى مما أتيت به فى شرح موضوع الرق فى الاسلام حيث قد عزمت على طبع الترجمة العربية بعد اضافتى ماعساه يصلنى من المعلومات اتماما للفائدة وكان لى أمل بأن حضرات العلماء لايبخلون على بآرائهم الثمينة ولكن بالأسف المزيد لم يصلنى شىء منهم أو من غيرهم .

وفوق ذلك أرسلت بمؤلفى الى جميع المكاتب فى البلاد الأجنبية للاطلاع عليه والالمام بأوامر الديانة الاسلامية فى هذا الصدد ولدحض افتراءات الجاهلين بها

وقد ترجم هذا المؤلف الى العربية بمعرفة صديق الأستاذ احمد زكى باشا شيخ العروبة وكذلك الى التركية بمعرفة صاحب جريدة اقدام التركية احمد جودت بك

**الخديو واهتمام بحلوان** . فى يوم ١٠ يناير افتتح تياترو حلوان الجديد الذى بنته شركة حديد حلوان (سوارس) وقد شهد الخديو وحرمه المصون حفلة الافتتاح تشجيعا وحثا للشعب على الاهتمام بهذه الناحية من الفن . فكان لذلك أثر عظيم فى مبادرة رهط كبير من الأعيان والكبراء للاشتراك فى الحفلة فشاهدت الألعاب . وكان من أحسن ما قدم من ضروب اللهو أن أقيم عمود ربط فى أعلاه منديل به نقود وطلى العمود بالدهن وجعل المنديل وما فيه مكافأة لمن يصعد اليه . وبعد محاولات عديدة تمكن واحد من أخذ المنديل وذلك بواسطة عقد مخصوصة على حبال صعد عليها . ثم سحبت أيضاً أوراق اليانصيب .

وكان سمو الخديو يهتم بمدينة حلوان ويؤثر السكنى فيها وكثيراً ما كان يحدث رجال معيته فى شأن تقدمها . وهو الذى أمر بتخطيط شوارع حلوان وتقسيمها الى أجزاء وزعها على كبار القوم فى مصر وموظفى المعية، ورغم وجودى فى ذاك الوقت فى باريس فقد حفظ لى قطعة لم يتيسر لى الانتفاع بها. ولقد قدم محمود فهمى باشا رئيس أقلام عربى المعية مشروعاً بتشكيل مجلس بلدى لحلوان فوافق عليه الخديو وصدر بالفعل أمر عال بتشكيله فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩١ .

وفى مساء اليوم التالى ذهب سموه الى تياترو حلوان ومعه الشيخ على الليثى وشوقى باشا ويوسف شهدى باشا، وعرضت ألعاب شائقة منها أن طفلة سنها ثمانى سنوات تقريباً ظهرت فى ميدان النادى فقامت بكثير من الألعاب على السلك حتى رأيت سمو الخديو يصفق لها استحساناً . ثم أحضر رئيس الجوق حقيبة وفتحها فخرجت منها طفلة تبلغ من العمر نحو خمس سنوات وأخذت تلعب مباشرة ألعاباً بهلوانية أدهشت الحاضرين . ثم عرضت أيضاً ألعاب خيال الظل .

**نظارة مصطفى باشا فهمى** . فى الثانى عشر من مايو سنة ١٨٩١ رفع رياض باشا استقالته الى سمو الخديو شفويا ثم كتابيا وبناها على أسباب صحية، ولكن الواقع كان غير ذلك فقد علمت من صديق محمود بك شكرى أن السبب الحقيق هو أن كتشنر باشا أصدر أمرا لرؤساء الأقلام فى الداخلية بأن يعرضا عليه جميع الأوراق أولا ثم

يرى هو ما يجب عرضه منها على رياض باشا وما لا يجب . وكذا وضع كتشنر وسكوت تقريرهما بالاتفاق معاً ورفعاه للخديو مباشرة دون علم الناظر المختص فاستاء رياض باشا لذلك أشد الاستياء واعتبر هذا التصرف ماساً بكرامته وكرامة البلاد . وقد قبلت الاستقالة وأرسل سمو الخديو لعبد الرحمن رشدى باشا وعرض عليه تأليف النظارة فاعتذر، فعرضها على مصطفى باشا فهمى فقبل وشكلت النظارة وكان ناظر الخارجية فيها تيجران باشا .

**تعييني بنظارة الخارجية .** عينت يوم ١٩ منه سكرتيرا خاصا خلفاً لعدلى بك يكن ( المغفور له عدلى باشا ) الذى رقى الى وظيفة أخرى . وقد كتب دومرتينو باشا حينما علم بتعييني الى ناظر الخارجية يوصيه بى ويقول فى رسالته :

« انى آسف لأن شفيق لم يستمر فى المعية لأن تربيته عالية وطبيعته جدية فضلا عن أنه كتوم للسر يمكن الاعتماد عليه . وإذا كان الخديو يحرم من خدماته فذلك لكى يفتح له طريق التقدم السريع »


تيجران باشا

ولما توجهت الى نظارة الخارجية استقبلنى تيجران باشا استقبالا حسنا . كذا لقيت من إخوانى الموظفين ترحيبا بى ومن محمد بك شريف السكرتير العام عطفا علىّ

وكتبت بهذه المناسبة الى دومرتينو باشا، وكان يومئذ بالاسكندرية، أحدثه عن تعييني بنظارة الخارجية وارتياحى لناظرها وحسن معاملته، وان كان العمل رغم ذلك يرهقنى مؤقتا لعدم خبرتى به كما أشرت مع الشكر والعرفان إلى العطف السامى الذى يشملنى به الخديو منذ حداثتى .

وأفهمته أن مستشار الحقانية يرغب فى توظيفى بهذه النظارة (١) . فرد علىّ يقول:

---

(١) وكان صدر الأمر العالى فى ٥ فبراير سنة ١٨٩١ بتعيين المستر جوستيس سكوت مستشاراً قضائياً لنظارة الحقانيه .

« لا تفقد شجاعتك ازاء الصعاب فكل جديد صعب .. وأنت ذو ذكاء وسيسهل عليك كل شيء فى القريب العاجل . ثم ان تعيينك بالخارجية خير من توظفك بالحقانية لان أقصى مايمكن أن تبلغه فى الحقانية بعدأمد طويل أن تصبح قاضياً بمرتب لا يتجاوز الستين جنيها . أما فى الخارجية فالمجال متسع للرقى واظهار المواهب ، وفى الحقانية يعلم الله وحده متى تظهر المواهب وهذا هو رأيى ورأى سمو الخديو ورأى محمود فهمى باشا وأن الجناب الخديوى لا يعارض مطلقاً فى تعيينك بالقضاء ولكنى أنصح لك بالبقاء فى الخارجية » .

**بين عباس ويوسف ضيا** . فى العاشر من يونيه سنة ١٨٩١ أقيمت الحفلة الراقصة السنوية فى سراى رأس التين وكانت هذه الحفله تقام مرتين ، فى الشتاء بقصر عابدين وفى الصيف برأس التين. وذلك بالنظام الذى وصفته فيما تقدم .وكانت اقامتها عندئذ عقب عودة البرنس عباس ولى العهد من أوربا . وانتدبت لاستقبال المدعوبين مع رجال التشريفات . ولما فتح المقصف طاف به البرنس عباس وكان قد دعانى لمرافقته فرأى بعض ضباط المعية المصريين ومنهم يوسف ضيا «باشا» قد انتحوا من المقصف ناحية وأكبوا على الشراب والأكل والضحك . فلاحظ عليهم أن الواجب يطالبهم بترك الأمكنة للمدعوين لأنهم هم من أهل البيت فرد عليه يوسف ضيا بقوله : « لما تبق خديو تبق تأمر وتنهى ! »على انه لم تمض غير بضعة أشهر تولى بعدها الحكم عباس

**بلوغ ولى العهد سن الرشد** — فى الرابع عشر من يوليه احتفلت البلاد احتفالا شائقا ببلوغ ولى العهد عباس تمام الثامنة عشر حسب التاريخ الهجرى وأهدى الامبراطور فرنسواجوزيف بهذه المناسبة إلى البرنس وشاح فرنسوا جوزيف وقدمه اليه قنصل عام النمسا فى استقبال فخم رسمى أقيم بسراى رأس التين وكذا أنعم الخديو على ولى عهده برتبة الفريق وبالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى . وأقيمت بهذه المناسبة مآدب عديدة ووزعت الأطعمة والصدقات .

## متفرقات .

الموظفون المدينون : فى ٤ ديسمبر سنة ١٨٨٩ قرر مجلس النظار عدم تعيين موظف بالحكومة تكون عليه ديون واشترط أن يستعلم عن ذلك قبل التعيين .

جمعية القوانين المقارنة : فى يوم ٥ ديسمبر سنة١٨٨٩. تسلمت رسالة من جمعية القوانين المقارنة بباريس تنبئنى بتعيينى عضوا فيها وترجونى عند قبولى ان أختار قسما من أقسامها الثلاثة ، وهى قسم اللغات الشمالية وقسم اللغة الفرنسية وقسم اللغات الشرقية . وان هذا التعيين قد صدر بناء على طلب الأستاذ رينو ولما علم سمو الخديو بذلك هنأنى بهذه الثقة .

التمثيل العربي بمصر : وفى ٧ منه شاهدت فى تياترو أبو خليل القبانى رواية أنيس الجليس، ولو أن التمثيل لم يكن متقنا ولم تكن فى ذلك الوقت جوقة موسيقية تمشى مع الأغانى كما هو الحال الآن إلا أن الرواية كانت فيها مواعظ جسنة

تشكيل المجلس البلدى بالاسكندرية : صدر الأمر العالى فى ٥ يناير سنة ١٨٩٠ بتشكيل هذا المجلس من ستة أعضاء من كبار الموظفين وهم المحافظ والنائب العمومى بمحكمة الاستئناف المختلطة ومدير عموم الجمارك ورئيس نيابة المحكمة الأهلية ومفتش الصحة ومفتش رى القسم الثالث وستة أعضاء أخر تنتخبهم الحكومة وستة ينتخبهم الاهالى وثلاثة ينتخبهم تجار الصادرات وثلاثة ينتخبهم تجار الواردات واثنين من أصحاب الأملاك .

رجوع ابراهيم ذوالفقار من فرنسا : فى الثالث من اكتوبر سنة ١٨٩٠ رجع ابراهيم بك ذو الفقار إلى القاهرة بعد أن أتم دراسته فى فرنسا فاستقبلته مع والده ذو الفقار باشا والأصدقاء .

تقاليد حفلة افتتاح المولد النبوى : وفى الثالث عشر منه كان افتتاح المولد النبوى وكنت بين المدعوين فذهبت إلى سراى الخرنفش فى الساعة العاشرة صباحا وهناك رأيت رجال الطرق يفدون إلى بهو السراى فيقرءون الفاتحة امام الشيخ الخضرى فرقة بعد الاخرى . ثم دخلت الديوان فوجدت كثيرا من العلماء والاعيان وقد اصطفوا وقوفا ثم تقدم السيد عبد الباقى البكرى شيخ مشايخ الطرق وأعطى الشيخ يسن شيخ الطرق الرفاعية ورقة كبيرة سماها الفرمان ( مع انها صادرة من محافظة مصر ) وسلمها هذا لشيخ آخر قرأها علانية امام الجمهور ومفادها افتتاح المولد .

وقد تناولنا طعام الغداء وانصرفنا حوالى الساعة الثانية .

انتداب فى الخاصة : وفى اليوم الثامن عشر أرسل لى شوقى باشا ناظر الخاصة الخديوية بعض أوراق للترجمة فذهبت إليه بعد الظهر، وهناك أخبرنى أن هذا التكليف من قبل الخديو وأن سموه أمر بحضورى غدا إلى الديوان ، الخاصة ، لأكون معه لأحضر

انعقاد لجنة المحامين المكونة من مسيو بيترى المستشار الخديوى ومسيو كارتون دوفيار المحامى للمناقشة فى أوراق تتعلق بتركة المرحومة توحيدة هانم افندى زوج داود باشا يكن. وفى الغد توجهت إلى الديوان وحضرت الجمعية وكنت أقوم بمهمة الترجمة بين المحامين وشوقى باشا.

استطلاع الخديو لأعمال المحاكم الأهلية : فى أواسط هذا الشهر قام الخديو بالتجوال فى بعض أنحاء الوجه البحرى لزيارة المحاكم الأهلية والوقوف على سير العمل فيها. وعند عودته إلى القاهرة فى يوم ٢٣ منه ختم هذه المهمة بزيارة محكمة الاستئناف الابتدائية وأقلام النيابة العمومية والكتاب وزينت دار الاستئناف لهذه المناسبة زينة فخمة.

وفاة شفيق بك منصور : بينما كنت فى الاوبرا فى يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٠ بلغنى نعى شفيق بك منصور أحد رجال القضاء الممتازين ونجل منصور باشا زوج بنت الخديو اسماعيل، فغادرت المكان متكدراً وَشُيِّعَتْ الجنازة فى اليوم التالى باحتفال مهيب مشى فيه رياض باشا وعلى باشا مبارك وثابت باشا وعبد الرحمن رشدى باشا وكثير من العظماء ورجال الحكومة والاعيان وأعضاء محكمة الاستئناف، وعلى الجميع أمارات الحزن العميق

رحلة الخديو فى الوجه القبلى : اعتزم سمو الخديو توفيق أن يقوم برحلة جديدة فى الوجه القبلى وأن يتفقد بنفسه شئون البلاد للمرة الثانية بعد الاحتلال. وبدأت هذه الرحلة فى يوم ٤ يناير سنة ١٨٩١ حيث غادر الخديو محطة العاصمة فى صباح هذا اليوم إلى إلى اسيوط ومنها الى سوهاج فالبلينا وادفو وارمنت واسوان وكوروسكو بطريق النيل. وقوبل أثناء الرحلة فى جميع البلاد التى مررنا بها بالحفاوة والمراسيم المعتادة ثم عدنا إلى العاصمة فى يوم ٨ فبراير

• زفة الفار : فى يوم ٧ يناير شاهدت أحد المناظر الشعبية المسماة «زفة الفار» وهى عبارة عن احتفال اعتاد العامة إقامته فيجتمع فيه الرجال والنساء والاولاد بكثرة ويهللون ويصيحون ويأتون ضروباً كثيرة من المجون والخلاعة ويخترقون الشوارع حيناً على هذا النحو المبتذل (١)

حريق سراى عابدين : فى يوم ٢٣ يوليو شبت النار فى سراى عابدين وظهرت أولا فى الجناح الذى كانت تشغله الخاصة فلم يمض ساعتان حتى دمرته تدميراً ثم اتصل اللهب

---

(١) وقد ابطلت هذه العادة

بقاعة المائدة فانصرفت الهمة إلى فصلها عن بقية السراى بفتح هوة خلاء بينها وبين بقية الأجنحة ، وتم ذلك بواسطة الديناميت وضرب الفؤوس والمعاول . وكان رجال جيش الاحتلال جميعاً بين جنود وضباط وموظفو الحكومة وقواد الجيش المصرى ورجاله يساعدون فى مكافحة النيران

وقد بلغنى نبأ الحريق وأنا فى نظارة الخارجية فأسرعت إلى السراى وكان أول ماخفت عليه المكتبة الخصوصية التى كانت فى السلاملك ، مكتبة الخديو ، فاستحضرت فى الحال بعض الخدم ونقلت كل ما فى المكتبة من خرائط وكتب وغيرها إلى مكان أمين بعيد عن الحريق وساعدنى فى ذلك جيّاردو بك الموظف بنظارة الحقانية . وبلغ ذلك مسامع البرنس عباس حين حضوره فى اليوم التالى للحريق لزيارة العاصمة ورؤية ماحل بالسراى . فلما عاد إلى الاسكندرية أبلغ والده وعلى أثر ذلك وصلتنى برقية من البرنس عباس يبلغنى فيها شكر سمو الخديو ويأمرنى أن أبلغ هذا الشكر إلى جياردو بك

ولم تعد سراى عابدين صالحة لسكنى الخديو هذا العام فأعدت سراى حلوان ليقضى سموه فصل الشتاء بها وظهر بعد ذلك من تقدير خسائر الحريق أنها تبلغ نحو ثلاثين ألفاً من الجنيهات

**مهمة من قبل البرنس عباس** . فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٩١ وصلتنى رسالة من ولى العهد بعد رجوعه من مصر إلى دراسته فى فينا يقول لى فيها انه مضت مدة كبيرة لم تصلنى منك رسالة وأرجوك أن تبحث فى نظارة الأشغال عن خرائط لمنطقتى طوخ وادفينا وعما إذا كانت هناك خرائط جديدة للقاهرة والاسكندرية والمدن الهامة وختم خطابه بما يشعرنى بالاحترام

فذهبت إلى رافون بك مدير قلم الرسم بنظارة الاشغال وفهمت منه أن إعداد الخرائط المطلوبة لايمكن قبل مضى شهرين لأنه سيكاف أحد المهندسين برسمها وأنه يمكن فى أثناء هذه المده أن يستعين البرنس بخريطة الوجه البحرى من عمل محمود باشا الفلكى .

أما خرائط المدن الهامة فان جران بك مدير المبانى بنظارة الأشغال وعدنى باعدادها وإرسالها إلى البرنس عند تمامها بعد أن يضيف إليها خريطتى القاهرة والاسكندرية القديمتين لأنهما لم يجددا بعد . وقد شرحت للبرنس فى ردى هذه المعلومات .

ولما أعدت الخرائط فى شهر ديسمبر بعثت بها إلى سموه .

# وفاة المغفور له توفيق باشا

مرض توفيق باشاً مرضاً لم يمهله إلا أسبوعا ، ابتدأ ببرد ثم تحول الى نزلة وافدة حادة . وتولى علاجه الدكتور عيسى باشا حمدى طبيبه الخاص والدكتور سالم باشا وبذلا لانقاذه كل ممكن، ولكن ذلك لم يرد عنه سهم القضاء فاشتدت عليه وطأة المرض فى ظهر يوم ٧ يناير سنة ١٨٩٢ اشتدادا ينذر بالخطر وهرع إلى سراى حلوان قنصلا فرنسا وروسيا . وفى الساعة الرابعة حضر النظار والسير بارنج (لورد كرومر) وفى الساعة الخامسة فاضت روحه إلى بارئها . فالتأم مجلس النظار فى الحال بحلوان وحضر الاجتماع السير بارنج . ولم يتقرر فى ذلك الاجتماع إخبار الاستانة رسمياً بالنبأ المشئوم ولكن أرسلت البرقيات الى السلطان من جهات أخرى غير رسمية حتى يمكن اتخاذ التدابير اللازمة

وعاد مجلس النظار إلى الاجتماع فى صباح يوم ٨ يناير بعابدين وحضر الاجتماع جرانفيل باشا السردار وكتشنر باشا مدير الضبط والربط فتقرر أن يكون تشييع الجنازة بالملابس الرسمية وأن تحمل جثة الفقيد من حلوان إلى عابدين عند الظهر . وأن يبدأ مشهد الموكب فى الساعة الثانية . وبعثت الحكومة بالخبر رسمياً إلى الباب العالى وأبلغ سعادة تيجران باشا ناظر الخارجية إلى القناصل وقوع المصاب وأطلقت مائة مدفع من القلعة إعلانا للحداد العام .

ولبست البلاد كلها ثوب الحداد وحزن الشعب كل الحزن على فقد أمير كان يحبه .

وفى نحو الساعة الأولى بعد الظهر وصل إلى محطة باب اللوق القطار الذى يقل النعش وكان يرافق الجثة البرنس حسين كامل وبعض رجال التشريفات وغيرهم . ثم حمل النعش بواسطة ضباط الحرس وسار أمامه البرنس حسين ومختار باشا الغازى المندوب السامى العثمانى والنظار ورجال المعية وغيرهم حتى وصلوا إلى سراى عابدين .

فدخلوا بالنعش من باب التشريفات الصغير ثم خرجوا به من الباب الكبير وسار الموكب يضم النظار وممثلى الدول والعلماء والأمراء والرؤساء الروحانيين وكثيرا من وفود الأقاليم والجموع الكثيرة من الشعب . وأذكر أنه كان من الهيئات المشيعة جماعة الماسونيين لان المتوفى كان ماسونياً، فاجتازت الجنازة شارع عبدالعزيز فالموسكى



تشييع جنازة المرحوم توفيق باشا

حيث صلى على الفقيد فى المشهد الحسينى . ثم وورى فى مقبرة العفيفى بين مظاهر الحزن العميق من جميع الطبقات .

وفي يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٢ قدم الدكتوران هيس وكومانوس اللذان دعيا في آخر لحظة للكشف على الفقيد تقريراً إلى مصطفى باشا فهمى خلاصته :

انهما قصدا حلوان فى يوم ٧ منه لعيادة الخديو وسألا الدكتور سالم باشا عن الحالة فأجابهما بأن الخديو مصاب بالنزلة الوافدة منذ ثمانية أيام وأن الحمى لم تشتد وطأتها إلا فى يوم ٦ يناير وأن سموه كان يعانى الأرق وضيق التنفس وآلاما فى الجنب الأيسر وأنه أعطيت له حقنة من المورفين .

ولما دخلا بعد هذا التعريف وجدا الخديو فى حالة مقلقة يبدو عليه التعب والشحوب وضيق التنفس . وكانت الحرارة بلغت ٤٠ درجة فلاحظا رشحاً شُعَبِيّاً فى الرئة اليسرى ولكن لم يكن هذا يبرر الاعراض المخية التى شاهداها لأن الخديو لم يكن يبصر ما حوله ولذلك سألا عن حالة البول فأجيبا بأنه عادى وبعد التشخيص وصفا الدواء وعادا للقاهرة ثم رجعا ثانية بعد الظهر فوجدا الحالة أشد ووصلت الاعراض المخية إلى درجة خطرة فعرفا أن هناك تسمما فى البول سيما وأنهما عند دخولهما عرفتهما إحدى السيدات أنه لم يبل من يومين فألحا فى طلب معاينة البول فأدخلا مبضعاً وتحصلا على كمية صغيرة من البول قاتمة اللون فحللاها وعندها اتضح وجود كمية عظيمة من الزلال وعرفا طبيعة الداء وهو أن الجناب العالى بعد إصابته بالنزلة الوافدة أصيب بالتهاب رئوى مصحوب بالتهاب وريدى عفن أيضاً . فلم يبق لهما أى أمل فى الشفاء ولكنهما عملا كل ما يمكن فلم يمنع ذلك سهم القضاء .

ومن المعلومات الخصوصية أن عيسى باشا حمدى كان هو الذى يعالج الفقيد أما سالم باشا فكان يعوده فقط ويأمر بالعلاج اللازم ولكن لم يكن يُعمل به ويعزى ذلك لثقة حرم الخديو بالأول .

## تحليل شخصية توفيق

كان محباً لبلاده ، عاملا لتقدم الشعب وإسعاده ، يقاسمه السراء والضراء ؛ فهو أول من تنازل من أعضاء الأسرة الخديوية عن جفالك ، أطيانه ، لدفع الدين المطلوب من الحكومة

وكان مهتماً بنشر التعلم مذ كان ولياً للعهد حيث أوفد بعثة لتلقى العلم فى مدرسة المبتديان ، وأنشأ مدرسة القبة . فلما ولى الأمر أسس المدرسة العلية كل ذلك على نفقته الخاصة

وهو الذى جنح إلى تمصير قيادة الجيش تدريجياً . فمنح الضباط الثلاثة المصريين ( أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى ) قيادة ثلاثة آلايات وكانت من قبل وقفاً على الأتراك والجراكسة

ولما أشار الانجليز على سموه بالالتجاء إلى إحدى المدرعات قبل البدء فى تدمير الطوابى أبى قائلا ان الواجب يقضى عليه أن لا يترك أمته وقت الخطر كما شاطرها وقت السلم

ولما علم بانتصار الانجليز فى التل الكبير عز عليه أن يتم توطيد عرشه على يد الأجانب وعلى حساب بلاده ومذلة شعبه ولذا تساقطت الدموع من عينيه

ومَنْ الذى لا يعجب بوطنيته الصادقة حينما يعلم أنه عند ما تفشت الكوليرا فى البلاد غامر سموه رحمه الله فزار مرضاها فى المستشفيات مواسياً ومعيناً رغم نصيحة الناصحين بعدم المخاطره بصحته الغالية

أما خلقه فقد كان الديموقراطية الدمثة إذ كان يجالس حاشيته فيتخذ منها بطانته وأصدقاءه لا فرق بين كبار الموظفين وصغارهم . وكان يأذن لهم أن يرسلوا النفوس فى حضرته على سجيتها وأن يدخن منهم من يدخن حين يكونون فى وقت النزهة

وكان رحمه الله شغوفاً بالاطلاع على جلائل أمور الشعب ودقائقها حتى أنه فتح أبوابه يستقبل زائريه فيتحدث معهم فيما يهمهم من الشئون . كما كان يتتبع ما تكتب الصحف بعناية ودقة

أما أداء الفرائض فكان يقوم به على تقوى الله . يصوم ويصلى ويأمر بالصلاة والصوم ويعاتب على تركهما ويثيب على فعلهما . وهو أول من قام بأداء فريضة الجمعة فى المساجد

روى لى زميلى محمد طاهر بك المترجم الانجليزى القدير أن الخديو قال له : « أنت عامل انجليزى لا تصوم ولا تصلى فانى لم أشاهدك قط فى صلاة الجمعة فأنصحك أن تقوم بفرائض دينك يفتح الله عليك » فلما رآه بعد ذلك فى صلاة الجمعة بالمسجد دعاه إلى السراى ورضخ له رضيخة من المال ثم ابتسم وقال له : « أرأيت كيف فتح الله عليك ! »

وتجنب رحمه الله الاسراف . على أنه كان جواداً محسناً يعطى بيده لمن يتوسم فيه الحاجة . قال لى بعض ياورانه إنه كان يستدعى أثناء تنزهه على شاطىء البحر بعض صيادى الأسماك فاذا علم منهم أنهم لم يصطادوا شيئاً ينقد كل واحـــد منهم جنيهين

ليشتروا أقوات عائلاتهم فكانوا يدعون له قائلين: «ربنا يحنن عليك يا افندى!» لأنهم لم يكونوا يعرفونه

وكان يرسل المعونة سراً إلى من يستحقها دون أن يعلم هؤلاء المستحقون مصدرها

وكان عفيفاً معتدلا فى شهواته لم يتزوج غير واحدة ولم يتخذ الخليلات والسرارى. وكان لا يميل إلى الغدر حتى بألد أعدائه (١)

وكان قنوعاً اكتفى بما حدد لنفسه من المخصصات. وقد أراد الانجليز أن يبيعوه حديقة القبارى وما إليها من الأراضى الزراعية الشاسعة بمبلغ يسير من المال وأن يبيعوه كذلك قصر الجزيرة وملحقاته بعشرين ألفاً من الجنيهات مع أن مصاريف بنائها أربت على ٨٩٨٫٠٠٠ جنيهاً مصرياً فأبى خشية أن يقال عنه إنه يستغل مركزه

هكذا كان خلق الفقيد

# سياسة توفيق

صدق اسماعيل فى قوله لتوفيق ساعة الوداع: — «كنت أود يا أعز البنين لو استطعت أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن تسبب لك ارتباكا على أنى واثق بحزمك وعزمك». حقاً أن اسماعيل ترك البلاد فى حالة سيئة؛ فالمالية كانت على شرف الأفلاس، والادارة مختلة والقضاء فوضى، والفلاح فى فقر مدقع بعد أن ترك أرضه هرباً من زبانية اسماعيل صديق «المفتش» الذين كانوا يرهقونه بجمع الأموال التى لا حد لها

ولقد أرسل توفيق عند توليته لشريف باشا خطاباً قال فيه إن لديه واجبات يريد النهوض بها بأمانة مع علمه بمقدار صعوبتها بسبب ارتباك الحالة المالية ووقوف حركة التجارة وقوفاً لم يقع مثله فى مصر من قبل، وأنه عازم على بذل الجهد لازالة هذا الاختلال المفسد لكثير من المصالح، وذلك بالاقتصاد فى نفقات الحكومة وإصلاح شئون الهيئة القضائية والادارية

ولقد فكر بادىء بدء فى إقصاء الأجانب عن التدخل فى شئون البلاد الداخلية، فقال لمكاتب التيمس عقب توليته إنه لا يرغب فى إعادة النظار الأجانب وأنه معتزم

---

(١) راجع صفحة (١٤٣)

السير فى الاصلاح بأمانة وإخلاص . . . . . . . . . . . . . . . . . .

ولكن هذا لا يمنع من استخدام الأجانب كمرشدين لا مسيطرين . وبالفعل فانه لما رجعت المراقبة الثنائية اشترط الخديو توفيق أن تنحصر أعمال المراقبين فى البحث والتنقيب دون التدخل فى الأعمال الادارية والتنفيذية

ولم تكن سياسة توفيق دستورية بدليل استقالة نظارة شريف باشا بسبب آرائها الدستورية وعدم موافقة توفيق عليها ؛ لأنه كان يرى أن ليس من السهل انتقال الشعب من حكومة فردية محضة إلى حكومة دستورية نيابية طفرة من غير تدرج . ولكن لما افتتح مجلس النواب فيما بعد قال إنه كان يفكر فى دعوة المجلس منذ تولى الحكم لو لا الظروف التى أحاطت بالبلاد. وفى الحقيقة أنه لم يكن راغباً فى هذا المجلس لأسباب ذكرت بصفحة (١٢٨)

ولم تكن سياسته استبدادية بدليل أنه لما خلف رياض باشا شريفاً أرسل له الخديو خطاباً قال فيه إن مبدأه أن يحكم البلاد مع النظار وبمجلس النظار. وبناء على هذا المبدأ انضم للأغلبية من النظار فى محاكمة العرابيين

ولقد بر توفيق بوعوده إذ أجرى كثيراً من الاصلاحات الادارية ؛ ومن أهمها أنه أمر بتشكيل لجان للنظر فى ترقية التعليم ونشره، وإصلاح القضاء الأهلى، وحدد مواعيد دفع الضرائب ، فاستراح الفلاح وعرف كيف ينظم حياته المالية ، وبدأ يشعر أن أرضه أصبحت ملكا له فأقبل عليها يستغلها بعد أن كان يهرب منها أيام اسماعيل

كما أجرى كثيراً من الاصلاحات المالية ؛ منها أنه اكتفى بمبلغ مائة ألف جنيه مصرى لمخصصاته سنوياً ، وألغى مخصصات والدته وحرمه . أما سلفه فكانت المالية تحت تصرفه

وقد صدر فى عهده قانون التصفية فنظمت به الديون ووجدت الثقة عند الدائنين ، وترتب على ذلك أن ارتفع سعر الموحد ارتفاعاً كبيراً بعد أن تدهور فى أواخر حكم اسماعيل إلى ستة وأربعين جنيهاً

وأن ميزانية الحكومة بعد أن كانت لا تفى بفوائد الديون قامت بدفعها ودفع نفقاتها فى سنة ١٨٨٠ وبقى لها مبلغ ٦٦٦٩٩٧ جنيهاً مصرياً بصفة احتياطى لأول مرة

ولقد زادت الصعوبات عند اشتداد الثورة العرابية فاستغل هذا الموقف اسماعيل وحلم والدولة العثمانية كما مر ذكره . وزاد قلق توفيق عند ما أراد عرابى الايقاع به

ليقتله أو يعزله فالتجأ إلى انجلترا فى إخماد الثورة وساعدها على ذلك بعد ما فشلت مساعيه لدى السلطان بطلب إرسال جنود تركية ، وعند ما خابت آماله فى أن تنضم فرنسا إلى انجلترا فى إخماد هذه الثورة حتى إذا ما تم لهما ذلك انسحبتا من مصر معاً

وعند ما طلبت انجلترا إخلاء السودان وأشيع أن الخديو عازم على الاستقالة حادثه مراسل التيمس فى هذين الموضوعين فقال له : « إننى لم أكن أفكر فى منصب الخديوية وإن أحسن أيامى أيام أن كنت بعيداً عن هذا المنصب، وأنى لم أقبله إلا قياماً بالواجب نحو أبى ووطنى مسترشداً بنصائح المراقبة الثنائية ونصائح انجلترا . وأن أمامى واحدة من ثلاث خطط للحكم : إما إتباع هذه النصائح ظاهراً والعمل على محاربتها فى الخفاء . أو إطاعتها إطاعة عمياء . أو أناقش نصائحها بكل صراحة وأبدى آرائى فيها فاذا قبلت كان بها وإلا فأنا مضطر لقبولها . وقد اتبعت فى الحكم الطريقة الأخيرة فاعتبرت ضعيفاً فهل كان يمكننى أن أقاوم للنهاية ؟ » لهذا فانه أخذ بنصائحهم حتى فى مسألة إخلاء السودان خوفاً من شبح الثورة الآتية من الجنوب كما أفهموه .

وقد استمرت هـــذه الصداقة حتى آخر أيام حياته فكان بذلك موضع ثقتهم واحترامهم . فرحمة الله عليه

# كشف

## عن بيان الأغلاط التى وقعت فى هذا الجزء وصحتها

| سطر | صحيفة | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ٢١ | ٧٣ | نفسا | نفسها |
| ٤ | ٨٠ | بكتيني | بكتيني |
| ١٧ | ٨٧ | الأربع | الخمس |
| ١٩ | ٩٧ | البرية | البرية |
| ٢٣ | ١٠١ | تقرير | تقريره |
| ٢٢ | ١٠٢ | فوقف | وقف |
| ٨ | ١٠٣ | للدين | للذين |
| ٥ | ١٠٥ | ١٧ | ١٩ |
| ١٤ | ١١٠ | بالشاة | بالشاه |
| ٣١ | ١١٣ | عنه | — |
| ١٠ | ١٣٨ | تقهقر | تقهقرا |
| ١٤ | ١٩٦ | يعلنون | يعلنان |
| ١٧ | ٢١٣ | فيها القاهرة | في القاهر |
| ١٨ | ٢٣٩ | أزيورن | ازيورن |
| ١٧ | ٢٤٦ | استراليا | النمسا |
| ١٢ | ٢٤٩ | تبعية | تبعة |
| ٣-١٧ | ٢٥٠ | دوفريسنيه | دوفريسينيه |
| ٤ | ٢٥٢ | صفر | صفير |
| ٣ | ٢٥٧ | النقلقل | التغلغل |
| ٢٨ | ٢٥٧ | البوليس من يقوم | البوليس يقوم |
| ١٢ | ٢٥٨ | صراح | سراح |
| ١١ | ٢٥٩ | بنظار | بنظارة |
| ٥ | ٢٩٧ | ذو الفقار | ذى الفقار |
| ١٠ | ٣١٩ | يصحبه | يصحب |
| ٢٠ | ٣٢٤ | على | الي |
| ١٨ | ٣٢٥ | باللاعبين | باللاعبين |
| ٢٢ | ٣٢٥ | قطعة | قطعه |
| ٢١ | ٣٢٧ | احد | احدى |
| ٧ | ٣٤١ | تحدثنا | فتحدثنا |
| ٥ | ٣٥١ | موسيقية | موسيقية |
| ٥ | ٣٥٤ | استمرت | استمر |
| ٢٥ | ٣٦٩ | رافقتها | رافقتهما |
| ٢ | ٤٥١ | جلبايا | جلبابا |
| ١٩ | ٤٨٨ | وفيها | وفيه |
| ٤ | ٤٩٣ | النباذج | النيازك |
| ٢ | ٤٩٤ | عاطين جوادين ايضين | جوادين أبيضين وعاطين |

